دراسات في الأدب والشعر

تاريخ الأدب العربي
من العصر الجاهلي إلى نهاية العصر الأموي

الأستاذ الدكتور

إبراهيم عوض

دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع
دار الجديد للنشر والتوزيع
1442هـ - 2021م

810.9

إ . ع

عوض، إبراهيم.

دراسات في الأدب والشعر / تاريخ الأدب من العصر الجاهلي إلى نهاية العصر الأموي أ.د/ إبراهيم عوض .- ط1.- دسوق : دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع ، دار الجديد للنشر والتوزيع.

403ص ؛ 25*17.5

تدمك : 8 – 770 -308 -977 -978

1. الأدب العربي – تاريخ ونقد.

أ. العنوان

رقم الايداع: 14174

الناشر : دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع

دسوق - شارع الشركات- ميدان المحطة – بجوار البنك الأهلي المركز

هاتف- فاكس : 0020472550341 محمول : 00201277554725-00201097564757

E-mail: elelm_aleman2016@hotmail.com & elelm_aleman@yahoo.com

الناشر : دار الجديد للنشر والتوزيع

تجزءة عزوز عبد الله رقم 71 زرالدة الجزائر

هاتف : 24308278 (0) 002013

محمول 661623797 (0) 002013 & 772136377 (0) 002013

E-mail: dar_eldjadid@hotmail.com

2021

الفهرس

المقدمة

هذا كتاب فى تاريخ الأدب العربى يغطى العصر الجاهلى والعصر الإسلامى والعصر الأموى جميعا، وأرجو أن يطيل الله فى عمرى ويبارك جهدى ويهبنى القوة اللازمة لإنجاز ذلك التاريخ فى باقى العصور. وقد استفدت، كما لا يحتاج الأمر منى إلى قول، من كتب تاريخ الأدب السابقة استفادة واسعة ليست وليدة اليوم فحسب، بل منذ كنت طالبا. ولولا تلك الكتب وغيرها مما يرتبط بأدبنا وتاريخه ما استطعت إنجاز هذا المجلد الذى بين يدى القارئ بل لما فكرت أصلا فى القيام بتأليفه.

على أن هذا لا يعنى أننى احتذيت على مثال الكتب السابقة فى هذا المجال، وإن جاءت الخطوط العامة بينى وبينها واحدة فى كثير من الأحيان، بل كان لعملى سماته الخاصة. فمن ذلك مثلا أن هذا العمل لا يطيل القول فى المهاد التاريخى لكل عصر، بل يكتفى بالصورة الكلية التى تعطى القارئ فرصة لتصور ذلك العصر ـ فى شموليته بحيث يسهل عليه وضع الشعراء والناثرين فى سياقهم التاريخى دون إثقال كاهله بتفصيلات وتوسعات لا تهمه كثيرا. كذلك لم أهتم بالترجمة لمن أتناول إبداعاتهم الأدبية بل ركزت على الإبداعات ذاتها مع تطعيم الكلام ببعض لمسات هنا وبعض لمسات هناك تقرب صاحب الإبداع إلى القارئ. وفى المقابل حرصت على أن تكون استشهاداتى الشعرية والنثرية كثيرة وطويلة بقدر الإمكان كى تساعدنى النصوص على تجلية أصحابها تجلية قوية.

وبالمثل يجد مطالع كتابى هذا أيضا تحليلات مطولة لكثير من النصوص التى استشهدتُ بها للشعراء والناثرين. ثم إننى، رغم استفادتى ممن سبقونى من المؤلفين إلى كتابة تاريخ الأدب العربى، لم أردد الآراء التى قال بها أولئك الأساتذة الأجلاء، بل كنت حريصا على النظر بعينى أنا إلى كل صغيرة وكبيرة. ولسوف يجد القارئ فى

كثير من مواضع الكتاب رؤية جديدة ونكهة طريفة، ويقابل تحليلات مفصلة ومرهقة لقضايا تنوولت من قبل بإيجاز، ومن زاوية تختلف عن الزاوية التى تناولتها منها، وبباصرة غير الباصرة التى رأيتها بها، فضلا عن القضايا التى لم يسبق لكتب تاريخ الأدب أن عالجتها، ومن ثم كانت النتائج التى توصلت إليها غير مسبوقة فى غير قليل من الحالات. والله ولى التوفيق والسداد.

العصر الجاهلي

العرب وبلاد العرب:

تقع بلاد العرب فى الجنوب الغربى من قارة آسيا، وتطل على ثلاثة بحار هى الخليج العربى والمحيط الهندى والبحر الأحمر. ويطْلَق عليها: «شِبْه الجزيرة العربية». والأغلبية الساحقة من بلاد العرب صحارى قاحلة، إذ لا توجد بها أنهار أو خُلْجان، بل سُيول فقط فى بعض المواسم تضيع كثير من مياهها بين الرمال مكونةً الآبار الجوفية. ولهذا لا توجد زراعة تُذْكَر فى تلك البلاد، اللهم إلا فى بعض الواحات، التى تعتمد فى سَقْى حقولها وبساتينها القليلة على تلك الآبار غالبا، أو فى بعض المناطق التى تعتمد على السدود كما فى اليمن مثلا حيث قامت قديما بعض الدول الشهيرة مثل دولة سبإ. وكان معظم العرب، وهم سكان البادية، يشتغلون فى تلك الأزمان بالرعى ويتنقلون باستمرار بحثا عن الكلإ والآبار لإطعام مواشيهم وسقيها. وكانت المعارك تثور بينهم من أجل ذلك إذا ما اصطدمت قبيلتان حول مرعى أو بئر تريد كل منهما الفوز به لنفسها. كما قامت فى الشمال الشرقى والشمال الغربى فى الفترة التى سبقت ظهور الإسلام دولتان هما دولة المناذرة ودولة الغساسنة. وظهرت فى وسط شبه الجزيرة العربية قبيل الإسلام أيضا بعض الممالك الصغيرة كمملكة كندة، التى كان آخر ملوكها الشاعر الجاهلى المشهور امرأ القيس.

ولم يكن لعرب البادية قبل الإسلام دولة تضمهم جميعا فى بوتقة واحدة، بل كانوا منقسمين إلى قبائل لكل قبيلة شيخها، الذى يحكمها حسب الأعراف والتقاليد، فتُسْمَع كلمته. وكانت القبيلة تتكاتف فيما بينها وتهبّ يدا واحدة لمحاربة أعدائها، ويتناصر أفرادها بالحق والباطل دون اعتبار لعدل أو ظلم، إذ كان لسان حالهم هو «انصر أخاك ظالما أو مظلوما»، وهو ما يسمى بـ«العصبية القبلية». وقد عبر الشعر الجاهلى عن هذا الاتجاه، فقال دُرَيد بن الصِّمَّة:

وَهَلْ أَنا إِلَّا مِن غَزِيةَ؟ إِنْ غَوَتْ ... غَوَيتُ، وَإِن تَرْشُدْ غَزِيةُ أَرْشُدِ

وقد ظلت هذه العصبية الذميمة غالبة مكتسحة إلى أن جاء الإسلام، فوضع الرسول لها حدا أوقف نموها واستشراءها إلى مدى بعيد، إذ بَين عليه السلام أن نصرة الأخ ظالما لا تكون بمعاونته على ارتكاب الظلم بل بمَنْعِه من اجتراحه. أما إن خرج على القبيلة خارج من أفرادها فإن القبيلة تخلعه وتنبذه، فتسقط عنه الحماية، ويصير مهدر الدم ويعيش طول عمره مهددا فى حياته. ومن هؤلاء مجموعة من الشعراء يسَمَّوْن فى تاريخ الشعر الجاهلى بـ«الشعراء الصعاليك». كما أتى الإسلام بأول دولة تضم العرب جميعا: بَدْوهم وحَضَرهم،ثم صارت تضم العرب وغير العرب حتى أصبحت إمبراطورية عالمية تشتمل على كثير من الأجناس والقوميات والثقافات واللغات التى انصهرت فى الإسلام واللغة العربية. ولم تكن بلاد العرب الصحراوية الفقيرة مما يغرى العالم الخارجى بالوفود عليها والاختلاط بأهلها، لكن كان للعرب رغم ذلك اتصالاتهم بهذا العالم الخارجى عن طريق القوافل التى كانت تذهب وتعود محملة بالأقمشة والأسلحة والخمور والعطور والتوابل.

وكان معظم العرب الجاهليين فى الفترة التى سبقت الإسلام يدِينون بالوَثَنِية، وكان لكل قبيلة وَثَنُها. وكانت معابد الأوثان منتشرة فى شبه الجزيرة العربية، وكان لكل معبد كاهن أو كاهنة. وكان الناس يقصدون هؤلاء الكُهّان لتقديم القرابين للأوثان ولاستطلاع الغيب، إذ كانوا يظنون الكهان قادرين على اختراق حُجُبه عن طريق الجن والشياطين، وهو ما سَفَّهه الإسلام وألغاه، مبينا أن الغَيب لا يعلمه أحد سوى الله. وليس معنى هذا أن العرب لم يكونوا يؤمنون بالله سبحانه، بل معناه أنهم كانوا يؤمنون معه بالأوثان، ويعتقدون أنها تتوسط بينهم وبينه وتقرِّبهم منه، وأنهم بدونها لا يستطيعون أن يصلوا إليه ولا أن يستجيب لهم. بل لقد كانوا يعُدّون بعض الأوثان والملائكة بناتٍ له. أى أنهم كانوا مشركين رغم إيمانهم بالله.

وكان هناك، إلى جانب الوثنيين، يهود ونصارى، كما كان من العرب من لا يزال يحتفظ بتوحيد إبراهيم وإسماعيل، اللذين بنيا الكعبة لعبادة الله الأحد. إلا أن

الغلبة الساحقة كانت للوثنية. ومع هذا نجد لويس شيخو اللبنانى يضع كتابا بعنوان «شعراء النصرانية فى الجاهلية» يزعم فيه أن كل شعراء العرب الكبار قبل الإسلام كانوا يدينون بالنصرانية. لقد جعل امرأ القيس وزهيرا والنابغة والأعشى وعنترة وغيرهم وغيرهم نصارى أحيانا دون أى سند من حياتهم أو شعرهم،وأحيانا لمجرد أنهم أشاروا عَرَضًا إلى شيء يتعلق بالنصرانية ليس لهم صلة به. وكان من نتيجة ذلك أن سخر منه ومن صنيعه مارون عبود الكاتب النصرانى اللبنانى قائلا: «سمعنا بكِتَاب «شعراء النصرانية» فاستقدمناه، فإذا هو لهذا العلامة الجليل لويس شيخو، وإذا كل من عرفناهم من شعراء جاهليين قد خرجوا من تحت سن قلمه نصارى. كان التعميد بالماء، فإذا به قد صار بالحبر». كما هاجم صنيعه هذا أنستاس الكرملى فى مجلة «المقتبس» عام 1907م، ساخرا من تنصيره السموأل اليهودى وجَسّاس بن مُرّة والحارث بن حِلِّزَة وامرأ القيس وعلقمة الفحل وعروة بن الورد وطَرَفة بن العبد وعَمْرَ بن كلثوم وزهيرا وعنترة وعَبِيد بن الأبرص ودُرَيد بن الصِّمَّة الوثنيين وغيرهم، بالإضافة إلى قبائل كاملة لا صلة لها بالنصرانية بتاتا، ومسميا الشبهات المتهافتة المفضوحة التى يستند إليها فى القول بنصرانية هؤلاء وأمثالهم بـ«الأجوبة الباردة».

ومن مظاهر هذا الاتجاه عنده أنه مثلا يعد كلمة «الله» فى النصوص الشعرية الجاهلية كلمة نصرانية، وكأن النصارى وحدهم هم الذين يستعملون كلمة «الله». كما يستشهد، فى كتابه: «النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية»، على ذلك بقول بعض شعراء العرب قبل الإسلام إنهم لا يعبدون إلا إلها واحدا هو الله ليس له ثان ولا هناك من هو أعلى منه، مع أن النصرانية تقول بالآب والابن والروح القدس. ومما استشهد به على استعمال لفظة «الله» بين الشعراء الجاهليين قول زيد بن عمرو بن نُفَيل:

إلى اللّٰه أُهْــدِى مِــدْحَتِى وثنائيــا وقَوْلًــا رصـيـنًا لا يَنِـى الـدهرَ باقيــا

إلى الملك الأعلى الـذى لـيس فوقـهُ إلـــــهٌ ولا ربٌّ يكـــــون مُـــــدَانِيا

رضـيتُ بـك اللـهمَّ ربًّـا، فلـن أُرَي أَدِيـــنُ إلهًـــا غـــيرك، اللّٰه، ثانيــا

وقول الأعشي:

وذا النُّصُــب المنصــوبِ لا تَسْـكُنَنَّهُ ولا تعبــدِ الأوثـــان، واللّٰهَ فاعْبُـــدا

وقول زهير:

فـلا تكـتمُنَّ اللّٰهَ مـا فـى صـدورِكم لِيخْفَـى. ومهمـا يكْـتَمِ اللّٰهُ يعْلَــمِ

ثم إنك تنظر فى الشواهد التى يأتى بها فلا تجد فى الأغلبية الساحقة منها شيئا يشير إلى أن أصحابها نصارى. نقول هذا ونحن نعلم أنه كان بين العرب من يدينون بالنصرانية، ولا نشاحّ فى ذلك، لكننا نرى أنـه يغلـو غلـوا مفرطـا فى وَسْـم شـعراء الجاهلية بالنصرانية رغم ما هو معروف من أن النصارى بين الشعراء الجاهليين جِدُّ قليلين.

ومما يستشهد به شيخو فى التدليل على نصـــرانية مـن يـزعم نصرـانيتهم مـن شعراء العرب قبل الإسلام النص التالى لأمية بن أبى الصلت:

أَمـينٌ لِـوَحْى القُـدسِ جِبْرِيـلُ فيهِمـو وَمِيكــالُ ذو الــروحِ القَــوِى المُسَــدَّدُ

وَحُـــرّاسُ أَبــوابِ السَـمَواتِ دونَهُــم قيـــامٌ علـــيهم بالمقاليـــدِ رُصَّـــدُ

فَـــنِعْمَ العِبـــادُ المُصْـــطَفَوْنَ لِـــأَمْرِهِ وَمِـــن دوُنِهِــم جُنْــدٌ كَثيــفٌ مُجَنَّــدُ

مَلائِكَـــــةٌ لا يفْتُـــــرونَ عِبـــــادَةً كَرُوبِيـــةٌ مِـــنهُم رُكُـــوعٌ وَسُـــجَّدُ

فَســاجِدُهُم لا يرْفَــعُ الــدَّهرَ رَأْسَــهُ يعَظِّـــمُ رَبًّـــا فَوْقَـــهُ وَيمَجِّـــدُ

وَراكِعُهُــم يعْنُــو لَــهُ الــدَّهْرَ خاشِـعًا يـــــرَدِّدُ آلاءَ الإِلَـــــهِ وَيحْمَـــــدُ

وَمِــنهُم مُلِــفٌّ فــى الجنــاحينِ رَأْسَــهُ يكـــادُ لِـــذِكْرَى رَبِّـــهِ يتَفَصَّـــدُ

مِــنَ الخَــوْفِ لا ذو سَــأْمَةٍ بِعِبــادَةٍ ... ولا هُــوَ مِــن طُــولِ التَعَبُّــدِ يجْهَــدُ

ودونَ كَثيـفِ المـاءِ فـى غـامِضِ الهـوا ... ملائِكَـــةٌ تَـــنْحَطُّ فيـــهِ وَتَصْـــعَدُ

وَبَــينَ طِبــاقِ الأَرضِ تَحْـتَ بُطُونِهــا ... مَلائِكَـــةٌ بِـــالأَمرِ فيهـــا تَـــرَدَّدُ

فَسُبْحانَ مَن لا يعْـرِفُ الخَلْـقُ قَـدْرَهُ ... وَمَـنْ هُـوَ فَـوْقَ العَـرْشِ فَـرْدٌ مُوَحَّـدُ

وَمَــنْ لَــمْ تُنازِعْــهُ الخَلائِــقُ مُلْكَــهُ ... وَإنْ لَــمْ تُفــرِّدْهُ العِبَــادُ فَمُفْــرَدُ

مَليـكُ السَّـمَواتِ الشِّـدادِ وَأَرْضِـها ... وَلَــيسَ بِشَــيءٍ عَــنْ قَضـاهُ تَــأَوُّدُ

هـو اللّٰهُ بـارِى الخَلْـقِ، وَالخَلْـقُ كُلُّهُـم ... إِمــاءٌ لَــهُ طَوْعًــا جَمِيعًــا وَأَعْبُــدُ

وَأَنَّـى يكـونُ الخلـقُ كالخـالِقِ الـذي ... يَــدُومُ وَيبْقَــى، وَالخَليقَــةُ تَنفَــدُ؟

وَلَــيسَ لِمَخْلــوقٍ مِــنَ الــدَّهرِ جِــدَّةٌ ... وَمَــنْ ذا علـى مَـرِّ الحـوادِثِ يخْلُـدُ

وَتَفْنَـى وَلا يبْقَـى سِوَى الواحِدِ الـذي ... يمِيــتُ وَيحْيــى دائِبًــا لَــيسَ يهمَـدُ

تُسَـبِّحُهُ الطَّـيرُ الجَـوانِحُ فـى الــخَفَا ... وإِذْ هِـى فـى جَـوِّ السَّـماءِ تصَـعَّدُ

وَمِـنْ خَـوْفِ رَبِّـى سَبَّحَ الرَّعْـدُ فَوْقَنـا ... وَسَــبَّحَهُ الأَشْــجارُ وَالــوَحْشُ أُبَّــدُ

والنص، كما ترى، مفعم بالألفاظ والتعبيرات والمفاهيم القرآنية. ونحن إزاءه بين اختيارين: إما أن يكون الرسول قد تأثر بأمية ونقل كلامـه وأفكـاره إلى القـرآن وإما أن يكون النص هو الذى أخذ ذلك من كتاب الله. وفى هذه الحالة الأخيرة إمـا أن يكون أمية هو من فعل ذلك أو يكون أحدهم قد فعله لأمر أو آخر ونسبه لأمية. فأما أن يكون القرآن هو الذى تأثر بشعر أمية فلا يمكن لأكثر من سبب: فقـد فكـر أمية فى الوفود على النبى وإعلان إسلامه لولا أنْ سقط عدد من أقاربه القرشـيين فى بدر، فهاج ذلك كوامن حقده على النبـى، إذ كـان يتطلـع إلى أن تكـون النبـوة مـن نصيبه، وأدى إلى ارتكاسه وارتداده إلى وضعه الأول وبقائه على ما كان عليـه، وزاد فرثى أولئك القتلى رثاء ملتهبا رغم وثنيـتهم، ممـا يـدل عـلى أنـه لم يكـن مخلصـا فى

كراهيته للإسلام لأنه لو كان قد تأثر تأثرا حقيقيا بالكتب السابقة وما فيها من عبادة الله والتنفير من الشرك كما يقال لقد كـان حريـا أن يـبغض الوثنيـة ومـن يعتنقونهـا ويفضّل محمدا ودعوته حتى لو أدى صراع أقاربه المشركين مع هذه الدعوة إلى قتـل بعضهم.

فكيف يفكر مجرد تفكير فى اعتناق الإسـلام وهـو يـرى محمـدا يأخـذ شـعره ويضمّنه قرآنه ثم يزعم أن هذا القرآن قد نزل عليه من السـماء؟ بـل هـل كـان مـن الممكن أن يسكت أمية فلا يشنع على الرسول فى هذه الحالة لافتا الأنظار إلى سرقتـه أشعاره وتضمينها القرآن ثم الادعاء رغم ذلك بأن هذا القرآن المسروق مـن شـعره هو وحى من لدن رب العالمين؟ لقد كانت هذه أعظم فرصـة يمكـن أن تتـاح لمثلـه لنسف دعاوَى محمد فى النبوة والقفز منها فى الخطوة التالية إلى أنه هو الجـدير بلقـب النبى لا محمد. وفوق ذلك كيف يمكننا أن نفسر اعتناق ثقيف، قبيلة أمية كلها بما فى ذلك أولاده وأقاربه الأدنَوْن، للإسلام ما داموا يعلمون أن محمدا كـان يسـطو عـلى شعر قريبهم هذا ويزعم أنه قرآن ينزل عليه من السماء؟ أما أخذ أمية من القرآن فـلا يضيره فى شيء، فقد كان يأخذ من الكتب السابقة، فلن يؤذيه أن يضم إليها القـرآن. ولنلاحظ أنه لم يعلن أنه نبى، بل كان يطمح إلى ذلك مجرد طموح، فلن يتهمـه أحـد فى هذه الحالة بأنه يسرق القرآن ثم يدعى أنه نبى أُوحِى إليه هذا القرآن من السـماء. أو قد يكون بعض الشعراء، لأمـر أو لآخـر، هـو الـذى نظـم مثـل تلـك الأشـعار ونحلها أمية كما يـرجح د. جـواد عـلى فى كتابـه: «المفصـل فى تـاريخ العـرب قبـل الإسلام».

ويمضى شيخو فى نهجه هذا فيدعى مثلا أن قوله تعالى فى سورة «آل عمـران» عــن محمــد وأتباعــه: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦ ﴿٢٨٥﴾﴾ وقولـه عـز شـأنه عـن الكتابيين الـذين أسـلموا: ﴿۞ لَيۡسُواْ سَوَآءٗۗ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ أُمَّةٞ قَآئِمَةٞ يَتۡلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ

وَهُمۡ يَسۡجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَلَن يُكۡفَرُوهُۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلۡمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾﴾ سورة آل عمران:يقْصَد به النصارى مع أن الأول إنما يراد به المسلمون الذين آمنوا بالنبى وقرآنه وما فى هذا القرآن من دعوة إلى وحدانية الله والإيمان بملائكته وكتبه ورسله دون تفريق بين رسول ورسول، مما لا ينطبق إلا على المسلمين، والثانى إنما يراد به أهل الكتاب الذين تركوا دينهم وأقبلوا على الإسلام واعتنقوه وصاروا من أتباع محمد صلى الله عليه وسلم. وهذا نص كلام شيخو عند حديثه عن ورود كلمات «إيمان» ومشتقاتها فى القرآن: «كلّ هذه الألفاظ سبقت أيضا الإسلام، فاتّخذها النصارى لاعتقادهم، ولعلّهم استعاروها من السريان. وقد وردت فى أخبار المتنصّرين فى الجاهلية كرواية أصحاب الكهف ورواية تنصُّر أهل نجران. لا بل ذكرها فى القرآن (سورة البقرة ع285) وأطلقها على النصارى أيضا فقال: ﴿وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦ ﴿٢٨٥﴾﴾ ومثلها فى سورة آل عمران: «ومنهم المؤمنون * ﴿ ۞ لَيۡسُواْ سَوَآءٗۗ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ أُمَّةٞ قَآئِمَةٞ يَتۡلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ وَهُمۡ يَسۡجُدُونَ ﴿١١٣﴾من أهل الكتاب أمة... * يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهَوْن عن المنكر». ولنلاحظ كيف أن شيخو يمتلخ بعض ألفاظ الآيات فيذكرها ويحذف بعضها الآخر كيلا تنكشف تزييفاته.ومن أسلوبه غير المستقيم أنه يستشهد بشعر لورقة أوردته الكتب ردا منه على خديجة رضى الله عنها حين استشارته فى أمر النبى عقب رؤيته جبريل فى غار حراء وعودته إلى البيت يرتجف من هول اللقاء الأول مع ذلك الملاك الكريم، فأكد لها أنه نبى وأن الذى رآه هو جبريل. فالشعر المنسوب لورقة هو فى الحديث عن النبى عليه السلام، لكن شيخو يلويه ويجعل المقصود به النصارى حاذفا بقية النص حتى لا تظهر حقيقة الأمر. يقول: «ولا يخفى أنّ العرب فى الجاهلية لم يعرفوا وحيا ولم يدينوا بدين

وضعى بل أفسدوا الدين الطبيعى ولحقوا بالشرك وعبادة الأصنام كما تدلّ عليه الآثار المتعددة المكتَشَفة فى عهدنا. على أنّ جهلهم بالوحى إنما سبق عهد المسيح... ولنا فى لغتهم العربية قبل الإسلام ما يثبت هذا القول، وذلك فى استعمالهم للألفاظ الدالّة على الوحى وكتبه وأئمته كما ستري». ثم يمضى قائلا عن لفظة الوحى: «هى أول لفظة تدّل على قولنا، فإنّها وردت فى الشعر الجاهلى قبل القرآن بمعنى تبليغ الله كلمته إلى أنبيائه. **قال ورقة بن نوفل الراهب النصراني**

وجبريلُ يأتيهِ وميكالُ، معهما ... من الله وحى يشرح الصدرَ مُنْزَلُ

فبقوله: «الوحى المنزل» بَينَ كونه يريد دينًا وضعيا بلّغ به اللهُ أنبياءه».

أما النص الشعرى الذى استشهد به شيخو فها هو ذا كاملا بغض النظر عن صحة نسبته إلى ورقة أو لا. ومنه يتضح أن الوحى المراد هو الوحى المحمدى، الذى قال عنه الشيخ الكبير إنه ناموس موسى ذاته، وإن قريشا سوف تضطهد محمدا وتخرجه من بلده وإنه لو كتب له أن يكون حيا وقتئذ لوقف إلى جانبه ونصره نصرا مؤزرا، وهو أكبر دليل على أنه آمن بالنبى صلى الله عليه وسلم. **قال ورقة:**

وإن يكُ حقًّا، يا خديجةُ فاعلمي، ... حديثُكِ إيانا فأَحْمَدُ مُرْسَلُ

وجبريلُ يأتيه وميكالُ، فاعلمي، ... من الله وَحْى يشرحُ الصدرَ مُنْزَلُ

يفوز به من فاز فيها بتوبةٍ ... ويشْقَى به العاتى الغريرُ المُضَلَّلُ

فريقان منهم: فرقةٌ فى جِنَانِه ... وأخرى بأجواز الجحيمِ تُغَلَّلُ

فسبحانَ مَنْ تهوِى الرياحُ بأمرِهِ ... ومَنْ هو فى الأيامِ ما شاءَ يفعَلُ

ومَنْ عَرْشُهُ فوقَ السماوات كلّها ... وأقضاؤهُ فى خَلْقهِ لا تُبَدَّلُ

وكانت الكعبة فى الجاهلية تَعِجّ بالأصنام، وأكبرُها وأشهرُها هُبَل. وبهذا انتقلت من معبدٍ بناه إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام لعبادة الله وحده إلى معبد

يمتلئ بالأصنام من كل لون. وفى عام الفتح، وهو العام الذى دخل فيه النبى والمسلمون مكة المكرمة منتصرين على الشرك والمشركين بعد أن هاجروا منها قبل سنوات إلى المدينة، أمسك الرسول بقضيب فى يده وحطم الأصنام التى كانت تزحمها، ثم أرسل أشخاصا كَلَّفَهم بهدم الأصنام الأخرى التى كانت قائمة بالمعابد القبلية خارج مكة. وبذلك استطاع عليه السلام القضاء على عبادة الأصنام والأوثان فى بلاد العرب. ومن أسماء الأصنام الأخرى التى كان يعبدها العرب ويشركونها بالله سبحانه اللات والعُزَّى ومَنَاة ويغوث ويعوق ونسر وسُوَاع ووَدّ وذو الخلصة وإساف ونائلة. **وقد ذُكِرَت أسماء بعضها فى القرآن الكريم. ومن نصوص الشعر الجاهلى التى تحدثت عن الأوثان قول الشاعر:**

حَيَاك وَدٌّ! فإنا لا يحلّ لنا ... لَهْوُ النساء، وإنّ الدين قد عَزَما

وقول الآخر:

وسار بنا يغوثُ إلى مرادٍ ... فناجزناهُمُو قبل الصباحِ

وقول عبد العزى بن وديعة المزني:

إنى حلفتُ يمينَ صدقٍ بَرَّةً ... بِمَنَاةَ عند محلّ آل الخزرجِ

وقول المتلمِّس:

أطَرَدْتَنى حذرَ الهجاءِ؟ ولا ... واللاتِ والأنصابِ لا تَئِلُ

وقول أوس بن حجرٍ يحلف باللات والعزى إلى جانب الله:

وباللات والعُزَّى ومن دان دِينَها ... وبالله، إن الله منهن أكبرُا

وقول رجل أتى ذا الخلصة يستقسم بالأزلام كى يعرف أينبغى أن يأخذ بثأر أبيه أم لا، فخرج القدح بـ«لا»، فاستشاط غضبا وقال يهاجم الوثن:

لو كنتَ يا ذا الخُلَص الموتورا ... مثلى، وكان شيخُك المقبورا

لم تَنْهَ عن قتل العُدَاة زُورَا

وهذه الشواهد، وهى بعض من كل، تفنّد مزاعم طه حسين وديفيد صـموِيل مرجليوث المستشرق البريطانى عن خلو الشعر الجاهلى من الحديث عن الدين الذى كان يدين به العرب أوانئذ. وكان الاثنان ينكران صحة ذلك الشعر، إذ يدعى مرجليوث أنه منحول كله، وطه حسين أنه منحول كُلُّه أو جُلُّه فى العصر العباسى.

وكان للعرب عاداتهم وتقاليدهم وسماتهم التى تميزهم عن غيرهم من الأمم. من ذلك مثلا حبهم للفخر، فترى كل قبيلة تفتخر بماضيها وانتصاراتها ورجالها وإنجازاتها فى مواجهة القبائل الأخرى. كما كان صغار العرب يحترمون كبارهم احتراما شديدا. وكانوا يتمَدَّحُون بالكَرَم وشرب الخمر ولعب الميسر وتوزيع ما يكسبونه منه على المحتاجين. كما اشتهر العرب بإجارة الخائف والدفاع عنه واقتحام الحرب فى سبيل ذلك إذا اقتضت الظروف دون مبالاة بالعواقب والخسائر، وكانوا يرَوْن أنفسهم أرفع مكانة وأعز شأنا من الأمم الأخرى. وفى ذات الوقت كانوا يسارعون إلى محاربة بعضهم بعضا من أجل الماء والكلإ والعِرْض والثأر وغير ذلك من الأسباب المهمة أو التافهة. وجاء الإسلام فجاهد هذا العيب القاتل وشغل العرب بمعالى الأمور. ومما يميز العرب أيضا غيرتهم الشديدة على أعراضهم وعدم تسامحهم مع ما يمسها. ومن الناحية الأخرى كان يشيع بين عدد من القبائل جريمة وَأْد البنات خوفا من العار والفقر. وقد نهى الإسلام عن ذلك ونجح فى أن يضع نهاية له. وكان الأخذ بالثأر وعدم التفريط فيه من السمات التى يتصف بها المجتمع العربى آنذاك. وكان السبب فى ذلك أنه لم تكن ثَمَّ دولة تقتص من القاتل وتكفى المظلوم مؤنة الاقتصاص بيده. ولما جاء الإسلام وأقام الدولة نهى نهيا قاطعا عن أخذ المسلم ثأره من قاتل أبيه أو أخيه أو ابنه بيده، وأمره أن يترك الأمر بين يدَى السلطات تأتى له بحقه قِصَاصًا من القاتل، أو دِيةً يدفعها له إن أراد الدية، وهذا إن لم يعْفُ تماما عن المعتدى ويتقرب بذلك العفو إلى الله سبحانه.

وكان عرب البادية يسكنون الخيام المصنوعة من أوبار الإبل. وكانوا، إذا ما قَضَوْا وَطَرهم من مكان ما ونضب العشب والماء منه، قوَّضوا تلك المساكن المتنقلة وحملوها على ظهور نُوقِهم وانطلقوا يبحثون عن مكان جديد يتوافر فيه العشب والماء. ومن هنا نشأ فى أشعارهم البكاء على الأطلال، إذ كان الشاعر من هؤلاء إذا ما قُدِّر له، وكثيرا ما يقَدَّر، أن يمر فى سفره أو رحلته بمضارب قبيلته تَذَكَّرَ الأيام الخوالى الجميلة وقت أن كان المكان يعِجّ بالحياة ويلْقَى فيه حبيبة الفؤاد هنا وهناك، فعندئذ يخفق قلبه ويغلبه الحنين، فينطلق لسانه يتدفق بالشعر يتغنى فيه بتلك الذكريات التى لم يعد إلى رجوعها من سبيل. وهذا هو ما يسمى فى المصطلح الأدبى بـ«الوقوف على الأطلال»، أى وقوف الشاعر بأطلال قبيلته واستعادته ذكريات العشق الماضى التى تستولى على قلبه بل على كيانه كله استيلاء، فتَسُحُّ منه الدموع ويعتصر قلبَه الوَلَهُ القديم الذى لا يجد ما يبَرِّد به حرقاته. وصار ذلك تقليدا شعريا يلتزمه الشعراء فى كثير من افتتاحيات قصائدهم حتى بعدما أصبحت الجاهلية وأوضاعها أثرا بعد عين، بل حتى فى المدن والقرى المستقرة التى لا تعرف التنقل انتجاعا للمرعى والماء. أما أهل المدن والقرى والواحات، سواء فى شمال الجزيرة العربية حيث الصحارى والرمال هى العنصر السائد أو فى جنوبها حيث الدول المستقرة، فكانوا يسكنون بيوتا من الحجارة.

وكان للعرب أسواقهم: فمنها أسواق محلية تخصّ أهل منطقة معينة، ومنها أسواق عامة يقصدها العرب جميعا من أرجاء بلادهم المختلفة. ومن هذا النوع الأخير أسواق عُكَاظ وذِى المجاز ومجَنَّة. وهذه الأسواق العامة كانت تنعقد كل عام لمدة معلومة، فكان الناس يأتونها للبيع والشراء وإنشاد الشعر والاستماع إليه والتفاخر بالمناقب وإلقاء الخطب والمواعظ والبحث عمن لهم عنده ثأر يريدون أخذه. وكانت الأسواق تمثل لونا من المتعة الاجتماعية والأدبية وما أشبه، فكان الوقت الذى ينفق فيها وقت سرور وحبور. وكان بعض هذه الأسواق يرتبط بالحج

زمنيا بحيث يقضى العرب أولا شعيرة الحج، التى ورثوها عن دين إبراهيم، وبعدها ينفقون فى تلك الأسواق وقتا نافعا وممتعا فى التجارة واستماع الأشعار والخطب وشرب الخمر ولعب الميسر وما أشبه.

وفى الوقت الذى كان لكل قبيلة لهجتها الخاصة كان لجميع القبائل العربية لغة واحدة تستخدمها فى الشعر والخطب. ولا معنى لما ذهب إليه مرجليوث وتابَعَه فيه طه حسين من أن الشعر الجاهلى هو شعر زائف منحول لأنه قد جاءنا بلغة واحدة فى وقت لم يكن للعرب لغة واحدة بل لهجات متعددة، متجاهلين ما ذكره القرآن مرارا من أنه نزل بلسان عربى، إذ لو لم يكن هناك هذا اللسان العربى الواحد الذى يعلو على اللهجات القبلية لهبَّ العرب على قلب رجل واحد يسخرون من هذا الزعم الغريب. أما تلك القصائد والمقطوعات التى قالها شعراء ذوو أصل يمنى كامرئ القيس مثلا وأنكرها الباحثان فالواقع أن لغة اليمن لم تكن تختلف عن لغة عرب الشمال هذا الاختلاف الحاد الذى يزعمانه، بدليل أنه لم تسجل حالة واحدة تشير إلى أن العَرَبَين قد احتاجا إلى من يترجم بينهما فى جاهلية أو فى إسلام. وكان الأمية فاشية بين عرب الجاهلية رغم وجود كاتبين قارئين فيهم، إلا أنهم كانوا جِدًّ قليلين، فلم يكن العرب يعرفون المدارس ولا المعاهد ولا الكتاتيب، ولم تكن الكتب والأقلام منتشرة بينهم. ومع هذا فكثيرا ما شبَّه شعراؤهم أطلال الديار بكتاب تجددت سطوره بعد أن كانت قد طُمِسَت. وكانت معارفهم قليلة شَذْرِية، وتعتمد على الممارسة لا الدراسة، وأهمها ما تعلق بالنجوم والكواكب والأنواء والحيوانات.

الشعر الجاهلي:

وكانت الأشعار فى تلك العصور تنتقل، فى المقام الأول، بالحفظ فى الـذاكرة، التى كانت لدى العرب حادة شديدة الحدة لتعويلهم عليها بدل التسجيل الكتـابى. ولا ينبغى أن يتخذ المشككون فى صحة الشعر الجاهلى من تلك الحقيقـة أداة لـذلك التشكيك بشبهة أن الذاكرة ضعيفة خوانة. ذلك أن الـذاكرة، كأيـة موهبـة بشريـة، تنمو وتقوى بالاستعمال، فضلا عن أنه كان هناك عادة حفـاظ متخصصـون لـديهم موهبة الشعر يلتصقون بالشاعر التصاق التلميذ بأستاذه، فيحفظون مـا يبدعـه مـن شعر ويقومون بإذاعته بين النـاس. وهـم فى أثنـاء هـذا يتعلمـون عـلى يديـه كيـف ينظمون الشعر وكيف يجوّدونه وكيف يمارسون النقد الـذاتى أثنـاء الإبـداع وعنـد المراجعة حتى يستوى عودهم ويقوى صلبهم ويصبحوا شعراء يشار إلـيهم بالبنـان بدورهم. كذلك لا ينبغى أن يتخذ البعض من اختلاف روايات الشعر الجاهلى تكأة للقول بعبث الذاكرة وتلاعبها به، ومن ثم القول بأنه لا ينبغى التعويل عليها، إذ من الممكن فى بعض الحالات على الأقل ألا يكـون ذلـك جـراء تلاعـب الـذاكرة، بـل بسبب إعادة الشاعر نظره فى قصيدته وإدخال ما يعنّ له من تغيـيرات عليهـا، فهـى نص شفوى مفتوح للتطور على الدوام لا يحجزه عن ذلك تثبيته فى شكل مطبـوع لا يتغير إلا فى طبعة تالية لا تحدث بسهولة وتُكَلِّف من يقدم عليها من الوقت والمال ما تكلِّف، فضلا عن أن تثبيت النص طباعيا من شأنه فى العادة أن يصرف صاحبه عن ترديد النظر فيه. ومع هذا فكثيرا ما يدخل المؤلف على ما ينشره مطبوعـا تعـديلات متعددة. فإذا كان هذا هو حال النص المكتوب، فما بالنا بالنص الشفوى المتحرر من هذا التثبيت؟

وقد بلغ من قوة الاعتقاد بانتشـار النحـل والانتحـال فى الشـعر الجـاهلى أن أستاذا كبيرا كالدكتور شوقى ضيف، وهو مَـنْ هـو فى الـذَّبِّ عـن الشـعر الجـاهلى كقاعدة عامة، قد سارع إلى اتهام هذه القصيدة أو تلك بأنها مصنوعة مزيفـة دون أن

يكون هناك سبب وجيه لذلك الاتهام. وسوف أسوق مثالا واحدا على ذلك، وهـو قصيدة الأعشى فى مدح النبى عليه الصلاة والسلام، تلك التى أعدها ذلك الشاعر الجاهلى ليفد بها على النبى محمد فى يثرب بعـد هجرتـه إليهـا. وكـان قـد عـزم عـلى الدخول فى الإسلام لولا أن قريشا، حين علمت بأمره، لقيته وخذَّلته عـن المضى فى نيته وأغرته بمال كثير وقالت له إن محمدا يحرِّم الخمر معشوقته، فـما كـان منـه إلا أن ترك الوفود على النبى تلك السنة، وأخذ المال من قريش عازمـا عـلى أن يـذهب إلى يثرب فى فرصة أخرى، بيد أن الموت قد اخترمـه قبـل أن يضـع نيتـه تلـك موضـع التنفيذ. والأمر، كما يرى القارئ، طبيعـى جـدا. بيـد أن الأسـتاذ الـدكتور رأى، فى كتابه عن «العصر الجاهلي»، أنها قصـيدة منحولـة لأن فيهـا آثـارا قرآنيـة واضـحة. ومنطقه فى ذلك أنه إذا كان الأعشى يؤمن بالقرآن على هذا النحـو فكيـف لم يكمـل طريقه إلى النبى ويعلن إسلامه؟

وقد فات الأسـتاذَ الـدكتور، رحمـه الله، أن مـن الطبيعـى تمامـا، سـواء كـان الأعشى مخلصا فى انتواء الوفود على النبى بغيـة إعـلان إسـلامه أو كـان يريـد نيـل عطائه صلى الله عليه وسلم ليس إلا، أن يعمل بكل سـبيل عـلى التقـرب منـه عليـه السلام بما يعرف أنه يدْخُل قلبه ويدْنِيه منه. وليس هناك فى هذه الحالة ما هـو أنجـع من الاستشهاد بالقرآن الكريم. بل لنفترض قولا واحدا أن الأعشى لم يكن مخلصـا فهل كان هذا مانعه من اقتباس آيات القرآن ومعانيه؟ وهل تقوم حياتنـا دائـما عـلى التطابق التام بين ما نقول وما نفعل، أو بين ما نفعل وما نكنه فى قلوبنا؟ وهل إيـمان الناس جميعا درجة واحدة حتى إذا نوى أى منهم الدخول فى ديـن أو مـذهب غـير الدين أو المذهب الذى كان عليه فعل ذلـك فى الحـال وعـلى سـبيل الحـتم ولم يغـير وجهته أبدا مهما تكن المعوقات أو الإغـراءات؟ ألم يـدخل الإسـلامَ فى عهـد النبـى بعضٌ من الناس ثم ارتدوا ثم عادوا بعد ذلك إلى الإسـلام كـرة أخـرى؟ ألم يقتنـع منهم بعض آخر بصدق النبى لكنهم رغم ذلك لم يسارعوا إلى إعلان ذلك الاقتناع؟

ألا يأكل أحدنا مع فلان بدافع المصلحة، وقلبه مع غريم صاحب الطعام فى واقع الأمر؟ ألا يخالف البشر كثيرا جدا ضمائرهم وهم واعون بذلك تمام الوعى؟

وقد ترك عرب الجاهلية وراءهم أشعارا كثيرة متنوعة فى المديح والغزل والحماسة والفخر والهجاء والتهديد والعتاب والاعتذار والذكريات والرثاء والصيد والوصف والقَصَص والتأمل والدين وغير ذلك. أما عُمْر ذلك الشعر فبعض العلماء يجعله مائة وخمسين سنة قبل الإسلام، وبعضهم يقلله عن ذلك، وبعضهم يزيده. وهناك أشعار وصلتنا تُنْسَب لمعاصرى إسماعيل ولرجال من عاد وثمود. بل إن بعضهم ليرتفع بالشعر العربى إلى آدم. فأما آدم فمن المستحيل أن تكون لغته هى العربية، فضلا عن أنه، بوصفه الإنسان الأول، لا يمكن أن يقول هو أو أحد من أولاده شعرا، إذ كانت البشرية لا تزال فى المهد، ولم تكن المواهب العقلية والفنية قد بلغت مبلغ نظم الشعر وتشقيق الأفكار والتدسس إلى استبطان العواطف والمقدرة على التصوير التعبيرى كما نراه فى الشعر الجاهلى. أما معاصرو إسماعيل فلست أحيل أن يكونوا شعراء وأن ينظموا بالعربية، فهى لغتهم، اللهم إلا إذا ثبت أن صورة لغة الضاد أوانذاك كانت تختلف عن صورتها قبيل الإسلام. لكن ليس هناك دليل على أنها كانت كذلك. وأما عاد وثمود فإن ما اعترض به ابن سلام على الشعر المنسوب إليهما بحجة أنهما قد استؤصلتا تمام الاستئصال حسبما جاء فى القرآن المجيد هو كلام لا يستند إلى أساس. ذلك أن الذين استؤصلوا من تينك القبيلتين إنما هم المشركون دون المؤمنين ودون هود وصالح عليهما السلام. بهذا يقضى المنطق، وهكذا يقول القرآن فى سورة «هود». ومن ثم فمن الناحية النظرية البحتة يمكن أن يكون الشعر الذى وصلنا عن عاد وثمود أو بعضه على الأقل شعرا صحيحا، اللهم إلا إذا تبين لنا بطريق القطع أن اللغة العربية فى ذلك الحين كانت تختلف اختلافا حاسما عنها فى الوقت الذى يسبق الإسلام. ويؤكد عبد العزيز مزروع الأزهرى، فى كتابه:

«الأسس المبتكرة لدراسة الأدب الجاهلي»، أن عمر الشعر العربى يزيد على سبعة قرون قبل الإسلام.

وبالنسبة إلى عملية الإلهام كان الجاهليون يعتقدون أن هناك شياطين توحى إلى الشعراء بما يبدعون، فكان لكل شاعر، حسب هذا الاعتقاد، شيطانه الخاص به. وكانوا يقولون بأن هذه الشياطين تسكن وادى عبقر، وهو واد يقع وسط الصحراء. ذلك أن الشعر ليس من المواهب العادية، ومن ثم كان الاعتقاد بأن وراء الشعراء الفحول شياطين تنفث فى رُوعهم إبداعات الشعر التى لا يستطيعها البشر بمحض قواهم. ويقال إن شيطان المخبَّل اسمه عمرو، وشيطان امرئ القيس هو لافِظ بن لاحِظ، وشيطان عَبِيد بن الأبرص هو هَبِيد، وشيطان الأعشى هو مِسْحَل، وشيطان عمرو بن قَطَن هو جُهُنَّام، وشيطان النابغة الذبيانى هو هاذر بن ماهر. ومن شياطين الشعراء فى الجاهلية أيضا هياب والصلادم وواغم... إلخ. وقد ظل طائفة من الشعراء بعد الإسلام يعتقدون هذا الاعتقاد.

ويتميز الشعر الذى وصلنا عن الجاهلية بأنه شعر غنائى كله فلا مسرحية ولا ملحمة، ولا شعر تعليمى تُنْظَم فيه العلوم المختلفة، بل قصائد فقط، وهو ما اصطلحنا فى العصر الحديث على تسميته بـ«الشعر الغنائي». وليس معنى ذلك أنه كان يغنَّى بالضرورة، وإن كانت بعض أشعار الجاهلية قد غنيت فعلا فى عصرها أو بعد الإسلام كما هو معلوم. وكان الجاهليون يتغنَّوْن بأشعارهم عند الاستقاء من الآبار أو فى الأسفار أو فى الحروب أو فى المراثى أو فى مجالس الشراب أو فى أماسى الاجتماعات القبلية أو فى المناسبات الدينية أو الاحتفالات الاجتماعية كالزواج مثلا أو عند تأدية الأعمال الشاقة... إلخ. وأحيانا ما كان الغناء تصحبه الموسيقى، وأحيانا ما كان يتم دون آلات موسيقية.

ولا تطول القصيدة الجاهلية عن بضع عشرات من الأبيات، فلا يوجد نص شعرى يستغرق الآلاف كما هو الحال فى الملاحم ولا حتى المئات. وإلى جانب ذلك توجد المقطوعات، وهى لا تزيد عن سبعة أبيات أو عشرة. وهناك، غير هذا وهذا، البيت والبيتان والثلاثة والأربعة والخمسة والستة، وما أكثر ذلك. وكان كل بيت شعرى ينقسم إلى شطرين، وكل شطر يساوى نظيره فى الوزن الموسيقى، كما أن كل بيت فى القصيدة أو المقطوعة يجرى على نفس الوزن الذى يجرى عليه سائر أبياتها من أولها إلى آخرها. وبالمثل كانت القافية واحدة من البداية حتى النهاية.

ولم يكن العلماء فى بعض الأحيان يعرفون صاحبَ الشعر، وبخاصة إذا كان بيتا أو بيتين أو ثلاثة مثلا، ومن ثم يقال فى هذه الحالة: «وقال أحدهم» أو «وعن بعض شعراء الجاهلية»... إلخ. ومن سمات ذلك الشعر أنه، طبقا لما وصل إلينا منه،شعر مكتمل فنيا وتعبيريا وموسيقيا منذ أقدم عصر وصلتنا منه نصوص شعرية، وهو ما يدل على أنه لا يمكن أن يقتصر عمره على القرن والنصف الذى يفترضه كثير من الباحثين، بل لا بد أن يكون عمره أطول من ذلك وأنه قد استغرق وقتا طويلا قبل أن يبلغ هذا المستوى الفنى العالى. ويتسم الشعر الجاهلى أيضا بالتصوير المباشر لما حوله وبخلوّه من التفلسف والحذلقة واكتفائه من السجع والجناس والطباق بالقليل المنعش. كما تكثر فيه التشبيهات الحسية، ويبتعد عن تشقيق الأفكار، ولا يعرف الغوص على المعانى ولا التكلف اللفظى والمعنوى. وقبل ذلك كله يتميز بقوة العبارة وإحكام التركيب والبعد عن الهلهلة والركاكة والقلق اللفظى، فكأنه قُدَّ من صخر. لا أقصد أنه شعر خشن بل أنه شعر متين النسج متلاحم الألفاظ والتعبيرات. وكان الشاعر عادة ما يردد النظر فيما ينتهى من نظمه من شعر حتى يستوى على النحو الذى يرضيه. ويقال إن بعض الشعراء كانوا ينظمون قصائدهم فى حول كامل، ولهذا تسمى: «الحوليات». ولا ينبغى أن نأخذ الكلام على حرفيته، بل المقصود أن هناك من ينفق وقتا طويلا فى صنع قصيدته قبل

أن يخرج بها على الناس، رغبة منه فى التدقيق والإتقان حتى يحصل على إعجاب جمهوره وتبجيله. وهذا ما نسميه الآن: «النقد الذاتي». ويذكرون فى هذا الصدد زهير بن أبى سُلْمَي.

وكان كثير جدا من العرب الجاهليين شعراء. وكانت الشاعرات كثيرات العدد أيضا، لكنْ أقلّ من عدد الرجال بدرجة كبيرة. والملاحظ أن كثيرا من شعرهن يتناول الرثاء، وأنه لا توجد شاعرة مكثرة كإكثار الشعراء الرجال حتى إنه لا يوجد ديوان لأى منهن. إنما هى بضع مقطوعاتٍ أو نُتَفٍ فى الغالب. وقد اتهم بعض العلماء جانبا من الشعر العربى فى الجاهلية بأنه مزيفٌ منحول بحجة أن ذلك الشعر لا تظهر فيه اللهجات القبلية، ناسين أن تلك اللهجات كانت تتوارى عادةً حين ينظم الشعراء شعرهم، ويلقى الخطباء خطبهم. والدليل على ذلك أن القرآن يذكر عن نفسه أنه نزل بلسان عربى مبين. ومعنى هذا أنه، إلى جانب اللهجات القبلية المختلفة، كانت هناك لغة للعرب جميعا كما ينص القرآن الكريم فى أكثر من آية. صحيح أنه لم تكن هناك دولة تضم العرب جميعا قبل الإسلام، لكنْ صحيح أيضا، بنص القرآن الكريم، أنه كانت هناك لغة واحدة للعرب كلهم رغم تعدد اللهجات التى كانوا يستخدمونها فى أحاديثهم وأمورهم اليومية، تلك اللهجات التى كانت بعض ملامحها تتسرب إلى الشعر رغم هذا.

ومن كثرة عدد الشعراء والشاعرات فى الجاهلية، ودخول الشعر كل غرض من أغراض الحياة آنذاك، بدا الأمر وكأن كل عربى وعربية كان قادرا على نظم الشعر متى أراد. وأشهر شعرائهم امرؤ القيس وزُهَير بن أبى سُلْمَى وعنترة بن شَدَّاد وطَرَفَة بن العبد والنابغة الذُّبْيانى والأَعْشَى وعمرو بن كلثوم. وهؤلاء هم أصحاب «الـمُعَلَّقات»، التى تُعَدّ أشهر قصائد ذلك العصر. وقد اختلف العلماء فى تفسير مصطلح «المعلقات»، فقالوا مثلا إن تلك القصائد كانت تكتب على القباطى بماء الذهب وتعلق على أستار الكعبة، أو إنها لجمالها وروعتها كانت تَعْلَق بالذهن

فلا تبارحه من فرط الإعجاب بها وحرص الجمهور على حفظها. وقيل فى تفسير «المعلقات» غير هذا أيضا. والمهم، فى كل الأحوال، أنها قصائد بديعة فى رأى الجاهليين ومن أتى بعدهم. ثم فليكن معنى «التعليق» بعد ذلك ما يكون.

وفى كثير من الأحوال كانت القصيدة متعددة الموضوعات، على عكس الشعر الآن حيث تدور كل قصيدة حول موضوع واحد من المبتدإ إلى الختام. ولو أخذنا على سبيل المثال معلَّقة زهير بن أبى سُلْمَى للاحظنا أنها تبدأ بالوقوف على الأطلال ووصف ما تصنعه طائفة من الأبقار الوحشية والظباء هناك، ثم تنتقل إلى الحديث عن رحلة القبيلة من المنتجع الذى كانت فيه إلى منتجع آخر ووَصْف النوق وما يعلوها من ستائر وأكسية ملونة وطريقة سيرها بالنسوة فى هوادجهن إلى أن بلغت المنازل الجديدة، ثم يتحول الشاعر بعد هذا إلى مدح هَرِم بن سِنَان والحارث بن عوف على ما قدماه من مساع نبيلة وتضحيات مالية هائلة جَمْعًا لشمل عبس وذبيان بعدما كادت الحرب بينهما تفنيهما، مبرزا شؤم الحرب وكوارثها البشعة، ومحببا فى السلم والوئام... إلخ.

وهذا التعدد فى الموضوعات يصدق على معظم القصائد الطويلة، أما المقطوعات والقصائد الصغيرة فتتمحَّض غالبا لموضوع واحد. ومع تعدد موضوعات القصيدة نراها تتبع منهجا توحيديا فى الإيقاع الموسيقى، إذ تسير من بدئها إلى ختامها على نفس البحر ونفس الرَّوِى كما سلف القول، وأحيانا ما نجد الشطرتين المتناظرتين مقفَّاتين، وهو ما يسمى بـ«التصريع» كقول امرئ القيس فى مطلع معلقته:

قِفَا نبكِ من ذكرَى حبيبٍ ومَنْزِلِ   بسِقْط اللِّوَى بين الدَّخُول فحَوْمَلِ

فضلا عن حرصها على أن يستقل كل بيت بمعنى من معانيها الجزئية، اللهم إلا بين الحين والحين عندما تتعدد عناصر المعنى الفرعى فيضطر الشاعر إلى أن يتجاوز حدود البيت قبل أن يتم معناه. ومع هذا فالغالب أن يقيم فى هذه الحالة

توازنا، إذ يجعل المبتدأ مثلا ومتعلقاته فى بيت أو أكثر ثم يخصص للخبر وما يتصل به بيتا تاليا. ومن ذلك التركيب الأخير قول النابغة الذبياني:

فَمَا الفُرَاتُ إذا هَبَّ الرِّياحُ لَهُ ... تَرْمِى أَواذِيهُ العِبْرَينِ بِالزَّبَدِ

يمُدُّهُ كُلُّ وادٍ مُتْرَعٍ لَجِبٍ ... فيهِ رِكامٌ مِنَ اليَنْبُوتِ وَالخَضَدِ

يظَلُّ مِن خَوْفِهِ المَلّاحُ مُعْتَصِمًا ... بِالخَيْزُرانَةِ بَعْدَ الأَيْنِ وَالنَّجَدِ

يومًا بِأَجْوَدَ مِنهُ سَيبَ نافِلَةٍ ... وَلا يحُولُ عَطَاءُ اليومِ دونَ غَدِ

بل إن الشعراء أحيانا ما يجعلون كل شطرة تستقل بجملة تامة عن زميلتها **كقول عمرو بن كلثوم فى بداية معلقته مثلا:**

ألا هُبِّى بصَحْنِكِ فاصْبِحِينا ... ولا تُبْقِى خُمُورَ الأنْدَرِينا

وقول النابغة الذبياني:

أُنْبِئْتُ أَنَّ أبا قابوسَ أَوْعَدَني ... وَلا قَرارَ عَلَى زَأْرٍ مِنَ الأَسَدِ

وقول عبيد بن الأبرص:

فما عَيشُ مَنْ يرْجو هَلاكى بِضَائِري ... وَلا مَوْتُ مَنْ قَدْ ماتَ قَبْلى بِمُخْلِدِي

أو يجعلون كل شطرة تستقل باحد عنصرى الجملة الرئيسيين **كقول ابن عمرو السكوني:**

كَأنّى غَداةَ الرَّوْعِ من أُسْدِ زارةٍ ... أبو أَشْبُلٍ عَبْلُ الذِّراعَينِ مِحْرَبُ

وقوله هو أيضا من نفس القصيدة:

وَلَمّا رَأَيتُ الخَيلَ تَدْمَى نُحُورُها ... كَرَرْتُ فَلَمْ أَنْكُلْ إذا القَوْمُ هَيبوا

وقد تغير نظام القصيدة من حيث الموضوع ومن حيث الإيقاع الموسيقى فى العصر الحديث تغيرا شديدا بعد أن مهدت لذلك التغير تطورات متعددة حدثت فى مسيرة الشعر العربى إلى أن ظهر فى عصرنا الحالى ما يسمى بـ«الشعر الحر». ويعكس الشعر الجاهلى حياة العرب فى ذلك الحين، ومن هنا قيل: «الشعر ديوان العرب». والواقع أن شعر الجاهليين يعرض لكل شيء فى حياتهم من الناحية

الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والجغرافية والاعتقادية... وهلم جرا. وقد زعم د. طه حسين أن الشعر المنسوب للجاهليين لا يصور حياة أولئك الجاهليين، بل يمثلها القرآن، والقرآن وحده. وهو تطرف فى الرأى من طه حسين يكذِّبه الواقع، إذ إن ذلك الشعر لم يترك صغيرة ولا كبيرة فى حياة أصحابه إلا سجلها وصورها فى الوقت الذى لا يتناول القرآن من حياتهم إلا بعض جوانبها ليس إلا، وعلى وجه الإجمال لا التفصيل فى العادة. ومن هنا وجدنا د. أحمد الحوفى مثلا يضع كتابا قويا عن «الحياة فى الشعر الجاهلي» استشهد فيه بما يدل على صحة ما نقوله من أن شعر الجاهليين يصور حياتهم تصويرا صادقا جليا لا يدع شيئا فيها دون أن يتناوله ويعرض له.

وهناك ضرب من الشعراء الجاهليين يتميز عن غيره هم الشعراء الصعاليك. وكانوا يعملون بقطع الطرق الصحراوية الـمَخُوفة فيغيرون على الأفراد والجماعات ويوزعون ما يغنمونه على أنفسهم بالتساوى. ولهم أشعار بديعة يصفون فيها ما يأتون من أعمال قطع الطريق وما يقوم به أثناء ذلك فريق منهم لاستطلاع الأحوال قبل الهجوم وتنبيه الجماعة بقرب وصول الضحية أو لدن وقوع الخطر... وهكذا. فهم إذن شعراء وقطاع طرق فى ذات الوقت. وقد دفعهم إلى قطع الطريق خلع قبائلهم لهم وتبرؤها منهم، فلم يكن أمامهم باب رزق يتعيشون منه إلا هذا السبيل، إذ كانت القبيلة تمثل الدولة حينئذ، فكان مَنْ تخلعه قبيلته بمثابة من تُسْقِط عنه دولته الآن جنسيته، فيصير بلا هوية وطنية ولا يجد من يحميه أو يوفر له عملا يرتزق منه... إلخ. ومن رجال أولئك الصعاليك عروة بن الورد وتَأَبَّطَ شرا والسُّلَيك بن السُّلَكة والشَّنْفَرَى. وكان بعضهم يشتهر بشدة العدو حتى ليقال عنه إنه أسرع من النعام. وكان هؤلاء العداؤون يتفاخرون بذلك.

وليس الصعاليك هم الطائفة الوحيدة المتميزة بين شعراء الجاهلية، فهناك شعراء أمراء ومشايخ وزعماء كامرئ القيس والأفوه الأَوْدى والمهلهل بن ربيعة

وعبد يغوث وزهير بن جناب والحصين بن الحمام وقيس بن عاصم وأبى قيس بن الأسلت، وهناك شعراء فرسان كحاتم الطائى وعلقمة الفحل وسلامة بن جندل والأغلب العِجْلِى وقيس بن الخطيم، وهناك شعراء حكماء كزيد بن عمرو بن نُفَيل وقُسّ بن ساعدة الإيادى، وهناك شعراء عشاق كالمرقِّش الأكبر وعروة بن حزام ومالك بن الصمصامة وعبد الله بن العجلان ومسافر بن أبى عمرو، وهناك شعراء اشتهروا بوصف الخيل كأبى دُؤَاد الإيادى وطُفَيل الغنوى والشمّاخ بن ضرار،وهناك نساءٌ شواعرُ كالفارغة بنت معاوية وأم خلف الكلابية وجليلة بنت مُرّة والجيداء بنت زاهر وخالدة بنت هاشم بن عبد مناف وخِرْنِق بنت بدر والدعجاء بنت وهب وزرقاء بنت زهير وزينب اليشْكُرِية وسعدى بنت الشمردل وضاحية الهلالية وعاتكة المرية وعصيمة بنت زيد وعمرة بنت الحارس وفاطمة بنت مر الخثعمية وكرمة بنت ضلع وليلى العفيفة ومارية بنت الديان وميثاء المجاشعية وناجية بنت ضمضم وهند بنت أسد الضبابية ووهيبة بنت عبد العزى، وإن كانت الغالبية الساحقة من هذه الأسماء مجهولة، وليس لصواحبها إلا البيت والبيتان والأبيات القليلة كقاعدة عامة.

وكان لكثير من الشعراء ألقاب تُطْلَق عليهم، وقد يعْرَفون بها أكثر مما يعْرَفون بأسمائهم. فمن ذلك «المَلِك الضِّلِّيل» لامرئ القيس، الذى بعدأن تولى المُلْكَ عقب مقتل أبيه التمس المعونة من القبائل على قَتَلَتِه ففشل ثم رحل إلى القسطنطينية طلبًا لمعونة قيصر، ومات فى طريق العودة دون أن ينال شيئا، فكأنه قد ضل الطريق إلى الملك، أى لم يبلغ منه قليلا ولا كثيرا. ومن تلك الألقاب «المُرَقَّش» لعمرو بن سفيان لأن وجهه كان مرقشا، أى منقّطا، و«الممزَّق» لشَأْس بن نَهَار لطلبه من أحد معارفه، فى بيت له، أن يدركه قبل أن يمزَّق، ومنها «المخرِّق» لابنه عباد لافتخاره بتخريق أعراض الرجال، أى تمزيقها، و«المثقِّب» لعائذ بن الأحمر بن وائلة لإشارته فى بعض شعره إلى ما تصنعه بعض النساء حين يثقبن البراقع بالعيون، و«النابغة»

لزياد بن معاوية الذبيانى لنبوغه بالشعر، و«المكواة» لعبد الله بن خالد بن حجبة لكثرة تردد كلمة «الكَي» ومشتقاتها فى شعره، و«الأَفْوَه» لصلاءة بن عمرو لأنه كان غليظ الشفتين ظاهر الأسنان، و«علقمة الفحل» لعلقمة بن عبدة بن ناشرة لأنه دخل فى منافسة شعرية مع امرئ القيس، وكانت زوجة الأخير هى الحكم بينهما، فحكمت لعلقمة، فلُقِّب بـ«الفحل» إشارة إلى تفوقه على كبير شعراء الجاهلية، و«عروة الصعاليك» لعروة بن الورد لأنه كان يقوم بأمر الصعاليك ويعطف على الضعفاء منهم ويجتهد فى توفير حاجاتهم، و«الفِنْد» لشهل بن شيبان لأنه كان يدرأ الأخطار عن قومه كأنه الفِنْد، أى الصخرة العظيمة التى تُتَّقَى بها الأخطار، و«تأبَّط شَرًّا» لأنه حمل تحت إبطه ذات ليلة، دون أن يدرى، حيةً مع حطبٍ احتطبه، و«ذو الإصبع» لحرثان بن حارثة العدوانى لأنه كانت له إصبع زائدة أو لأن حية نهشت إصبعه...

والآن نورد شيئا من شعر الجاهليين: فمن المعلقات نختار الأبيات التالية من مطلع قصيدة امرئ القيس:

قِفَا نبكِ من ذكرَى حبيبٍ ومَنْزِلِ ... بسِقْط اللِّوَى بين الدَّخُول فحَوْمَلِ

فَتُوضِحَ فَالمِقْراةِ لَمْ يعْفُ رَسْمُها ... لِمَا نَسَجَتْها مِنْ جَنُوبٍ وَشَمْأَلِ

تَرَى بَعَرَ الآرامِ فى عَرَصَاتِها ... وَقِيعَانِها كَأَنَّهُ حَبُّ فُلْفُلِ

كَأَنِّى غَدَاةَ البَيْنِ يَوْمَ ... لَدَى سَمُراتِ الحَى

وُقُوفًا بِها صَحْبى عَلَى مَطِيهُم ... يقُولونَ: لا تَهْلِكْ أَسًى وَتَجَمَّلِ

وَإِنَّ شِفَائِى عَبْرَةٌ مُهْرَاقَةٌ ... فَهَلْ عِنْدَ رَسْمٍ دارِسٍ مِنْ مُعَوَّلِ؟

كَدَأْبِكَ مِن أُمِّ الحُوَيرِثِ قَبْلَها ... وَجارَتِها أُمِّ الرَّبَابِ بِمَأْسَلِ

فَفاضَتْ دُموعُ العَينِ مِنِّى صَبَابَةً ... عَلَى النَّحْرِ حَتَّى بَلَّ دَمْعِى مِحْمَلي

ألا رُبَّ يوْمٍ لَكَ مِنْهُنَّ صالِحٌ ... وَلا سِيما يوْمٍ بِدَارَةِ جُلْجُلِ

وَيوْمَ عَقَرْتُ لِلْعَذَارَى مَطِيتِي ... فيا عَجَبًا مِن كُورِها الْمُتَحَمَّلِ

فَظَلَّ العَذَارَى يرْتَمِينَ بِلَحْمِها ... وَشَحْمٍ كَهُدَّابِ الدِّمَقْسِ المُفَتَّلِ

وَيومَ دَخَلْتُ الخِدْرَ خِدْرَ عُنَيزَةٍ ... فَقالَتْ: لَكَ الوَيلاتُ! إِنَّكَ مُرْجِلِي

تَقُولُ وَقَدْ مالَ الغَبِيطُ بِنَا مَعًا: ... عَقَرْتَ بَعِيرِى يا امْرَأَ القَيس، فَانْزِلِ

فَقُلْتُ لَها: سِيرِى وَأَرْخِى زِمَامَهُ ... وَلا تُبْعِدِينِى مِنْ جَنَاكِ الْمُعَلَّلِ

فَمِثْلِكِ حُبْلَى قَد طَرَقْتُ وَمُرْضِعٍ ... فَأَلْهَيتُها عَنْ ذِى تَمَائِمَ مُحْوِلِ

إِذا ما بَكَى مِنْ خلفها انْصَرَفَتْ لَهُ ... بِشِقٍّ، وَتَحْتِى شِقُّها لَمْ يحَوَّلِ

وَيوْمًا عَلَى ظَهْرِ الكَثِيبِ تَعَذَّرَتْ ... عَلَى وَآلَتْ حَلْفَةً لَمْ تُحَلَّلِ

أَفَاطِمَ، مَهْلًا بَعْضَ هَذَا التَّدَلُّلِ ... وَإِنْ كُنْتِ قَدْ أَزمَعْتِ صَرْمِى

وَإِنْ تَكُ قَدْ سَاءَتْكِ مِنِّى خِلْقَةٌ ... فَسُلِّى ثِيابِى مِنْ ثِيابِكِ تَنْسُلِ

أَغَرَّكِ مِنِّى أَنَّ حُبَّكِ قَاتِلِى ... وَأَنَّكِ مَهْما تَأْمُرِى القَلْبَ يفْعَلِ؟

وَما ذَرَفَتْ عَينَاكِ إِلا لِتَضْرِبِى ... بِسَهْمَيكِ فِى أَعْشَارِ قَلْبٍ مُقَتَّلِ

وَبَيضَةِ خِدْرٍ لا يرَامُ خِباؤُها ... تَمَتَّعْتُ مِن لَهْوٍ بِها غَيرَ مُعْجَلِ

تجاوَزْتُ أَحْراسًا إِليها وَمَعْشَرًا ... عَلَى حِرَاصًا لَوْ يسِرّونَ مَقْتَلِي

إِذا ما الثُّرَيا فِى السَّماءِ تَعَرَّضَتْ ... تَعَرُّضَ أَثْنَاءِ الوِشَاحِ الْمُفَصَّلِ

فَجِئْتُ وَقَدْ نَضَّتْ لِنَوْمٍ ثِيابَها ... لَدَى السِّتْرِ إِلا لِبْسَةَ الْمُتَفَضِّلِ

فَقالَت: يمِينَ اللَّهِ ما لَكَ حِيلَةٌ ... وَما إِنْ أَرَى عَنْكَ الغَوَايةَ تَنْجَلِي

خَرَجْتُ بِها أَمْشِى تَجُرُّ وَرَاءَنَا ... عَلَى أَثْرَينَا ذَيلَ مِرْطٍ مُرَحَّلِ

فَلَمّـا أَجَزْنـا سـاحَةَ الـحَى، وَانْتَحَي   بِنـا بَطْنُ خَبْتٍ ذِى حِقَـافٍ عَقَنْقَلِ

هَصَـرْتُ بِفَـوْدَى رَأْسِـها، فَتمايلَـتْ   عَلَـى هَضِيمَ الكَشْـحِ رَيـا الـمُخَلْخَلِ

إِذا التَفَتَــتْ نَحْـوِى تَضَـوَّعَ رِيحُهــا   نَسِيمَ الصَّبَا جـاءَتْ بِرَيـا القَرَنْفُـلِ

ومن معلقة عنترة نورد الأبيـات التـى يصـور فيهـا هـذا الشـاعر بطولتـه فى غمرات القتال وهو يجندل الخصوم:

وَمُـــدَجَّجٍ كَـــرِهَ الكُمـــاةُ نِزَالَـــهُ   لا مُمْعِـــنٍ هَرَبًـــا وَلا مُسْتَسْـــلِمِ

جــادَت لَــهُ كَفّــى بِعاجِـلِ طَعْنَــةٍ   بِمُثَقَّـــفٍ صَـــدْقِ الكُعُـــوبِ مُقَـــوَّمِ

فَشَـكَكْتُ بِــالرُّمْحِ الأَصَـمِّ ثِيابَــهُ   لَـيسَ الكَـرِيمُ عَلـى القَنَـا بِمُحَـرَّمِ

فَتَرَكتُــهُ جَــزَرَ السِّــباعِ يَنُشْــنَهُ   يقْضِــمْنَ حُسْــنَ بَنانِــهِ وَالمِعْصَــمِ

وَمِشَـكِّ سـابِغَةٍ هَتَكْـتُ فُرُوجَهــا   بِالسَّـيفِ عَـنْ حـامى الحَقِيقَـةِ مُعْلَـمِ

رَبِــذٍ يــداهُ بِالقِــدَاحِ إِذا شَــتَا   هَتّــاكِ غايــاتِ التِّجَــارِ مُلَــوَّمِ

لَمّــا رَآنــى قَــدْ نَزَلْــتُ أُرِيــدُه   أَبْــدَى نَواجِــذَهُ لِغَــيرِ تَبَسُّــمِ

عَهْــدى بِــهِ مَــدَّ النَهــارِ كَأَنَّمــا   خُضِــبَ البَنَــانُ وَرَأسُــهُ بِــالعِظْلِمِ

فَطَعَنتُــهُ بِــالرُّمْحِ ثُــمَّ عَلَوْتُــه   بِمُهَنَّــدٍ صــافى الحَدِيــدَةِ مِخْــذَمِ

وَلَقَدْ حَفِظْتُ وَصَاةَ عَمِّى بِالضُّحَي   إِذ تَقْلِصُ الشَّـفَتانِ عَـنْ وَضَـحِ الفَـمِ

فـى حَوْمَـةِ الحـربِ التى لا تَشْتَكي   غَمَراتِهـــا الأَبْطـــالُ غَــيرَ تَغَمْغُــمِ

إِذْ يَتَّقُــونَ بِــى الأَسِــنَّةَ لَــمْ أَخِــمْ   عَنهـــا، وَلَكِنّـــى تَضَـــايقَ مُقْـــدَمي

لَمّــا رَأَيــتُ القَـوْمَ أَقْبَـلَ جَمْعُهُـم   يَتَــذا مَرُونَ كَــرَرْتُ غَــيرَ مُــذَمَّمِ

يَدْعُــون عنتــرَ، والرمـــاحُ كأنهـا   أشطـــانُ بئـــرٍ فــى لَبَـــــان

مَــا زِلْـتُ أَرْمِــيهِم بِثُغْـرَةِ نَحْـرِهِ   وَلَبَانُــهِ حَتَّــى تَسَــرْبَلَ بالــــدَّمِ

فَــازْوَرَّ مِــن وَقْــعِ القَنَــا بِلَبَانِــهِ وَشَـــكَا إِلَـــى بِعَبْـــرَةٍ وَتَحَمْحُـــمِ

لَوكانَ يدْرِي ما المُحَاوَرَةُ اشتكي وَلَكَـانَ، لَـوعَلِـمَ الكَـلامَ، مُكَلِّمـي

وَلَقَد شَفَى نَفْسِى وَأَذْهَبَ سُقْمَها قِيلُ الفَـوارِسِ: وَيـكَ، عَنْتَـرَ، أَقْـدِمِ

وَالخَيلُ تَقْتَحِمُ الخَبَارَ عَوابِسًا مِـن بَـينِ شَـيظَمَةٍ وَآخَـرَ شَـيظَمِ

ذُلُلٌ رِكَابى حَيثُ شِئتُ، مُشَايِعِي لُبِّـى، وَأَحْفِـزُهُ بِـأَمْرٍ مُبْـرَمِ

وَلَقَد خَشِيتُ بِأَنْ أَمُوتَ وَلَم تَدُرْ لِلحَـرْبِ دائِـرَةٌ عَلَى ابْنَـى ضَمْضَمِ

الشـاتِمَى عِرْضِـى، وَلَـمْ أَشْـتِمْهُما وَالنـاذِرِينِ، إِذا لَـمَ الْقَهُمـا، دَمِـي

إِنْ يفْعَـلا فَلَقَـدْ تَرَكْـتُ أَباهُمـا جَـزَرَ السِّـباعِ وَكُـلِّ نَسْـرٍ قَشْـعَمِ

ومن أشعار الجاهليين كذلك تلك القصيدة البديعة التى نظمها عبد يغوث الحارثى حين وقع أسيرا فى يد أعداء قبيلته وعرف أنهم قاتلوه:

أَلا لا تَلُومانى كَفَى اللَّوْمَ ما بِيا وَمـا لَكُمـا فـى اللـومِ خَـيرٌ وَلا لِيـا

أَلَـمْ تعْلَمـا أَنَّ المَلامَـةَ نَفْعُهـا قَليل؟ وَما لَـوْمِى أَخِى مِن شِمَالِيا

فَيـا راكِبًـا، إِمّـا عَرَضْـتَ فَـبَلِّغَنْ نَـدَامَاى مِـنْ نَجْـرانَ أَلَّـا تلاقِيـا

أَبـا كَـرِبٍ وَالأَيهَمَـينِ كِلَيهِمـا صَـرِيحَهُمُو وَالآخَـرِينَ الـمَوَالِيا

وَلَو شِئتُ نَجَّتْنى مِنَ الخَيلِ نَهْدَةٌ تَـرَى خَلْفَهـا الـحُوَّ الجِيـادَ تَوالِيـا

وَلَكِنّنـى أَحْمِـى ذِمـارَ أَبيكُمُـو وكـان الرِّمَـاحُ يخْـتَطِفْنَ الـمُحَامِيا

وَتَضْـحَكُ منّـى شَـيخَةٌ عَبْشَـمِيةٌ: كَـأَنْ لَـمْ تَـرَى قَبْلـى أَسـيرًا يمَانِيـا

وَقَـدْ عَلِمَـتْ عِرْسِـى مُلَيكَـةُ أَنَّنِـى أَنـا الليـثُ مَعْـدُوًّا عَلَـى وَعادِيـا

أَقولُ، وَقَد شَدّوا لسانى بِنِسْعَةٍ: أَمَعْشَـرَ تَـيمٍ، أَطْلِقـوا عَـنْ لِسَـانِيا

أَمَعشَرَ تَيمٍ، قَد مَلَكْتُم، فَأَسْجِحوا فَـإِنَّ أَخَـاكُم لَـم يكُـنْ مِـن بَوَائِيـا

فَـإن تَقْتُلـونى تَقْتُلـوا بِـى سَـيدًا   وَإن تُطْلِقــونى تَحْرُبــونى بِمَالِيـــا

وَكُنــتُ إذا مــا الــخَيلُ شَمَّصَــها   لبيـــقٌ بِتَصْـــريفِ القَنـــاة بَنَانِيـــا

فيا عـاصِ، فُكَّ القَيد عنّى، فإننى   صَـبُورٌ علـى مــرِّ الحــوادثِ ناكِيـا

أَحَقًّا، عِبادَ اللّهِ، أَنْ لَسْتُ سامِعًا   نَشِـيدَ الرِّعـاءِ الـمُعْزِبينَ الـمَتَالِيا؟

وَقَـد كُنـتُ نَحّـارَ الجَـزُورِ وَمُعْمِـلَ   ـــــمَطِى وأمضـى حيـث لا حَـى

وَأَنْحَـرُ لِلشَّـرْبِ الكِـرامِ مَطِيتـى   وَأَصْـــدَعُ بَــينَ القَينَـــتَينِ رِدَائِيـــا

وَعادِيـــةٍ سَـــوْمَ الجَـــرادِ وَزَعْتُهـــا   بِكَفّـى، وَقَــد أَنْحَــوْا إِلَـى العَوَالِيـا

كَـأَنّى لَـم أَرْكَـبْ جَـوَادًا، وَلَـم أَقُـلْ   لِخَيلِـى: كُـرِّى، نَفِّسـى عَـن رِجَالِيـا

وَلَـمْ أَسْـبَإِ الـزِّقَّ الـرَّوِى وَلَـم أَقُـل   لأَيسـارِ صِـدْقٍ: أَعْظِمُـوا ضَـوْءَ نارِيـا

ومن أشعار الجاهلين قَوْل البَرّاق بن رَوْحان يرثى صديقا له قُتِل فى الحرب:

بَكَيــتُ لِغَرْســانٍ، وَحَــقَّ لِنــاظِرى   بُكــاءُ قَتِيــلِ الفُــرْسِ إِذْ كــانَ نائِيــا

بَكَيتُ عَلى وارِى الزِّنَادِ فَتَى الوَغَى   ســريعٍ إِلى الهَيجــاءِ إِن كــانَ عادِيـا

إِذا مــا عَــلا نَهْــدًا وَعَــرَّضَ ذابِلًــا   وَقَحَّـــمَ بَكْرِيـــا وَهَـــزَّ يمَانِيـــا

فَأَصْــبَحَ مُغْتالًــا بِــأَرْضٍ قَبِيحَــةٍ   عَلَيها فَتًى كَالسَّيفِ فـاتَ الـمُجَارِيا

وَقَـدْ أَصْبَحَ البَـرّاقُ فـى دارِ غُرْبَـةٍ   وَفــارَقَ إِخْوانَــا لَــهُ وَمَوَالِيــا

حَليفُ نَوًى طاوِى حَشًا سافِحٌ دَمًا   يرَجِّــعُ عَبَــراتٍ يهِجْــنَ البَواكِيــا

فَمَــن مُبْلِــغٌ عَنّــى كَرِيمَــةَ أُمَّــهُ   لِتَنــدُبَ غَرْســانًا وَبَــرّاقَ ثانِيــا؟

وقَوْل السُّلَكَة ترثى ابنها الشاعر الصعلوك المعروف بـ« السُّلَيك »:

طــافَ يبْغــى نَجْــوَةً   مِــنْ هَــلاكٍ فَهَلَــكْ

لَيــتَ شِــعْرى ضَــلَّةً   أَى شــيءٍ قَتَلَــكْ؟

أَمَريضٌ لم تُعَدْ	**أمْ عَدُوٌّ خَتَلَكْ**
أَم تَوَلّى بِكَ مَا	**غَال فى الدَّهْرِ السُّلَكْ؟**
وَالْمَنَايا رُصَّدٌ	**لِلْفَتَى حَيثُ سَلَكْ**
أى شيءٍ حَسَنٍ	**لِلْفَتَى لَمْ يكُ لَكْ؟**
كُلّ شيءٍ قاتِلٌ	**حينَ تَلْقَى أَجَلَكْ**
طالَما قَدْ نِلْتَ، فى	**غَيرِ كَدٍّ، أَمَلَكْ**
إنّ أَمْرًا فَادِحًا	**عَنْ جَوابى شَغَلَكْ**
سَأُعَزِّى النفسَ إِذْ	**لَمْ تُجِبْ مَنْ سَأَلَكْ**
لَيتَ قَلْبى ساعةً	**صَبْرَهُ عَنْك مَلَكْ**
لَيتَ نفسى قُدِّمَتْ	**لِلمَنَايا بَدَلَكْ**

وقول الأعشى يتذكر مجالس الخمر والغناء وتلذذه بذلك:

وَكَأْسٍ شَرِبْتُ عَلَى لَذَّةٍ	**وَأُخرى تَداوَيتُ منها بها**
لِكَى يعلَمَ الناسُ أَنّى امرُؤٌ	**أَتَيتُ المَعِيشَةَ مِن بابِها**
كُمَيتٍ يرى دونَ قَعْرِ الإِنَا	**ءِ كَمِثْلِ قَذَى العَينِ يقْذَى بها**
وَشاهِدُنا الوَرْدُ وَالياسَمِى	**نُ وَالمُسْمِعاتُ بِقُصّابِها**
وَمِزْهَرُنا مُعْمَلٌ دائِمٌ	**فَأَى الثلاثَةِ أُزْرِى بِها؟**
ترى الصَّنْجَ يبْكى لَهُ شَجْوَهُ	**مَخافَةَ أَنْ سَوْف يدْعَى بِها**

وقول طرفة بن العبد فى معلقته يصف ناقته مفاخرا بها كعادة كثير من شعراء ذلك العصر، واقفا عند كل عضو من أعضائها يصوّره صورة مثالية:

وَإِنّى لأُمْضِى الهَمَّ عِندَ احْتِضارِهِ	**بِعَوْجَاءَ مِرْقالٍ تَرُوحُ وَتَغْتَدي**

أَمُونٍ كَأَلْواحِ الأَرَانِ نَسَأْتُها   عَلَى لاحِبٍ كَأَنَّهُ ظَهْرُ بُرْجُدِ

جَمَالِيةٍ وَجْناءَ تَرْدِى كَأَنَّها   سَفَنَّجَةٌ تبْرِى لأَزْعَرَ أَرْبَدِ

تُبارِى عِتاقًا ناجِياتٍ، وَأَتْبَعَت   وَظيفًا وَظيفًا فَوقَ مَوْرٍ مُعَبَّدِ

تَرَبَّعَتِ القُفَّينِ فى الشَّوْلِ تَرْتَعى   بِذى حُصَلٍ رَوْعاتِ أَكْلَفَ مُلْبِدِ

كَأَنَّ جَنَاحَى مَضْرَحِى تكَنَّفا   حِفَافَيهِ شُكَّا فى العَسِيبِ بِمَسْرَدِ

فَطَوْرًا بِهِ خَلْفَ الزَّميلِ، وَتارَةً   عَلَى حَشَفٍ كَالشَّنِّ ذاوٍ مُجَدَّدِ

لَها فَخِذانِ أُكْمِلَ النَّحْضُ فيهِما   كَأَنَّهُما بابا مُنِيفٍ مُمَرَّدِ

وَطَى مَحَالٍ كَالحَنِى خُلوفُهُ   وَأَجْرِنَةٌ لُزَّتْ بِدَأْى مُنَضَّدِ

كَأَنَّ كِناسَى ضالَةٍ يكْنِفانِها   وَأَطْرَ قِسِى تَحتَ صُلْبٍ مُؤَيدِ

لَها مِرْفَقانِ أَفْتَلانِ كَأَنَّها   تمُرُّ بِسَلْمَى دالِجٍ مُتَشَدِّدِ

كَقَنْطَرَةِ الرومى أَقسَمَ رَبُّها   لَتُكْتَنَفَنْ حَتّى تُشَادَ بِقَرْمَدِ

صُهَابيةُ العُثْنونِ مُوجَدَةُ القَرَا   بَعيدَةُ وَخْدِ الرِّجْلِ مَوّارَةُ اليدِ

أُمِرَّتْ يداها فَتْلَ شَزْرٍ، وَأُجْنِحَتْ   لَها عَضُداها فى سَقِيفٍ مُسَنَّدِ

جنوحٌ دِفَاقٌ عَنْدَلٌ ثُمَّ أُفرِعَت   لَها كَتِفاها فى مُعَالًى مُصَعَّدِ

كَأَنَّ عُلُوبَ النِّسْعِ فى دَأَياتِها   مَوارِدُ مِن خَلْقاءَ فى ظَهْرِ قَرْدَدِ

تَلاقَى، وَأَحيانًا تَبِينُ كَأَنَّها   بَنائِقُ غُرٌّ فى قَمِيصٍ مُقَدَّدِ

وَأَتلَعُ نَهّاضٌ إِذا صَعَّدَتْ بِهِ   كَسُكّانِ بُوصِى بِدِجْلَةَ مُصْعِدِ

وَجُمْجُمَةٌ مِثْلُ العَلَاةِ كَأَنَّما   وَعَى المُلْتَقَى منها إِلى حَرْفِ مِبْرَدِ

وَخَدٌّ كَقِرْطاسِ الشَآمِى وَمِشْفَرٌ   كَسِبْتِ اليمَانِى قَدُّهُ لَم يجَرَّدِ

وَعَينـــانِ كَالمـــاوِيتَينِ اسْــتَكَنَّتا بِكَهْفَى حِجَاجَى صَخْرَةٍ قَلْتِ مَوْرِدِ

طَحُورانِ عُـوّارَ القَذَى، فَتَراهُمـا كَمَكْحُــولَتَى مَــذْعُورَةٍ أُمِّ فَرْقَــدِ

وَصـادِقَتا سَمْعِ التَـوَجُّسِ لِلسُّرَى لِهَجْــسٍ خَفِــى أَولِصَــوْتٍ مُنَــدَّدِ

مُؤَلَّلَتــانِ تَعْـرِفُ العِتْـقَ فيهمـا كَســامِعَتَى شــاةٍ بِحَوْمَــلَ مُفْــرَدِ

وَأَروَعُ نَبّــاضٌ أَحَــذُّ مُلَمْلَــمٌ كَمِـرْداةِ صَخْرٍ فـى صَفِيحٍ مُصَمَّدِ

وَأَعْلَمُ مَخْروتٌ مِنَ الأَنْفِ مـارِنٌ عَتيـقٌ مَتَى تَـرْجُمْ بِـهِ الأَرْضَ تَـزْدَدِ

وَإِنْ شِئْتُ لَم تُرْقِلْ، وإِنْ شِئْتُ أَ مَخافَـةَ مَلْـوِى مِـنَ القِـدِّ مُحْصَـدِ

وَإِنْ شِئْتُ سامَى واسِطَ الكُورِ وَعامَـتْ بِضَبْعَيها نَجَاءَ الخَـفَيدَدِ

عَلَــى مِثْلِهــا أَمْضِــى إِذا قــالَ أَلا لَيتَنــى أَفْــدِيكَ مِنها وَأَفْتَــدِي

ويلاحظ القارئ أن هذا اللون من الشعر فى وصف الناقة والفرس وما أشبه يعج بالألفاظ الصعبة التى تحوجه إلى فتح المعاجم والتفتيش فيها عن معانى تلك الألفاظ، التى تتعلق بحيوانات الصحراء والرعى. وهو موضوع لا يعرفه القارئ الحديث، فضلا عن أن تلك الألفاظ هى من الألفاظ المهجورة التى لم يعد أحد يستخدمها بتاتا.

ومن شواهد الشعر الجاهلى كذلك قول المرقش الأكبر يصور ما يقاسيه من لواعج الحب وما يحاول الاستعاضةَ به من زورات طيف حبيبته له فى المنام والذكريات الجميلة التى ولت ولم يعد إليها من سبيل:

سَـرَى لَيلًـا خَيــالٌ مِــنْ سُـلَيمَي فـــأَرَّقَنى، وأَصْــحَابى هُجُــودُ

فَبِــتُّ أُدِيــرُ أَمْــرِى كُــلَّ حــالٍ وأَرْقُــبُ أَهْلَهــا، وهُمُــو بعيــدُ

عَلَــى أَنْ قَــدْ سَــمَا طَرْفِــى لِنــارٍ يشَــبُّ لهــا بــذِى الأَرْطَــى وَقُــودُ

حَوالَيهـــا مَهًـــا جُـــمُّ التَّراقِـــي وأَرْآمٌ وغِـــــزْلانٌ رُقُـــــودُ

نَــواعِمُ لا تُعــالِجُ بُــؤْسَ عَــيشٍ أَوانِـــسُ لا تُــــرَاحُ وَلا تَــــرُودُ

يــرُحْنَ مَعًــا بِطَــاءَ المَشْــى بُــدًّا علـــيهنَّ الـــمَجاسِدُ والبُـــرُودُ

سَــكَنَّ ببلْــدَةٍ، وسَــكَنْتُ أُخْــري وقُطِّعَـــتِ المواثِـــقُ والعُهُـــودُ

فَمــا بــالى أَفِــى، ويخَــانُ عَهْـدِى؟ ومـــا بـــالى أُصَــادُ وَلا أَصِــيدُ؟

ورُبَّ أَسِـــيلةِ الخَـــدَّينَ بِكْـــرٍ مُنَعَّمَـــةٍ لهـــا فَـــرْعٌ وجِيـــدُ

وذُو أُشُــرٍ شَــتِيتُ النَّبْــتِ عَــذْبٌ نَقِـــى اللَّـــوْنِ بَـــرَّاقٌ بَـــرُودُ

لَهــوْتُ بهــا زَمانًــا مِــن شَــبَابي وزارَتْهـــا النَّجائِـــبُ والقَصِـــيدُ

أُنـــاسٌ كلَّمـــا أَخْلَقْـــتُ وَصْـــلًا عَنَـــانِى مِنْهُمُـــو وَصْـــلٌ جَدِيـــدُ

وقول جليلة بنت مرة الشيبانية عن المأزق الذى وجدت نفسها فيه عقب قتل أخيها جساس لزوجها كُلَيب سيد قومه، وكان كليب مستبدا ذا عنجهية لا يطيق أن يقف أحد فى طريقه ولا يعرف التسامح:

يــا ابنــةَ الأعمــام، إن لُــمْتِ فـلا تعْجَلِــى بــاللوم حتــى تســألي

فـــإذا أنـــتِ تَبَيَنْـــتِ الـــذى يوجِـــبُ اللـــومَ فلُـــومِى واعْـــذُلي

إن تكـن أختُ امـرئٍ لِيمَـتْ على شَـــفَقٍ منهـــا عليـــه فـــافعلي

جَـلَّ عنـدى فِعْـلُ جســاسٍ، فيــا حســرتى عمــا انجلــى أو ينجلــى!

فِعْــلُ جســاسٍ عَلَــى وَجْــدِى بــه قـــاطعٌ ظهـــرى ومُـــدْنٍ أَجَلــي

لــو بِعَــينٍ فُــدِيتْ عينــى ســوى أختهـــا فانفقـــأَتْ لم أَحْفِـــلِ

تَحْمِــل العــينُ أذى العــين كمــا تحمـــل الأمُّ أذى مـــا تعتلـــي

يــا قتيلًــا قَــوَّض الــدهرُ بــه ســـقفَ بيتـــى جميعًـــا مـــن عَـــلِ

هَــدَم البيــتَ الــذى اســتحدثْته وانثنـــى فـــى هـــدم بيتـــى الأولِ

ورمـــانى قَتْلُــه مــن كَثَــبٍ **رميــةَ الــمُصْمِى بــه المستأصِــلِ**

يــا نســائى، دونكــنَّ اليــوم. قــد **خَصَّــنى الــدهر بــرُزْءٍ مُعْضِــلِ**

خصــنى قتــلُ كُلَيــبٍ بِلَظًــى **مــن ورائــى ولَظًــى مســتقبِلي**

لــيس مــن يبكــى ليوْمَيــه كمــن **إنمــا يبكــى ليــومٍ ينجلــي**

يشــتفى المــدركُ بالثــأر، وفــى **دَرْكِــى ثــأرى ثُكْــلُ الــمُثْكِلِ**

ليتــه كــان دمــى، فــاحتلبوا **بــدلًا منــه دمــا مــن أكْحَلــي**

فأنــــا قاتلــــةٌ مقتولــــةٌ **ولعــــل اللّٰهَ أن ينظــــر لــــي**

وقول ليلى بنت لكيزة المعروفة بـ«لـيلى العفيفـة» زوجـة الـبراق بـن روحـان استنهاضا لقومها وللبرّاق كى يأتوا ويخلصوها من السبى قبـل أن يـتمكن الأعـداء من العدوان على عِرْضها:

ليــــت للــــبراق عينًــا فــترى **مــا ألاقــى مــن بــلاءٍ وعَنَــا**

يــا كُلَيبًــا وعقيلًــا إخــوتى **يــا جنيــدًا، أســعِدونى بالبُكــا**

عُــذِّبَتْ أختكمــو، يــا وَيلَكُمــو، **بعــذابِ النُّكْــر صــبحًا ومَسَــا**

غَلَّلــونى، قيــدونى، ضــربوا **مَلْمَــسَ العِفَّــة منــى بالعصــا**

يكــذب الأعجــم. مــا يقْرُبُنــى **ومعــى بعــض حُشَاشَــات الــحَيا**

فأنــا كارهــةٌ بَغْيكُمــو **ويقــينُ المــوت شــيءٌ يرْتَجَــي**

فاصــطبارٌ أو عــزاءٌ حَسَــنٌ **كُــلُّ نصــر بعــد ضُــرٍّ يرْتَجَــي**

أصــبحتْ ليلــى تُغَلَّــل كَفُّهــا **مثــل تغليــل الملــوك العُظَمــا**

وتُقَيــد وتُكَبَّــل جهــرةً **وتطالَــب بقبيحــات الــخَنَا**

قــل لعــدنانَ: هُــدِيتُم! شَــمِّروا **لِبَنِــى مبغــوضَ تشــمير الوَفَــا**

يـا بنـى تغلـبَ، سـيروا وانصـروا   وذرُوا الغفلــة عــنكم والكَـــرَي

واحــذروا العــار علــى أعقــابكم   وعلــيكم مــا بَقِيــتم فــى الــدُّنا

وقول عدى بن زيد يصف مجلسا من مجالس اللهو والطرب شهده واستمتع بها فيه من شرب وغناء وقيان:

بَكَرَ العـاذلون فى وَضَح الصبــــ   ـــــح يقولــون لى: ألا تســتفيقُ؟

ويلومـون فيكِ يـا ابنـة عبد الــــ   ـــلــــه، والقلــبُ عنــدكم مَوْهُــوقُ

لســتُ أدرى إِذْ أكثــروا العَــذْل   أعــــدوٌّ يلـــــومنى أم صــــديقُ؟

زانهـــا حُسْــنُها وفَـــرْعٌ عمـــيمٌ   وأثيـــثٌ صَـــلْتُ الجـــبين أنيـــقُ

وثنايـــــا مفلَّجـــــاتٌ عِـــذَابٌ   لا قِصــــارٌ تُـــرَى ولا هُـــــنَّ رُوقُ

فـدَعَوْا بالصَّـبُوح يومًـا، فجـاءت   قَينَــــةٌ فـــى يمينهـــا إبريـــقُ

قدَّمَتْــه علــى عُقَـارٍ كعــين الــد   ديــك صَــفَّى سُــلَافَها الــراووقُ

مُـــرَّة قبــل مَزْجِهـــا، فـــإذا مـــا   مُزِجَـــتْ لَـــذَّ طعمَهـــا مَـــنْ يـــذوقُ

وطَفَــتْ فوقهــا فقــاقيعُ كالــدُّرْ   رِ صــــغارٌ يثيرهــــا التصــــفيقُ

ثــم كــان المــزاجَ مــاءُ سمــاءٍ   غَـــيرُ مــــا آجِـــنٍ ولا مطـــروقُ

وقوله أيضا فى تأمل أحوال الدهر وعدم إبقائه على أحد. وقد ساقها على لسان بعض أشجار جلس تحتها هو والنعمان بن المنذر فى سفرهما واستمتعا بوقتهما:

مَـــن رَآنـــا فَلْيحَـــدِّثْ نَفْسَـــهُ   أَنَّـــهُ مُـــوفٍ عَلَـــى قَـــرْنِ زَوَال

وحُطُــوبُ الــدَّهْرِ لا يبْقَــى لهـــا   ولِمَـــا تـــأتى بـــهِ صُــمُّ الجِبــال

رُبَّ رَكْـــبٍ قـــد أَنَــاخُوا عِنْــدَنا   يشْــرَبُونَ الَخمْــرَ بِالمــاءِ الــزُّلال

والأَبــــاريقُ عَلَيهـــــا فُــــــدُمٌ   وعِتَـاقُ الخيـلِ تَـرْدِى فـى الجِـلال

عُمِّــرُوا دَهْــرًا بِعَــيشٍ حَسَــنٍ **آمِنِــى دَهْرِهُمُــو غَــيرَ عِجَــال**

ثُــمَّ أَضْــحَوْا أَخْنَــعَ الــدَّهْرُ بهــم **وكَــذَاكَ الــدَّهْرُ يــودِى بالجبــال**

وكَــذَاكَ الــدَّهْرُ يرْمِــى بــالفَتَى **فى طِلَابِ العَيشِ حالًا بَعْدَ حال**

وقول لَقِيط بن يعْمُر الإيادى لقبيلته يحذرهم فيها من هجوم الفرس عليهم ويستحثهم على أخذ أُهْبَة الاستعداد حتى لا يؤخَذوا على غِرَّة، وكان ذلك قبل بزوغ الإسلام بنحو ثلاثة قرون كما يؤكد عبد العزيز مزروع الأزهرى فى كتابه: «الأسس المبتكرة لدراسة الأدب الجاهلي»:

أَبْلِــغْ إِيــادًا، وَخَلِّــلْ فــى سَــرَاتِهِمُو **أَنّــى أَرَى الــرَأْى إِنْ لَــمْ أُعْــصَ قَــدْ**

يا لَهْفَ نَفْسِى أَنْ كانَت أُمورُكُمُو **شَتَّى، وَأُحْكِمَ أَمْرُ الناس فَاجْتَمَعا**

أَلا تَخَــافونَ قَوْمًــا، لا أَبَــا لَكُمُــو **أَمْسَوْا إِلَيكُم كَأَمْثَالِ الدَّبَا سُرُعا؟**

لَــوْ أَنَّ جَمْعَهُمُــو رامُــوا بِهَدَّتِــهِ **شُمَّ الشَّماريخِ مِن ثَهْلانَ لَانْصَدَعا**

فى كُلِّ يَوْمٍ يسُنّونَ الحِرَابَ لَكُمْ **لا يَهْجَعُــونَ إِذا مــا غافِــلٌ هَجَعــا**

مــا لى أَراكُــمْ نِيامًــا فــى بُلَهْنِيَــةٍ **وَقَــدْ تَــرَوْنَ شِــهابَ الــحَرْبِ قَــد**

فَاشْفُوا غَلِيلى بِرَأْى مِنْكُمُو حَسَنٍ **يضْحِى فُؤَادى لَهُ رَيانَ قَد نَقِعا**

صُونُوا جِيادَكُمُو، وَاجْلُوا سُيوفَكُمُو **وَجَــدِّدوا لِلقِسِــى النَّبْــلَ وَالشِّــرَعا**

يــا قَــوْمِ، لا تَــأْمَنُوا، إِنْ كُنْتُمُــو غُــيرًا **عَلَى نِسائِكُمُو، كِسْرَى وَما جَمَعا**

هُــوَ الــجَلاءُ الَّــذى يجْتَــثُّ أَصْلَكُمُو **فَمَــنْ رَأَى مِثْــلَ ذا رَأْيــا؟ وَمَــنْ**

فَقَلِّــدوا أَمْــرَكُمْ، لِلَّــهِ دَرُّكُمُــو **رَحْبَ الذِّراعِ بِأَمْرِ الحربِ مُضْطَلِعا**

لا مُشْرِفًا إِنْ رَخَاءُ العَيشِ ساعَدَهُ **وَلا إِذا عَــضَّ مَكْــروهٌ بِــهِ خَشَــعا**

وَلَــيسَ يشْــغَلُهُ مــالٌ يثَمِّــرُهُ **عَــنْكُمْ وَلا وَلَــدٌ يبْغــى لَــهُ الرِّفَعــا**

لَقَـد بَـذَلْتُ لَكُـم نُصْـحى بِـلا دَخَـلٍ فَاسْتَيقِظوا. إنَّ خَيرَ العِلمِ ما نَفَعـا

هَـذا كِتَــابى إِلَــيكُم وَالنَّــذِيرُ لَكُــم فَمَنْ رَأى رَأْيهُ مِنْكُم؟ وَمَن سَمِعا؟

وقـول الأَفْـوَه الأَوْدِي، صـلاءة بـن عمـرو، يفتخـر ويتأمـل طبيعـة الحيـاة وصروفها المتقلبة التى لا تترك شيئا على حال:

إِنْ تَــرَى رَأْسِــى فِيــه قَــزَعٌ وشَــــوَاتِى خَلَّــــةً فِيهــــا دُوَارُ

أَصْـبَحَتْ مِــنْ بَعْـدِ لَــوْنٍ واحِــدٍ وَهْــى لَوْنــانِ، وفِــى ذاكَ اعْتِبــارُ

فصُــرُوفُ الــدَّهْرِ فــى أَطْباقِــهِ خِلْفَــةٌ فِيهــا ارْتِفــاعٌ وانْحِــدارُ

بَينَمــا النَّــاسُ علــى عَلْيائِهــا إِذْ هَــوَوْا فــى هُــوَّةٍ فِيهــا فَغَــارُوا

إِنَّمــا نِعْمَــــةُ قَــــوْمٍ مُتْعَــــةٌ وحَيــاةُ الَمــرْءِ ثَــوْبٌ مُسْـتَعارُ

ولَيالِيـــــــهِ إلالٌ لِلقُـــــــوَى مِــن مُــدَاةٍ تَخْتَلِيهــا وشِــفارُ

تَقْطَــع اللَّيلَــةُ مِنْــهُ قُــوَّةً وكَمـــا كَــرَّتْ عليـــه لا تُغَــارُ

حَــتَمَ الــدَّهْرُ عَلَينــا أَنَّــهُ ظَلَــفٌ مــا نــالَ مِنَّــا وجُبَــارُ

فلَــهُ فــى كُــلِّ يــوْمٍ عَــدْوَةٌ لَـيس عَنْهـا لامـرِيءٍ طـارَ مطَـارُ

وقول عروة بن الورد من قصيدة له، وكان زعيم الصعاليك فى عصره:

أَقِلِّـى عَلَـى اللَّـوْمَ يـا ابْنَـةَ مُنْـذِرٍ ونَــامِى، فَــإِنْ لم تشـتهى النــومَ فاسْهَرى

ذَرِينِـى ونفسـى أُمَّ حَسَّـانَ. إِنَّنِـى بِهـا قَبْـلَ أَلَّـا أملـكَ البيـعَ مُشْتَرِي

أحاديـثَ تبقَـى، وَالفَتَـى غيرُ خالِـدٍ إذا هُـوَ أمسـى هامَـةً تحـتَ صَـيرِ

ذَرِينـى أُطَـوِّفْ فـى الـبلادِ لعلَّنِـى أُخَلِّيكِ أو أُغْنِيكِ عَنْ سُوءِ مَحْضَرِي

فَــإِنْ فــازَ ســهمٌ للمنيــةِ لم أكــن جزوعًـا. وهل عـن ذاك من مُتَأَخَّرِ؟

وإِنْ فـازَ سـهمى كفَّكُـمْ عَـنْ مَقَاعِـدٍ لَكُـمْ خَلْـفَ أدبـارِ البيـوتِ ومَنْظَـرِ

لحَــا اللّهُ صُــعْلُوكًا إذا جَــنَّ لَيلُــهُ ... مُصَــافِى الـمُشَاشِ آلفًـا كُلَّ مَجْزَرِ

يعُـدُّ الغِنَـى مِـنْ دهـرِهِ كُـلَّ ليلـةٍ ... أصـابَ قِرَاهَـا مِـنْ صـدِيقٍ مُيسَّـرِ

قَليـلَ الْتِمَـاسِ المـالِ إلّـا لِنفْسِـهِ ... إذا هُـوَ أَضْـحَى كـالعريشِ الـمُجَوَّرِ

ينَــامُ عِشَــاءً، ثــمَّ يصْــبِحُ قاعِــدًا ... يحُـتُّ الحصَى عَـنْ جنبهِ الـمُتَعَفِّرِ

يعِــينُ نســاءَ الحــى مَــا يسْـتَعِنَّهُ ... فيضْحِى طليحًـا كـالبعيرِ الـمُحَسَّرِ

ولِلّهِ صُــعْلُوكٌ صــفيحَةُ وَجْهِــهِ ... كضـوءِ شـهابِ القـابِسِ الـمُتَنوِّرِ

مُطِلًّــا عَلَــى أَعْدَائِــهِ يزْجُرُونَــهُ ... بســاحتِهِمْ زَجْــرَ المنــيحِ المُشَــهَّرِ

وإنْ بَعُــدُوا لا يــأمَنُونَ اقترابَــهُ ... تَشَــوُّفَ أهــلِ الغائِــبِ الــمُتَنَظَّرِ

فــذلكَ إنْ يلْــقَ المنيــةَ يلْقَهــا ... حَمِيـدًا، وإنْ يسْتَغْنِ يومًـا فَأَجْـدِرِ

وقول تأبط شرا، الشاعر الصعلوك، عن الغول التى زعم أنه رآها ذات ليلة وهو يجوب الصحراء وحيدا دون أنيس. ورنة الفخر والإدلال بالشجاعة واضحة فى نبرة صوته:

ألا مَــنْ مُبْلِــغٌ فِتْيــانَ فَهْــمٍ ... بِمــا لاقَيــتُ عِنْـدَ رَحَـى بِطَــانِ؟

بِــأَنّى قَــد لَقِيــتُ الغُــولَ تَهْـوِى ... بِسَـهْبٍ كَالصَّـحِيفَةِ صَحْصَـحانِ

فَقُلْــتُ لَهــا: كِلَانــا نِضْـوُ أَيْــنٍ ... أَخُــو سَــفَرٍ، فَخَلِّــى لى مَكَــاني

فَشَـدَّت شَــدَّةً نَحْـوِى، فَــأَهْوَى ... لَهَــا كَفِّــى بِمَصْــقولٍ يمَــاني

فَأَضْــرِبُها بِــلا دَهَــشٍ، فَخَــرَّت ... صَـــرِيعًا لِليــــدَينِ وَلِلْجِــــرانِ

فَقالَــتْ: عُــدْ. فَقُلْــتُ لهــا: رُوَيـدًا ... مَكانَــكِ. إنَّنــى ثَبْــتُ الــجَنَانِ

فَلَــم أَنْفَــكَّ مُتَّكِئًــا عليهــا ... لأَنْظُــرَ مُصْــبِحًا مــاذا أَتــاني

إذا عَينــانِ فــى رَأسٍ قَبِــيحٍ ... كَــرَأْسِ الهِــرِّ مَشْــقُوقِ اللِّســانِ

وَساقا مُخْدَجٍ وَشَوَاةُ كَلْبٍ   وَثَوْبٌ مِنْ عَبَاءٍ أَو شنَانِ

وهناك قصيدة لامية جميلة مشهورة تنسب، عند الغالبية العظمى ممن تكلموا عنها، للسموأل بن عادياء اليهودى هى القصيدة التالية:

إِذا المَرْءُ لَمْ يدْنَسْ مِنَ اللَّؤْمِ عِرْضُهُ   فَكُلُّ رِداءٍ يرْتَدِيهِ جَمِيلُ

وَإِنْ هُوَ لَمْ يحْمِل على النفسِ   فَلَيسَ إِلى حُسْنِ الثَّناءِ سَبِيلُ

تُعَيِّرُنا أَنّا قَلِيلٌ عَدِيدُنا   فَقُلْتُ لَها: إِنَّ الكِرامَ قَليلُ

وَما قَلَّ مَنْ كانَتْ بَقَاياهُ مِثْلَنا   شَبَابٌ تَسَامَى لِلعُلا وَكُهُولُ

وَما ضَرَّنا أَنَّا قَليلٌ وَجَارُنا   عَزيزٌ وَجَارُ الأَكْثَرينَ ذَلِيلُ

لَنا جَبَلٌ يحْتَلُّهُ مَنْ نُجِيرُهُ   مَنِيعٌ يرُدُّ الطَّرْفَ وَهْوَ كَليلُ

رَسَا أَصلُهُ تَحْتَ الثَّرَى، وَسَما بِهِ   إِلى النَّجْمِ فَرْعٌ لا ينَالُ طَوِيلُ

هُوَ الأَبْلَقُ الفَرْدُ الذى شاعَ ذِكْرُهُ   يعِزُّ عَلى مَنْ رامَهُ وَيطُولُ

وَإِنّا لَقَومٌ لا نَرَى القَتْلَ سُبَّةً   إِذا ما رَأَتْهُ عامِرٌ وَسَلُولُ

يقَرِّبُ حُبُّ المَوتِ آجالَنا لنا   وَتَكْرَهُهُ آجالُهُم فَتَطُولُ

وَما ماتَ مِنّا سَيدٌ حَتْفَ أَنفِهِ   وَلا طُلَّ مِنّا حَيثُ كانَ قَتِيلُ

تَسِيلُ عَلى حَدِّ الظَّبَاتِ نُفُوسُنا   وَلَيسَتْ عَلى غَيرِ الظَّباتِ تَسِيلُ

صَفَوْنا فَلَم نَكْدُرْ وَأَخْلَصَ سِرَّنا   إِناثٌ أَطابَتْ حَمْلَنا وَفُحُولُ

عَلَوْنا إِلى خَيرِ الظُّهورِ وَحَطَّنا   لِوَقْتٍ إِلى خَيرِ البُطُونِ نُزُولُ

فَنَحْنُ كَمَاءِ المُزْنِ، ما فى نِصَابِنا   كَهَامٌ وَلا فينا يعَدُّ بَخِيلُ

وَنُنْكِرُ إِنْ شِئْنا عَلَى الناسِ قَوْلَهُم   وَلا ينْكِرونَ القَوْلَ حِينَ نَقولُ

إِذا سَيدٌ مِنّا خَلَا قامَ سَيدٌ   قَؤُولٌ لِما قالَ الكِرامُ فَعُولُ

وَمـا أُخْمِـدَت نـارٌلَنـا دونَ طـارِقٍ وَلا ذَمَّنـــا فـــى النـــازِلينَ نَزيـــلُ

وَأَيامُنـــا مَشــــهورَةٌ فـــى عَـــدُوِّنا لهـــا غُـــرَرٌ مَعْلومَـــةٌ وَحُجُـــولُ

وَأَسْـيافُنا فـى كُـلِّ شَـرْقٍ وَمَغْـرِبٍ بِهـا مِـن قِـراعِ الـدَّارِعينَ فُلـولُ

مُعَـــــــــوَّدَةٌ أَلا تُسَـــــــلَّ فَتُغْمَـــدَ حَتّـــى يسْـتَباحَ قَبيـــلُ

سَـلِى، إِنْ جَهِلْـتِ، النـــاسَ عَنّـــا فَلَـــيسَ سَـــواءً عـــالِمٌ وَجَهُـــولُ

فَـــإِنَّ بَـــنى الديـــانِ قُطْـبٌ تَـــدُورُ رَحَـــاهُم حَـــوْلَهُم وَتَجُـــولُ

وأمر هذه القصيدة محير، فرغم اشتهارها بأنها للسموأل نجد مثلا التبريـزى، الذى يعزوها فى شرحه لـ«حماسة أبى تمام» إلى ذلك الشاعر، يكتب قبـل دخولـه إلى شرح البيت الأول منها العبارة التالية: «ويقـال إنهـا لعبـد الملـك بـن عبـد الـرحيم الحارثى، وهو إسلامي». كما قدَّم لها محمد بـن داود الظـاهرى فى كتابـه: «الزهـرة» بقوله: «وقال السموأل بن عادياء أو عبـد الـرحمن القينـى أو عبـد الملـك الحـارثى المعروف باللجلاج:...». والقينى، فيما قرأت، صحابى يروى الحديث لكنه، حسب علمى، لم يكن شاعرا. بل لقد نسبها آخرون، ومنهم ابن قتيبة فى «عيـون الأخبـار»، لدكين الراجز، الذى لم يؤثر عنه إلا بضعة أبيات شحيحة تختلـف عـن نسـيج تلـك القصيدة تماما، فكيف يكون هو صـاحبها؟ وفى «نشـوة الطـرب فى تـاريخ جاهليـة العرب» لابن سعيد المغربى نقرأ أنها تنسب أيضا لشريح بـن عاديـا الهـارونى والـد السموأل. أما بهاء الدين العاملى فى «الكشكول» فقد عزاها إلى ابن حيوس (دمشقى من أهل القرن الحادى عشر المـيلادى) رغـم أن أنفـاس قصـيدتنا هـذه لا تناسـب أنفاس شعره فى شيء قَـلَّ أو كَثُـرَ، إذ هـو مـن شـعراء العصـور المتـأخرة المغـرمين بالتكلف البديعى. كما أن القصيدة ليست فى ديوانه.

إلا أن من الدارسين من يرفض نسبتها بتاتـا إلى السـموأل كالـدكتور شـوقى ضيف، الذى يؤكد فى كتابه: «العصر الجـاهلي» أنهـا لعبـد الملـك بـن عبـد الـرحيم الحارثى العباسى، مضيفا أنه يجب الحذر إزاء أى شعر لليهود فى ذلك العصر ـ يعـلى من شأن القيم الكريمة كهذه القصيدة مما لا يتسق مع ما هو معروف عنهم من عدم تطلعهم إلى المثل الخلقية العليا. وهـو كـلام لا يخلـو مـن وجاهـة، وإن لم يمتنـع أن يكون السموأل إنسانا طيبا رغم يهوديتـه، وبخاصـة أن للأعشـى قصـيدة فى مـدح السموأل وتمجيد وفائه وإيثاره قَتْلَ ابنه على أن يفرّط فى الأمانة التى استودعها إيـاه امرؤ القيس حين ذهب إلى القسطنطينية سعيا وراء الحصول على معونة مـن مَلِكهـا لاسترداد ملك أبيه والانتقام ممن قتلوه:

كُـنْ كَالسَّـمَوْأَلِ إِذ سـارَ الهُمَـامُ لَـهُ ... فـى جَحْفَـلٍ كَسَـوادِ اللَّيـلِ جَـرّارِ

جـارُ ابْـنِ حَيـا لِمَـن نالَتـهُ ذِمَّتُـهُ ... أَوْفَـى وَأَمنَـعُ مِـن جـارِ ابْـنِ عَمّـارِ

بِـالأَبْلَقِ الفَـرْدِ مِـن تَيمـاءَ مَنزِلُـهُ ... حِصْـنٌ حَصـينٌ وَجـارٌ غَـيرُ غَـدّارِ

إِذْ سامَهُ خُطَّتَى خَسْفٍ، فَقالَ لَهُ: ... مهمـا تَقُلْـهُ فَـإِنّى سـامِعٌ حـارِ

فَقـالَ: ثُكْـلٌ وَغَـدْرٌ أَنـتَ بَينَهُمـا ... فَـاخْتَرْ، ومـا فيهمـا حَـظٌّ لِمُخْتـارِ

فَشَـكَّ غَـيرَ قَليـلٍ ثُـمَّ قـالَ لَـهُ: ... اذْبَـحْ هَـدِيكَ. إِنّـى مـانِعٌ جـاري

إِنَّ لَـهُ خَلَفًـا إِنْ كُنْـتَ قاتِلَـهُ ... وَإِنْ قَتَلْـتَ كَرِيمًـا غَـيرَ عُـوّارِ:

مـالاً كَـثيرًا وَعِرْضًـا غَـيرَ ذى دَنَـسٍ ... وَإِخْـوَةً مِثْلَـهُ لَيسُـوا بِأَشْـرارِ

وهناك أبيات للربيع بن ضبع الفزارى، وهو من المخضرمين، يـذكر فيهـا السـموأل وحصنه: «الأبلق»، ويثنى عليه وعلى كرمه، وإن كان أبـو الفـرج فى «الأغـاني» قـد ساق تلك الأبيات خلال حكايةٍ شككَ فى بعض عناصرها ممـا يمكـن أن ينسـحب على هذا الشعر أيضا:

ولقد أتيتُ بنى المصَاصِ مُفَاخِرًا — **وإلى السموألِ، زرتُه بالأبلقِ**

فأتيتُ أفضلَ مَنْ تحمَّل حاجةً — **إنْ جِئْتَه فى غارمٍ أو مُرْهَقِ**

عرفتْ له الأقوامُ كلَّ فضيلةٍ — **وحَوَى المكارمَ سابقًا لم يسْبَقِ**

بالإضافة إلى أن هناك مثلا مشهورا يعرفه القاصى والدانى يصور إخلاص السموأل ووفاءه وحرصه على احترام كلمته حتى لو كلفه ما لا يطيقه كثير من البشر، وهو «أوفى من السموأل بن عادياء». وربما قال السموأل ما قال جريا على التقاليد الشعرية التى عرفها فى الشعر العربى دون أن يكون الشعر نابعا من قلبه. فكثير من البشر حين يتحدثون لا يعبرون عما فى قلوبهم بل يقولون ما يريدون أن يتخيله الناس عنهم.

لكنْ لفت نظرى أننى لم أقابل كلمة «(الـ)سموأل» فى أحاديث النبى صلى الله عليه وسلم، اللهم إلا مرتين اثنتين عارضتين: مرة بكتاب «النكاح» فى «موطإ مالك» عند الإشارة إلى تطليق رفاعة القرظى «بن سموأل» لامرأته، ومرة بكتاب «معرفة الصحابة رضى الله تعالى عنهم» فى «مستدرك الحاكم» خلال الكلام عن نسب صفية بنت حيى أم المؤمنين، إذ قيل إنها «صفية بنت حيى بن أخطب بن سعيد بن ثعلبة بن عبيد بن الخزرج بن أبى حبيب بن النضر بن النحام بن ينحوم من بنى إسرائيل من سبط موسى صلى الله عليه وسلم، وأمها برة بنت السموأل». أما كيف كان يمكن إتيان ذكر ذلك الشاعر فى أحاديث النبى فبإنشاد أحد الصحابة مثلا لقصيدته تلك على مسامعه عليه السلام كما صنع عمرو بن الشريد ببعض أشعار أمية بنى أبى الصلت أو بثناء النبى على وفائه مثلما أثنى صلى الله عليه وسلم على مخيريق اليهودى فى غزوة الخندق لأنه لم يغدر أو يخن العهد الذى كان بين يهود وبينه عليه السلام كما غدر سائر قومه واقترفوا جريمة الخيانة العظمى بممالأتهم الكفار واشتراكهم معهم فى التآمر على النبى ودولته بغية هدمها واستئصال شأفتها ومسح كل أثر للإسلام من على وجه الأرض، ومثلما أثنى عليه الصلاة والسلام

على حاتم الطائى الجاهلى لكرمه وأريحيته، وأمر بمعاملة ابنته معاملة كريمة مراعاة لذكراه الطيبة. كذلك لا نجد أحدا من الصحابة كعمر مثلا يستشهد بلامية السموأل أو ببعض أبياتها مما يعجب كل رجل كريم. وكان، رضى الله عنه، يحب الاستشهاد بمثل ذلك الشعر. وبالمثل لم أجد صاحب «الأغاني»، وهو أكبر مؤرخى الشعر العربى القدماء، قد تحدث عنها رغم أنه تحدث عن السموأل مرارا وأتى على ذكر القصة التى تُرْوَى عن وفائه العجيب لامرئ القيس وتقول إنه آثر المحافظة على سلاح الملك الضِّلِّيل الذى كان قد استأمنه عليه رغم ما استتبعه ذلك من قتل ابنه على أن يسلم السلاح لأعداء امرئ القيس لقاء تركهم الابن دون قتل. ليس ذلك فحسب، بل إن شعر امرئ القيس ليخلو تمام الخلوّ من اسم السموأل أو الإشارة إلى حكاية السلاح الذى يقال إنه أودعه عنده حتى يعود من رحلته إلى بلاد الروم. ومن جهة أخرى لا نجد فى الشعر المعزوّ إلى السموأل أية إيماءة إلى المَلِك الضِّلِّيل.

وفى رأى أحمد حسن الزيات أيضا أن القصيدة لا يمكن أن تكون للسموأل. قال هذا فى كتابه عن «تاريخ الأدب العربي» لدن كلامه عن العبارات النبوية التى لم تعرفها العرب من قبله صلى الله عليه وسلم. وهو يستند فى هذا إلى حجة غير مقنعة فى ذاتها، ألا وهى أن على بن أبى طالب قد ذكر مرة أنه لم يسمع النبى يقول شيئا إلا وقالته العرب قبله ما عدا عبارة: «مات حتف أنفه». وعلى هذا يرى الزيات أن السموأل لا يمكن أن يكون صاحبَ القصيدة لأنها تحتوى على عبارة: «وما مات منا سيد حتف أنفه» ما دام على لم يسمعها من عربى قبل النبى.

والرد على ذلك سهل، فعلى لم ينكر أن تكون هذه العبارة قد قالها عربى من قبل، بل أن يكون قد سمعها. وهذا غير ذاك. ومن الممكن الرد كذلك بأنه قد يكون سمعها لكنه نسيها. ومن الممكن أيضا القول بأن عليا لم يكن يعرف كل ما قالته العرب، إذ هو قرشى، وقريش ليست سوى واحدة من القبائل العربية الكثيرة لا القبيلة العربية الوحيدة. ومن الممكن علاوة على هذا أن يكون البيت الذى وردت

فيه العبارة المذكورة مدسوسا على القصيدة، وباقيها صـحيح. وفى «الأغـاني» مـثلا نقرأ، خلال ترجمة بشار بن برد، هذه العبارة: «وتزعم العرب أن السِّمْع (وهو ولـد الذئب من الضبع) لا يموت حتف أنفه... وإنما هلاكه بعَرَضٍ من أعراض الـدنيا». ولا أظن العرب، والمقصود طبعـا العـرب منـذ قـديم الـزمن، إلا كانـت تسـتعمل العبارة المذكورة للدلالة على هذا المعنى. ومن ثم يمكن القول بنفس طريقة الزيـات إن العرب من قبل الإسلام كانت تعرف تعبير «مات حتف أنفه». أريد، ليس إلا،أن أقول إن حجة الزيات غير وجيهة رغم استغرابى افتخار ذلك اليهـودى بـأن سـادة قومه حريصون على أن يموتوا فى معامع القتال لا على فراشـهم، إذ لـيس هـذا مـن خلق يهود، الذين اشتهروا بحرصهم على الحياة حرصا عجيبـا أكـده القـرآن. ومـع هذا كله قد تكون القصيدة فعلا غير صحيحة النسبة للسـموأل، فـذاك شيء آخـر. والطريـف أن ابـن طـرار صـاحب «الأنـيس الصـالح الكـافى والجلـيس الناصـح الشافي»،لدن كلامه عن قتل المنصور لأبى مسلم الخراسانى، يذكر أن بعض العلـماء العرب قد أكدوا سبق النبـى إلى ابتـداع هـذه العبـارة، وفى ذات الوقـت وفى نفـس الموضع من الكتاب يورد ابن الطرار بيت السموأل وينـاقش العبـارة الموجـودة فيـه دون أن يشكك فى سَمَوْأَلِية القصيدة، بل دون أن يجد أى تعارض بين مـا نقلـه عـن العلماء العرب القدامى وبين نسبة القصيدة للشاعر اليهودي.

لكن القصيدة من الناحية الأخرى تنفح بالروح الجاهلية، فهى رد من الشاعر على امرأة عيرته بأمور، فانبرى لتفنيد كلامها وتحويل المآخذ التى عابت قومه بها إلى مفاخر له ولقبيلته، وهو ما نجده فى كثـير مـن أشـعار ذلـك العصــر. كـما يـبرز فى القصيدة الكلام عن أهمية كثرة العدد بالنسبة للقبيلة، وعـن تفاخرهـا بإجـارة مـن يستجير بها، وعن أيامها المشهورة التى انتصرت فيها انتصارا مدويا وطيرت سيوف أبطالها رقاب أعدائهم، وعن النيران التى تَشُبُّها للطارقين لـيلا، وعـن عـزة رجالهـا

التى تخوّل لهم حق الكلام دون غيرهم، ونفورهم من الموت على الفراش بعيدا عن حومات القتال... إلخ كما فى الأبيات التالية مثلا:

وَما ماتَ مِنّا سَيدٌ حَتْفَ أَنْفِهِ ... وَلا طُلَّ مِنّا حَيثُ كانَ قَتِيلُ

وَنُنْكِرُ إنْ شِئْنا عَلَى الناسِ قَوْلَهُم ... وَلا ينكِرونَ القَوْلَ حينَ نَقولُ

إذا سَيدٌ مِنّا خَلَا قامَ سَيدٌ ... قَؤُولٌ لِما قالَ الكِرامُ فَعُولُ

وَما أُخْمِدَت نارٌ لَنا دونَ طارِقٍ ... وَلا ذَمَّنا فى النازِلِينَ نَزِيلُ

وَأَيامُنا مَشهورَةٌ فى عَدُوِّنا ... لها غُرَرٌ مَعْلومَةٌ وَحُجُولُ

لكن يحيك فى الصدر تفاخر السموأل اليهودى بحرص سادة قومه على الموت فى ساحات الوَغَى، وهو خلق غير معروف عن اليهود كما سبقت الإشارة، وإن أمكن القول بأن السموأل قد يمثل الشذوذ على القاعدة حتى ولو على مستوى الكلام والشعر والفخر. ومن ناحية أخرى يقترب أسلوب القصيدة من لغة الشعر الجاهلى بمفرداته وعباراته. كذلك من الغرابة بمكان أن تنسب قصيدة عباسية لشاعر جاهلى، فضلا عن أن يكون ذلك الشاعر يهوديا، وصاحب القصيدة الأصلى مسلما. وإذا كان التبريزى يذكر، فى ثنايا شرحه للقصيدة، أن البيت الذى يقول:

فَإِنَّ بَنى الديّانِ قُطْبٌ ... تَدُورُ رَحَاهُم حَوْلَهُم وَتَجُولُ

هو لعبد الملك الحارثى لأن «الديان» أحد آبائه فإن التبريزى نفسه يستغرب أن يقول عبد الملك:

وَأَسْيافُنا فى كُلِّ شَرْقٍ وَمَغْرِبٍ ... بِها مِن قِراعِ الدارِعِينَ فُلُولُ

لأن قومه من اليمن فى الجنوب، وأين الجنوب من الشرق والغرب؟ وإن كنت لا أوافق التبريزى على ذلك الاعتراض، فالكلام فى البيت على المجاز، ولا يقْصَد فيه التحديد الجغرافى بحال. بل إن بعض العلماء ينسب السموأل إلى بنى

الديان. كذلك هناك رواية أخرى للقصيدة فى «الحماسة البصرية» يفتخر فيها السموأل فى بيتها الثالث بأسرة عادياء:

إذا المَرْءُ لَمْ يدْنَسْ مِنَ اللَّؤْمِ عِرْضُهُ فَكُـلُّ رِداءٍ يرْتَدِيهِ جَمِيلُ

وَإنْ هُوَ لَمْ يحْمِل على النفس فَلَيسَ إلى حُسْنِ الثَّناءِ سَبِيلُ

وقَائِلَةٍ: ما بالُ أُسْرَةِ عادِيَا تبَارَى، وفِيهِمْ قِلَّةٌ وخُمُولُ؟

وعلاوة على هذا فقد أشار التبريزى إلى وجود رواية أخرى للقصيدة تشتمل على بيت يشير إلى حصن الأبلق، الذى كان يملكه السموأل ويفاخر بمنعته واستعصائه على الأعداء:

هُوَ الأَبْلَقُ الفَرْدُ الذى شاعَ ذِكْرُهُ يعِزُّ عَلى مَنْ رامَهُ وَيطُولُ

وهذا البيت موجود فعلا فى رواية «الحماسة البصرية»، التى استشهدت بها هنا. بل إن التبريزى نفسه ليقول إن الجبل المذكور فى البيتين التاليين هو **السبب فى نسبتها إلى السموأل باعتباره ذلك الحصن:**

لَنا جَبَلٌ يحْتَلُّهُ مَنْ نُجِيرُهُ مَنِيعٌ يرُدُّ الطَّرْفَ وَهْوَ كَلِيلُ

رَسَا أَصْلُهُ تَحْتَ الثَّرَى، وَسَما بِهِ إِلى النَّجْمِ فَرْعٌ لا ينَالُ طَوِيلُ

وقد حاول د. جواد على فى كتابه: «المفصَّل فى تاريخ العرب قبل الإسلام» تحقيق هذا الأمر فكان رأيه أن «قصة الوفاء هذه هى أسطورةٌ اسْتُمِدَّتْ مادتها من أسفار «صموئيل الأول» فى التوراة ومن الأساطير العربية القديمة، نُظِمَتْ على هذه الصورة فجُعِل بطلاها شخصين هما السموأل وامرؤ القيس. وإذا تتبعنا الروايات الواردة فى قصة وفاء السموأل وذبْح ابنه وامتناعه عن تأدية الأمانة المودعة لديه إلا لأصحابها الشرعيين نجد أنها ترجع إلى موردين رئيسيين: قصة دارم بن عقال وشعر الأعشي...

وقد طبع الأب لويس شيخو ديوان السموأل برواية نفطويه (323هـ). وقد ترجم ابن النديم نفطويه وذكر أسماء كتبه، ولكنه لم يذكر من بينها اسم هذا الديوان،

وترجمه غيره ولم ينسب له هذا الديوان. ويرى بروكلمن احتمال كون الشعر المرقم ١– 6 من الديوان من الشعر الأصيل، أى من شعر السموأل، أما الشعر الباقى المنشور فى الديوان فهو لشعراء يهود متأخرين. ويرى غيره أصالة قصيدتين فقط من شعر هذا الديوان. وذكر بعضهم أن القصيدة رقم 7 ليست للسموأل، وإنما لأحد يهود المدينة.

وقد تحدث المستشرقون عن شعر السموأل، ولهم فيه كلام: فمنهم من يؤيد أصالة أكثره، ومنهم من لا يعترف إلا بأصالة القليل منه. والواقع أن موضوع وجود السموأل نفسه قضية فيها نظر. ولا يستبعد أن تكون هذه القصة من وضع دارم بن عقال، وهو من ولد السموأل، أو من وضع أناس آخرين رَوَوْا عنه. ودارم هو راوى خبر قصة الوفاء والأشعار المنسوبة إلى امرئ القيس المتعلقة بهذا الموضوع. وقد أشار إلى ذلك مؤلف كتاب «الأغاني» فى أثناء كلامه على قصيدة نُسِبَتْ إلى امرئ القيس ابتداؤها:

طَرَقَتْكَ هِنْدٌ بعد طُولِ تجنُّبٍ وَهْنًا، ولم تَكُ قبل ذلك تطْرُقُ

فقال: «وهى قصيدة طويلة، وأظنها منحولة لأنها لا تشاكل كلام امرئ القيس، والتوليد فيها بَين، وما دوّنها فى ديوانه أحد من الثقات. وأحسبها مما صنعه دارم لأنه من ولد السموأل، ومما صنعه من روى عنه من ذلك، فلَمْ تُكْتَب هنا»...».

بل إن من الباحثين العرب والأجانب من يرى فى السموأل رأيا يختلف تماما عما هو شائع: فسَنْت جون فيلبى مثلا يقول فى كتابه: «The land of Midian: أرض الأنبياء ومدائن صالح» (ترجمة عمر الديراوى) عن السموأل وقصته: «من الطبيعى ألا نجد أى أثر من آثار هذه الأخبار التى يرجع تاريخها إلى عصر الجاهلية». ثم يضيف قائلا: «إن اليهودى السموأل قد لاقى قصاصه العادل فى هذا المكان بالنظر لموالاته للأعداء الذين كان العرب يقاتلونهم، مقابل ضمان هؤلاء

الأعداء ما يملكه من أسلحة وأشياء أخرى إذا ما حاول أن يهرب بنفسه من ذلك القصر». وقال عبد الرءوف المصرى أبو رزق فى «معجم القرآن»، عند حديثه عن «قصة السموأل التى قُلِبت عن حقيقتها إلى الوفاء»، إنه «كان مرابيا شحيحا، وليس وفيا». وهكذا يرى القارئ معى كيف أن أمر نسبة هذه القصيدة، بل أمر السموأل نفسه، محير.

وثَمَّ أمر آخر يحتاج إلى مثل تلك الوقفة التحليلية لنعرف مدى صحته أو زيفه. ففى كتاب «Brève Histoire de la Littérature Arabe» مثلا لجان محمد عبد الجليل، وهو صادر فى باريس فى أربعينات القرن المنصرم، نقرأ خلال ترجمة زهير بن أبى سلمى أنه كان لا يزال على قيد الحياة فى بداية الإسلام، وأن محمدا كان يخشاه لأن الجنى الذى كان يوحى إليه جنى عاتٍ. ثم مضى فذكر كيف كان زهير شاعرا جادا رصينا لا يحب المغالاة فى المديح ولا البذاءة فى الهجاء ولا الإفحاش فى الغزل، فضلا عن أنه كان يستعين دائما بالحِكَم والأمثال الأخلاقية، واتسم أسلوبه الشعرى بالرصانة والتناسق.

وأتريث إزاء قوله إن الرسول عليه الصلاة والسلام كان يخشاه لأن الجنى الذى كان يوحى إليه جنى عات. فما مدى صحة هذا الكلام؟ ترى هل كان زهير سليط اللسان لا ينجو أحد من لدغاته بحيث يخشاه الناس دون أن تكون بينهم وبينه أية عداوة ويفزع الرسول من لسانه مشفقًا أن يوحى إليه شيطانه بهجائه وتشويه صورته؟ ثم أين زهير، وكان يقطن نجدا بأواسط الجزيرة، من الرسول الكريم، الذى كان يعيش آنئذ فى مكة؟ ولقد هاجم النبى عددٌ من الشعراء، سواء من المشركين الوثنيين أو من اليهود الحاقدين، فما سمعنا أنه صلى الله عليه وسلم قد ارتاع على نحو ما يصوره كلام عبد الجليل، الذى نقله عن بعض كتب التراث، ومنها كتاب «الأغاني». الواقع أن أقصى ما فعله عليه السلام هو أنه سمح فى المدينة

لحسان وكعب وابن رواحة بالنَّضْح عنه حينما أَتَوْه يلتمسون منه الرد على من يهجونه ويؤلبون القبائل على دينه.

ثم إن زهيرا كان، كما هو معروف وكما أومأ إليه عبد الجليل، شاعرا حكيما يدعو إلى السلم، ويؤثر الصلح والتفاهم، ويعمل على إطفاء الحروب التى تنشب بين القبائل كما فعل فى معلقته حين أثنى أعطر الثناء على الحارث بن عوف وهرم بن سنان لتحملهما ديات من سقطوا قتلى فى المعارك بين عبس وذبيان واستطاعتهما من ثم القضاء على تلك الحروب الحمقاء التى اشتعلت بين القبيلتين. ولقد ذكر عبد الجليل نفسه أن زهيرا كان شاعرا جادا رصينا لا يحب المغالاة فى المديح ولا البذاءة فى الهجاء ولا الإفحاش فى الغزل، فضلا عن أنه كان يستعين دائما بالحِكَم والأمثال الأخلاقية، واتسم أسلوبه الشعرى بالرصانة والتناسق. فكيف يتسق هذا وذاك؟ على أن الأمر لا يتوقف عند هذا الحد، بل إن زهيرا، حسبما ترينا معلقته الجميلة، كان يؤمن بيوم الحساب معتقدا أن أعمال البشر تُسَجَّل فى كتاب عند الله حتى إذا كان يوم البعث حوسب كل إنسان بناء على ما هو مُثْبَتٌ فى صحيفته. فكيف يمكن أن يبغض مثلُ ذلك الشاعر المؤمن الحكيم رسولَ الله صلى الله عليه وسلم، وهو لم يأت بشيء غريب عما كان يعتقده ويذكّر الناس به؟

وقد رجعت إلى كتاب «الأغاني» لأبى الفرج الأصفهانى فألفيته يقول خلال ترجمته لزهير: «وجدت فى بعض الكتب عن عبد الله بن شبيب عن الزبير بن بكار عن حميد بن محمد بن عبد العزيز الزهرى عن أخيه إبراهيم بن محمد يرفعه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نظر إلى زهير بن أبى سلمى، وله مائة سنة، فقال: اللهم أعذنى من شيطانه. فما لاك بيتا حتى مات». لكن أبا الفرج لم يقف ليتساءل: كيف عرف رواة تلك الحكاية أن زهيرا لم يقل بيت شعر منذ دعا النبى عليه إلى أن مات؟ وأين رآه النبى عليه السلام؟ وفى أية ظروف كان دعاؤه عليه؟ وماذا كان رد فعل زهير وقبيلته على ما حصل؟ لقد دخل ابناه الشاعران المشهوران الإسلام:

بجير أولا ثم كعب بعده فى قصة معروفة. فكيف سكتا عما حدث فلم ينبسا ببنت شفة سلبا أو إيجابا عن تلك الحكاية العجيبة؟ بل لقد أُثِرَ عن بجير الهجوم على دين أبيه رغم ما تعكسه معلقته من إيمانه باليوم الآخر والحساب، مع مدحه للدين الجديد الذى دعا إليه النبي:

فدِينُ زهيرٍ، وهْوَ لا شيء غيره، ودين أبى سلمى على محرَّمُ

وفى ذات الوقت دافع كعب، قبل أن يستجيب لدعوة أخيه ويدخل فى الإسلام، عن دين أسلافه وسفَّه اتِّباع أخيه للنبى عليه السلام وترك ما كان عليه أبوه وأمه وإخوته:

على خُلُقٍ لم تُلْفِ أُمًّا ولا أبًا عليه، ولم تدرك عليه أخًا لكا

فكيف لم تثره أو تحرك ذكرياته حكايةُ استعاذة الرسول من شيطان زهير حينذاك؟

وفى «الأغاني» أيضا نقرأ ما يلى: «أخبرنى أحمد بن عبد العزيز الجوهرى قال: حدثنا عمر بن شبة قال: حدثنا هارون بن عمر قال: حدثنا أيوب بن سويد قال: حدثنا يحيى بن يزيد عن عمر بن عبد الله الليثى عن ابن عباس قال: قال عمر بن الخطاب ليلة مسيره إلى الجابية: أين ابن عباس؟ فأتيته... قال: هل تروى لشاعر الشعراء؟ قلت: ومن هو؟ قال: الذى يقول:

ولو أن حمدًا يخلِد الناس أُخْلِدوا ولكنّ حمد الناس ليس بمُخْلِدِ

قلت: ذاك زهير. قال: فذاك شاعر الشعراء. قلت: وبم كان شاعر الشعراء؟ قال: لأنه لا يعاظل فى الكلام، وكان يتجنب وحشى الشعر، ولم يمدح أحدا إلا بما فيه...

أخبرنى الحسن بن على قال: أخبرنا الحارث بن محمد عن المدائنى عن عيسى بن يزيد قال: سأل معاوية الأحنف بن قيسٍ عن أشعر الشعراء، فقال: زهير. قال: وكيف؟ قال: ألقى عن المادحين فضول الكلام. قال: مثل ماذا؟ قال: مثل قوله:

فمـا يـكْ مـن خـيرٍ أتـوْهُ فإنمـا		توارثــه آبــاء آبــائهم قَبْــلُ

وأخبرنى أحمد بن عبد العزيز قال: حدثنا عمر بن شبة قال: حدثنا عبد الله بن عمرو القيسى قال: حدثنا خارجة بن عبد الله بن سليمان عن زيد بن ثابت عن عبد الله بن أبى سفيان عن أبيه عن ابن عباس قال، وحدثنيه غيره، وهو أتم من حديثه، قال: قال ابن عباس: خرجت مع عمر فى أول غزاةٍ غزاها، فقال لى ذات ليلة: يا ابن عباس، أنشدنى لشاعر الشعراء. قلت: ومن هو يا أمير المؤمنين؟ قال: ابن أبى سلمى. قلت: وبم صار كذلك؟ قال: لأنه لا يتبع حُوشِى الكلام ولا يعاظل من المنطق ولا يقول إلا ما يعرف ولا يمتدح الرجل إلا بما يكون فيه. أليس هو الذى يقول:

إذا ابتدرتْ قيسُ بنُ عيلانَ غايةً		من المجد مَنْ يسبقْ إليها يسَوَّدِ

سبقتَ إليها كل طَلْقٍ مُبَرِّزٍ		سبوقٍ إلى الغايات غير مُزَنَّدِ

كفعل جوادٍ يسبق الخيلَ عفوَه		سراعَ، وإن يجهدْ ويجهدْنَ يَبْعُدِ

ولو كان حمدٌ يخْلِد الناسَ لم تمت		ولكنّ حمدَ الناس ليس بمُخْلِدِ؟

أَنْشِدْنى له. فأنشدته حتى برق الفجر. قال: حسبك الآن. اقرأ القرآن. قلت: وما أقرأ؟ قال: اقرأ «الواقعة». فقرأتها، ونزل فأذَّن وصلي».

والآن هل يمكن أن يقول عمر ومعاوية فى زهير هذا الكلام الجميل البديع لو كان الرسول قد استعاذ بالله من شره؟ وهذا إن كان مثله شريرا يستعاذ بالله منه أصلا. فما بالنا إذا كان الرجل وقورا دمثا يحب السلام ويبغض الشر والخصام؟ ثم متى اشتهر زهير بالهجاء. لقد اشتهر بالمديح والحكمة، وهو فى مديحه داعية سلام، ولم يعْرَف عنه سلاطة اللسان قط. بل هل يمكن أن يكون النبى قد استعاذ بالله منه ثم نقرأ أنه قال فيه وفى شعره ذات مرة: «إنا قد سمعْنا كلامَ الخطباء والبلغاء وكلامَ ابن أبى سلمى، فما سمعْنا مثلَ كلامه من أحد» طبقا لما فى «زهر الآداب وثمر

الألباب» للحصرى؟ لقد كان ينبغى أن يكون هذا التناقض دافعا لمن يزعم استعاذة الرسول من شيطانه إلى التوقف والتفكر فى الأمر بمنطق وعقل. وأخيرا ينبغى ألا يغيب عن بالنا أن زهيرا قد مات قبل بعثة النبى عليه الصلاة والسلام بعام كما جاء فى «الأزمنة والأمكنة» مثلا للمرزوقى. ومعروف أن صاحب «الأغاني» كحاطب الليل.

بل لقد كتب المرزوقى فى كتابه ذاك أن زهيرا قال لبنيه يوما: «رأيت رؤيا. ولَيَحْدُثَنَّ أمر عظيم، ولست أدركه. رأيت كأنى أُصْعِدْتُ إلى السماء حتى إذا كدت أنا لها انقطع السبب، فهَوَيتُ. فمن أدركه منكم فليدخل فيه. فأتى ابنُه بحيرٌ النبى صلى الله عليه وسلم... فأسلم، وأبى كعب أن يسلم حتى هاجر النبى صلى الله عليه وسلم إلى المدينة، فقَدِم وأسلم، ومدح النبى صلى الله عليه وسلم بقصيدته اللامية واعتذر مما كان فيها». ولست أورد هذا الخبر مصدقا له بالضرورة، بل إنه ليغلب على ظنى أنه مصنوع. لكنى أردت إلى القول إن خبر استعاذة النبى منه خبر غير صحيح أو معقول أو مقبول.

وأخيرا فقد قرأت فى «مروج الذهب» للمسعودى فى أخبار الملك الفارسى بهرام جور، الذى تولى الملك عام 209 قبل الهجرة، أنه كان يعرف العربية وينظم الشعر بها بعد أن تربى فى البلاط الحيرى وتعلم العربية هناك. ومن شعره فى لغة الضاد:

لقد عَلِمَ الأنامُ بكلِّ أرضٍ ... بأنَّهُمُو قَدَ اضْحَوْا لى عبيدَا
ملكتُ ملوكهمْ، وقهرتُ منهمْ ... عزيزَهم المسوَّدَ والمَسُودَا
فتلك أُسُودُهُمْ تُقْعِى حِذَارى ... وتَرْهَبُ من مخافتى الوُرُودَا
وكنت إذا تشاوَسَ مَلْكُ أرضٍ ... عَبَأْتُ له الكتائبَ والجنودَا
فيعطينى المَقَادَةَ أو أُوَافِي ... به يشكُو السلاسلَ والقيودَا

وقد أكد هذا محمد عوفى المتخصص فى لغة الفرس وآدابهم فى كتابه: «لباب الألباب» فى تاريخ الأدب الفارسى، وفصل القول فى تلك النقطة عبد العزيز مزروع الأزهرى فى كتابه الهام: «الأسس المبتكرة لدراسة الأدب الجاهلي».

الخطابة:

وإلى جانب الشعر اشتهر العرب الجاهليون بالخطابة، فكانوا يخطبون فى الأعراس وفى مجالس الصلح وفى اجتماعات التفاخر وعند الملوك وفى الأسواق وغير ذلك من المناسبات. واشتهر منهم بالخطابة قُسّ بن ساعدة الإيادى وزهير بن جناب ومرثد الخير والحارث بن كعب المذحجى وقيس بن زهير العبسى وذو الإصبع العَدْوانى وأكثم بن صيفى. وقد أنكر د. طه حسين الخطابة العربية قبل الإسلام فى المبحث الذى خصصه لهذا الموضوع فى كتاب «التوجيه الأدبي». ومع هذا نراه، لَدُنْ حديثِه عن النثر فى القرنين الثانى والثالث الهجريين ضمن كتابه: «من حديث الشعر والنثر»، يتحدث عن الخطابة فى ذلك العصر بوصفها من المسلمات اليقينية.

ومن الخطب التى وصلتنا عن الجاهلية خطبة عبد المطلب جد النبى عليه السلام حين ذهب فى وَفْدٍ لتهنئة سيف بن ذى يزَن برجوع مُلْك اليمن إليه وتخلُّص بلاده من الاحتلال الفارسى: «إن الله قد أحلك، أيها الملك، محلًّا رفيعًا، صعبًا منيعًا، شامخًا باذخًا، وأنبتك منبتًا طابت أَرُومَتُه، وعَذُبَتْ جرثومته، وثَبَتَ أصلُه، وبَسَقَ فرعُه، فى أكرم موطن، وأطيب معدن. فأنت، أَبَيتَ اللَّعْنَ، ملك العرب وربيعها الذى تخصب به البلاد، ورأس العرب الذى له تنقاد، وعمودها الذى عليه العماد، ومعقلها الذى يلجأ إليه العباد، وسَلَفُك خير سَلَف، وأنت لنا منهم خير خَلَف، فلن يخمل من هم سلفه، ولن يهلك من أنت خلفه. ونحن، أيها الملك، أهل حرم الله وسَدَنة بيته، أَشْخَصَنا إليك الذى أبهجك من كشف الكَرْب الذى قد فَدَحَنا. فنحن وفد التهنئة لا وفد المرزئة».

ومن هذه الخُطَب أيضا خطبة أبى طالب عم النبى عليه السلام حين صحبه لطلب يد خديجة من أبيها، إذ قال: «الحمد لله، الذى جعلنا من زَرْع إبراهيم وذرية إسماعيل، وجعل لنا بيتًا محجوجًا وحَرَمًا آمِنًا، وجَعَلَنا الحكّامَ على الناس. ثم إن محمدَ بنَ عبد الله بنِ عبد المطلب ابنَ أخى من لا يوَازَن بأحدٍ إلا رَجَح به ولا يعْدَل بأحدٍ إلا فَضَلَه. وإن كان فى المال قُلٌّ فإن المال ظِلٌّ زائلٌ. وله فى خديجة رغبة، ولها فيه مثلها. وما كان من صَدَاق ففى مالى. وله بَعْدُ نَبَأٌ عظيمٌ، وخطرٌ شاسعٌ».

وعرف الجاهليون لونا من خطب الوعظ العام كخطبة قُسّ بن ساعدة الإيادى التى سمعها منه النبى فى شبابه بسوق عكاظ، وكان خطيبا شاعرا حكيما. ويقال إنه أول من صعد على مكان مرتفع ليخطب، وأول من قال فى كلامه: «أما بعد»، وأول من اتكأ فى خطبته على سيف أو عصا. تقول خطبة قُسّ: «أيها الناس، اسمعوا وَعُوا: من عاش مات، ومن مات فات، وكل ما هو آتٍ آت. ليلٌ داج، وسماءٌ ذات أبراج. بحارٌ تزخر، ونجومٌ تزهر، وضوءٌ وظلام، وبِرٌّ وآثام، ومطعمٌ ومشرب، وملبسٌ ومركب. مالى أرى الناس يذهبون ولا يرجعون؟ أرَضُوا بالـمُقَام فأقاموا، أم تُرِكوا فناموا؟ وإلهِ قُسّ بن ساعدة ما على وجه الأرض دينٌ أفضلُ من دينٍ قد أظلَّكم زمانه، وأدرككم أوانُه. فطُوبَى لمن أدركه فاتبعه، وويل لمن خالفه. ثم أنشأ يقول:

فى الذاهبين الأوليـ ... ـن من القرون لنا بصائرْ

لما رأيتُ مواردًا ... للموت ليس لها مصادرْ

ورأيتُ قومى نحوها ... يمضى الأصاغرُ والأكابرْ

أيقنتُ أنى، لا محا ... لةَ، حيث صار القومُ، صائرْ»

ولدينا أيضا من خطب الجاهليين الخطبة التى ألقاها قبيصة بن نعيم أحد أعضاء الوفد الذين ذهبوا لمقابلة امرئ القيس حين علموا أنه يستعد لمحاربة قَتَلَة

أبيه حُجْر ملك كندة، فأرادوا حقن الدماء وعرضوا عليه عدة حلول رفضها جميعا وأبى إلا الحرب، فانصرفوا عنه خائبي المسعى. وهذه هي قصة اللقاء، وفيها نص الخطبة المذكورة.

قال صاحب «الأغاني»: «قدم على امرئ القيس بن حُجْر بعد مقتل أبيه رجالٌ من قبائل بنى أسد: كهولٌ وشبان فيهم المهاجر بن خداش ابن عم عبيد بن الأبرص، وقبيصة بن نعيم، وكان فى بنى أسد مقيمًا، وكان ذا بصيرة بمواقع الأمور وِرْدًا وإصدارًا: يعرف ذلك له من كان محيطًا بأكناف بلده من العرب. فلما علم بمكانهم أمر بإنزالهم وتقدم بإكرامهم والإفضال عليهم، واحتجب عنهم ثلاثًا. فسألوا مَنْ حضره من رجال كندة، فقال: هو فى شغل بإخراج ما فى خزائن حُجْر من السلاح والعُدَّة. فقالوا: اللهم غَفْرًا! إنما قدمنا فى أمر نتناسى به ذكر ما سلف ونستدرك به ما فرط، فلْيبَلِّغ ذلك عنا. فخرج عليهم فى قَبَاءٍ وخُفٍّ وعمامةٍ سوداء، وكانت العرب لا تعتمُّ بالسواد إلا فى التِّرَات. فلما نظروا إليه قاموا له، وبدر إليه قبيصة:

«إنك فى المحلّ والقدر والمعرفة بتصرف الدهر وما تحدثه أيامه وتتنقل به أحواله بحيث لا تحتاج إلى تبصير واعظٍ ولا تذكرة مجرِّب. ولك من سؤدد منصبك وشرف أعراقك وكرم أصلك فى العرب محتمل يحتمل ما حمل عليه من إقالة العثرة، ورجوع عن هفوة. ولا تتجاوز الهِمَمُ إلى غاية إلا رجعتْ إليك فوجدتْ عندك من فضيلة الرأى وبصيرة الفهم وكرم الصفح فى الذى كان من الخَطْب الجليل الذى عمت رَزِيتُه نزارًا واليمن ولم تُخْصَص كندة بذلك دوننا للشرف البارع، إذ كان لحُجْرٍ التاج والعِمَّة فوق الجبين الكريم وإخاء الحمد وطيب الشِّيم. ولو كان يفْدَى هالكٌ بالأنفس الباقية بعده لما بَخِلَتْ كرائمنا على مثله ببذل ذلك ولفديناه منه، ولكنْ مَضَى به سبيلٌ لا يرجع أولاه على أخراه ولا يلحق أقصاه أدناه. فأَحْمَد الحالات فى ذلك أن تعرف الواجب عليك فى إحدى خلال: إما أن اخترت من بنى

أسد أشرفها بيتًا، وأعلاها فى بناء المكرمات صوتًا، فقدناه إليك بنِسْعَةٍ تـذهب مـع شفرات حسامك، فنقول: رجلٌ امتُحِن بهُلْكِ عزيزٍ، فلم تُسْتَلَّ سخيمته إلا بتمكينه من الانتقام، أو فداءً بما يروح من بنى أسد من نَعَمها، فهـى ألـوف تجـاوز الحسـبة، فكان ذلـك فـداءً رجعـت بـه القُضُـب إلى أجفانهـا لم يـردِّده تسـليط الإِحَـن عـلى البُرَآء،وإما أن توادعنـا حتـى تضـع الحوامـلُ، فنُسْـدِل الأُزُر ونعقـد الخُمُـر فـوق الرايات».

قال: فبكى ساعة ثم رفع رأسه فقال: لقد علمت العرب ألَّا كُـفْـء لحُجْـر فى دم. وإنى لن أعتاض به جملًا أو ناقةً فأكتسب بذلك سُبَّة الأبد وفَتَّ العَضُـد. وأمـا النَّظِرة فقد أوجبْتها الأَجِنَّةُ فى بطون أمهاتها، ولن أكون لعطبهـا سـببًا. وسـتعرفون طلائع كندة من بعد ذلك تحمل القلوب حنقا، وفوق الأسنة علقا:

إذا جالــت الخيــل فــى مــأزقٍ تُصَــافِح فيــه المنايــا النفوســا

أتقيمون أم تنصرفون؟ قالوا: بل ننصرف بأسوإ الاختيـار، وأبـلى الاجـترار، لمكروه وأَذِية، وحرب وبَلِية. ثم نهضوا عنه، وقبيصة يقول متمثلًا:

لعلك أن تستوخمَ الموتَ إنْ غَدَتْ كتائبُنـا فـى مـأزق المـوت تَمْطُـرُ

فقال امرؤ القيس: لا والله لا أسـتوخمه. فرُوَيـدًا ينكشـف لـك دجاهـا عـن فرسان كندة وكتائب حمير. ولقد كان ذكر غير هذا أولى بى أَنْ كنـتَ نـازلًا برَبْعِـى. ولكنك قلتَ، فأجبتُ. فقال قبيصة: ما نتوقع فوق قدر المعاتبة والإعتاب. قال امرؤ القيس: فهو ذاك».

وهناك ضرب من الخطـب المنسـوبة للعصرـ الجـاهلى تثـير التسـاؤل، وهـى الخطب التى يقال إن بعضا مـن وجـوه العـرب ورؤسـائهم قـد ألقَوْهـا فى حضرـة العاهل الكِسْرَوِى بالمدائن، ودار الجـدال بينـه وبيـنهم حـول افتخـار العـرب عـلى غيرهم من الأمم بما فيها فارس نفسها، إذ يتساءل الإنسان: هل من المعقول أن يجرؤ أولئك العرب، الذين لم تكن لهم فى ذلك الحين دولة تحميهم مـن بطـش كسرـى إذا

فكر فى البطش بهم، على أن يتفاخروا فى وجهه ذلك الفخر المجلجل الذى يرفع العرب فوق كل الأمم؟ ثم إن الرواية تذكر أن وفودا من الصين والهند والروم كانت موجودة فى حضرة كسرى تتبادل التفاخر والتباهى بأصولها وأعراقها، فهل كان هناك فى تلك الأزمان ما يمكن أن نسميه: «حوار القوميات» أو «حوار الحضارات»؟ تقول الرواية:

«قدم النعمان بن المنذر على كسرى، وعنده وفود الروم والهند والصين،ذكروا من ملوكهم وبلادهم، فافتخر النعمان بالعرب وفضَّلهم على جميع الأمم لا يستثنى فارسَ ولا غيرها. فقال كسرى، وأخذته عزة المُلْك: يا نعمان، لقد فكرتُ فى أمر العرب وغيرهم من الأمم، ونظرتُ فى حالة من يقْدَم على من وفود الأمم فوجدتُ للروم حظا فى اجتماعِ أُلْفَتها وعِظَم سلطانها وكثرة مدائنها ووثيق بنيانها وأن لها دِينًا يبين حلالها وحرامها ويرد سفيهها ويقيم جاهلها. ورأيتُ الهند نحوا من ذلك فى حكمتها وطبّها مع كثرة أنهار بلادها وثمارها وعجيب صناعتها وطيب أشجارها ودقيق حسابها وكثرة عددها،وكذلك الصين فى اجتماعها وكثرة صناعات أيديها وفروسيتها وهمتها فى آلة الحرب وصناعة الحديد وأن لها ملكا يجمعها. والترك والخَزَر، على ما بهم من سوء الحال فى المعاش وقلة الريف والثمار والحصون وما هو رأس عمارة الدنيا من المساكن والملابس، لهم ملوك تضمّ قواصيهم وتُدَبِّر أمرهم. ولم أر للعرب شيئا من خصال الخير فى أمر دين ولا دنيا ولا حزم ولا قوة. ومع أن مما يدل على مهانتها وذلها وصغر همتها محلّتهم التى هم بها مع الوحوش النافرة والطير الحائرة. يقتلون أولادهم من الفاقة، ويأكل بعضهم بعضا من الحاجة. قد خرجوا من مطاعم الدنيا وملابسها ومشاربها ولهوها ولذّاتها، فأفضل طعامٍ ظفر به ناعِمُهم لحوم الإبل التى يعافها كثير من السباع لثقلها وسوء طعمها وخوف دائها. وإنْ قَرَى أحدهم ضيفا (أى أطعمه) عَدَّها مكرمة، وإن أطعم أكلة عَدَّها غنيمة. تنطق بذلك أشعارهم وتفتخر بذلك رجالهم، ما خلا هذه التَّنُوخِية التى أسس

جَدِّى اجتماعها وشد مملكتها ومنعها من عدوّها، فجرى لها ذلك إلى يومنا هذا. وإن لها مع ذلك آثارًا ولبوسًا وقُرًى وحصونًا وأمورًا تشبه بعض أمور الناس، يعنى اليمن. ثم لا أراكم تستكينون على ما بكم من الذلة والقلة والفاقة والبؤس حتى تفتخروا وتريدوا أن تنزلوا فوق مراتب الناس! قال النعمان: أصلح الله الملك. حَقَّ لأمّةٍ المَلِكُ منها أن يسْمُوَ فضلها ويعْظُم خَطْبها وتعلو درجتها، إلا أن عندى جوابا فى كل ما نطق به الملك فى غير رد عليه ولا تكذيب له. فإن أَمَّنَنِى من غضبه نطقتُ به. قال كسرى: قل، فأنت آمن.

قال النعمان: أما أُمَّتُك أيها الملك فليست تُنَازَع فى الفضل لموضعها الذى هى به من عقولها وأحلامها وبسطة محلّها وبُحْبُوحة عِزّها وما أكرمها الله به من ولاية آبائك وولايتك. وأما الأمم التى ذكرتَ فأى أمة تقرنها بالعرب إلا فَضَلَتْها؟ قال كسرى: بماذا؟ قال النعمان: بعزها ومَنَعَتها وحسن وجوهها وبأسها وسخائها وحكمة ألسنتها وشدة عقولها وأَنَفَتها ووفائها: فأما عزها ومنعتها فإنها لم تزل مجاورة لآبائك الذين دوّخوا البلاد ووطّدوا الملك وقادوا الجند، لم يطمع فيهم طامع، ولم ينلهم نائل. حصونهم ظهور خيلهم، ومِهَادهم الأرض، وسقوفهم السماء، وجُنَّتهم السيوف، وعُدَّتهم الصبر، إذ غيرها من الأمم إنما عِزّها من الحجارة والطين وجزائر البحور. وأما حُسْن وجوهها وألوانها فقد يعْرَف فضلهم فى ذلك على غيرهم من الهند المنحرفة والصين المُنْحَفَة والروم والترك المشوَّهة المقشَّرة. وأما أنسابها وأحسابها فليست أمةٌ من الأمم إلا وقد جَهِلَتْ آباءها وأصولها وكثيرا من أوّلها حتى إن أحدهم ليسْأَل عمن وراء أبيه دِنْيا (أى بعده مباشرة) فلا ينْسُبه ولا يعرفه، وليس أحد من العرب إلا يسمى آباءه أبًا فأبًا. حاطوا بذلك أحسابهم، وحفظوا به أنسابهم، فلا يدخل رجل فى غير قومه، ولا ينتسب إلى غير نسبه، ولا يدْعَى إلى غير أبيه. وأما سخاؤها فإن أدناهم رَجُلًا الذى تكون عنده البَكْرة والناب عليها بلاغُهُ فى حُموله وشِبَعه ورِيه فيطْرُقه الطارق الذى يكتفى بالفَلْذة ويجتزئ

بالشَّرْبة فيعْقِرها له ويرضى أن يخرج عن دنياه كلها فيما يكْسِبه حسن الأُحدوثة وطيب الذكر. وأما حكمة ألسنتهم فإن الله تعالى أعطاهم فى أشعارهم ورونق كلامهم وحُسْنه ووزنه وقوافيه مع معرفتهم الأشياء وضربهم للأمثال وإبلاغهم فى الصفات ما ليس لشيء من ألسنة الأجناس. ثم خيلهم أفضل الخيل، ونساؤهم أعفّ النساء، ولباسهم أفضل اللباس، ومعادنهم الذهب والفضة، وحجارة جبالهم الجَزْع، ومطاياهم التى لا يبْلَغ على مثلها سَفَر، ولا يقْطَع بمثلها بلدٌ قَفْر. وأما دينها وشريعتها فإنهم متمسكون به حتى يبلغ أحدهم من نُسُكه بدينه أنّ لهم أشهُرًا حُرُمًا وبلدا محرَّما وبيتا محجوجا ينْسِكون فيه مناسكهم ويذبحون فيه ذبائحهم فيلْقَى الرجل قاتل أبيه أو أخيه وهو قادر على أخذ ثأره وإدراك رَغْمه منه، فيحجزه كرمه ويمنعه دينه عن تناوله بأذًى. وأما وفاؤها فإن أحدهم يلحظ اللحظة ويومئ الإيماءة، فهى وَلْثٌ (أى عهد) وعقدة لا يحلها إلا خروج نفسه، وإن أحدهم يرفع عودا من الأرض فيكون رهنا بدينه فلا يغْلَق رهنه ولا تُخْفَر ذمته، وإن أحدهم ليبلغه أن رجلا استجار به، وعسى أن يكون نائيا عن داره، فيصاب فلا يرضى حتى يفْنِى تلك القبيلة التى أصابته أو تَفْنَى قبيلته لما أُخْفِر من جواره، وإنه ليلجأ إليهم المجرم الـمُحْدِث من غير معرفة ولا قرابة، فتكون أنفسهم دون نفسه، وأموالهم دون ماله. وأما قولك أيها الملك: «يئِدُون أولادهم» فإنما يفعله من يفعله منهم بالإناث أنفةً من العار وغيرةً من الأزواج. وأما قولك إن أفضل طعامهم لحوم الإبل على ما وصفْتَ منها فما تركوا ما دونها إلا احتقارا لها فعمدوا إلى أجلِّها وأفضلها فكانت مراكبَهم وطعامَهم مع أنها أكثر البهائم شحوما وأطيبها لحوما وأرقّها ألبانا وأقلّها غائلة وأحلاها مضغة،وإنه لا شيء من اللُّحْمان يعالج ما يعالَج به لحمها إلا استبان فضلها عليه.

وأما تحارُبهم وأَكْل بعضهم بعضا وتَرْكهم الانقياد لرجل يسُوسهم ويجمعهم فإنما يفعل ذلك من يفعله من الأمم إذا أَنِسَتْ من نفسها ضعفا وتخوَّفت نهوضَ

عدوها إليها بالزحف، وإنه إنما يكون فى المملكة العظيمة أهل بيت واحد يعْرَف فضلهم على سائر غيرهم فيلْقُون إليهم أمورهم وينقادون لهم بأَزِمّتهم. وأما العرب فإن ذلك كثير فيهم حتى لقد حاولوا أن يكونوا ملوكا أجمعين مع أنفتهم من أداء الخَرَاج والوَطْث (أى الوطء) بالعَسْف. وأما اليمن،التى وصفها الملك، فإنما أتى جَدّ الملك إليها الذى أتاه عند غلبة الحبش له على مُلْكٍ متّسقٍ وأمرٍ مجتمعٍ فأتاه مسلوبا طريدا مُسْتَصْرِخًا. ولولا ما وَتَرَ به من يليه من العرب لَمَال إلى مجالٍ ولَوَجَد من يجيد الطِّعان ويغضب للأحرار من غلبة العبيد الأشرار. فعجب كسرى لما أجابه النعمان به وقال: إنك لأهلٌ لموضعك من الرياسة فى أهل إقليمك. ثم كساه من كُسْوته وسرَّحه إلى موضعه من الحيرة.

فلما قدم النعمان الحِيرَة، وفى نفسه ما فيها مما سمع من كسرى مِنْ تنقُّص العرب وتهجين أمرهم، بعث إلى أكثم بن صيفى وحاجب بن زُرَارَة التميميين وإلى الحارث بن عباد وقيس بن مسعود البكريين وإلى خالد بن جعفر وعلقمة بن عُلَاثة وعامر بن الطُّفَيل العامريين وإلى عمرو بن الشريد السُّلَمِى وعمرو بن مَعْدِيكَرِب الزُّبَيدى والحارث بن ظالم المُرِّى.

فلما قدموا عليه فى الخَوَرْنق قال لهم: قد عرفتم هذه الأعاجم وقُرْب جوار العرب منها، وقد سمعتُ من كسرى مقالات تخوفتُ أن يكون لها غَوْر أو يكون إنما أظهرها لأمر أراد أن يتخذ به العربَ خَوَلًا (أى خُدّامًا) كبعض طماطمته (الطماطمة: الذين لا يحسنون الكلام) فى تأديتهم الخَرَاج إليه كما يفعل بملوك الأمم الذين حوله. فاقتصَّ عليهم مقالات كسرى وما ردَّ عليه، فقالوا: أيها الملك،وفقك الله! ما أَحْسَنَ ما رددتَ، وأَبْلَغَ ما حَجَجْتَه به! فمُرْنا بأمرك، وادْعُنا إلى ما شئت.

قال: إنما أنا رجل منكم، وإنما مَلَكْتُ وعَزَزْتُ بمكانكم وما يتخوَّف من ناحيتكم. وليس شيءٌ أحبَّ إلى مما سدَّد الله به أمركم وأصلح به شأنكم وأدام به

عزكم. والرأى أن تسيروا بجماعتكم أيها الرهط وتنطلقوا إلى كسرى، فإذا دخلتم نطق كل رجل منكم بما حضره ليعلم أن العرب على غير ما ظنَّ أوحدَّثته نفسه. ولا ينطقْ رجل منكم بما يغضبه، فإنه ملك عظيم السلطان كثير الأعوان مترف معجب بنفسه، ولا تنخزلوا له انخزال الخاضع الذليل. وليكن أمرٌ بين ذلك تظهر به وثاقة حُلُومكم وفَضْل منزلتكم وعظيم أخطاركم، وليكن أول من يبدأ منكم بالكلام أكثم بن صيفى، ثم تتابعوا على الأمر من منازلكم التى وضعتُكم بها، فإنما دعانى إلى التقدمة إليكم علمى بميل كل رجل منكم إلى التقدم قبل صاحبه، فلا يكوننَّ ذلك منكم فيجدَ فى آدابكم مطعنا، فإنه ملكٌ مترفٌ وقادرٌ مسلَّط. ثم دعا لهم بما فى خزائنه من طرائف حُلَل الملوك، كلّ رجل منهم حُلّة، وعمَّمه عمامة، وختَّمه بياقوتةٍ، وأمر لكل رجل منهم بنجيبةٍ مَهْرِية وفرسٍ نَجِيةٍ، وكتب معهم كتابا: «أما بعد، فإن المَلِك ألقى إلى من أمر العرب ما قد عَلِم، وأجبتُه بما قد فَهِم مما أحببتُ أن يكون منه على علم ولا يتلجلج فى نفسه أن أمة من الأمم التى احتجزتْ دونه بمملكتها وحَمَتْ ما يليها بفضل قوَّتها تبلغها فى شيء من الأمور التى يتعزز بها ذوو الحزم والقوة والتدبير والمكيدة. وقد أوفدتُ، أيها الملك، رَهْطًا من العرب لهم فضلٌ فى أحسابهم وأنسابهم وعقولهم وآدابهم، فلْيسمع الملك ولْيغْمِضْ عن جفاءٍ إن ظهر من منطقهم، ولْيكْرِمْنى بإكرامهم وتعجيل سَرَاحهم. وقد نسبتُهم فى أسفل كتابى هذا إلى عشائرهم».

فخرج القوم فى أُهْبَتهم حتى وقفوا بباب كسرى بالمدائن، فدفعوا إليه كتاب النعمان، فقرأه وأمر بإنزالهم إلى أن يجلس لهم مجلسا يسمع منهم. فلما أن كان بعد ذلك بأيامٍ أمر مرازبتَه ووجوهَ أهل مملكته، فحضروا وجلسوا على كراسى عن يمينه وشِماله، ثم دعا بهم على الولاء والمراتب التى وصفهم النعمان بها فى كتابه، وأقام الترجمانَ ليؤدى إليه كلامهم ثم أذن لهم فى الكلام.

فقام أكثم بن صيفى فقال: إن أفضل الأشياء أعاليها، وأعلى الرجال ملوكها، وأفضل الملوك أعمّها نفعا، وخير الأزمنة أخصبها، وأفضل الخطباء أصدقها. الصدق منجاة، والكذب مهواة، والشر لجاجة، والحزم مركبٌ صعب، والعجز مركبٌ وَطِيءٌ. آفة الرأى الهوى، والعجز مفتاح الفقر، وخير الأمور الصبر. حسن الظن ورطة، وسوء الظن عصمة. إصلاح فساد الرعية خير من إصلاح فساد الراعى. من فسدت بطانته كان كالغاصِّ بالماء. شر البلاد بلاد لا أَمِيرَ بها. شر الملوك من خافه البريء. المرء يعجز لا المحالة. أفضل الأولاد البررة. خير الأعوان من لم يرَاءِ بالنصيحة. أحقّ الجنود بالنصر من حسنت سريرته. يكفيك من الزاد ما بلَّغك المحلّ. حَسْبُك من شرٍّ سماعه. الصمت حُكْمٌ، وقليلٌ فاعله. البلاغة الإيجاز. من شدَّد نفَّر، ومن تراخى تألَّف. فتعجب كسرى من أكثم ثم قال: ويحك يا أكثم! ما أحكمك وأوثق كلامك لولا وَضْعُك كلامك فى غير موضعه. قال أكثم: الصدق ينبئ عنك لا الوعيد. قال كسرى: لو لم يكن للعرب غيرك لكفى. قال أكثم: رُبَّ قولٍ أَنْفَذُ من صَوْل.

ثم قام حاجب بن زُرَارَة التميمى فقال: وَرِى زَنْدك، وعَلَتْ يدك، وهِيبَ سلطانك ؛إن العرب أمة قد غَلُظَتْ أكبادها واستحصدت مِرَّتها ومنعت دِرَّتها،روهى لك وامقة ما تألَّفْتَها، مسترسلة ما لاينْتَها، سامعة ما سامحتها، وهى العلقم مرارةً، والصابُ غضاضةً، والعسل حلاوةً، والماء الزلال سلاسة. نحن وفودها إليك، وألسنتها لديك. ذمتنا محفوظة، وأحسابنا ممنوعة، وعشائرنا فينا سامعة مطيعة. إن نَؤُبْ لك حامدين خيرا فلك بذلك عموم مَحْمَدتنا، وإن نَذُمّ لم نُخَصَّ بالذم دونها. قال كسرى: يا حاجب، ما أشبه حجر التلال بألوان صخرها! قال حاجب: بل زئير الأُسْد بصَوْلَتها. قال كسرى: وذلك.

ثم قام الحارث بن عباد البكرى فقال: دامت لك المملكة باستكمال جزيل حظها وعلو سنائها. من طال رِشَاؤه كَثُرَ مَتْحُه، ومن ذهب ماله قلَّ مَنْحُه. تناقُل

الأقاويل يعرِّف اللُّبّ، وهذا مقامٌ سيوجِف بها ينطق به الرَّكْب، وتَعْرِف به كُنْهَ حالنا العجمُ والعرب. ونحن جيرانك الأَدْنَوْن، وأعوانك المـُعِينون. خيولنا جَمَّة، وجيوشنا فخمة. إن استنجدتَنا فغَيرُ رُبُض، وإن استطرقتَنا فغير جُهُض، وإن طلبتنا فغير غُمُض. لا ننثنى لذعر، ولا نتنكر لدهر. رماحنا طوال، وأعمارنا قصار. قال كسرى: أنفسٌ عزيزة، وأمةٌ ضعيفة. قال الحارث: أيها الملك، وأنَّى يكون لضعيفٍ عِزّة، أو لصغيرٍ مِرّة؟ قال كسرى: لو قَصُرَ عمرك لم تستول على لسانك نفسُك. قال الحارث: أيها الملك، إن الفارس إذا حمل نفسه على الكتيبة مغرِّرًا بنفسه على الموت فهى منيةٌ استقبلها، وجنانٌ استدبرها. والعرب تعلم أنى أبعث الحرب قُدُمًا، وأحبسها وهى تَصَرَّفُ بها، حتى إذا جاشتْ نارها وسَعَرَتْ لظاها وكشفتْ عن ساقها جعلتُ مَقادها رمحى، وبرقها سيفى، ورعدها زئيرى، ولم أقصِّر عن خوض خَضْخَاضها حتى أنغمس فى غمرات لُجَجها، وأكون فُلْكًا لفرسانى إلى بُحْبُوحة كبشها فأستمطرها دما، وأترك حُمَاتها جَزَر السِّباع وكلِّ نَسْرٍ قَشْعَم (أى أقتلهم وأتركهم للسباع والنسور تنهش جثثهم). ثم قال كسرى لمن حضره من العرب: أكذلك هو؟ قالوا: فَعَاله أَنْطَقُ من لسانه. قال كسرى: ما رأيت كاليوم وفدا أَحْشَد، ولا شهودا أَوْفَد.

ثم قام عمرو بن الشريد السُّلَمِى فقال: أيها الملك، نَعِمَ بالُك، ودام فى السرور حالُك. إن عاقبة الكلام متدبَّرة، وأشكال الأمور معتبَرة، وفى كثيرٍ ثِقْلَة، وفى قليلٍ بُلْغَة، وفى الملوك سَوْرَة العِزّ. وهذا منطقٌ له ما بعده، شَرُفَ فيه مَنْ شَرُفَ، وخَمَلَ فيه مَنْ خَمَل. لم نأت لضَيمك، ولم نَفِدْ لسخطك، ولم نتعرض لرِفْدِك (أى عطائك). إن فى أموالنا منتقَدًا، وعلى عزّنا معتمَدًا. إنْ أَوْرَينا نارا أَثْقبنْا، وإنْ أَوِدَ دهرٌ بنا اعتدلنا، إلا أنّا مع هذا لجِوَارك حافظون، ولمن رامَكَ كافحون، حتى يَحْمَد الصَّدَر، ويستطاب الخبَر. قال كسرى: ما يقوم قَصْدُ منطقك بإفراطك، ولا مدحُك بذمِّك. قال عمرو: كفى بقليلِ قصدى هاديا، بأيسر إفراطى مُخْبِرًا. ولم يلَمْ مَنْ غَرَبَتْ نفسُه

عما يعلم، ورَضِي من القصد بما بلغ. قال كسرى: ما كلُّ ما يعرف المرء ينطق به. اجلس.

ثم قام خالد بن جعفر الكلابى فقال: أحضر الله الملك إسعادا، وأرشده إرشادا. إن لكل منطق فرصة، ولكل حاجة غُصّة، وعِي المنطق أشدّ من عِي السكوت، وعِثَار القول أنكأ من عثار الوَعْث. وما فرصة المنطق عندنا إلا بما نَهْوَى، وغصة المنطق بما لا نهوى غير مستساغة، وتركى ما أعلم مِنْ نفسى ويعلم مَنْ سمعنى أننى له مطيق أَحَبُّ إلى من تكلُّفى ما أتخوَّف ويتَخَوَّف منى. وقد أوفدَنا إليك مَلِكُنا النعمان، وهو لك من خير الأعوان، ونِعْم حاملُ المعروف والإحسان. أنفسنا بالطاعة لك باخعة، ورقابنا بالنصيحة خاضعة، وأيدينا لك بالوفاء رهينة. قال له كسرى: نطقتَ بعقلٍ، وسَمَوْتَ بفَضْلٍ، وعَلَوْتَ بنُبْل.

ثم قام علقمة بن عُلَاثة العامرى فقال: نَهَجَتْ لك سُبُل الرشاد، وخضعت لك رقاب العباد. إن للأقاويل مناهج، وللآراء مَوَالج، وللعويص مخارج، وخير القول أصدقه، وأفضل الطلب أنجحه. إنا، وإن كانت المحبة أحضرتْنا والوفادة قرّبتْنا، فليس مَنْ حَضَرك منا بأفضل ممن عَزَب عنك. بل لو قِسْتَ كل رجل منهم وعلمت منهم ما علمنا لوجدتَ له فى آبائه دِنْيا أندادا وأكفاء كلُّهم إلى الفضل منسوب، وبالشرف والسؤدد موصوف، وبالرأى الفاضل والأدب النافذ معروف. يحمى حماه، ويرْوِى ندامَاه، ويذود أعداه. لا تخمد ناره، ولا يحترز منه جاره. أيها الملك، من يبْلُ العربَ يعرف فضلهم،فاصطنع العرب، فإنها الجبال الرواسى عِزًّا، والبحور الزواخر طَمْيا، والنجوم الزواهر شرفًا، والحصى عددًا، فإن تعرف لهم فضلهم يعِزّوك، وإن تستصرخْهم لا يخذلوك. قال كسرى، وخَشِى أن يأتى منه كلام يحمله على السخط عليه: حَسْبُكَ! أَبْلَغْتَ وأَحْسَنْتَ!

ثم قام قيس بن مسعود الشيبانى فقال: أطاب الله بك المـرَاشِد، وجنَّبك المصائب، ووقاك مكروه الشَّصَائب (الشدائد). ما أحقَّنا، إذ أتيناك، بإسماعك ما لا

يخْنِق صدرك، ولا يزرع لنا حقدا فى قلبك! لم نَقْدَم أيها الملك لمساماة، ولم ننتسب لمعاداة، ولكن لِتَعْلَمَ أنت ورعيتك ومن حضرك من وفود الأمم أنّا فى المنطق غير مُحْجِمين، وفى الناس غير مقصِّرين. إن جُورِينا فغير مسبوقين، وإن سُومِينا فغير مغلوبين. قال كسرى: غير أنكم، إذا عاهدتم، غير وافين (وهو يعرِّض به فى تركه الوفاء بضمانه السواد). قال قيس: أيها الملك، ما كنتُ فى ذلك إلا كَوَافٍ غُدِرَ به، أو كخافرٍ أُخْفِرَ بذمّته. قال كسرى: ما يكون لضعيفٍ ضمانٌ، ولا لذليلٍ خَفَارة. قال قيس: أيها الملك، ما أنا فيما أُخْفِرَ من ذمتى أحقّ بإلزامى العارَ منك فيما قُتِلَ من رعيتك، وانْتُهِكَ من حُرْمتك. قال كسرى: ذلك لأن من ائْتَمَنَ الخانَة (أى الخَوَنة)، واستنجد الأَثَمَة، ناله من الخطإ ما نالنى، وليس كل الناس سواء. كيف رأيتَ حاجب بن زرارة؟ لِمَ يحْكِم قُوَاه فيبْرِم، ويعْهَد فيوفِى،ويعِد فينْجِز؟ قال: وما أحقَّه بذلك! وما رأيتُه إلا لى. قال كسرى: القوم بُزُلٌ (البازِل: الناقة المسنّة)، فأفضلها أشدّها.

ثم قام عامر بن الطفيل العامرى فقال: كَثُرَ فنون المنطق، ولَبْسُ القول أعمى من حِنْدِس الظلماء، وإنما الفخر فى الفَعال، والعَجْز فى النجدة، والسؤدد مطاوَعَة القدرة. وما أَعْلَمَك بقدْرنا، وأَبْصَرَك بفضلنا! وبالحَرَى إن أدالت الأيام، وثابَت الأحلام، أن تُحْدِث لنا أمورا لها أعلام. قال كسرى: وما تلك الأعلام؟ قال: مجتمع الأحياء من ربيعة ومضر، على أمرٍ يذْكَر. قال كسرى: وما الأمر الذى يذْكَر؟ قال: ما لى علمٌ بأكثر مما أخبرنى به مُخْبِر. قال كسرى: متى تكاهَنْتَ يا ابن الطفيل؟ قال: لستُ بكاهن، ولكنى بالرمح طاعن. قال كسرى: فإن أتاك آتٍ من جهة عينك العوراء، ما أنت صانع؟ قال: ما هَيبَتى فى قفاى بدون هيبتى فى وجهى، وما أَذْهَبَ عينى عَيث، ولكن مطاوَعة العَبَث.

ثم قام عمرو بن مَعْدِيكَرِب الزّبيدِى فقال: إنما المرء بأصغرَيه: قلبه ولسانه،فبلاغُ المنطق الصواب، ومِلَاك النُّجْعة الارتياد، وعفو الرأى خير من

استكراه الفكرة، وتوقيف الخبرة خير من اعتساف الحيرة، فاجْتَبِذْ (اجتذبْ) طاعتنا بلفظك، واكتظم بادِرَتنا بحِلْمك، وأَلِنْ لنا كَنَفك يسْلَس لـك قِيادُنـا، فإنـا أنـاسٌ لم يوَقِّسْ صَفَاتَنا (أى لم يخدش صخرتنا) قِرَاعُ مناقير مَـنْ أراد لنـا قَضْـمًا،ولكنْ مَنَعْنـا حِمَانا مِنْ كلّ مَنْ رامَ لنا هَضْمًا.

ثم قام الحارث بن ظالم الـمُرِّى فقال: إن من آفة المنطـق الكـذب، ومـن لـؤم الأخلاق المَلَق، ومن خَطَل الرأى خفة الملك المسلَّط. فإن أعلمناك أن مواجهتنا لك عن ائتلاف، وانقيادنا لك عن تصاف، فما أنت لِقبول ذلك منا بخَلِيق، ولا للاعتماد عليه بحَقِيق، ولكن الوفاء بالعهود، وإحكـام وَلْـث العقـود. والأمـر بيننـا وبينـك معتدل ما لم يأت مِنْ قِبَلك ميل أو زلل. قال كسرى: من أنـت؟ قـال: الحـارث بـن ظالم. قال: إن فى أسماء آبائك لَدليلا على قلة وفائك وأن تكون أولى بالغدر، وأقـرب من الوِزْر. قال الحارث: إن فى الحق مَغْضَبَة، والسَّرْوُ التغافل،ولن يستوجب أحـدٌ الحِلْمَ إلا مع القدرة، فلْتُشْبِه أفعالُك مجلسَك. قال كسرى: هذا فتى القوم. ثـم قـال كسرى: قد فهمتُ ما نطقتْ به خطباؤكم، وتفنَّن فيه متكلموكم. ولولا أنـى أعلـم أن الأدب لم يثقِّف أَوَدَكم ولم يحْكِم أمركم وأنه ليس لكم مَلِـكٌ يجمعكـم فتنطقـون عنده منطقَ الرعية الخاضعة الباخعة فنطقتُم بما استولى عـلى ألسـنتكم وغَلَـبَ عـلى طباعكم لم أُجِزْ لكم كثيرا مما تكلمتم بـه. وإنـى لأكـره أن أَجْبَـه وفـودى أو أُحْنِـق صدورهم. والذى أُحِبّ هو إصلاح مُدْبِركم وتألُّف شواذّكم والإعذار إلى الله فـيما بينى وبينكم. وقد قبلتُ ما كان فى منطقكم من صواب، وصفحتُ عما كان فيه مـن خلل،فانصرـفوا إلى مَلِككـم، فأَحْسِـنوا مؤازرتـه، والتزمـوا طاعتـه، واردعـوا سفهاءكم، وأقيموا أَوَدَهم، وأَحْسِنوا أدبهم، فإن فى ذلك صلاح العامة».

وأول شيء يلفت النظر هو: كيف استطاع النعمان أن يجمع هؤلاء الرجال من كل أرجاء بلاد العرب، وهو الذى لم يكن له سلطان إلا على منطقة الحـيرة فى شـمال شرق الجزيرة العربية؟ وكيف ورد فى كلامه مصطلحا «الـوزن والقافيـة» لموسـيقى

الشعر، وهما لفظان لم تكن العرب تعرفهما فى ذلك المعنى آنذاك؟ وكيف سولت له نفسه المقارنة بين الشعر العربى وأشعار الأمم الأخرى جميعا،وهو الذى لم يكن يعرف سوى شعر أمته ليس إلا؟ ثم إن خطبة أكثم بن صيفى ليست فى الواقع خطبة، بل مجموعة من الأمثال التى تُنْسَب إليه وُصِل بعضها ببعض وصلًا متعسَّفًا،إذ ليس لها محور واحد تدور عليه، بل كلمة من الشرق،وكلمة من الغرب،إن كنا لا نقلل من قيمة كل كلمة فى حد ذاتها،لكننا نستغرب أن تكون هذه هى الخطبة التى انتدب النعمان بن المنذر أكثم لإلقائها فى حضرة كسرى تنبيها له على فضل أمة العرب، على حين لا علاقة بينها وبين هذا الموضوع بتاتًا. كما وردت فى الخطبة عبارة لم يعرفها العرب، فيما نتصور، إلا عندما تقدمت العلوم عندهم ونشأ علم البلاغة وحاول النقاد تقنين الكلام البليغ، ألا وهى عبارة «البلاغة الإيجاز». كذلك هناك كلمة «شريعة» التى استعملها النعمان للإشارة إلى أحكام الوثنية، والسؤال هو: أكان العرب يستعملون هذه الكلمة فيما أصبحت تُسْتَعْمَل له بعد الإسلام؟ وهل كان العرب أصلًا يسمّون ما هم عليه من تقاليد جاهلية: «شريعة»؟ لقد بحثت فى «الموسوعة الشعرية» الضوئية عن شواهد فى الشعر الجاهلى لهذه الكلمة فلم أجد إلا بيتا واحدا لا علاقة له البتة بهذا المعنى. ثم هل تُوَاتِى نَفْسَ أى عربى فى محضر كسرى أن يدعو الفرس بـ«الأعاجم» مثلما فعل الحارث بن عباد البكرى، وهى كلمة مسيئة فى حقهم كما نعرف، إذ تسوى بينهم وبين العجماوات؟

وبالمثل هل من السهل قبول ما جاء فى القصة من أن عَمْرَ بن الشريد قد جَبَهَ ملك الفرس بهذا الكلام الجافى الذى يحمل من التحدى الساطع ما يحمل: «لم نأت لضَيمك، ولم نَفِدْ لسخطك، ولم نتعرض لرِفْدك. إن فى أموالنا منتقَدًا،وعلى عزّنا معتمَدا»؟ أو أن يقرّع الحارثُ بن ظالمٍ المرِّى كسرى بهذه الكلمات التى تنصحه بالارتفاع إلى مستوى السلوك اللائق بالملوك: «إن فى الحق مَغْضَبة، والسَّرْوُ التغافل، ولن يستوجب أحدٌ الحِلْم إلا مع القدرة. فلْتُشْبِهْ أفعالُك مجلسَك»؟ أو أن يهدده

عامر بن الطفيل بما لوّح له به من إمكان انتقاض العرب عليه وحربهم إياه حتى ليغضب كسرى مما قال، بينما هو غير مبالٍ، وكأنه لم يقل شيئا؟ وإنْ خفّفَ من ذلك تنبيهُ النعمان للعاهل الفارسى منذ البداية إلى خشونة رسله وتعليق كسرى فى النهاية بأنه إنما يصفح عما فى كلامهم من جفاء وخشونة لما يعلمه عنهم من قلة خبرتهم بمخاطبة الملوك. وبالمناسبة فخُطَب أشراف العرب فى قصتنا هذه قد صُبَّتْ فى لغةٍ أقرب إلى الترسُّل منها إلى السجع، وهذا هو الأقرب أن يكون فى مثل ذلك الموقف وتلك الظروف.

وفى نهاية التحليل نقول إنه ليغلب على الظن أن يكون لهذه القصة أصل تاريخى على نحو أو على آخر وأنها قد وصلت المدوّنين فى العصر العباسى فى خطوطها العامة ثم توسع فيها الرواة فيما بعد، فأضافوا إليها كثيرا من التفاصيل، وجهدوا أن يردّوا، من خلال ما أضافوه، على ما كان الشعوبيون يتنقَّصّون به العربَ فى العصر العباسى ويقلِّلون من شأنهم لفتحهم بلادهم وبسطهم سلطانهم عليهم؛ولا شك إن إشارة القصة فى بدايتها إلى وجود الترجمان فى تلك المناسبة لَتُشَكِّل لمسة واقعية تزيد مصداقيتها، كما أن ذكر القصة لمعايب العرب وبعض من اشتركوا فى هذا الموقف من خطباء هو مما يعضد الاقتناع بأنها قد وقعت فعلًا على نحو من الأنحاء.

على أن ثَمَّةَ نصوصًا أخرى من الخطب والأحاديث يغلب عليها التكلف فى هندسة العبارات والاستقصاء فى المعانى والتشقيق فى التفاصيل بحيث لا يكاد المتكلم يترك شاردة ولا واردة دون أن يذكرها مما يجعلنا لا نثق فى جاهليتها أو نشتبه على الأقل فى أنها لم تبق على حالها الأول بل أُجِيل فيها قلم التحوير والصقل والتزيين، كوصف عصام الكِنْدِية لأم إياس بنت عَوْف بن مُحَلِّم الشيبانى فى النص التالى: «لما بلغ الحارثَ بن عمرو مَلِكَ كِنْدَة جمالُ أم إياس بنت عَوْف بن مُحَلِّم الشيبانى وكمالها وقوة عقلها أراد أن يتزوجها، فدعا امرأةً من كِنْدَة يقال لها: عِصَام،

ذات عقل ولسان وأدب وبيان، وقال لها: اذهبى حتى تَعْلَمى لى عِلْمَ ابنة عوف. فمضت حتى انتهت إلى أمها أمامةَ بنتِ الحارث فأعلمتها ما قَدِمَتْ له، فأرسلت أمامةُ إلى ابنتها وقالت: أَى بُنَية، هذه خالتك أتت إليك لتنظر إلى بعض شأنك، فلا تسترى عنها شيئا أرادت النظر إليه من وجهٍ وخُلُق، وناطِقيها فيما استنطَقَتْكِ فيه. فدخلت عصام عليها فنظرتْ إلى ما لم تر عينُها مثلَه قَطُّ بهجة وحسنا وجمالا، فإذا هى أكمل الناس عقلا وأفصحهم لسانا، فخرجت من عندها وهى تقول: «تَرَكَ الخداعَ مَنْ كَشَفَ القناع»،فذهبت مثلا.

ثم أقبلتْ إلى الحارث فقال لها: «ما وراءك يا عصام؟»، فأرسلها مثلا. قالت: «صَرَّحَ المَخْضُ عن الزبد»، فذهبت مثلا. قال: أخبرينى. قالت: أُخْبِرك صدقًا وحَقًّا. رأيتُ جبهة كالمرآة الصقيلة يزينها شعرٌ حالكٌ كأذناب الخيل المضفورة، إن أَرْسَلَتْه خِلْتَه السلاسل، وإن مَشَطَتْه قلتَ: عناقيدُ كَرْمٍ جلاها الوابل، وحاجبين كأنهما خُطّا بقلم، أو سُوِّدَا بحُمَم، قد تقوّسا على عينى الظبية العَبْهَرَة (البيضاء الرقيقة البَضّة)، التى لم يرُعْها قانص ولم يذْعَرها قَسْوَرَة (أى الأسد)، بينهما أنفٌ كحَدّ السيف المصقول، لم يخْنَس به قِصَرٌ ـ ولم يمض به طول، حَفَّتْ به وَجْنتان كالأُرْجُوَان، فى بياضٍ محْضٍ كالجُمان، شُقَّ فيه فم،كالخاتم لذيذ المُبْتَسَم، فيه ثنايا غُرٌّ ذواتُ أَشَر، وأسنانٌ تبدو كالدُّرَر، وريقٌ كالخمر له نَشْر الروض بالسَّحَر، يتقلب فيه لسان، ذو فصاحة وبيان، يحركه عقل وافر، وجواب حاضر، تلتقى دونه شفتان حمراوان كالورد، يحلبان ريقا كالشهد، تحت ذلك عنق كإبريق الفضة، رُكِّب فى صدرٍ كصدر تمثال دمية،يتصل به عَضُدان ممتلئان لحمًا، مكتنزان شحمًا، وذراعان ليس فيهما عَظْمٌ يحَسّ، ولا عِرْقٌ يجَسّ، رُكِّبَتْ فيهما كفّان دقيقٌ قَصَبُهما، لينٌ عَصَبُهما، تعقد إن شئتَ منهما الأنامل، وتُرَكَّب الفصوص فى حُفَر المفاصل، وقد تربَّع فى صدرها حُقّان كأنهما رمانتان يخرقان عليها ثيابها، تحت ذلك بطنٌ طُوِى كطَى القَبَاطِى (أى الملابس الرقيقة المُتَّخَذَة من الكَتّان) المُدْمجَة، كُسِى عُكَنًا (العُكَن:

ثنيات البطن) كـالقراطيس المـُدْرَجَة، تحيط تلـك العُكَـنُ بسُرَّـة كَمُـدْهُن العـاج المجلوّ،خلْفَ ذلك ظهرٌ، كالجدول ينتهى إلى خَصْرٍ، لولا رحمة الله لانبتر، تحته كَفَـلٌ يقْعِدها إذا نهضتْ، وينْهِضها إذا قعدتْ، كأنـه دِعْـصُ رمـلٍ، لبَّـده سـقوط الطـل، يحمله فخذان لفَّاوان، كأنهما نَضِيد الـجُمَان، تحـتهما سـاقان خَـدَلَّجَتان، حمـل ذلـك قدمان، كحَذْو اللسان، فتبارك الله مع صغرهما، كيف تطيقان حمل ما فـوقهما؟ فأمـا ما سوى ذلك فتركتُ أن أصفه، غير أنه أحسـن مـا وصـفه واصـف بـنَظْمٍ أو نَثْـر. فأرسل الملك إلى أبيها فخطبها فزوَّجه إياها».

إن هذا لَبِكتابة تقرير فنى فى مسابقات ملكـات الجـمال يضـع نُصْـبَ عينيـه تقديم وصف تفصيلى لكل ملمـح أو عضـو مـن أعضـاء الفتـاة المشـتركة فى تلـك المسـابقات أشـبهُ منـه بحـديثِ خاطبـةٍ إلى ملـك مـن ملـوك العـرب فى تلـك العصور،وبخاصة أن الوصف لم يتنزه عن تناول أشد مناطق الجسد حساسية مما من شأنه إثارة غيرة الرجل الكريم حتى لو كان المقصود هو البحث له عن زوجة تمتعـه وتَسُرّه! وفضلا عن ذلك فإنى لا أظن امرأة عربية فى تلك العصور كانت ترضى بأن تتجرد من ملابسها وتذهب فتستعرض مفاتنها الداخلية على هذا النحـو ولا حتـى أمام أمها! والطريف أنه، بعد كل ما قالته المرأة الكِنْدِية فى وصف جمال الفتاة، تعـود فتقول: «فأما ما سوى ذلك فتركتُ أن أصفه، غير أنـه أحسـن مـا وصـفه واصـف بنظم أو نثر». فهل تراها تركتْ شيئا لم تصفه مما يحتاج الرجل معرفته عن أية امرأة؟ وإلى جانب هذا لا ينبغى أن ننسى أن تعبيرات مثـل «خلْـفَ ذلـك ظهـرٌ كالجـدول ينتهى إلى خَصْرٍ، لولا رحمة الله لانبتر»،«فتبارك الله مع صغرهما، كيف تطيقـان حمـل ما فوقهما؟» لا تصدر غالبا إلا عن مسلم فى العصر العباسى فنازلًا حين كان الأدباء يستخدمون مثل هذه العبارات الماجنة التى يوهِم ظاهرُها بالتدين رغم ذلك، وهـو مجون تشفّ عنه العبارة التالية بدورها أحسن شَفّ: «تحته كَفَلٌ يقْعِدها إذا نهضـتْ، وينْهِضها إذا قعدتْ»، إلى جانب التلاعب البديعى المعقَّد الذى لم يكن لهم به عهـد،

إذ فيها موازنة ومقابلة وسجع وتورية ورَدٌّ للأعجاز على الصدور فى وقت معا. وهناك أيضا المقابلة بين «النظم والنثر» فى قولها: «غير أنه أحسنُ ما وصفه واصفٌ بنَظْمٍ أو نَثْر»،وهى عبارة أستبعد أن يعرفها الجاهليون. ولا أظنهم كانوا يستخدمون لفظى «النظم والنثر» بالمعنى الاصطلاحى الذى عُرِفَتَا به فى دنيا الأدب والنقد فيما بعد!

كذلك من حق الباحث أن يتساءل: أمن المعقول أن أُمًّا من الأمهات حين تريد أن تنصح بنتها فى ليلة زفافها تلجأ إلى مثل هذه العبارات المسجوعة المجنَّسة المتوازنة (رغم ما فى السجع والجناس والتوازن هنا من بساطة) كما فى النص التالى الذى تخاطب فيه أمامةُ بنت الحارث بنتَها أم إياس التى مر بنا آنفا وصف عصام الكندية العجيب لها؟: «أَى بُنَية، إن الوصية لو تُرِكَتْ لفَضْل أدبٍ تُرِكَتْ لذلك منك، ولكنها تذكرة للغافل، ومعونة للعاقل. ولو أن امرأةً استغنتْ عن الزوج لِغَنَى أبويها وشدة حاجتهما إليها كنتِ أغنى الناس عنه،ولكن النساء للرجال خُلِقْنَ، ولهنّ خُلِق الرجال. أى بُنَية، إنك فارقتِ الجو الذى منه خَرَجْتِ، وخلَّفْتِ العُشّ الذى فيه دَرَجْتِ، إلى وكرٍ لم تعرفيه، وقرينٍ لم تألفيه، فأصبح بمُلْكه عليك رقيبًا ومَلِيكًا، فكونى له أَمَةً يكن لك عبدًا وشيكا. يا بُنَية، احملى عنى عشر ـ خصال تكن لك ذخرا وذكرا: الصحبة بالقناعة، والمعاشرة بحسن السمع والطاعة، والتعهد لموقع عينه، والتفقد لموضع أنفه، فلا تقع عينه منك على قبيح، ولا يشم منك إلا أطيب ريح،والكحل أحسن الحُسْن الموجود، والماء أطيب الطِّيب المفقود، والتعهد لوقت طعامه، والهُدُوّ عنه عند منامه، فإن حرارة الجوع مَلْهَبة، وتنغيص النوم مَغْضَبة،والاحتفاظ ببيته وماله، والإرعاء على نفسه وحَشَمه وعياله، فإن الاحتفاظ بالمال حسن التقدير، والإرعاء على العيال والحَشَم جميل التدبير. ولا تفشى له سرا، ولا تعصى له أمرا، فإنك إن أفشيت سره لم تأمنى غدره، وإن عصيت أمره أَوْغَرْتِ صدره. ثم اتَّقِى مع ذلك الفرحَ إن كان تَرِحًا، والاكتئابَ عنده إن كان

فَرِحًا، فإن الـخَصْلة الأولى من التقصير، والثانية من التكدير. وكونى أشد ما تكونين له إعظامًا، يكن أشد ما يكون لك إكرامًا، وأشد ما تكونين له موافَقَة، يكن أطول ما تكونين له مرافَقَة. واعلمى أنك لا تَصِلِين إلى ما تحبين حتى تُؤْثِرى رضاه على رضاك، وهواه على هواك، فيما أحببتِ وكرهتِ، والله يخِير لكِ».

لا أظن، فى واقع الأمر، أن الأم، حتى لو كانت أديبة، يمكن أن تنهج فى حديثها الشفوى المباشر مع ابنتها هذا النهج، بخلاف ما لو قصدت أن تُخَلِّف وراءها عملا من الأعمال الأدبية التى تبقى على مدى الزمان، فإنها حينئذ تحتشد لذلك وتجتهد فى كتابة نصيحة محبَّرة موشَّاة لبنتها ولكل بنات العالمين تبقى مدى الدهر، لكن هذا شيء آخر غير ما نحن بسبيله الآن. ومع هذا فإنى معجبٌ إعجابًا شديدًا بكلام الأم الرائع البديع لغة ومضمونا!

والواقع أن انشغالى بمسألة بروز السجع والجناس وما إليه فى كثير من خطب الجاهليين سَبَبُه افتقادى لذلك فى نظيراتها من خُطَب الرسول والخلفاء الراشدين، اللهم إلا ما جاء عَفْوًا بين الحين والحين. فلماذا كان كثير من الخُطَب التى وردتنا عن عصر ما قبل الإسلام على هذا النحو من الاهتمام بالسجع والجناس والتوازن بخلاف ما عليه الخُطَب فى صدر الإسلام بوجه عام، فضلا عن أن السجع والمحسنات البديعية فيها كانت، كما يفْهَم من الرواية، ارتجالا وبديهة؟ فهل يستطيع الخطباء، وبالذات فى ذلك العصر قبل أن يلتفت العرب إلى هذه التزاويق ويصبح الحرص عليها جزءا من التركيبة الذهنية الإبداعية عندهم، أن يرتجلوا كلاما مُحَسَّنا بالبديع على هذا النحو الذى نراه فى عدد من الخطب الجاهلية؟ هذه هى النقطة التى تحيك فى صدرى بالنسبة لصحة نصوص الخطب الجاهلية، أما ما سوى ذلك من ملاحظات فما أسهل التعامل معها والخروج منها بالنتائج التى يؤدى إليها المنطق كما رأينا فيما مرّ. أيكون المسلمون الأوائل قد نفروا من الجرى خلف السجع بسبب ارتباطه بالكهان؟ أتراهم كانوا يلْقُون بكل ثقلهم وراء المضمون والوصول به إلى

الإقناع وتحويله إلى واقع تطبيقى بدلا من المتعة الفنية المتمثلة هنا فى البديع فى حد ذاتها، إذ كانوا بصدد تكوين دولة تضم العرب جميعا لأول مرة فى تاريخهم المعروف، ثم بصدد صراع ضارٍ مع القوى العالمية الكبرى حولهم، صراع حياة أو موت، فلم يكن لديهم البال الخالى للاهتمام بالسجع والمحسنات البديعية؟ أترى الجاهليين،وهم الأميون، كانوا يعوّلون على موسيقى السجع والجناس والتوازن لتسهيل حفظ النصوص النثرية كالخطب والمنافرات؟ مرة أخرى أجدنى أقول: هذه هى النقطة التى تحيك فى صدرى بالنسبة لصحة نصوص الخطب الجاهلية.

ومع ذلك فها هو ذا الجاحظ، فى «البيان والتبيين»، يقرر أن العرب فى جاهليتهم كانوا يعتمدون السجع فى بعض ضروب الخطابة كالمنافرة والمفاخرة، والترسُّل فى بعضها الآخر كما هو الحال فى خطب الصلح والمعاهدات، وهو ما يدل على أنه لا يجد فيها شيئا مما يحيك فى صدرى تجاه هذه المسألة. ولعل موقف الجاحظ أحرى بالقبول من موقفى لأنه كان أعرف بالأدب العربى قبل الإسلام من واحد مثلى لقربه من عصر الجاهلية ومعرفته الموسوعية بالثقافة العربية وآدابها كما هو معلوم للجميع، فوق أنه كان أديبا كبيرا، وبلاغيا عجيبا، وناقدا ذواقة للكلام، ودارسا ومحللا للنصوص والأساليب من الطراز الأول، ومتكلما يصعب أن يوجد له نظيرٌ.

سجع الكهان:

ومما ينبغى أن نشير إليه كذلك من أدب العرب فى الجاهلية سجع الكهان، هو كلام مسجَّع مزوَّق يحتمل فى العادة معانى متعددة كان الكهان يتلفظون به أمام قصادهم من المتنافرين ومقدمى القرابين وراغبى معرفة غيب المستقبل وحقيقة الأمور الخفية وأشباههم، كى يحمله كل شخص المحمل الذى يريد. ذلك أن الكهان كانوا يزعمون اتصالهم بعالم الجن والشياطين وأنهم يعرفون منهم خبر السماء وأمور المستقبل والغيب الخفى. وكانت وظيفتهم ومصالحهم تقوم على اعتقاد الجمهور بهذه الترهات والشعبذات، إذ كانوا يكسبون من ورائها المال والمنزلة والإجلال والرهبة. وأحيانا ما كان الكهان يبدأون كلامهم هذا بالقَسَم بمظاهر الطبيعة والحيوانات وما أشبه. وقد حاربه الإسلام، وكرهه الرسول عليه الصلاة والسلام ونهى أتباعه عن احتذائه.

وعن أسجاع الكهان فى الجاهلية يقول ابن حمدون فى كتابه: «التذكرة الحمدونية»، وهو من أهل القرن السادس الهجرى: «وأما الكهانة فكانت فاشية فى الجاهلية حتى جاء الإسلام، فلم يسْمَع فيه بكاهن، وكان ذلك من معجزات النبوة وآياتها؛ وأخبار كهنة العرب عجيبة إن كانت صحيحة. فمن ذلك خبر سَطِيح حين ورد عليه عبد المسيح وهو يعالج الموت، فأخبره، على ما يزعمون، ما جاء لأجله وبتأويله. والخبر: لما كانت ليلةُ وُلِد النبى صلى الله عليه وسلم ارتجس إيوانُ كسرى وسقطت منه أربع عشرة شرفة، وخمدت نار فارس، ولم تكن خمدت قبل ذلك ألف عام، وغاضت بحيرة ساوة، ورأى الموبذان إبلًا صعابًا تقود خيلًا عرابًا، قد قطعت دجلة وانتشرت فى بلادها. فلما أصبح كسرى تصبَّر تشجُّعًا، ثم رأى ألا يكتم ذلك عن وزرائه ومرازبته. فلبس تاجه وقعد على سريره، وجمعهم فأخبرهم بالذى جمعهم له. فبينما هم كذلك إذ ورد عليهم كتاب بخمود النار، فازداد غمًّا إلى غمه،فسأل الموبذان، وكان أعلمهم فى أنفسهم، فقال: حادث يكون من ناحية

العرب. فكتب عند ذلك: من كسرى ملك الملوك إلى النعمان بن المنذر. أما بعد فوَجِّهْ إلى برجل عالم بما أريد أن أسأله عنه. فوَجَّه إليه بعبد المسيح بن حيان بن بقيلة الغسانى، فقال له كسرى: أعندك علم بما أريد أم أسألك عنه؟ قال: ليخبرْنى الملك، فإن كان عندى منه علم، وإلا أخبرتُه بمن يعلمه. فأخبره بما رآه، فقال: علم ذلك عند خال لى يسكن مشارف الشام يقال له: سطيح. قال: فَأْتِه فاسأله عما سألتك عنه وأتنى بجوابه. وركب عبد المسيح حتى قدم على سَطِيح، وقد أشرف على الموت، فسلم عليه وحياه، فلم يحِرْ عبد المسيح جوابا. وأنشده عبد المسيح شعرا قاله يذكر فيه أنه جاء برسالة من قِبَل العجم، ولم يذكر حاله، فرفع رأسه وقال: عبد المسيح،على جمل مشيح، إلى سطيح، وقد أوفى على الضريح. بعثك ملك بنى ساسان، لارتجاس الإيوان، وخمود النيران، ورؤيا الموبذان. رأى إبلًا صعابًا، تقود خيلًا عرابًا، قد قطعت دجلة وانتشرت فى بلادها. يا عبد المسيح، إذا كثرت التلاوة، وبُعِث صاحب الهراوة، وفاض وادى سماوة، وغاضت بحيرة ساوة، وخمدت نار فارس، فليس الشام لسطيح شامًا. يملك فيهم ملوك وملكات، على عدد الشرفات، وكل ما هو آت آت. ثم قَضَى سطيحٌ مكانَه. فسار عبد المسيح وهو يقول:

شَمِّرْ فإنك ماضى العزم شِمِّيرُ ... لا يفْزِعَنَّك تفريقٌ وتغييرُ

إن كان مُلْكُ بنى ساسان أَفْرَطَهُم ... فإن ذا الدهرَ أطوارًا دهاريرُ

فربما ربما أضحَوْا بمنزلةٍ ... تهاب صَوْلَهم الأُسْدُ المهاصيرُ

منهم أخو الصَّرْح بَهْرامٌ وإخوتُه ... والهرمزان وسابورٌ وسابورُ

والناس أولادُ عَلَّاتٍ، فمَنْ عَلِمُوا ... أنْ قد أَقَلَّ فمحقورٌ ومهجورُ

وهم بنو الأم. أما إن رَأَوْا نَشَبًا ... فذاك بالغيب محفوظٌ ومنصورُ

والخيرُ والشر مقرونان فى قَرَنٍ ... فالخيرُ مُتَّبَعٌ، والشرُّ محذورُ

فقال كسرى: إلى أن يملك ساسان أربعة عشر قد كانت أمور. فمَلَكَ منهم عشرةٌ أربعَ سنين، ومَلَكَ باقون إلى زمن عثمان رحمه الله».

وقد أحسن ابن حمدون حين احتاط فقال عن أخبار الكهان: «إن كانت صحيحة»، و«على ما يزعمون»، مما يدل على أنه لم يكن يطمئن إلى كثير مما يقال فى هذا السبيل، ومنه القصة التى رويناها هنا نقلا عنه، إذ من غير الممكن أن يحدث قبيل الإسلام كل ما ذكرته القصة فى بلاد فارس من وقوع شُرَف الديوان وانطفاء النيران فى معابد المجوس بسبب قرب ظهور محمد عليه الصلاة والسلام ولا تسجله كتبهم فى الوقت الذى علمه العرب، فضلا عن أن أحدا من البشر لا يمكنه معرفة الغيب كما عرفه ذلك الكاهن. ثم لو كانت الحكاية صحيحة لما سكت المسلمون عنها أيام فتح بلاد الفرس ولحاجُّوهم بها ولذكرها القرآن وأشار إليها نبينا عليه السلام فى أحاديثه إلى أصحابه ولرددها الصحابة اعتزازا وإيمانا. إلا أن شيئا من ذلك لم يحدث، وهو ما يرجح أنها مكذوبة.

ويشير ما ورد فى تضاعيف القصة من أسجاع على لسان عبد المسيح وسطيح إلى نوع الكلام الذى كان يقوله الكهان فى هذا السياق. ومثله ما تضمنه الخبر التالى الذى رواه ابن الأثير فى كتابه: «الكامل فى التاريخ»: «وقيل: إن عبدَ شمسٍ وهاشمًا توأمان، وإن أحدهما وُلِد قبل الآخر وإصبعٌ له ملتصقةٌ بجبهة صاحبه، فنُحِّيتْ، فسال الدم، فقيل: يكون بينهما دم. ووَلِى هاشم بعد أبيه عبد مناف ما كان إليه من السقاية والرفادة، فحسده أمية بن عبد شمس على رياسته وإطعامه، فتكلف أن يصنع صنيع هاشم، فعجز عنه، فشمت به ناس من قريش، فغضب ونال من هاشم ودعاه إلى المنافرة، فكَرِهَ هاشم ذلك لِسِنّه وقَدْره. فلم تدعه قريش حتى نافره على خمسين ناقة والجلاء عن مكة عشر سنين، فرضى أمية. وجعلا بينهما الكاهن الخزاعى، وهو جد عمرو بن الحَمِق، ومنزله بعسفان. وكان مع أمية همهمة بن عبد العزى الفهرى، وكانت ابنته عند أمية، فقال الكاهن: والقمر الباهر، والكوكب

الزاهر، والغمام الماطر، وما بالجو من طائر، وما اهتدى بعَلَمٍ مسافر، من مُنْجِدٍ وغائر، لقد سبق هاشمٌ أميةَ إلى المآثر، أول منه وآخر، وأبو همهمة بذلك خابر. فقضى لهاشم بالغلبة، وأخذ هاشم الإبل فنحرها وأطعمها، وغاب أمية عن مكة بالشام عشر سنين. فكانت هذه أول عداوة وقعت بين هاشم وأمية».

ومثله هذا الخبر أيضا عن حُجْر والد امرئ القيس، وكان ملكا على بنى أسد. يقول الخبر: «بقى حجر فى بنى أسد، وله عليهم جائزة وإتاوة كل سنة لما يحتاج إليه. فبقى كذلك دهرًا، ثم بعث إليهم من يجْبِى ذلك منهم، وكانوا بتهامة، وطردوا رسله وضربوهم. فبلغ ذلك حُجْرًا، فسار إليهم بجند من ربيعة وجند من جند أخيه من قيس وكنانة، فأتاهم فأخذ سرواتهم وخيارهم وجعل يقتلهم بالعصا، وأباح الأموال وسَيرَهم إلى تهامة وحبس منهم جماعة من أشرافهم منهم عبيد بن الأبرص الشاعر، فقال شعرا يستعطفه لهم، فرَقَّ لهم وأرسل من يردُّهم. فلما صاروا على يوم منه تكهن كاهنهم، وهو عوف بن ربيعة بن عامر الأسدى، فقال لهم: مَنِ الملك الصلهب، الغلَّاب غير المغلَّب، فى الإبل كأنها الربرب؟ هذا دمه يتثعَّب، وهو غدًا أول من يستلب. قالوا: ومن هو؟ قال: لولا أن تجيش نفسٌ جاشية، لأخبرتكم أنه حُجْر ضاحية. فركبوا كل صعبٍ وذَلُول حتى بلغوا إلى عسكر حُجْر فهجموا عليه فى قبته فقتلوه. طعنه علباء بن الحارث الكاهلى فقتله، وكان حُجْرٌ قَتَل أباه».

ويشبه هذه الأسجاعَ ما كانت العرب فى الجاهلية تقوله عن النجوم والكواكب وتأثيرها فى البرد والحر والمطر. فمن ذلك: «إذا طلع النجم عِشاء، ابتغى الراعى كساء. إذا طلع الدبران توقدت الحزان، واستعرت الذبان، ويبست الغدران. إذا طلعت الجوزاء توقدت المعزاء، وأوفى على عوده الحرباء، وكنست الظباء، وعرقت العلباء، وطاب الخباء. إذا طلعت الذراع حسرت الشمس القناع،وأشعلت فى الأفق الشعاع، وترقرق السراب بكل قاع. إذا طلعت الشعرى نشف الثرى، وأجن الصرى، وجعل صاحب النحل يرى. إذا طلعت الجبهة كانت

الولهـة، وتغـارت السـفهة. إذا طلـع سـهيل طـاب الليـل، حـذى النيـل، وامتنـع القَيل،للفصيل الويل، ورفع كيل، ووضع كيل. إذا طلعت الصرفة اختـال كـل ذى حرفة، وجفر كل ذى نطفة. إذا طلعت العواء ضرب الخباء، وطـاب الهـواء، وكـره العراء، وشنن السقاء. إذا طلعت السماك ذهبت العكاك، وقل على الماء اللكـاك. إذا طلعت الزبانى أحدثت لكل ذى عيال شانا،ولكل ذى ماشية هوانـا، وقـالوا: كـان وكانا، فاجمع لأهلك ولا توانَ. إذا طلع الإكليل هبت الفحول، وشـمرت الـذيول، وخيفت السيول. إذا طلع القلب جـاء الشـتاء كالكلـب، وصـار أهـل البـوادى فى كرب. إذا طلع الهراران هزلت السمان، واشتد الزمان، وجوع الولدان... إذا طلعت الشولة أخذت الشيخ البولة، واشتدت على العيال العولة، وقيـل شـتوة زولـة (أى عجيبة). إذا طلع سعد السعود ذاب كل جمود، واخضـــر كـل عـود، وانتشـــر كـل مصرود. إذا طلع الحوت خرج الناس من البيوت». وقد يكون فى هذا الكلام تزيـد وإضافات.

الأمثال:

وإلى جانب هذا كله كان العرب الجاهليون يرددون كثيرا من الأمثال. والمثل جملة موجزة من القول مقتطَعة من كلام أو مرسلَة لذاتها تُنْقَل مما وردت فيه إلى مُشَابِهه دون تغيير بغية الاستشهاد بها. وبعض الأمثال قد يكون مسجوعا متوازنا،وإن لم يكن هذا شرطا لا بد منه. ويمتاز المثل بأنه يلخّص الموقف أو الجدال أو التعليق ويحْسِمه على خير وجه، وبأنه قصير لا يتجاوز بضع كلمات، وبأنه من الحيوية والسلاسة وحلاوة الصياغة وبراعة التصوير وتعدُّد الأبعاد بحيث يكْتَب له السيرورة والانتشار على ألسنة الناس، وبأنه لا يخلو فى كثير من الأحيان من موعظة أو حكمة.

وقد كتب حنا الفاخورى، فى كتابه: «تاريخ الأدب العربي»، زاعما أن الأمثال الجاهلية، لكونها «كلام الشعب فى جميع طبقاتهم فقد جاءت فى أكثرها غير مصقولة كما فى قولهم: أول ما أَطْلَعَ ضَبٌّ ذَنَبَه». وهذا حكمٌ جُزَافٌ لا معنى له ولا دليل عليه، وليس فى عبارة المثل الذى أورده ما يدل على ركاكة أوضعف فى الصياغة البتة، بل تجرى على فحولة الصياغة العربية. وفى كتب النحو والصرف كلام عن هذا التركيب يجده القارئ فى نهاية باب المبتدإ والخبر، إذ يذكر العلماء عدة مواضع يجب فيها حذف الخبر، منها أن يكون المبتدأ مضافا إلى مصدرٍ عاملٍ فى اسمٍ مفسِّرٍ لضميرٍ له حال لا يصح ورودها خبرا، مثل: «أَكْثَرُ شُرْبِى السَّوِيقَ ملتوتا» و«أَخْطَبُ ما يكون الأمير قائما». والمثل الذى بين أيدينا يقترب جدا من المثال الأخير كما نرى،لا أن المعمول هنا (وهو «ذَنَبه») مفعول لا حال؛ ولو أردنا أن نصوغ المثل صياغة عادية لقلنا: «أول شيء يطْلِعه الضَّبُّ من جحره هو ذَنَبُه». بل إننى لأزعم أن معظم هذه الأمثال هى نموذج للصياغة البليغة الجزلة بعكس ما يزعم الفاخورى.

وتعكس الأمثال الجاهلية كثيرا من صور الحياة العربية آنذاك، إذ فيها كلام عن البيئة التى كان العرب يسكنونها، والحِرَف التى كانوا يمارسونها، والأطعمة التى كانوا يأكلونها، والتقاليد التى كانوا يتبعونها، والعلاقات الاجتماعية التى كانوا يراعونها، والأسماء التى كانوا يتّخذونها، والألفاظ والصيغ الغريبة التى كانوا يستعملونها، والشخصيات المشهورة بينهم، والحيوانات والطيور التى كانت تعايشهم فى بلادهم... وهلم جرا. وكثير من هذه الأمثال تعتمد السجع والجناس والطباق والموازنة بغية توفير الإيقاع الموسيقى والذهنى لضمان المتعة والحفظ والسيرورة. وهذه بعض الشواهد على ما نقول: «اختلط الحابل بالنابل»، «إذا أردتَ المحاجزة فقَبْلَ المناجزة، «إذا عَزَّ أخوك فَهُنْ»، «إذا جاء الحَين، حارَ العَين»، «أَعْذَرَ من أَنْذَر»، «إن القُنُوع الغِنَى لا كثرة المالِ»، «بِعْتُ جارى، ولم أَبِعْ داري»، «جاء بالطِّمّ والرِّمّ»، «جَدَّك لا كَدَّك»، «حال الجَرِيض دون القَرِيض»، «رُبَّ قَوْل أشدُّ من صَوْل»، «الطريفُ خفيف، والتَّليدُ بليد»، «ليس من العَذْل سرعة العَذْل»، «مِنَ العَنَاء رياضة الهَرِمِ»، «اليومَ خَمْر، وغدًا أَمْر»، «أبخل من مادِر»، «أبصر من زرقاء»،«أبلغ من سَحْبان»، «أحزم من سِنَان»، «أحكم من لقمان»، «أَسْرَق من شِظاظ»، «أطمع من فَلْحَس»، «أعظم فى نفسه من مُزَيقِياء»، «أَفْتَك من الحارث بن ظالم»، «أَنْكَحُ من حَوْثَرَة»، «بِيدِى لا بِيدِ عمرو»، «تجشَّأ لقمان من غير شِبَع»، «دَقُّوا بينهم عطر مَنْشِم»، «شَبَّ عمرو عن الطوق»، «شِنْشِنَةٌ أعرفها من أَخْزَم»، «صحيفة المتلمِّس»، «عادت لعِتْرِها لَمِيس»، «فى بيته يؤْتَى الحَكَم»، «القول ما قالت حَذَامِ»، «لا حُرَّ بِوَادِى عَوْف»، «ولو بقُرْطَى مارية»، «يا ويلتا! رآنى ربيعة»، ما يومُ حليمةَ بِسِرّ»، «استَنْوَقَ الجَمَل»، «آمَنُ من حمام مكة»، «آكَلُ من سوس»،«بالت بينهم الثعالب»، «خَرِئَتْ بينهم الضبع»، «أَبْعَدُ من بَيض الأَنُوق»، «أَبْصَرُ من عُقَاب»، «أَبْصَرُ بالليل من الوَطْواط»، «أبلد من السُّلَحْفاة»، «أَبْوَل من كلب»، «تركتُه على مِثْل مِشْفَر الأسد»، «أَتْبَع من تَوْلَب»، «أجرأ من ذباب»، «أَجْوَل من قُطْرُب»، «حمارٌ

اسْتَأْتَنَ»، «حِيلَ بين العَير والنَّزَوَان»، «حُمَير الحاجات»، «أحيا من الضبّ»، «أَحْـوَل من الذئب»،«أحرس من كلب»، «أحطم من الجراد»، «أحقد من جمل»، «أحـنّ مـن شارف» (وهى الناقة المسنّة)، «الخروف يتقلب على الصوف»، «أخلف من الصقر»، «أَخْيل من ديك»، «أخشن من شَيهَم»، «الذَّوْد إلى الذَّوْد إبل»، «ذلَّ من بالت عليـه الثعالبُ»، «أرسح من ضفدع»، «سقط العَشَاء به على سِرْحان»،«سواسـية كأسـنان الحمار»، «سَمِّنْ كلبك يأكلك»، «أعطش من النقّاقة»، «كل شاةٍ تُنَاط برِجْلها»، «هُمَا كفَرَسَى رِهَان»، «أهون من ضرطة عنز»، «لا ناقتى فيها ولا جملي»، «لا ينتطح فيهـا عنزان»، «أبعد من العَيوق»، أطول صحبةً من الفرقدين»، «بَـرْقٌ خُلَّـب»، «أرِنيهـا نَمِرة، أُرِكَها مَطَرة»، «أن تَرِد المـاءَ بـماءٍ أكـيس»، «آخرهـا أقلّهـا شِرْبًـا»، «مـاءٌ ولا كصَدّاء»، «أعذب مـن مـاء البـارق»، «أَلْـقِ دلـوك فى الـدِّلاء»، «مـن لاحـاك فقـد عاداك»، «فضل القول على الفعل دناءة، وفضل الفعل على القول مكرمة»، «المناكح الكريمة من مدارج الشرف»، «من يصحب الزمان يرى الهوان»، «أحقّ من شَرِكَـك فى النِّعَم شركاؤك فى المكاره»، «فى كل عامٍ سَقَام»، «مع كل حـبرةٍ عـبرة، ومـع كـل فَرْحَة تَرْحَة»، «مِنْ مأمنه يؤْتَى الـحَذِر»، «رُبَّ صـبابةٍ غُرِسَـتْ مـن لحظـة، ورُبَّ حربٍ شَبَّتْ من لفظة»، «ربّ كلمةٍ سَلَبَتْ نعمة»، «ربّ مَلُومٍ لا ذنب لـه»، «رِضَـا الناس غايةٌ لا تُدْرَك»، «آكل لحم أخى، ولا أَدَعُه لآكِلٍ»، «الحديد بالحديـد يفْلَـح»، «أحَشَفًا وسُوءَ كِيلَـة؟»، «أسـاء سـمعًا فأسـاء إجابـةً»، «أسـمع جعجعـةً ولا أرى طِحْنًا».

القَصَص:

عرف الجاهليون القصص: نقول هذا عقلا، ونقوله من واقع النصوص التى وصلت إلينا، وإن لم تبلغنا من العصر الجاهلى نفسه بل من العصر العباسى حين بدأ تسجيل التراث الأدبى الجاهلى على نطاق واسع. فمن الناحية العقلية لا يمكن أن يكون هناك بشر دون أن يحكوا ويقصوا ويتفننوا فى الحكاية والقص. وليس المجتمع العربى قبل الإسلام ببِدْعٍ فى هذا السبيل. وأما من الناحية النصوصية فهناك قصص كثيرة فى كتب الأدب عن العصر الجاهلى: أحداثه وأبطاله وقيمه وعقائده وتقاليده وحروبه وقبائله وأسواقه وقوافله وخيامه ورعيه وسقيه وإقامته وارتحاله وبيئته وحيواناته وطيوره ومياهه وباديته وحضره واحتفالاته. صحيح أن هذه النصوص إنما سجلت بعد انقضاء العصر الجاهلى كما قلنا، لكنها تصور، رغم ذلك، المجتمع العربى فى الجاهلية. ومعنى هذا أنها كانت موجودة منذ ذلك العصر تُتَنَاقل من جيل لجيل شفاها إلى أن قُيِدَتْ بالكتابة أخيرا، وإلا فكيف عرفت بها الأجيال التالية للعصر الجاهلى؟ وعلى ذلك فإننا لا نستطيع أن نحدد الشكل الفنى الذى اتخذته فى العصر الجاهلى على سبيل اليقين، وقد يكون الشكل الذى وصلتنا به هو من صنع العصر العباسى كليا أو جزئيا نظرا إلى أنه من الصعب أن تكون قد احتفظت بشكلها وأسلوبها طوال ذلك الوقت دون تغيير. ولو كانت هذه القصص منظومة شعرا لكان اطمئناننا إلى بقائها كما هى أو قريبا مما هى اطمئنانا أكبر، إذ الشعر سهل الحفظ على عكس النثر.

أما ما يقوله بعض المستشرقين ومن يردد مقولاتهم دون تمحيص من أن العربى ضعيف الخيال جامد العواطف لا يستطيع أن يبدع قصصا فلا يلْتَفَت إليه. فالله سبحانه وتعالى قد زود الشعوب جميعا بذات المواهب الأساسية من عقل وعاطفة وخيال وضمير رغم ما يمكن أن يقع بينها من اختلاف فى التفاصيل والشِّيات تبعا للبيئة والعصر. صَوَّب هذا الاتهام إلى العرب مثلا المستشرق

البريطانى ديلاسى أولـيرى فى كتابـــــه: «Muhammad Arabia Before»، وكتب أحمد حسن الزيات فى «تاريخ الأدب العربي» كلاما عـن عجـز العـرب عـن الإبداع القصصى قائلا إن مزاولة هذا الفن تقتضى الروية والفكـرة، والعـرب أهـل بديهة وارتجال، كما تتطلب الإلمام بطبائع الناس، وهم قد شُغِلوا بأنفسهم عن النظـر فيمن عداهم، فضلا عن احتياجها إلى التحليل والتطويل، على حين أنهم أشد الناس اختصارًا للقول، وأقلهم تعمقًا فى البحـث، مـع قلـة تعرضـهم للأسـفار البعيـدة، والأخطار الشديدة. ثم إن هذا الفن هو نوع من أنواع النثر، والنثـر الفنـى ظـل فى حكم العدم أزمان الجاهلية وصدر الإسلام حتى آخر الدولة الأمويـة حـين وضـع ابن المقفع الفارسى مناهج النثر، وفكّر فى تدوين شيء من القصص.

ويجد القارئ نصوص تلك القصص فى كثير مـن الكتـب المتـأخرة. وبعـض تلك الكتب تاريخى، وبعضها أدبى، وبعضها قصصى، وبعضها مـن كتـب الأمـالى، وبعضها من كتب تفسير الأمثال، وبعضها من كتب الموسوعات، وبعضها من كتب الطرائف، وبعضها من دواوين الشعر ومجموعاتـه وشروحـه، وبعضـها مـن كتـب التراجم، وبعضها من كتب السياسة، وبعضها من كتب الشواهد اللغويـة... إلـخ. ومن أسماء تلك الكتب مثلا «أخبـار الأذكيـاء» لابـن الجـوزى، و«الأغـاني» لأبـى الفرج الأصفهانى، و«الأمالي» للشريف الرضى، و«الأوراق» للصُّـولى، و«بلاغـات النسـاء» لأحمـد بـن أبـى طـاهر، و«جمهـرة أشـعار العـرب» لأبـى زيـد الخطـابى، و«الحيوان» للجاحظ، و«زهر الآداب» للحصرى، و«صبح الأعشي» للقلقشـندى، و«العِقْد الفريد» لابن عبد ربه، و«الكامل فى الأدب» للمبرِّد، و«الكامل فى التاريخ» لابن الأثير، و«المحاسن والمساوئ» للبيهقى، و«المستطرَف من كل فـن مسـتظرَف» للأبشيهى، و«معجم الأدباء» لياقوت الحموى، و«نقائض جرير والفـرزدق» لأبـى عبيدة، و«نهاية الأَرَب» للنويري... وهَلُمَّ جَرًّا.

والآن إلى شواهد من القَصَص الجاهلى الذى أوردتْه لنا كتب الأدب ودواوين الشعر: وللشاعر الصعلوك تأَبَّطَ شَرًّا قصيدتان تصفان لقاءه بالغول متحدثا عن ذلك الوحش الخرافى حديث المصدِّق بوجوده، إذ كان الإيمان بالغول أحد الاعتقادات الجاهلية. وقد يكون تأبط شرا توهَّم رؤية الغول فعلا ثم أضاف إلى وهمه بعض التفاصيل والتحابيش، وقد يكون اخترع القصة كلها اختراعا، وقد...، وقد... وها هما تان القصيدتان المذكورتان بين يدى القارئ، وفيهما يتبدى شاعرنا الصعلوك قصاصا بارع التصوير والتشويق والفكاهة والمقدرة على إجراء الحوار والتحول من السرد إلى الحديث بين بَطَلَى قصته فى اقتدار ومهارة، إلى جانب انتقاله فى القصيدة الأولى من الفعل الماضى إلى التعبير بالفعل المضارع عما مضى من وقائع بينه وبين الغول بما يجعلنا نشعر أننا نشاهد حوادث تقع الآن تحت أعيننا لا أمورا مضت وانقضت، كما فى قوله: «فشَدَّت... فأَهْوَى لها كَفِّي... فأَضْرِبُها... فخَرَّتْ»:

أَلا مَنْ مُبْلِغٌ فِتيانَ فَهْمٍ ... بِما لاقَيتُ عِنْدَ رَحَى بِطَانِ؟

بِأَنّى قد لَقِيتُ الغُولَ تَهْوِى ... بِسَهْبٍ كَالصَّحِيفَةِ صَحْصَحانِ

فَقُلتُ لَها: كِلانا نِضْوُ أَينٍ ... أَخُو سَفَرٍ، فَخَلِّى لى مَكَاني

فَشَدَّت شَدَّةً نَحْوِى، فَأَهْوَى ... لَهَا كَفِّى بِمَصْقولٍ يَمَاني

فَأَضْرِبُها بِلا دَهَشٍ، فَخَرَّت ... صَرِيعًا لِليَدَينِ وَلِلْجِرانِ

فَقالَتْ: عُدْ. فَقُلتُ لها: رُوَيدًا ... مَكانَكِ. إنَّنِى ثَبْتُ الجَنَانِ

فَلَم أَنْفَكَّ مُتَّكِئًا عليها ... لأَنْظُرَ مُصْبِحًا ماذا أَتاني

إذا عَينانِ فى رَأْسٍ قَبِيحٍ ... كَرَأْسِ الهِرِّ مَشْقُوقِ اللِّسانِ

وَساقا مُخْدَجٍ وَشَوَاةُ كَلبٍ ... وَثَوْبٌ مِنْ عَبَاءٍ أَو شِنَانِ

***

وأدهمَ قد جُبتُ جلبابَهُ ... كما اجْتَابَتِ الْكَاعِبُ الْخَيعَلَا

إلى أنْ حَدَا الصُّبْحُ أَثْنَاءَهُ ... وَمَزَّقَ جِلْبَابَهُ الأَلْيَلَا

عَلَى شَيْمِ نَارٍ تَنَوَّرْتُهَا ... فَبِتُّ لَهَا مُدْبِرًا مُقْبِلَا

فأصْبَحْتُ، وَالْغُولُ لِى جَارَةٌ ... فَيَا جَارَتَا، أَنْتِ مَا أَهْوَلَا!

وَطَالَبْتُهَا بُضْعَهَا فَالْتَوَتْ ... بِوَجْهٍ تَهَوَّلَ فَاسْتَغْوَلَا

فقلتُ لها: يا انظرى كى تَرَى ... فوَلَّتْ، فكنتُ لها أَغْوَلَا

فطارَ بقَحْفِ ابنةِ الجِنْـ ... ـنِ ذو سَفَاسِقَ قَدْ أَخْلَقَ

إذا كَلَّ أَمْهيتُهُ بالصَّفا ... فَحَدَّ، وَلَمْ أُرِهِ صَيقَلَا

عظَاءَةُ قَفْرٍ لَهَا حُلَّتَا ... نِ مِنْ وَرَقِ الطَّلْحِ لَمْ تُغْزَلَا

فمن سالَ: أين ثوَتْ جارتى؟ ... فإنَّ لها باللِّوَى منزلَا

وأما الشاهد التالى فمن شعر للنابغة الذبيانى يصور مطاردة الكلاب للثور الوحشى أثناء صيده، وهى قصة تتكرر كثيرا فى الشعر الجاهلى. والأبيات مأخوذة من معلقة الشاعر المشهورة، ولا ينبغى أن يفوتنا ما تتميز به تلك الأبيات من وصف مفعم بالحيوية والدقة فى التشبيه والتنبه للتفصيلات الموحية:

كأنّ رَحْلِى، وقد زالَ النّهارُ بنا ... يومَ الجليلِ على مُسْتَأْنِسٍ

مِن وحشِ وَجْرةَ مَوْشِى أكارعهُ ... طاوِى المصيرِ كسيفِ الصَّيقَلِ

سَرَتْ عليه من الجوزاءِ ... تُزْجِى الشَّمَالُ عليهِ جامِدَ

فارتاعَ من صوتِ كَلّابٍ، فباتَ ... طَوْعَ الشّوامتِ من خوفٍ ومن

فبَثّهُنّ عليهِ واستمرّ بِهِ ... صُمْعُ الكُعُوبِ بريئاتٌ من

وكان ضُمْرانُ منه حيثُ ... طَعْنَ المُعارِكِ عند المُحْجَرِ

شـــــكَّ الفَريصـــــةَ بالمِـــدْرَى
طَعْـنَ المُبَيطِـــرِ إذ يشْفِى مـن

كأنّه، خارجا مــن جنبِ صَفْحَتِهِ،
سَـفُّودُ شَـــــرْبٍ نَسُـوهُ عنـدَ

فظَـلّ يعْجُـمُ أعلـــــــى الـرَّوْقِ
فى حالكِ اللونِ صدْقٍ غيـر ذى

لمـــا رأى واشقٌ إقعاصَ صاحبهِ
ولا سَبِيـلَ إلـــــى عَقْــــلٍ ولا

قالـت لـــه الـنفسُ : إنـى لا أرى
وإنّ مـــــولاكَ لـم يسلــــمْ ولَم

كذلك تصور الأبيات التالية لامرئ القيس صيد بعض الحيوانات البرية وتناول الشواء بعد انتهاء المطاردة بنجاح:

كَأنّ غُلامِى إذْ عَــــلا حَالَ مَتْنِهِ
على ظَهْرِ بَازٍ فى السّماءِ مُحَلّقِ

رَأى أرْنَبًــا فانقَــــــضّ يهْـوى
إلَيهَــا وَجَلّاهَــا بِطَـرْفٍ مُلَقْلَـقِ

فقُلْتُ لـــــهُ: صَوِّبْ، وَلا تَجْهَدَنَّـهُ
فيـذرك مـــــن أعلـى القطـاة

فأدبــرنَ كالجَـزْعِ المفصَّــــــل
بجِيـــدِ الغُـــلام ذِى القميـــص

وَأدرَكَهُــنّ ثانِيـًـا مــنْ عِنَانِــهِ
كغَيْثِ العَشِى الأقهــبِ المتودِّقِ

فصـاد لنـــــا عَيْرًا وثـورًا وخاضبًـا
عِـدَاءً، وَلـــــــمْ ينضَـحْ بمـاءٍ

وَظَـــــلّ غُلامــى يضْـجِعُ الـرُّمْحَ
لِكُــلّ مَهَـــــــاةٍ أوْ لأحْقَــبَ

وقـــام طـــــوال الشخـــص إذ
قِيَــــــــامَ العَزِيــزِ الفَارِســى

فَقُلْنَا: ألا قَـــد كانَ صَيدٌ لِقَانِصٍ
فخَبّـوا عَلَينـا كُــــــــلَّ ثـوْبٍ

وَظَــــــلّ صِحَـــابى يشْتَـــوُون
يصفـــّون غـــــــارًا باللكيـــكِ

وثم أبيات بائية للمَلِك الضِّـلِّيل أيضـا تتوسـع فى الحـديث عـن نزولـه هـو وأصحابه فى بعض الطريق بغية الأكل والاستراحة حيث نصبوا لأنفسهم مـا يشـبه الخيمة يستترون به، ثم راحوا بعد ذلك يتناولون ما أعدوه من شـواء لم يجـدوا بـدا

حين انتهَوْا منه من مسح أيديهم فى أعراف خيولهم لعدم وجـود مناديـل معهـم. ولم يفُت الشاعرَ التلفتُ حوله وتسجيلُ ما كان يراه من حيوان وحشى يقف على مقربة منهم ويتطلع إليهم بعيونه التى تشبه حبات الجَزْع غير المثقوب كـما يقـول، والجَـزْع حجر كريم تُتَّخَذ منه العقود التى تزين نحور الجميلات، وهو تشبيه عجيب.؛أما فى النص التالى فيروى لنا الشاعر واحدة من مغامراته فى دنيا النساء يتبدى فيها شخصا عابثا فاجرا لا يرعوى عن فاحشة، بل يباهى بما يجترحه من عـدوان عـلى الحرمـات والأعراض حين يتسلل فى جنح الليل البهيم إلى حيـث اتَّعَـد وإحـدى صـواحبه فى الخلاء، فتناشده أن يتركها ولا يفضحها، إلا أنها مناشدة غير صادقة فيما هو واضح، وإلا ما استجابت له رغم ذلك وتمادت معه فيما أراده منها. وهو فى كل ذلك يصفها وصفًا حيا عجيبًا ويحكى ما وقع منها ومنه غير متحرج من شيء، مُـورِدًا كثـيرا مـن التفصيلات الدالة التى تعيد لنا المنظر والحدث كأنهما ابنا اللحظة، مشهِّرًا بهن لما مَرَد عليه من استهتار، إذ كان ابنَ مَلِكٍ لا يبالى بما يأتى أو يدَع:

وبيضـةِ خِـدْرٍ لا يـرامُ خباؤهـا ... تمَتّعتُ من لَهْوٍ بها غيرَ مُعجَلِ

تجـاوزْتُ أحْراسًا إليهـا ومَعْشَرًا ... على حِراصًا لـو يسِرّون مقتلي

إذا ما الثريا فى السماء تعرضتْ ... تعـرُّضَ أثناءِ الوشاح المفصَّلِ

فجِئتُ، وقد نَضَّتْ لنَوْمٍ ثيابَها ... لدى السِّترِ إلّا لِبْسَةَ المُتفَضِّلِ

فقالت: يمين الله ما لكَ حيلةٌ ... وما إنْ أرى عنك الغواية تنجلي

خَرَجْتُ بها أمشى تَجُرّ وَراءَنا ... على أثرينا ذَيلَ مِرْطٍ مُرَحَّلِ

فلما أَجَزْنا ساحة الحى، وانتحى ... بنا بطنُ خَبْتٍ ذى حِقافٍ عَقَنْقَلِ

هَصَرْتُ بِفَوْدَى رأسها فتمايلتْ ... على هضيمَ الكَشْحِ رَيَّا المُخَلْخَلِ

تسلّتْ عَمَاياتُ الرجالِ عن الصِّبا ... وليسَ صِبايَ عن هواها بمُنْسَلِ

وننتقل إلى القصص النثرى الجاهلى فنورد بعضا من نماذجه المبثوثة فى كتب الأدب المختلفة، بادئين بـ«أخبار النساء» لابن الجوزى، الذى نقرأ فيه قصة من قصص العشق والمؤامرات تتمتع بمستوى فنى راق: ففيها العقدة، وفيها التشويق، وفيها الرسم المتقن للشخصيات، وفيها الحوار المحكم الموجز المـُنْبِى عن طبيعة المتحدثين، وفيها النهاية التى تجمع بين المفاجأة وعدم مصادمة منطق الحياة فى نفس الآن. وهى ترينا أن الطبيعة البشرية، مهما يكن من علوّ نفس صاحبها، لا تسلم عادةً من بعض العيوب التى قد تكون عيوبا مخيفة مثلما هو الحال فى أمر النعمان بن المنذر. كما تقوم العقدة فيها على المكر وأخذ الآخرين بالحيلة الخفية الدقيقة التى تخدعهم وتوهمهم أنها تبغى مصلحتهم، ليكتشفوا فى النهاية، بعد أن تقع الفأس فى الرأس، أنهم كانوا ضحية حيلة مزعجة حيكت بمهارة شديدة فلم يتبين لهم ساعتَها وجهُ الحق فيها. ولا ينبغى أن يفوتنا هنا النص على اختلاط النثر والشعر فى القصة، وإن اقتصر العنصر الشعرى هنا على بيت واحد فى النهاية: «حكى الهيثم بن عَدِى عن الكَلْبِى قال: كان مُلْك النّعمان بن المنذر أربعين سنةً لم يرَ منه فى مُلْكه سقطة غير هذه: وذلك أنّه ركب يومًا فنظر إلى امرأةٍ خارجةٍ من الكنيسة فأعجبه جمالها وحسنها وهيئتها، فقال: «عَلَى بِعَدِى بن زيد»، وكان كاتبَه وخاصّتَه. فقال له: يا عَدِى، قد رأيت امرأةً لإِنْ لم أظفر بها إنّه هو الموت. فلا بدّ فى أن تتلطّف فى الجمع بينى وبينها. قال: ومن هى؟ قال: قد سألتُ عنها فقيل لى: امرأة حَكَم بن عوف، رجلٌ من أشراف أهل الحيرة. قال: فهل أَعْلَمْتَ بذلك أحدًا؟ قال: لا. قال: «فاكتمه. فإذا أصبحتَ فجُدْ بكلّ كرامةٍ لنَزِيلِك»، يريد حَكَم بن عوف. فلـمّا أَذِن للنّاس بدأ به وأكرمه وأجلسه معه على سريره، فأَعْجَب النّاسَ حالُه وتحدّثوا به. فلمّا أمسى فأَذِن للنّاس بدأ به فأكرمه وأجلسه معه وكساه وجمّله، ففعل به ذلك أيامًا. ثمّ قال له عدى: أيها الملك، عندك عشر نسوةٍ، فطلّقْ أقلّهنّ عنك منزلةً ثمّ قل له: فليتزوّجها. ففعل، فلمّا دخل عليه قال له: يا حكم، إنّى قد طلّقت فلانةً لك

فتزوَّجْها. فقال حكم لعدى: ما صنع الملك بأحد ما صنع بى، ولا أدرى بم أكافئه. فقال له عدى: طلِّق امرأتك كما طلّق امرأته. ففعل، وحَظِى عدى بها عند الملك، وعلم الرّجل أنّه مَكَر به فى امرأته. وفيها يقول بعض أهل الحيرة:

ما فى البَرِيةِ مــن أنثى تعادلهــا إلّا التى أخــذ النّعمانُ من حَكَــمِ»

أما القصة التالية، وهى مأخوذة من كتاب «الأغاني» لأبى الفرج الأصفهانى، فبطلها كُلَيب بن ربيعة، وهو شيخ قبيلة مستبد لا يبالى بكرامة أحد ولا بحقوقه، بل يعامل الجميع بعَسْفٍ وتعالٍ واحتقار لا يعْفِى أحدا من ذلك مهما تكن قرابته له، مما أدى فى النهاية إلى أن قتله أخو زوجته واضعًا بذلك أخته فى كرب عظيم، إذ كانت بين نارين: نار الحزن على مقتل زوجها، ونار الخوف من انتقام أهله من أخيها. يقول أبو الفرج فى **ذلك**:

«وكان السبب فى قتل كليب بن ربيعة... أن كُلَيبًا كان قد عَزّ وساد فى ربيعة فبَغَى بَغْيا شديدًا. وكان هو الذى ينْزِلهم منازلهم ويرحِّلهم، ولا ينزلون ولا يرحلون إلا بأمره. فبلغ من عزه وبَغْيه أنه اتخذ جَرْو كلب، فكان إذا نزل منزلًا به كَلَأٌ قذف ذلك الجروَ فيه فيعوى، فلا يرعى أحد ذلك الكلأ إلا بإذنه. وكان يفعل هذا بحياض الماء فلا يرِدُها أحد إلا بإذنه أو مَنْ آذَنَ بحرب،فضُرِب به المثل فى العز فقيل: أَعَزُّ من كُلَيبِ وائل. وكان يحمى الصيد ويقول: «صيد ناحية كذا وكذا فى جواري»، فلا يصيد أحد منه شيئًا. وكان لا يمر بين يديه أحد إذا جلس، ولا يحتبى أحد فى مجلسه غيره، فقتله جساس بن مرة... وكان كليب بن ربيعة ليس على الأرض بَكْرِى ولا تَغْلِبِى أجار رجلًا ولا بعيرًا إلا بإذنه، ولا يحمى حِمًى إلا بأمره، وكان إذا حمى حِمًى لا يقْرَب. وكان لمـُرّة بن ذُهْل بن شيبان بن ثعلبة عشرة بنين جسّاسٌ أصغرهم، وكانت أختهم عند كليب. وخالة جساسٍ البَسُوسُ، فجاءت فنزلت على ابن أختها جساس،فكانت جارةً لبنى مُرّة، ومعها ابن لها، ولهم ناقة خوّارة من نَعَم بنى سعد، ومعها فَصِيل. أخبرنى على بن سليمان قال: قال أبو برزة:

وقد كان كليب قبل ذلك قال لصاحبته أخت جساس: هل تعلمين على الأرض عربيا أمنع منى ذِمّةً؟ فسكتت، ثم أعاد عليها الثانية فسكتت، ثم أعاد عليها الثالثة فقالت: نعم أخى جساس ونَدْمانه ابن عمه عمرو المزدلف بن أبى ربيعة بن ذُهْل بن شيبان. وزَعَم مقاتل أن امرأته كانت أخت جساس. فبينا هى تغسل رأس كليب وتسرّحه ذات يوم إذ قال: مَنْ أَعَزُّ وائل؟ فصمتت، فأعاد عليها. فلما أكثر عليها قالت: أخواى جساس وهمام! فنزع رأسه من يدها وأخذ القوس فرمى فصيل ناقة البسوس خالة جساس وجارة بنى مُرّة فقتله، فأغمضوا على ما فيه وسكتوا على ذلك. ثم لقى كليبٌ ابنَ البسوس فقال: ما فعل فصيل ناقتكم؟ قال: قتلتَه وأخليتَ لنا لبن أمه. فأغمضوا على هذه أيضًا. ثم إن كليبا أعاد على امرأته فقال: من أعز وائل؟ فقالت: أخواى. فأضمرها وأسرّها فى نفسه وسكت حتى مرت به إبل جساس فرأى الناقة فأنكرها، فقال: ما هذه الناقة؟ قالوا: لخالة جساس. قال: أَوَقَدْ بَلَغَ من أمر ابن السعدية أن يجِير على بغير إذنى؟ ارم ضرعها يا غلام. قال فراس: فأخذ القوس فرمى ضرع الناقة فاختلط دمها بلبنها، وراحت الرعاة على جساس فأخبروه بالأمر، فقال: احلبوا لها مكيالَى لبنٍ بمحلبها، ولا تذكروا لها من هذا شيئًا. ثم أغمضوا عليها أيضًا. قال مقاتل: حتى أصابتهم سماء، فغدا فى غِبّها يتمطر. وركب جساس بن مرة وابن عمه عمرو بن الحارث بن ذهل، وقال أبو برزة: بل عمرو بن أبى ربيعة، وطعن عمرو كليبًا فحطم صلبه. وقال أبو برزة: فسكت جساس حتى ظعن ابنا وائل،فمرت بكر بن وائل على نِهْى يقال له: شبيث، فنفاهم كليب عنه وقال: لا يذوقون منه قطرة. ثم مروا على نِهْى آخر يقال له: الأحصّ،فنفاهم عنه وقال: لا يذوقون منه قطرة. ثم مروا على بطن الجَرِيب فمنعهم إياه، فمضَوْا حتى نزلوا الذنائب، واتّبعهم كليب وحَيه حتى نزلوا عليه. ثم مر عليه جساس وهو واقف على غدير الذنائب فقال: طردتَ أهلنا عن المياه حتى كدت تقتلهم عطشًا! فقال كليب: ما منعناهم من ماء إلا ونحن له شاغلون. فمضى

جساس ومعه ابن عمه المزدلف. وقال بعضهم: بل جساس ناداه فقال: هذا كفعلك بناقة خالتى. فقال له: أَوَقَدْ ذَكَرْتَها؟ أما إنى لو وجدتها فى غير إبل مُرّة لاستحللت تلك الإبل بها. فعطف عليه جساسٌ فرسَه فطعنه برمح فأنفذ حضنيه. فلما تداءمه الموت قال: يا جساس، اسقنى من الماء. قال: ما عَقَلْتَ استسقاءك الماء منذ ولدتك أمك إلا ساعتك هذه؟ قال أبو برزة: فعطف عليه المزدلف عمرو بن أبى ربيعة فاحتزّ رأسه».

أما القصة التالية فهى قصة رمزية بعضُ أبطالها من الحيوان الذى يتكلم كما يتكلم الآدميون، ويشعر كما يشعر الآدميون، ويجادل كما يجادل الآدميون، وعنده الحكمة والحذر كما عند الآدميين. جاء فى كتاب «الأمثال» للمفضَّل الضَّبِّى: «زعموا أن أخوين كانا فيما مضى فى إبل لهما، فأجدبت بلادهما، وكان قريبًا منهما وادٍ فيه حية قد حمته من كل واحد، فقال أحدهما للآخر: يا فلان، لو أنى أتيت هذا الوادى المُكْلِئ فرعيتُ فيه إبلى وأصلحتها. فقال له أخوه: إنى أخاف عليك الحية. ألا ترى أن أحدًا لم يهبط ذاك الوادى إلا أهلكتْه؟ قال: فوالله لأهبطنّ. فهبط ذلك الوادى فرعى إبله به زمانًا، ثم إن الحية لدغته، فقال أخوه: ما فى الحياة بعد أخى خير، ولأطلبنّ الحية فأقتلها أو لأتبعنّ أخى. فهبط ذلك الوادى فطلب الحية ليقتلها، فقالت: ألست ترى أنى قتلتُ أخاك؟ فهل لك فى الصلح فأَدَعَك بهذا الوادى فتكون به وأعطيك ما بقيت دينارًا فى كل يوم؟ قال: أفاعلةٌ أنتِ؟ قالت: نعم. قال: فإنى أفعل. فحلف لها وأعطاها المواثيق لا يضيرها، وجعلت تعطيه كل يوم دينارًا، فكثر ماله ونمت إبله حتى كان من أحسن الناس حالا. ثم ذكر أخاه فقال: كيف ينفعنى العيش وأنا أنظر إلى قاتل أخى فلان؟ فعمد إلى فأس فأَحَدّها ثم قعد لها، فمرت به، فتبعها فضربها فأخطأها، ودخلت الجحر، ووقع الفأس بالجبل فوق جحرها فأثر فيه. فلما رأت ما فعل قطعت عنه الدينار الذى كانت تعطيه. فلما رأى ذلك وتخوف شَرّها نَدِم وقال لها: هل لكِ فى أن نتواثق ونعود إلى ما كنا عليه؟

فقالت: كيف أعاودك وهذا أثر فأسك، وأنت فاجر لا تبالى العهد؟ فكان حديث الحية والفأس مثلًا مشهورًا من أمثال العرب».

ومن هذا النص يتبين لنا أن قَصَص الحيوان فى الأدب العربى لم ينتظر حتى يضع ابن المقفع كتابه: «كليلة ودمنة»، إذ ها هم أولاء الجاهليون يجعلون من الحيوانات أبطالا لقصصهم، وينْطِقونهم بذات اللغة التى يتحدثونها، ويضْفُون عليهم سائر الخلال البشرية. وهناك قِصَصٌ جاهليةٌ أخرى عن الحيوان منها قصة قيام الضَّبّ بالقضاء فى الخصومة التى كانت بين الأرنب والثعلب، وقصة الضب والضفدع، وقصة الغراب الذى أراد أن يقلد العصفور، وقصة النعامة التى ذهبت تطلب قرنين، وقصة بِرّ الهدهد بأمه،وقصة الرَّخَم الحكيم. وكذلك قصة الغراب والديك، وفيها أن الديك كان نديما للغراب وأنهما شربا الخمر عند خمار ولم يعطياه شيئا، وذهب الغراب ليأتيه بالثمن بعد أن رهن صديقه عند الخمار، لكنه غدر به فبقى فى الحبس. وهناك أيضا قصة الضبع والذئب، وملخَّصها أن الضبع وجدت تمرة، فاختلسها الذئب، فلطمته، فتحاكما إلى الضب، فقالت: يا أبا الحُسَيل. قال: سميعًا دَعَوْتِ. قالت: جئناك نحتكم إليك. قال: فى بيته يؤْتَى الحَكَم. قالت: إنى التقطت تمرة. قال: حُلْوًا جنيتِ. قالت: إن الثعلب أخذها. قال: حَظَّ نفسه بَغَى. قالت: لطمتُه. قال: أَشْفَيتِ، والبادى أظلم. قالت: فلطمنى. قال: حُرٌّ انتصر لنفسه. قالت: اقْضِ بيننا. قال: قضيتُ»... وغير ذلك مما يجده القارئ فى «الحيوان» للجاحظ و«الشعر والشعراء» لابن قتيبة و«الأذكياء» لابن الجوزى و«خزانة الأدب» للبغدادى وغيرها.

وأخيرا أترك القارئ مع قصة الزَّبّاء وجَذِيمة الأبرش، وأبطالها من الملوك ورجال البلاط، وتدور حول ضعف البشر أمام نداء قلوبهم حتى لو ظهر من قرائن الأحوال أن فى ذلك حتفهم. وقد أخذناها من كتاب ابن الجوزى: «الأذكياء»: «قال هشام بن محمد الكلبى عن أبيه قال: كان جَذِيمة بن مالك ملكًا على الحيرة وما

حولها من السواد. مَلَكَ ستين سنة، وكان به وَضَح، وكان شديد السلطان يخافه القريب ويهابه البعيد، فنُهِيتِ العرب أن يقولوا: الأبرص،فقالوا: الأبرش. فغزا مليحَ بن البرء، وكان ملكًا على الحضْر، وهو الحاجز بين الروم والفرس، وهو الذى ذكره عَدِى بن زيد فى قصيدة منها هذا البيت:

وأخو الحضْر إذ بناه، وإذ دجلةُ تُجْبَى إليه والخابورُ

فقتله جذيمة وطرد الزَّبَّاء إلى الشام، فلحقت بالروم، وكانت عربية اللسان حسنة البيان شديدة السلطان كبيرة الهمة. قال ابن الكلبى: لم يكن فى نساء عصرها أجمل منها. وكان اسمها: فارغة، وكان لها شعر إذا مشت سحبته وراءها، وإذا نشرته جلَّلها فسُمِّيتْ: الزباء. قال الكلبى: وبُعِث عيسى بن مريم عليه السلام بعد قتل أبيها، فبلغت بها همتها أن جمعت الرجال وبذلت الأموال وعادت إلى ديار أبيها ومَلَكَتْها، فأزالت جذيمةَ الأبرش عنها وابتنت على الفرات مدينتين متقابلتين من شرقى الفرات ومن غربيه وجعلت بينهما نفقًا تحت الفرات. وكان إذا راهقها الأعداء أوت إليه وتحصنت به. وكانت قد اعتزلت الرجال فهى عذراء. وكان بينها وبين جذيمة بعد الحرب مهادنة،فحدَّث جذيمة نفسَه بخِطْبتها فجمع خاصّته فشاورهم فى ذلك، وكان له عبد يقال له: قصير بن سعد، وكان عاقلًا لبيبًا، وكان خازنَه وصاحبَ أمره وعميدَ دولته. فسكت القوم، وتكلم قصير فقال: أَبَيتَ اللَّعْن أيها الملك، إن الزباء امرأة قد حرَّمت الرجال، فهى عذراء لا ترغب فى مال ولا جمال، ولها عندك ثأر، الدم لا ينام. وإنما هى تاركتك رهبةً وحذارَ دولة. الحقد دفين فى سويداء القلب له كُمُون ككُمُون النار فى الحَجَر: إن اقتدحتَه أَوْرَى، وإن تركته توارى. وللمَلِك فى بنات الملوك الأكْفاء متَّسع، ولهن فيه منتفَع. وقد رفع الله قدرك عن الطمع فيمن دونك وعظّم شأنك، فما أحد فوقك. فقال جذيمة: يا قصير،الرأى ما رأيتَ، والحزم فيما قلتَه، ولكن النفس تواقة إلى ما تحب وتهوَى،ولكل امرئ قَدَرٌ لا مفر له منه ولا وَزَر؛ فوجَّه إليها خاطبًا وقال: ائت الزباء فاذكر لها ما يرغّبها فيه

وتصبو إليه. فجاءتها خِطْبته، فلما سمعت كلامه وعرفت مراده قالت له: انْعَـمْ بـك عَينًا وبما جئتَ به وله. وأظهرتْ له السرور به والرغبة فيه وأكرمت مقدمه ورفعـت موضعه، وقالت: قد كنتُ أضربتُ عن هذا الأمر خوفًا ألا أجد كفؤًا. والملك فـوق قدرى، وأنا دون قدره، وقد أجبتُ إلى ما سأل ورغبتُ فيما قال. ولولا أن السعى فى مثل هذا الأمر بالرجال أجمل لسرتُ إليه ونزلتُ عليه. وأهـدتْ إليـه هديـةً سَـنِية: ساقت العبيد والإماء والكُرَاع والسـلاح والأمـوال والإبـل والغـنم، وحملـتْ مـن الثياب والعَين والوَرِق. فلما رجع إليه خطيبه أعجبه ما سمع من الجواب وأبهجه ما رأى من اللطف وظن أن ذلك لحصول رغبة،فأعجبته نفسه وسار مـن فـوره فـيمن يثق به من خاصته وأهل مملكته، وفيهم قصيرٌ خازنه، واسـتخلف عـلى مملكتـه ابـنَ أخته عَمْرَ بنَ عَدِى اللَّخْمِى، وهو أول ملوك الحِيرة من لخم. وكان مُلْكـه عشـرين ومائة سنة، وهو الذى اختطفته الجن وهو صبى، وردَّته وقد شَبَّ وكبر. فقالت أمه: أَلْبِسوه الطوق. فقال خاله جذيمـة: «شـب عمـرو عـن الطـوق»، فصـارت مـثلًا. فاستخلفه وسار إلى الزباء فلما صار ببقَّة نزل وتصيد وأكل وشرب واستعاد المشورة والرأى من أصحابه، فسكت القوم وافتتح الكلامَ قصيرُ بنُ سعد، قال: أيها الملـك، كل عزم لا يؤيد بحزم فما يكون. فلا تثق بزخرف قـول لا حصـول لـه، ولا تعتقـد الرأى بالهوى فيفْسُد، ولا الحزم بالـمُنَى فيبْعُد. والرأى عنـدى للملـك أن يعتقـب أمره بالتثبت ويأخذ حذره بالتيقظ، ولولا أن الأمور تجـرى بالمقـدور لعزمـتُ عـلى الـمَلِك عزمًا بَتًّا ألا يفعل. فأقبل جذيمة على الجماعة فقـال: مـا عنـدكم أنـتم فى ذا الأمر؟ فتكلموا بحسب ما عرفوا من رغبته فى ذلك وصـوّبوا رأيـه وقَـوَّوْا عزمـه. فقال جذيمة: الرأى للجماعة، والصواب ما رأيتم. فقال قصير: «أرى القدَر يسـابق الحذَر، ولا يطاع لقصيرٍ أمر»، فأرسلها مثلًا. وسار جذيمـة، فلـما قـرب مـن ديـار الزباء نزل وأرسل إليها يعلمهـا بمجيئـه،فرحبت وقربـت وأظهـرت السـرور بـه والرغبة فيه، وأمرت أن يحْمَل إليه الأنزال والعلوفات، وقالت لجندها وخاصة أهل

مملكتها وعامة أهل دولتها ورعيتها: تلقَّوْا سيدكم ومَلِك دولـتكم. وعـاد الرسـول إليه بالجواب بما رأى وسمع، فلما أراد جذيمة أن يسير دعا قصيرًا فقـال: أنـتَ عـلى رأيك؟ قال: نعم، د زادت بصيرتى فيه. أفأنت على عزمك؟ قال: نعم، وقـد زادت رغبتى فيه. قال قصير: ليس للأمور بصاحب،من لم ينظر فى العواقب. وقد يسْتَدْرَكُ الأمر قبل فواته. وفى يد المَلِك بقية هو بها مسلَّط على استدراك الصواب، فإن وثقتَ بأنك ذو مُلْك وعشيرة ومكان فإنك قد نزعت يدك من سلطانك وفارقت عشيرتك ومكانك وألقيتَها فى يدَى من لست آمَنُ عليك مكـره وغـدره. فـإن كنـتَ ولا بـد فاعلًا، لهواك تابعًا فإن القوم إن تلقَّوْك غدًا فِرَقًا وساروا أمامك وجاء قـوم وذهـب قوم فالأمر بَعْدُ فى يدك، والرأى فيه إليك. وإن تلقَّوْك رَزْدَقًـا واحـدًا وأقـاموا لـك صفين حتى إذا توسطتهم انقضوا عليك من كل جانب فأحدقوا بـك فقـد ملكـوك وصرتَ فى قبضتهم. وهذه «العصا» لا يشَقّ غبارها. وكانت لجذيمـة فـرس تسـبق الطير وتجارى الريح يقال لها: العصا. فإذا كان كذلك فتملَّكْ ظهرهـا، فهـى ناجيـة بك إن ملكتَ ناصيتها. فسمع جذيمة ولم يردّ جوابًا، وسار. وكانت الزباء لما رجـع رسول جذيمة من عندها قالـت لجنـدها: إذا أقبـل جذيمـة غـدًا فتلقَّـوْه بـأجمعكم وقوموا له صفين عن يمينه وشماله، فإذا توسط جمعكم فتعرّضوا عليه من كل جانب حتى تُحْدِقوا به، وإياكم أن يفوتكم. وسار جذيمة وقصير عن يمينه، فلما لقيه القـوم رزدقًا واحدًا أقاموا له صفين، فلما توسطهم انقضوا عليه من كل جانـب انقضـاض الأجدل على فريسته فأحدقوا به، وعلم أنهم قد ملكوه. وكان قصير يسـايره فأقبـل عليه وقال: صدقتَ يا قصير. فقال قصير: أيها الملك، «أبطأتَ بالجواب، حتى فـات الصواب»، فأرسله مثلًا. فقال: كيف الرأى الآن؟ قال: هذه العصا، فدُونَكَها لعلك تنجو بها. فأنِفَ جذيمة من ذلك وسارت به الجيوش. فلما رأى قصير أن جذيمة قد استسلم للأسر وأيقن بالقتل جمع نفسه فصـار عـلى ظهـر العصـا وأعطاهـا عِنَانهـا وزجرها، فذهبت تَهْوِى به هُوِى الريح. فنظر إليه جذيمة وهى تطاول به، وأشرفت

الزباء من قصرها فقالت: «ما أحسنكَ مـن عـروس تُجْـلَى عـلى وتُـزَفّ إلى!» حتـى دخلوا به إلى الزباء، ولم يكن معها فى قصرها إلا جَوَارٍ أبكارٌ أتراب. وكانت جالسة على سريرها، وحولها ألف وصيفةٍ كل واحدة لا تشـبه صـاحبتها فى خلـق ولا زى، وهى بينهن كأنها قمر قد حفّت به النجوم تزهو. فأمرت بالأنطاع فبُسِطَتْ، وقالـت لوصائفها: خذوا بيد سيدكن وبَعْل مولاتكنّ. فأخذن بيده فأَجْلَسْـنه عـلى الأنطـاع بحيث يراها وتراه، وتسمع كلامه ويسمع كلامهـا، ثـم أمـرت الجـوارى فقطعـن رواهشه، ووضعت الطَّسْت تحت يده، فجعلت تشخب فى الطست، فقطرت قطـرة على النِّطْع، فقالت لجواريها: لا تضيعوا دم الملك. فقال جذيمة: لا يحزنكِ دم أراقـه أهله. فلما مات قالت: والله ما وَهَى دمُك ولا شَفَى قتلُك، ولكنه غَيضٌ من فَـيض. ثم أمرت به، فدُفِن. وكان جذيمة قد استخلف على مملكته ابن أخته عَمْرَ بن عـدى، وكان يخرج كل يوم إلى ظهر الحيرة يطلب الخبر ويقتفى الأثر عن خاله، فخرج ذات يوم فنظر إلى فارس قد أقبل يهوى به فَرَسُه هُوِى الريح، فقال: أمـا الفـرس ففـرس جذيمة، وأما الراكب فكالبهيمة. لأمر ما جـاءت العصـا. فـأشرف علـيهم قصـير، فقالوا: ما وراءك؟ قال سعى المقدَّر بالملِك إلى حتفه، على الـرغم مـن أنفـى وأنفـه، فاطلب بثأرك من الزباء. فقال عمرو: وأى ثأر يطْلَب مـن الزبـاء، وهـى أمنـع مـن عُقَاب الجو؟ فقال قصير: قد علمتَ نصحى كان لخالك، وكان الأجل رائـده. والله لا أَنِى عن الطلب بدمه ما لاح نجم وطلعت شمس أو أُدْرِك به ثأرًا أو تُخْتَرَم نفسى فأُعْذَر؛ ثم إنه عمد إلى أنفه فجدعه ثم لحق بالزباء على صورة كأنه هارب من عمرو بن عدى. قيل لها: هذا قصير بن سعد عم جذيمة وخازنه وصاحب أمره قد جاءك. فأذنت له فقالت: ما الذى جاءك إلينا يـا قصـير، وبيننـا وبينـك دم عظـيم الخطـر؟ فقال: يا ابنة الملوك العظام، لقد أتيتُ فيما يؤْتَى مِثْلُكِ فى مثله. ولقـد كـان دم الملـك يطلبه حتى أدركه. وقد جئتكِ مستجيرًا بك من عمرو بن عدى، فإنه اتهمنى بخالـه وبمشورتى عليه بالمسير إليك، فجدع أنفـى وأخـذ مـالى وحـال بينـى وبـين عيـالى

وتَهَدَّدنى بالقتل. وإنى خَشِيتُ على نفسى فهربت منه إليك. أنا مستجير بك ومستند إلى كهف عزك. فقالت: أهلًا وسهلًا، لك حق الجوار وذمة المستجير. وأمرتْ به فأُنْزِل، وأَجْرَتْ له الأنزال ووصلتْه وكسَتْه وأخدمتْه وزادت فى إكرامه. وأقام مدة لا يكلمها ولا تكلمه، وهو يطلب الحيلة عليها وموضع الفرصة منها، وكانت ممتنعة بقصرٍ مَشِيدٍ على باب النفق تعتصم به فلا يقدر أحد عليها. فقال لها قصير يومًا: إن لى بالعراق مالًا كثيرًا وذخائر نفيسة مما يصلح للملوك. وإن أذنتِ لى فى الخروج إلى العراق وأعطيتِنى شيئًا أتعلل به فى التجارة وأجعله سببًا للوصول إلى مالى أتيتك بما قدرتُ عليه من ذلك. فأذنت له وأعطته مالًا، فقدم العراق وبلاد كسرى فأطرفها من طرائفه وزادها مالًا إلى مالها كثيرًا، وقدِم عليها فأعجبها ذلك وسَرَّها وتَرَتَّبَ له عندها منزلة. وعاد إلى العراق ثانية فقدِم بأكثر من ذلك طُرَفًا من الجواهر والبَزّ والخَزّ والديباج،فازداد مكانه منها وازدادت منزلته عندها ورغبتها فيه. ولم يزل قصير يتلطف حتى عرف موضع النفق الذى تحت الفرات والطريق إليه. ثم خرج ثالثة فقدِم بأكثر من الأُولَيين طرائف ولطائف فبلغ مكانه منها وموضعه عندها إلى أن كانت تستعين به فى مهمّاتها وملمّاتها، واسترسلت إليه وعوَّلت فى أمورها عليه. وكان قصير رجلًا حسن العقل والوجه حصيفًا لبيبًا أديبًا، فقالت له يومًا: أريد أغزو البلد الفلانى من أرض الشام، فاخرجْ إلى العراق فأْتِنى بكذا وكذا من السلاح والكُرَاع والعبيد والثياب. فقال قصير: ولى فى بلاد عمرو بن عدى ألف بعير وخزانة من السلاح والكُرَاع والعبيد والثياب، وفيها كذا وكذا، وما يعلم عمرو بها، ولو علمها لأخذها واستعان بها على حربك. وكنت أتربص به المنون وأنا أخرج متنكرًا من حيث لا يعلم فآتيك بها مع الذى سألتِ. فأعطته من المال ما أراد وقالت: يا قصير، الـمُلْك يحسن لمثلك، وعلى يد مثلك يصلح أمره. ولقد بلغنى أن أمر جذيمة كان إيرادُه وإصدارُه إليكم، وما تَقْصُرـ يدك عن شيء تناله، ولا يقعد بك حال ينهض بى. وسمع بها رجل من خاصة قومها فقال: أسدٌ

خادرٌ، وليث ثائر قد تحفَّز للوثبة. ولما رأى قصير مكانه منها وتمكُّنه من قلبها قال: الآن طاب المِصَاع. وخرج من عندها فأتى عَمْرَ بن عدى فقال: قد أصبتَ الفرصة من الزباء، فانهض فعجِّل الوثبة. فقال له عمرو: قل أَسْمَع،ومُرْ أفعل، فأنت طبيب هذه القرحة. فقال: الرجال والأموال. قال: حُكْمُك فيما عندنا مسلَّط. فعمد إلى أَلْفَى رجل من فتيان قومه وصناديد أهل مملكته فحملهم على ألف بعير فى الغرائر السود وألبسهم السلاح والسيوف والحَجَف وأنزلهم فى الغرائر وجعل رؤوس المسوح من أسافلها مربوطة من داخل، وكان عمرو فيهم. وساق الخيل والعبيد والكُرَاع والسلاح والإبل محملة، فجاءها البشير فقال: قد جاء قصير. ولما قرب من المدينة حمل الرجال فى الغرائر متسلحين بالسيوف والحَجَف وقال: إذا توسطت الإبل مدينة الزباء فالأمارة بيننا كذا وكذا، فاخترِطوا الرُّبُط. فلما قربت العِير من مدينة الزباء رأت الإبل من قصرها تتهادى بأحمالها فارتابت بها. وقد كان وُشِى بقصير إليها وحُذِّرَتْ منه، فقالت للواشى به: إن قصيرًا اليوم منا، وهو ربيب هذه النعمة، وصنيعة هذه الدولة. وإنما يبعثكم على ذلك الحسدُ. ليس فيكم مثله. فقدح ما رأت من كثرة الإبل وعظم أحمالها فى نفسها مع ما عندها من قول الواشى به إليها، فقالت:

ما للجمال مَشْيها أجَنْدَلًا يحْمِلْنَ أم حديدا

أم صَرَفَانًا باردًا شديدًا أم الرجال فى الْمُسُوح سُودا؟

ثم أقبلت على جواريها فقالت: «أرى الموت الأحمر فى الغرائر السود»، فذهبت مثلًا. حتى إذا توسطتِ الإبلُ المدينةَ وتكاملت ألقَوْا إليهم الأمارة فاخترطوا رؤوس الغرائر، فسقط إلى الأرض ألفا ذراعٍ بأَلْفَى باترٍ طالب ثأر القتيل غدرًا. وخرجت الزباء تَمْصَع تريد النفق، فسبقها إليه قصير فحال بينها وبينه. فلما رأت أنْ قد أُحِيط بها ومُلِكَتْ التقمت خاتمًا فى يدها تحت فَصّه سُمّ ساعة، وقالت:

بيدى لا بيدك يا عمرو. فأدركها عمرو وقصـير فضرـباها بالسـيف حتـى هلكـت، وملكا مملكتها واحتويا على نعمتها. وخَطَّ قصير على جذيمة قبرًا وكتب عـلى قـبره هذه الأبيات يقول:

مَلِـكٌ تمتَّـــعَ بالعساكــروالقَنَـــا والمَشْـرَفِيةِ، عِـــزُّه مـا يوصَـــــفُ

فسعـــتْ مَنِيتُـــه إلى أعدائـــــه وهـوالمتـوَّج، والحســـام المرهــــفُ

العصر الإسلامي

بظهور الدعوة المحمدية يبدأ العصر الإسلامى، الذى يستمر طوال حكم النبى صلى الله عليه وسلم ثم الخلفاء الراشدين من بعده: أبى بكر وعمر وعثمان وعلى رضى الله عنهم. وقد بدأ النبى دعوته من مكة وعنده أربعون عاما، بادئا بالقريبين منه من أصدقائه وأهل بيته سرا، ثم صارت الدعوة علنية وأخذت تنتشر، ولكن ببطء، إلى أن تأزمت الأمور تأزما شديدا بينه صلى الله عليه وسلم وبين أهل مكة، فكانت الهجرة إلى يثرب، التى سُمِّيتْ بعد ذلك بـ«المدينة»، أى مدينة رسول الله، لتشرع الدعوة بعدها فى الانتشار على نحو متسارع حتى عمت أرجاء الجزيرة العربية كلها فى آخر حياته. وكان عليه السلام قد بعث، قبل وفاته بعدة سنوات، برسائل إلى الملوك من حوله يدعوهم فيها إلى الدخول فى الإسلام، وهى من المؤشرات البارزة على أن الإسلام دين عالمى. ولم يكن طريق الدعوة ممهدا سهلا، بل كان وعرا شديد الصعوبة لَقِى فيه النبى الكثيرَ من الأذى والاضطهاد حتى لقد وصل الأمر إلى حد تفكير الخصوم فى قتله لولا عصمة الله له.

وقد ظهر فى آخر حياته أنبياء مزيفون لم ينجح منهم أحد، وانتهى أمرهم إما بالقتل وإما برجوعهم إلى الإسلام تائبين نادمين واشتراكهم فى معارك الفتح مُبْلِين بلاءً حسنا. وبعد وفاة النبى صلى الله عليه وسلم تولى أمرَ المسلمين أبو بكر الصِّدِّيق فعمرُ الفاروق فعثمانُ ذو النورين فعلى كرَّم الله وجهه. وفى عهد أبى بكر بدأت الفتوح الإسلامية، واستمرت فى عهد عمر وعثمان، الذى مات محاصَرًا مقتولا فى فتنة معقدة اتُّهِم فيها اتهامات ظالمة أو حُمِّلَ تبعة تصرفات غيره من المحسوبين عليه رضى الله عنه. وبعد اغتيال على عَلَى أيدى الخوارج رفضًا منهم لواقعة التحكيم بينه وبين معاوية وبعد تنازل الحسن ابنه عن الحكم قامت الدولة الأموية، التى استمرت منذ 40هـ حتى 132هـ.

ويمكن أن نلخص تاريخ دولة الراشدين على النحو التالى: فقد بُويع أبو بكـر يوم وفاة النبى بالخلافة فى سقيفة بنى ساعدة فى السنة الحادية عشرة للهجـرة، وقـام بأعباء الحكم خير قيام. ومن إنجازاته العظيمة قضاؤه على فتنة الـرّدة تماما وإعـادة الشاردين المتمردين إلى جادة الصواب، وتأمين الدولة مـن أعـدائها بتسـيير بعـوث فارس والروم، التى بلغت أحد عشر جيشًا، فضلا عن أمره بجمع القـرآن الكـريم. وكانت مدة خلافته حوالَى عامين وثلاثة أشهر، وتوفى فى المدينـة المنـورة عـن ثلاثـة وستين عاما.

ثم بويع عمر بن الخطاب بالخلافة عقب وفـاة أبـى بكـر سـنة ثـلاث عشرـة للهجرة بعهد منه. وفى أيامه فُتِح الشام والعراق والقدس والمدائن ومصر والجزيرة. وهو أول من وضع للمسـلمين التـاريخ الهجـرى، وكـان العـرب قبلئـذ يؤرخـون بالوقائع، واتخذ بيت مال للمسلمين، وأمر ببناء البصرة والكوفة. وهو أول من دوَّن الدواوين فى الإسلام لإحصاء أصحاب الأعطيات وتوزيع المرتبات عليهم. وكـان يطوف فى الأسواق منفردًا يتفقد أحوال العاصمة، ويقضى بين الناس فى المسـجد أو حيث يدركه الخصوم. وكان إذا نزل به الأمر المعضـل يـدعو الشـبان ويستشـيرهم للاستفادة من حدة عقولهم. وهو أول من تفقد رعيته لـيلًا، وأول مـن حمـل الـدِّرَّة وأدَّب بها، وأول من سن الجماعة فى قيـام شـهر رمضـان، وأول مـن وسّـع مسـجد الرسول. كما أخرج اليهود من الحجاز إلى الشام والكوفة. وفى أيامه أصابت النـاسَ مجاعةٌ شديدةٌ عُرِفَتْ بـ«عام الرمادة» لكثرة ما هلك به من الناس والأنعـام جوعًـا، فترك قطع يد السارق مراعاة لظروف الناس القاهرة، إذ رأى أن شرط القطـع غـير متحقق لأن الضرورة مانع شرعى يبيح للإنسان أكـل الميتـة والـدم ولحـم الخنزيـر، فدرأ عنهم الحد لوجود الشبهة، وهى الجوع.

وفى العام نفسه وقع طاعون عمواس بالشام، وهلك فيه خلق كثير منهم أبـو عبيدة عامر بن الجراح ومعاذ بن جبل ويزيد بن أبى سـفيان رضى الله عـنهم، فـأَمَّر

على الشام معاويةَ بن أبى سفيان. واغتيل الفاروق رضى الله عنه على يد أبـى لؤلـؤة الفارسى غلام المغيرة بن شعبة، إذ طعنه بخنجر فى خاصرتـه وهـو يصـلى الصـبح. وكانت ولايته عشر سنين وستة أشهر تقريبا. وقبل أن يلفظ أنفاسه الأخـيرة جعـل الخلافة بعده شورى إلى ستةِ نَفَرٍ هم على وعثمان وطلحة والزبير بن العـوام وسـعد بن أبى وقاص وعبد الرحمن بن عوف.

وتولى عثمان بعده الخلافة سنة 23هـ، فأنجز عددا من الأعـمال الجليلـة منهـا فتحُ أرمينيا والقوقاز وقبرص وجَمْعُ القرآن. وكان أبو بكر قد جمعه وأبقى ما بأيـدى الناس من الرقاع والقراطيس، فلما وَلِى عثمانُ الخلافةَ طلب مصحفَ أبى بكر، فـأمر بالنَّسْخ عنه وإحراق كل ما عـداه. وهـو أول مـن وسَّـع المسـجد الحـرام ومسـجد الرسول، وأمر بالأذان الأول يوم الجمعة، واتخذ الشرطة، واتخـذ دارًا للقضـاء بـين الناس بعد أن كان أبو بكر وعمر يقضيان بين النـاس بوجـه عـام فى المسـجد. وقـد أطلَّت الفتن الجسام برأسها فى عهده رضى الله عنـه، فأشـيعت الأراجيـف وزُيفَـت الرسائل التى تدينه، وحاول كبار الصحابة أن يتصدَّوْا للفتنـة، إلا أن الأمـر انتهـى بمحاصرته فى بيته وقَتْله وهو عاكف عـلى تـلاوة القـرآن صـبيحة يـوم الأضـحى. وكانت خلافته نحو اثنتى عشرة سنة.

وأخيرا وَلِى على الخلافة بعـد مقتـل عـثمان سـنة 35هــ، فقـام بعـض أكـابر الصحابة يطلبون القصاص من قتلـة عـثمان، لكـن عليـا خـاف اضـطراب الأمـور فطلب التريث، فكان أن غضبت عائشة رضى الله عنها، وقام معهـا جمـع كبـير مـن الصحابة على رأسهم طلحة والزبير، ودارت وقعـة الجمـل بيـنهم وبـين عـلى سـنة 36هـ، فخرج منها على منتصرا. ثم كانت وقعة صفين سنة 37هـ بينه وبين معاويـة بعد أن عزله عن ولاية الشام فلـم يسـتجب للعـزل، واسـتمر القتـال ثلاثـة أشـهر تقريبا، لينتهى بتحكيم أبى موسى الأشعرى وعمرو بن العاص، اللذين اتفقـا فـيما بينهما على خلع على ومعاوية، لكنْ ما إن وقف أبو موسى وأعلن خلع على حتى قام

عمرو مُقِرًّا معاوية وخالعًا عليا، فانقسم المسلمون ثلاثة أقسام: مَـنْ بـايع معاويـة، وهم أهل الشام. ومَنْ استمر فى بيعته لعلى، وهم أهل الكوفة. ثم الخـوارج، الـذين نقموا على على رضاه بالتحكيم. ووقعت معركة النهروان سنة 38هــ بيـنهم وبينـه بعدما كفّروه ودعَوْه إلى التوبـة واجتمعـوا لحربـه، فقـاتلهم وهـزمهم. وأقـام عـلى بالكوفة عاصمة حكمه إلى أن اغتاله عبدالرحمن بن ملجـم المـرادى فى 17 رمضـان سنة 40هـ.

وكان العرب فى الجاهلية، على ما هو معروف، يدينون بالوثنية، كما كان هناك نصارى ويهود، إلا أنهم كانوا قليلين بالنسبة إلى عبدة الأوثان. وقد تحـول الوثنيـون كلهم إلى الإسلام، أما اليهود والنصارى فرغم تحول طوائف منهم للدين الجديـد لم يدخلوا الدين الجديد على هذا النطاق الكاسـح. وقـد اختفـى مـع الوثنيـة الكهـان ومعابد الأصنام، وتخلص الحج من الممارسات المنحرفـة التـى غشـيته فى الجاهليـة، وأصبح صافيا نقيا كما كان على عهد إبراهيم وإسماعيل. وصار العـرب يصـلون لله خمس مرات فى اليـوم والليلـة، ويخرجـون الزكـاة فى مواسـمها، ويصـومون شـهر رمضان، ويلتزمون شرائع الله فى الزواج والطعام والشراب والملبس والجنس والرق والميراث والبيع والشراء والحرب وسائر العلاقات الاجتماعيـة والدوليـة بـدلا مـن التقاليد والأعراف التى كانوا يأخذون بها قبل ذلـك. وأصـبح العربـى يجـد لحياتـه معنى بعدما كان يعتقد أنه ليس هناك سوى الحياة الدنيا يعقبها الفنـاء التـام، فكـان يعيش حياته لا يرعوى عن فعل شيء إلا إذا أوقفته القوة المحضة عن بلوغ ما يريـد من سلب ونهب وعدوان على حيوات أفراد القبائل الأخرى وأموالهم وكرامتهم.

ومن التطورات التى جَدَّتْ فى حياة العرب أنه لم تكن لهـم فى الجاهليـة دولـة تضم شتاتهم، بل كانوا قبائل تتناحر لأتفه الأسباب، فصار لهم كيان سياسى واحـد بدأ بدولة المدينة التى أنشأها النبى عقـب الهجـرة إليهـا عـلى أسـاس التعـاون بـين طوائفها وتساويها فى الحقوق والواجبات. وكان هو رئيسـها ومشـــرعها وقاضـيها

الأكبر وقائدها العسكرى العام. وقد خاضت هـذه الدولـة سلسـلة مـن الحـروب فُرِضَتْ عليها فَرْضًا انتصرت فيها كلها تقريبا، وكانـت فى أثنـاء ذلـك تتسـع شـيئا فشيئا حتى شملت بلاد العرب جميعا فى آخر حياة النبى. وكان عليه السـلام يرسـل الولاة والقضاة وجامعى الزكاة إلى النواحى المختلفة فى شبه الجزيرة.

كما دخلت حياةَ العرب قِيمٌ لم يكن لهم بها عهد قبلا، كقيمة التعاون على الـبر وقيمة الخضوع للقـانون وقيمـة المسـاواة بـين البشر ـ بغـض النظـر عـن أجناسـهم وقومياتهم وأديانهم وقبائلهم وطـوائفهم، فالكـل خلـق الله وعيـال الله، ولا فضـل لعربى على عجمى ولا لأبيض على أسود ولا العكس إلا بالتقوى والعمل الصالح، أى بما فى الشخص من صلاح وخير لنفسه ولمن حوله وللإنسانية جمعـاء، لا لقبيلتـه فقط وبعد ذلك الطوفان. ثم إن الاعتداء على الآخرين بغير حق صار محرما يعاقَـب عليه: فى الدنيا بسيف القانون، وفى الآخرة بالحساب الإلهى. كما صار العربى يحفـظ القرآن ويعبد الله الواحد الأحـد، ويتصـدق عـلى الفقـراء والمسـاكين والمحتـاجين، ويتفانى فى طلب العلم، ويمتنع عن شرب الخمر ولعـب الميسـر والتفـاخر القـبلى والتعامل بالربا، ولا يئد البنات ولا يحلف إلا بالله، ويشعر بأنه فرد فى أمة كاملة هى أمة الإسلام بعدما كان لا يعرف سوى الانتماء القبلى. كذلك أضحى يعمل لآخرته مع دنياه بعد أن كان يؤمن بأنه لا حياة إلا الـدنيا، وأن مصـيره فى نهايـة الأمـر هـو الهلاك التام الأبدى الذى لا رجعة منه.

وكان العرب أمة أمية لا تعرف القراءة والكتابة منها إلا أقلية ضئيلة. ولم تكن هناك كتب، فكان القرآن هو أول كتاب كامل فى حياتهم، وكان هو منطلق حضارتهم، ومنه نبعت علوم كثيرة كالنحو والصرف والفقه والكلام وتاريخ الأمم السابقة وغير ذلك. ولم يكن هناك فى الجاهلية علم يسعى أحد إلى طلبه وإحرازه، ومن ثم لا مدارس ولا معاهد ولا جامعات ولا علماء ولا متعلمون، بل كان الاعتماد على التجارب الشخصية والأمور العملية. لكن بعد الإسلام صار السعى

فى طلب العلم قيمة عظيمة، وفرضا على كل مسلم ومسلمة فى الوقت الذى كانت الكنيسة فى البلاد النصرانية تحرم على أتباعها مجرد قراءة الكتاب المقدس. وأعلى الإسلام من شأن العقل والتفكير والدليل والبرهان بعد أن كان الإيمان يقوم على مشاهدة المعجزات، وفضَّل العلماءَ على غير العلماء، بل فضل العالم على العابد تفضيلا بعيدا، فشرع العرب وسائر من دخلوا فى الإسلام يبذلون كل جهودهم فى طلب العلم لأنه صار فريضة واجبة يحاسَب الإنسان محاسَبة شديدة أمام الله على التقصير فيها.

كما أصبح تفكير العرب عالميا بعد أن كان لا يخرج عن نطاق جزيرتهم، اللهم إلا فى أمور القوافل التجارية وجلب البضائع من البلاد الأخرى، ولم يعد العربى منكفئا على نفسه فى بلاده الصحراوية، بل صار يتوثب نشاطا وحيوية ويفتح البلاد بادئا بالفرس والروم، الذين شرعوا يتآمرون عليه وعلى دولته الجديدة واعتدَوْا عليها فى مناسبات مختلفة، فكان لا بد من تأديب هؤلاء البغاة وإلزامهم حدودهم، وانتهى الأمر بهزيمتهم وفتح بلادهم وتحرير الناس من نير الاستبداد والاستعباد والترويع السياسى والاستغلال الاقتصادى والاضطهاد الدينى.

ألوان الأدب في صدر الإسلام:

وبالنسبة للنصوص الأدبية فى عصر صدر الإسلام لدينا القرآن الكريم وأحاديث النبى وخُطَبه عليه الصلاة والسلام وخطب الخلفاء الراشدين والرسائل الرسمية، إلى جانب القصص والأمثال والحكم. وقد أثر القرآن والحديث فى الأدب شعرا ونثرا سواء فى العبارة أو فى المضمون، إذ دخلت اللغةَ العربيةَ ألفاظٌ ومصطلحاتٌ وتعبيراتٌ لم يكن للعرب بها عهد: على الأقل فى معانيها الجديدة، مثل القرآن والسُّنَّة والإسلام والتقوى والملإ الأعلى والإيمان والنفاق والكفر والفسق والجهاد والعِدّة والإيلاء والاستحاضة والـمَحْرَم والشفعة والرِّجْز والحدود وأهل الكتاب والشريعة والآية والسورة والشيطان وإبليس والجنة والجحيم والحساب والثواب والعقاب والكوثر والتوبة والوسواس والوحى والميزان.

وهناك أيضا العبارات القرآنية من مثل: «هل جزاء الإحسان إلا الإحسان؟،أحلَّ الله البيع وحرَّم الربا، الطيبات للطيبين والطيبون للطيبات، ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله، فلن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا، المال والبنون زينة الحياة الدنيا، إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم، لا يكلف الله نفسا إلا وسعها، ولا تزر وازرة وزر أخرى، ولكم فى القصاص حياة، إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، وإن عاقبتم فعاقِبوا بمثل ما عوقبتم به، إن الله مع الصابرين، حسبى الله، أتأمرون الناس بالبر وتَنْسَوْن أنفسكم؟، هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون؟، لهم قلوب لا يعقلون بها، وأْتُوا البيوت من أبوابها، ومَنْ يقْنَطُ من رحمة ربه إلا الضالون؟،الباقيات الصالحات خيرٌ عند ربك ثوابًا وخيرٌ أملا، ما شاء الله لا قوة إلا بالله، تبارك الله أحسن الخالقين، اُدْعُ إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة، كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله، وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم، ما على المحسنين من سبيل، كلٌّ يعمل على شاكلته، قولٌ معروفٌ ومغفرةٌ خيرٌ من صدقة يتبعها أذًى، ما على المحسنين من سبيل، ولا

تجعلْ يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطْها كل البسط، لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون، ادفع بالتى هى أحسن، ولا تَقْفُ ما ليس لك به علم، ما جعل الله لرجل مِنْ قلبين فى جوفه، ومن يؤْتَ الحكمةَ فقد أُوتِى خيرا كثيرا، كلُّ نفسٍ ذائقةُ الموت، وما يذَّكَّر إلا أُلُو الألباب، خُلِق الإنسان ضعيفا، ما يفعلُ الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم؟، وإذا حُييتم بتحية فَحَيوا بأحسن منها أو رُدُّوها، لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظُلِم، لن ينال اللهَ لحومُها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم،الأقربون أولى بالمعروف، إن مع العسر يسرا، النفس المطمئنة، النفس اللوامة، والله يرزق من يشاء بغير حساب، وتزوَّدوا فإن خير الزاد التقوى، ومن يتَّقِ اللهَ يجعل له مخرجا».

وهناك كذلك العبارات النبوية، ومنها: «أنت ومالك لأبيك، إنما الأعمال بالنيات، الناس كإبلٍ مائةٍ لا تكاد تجد فيها راحلة، كل بنى آدم خَطّاء وخير الخطائين التوابون، الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا، حَمِى الوطيس، الحرب خدعة، يا خيل الله اركبى، سيف الله المسلول، أصحابى كالنجوم: بأيهم اقتديتم اهتديتم، إنك لعريض الوِسَاد، سبقك بها عكاشة، الدين يسر لا عسر، بشروا ولا تنفروا، لن يشادّ الدين أحد إلا غلبه، سَدِّدوا وقارِبوا، أفشوا السلام بينكم، لغِنَى غِنَى النفس، الكلمة الطيبة صدقة، النظافة من الإيمان، إن الله جميل يحب الجمال، العلماء ورثة الأنبياء،اطلبوا العلم من المهد إلى اللحد، إماطة الأذى عن الطريق صدقة، خيركم خيركم لأهله، ابدأ بمن تعول، تَعِسَ عبدُ الدينار،الناس سواسيةٌ كأسنان المُشْط،استفتِ قلبَك يفْتِك، المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا، المسلم مَنْ سَلِم المسلمون من لسانه ويده، إنكم لن تَسَعُوا الناس بأموالكم فسَعُوهم بأخلاقكم، إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم،إن المنبتَّ لا أرضًا قَطَعَ ولا ظَهْرًا أَبْقَى، اعقلها وتوكل، لا تعلم شِماله ما أنفقت يمينه، ليس الإيمان بالتمنى ولكن ما وَقَر فى القلب وصدَّقه العمل، المؤمنُ

آلِفٌ مألوف، ليس الشديد بالصُّرَعة ولكن الشديد من يملك نفسه عند الغضب،الراحمون يرحمهم الرحمن، من غشنا فليس منا، لا يزال الرجل يكذب حتى يكْتَب عند الله كذابا، الحكمة ضالَّة المؤمن،رفقًا بالقوارير، هذا يوم له ما بعده، لا ينتطح فيها عنزان، ما خاب من استشار،التدبير نصف المعيشة، المؤمن كَيسٌ فَطِن، لا يلْدَغ المؤمنُ من جحرٍ مرتين، المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا، الله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه».

الشعر:

ثَمَّ مقولةٌ شائعةٌ انتشرت بين المَعْنِيين بالشعر العربى منذ وقت مبكر فى تاريخ الإسلام هى أن العرب كَفُّوا، مع ظهور الدعوة المحمدية وانشغالهم بالقرآن والفتوح، عن قول الشعر. وليس هذا صحيحا، فلم يتوقف الشعر يوما. وهل يتوقف الإنسان عن الشعور والطموح والحب والفخر والتهكم والانفعال بمظاهر الجمال والرغبة فى التنفيس عن ضيقه ومللِه وبهجته ويأسه وأمله؟ أليست هذه هى بواعث الشعر؟ فكيف يقال إنه قد توقف؟ وفى كتاب «الأمراء» بـ«فهرس مصنف ابن أبى شيبة»: «حدثنا ابن إدريس عن حمزة أبى عمارة قال: قال عمر بن عبد العزيز لعبيد الله بن عبد الله: مالك وللشعر؟ قال: هل يستطيع المصدور إلا أن ينْفُث؟». بل لقد أصبح الإسلام ذاته باعثا جديدا من بواعثه، إذ صارالمسلم يتغنى بدينه الجديد وما أتى به من قيم ومبادئ، وينافح عن الرسول الذى جاء به، ويتباهى بما أحرزته قوات الإسلام من انتصار على الكفر وأهله.

ورغم وضوح البطلان فى هذه الدعوى فلا نزال نجد من يرددها فى عصرنا كالدكتور عمر فروخ مثلا فى المجلد الأول من كتابه الذى أرخ فيه للأدب العربى، ومن قبله الراهب الجزائرى المتفرنس جان محمد عبد الجليل، الذى ساق هذا الزعم سَوْقَ المؤكِّد له فى كتابه: «Brève Histoire de la Littérature Arabe».
وهو زعم فاسد لأن العرب فى بداية الدعوة المحمدية إما رجل اعتنق الإسلام، وإما

رجل ظل على وثنيته أو يهوديته أو نصرانيته. فأما المسلمون فكانوا، فى معظم عصر الرسول، قلة كما هو معروف، فلو افترضنا أنهم جميعا كانوا شعراء وأنهم على بكرة أبيهم قد انصرفوا عن نظم الشعر فإن عددهم القليل بالنسبة للعرب جميعا لن يكون له هذا التأثير المزعوم. وأما المشركون وأهل الكتاب فلم يا ترى ينصرفون عن الشعر بسبب الإسلام، وهم لا يعتنقونه وليس فى دينهم ما يدفعهم إلى هذا الانصراف كالذى يقال عن الإسلام من أنه هاجم الشعر والشعراء أو أن الجهاد قد شغل المسلمين عن الاهتمام إلى الإبداع الشعرى؟ وعلى كل حال لقد رأينا المشركين واليهود ينظمون الشعر فى ذم الرسول ودينه وأتباعه وفى المعارك التى دارت بينهم وبينه كابن الزبعرى وسفيان بن الحارث وأمية بن أبى الصلت وكعب بن الأشرف،وظل قسط غير قليل من هذا الشعر متاحا حتى وقتنا هذا. بل لقد رأينا كيف ينسب الرواة، حقا أو زيفا، شعرا لأبى طالب مثلا يدافع فيه عن الرسول رغم أنه، فيما هو مشهور، لم يكن على دينه، وظل متمسكا بما كان عليه قومه إلى أن مات. كما أن الأعشى قد ظل ينظم الشعر بعد ظهور الإسلام كما كان ينظمه قبلا. بل إنه قد أعد قصيدة يمدح بها النبى ودعوته ناويا أن يفد بها عليه وينشدها بين يديه ويعلن الدخول فى دينه. ثم كيف يهجر الناس الشعر، ولم تتغير طبيعة البشر، إذ ظلوا يحسون ويحبون ويتفاخرون ويأملون ويتألمون ويقلقون ويملون ويشاهدون ما حولهم من مناظر الطبيعة وجمال النساء وسلوك البشر وتقلبات الأيام وما إلى هذا مما من شأنه أن يفجر بواعث نظم الشعر؟

وعادة ما يشير أصحاب هذه المقولة إلى لبيد بن ربيعة بوصفه مثالا على الشاعر المشهور القدير الذى ما إن جاء الإسلام حتى سكت فلم ينبس إلا ببيت واحد يتيم ليس غير. فهل هذا صحيح؟ إن ديوان الرجل موجود تحت أيدينا، ومن السهل على من يريد التثبت من هذه الدعوى أن يفتح ذلك الديوان ليرى هل فعلا صَمَتَ لبيد بعد الإسلام فلم يعد يقول الشعر أو لا. ودعنا من الفترة التى انقضت

بين ظهور الدين الجديد ودخوله هو فيه، تلك الفترة التى كان لا يزال فيها على دينه الأول ولم يكن هناك ما يدفعه إلى التوقف عن الشعر، فإن لـه فعـلا فى تلـك الفـترة شعرا كثيرا، ولنركز على الفترة التى تلت إسلامه إلى أن مات. فمـن يقـرأ شـعره فى تلك الفترة سوف يلاحظ أنه قد نظم شعرا كثيرا بالنسبة إلى حجم شعره الذى بقـى لنا. ولسوف يـرى أن الرجـل يكـرر فى أشـعاره ذكـر الله وحمـده والرضـا بقضـائه وقدره،ويتحدث عن التقى والـبر وصـحيفة أعـمال المـرء التـى سـوف يحاسَـب فى الآخرة على أساس منها، ويشير إلى ما صنعه الله بعـاد وثمـود وغيرهمـا مـن الأمـم القديمة عقابا لها على تمردها وعصيانها... إلخ.

ومن شعر الرجل الذى يعكس إسلامه نسوق الطائفـة التاليـة مـن الشـواهد المنتقاة من قصائد من الواضح أنه نظم كلا منها كاملة فى الإسلام، عـلى الأقـل لأن تلك الاستشهادات تبدو قارَّةً متمكنةً فى مواضعها غير مقحَمةٍ عـلى القصـائد التـى وردت فيها. ولا يقل عدد هذا اللون من الأشعار عـن خمسـة عشرـ نصـا معظمهـا قصائد، وهو ما يبدو معه الزعم القائل بأن لبيـدا لم يـنظم فى الإسـلام سـوى بيـت واحد زعما فاشلا:

قُضِـى الأُمــورُ، وَأُنْجِــزَ المَوعــودُ **وَاللَّــهُ رَبِّــى ماجِــدٌ مَحمــودُ**

وَلَــهُ الفَواضِــلُ وَالنوافِــلُ وَالعُــلا **وَلَـــهُ أَثِيـــثُ الخَــيرِ والمعـــدودُ**

وَلَقَـــد بَلَـــتْ إِرَمٌ وَعـــادٌ كَيـــدَهُ **وَلَقَـــد بَلَتْـــهُ بَعْـــدَ ذاكَ ثَمُـــودُ**

خَلَّـــوْا ثِيـــابَهُمُو عَلَـــى عـــوراتِهِم **فَهُمُـــو بِأَفْنِيـــةِ البيـــوتِ هُمُـــودُ**

وَلَقَـد سَـئِمْتُ مِـنَ الحيـاةِ وَطُولِهـا **وَسُـؤَالِ هـذا النـاسِ: كَيـفَ لَبِيـدُ؟**

***

إِنَّمـــا يحْفَـــظُ التُّقَـــى الأَبْـــرارُ **وَإِلى اللّهِ يسْـــــــتَقِرُّ القَـــــــرَارُ**

وَإِلى اللّهِ تُرْجَعـونَ، وَعِنـدَ اللـــــــ **ــــــــهِ وِرْدُ الأُمـــورِ وَالإِصْـــدارُ**

كُلَّ شَيءٍ أَحْصَى كِتابًا وَعِلْمًا   وَلَدَيهِ تَجَلَّتِ الأَسرارُ

يوْمَ أَرزاقٌ مَن يفَضِّلُ عُمٌّ   مُوسَقَاتٌ وَحُفَّلٌ أَبكارُ

يومَ لا يدْخِلُ الْمُدارِسَ فى الرحـ   ـمَةِ إِلّا بَراءَةٌ وَاعتِذارُ

وَحِسَانٌ أَعَدَّهُنَّ لِأَشْها   دٍ وَغَفْرُ الَّذى هُوَ الغَفّارُ

***

وَما البِرُّ إِلّا مُضْمَراتٌ مِنَ التُّقَى   وما المالُ إِلّا مُعْمَراتٌ وَدائِعُ

وَما المالُ والأَهْلونَ إِلّا وَديعَةٌ   وَلا بُدَّ يومًا أن تُرَدَّ الوَدائِعُ

وَما الناسُ إِلّا عامِلان: فَعامِلٌ   يتَبِّرُ ما يبْنِى، وَآخَرُ رافِعُ

فَمِنهُم سَعيدٌ آخِذٌ لِنَصيبِهِ   وَمِنهُم شَقِى بالمعيشةِ قانِعُ

لَعَمْرُكَ ما تدرى الضَّوارِبُ بِالحَصَى   وَلا زاجِراتُ الطَّيرِ ما اللّهُ صانِعُ

سَلُوهُنَّ إِنْ كَذَّبتُمونى: مَتَى الفَتَى   يذوقُ المنايا؟ أو مَتَى الغَيثُ واقِعُ؟

***

مَنْ يبْسُطِ اللّهُ عليه إِصْبَعا

بالخيرِ وَالشَّرِّ بِأَى أُولِعا

يمْلَأْ لَهُ مِنهُ دَنُوبًا مُتْرَعا

وَقَد أَبادَ إِرَمًا وَتُبَّعا

وَقَوْمَ لُقمانَ بْنِ عادٍ أَخْشَعا

إِذْ صارَعوهُ فَأَبَى أَن يصْرَعا

وَالفِيلَ يوْمَ عُرَناتٍ كَعْكَعا

إِذْ أَرْمَعَ العُجْمُ بِهِ ما أَرْمَعا

نـــــادى مُنــــــادٍ رَبَّــــــهُ فَأَسْـــــمَعا

فَــــــذَبَّ عَــــــن بِـــــلادِهِ وَوَرَّعــــــا

وَحــــــابَسَ الحاسِــــــرَ وَالْمُقَنَّعــــــا

وَأَفْلَـــتَ الجــيشُ بِخِــزْىٍ مُوجَعــا

تَمُــــجُّ أُخْــــراهُم دِمـــــاءً دُفَّعــــا

***

رَأَيــتُ التُّقَــى والحمــدَ خَــيرَ تِجــارَةٍ رَبَاحًــا إِذا مــا المــرءُ أَصبَـحَ ثـاقِلا

وَهَـل هُـوَ إِلّـا مـا ابْتَنَـى فـى حَياتِـهِ إِذا قَــذَفوا فَــوْقَ الضَّــريحِ الجَنــادِلا

***

لِلّـــــهِ نافِلَـــــةُ الأَجَــــلِّ الأَفْضَــــلِ وَلَـــهُ العُلَـــا وَأَثِيـــثُ كُـــلِّ مُؤَثَّـــلِ

لا يســـتطيعُ النـــاسُ مَحْـــوَ كِتابِـــهِ أَنَّـــى، ولـــيس قَضــاؤُهُ بِمُبَـــدَّلِ؟

سَـــوَّى، فَــأَغلَقَ دونَ غُــرَّةِ عَرشِــهِ، سَــبْعًا طِبَاقًــا فَــوْقَ فَــرْعِ المَنْقَــلِ

وَالأَرضَ تحتَهُمُـــو مِهـــادًا راسِـــيا ثَبَتَـــتْ خَوالِقُهـــا بِصُـــمِّ الجَنْــدَلِ

وَالمـــاءُ وَالـــنيرانُ مِـــن آياتِـــهِ فـــيهِنَّ مَوْعِظَـــةٌ لِمَـــنْ لم يجْهَـــلِ

بَــل كُــلُّ سَـعْيِكَ باطِــلٌ إِلّــا التُّقَــى فَــإِذا انقَضــى شَــيءٌ كَــأَنْ لم يفْعَــلِ

***

أَرى النـاسَ لا يـدْرونَ ماقَـدْرُ أَمـرِهِم بَلَــى كُــلُّ ذى لُــبٍّ إِلى اللّهِ واسِــلُ

أَلا كُــلُّ شَــيءٍ مــا خَـلا اللّهَ باطِــلُ وَكُـــلُّ نَعِـــيمٍ لا مَحالَـــةَ زائِـــلُ

وَكُــلُّ أُنــاسٍ ســوفَ تَــدْخُلُ بَيــنَهُم دُوَيهِيَـــةٌ تَصْـــفَرُّ مِنهـــا الأَنامِـــلُ

وَكُــلُّ امْــرِئٍ يوْمًــا سَــيعْلَمُ سَــعْيَهُ إِذا كُشِّــفَت عِنْــدَ الإِلَــهِ المَحاصِــلُ

***

إِنَّ تَقْـــوَى رَبِّنـــا خَـــيرُ نَفَـــلْ وَبِـــإِذنِ اللَـــهِ رَيثِـــى وَعَجَـــلْ

أَحْمَـــدُ اللّهَ، فَـــلا نِـــدَّ لَـــهُ بِيدَيـــهِ الخَـــيرُ، مـــا شـــاءَ فَعَـــلْ

مَــنْ هَــداهُ سُــبُلَ الخَــيرِ اهتــدى   نــاعِمَ البــالِ، وَمَــن شــاءَ أَضَــلّْ
وَاكْــذِبِ الــنفسَ إذا حَــدَّثْتَها   إنَّ صِــدْقَ الــنفسِ يــزْرِى بِالأَمَــلْ
غَــيرَ أَلّــاَ تَكْــذِبَنْها فــى التُّقــي   وَاجْزُهــا بِــالبِرِّ لِلَّــهِ الأَجَــلّْ

***

أَتَينــاكَ يــا خَــيرَ البَرِيــةِ كُلِّهــا   لِتَرْحَمَنــا مِمّــا لَقِينــا مِــنَ الأَزْلِ
أَتَينــاكَ، وَالعَــذْراءُ يــدْمَى لَبَانُهــا   وَقَــد ذَهِلَــت أُمُّ الصَــبِى عَــنِ الطِفْــلِ
وَأَلقــى تكَنِّيــهِ الشُّــجاعُ اســتِكانَةً   مِــنَ الجــوعِ صُــمْتًا لا يمِــرُّوَلا يحْلِــي
وَلا شــيءَ مِمّــا يأكُـلُ النــاسُ عِنْـدَنا   سِوى العِلْهَزِ العَامِى وَالعَبْهَرِ الفَسْلِ
وَلَــيسَ لَنــا إِلّــا إِليــكَ فِرارُنــا   وَأَيــنَ يفِـرُّ النــاسُ إِلّــا إِلى الرُّسْـلِ؟
فَإِن تَدعُ بِالسُّقْيا وَبِالعَفْوِ تُرْسِلِ الســ   ـسماءُ لَنا، وَالأَمْرُ يبْقَى على الأَصْلِ

***

فَــاقْنَعْ بِمــا قَسَــمَ المَلِيــكُ، فَإِنَّمــا   قَسَــمَ الخَلائِــقَ بَينَنــا عَلاَّمُهــا
وَإِذا الأَمانَــةُ قُسِّــمَتْ فــى مَعْشَــرٍ   أَوْفَــى بِــأَوْفَرِ حَظِّنــا قَسّــامُها

فانظركم قصيدة ومقطوعة قالها لبيد فى الإسلام، ورغم هذا يزعم الزاعمون أنه لم يقل فيه سوى بيت يتيم لا شريك له! فـإذا كـان هـذا هـو حـال لبيـد، الـذى يضْرَب مثلا على ترك العرب للشعر بعد ظهور الإسلام، فما بالنا بغيره؟ وماذا كـان يفعل حسان وابن رواحة وكعب عند الرسول؟ ألم يكونوا ينظمون الشعر دفاعا عن دين الله فيحظَوْن بتشجيعه ودعائه؟ وماذا نقول فى بردة كعـب بـن زهـير؟ أليسـت شعرا؟ وما العمل إزاء القصائد التى كـان يلقيهـا شـعراء الوفـود القبليـة فى العـام التاسع للهجرة فى حضرة الرسول عليه السلام؟ ومـاذا نصـنع بالشـعر الـذى قالـه خُبَيب بن عَدْى من فوق الصليب الذى جهزه أعداء الإسلام لقتلـه؟ ومـاذا ومـاذا وماذا مما لن ننتهى منه بسهولة لأنه كثير؟ وكيـف نصـدق هـذا الـزعم، وقـد كـان الرسول والصحابة يستمعون إلى الشعر ويستنشدون الرواة ما عنـدهم مـن أشـعارٍ

كثيرٌ منها جاهلى؟ لو كان ذلك الزعم صحيحا لكفوا عـن الاسـتماع إليـه، ولنفـروا أشد نفور من شعر الجاهلية بالذات.

إن قـائلى هـذا الكـلام يشـيرون إلى قولـه تعـالى فى آخـر سـورة «الشـعراء»: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾﴾ [سـورة الشـعراء: الآيـة 227]إلا أنهـم يَنْسَوْن عدة أشياء هامة: فهذه الآيات قد نزلت فى المدينة، ومعنى ذلك أن الإسـلام لم يكن بل ذلك قد قال شيئا فى حق الشعر يدفع مبدعيه إلى الكف عن إبداعه. وثانيا ينبغى أن نضع هذه الآيات فى سياقها التاريخى وسياقها الموضعى، إذ هى رد على من كانوا يتهمون الرسول بأنه شاعر يقول ما يلهمه إياه الشياطين ويسيئون إلى أعراض المسلمين والمسلمات، فقال القرآن إن الشياطين إنما تتنزل على أولئك الشعراء الـذين يهاجمون الإسلام وأهله ولا يتقيدون فى شعرهم بمراعاة ما هو حق فليتزمونه ولا ما هو باطل فيتجنبونه، بل يتركون خيالاتهم وأوهامهم تسـوقهم هنـا وهنـا فى أوديـة الضلال دون اهتمام بصدق أو كـذب. ومـثلهم وعـلى شـاكلتهم جمهـورهم الـذى ينصت مصدقا أكاذيبهم وشطحاتهم الهائمة المنفلتة من عيار الصدق. ومع هذا كلـه فإن الآيات نفسها تستثنى شعراء الإسـلام، الـذين يـردون عـلى أكاذيـب الشـعراء المشركين ويفضحونها. ولو كان رأى الإسلام فى الشعر سـيئا لكـان المسـلمون أول من يجب عليهم هجره والابتعاد عن طريقه بكل وسيلة متاحة.

أما ما تكرر فى القرآن من نفى الشعر عـن الرسـول كقولـه سـبحانه مـثلا فى سـورة «يـس»: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾﴾ [سورة يس: الآيـة 70] فلا يعنـى أبـدا أن الشعر فى حد ذاته شر يتَبَرَّأ منه، بل يعنى أن القرآن شيء، والشعر شيء آخر: الشـعر

غزل ونسيب ومديح ورثاء وفخر وتمجيد للأصنام ووقوف على الأطلال وتفاخر بمواقعة الشهوات ووصف للنساء والحيوان والمطر والسيول وعيون الماء وتصوير جمال الحصان والناقة وقوتهما وحكاية لما يقابله الشاعر فى رحلته عبر البادية من مناظر ومشقات وأهوال... إلخ، أما القرآن فدعوة إلى الإيمان بالله وتوحيده وتذكير بنعمه وتحذير من عصيانه وعقابه وتبشير بثوابه ونعيمه وحث على البر والتقوى وعمل الخير والمعروف والصدق والعفة وما إلى ذلك. وواضح أنهما سبيلان مختلفان، ويزيدهما اختلافا أن الشعر يجرى على أوزان وقواف، أما القرآن فبلا أوزان ولا قواف. ومع ذلك كان المشركون يتجاهلون هذا كله ويتهمون الرسول بأنه شاعر يتلقى الوحى من الشياطين، فكان لا بد أن يرد القرآن على هذه الفرية الكاذبة العنيدة. وهذا كل ما هنالك. بل إن اعتناق الشعراء للإسلام لم يصرف من يريد منهم عن التغزل فى النساء والتشبيب بهن ووصف محاسنهن وتشبيه طعم أفواههن بالخمر إلى الدرجة التى يقول فيها كعب بن زهير مثلا فى حضرة الرسول حين أتاه معتذرا عما قاله من كلام مسيء فى حقه معلنا إسلامه:

بانَت سُعادُ، فَقَلْبى اليومَ مَتْبُولُ ... مُتَيمٌ إثْرَهـا لَـم يجْـزَ مَكْبـولُ

وَمـا سُعادُ غَداةَ البَين إذْ رَحَلوا ... إلّا أَغَنُّ غَضِيضُ الطَّرْفِ مكحولُ

هَيفاءُ مُقبِلَةً، عَجزاءُ مُدبِرَةً ... لا يشْتَكى قِصَرٌ مِنها وَلا طولُ

تَجْلو عَوارِضَ ذى ظَلْمٍ إذا ابْتَسَمَتْ ... كَأَنَّهُ مُنْهَلٌ بِالرَّاحِ مَعْلولُ

شُجَّت بِذِى شَبَمٍ مِن ماءِ مَحْنِيةٍ ... صافٍ بِأَبْطَحَ أَضْحَى وَهْوَ مشمولُ

يا وَيحَها خُلَّةً لَو أنَّها صَدَقَتْ ... ما وَعَدَتْ أَوْ لَوْ أَنَّ النُّصْحَ مقبولُ

لَكِنَّها خُلَّةٌ قَدْ سِيطَ مِنْ دَمِها ... فَجْعٌ وَوَلْعٌ وَإخْلافٌ وَتَبْديلُ

فَما تَدومُ عَلَى حالٍ تكونُ بِها ... كَما تَلَوَّنُ فى أَثْوابِها الغُولُ

وَما تَمَسَّكُ بِالوَصْلِ الذى زَعَمَتْ ... إلّا كما تُمسِكُ الماءَ الغَرابيلُ

كَانَـتْ مَواعيـدُ عُرْقُـوبٍ لهـا مَثَلًـا وَمَـــا مَوَاعِيـــدُهَا إِلّـــا الأَبَاطِيــلُ

فَـلا يغُرَّنْـكَ مـا مَنَّـتْ وَمـا وَعَـدَتْ إِنَّ الأَمــــانِى وَالأَحْـــلامَ تَضْـــلِيلُ

أَمْسَـــتْ سُــعادُ بِــأَرْضٍ لا يبَلِّغُهـــا إِلّـــا العِتَـــاقُ النَّجِيبـــاتُ المَراسِـيلُ

أما الشعر المنطلق من باعث الإسلام صافيا بعيدا عن أغراض الشعر التقليدية فمنه مثلا قول خُبَيب بن عَدِى حين وضعه آسروه المشركون الغادرون على خشبة ليصلبوه:

لقـد جمّـع الأحـزابُ حـولى وألّبُـوا قبـائلَهم، واسـتجمعوا كـل مَجْمَـعِ

وقــد قرَّبــوا أبنــاءهم ونســاءهم وقُرِّبْــتُ مــن جِــذْعٍ طويــلٍ ممنَّــعِ

وكُلّهُمــو يبْــدِى العــداوةَ جاهــدًا علــى لأنــى فــى وَثــاقٍ بمَضْــيعِ

إلى الله أشـكو غربتـى بعـد كُـرْبَتِي وما جمّـع الأحزابُ لى عند مصرعي

فذا العرشِ، صَبِّرْنى على ما أصابني فقد بَضَعُوا لحمى، وقد ضلَّ مطمعي

وذلــك فــى ذات الإلــه. وإن يشــأْ يبــارِكْ علـى أوصــالِ شِـلْوٍ ممــزَّعِ

وقـد عرَّضـوا بـالكفر، والمـوتُ دونَـهُ وقـد ذَرَفَـتْ عينـاى مـن غـير مـدمعِ

ومــا بــى حـذارُ المـوت. إنـى لميـتٌ ولكــنْ حِــذارِى حَــرُّ نَــارٍ تلفَّــعُ

فلســـتُ بمُبْـــدٍ للعـــدوِّ تخشُّـــعًا ولا جَزَعًـــا. إنـــى إلى الله مَرْجِعِـــي

ولسـت أبـالى حـين أُقْتَـلُ مسـلمًا على أى حالٍ كان فى الله مصرعي

وكان قد صلى قبل صلبه ركعتين، ويقول العلماء إنه أول من سن هـذه السـنة الجميلة. أفبعد هذا نقول إن الإسلام قد ذم الشعر وأصحابه؟ أويصح الزعم بأن خبيبا قد ارتكب إثم الشعر وهو مقبل على الله مؤمنًا عزيزًا أَبِى النفس شجاعَ القلب مجاهدًا حقَّ الجهاد حريصًا على الشهادة فى سبيل الله؟

والآن، وقـد فَنَّـدْنا دعـوى اضـمحلال الاهـتمام بالشـعر لـدى مجـيء الإسلام،نتوقف أول شيء عند القصائد الهجائية التى تبادلها شعراء الشرك والإسلام آنذاك دفاعا من كل فريق عما يؤمن به وتسفيهًا لما عند الفريق الآخر، وإن

كان الأمر قد انتهى بدخول المشركين فى الدين الجديد. ومما بقى لنا من شعر معسكر الكفر الأبيات التالية مثلا لابن الزِّبَعْرَى، الذى ظل متمسكا بالشرك حتى فتح الرسول مكة المكرمة، فتركها هاربا إلى نجران، ثم غير رأيه وعاد منها قاصدا المدينة حيث وفد على رسول الله معتذرا عما قاله ضده وضد دينه. والكلام فى الأبيات عن غزوة بدر وقتلى المشركين الذين صرعتهم سيوف الإسلام رغم تفوق المشركين الهائل على المسلمين عددا وعدة:

ماذا عَلى بَدْرٍ وَماذا حَوْلَهُ ... **مِن فِتْيةٍ بِيضِ الوُجُوهِ كِرامِ؟**

تَرَكُوا نُبَيهًا خَلفَهُم وَمُنَبِّهًا ... **وَابنَى رَبِيعَةَ خَيرَ خَصْمٍ فِئامِ**

وَالحارِثَ الفَياضَ يبرقُ وَجْهُهُ ... **كالبدرِ جَلَّى لَيلَةَ الإظلامِ**

وَالعاصِى بْنَ مُنبِّهٍ ذا مِرَّةٍ ... **رُمْحًا تَمِيمًا غَيرَ ذى أَوْصامِ**

تنْمِى بِهِ أَعْراقُهُ وَجُدُودُهُ ... **وَمَآثِرُ الأَخْوالِ والأَعْمامِ**

وَإذا بَكَى باكٍ فَأَعْوَلَ شَجْوَه ... **فَعَلَى الرَّئِيسِ الماجِدِ ابنِ هِشامِ**

حَيا الإلَهُ أَبَا الوَلِيدِ وَرَهْطَهُ ... **رَبُّ الأَنامِ، وَخَصَّهُم بِسلامِ**

وعن غزوة أحد وما أوقعه المكيون بالمسلمين من قتل بعض أبطالهم المغاوير كحمزة سيد الشهداء يقول أيضا ابن الزبعري:

أَلا ذَرَفَتْ مِن مُقْلَتَيكَ دُمُوعُ ... **وقد بانَ مِن حَبْلِ الشَبابِ قُطُوعُ**

وَشَطَّ بِمَن تَهْوَى المَزارُ، وَفَرَّقَتْ ... **نَوَى الحَى دارٌ بِالحبيبِ فَجُوعُ**

وَلَيسَ لِما وَلَّى على ذى حَرارَةٍ، ... **وَإنْ طالَ تَذْرافُ الدُّموعِ، رُجُوعُ**

فَذَرْ ذا، وَلَكِنْ هل أَتى أُمَّ مَالِكٍ ... **أَحاديثُ قَومى؟ وَالحديثُ يشيعُ**

ومُجْنَبُنا جُرْدًا إلى أَهلِ يثْرِبٍ ... **عَناجِيجَ مِنها مُتْلَدٌ وَنَزِيعُ**

عَشِيةَ سِرْنا فى لُهَامٍ يقُودُنا ... **ضَرُورُ الأَعادى لِلصَّدِيقِ نَفُوعُ**

نَشُدُّ عَلَينا كُلَّ زَغْفٍ كَأَنَّها ... **غَدِيرٌ بِضَوْجِ الوادِيينِ نَقِيعُ**

فَلَمّا رَأَوْنا خالَطَتْهُم مَهابَةٌ وَعايَنَهُم أَمْرٌ هُناكَ فَظِيعُ
وَوَدُّوا لَوَ انَّ الأَرْضَ ينشَقُّ ظَهْرُها بِهِم، وَصَبُورُ القَوْمِ ثمَّ جَزُوعُ
وَقَد عُرِّيت بِيضٌ كَأَنَّ وَمِيضَها حَريقٌ تَرَقّى فى الأَبَاءِ سَريعُ
بِأَيمانِنا نَعْلو بِها كُلَّ هامَةٍ وَمِنها سِمَامٌ لِلعَدوِّ ذَريعُ
فَغادَرْنَ قَتْلَى الأَوْسِ عاصِبَةً بهم ضِبَاعٌ وَطَيرٌ يعْتَفِينَ وُقُوعُ
وَجَمْعُ بنى النَّجّارِ فى كُلِّ تَلْعَةٍ بَأَبْدانِهم مِنْ وَقْعِهِنَّ نَجِيعُ
ولولا عُلُوُّ الشِّعبِ غادَرْنَ أَحْمَدًا وَلَكِنْ عَلَا، وَالسَّمْهَرِى شَرُوعُ
كَما غادَرَتْ فى الكَرِّ حَمْزَةَ ثاويا وَفى صَدْرِهِ ماضى الشَّباةِ وَقِيعُ
وَنُعْمانَ قد غادَرْنَ تَحْتَ لِوائِهِ عَلى لَحْمِهِ طَيرٌ يجُفْنَ وُقُوعُ
بِأُحْدٍ، وَأَرْماحُ الكُماةِ يرِدْنَهُم كَما غالَ أَشْطانَ الدِّلاءِ نُزُوعُ

ومن شعر ابن الزبعرى كذلك الأبيات التالية من قصيدة تتحدث عن معركة الأحزاب وتفتخر بما كانت جيوش الكفر تنوى إنزاله بالمسلمين من تنكيل وفتكٍ لولا وجود الخندق، الذى حماهم من تلك الجيوش:

وَاذْكُرْ بَلاءَ مَعَاشِرٍ وَاشْكُرْهُمو ساروا بِأَجْمَعِهِم مِنَ الأَنْصابِ
أَنصابِ مَكَّةَ عامِدينَ لِيثْربٍ فى ذى غَياطِلَ جَحْفَلٍ جَبْجابِ
يدَعُ الحُزُونَ مَناهِجًا مَعْلومَةً فى كُلِّ نَشْزٍ ظاهِرٍ وشِعابِ
فيهِ الجيادُ شَوازِبٌ مَجْنونَةٌ قُبٌّ البُطونِ لَواحِقُ الأَقْرابِ
مِن كُلِّ سَلْهَبَةٍ وَأَجْرَدَ سَلْهَبٍ كَالسِّيدِ بادَرَ غَفْلَةَ الرُّقّابِ
جَيشٌ عُيينَةُ قاصِدٌ بلوائِهِ فيهِ، وَصَخْرٌ قائِدُ الأَحزابِ
قَرْمانِ كَالبَدْرَينِ أَصبَحَ فيهما غَيثُ الفَقيرِ وَمَعْقِلُ الهُرّابِ
حَتّى إِذا وَرَدُوا المدينَةَ وَارتَدَوْا لِلمَوتِ كُلَّ مُجَرَّب قَضّابِ
شَهْرًا وَعَشْرًا قاهِرينَ مُحَمَّدا وَصِحابُهُ فى الحربِ خَيرُ صِحابِ
نادَوْا بِرِحْلَتِهِم صَبيحَةَ قُلْتُمُو: كِدْنا نَكونُ بِها مَعَ الخُيّابِ

لَـولا الخَنَـادِقُ غـادَرُوا مِـن جَمْعِهـم قَتْلَـــى لِطَـــيرٍ سُـــغَّبٍ وَذِئـــابِ

لكن ابن الزبعرى، بعد فتح مكة ومعاينته هزيمة الشرـك وانتصـار التوحيـد وفشله فى الهروب وإيقانه أَلَّا أمل فى عودة الوثنية كرة أخرى، أقلع عن غَيـه وتـاب وأناب واعتذر للرسول عليه الصلاة والسلام وأنشأ شعرا مختلفـا يعلـن فيـه إيمانـه ويقر بضلاله القديم ويتبرأ منـه ويشـهد للرسـول صـلى الله عليـه وسـلم بالصـدق ويعترف له بالسيادة:

مَنَـــعَ الرقـــادَ بَلابِـــلٌ وَهُمُـــومُ وَاللَّيـــلُ مُعْـــتَلِجُ الـــرِّوَاقِ بَهِـــيمُ

مِمّـــا أَتـــانى أَنَّ أَحْمَـــدَ لامَنِـــى فيـــهِ، فَبِـــتُّ كـــأننى مَحْمُـــومُ

يـا خَـيرَ مَـن حَمَلَـتْ عَلـى أَوْصـالِها عَيرانَـــةٌ سُـــرُحُ اليـــدَينِ غَشُـــومُ

إنّـــى لَـــمُعْتَذِرٌ إِلَيـــكَ مِـــنَ الـــذى أَسْـدَيتُ إِذْ أَنـا فـى الضَّـلالِ أَهِـيمُ

أَيـــامَ تَـــأْمُرُنى بِـــأَغْوَى خُطَّـــةٍ سَـــهْمٌ، وَتَـــأْمُرُنى بِهـــا مَخْـــزومُ

وَأَمُـــدُّ أَسْـــبابَ الـــرَّدى، وَيقُـــودُني أَمْـــرُ الغُـــوَاةِ، وَأَمْـــرُهُم مَشْـــؤومُ

فَـــاليوْمَ آمَـــنَ بِـــالنَّبِى مُحَمَّـــدٍ قَلْبِـــى، وَمُخْطِـــئُ هَـــذِهِ مَحْـــرومُ

مَضَـتِ العَـداوَةُ، وَانْقَضَـتْ أَسـبابُها وَدَعَـــتْ أَواصِـــرُ بَيننـــا وَحُلُـــومُ

فَـاغْفِرْ فِـدًى لَـكَ وَالِـدَاى كِلاهُمـا، زَلَلِـــى، فَإِنَّـــكَ راحِـــمٌ مَرْحـــومُ

وَعَلَيـكَ مِـن علـمِ المَليـكِ عَلامَـةٌ: نُـــورٌ أَغَـــرُّ وَخـــاتَمٌ مختـــومُ

أَعْطـــاكَ، بعـــد مَحَبَّـــةٍ، بُرْهانَـــهُ شَـــرَفًا، وَبُرْهـــانُ الإِلَـــهِ عَظـــيمُ

وَلَقَـد شَـهِدْتُ بِـأَنّ دينَـكَ صـادِقٌ حَـــقٌّ وَأَنْـكَ فـى العِبَـادِ جَسـيمُ

وَاللَّـــهُ يشْـــهَدُ أَنَّ أَحمـــدَ مُصْـــطَفًى مُسْـــتَقْبَلٌ فـــى الصَّـــالِحِينَ كَـــرِيمُ

قَـــرْمٌ عَـــلا بُنْيانُـــهُ مِـــن هاشِـــمٍ فَـــرْعٌ تَمَكَّـــنَ فـــى الـــذُّرَى وَأَرُومُ

وهنا يزعم بعض المستشرقين أن المسلمين الأوائل قد أهملوا الشـعر الشِّرْـكِى أو حوروا فيه ما كان يوجَّه للنبى من سباب وللأوثان من تمجيـد كاسـتبدالهم مـثلا اسم «محمد» بـ«مذمَّم»، الذى كان شعراء الشرك ينبزونه بـه، أو وضـع كلمـة «الله» بدل «اللات». وهذا الزعم غير صحيح، ولا نسمع به إلا حين يذكر ابـن هشـام فى

كتابه عن السيرة النبوية أنه قد تصرف فى الشعر الذى يهْجَى به النبى عليـه السـلام، إذ يسجل حينئذ ما صنع وينبه إليه ولا يترك الأمر مُعَمًّى. ولن نحتـاج إلى الـذهاب بعيدا، وها نحن أولاء نرى أبيات ابن الزبعرى التى كـان ينـال فيهـا مـن الرسـول ودينه ويفتخر فيها بالأصنام لا تزال تُرْوَى حتى يوم الناس هذا رغم مرور القـرون المتتالية ورغم تحول ابن الزبعرى نفسه من الوثنية إلى الإسـلام. وإذا تركنـا أولئـك المدَّعين يزعمون ما يحلو لهم من استبدال اسم «محمد» بـ«مذمَّم»، واسم «الله» باسم «اللات» لاتحادهما فى الوزن حفاظا على بحر القصـيدة أن ينكسر ـ فـماذا يقولـون فى اسم «أحمد»، الذى ورد فى أبيـات ابـن الزبعـرى الماضـية؟ تـرى أى لفـظ اسـتبدله المسلمون به؟ وماذا يقولون فى الشعر الذى يعتز فيه بعض المشركين بـ«العـزي»، ولم يحذفه المسلمون ولا حذفوا منه على الأقل اسم ذلـك الـوثن؟ ثـم إذا كانـت هـذه الدعوى الاستشراقية تصدق عـلى كلمـة «مـذمم» أو «الـلات» إذا وقعـت فى درج البيت فإنها لا يمكن أن تصدق عليها إذا وقعت فى آخره، وإلا لاختلت القافية. كـما أن الضمير العائد على اللات مؤنث فى حين أن الضمير العائد على الله مذكر مما مـن شأنه أن يفسد كل شيء ويفضح التدليس المدَّعَى. فماذا هم قائلون؟ ثم كيف تـواتى أولئك المستشرقين أنفسُهم على ذلك الزعم الفائـل، وهـا هـى ذى كتـب الحـديث والسيرة والتاريخ والأصنام تحتفظ بأسـماء أصـنام العـرب، وتـبرز افتخـارهم بهـا، وتصف الشعائر التى كانوا يؤدونها لها، وتورد الأدعية التى كانوا يتجهون بها إليهـا، وتذكر المواضع التى كانت منصوبة فيها، وتسرد أسماء الكهنة الذين كـانوا يقومـون على خدمتها، وتقص الأخبار التى تـروى مـا كـان الصـحابة أنفسـهم فى الجاهليـة يصنعونه فى عبادتهم لها؟ بل لقـد ظـل المسـلمون يكتبـون وينطقـون أسـماء بعـض القبائل والأشخاص المشركين كما كانت فى الجاهليـة لم يغيروهـا رغـم إضـافتها إلى اسم هذا الصنم أو ذاك كسعد اللات وتيم اللات وعبد يغوث وعبد العـزى وعبـد وَدٍّ وعبد مناة وزيد مناة وامرئ القيس وعبد القيس. ثم كيف ننسـى أن سـيرة ابـن

إسحاق لا تزال تحتفظ بالنص الأصلى كما هو قبل تغيير ابن هشام منه هـذه الكلمـة أو تلك؟

وإلى القارئ شيئا من الأشعار التى تتضمن أسماء بعض الأصنام فى الجاهليـة لم يحذفها المسلمون: ففى الأبيات التالية مثلا يقسم عمـرو القضـاعى، وهـو شـاعر جاهلى قديم، بدماء الذبائح التى نُضِحَتْ بها العُزَّى، ولم يحذف المسلمون صيغة هذا القسم، بل تركوه على ما هو عليه رغم ما فيه من تمجيد لذلك الوثن:

أَمَــا وَدِمَــاءٍ مَــائِراتٍ تَخَالُهــا   علـى قُنَّـةِ العُـزَّى أَو النَّسْـرِ عَنْـدَما

وَمـا قَـدَّسَ الرُّهْبـانُ فـى كُـلِّ هَيكَـلٍ   أَبِيـلَ الأَبِـيلِينَ المسِـيحَ بـنَ مَريمـا

لَقَـد هَـزَّ مِنّـى عـامِرٌ يـوْمَ لَعْلَـعٍ   حُسـامًا إِذا لاقَـى الضَّـرِيبَةَ صَـمَّما

ومنها قول أبى سفيان بن الحارث أحـد شـعراء مكـة الـذين كـانوا يهجـون الرسول ودينه وأتباعه ثم انثنـى كـافرا بـاللات والعـزى وجميـع الأوثـان واعتنـق الإسلام، ومع هذا لم يتجاهل ذكرَ اللات ونصرتَه إياهـا أيـام جاهليتـه، ولم يحـاول المسلمون أن يحذفوا تغشمره السخيف فى الحديث عن النبى حـين زعـم أنـه طـرده صلى الله عليه وسلم من مكة وشرده فى البلاد لا يستقر له قرار:

لَعَمْـرُك إنـى يـومَ أحمـل رايـةً   لتغلـبَ خيـلُ الـلات خيـلَ محمـدِ

لتغلـبَ خيـلُ الـلات خيـلَ محمـدِ   فهـذا أوانِـى حـين أُهْـدِى وأهتـدي

هـدانِى هـادٍ غـيرُ نفسـى، ونـالنى   مـع اللّٰه مَـنْ طَرَّدْتُـه كُـلَّ مَطْـرَدِ

ومن ذلك أيضا تلك الأبيات المنسوبة إلى أبى طالب ذاته عـم النبـى. ورغـم أنى لا أطمئن إلى نسبتها هذه فإن دلالتها فيما نحن فيـه واضـحة سـاطعة، إذ لم يجـد المسلمون حرجا فى رواية شعرٍ يفتخر فيه أصـحابه المشـركون بأوثـانهم، بـل صـنع بعضهم شعرا ينسبه لأبى طالب نفسه فيه ذلك الافتخار رغـم كـل مـا نعرفـه عـن وقوفه إلى جانب النبى على غير رغبة قومه. ولنستمع:

تَقُولُ ابنتى: أَيـنَ أَيـنَ الرَّحِيـلُ؟ وَمـا الـبَيْنُ مِنّـى بِمُسْـتَنْكَرِ
فَقُلـتُ: دَعِينـى، فَـإِنّى امْـرُؤٌ أُريـدُ النجاشـى فـى جَعْفَـرِ
لأَكْوِيـهُ عِنْـدَهُ كَيـةً أُقِـيمُ بِهـا نَخْـوَةَ الأَصْـعَرِ
وَإِنَّ انْثِنـائِى عـن هاشـمٍ بِما اسْطَعْتُ فى الغَيبِ وَالمَحْضَرِ
وَعَـنْ عائِـبِ الـلاتِ فـى قَوْلِـهِ وَلَـولا رِضـا اللَّـاتِ لَـم تُمْطَـرِ
وَإِنّـى لَأَشْـنا قُرَيشًـا لَـهُ وَإِنْ كـانَ كَالـذَّهَبِ الأَحْمَـرِ

وعلى نفس الشاكلة فإنهم لم يتحرجوا بَتَّةً من ذكر ردة من ارتدوا عن الإسلام ولا الأقوال التى قالوها فى حق الدين الجديد ونبيه ومن آمنوا به، كما هو الحال مثلا حين تنصر عبيد الله بن جحش ابن عمة الرسول والزوج الأول لرملة بنت أبى سفيان، أم المؤمنين فيما بعد، وقال كلاما مسيئا فى حق الإسلام والمسلمين فى الحبشة حين انحاز إلى دين القوم هناك، وأخذ يعاير رفقاءه فى الهجرة بأنهم لا يزالون كالكلاب الصغيرة التى لا تستطيع أن تفتح عينيها فى الضوء الساطع لعدم تعودها عليه بينما قدر هو على ذلك لنضجه واستحصاد عقله واستطاعته تبين الضلال من الهدى، إذ كان يقول لهم: «فَقَّحْنا، وصأصأتم».

ليس ذلك فحسب، بل إن المسلمين لم يجدوا أدنى تأثم فى أن يوردوا كلاما منسوبا لإبليس يوم العقبة يتضمَّن تسمية النبى بـ«مذمَّم». فكيف نفسر ذلك فى ضوء مزاعم أولئك المستشرقين الذين يذهبون فى وادى الخيالات والأوهام كل مذهب، ثم يصدقون أنفسهم، ثم يريدون منا أن نصدق نحن أيضا مزاعمهم؟ جاء فى «السيرة النبوية» لابن هشام عن ليلة العقبة الثانية: «كان أول من ضرب على يد رسول الله صلى الله عليه وسلم البراء بن معرور، ثم بايع بعدُ القومُ. فلما بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم صرخ الشيطان من رأس العقبة بأنفذ صوت سمعتُه قط: يا أهل الجباجب (والجباجب: المنازل)، هل لكم فى مُذَمَّم والصُّبَاةِ معه؟ قد اجتمعوا على حربكم. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: هذا أَزَبُّ العقبة...

أتسمع أَى عدو الله؟ أمَا والله لَأَفْرُغَنَّ لك». فلـو أن المسـلمين كـانوا يسـتبدلون فى أشعار المشركين التى هَجَوْا بها النبى ودينه كلمة «محمَّـد» بـ«مُـذَمَّم» فلـم يـا تـرى احتفظوا بها هنا، وبخاصة أن قائلها هو إبليس ذاته حسبما تقول الرواية؟

لقد بين الرسول للمسلمين أن الله سبحانه قـد شـاء أن يصرـف عنـه سِـبَاب المشركين، إذ بدلا من أن يوجهوا أذاهم إلى «محمد» فإنهم يوجهونه بدلا من ذلك إلى «مذمم»، وهو ما لا علاقة له به صلى الله عليه وسلم: «ألا تَعْجبُونَ كيف يصْرِفُ اللهُ عَنِّى شَتْمَ قُرَيشٍ ولَعْنَهُمْ؟ يشْتُمونَ مُذَمَّمًا، ويلْعَنُونَ مذممًا، وأنا محمـد». فكيـف إذن يتجنبون ذكر هذا الاسم بعدما وجهه الرسول هـذا التوجيـه الجميـل وأبعـده عـن نفسه؟ ومن هنا نراهم لا يجدون شيئا فى أن يحكوا مثلا قول أم جميل حين أقبلت إلى الكعبة ومعها حجر تريد أن تضرب به النبى عليـه السـلام بعـدما نزلـت فيهـا وفى زوجها سورة «المسد»، لكن الله أعماها عن رؤيته، فقالت وهى تنصرف:

مُذَمَّماً عَصَينا * وأَمْرَه أَبَينا * ودينَه قَلَينا

وردًّا على دعوى تواصى المسلمين بهجر شعر المشركين، وهـى مـن الـدعاوى التى شاعت بين المستشرقين ومـن يتـابعهم منـا عـلى دعـاواهم، لا يصـح، فى هـذا السياق، أن نتجاهل الحقيقة الساطعة المتمثلة فى أن ابـن الزبعـرى وأبـا سـفيان بـن الحارث، وهما زعيما معسكر الشعر الشركى أيام الوثنية، لم يكونا من الشعراء الكبار الذين يحرص الجمهور على الاهتمام بأشعارهم وحفظها، فضلا عن أنهما لم يكونا من المكثرين فى نظم الشعر حتى يقـال إن كثـيرا مـن شـعرهما قـد ضـاع. ثـم إن لابـن الزبعرى شعرا فى بدر وأحد والخندق وغير ذلك، فماذا نريد أكثر من هذا كى نكـف عن الزعم بإهمال المسلمين رواية شـعره هـو وأشـباهه مـن شـعراء الكفـر قبـل أن يسلموا؟ ولا ننس أيضا أنهما لم يؤْثَر لهما شـعر يـذْكَر فى الـدفاع عـن الإسـلام بعـد اعتناقهما إياه رغم أنهما عاشا بعد ذلك فترة ليست بالقصيرة، فهل تواصى المسـلمون أيضا بإهمال شعرهما الإسلامى؟ وقبل هذا كله من المعروف أن قريشا، التى ينتميان

إليها، لم تشتهر فى ذلك الوقت بالشعر حتى يقال إن الشعر القرشى الذى هُجِى بـه النبى ودينه كان غزيرا لكن المسلمين تحرجوا من روايتـه فحـذفوا منـه الكثـير. وفى «الأغاني»: «حدثنى محمد بن الضحاك الحزامى قال: كانت العرب تفضِّل قريشـا فى كل شيء إلا الشعر. فلما نَجَم فى قريشٍ عمـرُ بـنُ أبـى ربيعـة والحـارثُ بـن خالـد المخزومى والعرجى وأبو دهبل وعبيـد الله بـن قـيس الرقيـات أقـرت لهـا العـرب بالشعر أيضا».

ومع هذا فمن غير المستبعد أن يكون قدر من الشـعر الـذى هجـا بـه شـعراءُ الشرك المسلمين ونبيهم ودينَهم قد ضاع كما ضاعت أشـعار كثـيرة قالهـا المسـلمون ذاتهم دفاعا عن دينهم، إذ الذاكرة لا تستطيع أن تستوعب كل شيء حتى لـو كانـت ذاكرة حديدية كذاكرة العرب أوانذاك. إلا أن هذا شيء، والقول بـأن المسـلمين قـد تحرجوا من رواية مثل تلك الأشعار شيء مختلف. وكيـف يتحرجـون وهـم يتلـون قرآنا نازلا من السماء يذكر ما كان المشركون يوجهونه إلى رسول الله صـلى الله عليـه وسلم من كلام مسيء كاتهامهم إياه بأنه شاعر وكاهن وساحر وكذاب ومجنـون، أو قولهم إنه لا يستطيع أن يأتيهم بآية مما يقترحون عليه وإنه يثير الفتن بينهم ويريـد أن يأفكهم عما وجدوا عليـه آبـاءهم مـن عقائـد، ومـن ثـم لا يمكـن أن يكـون نبيـا، وكتسميتهم الأصنام بـ«الآلهة»، وزعمهم أن القرآن ليس سوى سحر يفرق به محمد بين الرجل وقومه، وأنه لا يتميز عما يقولـون فى خطـبهم وأشـعارهم فى شيء حتـى إنهم لو شاؤوا لقالوا بكل سهولةٍ كلاما مثله؟ ثم إن قول الواقع لا يعلوه قول، فهـا هى ذى نصوص غير قليلة من أشعار المشركين واليهود فى التطـاول عـلى الإسـلام ونبيه ورجاله موجودة فى أيدينا. فهل من يستطيع أن ينكر هذا؟

على أن هذه الأشعار التى كان المشركون وغيرهم يهاجمون فيها الإسلام ونبيه ورجاله لم تكن تمر دون رد من جانب المسلمين. وترتب على هذا أنْ ظهـرت طائفـة من القصائد تبودلت بين شعراء الإسلام وبـين شـعراء المشـركين واليهـود تفـاخرًا

وهجاءً بسبب ما نشب بين المعسكرين من معارك وعداوات جراء اختلاف العقيدة والقيم والمبادئ. وتمثل تلك القصائد ضربا من النقائض سبقت نقائض العصر الأموى، التى كانت بين الفرزدق وجرير والأخطل والبعيث وغيرهم، وإن لم تحظ بالتفات كثير من النقاد ومؤرخى الأدب لها على عكس النقائض الأخيرة. فعلى سبيل المثال يرى د. عمر فروخ، فى الجزء الأول من كتابه: «تاريخ الأدب العربي»، أن النقائض الأموية امتداد لشعر الهجاء فى الجاهلية، غير ملتفت إلى النقائض التى كانت تدور بين شعراء الإسلام من جهة وبين شعراء الشرك ويهود من جهة أخرى بعد هجرة الرسول من مكة إلى يثرب وقيام الدولة الإسلامية وانفجار الصراع الحربى والسياسى بين معسكر الإيمان ومعسكر الكفر، حيث لم يكن ينظم شاعر من أحد المعسكرين قصيدة فى الفخر بانتصار معسكره فى غزوة من الغزوات على المعسكر الآخر والشماتة به وتعييره بالهزيمة إلا ويهب شاعر من ذلك المعسكر ناقضا ما يقول فى قصيدة من نفس البحر والروى، وإن لم يكن لنقائض عصر الرسول ذلك الدوى الذى كان لنقائض الأمويين كما ألمحنا، فضلا عن أن هذه الأخيرة لم تكن تعبيرا عن حرب بين دولتين، بل مجرد تهاج قبلى وشخصى لا يخرج عن نطاق الشعر غايتُه تسليةُ الجماهير فى سوق المربد حيث كان الشعراء المتناقضون يقومون بإنشاد أشعارهم وقد تحلق حولهم المتحلقون يستمتعون بما يشاهدون وما يسمعون، ويشجعون هذا الشاعر أو ذاك.

وتبدأ نقائض عصر الرسول مع انتصار المسلمين فى بدر. وفى سيرة ابن هشام نجد عددا من هذه النقائض عند الكلام عن الغزوة وما قيل فيها من شعر. ولعل أول نقيضتين من تلك النقائض كانتا بين حمزة بن عبد المطلب مجندِل كبار المقاتلين القرشيين يومذاك وبين الحارث بن هشام، إذ يقول حمزة حسبما روى ابن إسحاق:

ألم تر أمرًا كان من عجب الدهر؟ ... وللحَين أسبابٌ مبينة الأمرِ

وما ذاك إلا أن قومًا أفادهم، ... فخانوا، تواصٍ بالعُقُوق وبالكفرِ

عشـيةَ راحــوا نحــو بـدرٍ بجمعهــم ... فكــانوا رُهُونًــا للرَّكِيــة مــن بــدرِ
وكنــا طلبنــا العِـيرَ لم نَبْــغِ غيرهــا ... فســاروا إلينــا، فالتقينــا علــى قَـدْرِ
فلمـــا التقينـــا لم تكـــن مَثْنَويـــةٌ ... لنـــا غـــير طعـــنٍ بالمثقَّفَـــة السُّـــمْرِ
وضَـرْبٍ بِبِيضٍ يختلـى الهـامَ حَـدُّها ... مُشَـــهَّرَةِ الألـــوان بَينَـــةِ الأثْـــرِ
ونحــن تركنــا عُتْبَــةَ الغَــى ثاويــا ... وشَيبَةَ فى القتلى تجَرْجَمَ فى الجفرِ
وعمـرٌو ثـوَى فيمن ثـوى مـن حُمَـاتهم ... فشُقَّتْ جيوب النائحـات على عمرِو
جيـوب نسـاء مـن لـؤى بـن غالـب ... كــرامٍ تَفَــرَّعْنَ الــذوائبَ مــن فِهْــرِ
أولئــك قـــومٌ قُتِّلـــوا فـــى ضـــلالهم ... وخَلَّــوْا لــواءً غــير محتضَــر النصــرِ
لـــواء ضـــلال قـــاد إبلـــيسُ أهلَـــه ... فخـاس بهـم. إن الخبيـث إلى غـدرِ
وقــال لهــم إذ عــاين الأمــرَ واضــحًا: ... برئـتُ إليكم. مـا بِى اليـومَ مـن صَبْرِ
فـــإنى أرى مـــا لا تَـــرَوْن، وإننـــى ... أخــاف عقــاب اللّه، واللّهُ ذو قَسْــرِ
فقـــدَّمهم للحَـــين حتـــى تورطـــوا ... وكــان بمــا لم يخْبُــر القــوم ذا خُبْــرِ
فكــانوا غــداة البئــر ألفًــا، وجَمْعُنــا ... ثـــلاثُ مـــئينٍ كالمســـدّمة الزُّهْـــرِ
وفينـــا جنـــود اللّه حـــين يمـــدنا ... بهـم فـى مقـامٍ ثَـمَّ مستوضـحِ الـذِّكْرِ
فشــدَّ بهــم جبريــلُ تحــت لوائنــا ... لــدى مــأزِقٍ فيــه منايــاهمو تجــري

فأجابه الحارث بن هشام بن المغيرة فقال:

ألا يـــا لقـــومى للصـــبابة والهجـــرِ ... وللحـزن منـى والحـرارة فـى الصـدرِ
وللـــدمع مـــن عينـــى جـــودًا كأنـــه ... فريـدٌ هَـوَى مـن سـلكِ ناظمـهِ يجـري
علــى البطــل الحلــو الشــمائل إذ ثــوى ... رهـــينَ مقـــامٍ للرَّكِيـــة مـــن بـــدرِ
فــلا تَبْعَــدَنْ يــا عمــرو مِــنْ ذى قرابــة ... ومــن ذى نِـدَامٍ كــان ذا خُلُــقٍ غَمْــرِ
فــإن يــك قــوم صــادفوا منــك دولــة ... فـــلا بـــد للأيـــام مـــن دُوَل الـــدهرِ
فقد كنتَ فى صرف الزمان الذى مضى ... تـــريهم هوانًـــا منـــك ذا سَــبَلٍ وَعْــرِ
فإلَّـــا أَمُـــتْ يـــا عمـــرو أتركْـــك ثـــائرًا ... ولا أُبْــقِ بُقْيــا فــى إخــاءٍ ولا صــهرِ

وأقطع ظهرًا من رجالٍ بمعشرٍ | كرامٍ عليهم مثلما قطعوا ظهري

أَغَرَّهمو ما جمّعوا من وشيظةٍ | ونحن الصميمُ فى القبائل من فِهْرِ؟

فيا للُؤَى ذَبِّبُوا عن حريمكم | وآلهةٍ لا تتركوها لذى الفخرِ

توارثها آباؤكم، وورثتمو | أَوَاسِيها والبيتَ ذا السقف والسترِ

فما لحليمٍ قد أراد هلاككم، | فلا تعذروه آل غالبَ، من عذرِ

وجِدُّوا لمن عادَيتمو وتوازَرُوا | وكونوا جميعا فى التأسِّى وفى الصبرِ

لعلكمو أن تثأروا بأخيكمو | ولا شيء إن لم تثأروا بذوى عَمْرِو

بمطَّرِداتٍ فى الأكُفِّ كأنها | وميضٌ تُطِيرُ الهامَ بينةُ الأثْرِ

كأن مَدَبَّ الدَّرِّ فوق متونها | إذا جُرِّدَتْ يومًا لأعدائها الخُزْرِ

وقال ابن هشام بعد الفراغ من القصيدتين: «أبدلنا من هذه القصيدة كلمتين مما روى ابن إسحاق، وهما «الفخر» فى آخر البيت، و«فما لحليمٍ» فى أول البيت، لأنه نال فيهما من النبى صلى الله عليه وسلم». وربما كان أصل الكلمتين: «الفَجْر (أى الفجور)» و«ما لذميمٍ».

وكان ابن هشام قد قال عن قصيدة حمزة وردّ الحارث عليها: «وأكثر أهل العلم بالشعر ينكرها ونقيضتها». إلا أنه لم يوضح السبب فى إنكار القوم لها. ولو فعل لأمكننا أن نناقش رأيهم. والغريب أن يذكر بعد ذلك أنه قد غير لفظتين فى قصيدة الحارث لأنهما تنالان من رسول الله صلى الله عليه وسلم. فإذا كانت القصيدتان منحولتين فمن نحلهما يا ترى؟ ليس إلا المسلمون بطبيعة الحال لأن المشركين القرشيين سرعان ما أسلموا. فهل يعقل أن يكتب مسلم قصيدة ينال فيها من النبى صلى الله عليه وسلم ويمدح الآلهة ويدعو إلى نصرتها وإلى الانتقام من المسلمين كما فى القصيدة؟ ومن الواضح فى قصيدة حمزة تأثره بالقرآن الكريم ألفاظا وتعبيرات ومعانى، وبخاصة من سورة «الأنفال»، التى تعرضت لغزوة بدر بشيء من التفصيل وسخرت من تغرير الشيطان للمشركين حتى وقعوا فى الفخ، فحينئذ

تركهم لندمهم وأعلن براءته منهم. أما قصيدة الحارث بن هشام فليس فيها سوى العنجهية الجاهلية.

ومن بين نقائض ذلك العصر أيضا قصيدة ضرار بن الخطاب بن مرداس والقصيدة التى ناقضه بها كعب بن مالك. يقول ضرار:

عجبتُ لفَخْرِ الأوس، والحَيْنُ دائرٌ … عليهم غدًا، والدهر فيه بصائرُ

وفخرِ بنى النجار أن كان معشرٌ … أصيبوا ببدرٍ كلُّهم ثَمَّ صابرُ

فإنْ تكُ قَتْلَى غُودِرَتْ من رجالنا … فإنا رجالٌ بعدهم سنغادرُ

وتَرْدِى بنا الجُرْدُ العناجيجُ وسْطكم، … بنى الأوس، حتى يشْفِى النفسَ ثائرُ

ووسْط بنى النجار سوف نكُرّها … لها بالقنا والدارعين زوافرُ

فنترك صرعى تَعْصِب الطير حولهم … وليس لهم إلا الأمانى ناصرُ

وتبكيهمو من أهل يثربَ نسوةٌ … لهنَّ بها ليلٌ عن النوم ساهرُ

وذلك أنا لا تزال سيوفنا … بهنّ دمٌ ممن يحاربْن مائرُ

فإن تظفروا فى يوم بدرٍ فإنما … بأحمدَ أمسى جَدُّكم وهو ظاهرُ

وبالنفر الأخيار هم أولياؤه … يحامون فى اللأواء، والموت حاضرُ

يعَدّ أبو بكرٍ وحمزةُ فيهمو … ويدْعَى على وسْط مَنْ أنت ذاكرُ

ويدْعَى أبو حفصٍ وعثمانُ منهمو … وسعدٌ إذا ما كان فى الحرب حاضرُ

أولئك لا من نتّجت فى ديارها … بنو الأوس والنجار حين تفاخرُ

ولكنْ أبوهم من لُؤَى بن غالبٍ … إذا عَدَّت الأنسابَ كعبٌ وعامرُ

هم الطاعنون الخيلَ فى كل مَعْرَكٍ … غداةَ الهياج، الأطيبون الأكاثرُ

فأجابه كعب بن مالك قائلا:

]عجبتُ لأمر الله، والله قادرُ … على ما أراد. ليس لله قاهر [

قَضَى يومَ بدر أن نلاقى معشرًا … بَغَوْا، وسبيلُ البغى بالناس جائرُ

وقد حشدوا واستنفروا مَنْ يليهمو | من الناس حتى جَمْعُهم متكاثرُ
وسارت إلينا، لا تحاول غَيرَنا، | بأجمعها كعبٌ جميعًا وعامرُ
وفينا رسول الله، والأوسُ حوله | له معقلٌ منهم عزيزٌ وناصرُ
وجَمْعُ بني النجار تحت لوائه | يمَشُّون في الماذِي، والنقعُ ثائرُ
فلما لَقِيناهم، وكلٌّ مجاهدٍ | لأصحابه مستبسلُ النفسِ صابرُ
شهدنا بأن الله لا ربَّ غيرُه | وأن رسولَ الله بالحق ظاهرُ
وقد عَرِيتْ بيضٌ خِفَافٌ كأنها | مقابيسُ يزْهِيها لعينيكَ شاهرُ
بهنَّ أَبَدْنا جمعَهم، فتبددوا | وكان يلاقي الحَيْنَ مَنْ هو فاجرُ
فكُبَّ أبو جهلٍ صريعًا لوجهه | وعتبةُ قد غادرْنه وهو عاثرُ
وشَيبَةَ والتيمي غادرن في الوَغَى | وما منهمو إلا بذي العرش كافرُ
فأَمْسَوْا وقودَ النار في مستقرها | وكُلٌّ كفورٍ في جهنمَ صائرُ
تلَظَّى عليهم، وَهْي قد شَبَّ حَمْيها | بزُبْرِ الحديد والحجارةِ ساجرُ
وكان رسول الله قد قال: «أَقْبِلوا» | فوَلَّوْا وقالوا: إنما أنت ساحرُ
لأمرٍ أراد اللهُ أن يهْلِكوا به | وليس لأمرٍ حَمَّه اللهُ زاجرُ

وقد نظم عبد الله بن الزِّبَعْرَى قصيدةً يبكي بها قتلى بدر أولها:

ماذا عَلَى بدرٍ وماذا حوله | من فتيةٍ بِيضِ الوجوه كرامِ؟

فنقضها حسان بقصيدة مطلعها:

ابْكِ، بكت عيناك، ثم تبادرتْ | بدمٍ تعلّ غروبها سَجّامِ

ثم أتبعها قصيدة أخرى يبدؤها بقوله:

تبَلَتْ فؤادَك في المنام خَرِيدةٌ | تسْقِي الضجيعَ ببارِدٍ بسَّامِ

ومـن تلـك النقـائض أيضـا النصـان التاليـان: الأول لكعـب بـن الأشرف اليهودى حين ذهب إلى مكة بعد هزيمة المشركين فى بدر يبكى قتلاهم ويؤلبهم على حرب النبى والمسلمين، والثانى لحسان يرد عليه ويسـخر منـه ويهـدده. وهـذا أولا شعر ابن الأشرف:

طحنـتْ رَحَـى بـدرٍ لـمَهْلِك أهلِـه ... ولمثـل بـدرٍ تسـتهلّ وتـدمعُ

قتلتْ سَرَاةَ النـاس حـول حياضِـهم ... لا تَبْعَـدوا. إن الملـوك تصـرَّعُ

كم قد أصيب به مِنَ ابْيضَ ماجدٍ ... ذى بهجـةٍ يـأوى إليـه الضُّـيعُ

طَلْقِ اليدين إذا الكواكبُ أخلفتْ ... حَمَّـالِ أثقـالٍ يسُـودُ ويربـعُ

ويقـول أقـوامٌ أُسَـرّ بسُـخْطِهم: ... إن ابنَ الاشْرَفِ ظلَّ، كعبًا، يجزعُ

صَدَقوا. فليت الأرض، ساعة قُتِّلوا، ... ظَلَّـتْ تسـوخ بأهلـه وتَصَـدّعُ

صـار الـذى أثَـرَ الحـديثَ بطعنـةٍ ... أو عـاش أعمـى مُرْعَشًـا لا يسـمعُ

نُبِّئْـتُ أن بنـى المغـيرة كلَّهـم ... خَشَعُوا لقَتْل أبى الحكيم وجُدِّعوا

وابْنَـا ربيعـةَ عنـده ومُنَبِّـهٌ ... مـا نـال مثـل الـمُهْلَكين وتُبَّـعُ

نُبِّئْـتُ أن الحـارث بـن هشـامهم ... فى الناس يبنى الصالحاتِ ويجمعُ

ليـزور يثـربَ بـالجموع، وإنمـا ... يحمى على الحسبِ الكريمُ الأروعُ

ثم هذه أبيات حسان:

لا زالَ كَعْـبٌ يسْـتَهِلُّ دُموعَـهُ ... لِلْهـالِكينَ مُجَـدَّعًا لا يسْـمَعُ

فَلَقَـد رَأَيـتُ بِـبَطْنِ بَـدْرٍ مِنْهُمُـو ... قَتْلَـى تسُـحُّ لَهـا العُيـونُ وَتَـدْمَعُ

فَابْـكِ، فَقَـدْ أبكَيـتَ عَبْـدًا راضِـعًا ... شِـبْهَ الكُلَيـبِ إلى الكُلَيبَـةِ يـْـزعُ

ولقـد شَـفَى الـرحمنُ مِنَّـا سَـيدًا ... وَأَهـانَ قَومًـا قـاتلوهُ وَصُـرِّعوا

وَنَجَـا، وَأَفْلَـتَ مِنهُمُـو مُتَسَـرِّعًا ... فَـلٌّ قَلِيـلٌ هـارِبٌ يتَمَـزَّعُ

وَنَجـا وَأَفْلَـتَ مِنهُمُـو مَـنْ قَلْبُـهُ ... شَـعِفٌ يظَـلُّ لِخَوْفِـهِ يتَصَـدَّعُ

صحيح أن ابن هشام يخبرنا أن أكثر أهل العلم بالشعر ينكـر أن تكـون تلـك الأبيات لحسان، لكنى بوجه عام لا أميل إلى المسارعة إلى الشك فى نصـوص الشـعر الجاهلى أو الإسلامى، اللهم إلا إذا قامـت أسـباب قويـة تـأطرنى أَطْـرًا عـلى هـذا الشك. ولى بحث مطول عن الشعر الجاهلى وشَكِّ ابن سلام فيه بينتُ من خلاله أن ابن سلام قد جاوز القصد فيما أشاعه مـن شـك فى ذلـك الشـعر دون أن يسـتند فى شكه إلى أسـاس متـين. ويمثـل هـذا البحثُ الفصـلَ الأولَ مـن كتـابى: «الأدب العربي- نظرة عامة لبيير كاكيا: عرض ومناقشة».

وعقب انتكاسة المسلمين فى غزوة أحد ارتقت هنـدٌ بنـتُ عتبـة زوجـة أبـى سفيان زعيم المعسكر المكى المشرك آنئذ صخرةً كانت هناك وأنشدت:

نحـــن جزينـــاكم بيـــومِ بـــدرِ ... والحـربُ بعـد الحـربِ ذاتُ سُـعْرِ

مــا كــان عــن عتبـةَ لى مــن صَـبْرِ ... ولا أخــــى وعمِّـــــه وبِكْـــــري

شَــفَيتُ نفســى وقضــيتُ نــذرى ... شَــفَيتَ، وَحْشِــى، غليــلَ صــدري

فشُــكْرُوحشـــى علـــى عمـــرى ... حتــى تُــرَمّ أَعْظُمِــى فــى قــبري

فأجابتها هند بنت أثاثة بن عباد بن المطلب قائلة:

خَزِيـــتِ فـــى بـــدرٍوبعـــد بـــدرِ ... يـــا بنـــتَ وَقَّـــاعٍ عظـــيمِ الكفـــرِ

صَـــبَّحَكِ اللّهُ غـــداةَ الفجـــرِ ... مِ الهـــاشمين الطِّـــوالِ الزُّهْـــرِ

بكـــل قَطَّـــاعٍ حســـامٍ يفْـــرِى ... حمـــزةُ ليثـــى، وعلـــى صـــقري

إذ رام شَيْـبٌ وأبـــوكِ غـــدرى ... فخَضَّـــبا منه ضـــواحِى النَّحْـــرِ

ونَذْرُكِ السُّوءَ فَشَرُّ نَذْرِ

ونقضها حسان أيضا بشعر عنيف فقال:

أَشِـــرَتْ لَكَـــاعِ، وكـــان عادتَهـــا ... لـــؤمٌ، إذا أَشِـــرَتْ، مـــع الكفـــرِ

لَعَـــنَ الإِلَـــهُ، وَزَوْجَهـــا مَعَهـــا، ... هِنْـــدَ الهُنُـــودِ طَويلَـــةَ البَظْـــرِ

أَخْرَجْـــتِ مُرْقِصَـــةً إِلى أُحُـــدٍ ... فـــى القَـــوْمِ مُعْنِقَـــةً عَلـــى بَكْـــرِ

بَكْــــرٍ ثِقَـــالٍ لا حَـــرَاكَ بِـــهِ لا عَــــن مُعاتَبَـــةٍ وَلا زَجْـــرِ
وَعَصَــاكِ إِسْــتُكِ تَــتَّقِينَ بِهــا دَقَّ العجَايــةِ عــارِى الفِهْــرِ
قَرِحَـــتْ عَجِيزَتُهـــا وَمَشْـــرَجُها مِـــن نَصِّـــها نَصًّـــا عَلــى القَهْــرِ
ظَلَّـــتْ تُـــدَاوِيها زَمِيلَتُهـــا بِالمـــاءِ تَنْضَـــحُهُ وَبِالسِّـــدْرِ
أَقْبَلْـــتِ زائِـــرَةً مُبـــادِرَةً بِأَبِيـــكِ وَابْنِـــكِ يَـــوْمَ ذِى بَـــدْرِ
وَبِعَمِّــــكَ المســـلوبِ بِزَّتَـــهُ وأخيـــكِ مُنْعَفِـــرَينِ فـــى الـــجَفْرِ
وَنَسِـــيتِ فاحِشَـــةً أَتَيـــتِ بِهـــا، يـــا هِنْـــدُ، وَيحَـــكِ! سُـــبَّةَ الـــدَّهْرِ
فَرَجَعْـــتِ صـــاغِرَةً بِـــلا تِـــرَةٍ مِمّـــا طَلَبْـــتِ بِهـــا وَلا وَتْـــرِ
زَعَـــمَ الوَلائِـــدُ أَنَّهـــا وَلَـــدَتْ وَلَـــدًا صَـــغِيرًا كـــانَ مِـــنْ عَهْـــرِ

وعقب مقتل كعب بن الأشرف قال كعب بن مالك يشمت بموته وإجلاء بنى النضير:

لقــد خَزِيــتْ بغَــدْرَتِها الــحُبُورُ كــذاك الــدهرُ ذو صَــرْفٍ يــدورُ
وذلـــك أنهـــم كفـــروا بـــربٍّ عزيـــزٍ أَمْـــرُه أمـــرٌ كـــبيرُ
وقـــد أُوتُـــوا معًـــا فهمًـــا وعلمًـــا وجـــاءهمو مـــن اللّه النـــذيرُ
نـــذيرٌ صـــادقٌ أَدَّى كتابًـــا وآيـــاتٌ مُبَيِّنَـــةٌ تُـــنِيرُ
فقـــالوا: مـــا أتيـــتَ بـــأمرِ صـــدقٍ وأنـــتَ بمنكَـــرٍ منـــا جـــديرُ
فقـــال: بَلَـــى لقـــد أديـــتُ حقًّـــا يصَـــدِّقنى بـــه الفَهِـــمُ الخـــبيرُ
فمَـــنْ يتْبَعْـــه يهْـــدَ لكـــل رُشْـــدٍ ومَـــنْ يكفـــرْ بـــه يجْـــزَ الكَفُـــورُ
فلمـــا أُشْـــرِبوا غـــدرًا وكفـــرًا وحـــاد بهـــم عـــن الحـــق النّفُـــورُ
أرى اللّهُ النبـــى بـــرأى صـــدقٍ وكـــان اللّه يحكـــم لا يجـــورُ
فأيـــده وســـلَّطه علـــيهم وكـــان نَصِـــيرَه. نِعْـــم النصـــيرُ!
فغُـــودِرَ منهمـــو كعـــبٌ صـــريعًا فـــذَلَّتْ بعـــد مصـــرعه النَّضِـــيرُ
علـــى الكَفَّـــين ثـــم وقـــدْ عَلَتْـــه بأيـــدينا مشـــهَّرَةٌ ذُكُـــورُ
بـــأمرِ محمـــدٍ إذ دَسَّ ليلًـــا إلى كعـــبٍ أخـــا كعـــبٍ يســـيرُ

فمـــــاكَرَه فأنزلــــــه بمكــــــرٍ ومحمـــــودٌ أخـــو ثقـــةٍ جســـورُ
فتلــك بنـــو النَّضِــير بـدار سُــوءٍ أبــارَهُمو بمــا اجترمــوا، الــمُبِيرُ
غـداةَ أتـاهمو، فـى الزحـف رَهْـوًا، رســـولُ الله، وَهْـــوَ بهـــم بصـــيرُ
وغَسّـــانُ الـــحُمَاةُ مُـــوازِرُوه علــى الأعــداء، وَهْــوَ لهــم وزيــرُ
فقـال: «السِّلْمَ، وَيحَكُمـو!»، فصَدُّوا وحـــالف أمـــرَهم كَـــذِبٌ وزُورُ
فـــذاقوا غِـــبَّ أمرهمـــو وبالًـــا لكـــل ثلاثـــةٍ مـــنهم بعـــيرُ
وأُجْلُـــوا عامـــدين لقينقـــاعٍ وغُـــودِرَ منهمـــو نخـــلٌ ودُورُ

فأجابه سماك اليهودى قائلا:

أَرِقْـــتُ، وضـــافنى هـــمٌّ كـــبيرُ بليـــلٍ غـــيرُه ليـــلٌ قصـــيرُ
أرى الأحبـــارَ تنكـــره جميعـــا وكُلُّهمـــو لـــه عِلْـــمٌ خـــبيرُ
وكـــانوا الدارســـين لكـــل علـــم بـــه التـــوراةُ تنطـــق والزَّبُـــورُ
قتلـــتم ســـيدَ الأحبـــار كعبًـــا وقِـــدْمًا كـــان يـــأمن مـــن يجِـــيرُ
تـــدَلَّى نحـــو محمـــودٍ أخيـــه ومحمـــودٌ ســـريرتُه الفجـــورُ
فغـــادره كـــأن دمًـــا نجيعًـــا يســـيل علـــى مدارعـــه عـــبيرُ
فقـــد، وأبيكمـــو وأبـــى جميعًـــا، أُصِـــيبَتْ، إذ أُصِـــيبَ، بـــه النَّضِـــيرُ
فـــإنْ نَسْـــلَمْ لكـــم نـــتركْ رجالًـــا بكعـــبٍ حـــولهم طـــيرٌ تـــدورُ
كـــأنهم وعتـــائرُ يـــومِ عيـــدٍ تُـــذَبَّحُ، وَهْـــى لـــيس لهـــا نكـــيرُ
ببِـــيضٍ لا تُلِيـــق لهـــن عظمًـــا صـــوافى الحـــدِّ أكثرهـــا ذُكُـــورُ
كمـــا لاقيتمـــو مـــن بـــأس صـــخرٍ بأُحْـــدٍ حيـــث لـــيس لكـــم نصـــيرُ

وفى غزوة الخندق قال ضرار بن الخطاب بن مرداس:

ومُشْـــفِقَةٍ تظـــنُّ بنـــا الظنونـــا وقـــد قُـــدْنا عَرَنْدَسَـــةً طَحُونـــا
كـــأن زهاءهـــا أُحُـــدٌ إذا مـــا بـــدتْ أركانُـــه للناظرينـــا
تـــرى الأبـــدانَ فيهـــا مســـبغاتٍ علـــى الأبطـــال واليلَـــبَ الحصـــينا

وجُـــرْدًا كالقِــــداحِ مســــوّمات ... نـــؤمُّ بهـــا الغُـــوَاة الخاطئينـــا
كــــأنهمو، إذا صــــالوا وصُــــلْنا ... ببــــاب الخنــــدقين، مصــــافحونا
أنـــاسٌ لا تــــرى فــــيهم رشـــيدًا ... وقـــد قـــالوا: أَلَسْـــنا راشـــدينا؟
فأحجرْنــــاهمو شـــهرًا كريتًـــا ... وكنــــا فــــوقهم كالقاهرينـــا
نـــراوحهم ونغـــدو كـــل يـــوم ... علـــيهم فـــى الســـلاح مـــدجَّجينا
بأيـــدينا صـــوارمُ مرهَفـــاتٌ ... نقـــدُّ بهـــا المفـــارق والشـــؤونا
كـــأن وميضـــهنّ، مُعَرَّيـــاتٍ ... إذا لاحـــت بأيـــدى مُصْـــلتينا
وَمِـــيضُ عقيقـــةٍ لمعـــتْ بلَيـــلٍ ... تـــرى فيهـــا العقـــائقَ مســـتبينا
فلـــولا خنـــدقٌ كـــانوا لديـــه ... لـــدَمَّرْنا علـــيهم أجمعينـــا
ولكـــنْ حـــالَ دونهمـــو، وكـــانوا ... بـــه مـــن خوفنـــا متعوِّذينـــا
فـــإنْ نرحـــلْ فإنـــا قـــد تركنـــا ... لـــدى أبيـــاتكم سَـــعْدًا رهينـــا
إذا جَـــنَّ الظـــلامُ سمعـــتَ نَـــوْحَى ... علـــى ســـعدٍ يـــرَجِّعْن الحنينـــا
وســـوف نـــزوركم عمـــا قريـــبٍ ... كمـــا زرنـــاكمو متوازرينـــا
بجمْـــعٍ مـــن كنانـــةَ غـــير عُـــزْلٍ ... كأُسْـد الغـاب قـد حَمَـتِ العرينـا

فأجابه كعب بن مالك أخو بنى سلمة:

وسـائلةٍ تسـائل: مـا لَقِينـا؟ ... ولـو شـهدتْ رأتْنـا صـابرينا
صَـبَرْنا، لا نـرى للّٰه عـدلًا، ... علـى مـا نابنـا، متوكلينـا
وكـان لنـا النبى وزيـرَ صدقٍ ... بـه نعلـو البريـة أجمعينـا
نقاتـل معشـرًا ظَلَمُـوا وعَقُّـوا ... وكـانوا بالعـداوة مُرْصِـدينا
نعاجلـــهم، إذا نهضـــوا إلينـــا، ... بضـــربٍ يعْجِـــل المتســـرعينا

ترانـــا فـــى فضـــافضَ ســـابغاتٍ   كغُـــــدْران المـــــلا متســــــربلينا

وفـــى أيماننـــا بِـــيضٌ خِفَـــافٌ   بهـــا نَشْـــفِى مـــراح الشـــاغبينا

ببـــاب الخنـــدقين كـــأن أُسْـــدًا   شـــوابُكهن يحمـــين العَرِينـــا

فوارسُـــنا إذا بَكَـــرُوا وراحـــوا   علـــى الأعـــداء شُوسًـــا مُعْلَمينـــا

لننصـــر أحمـــدًا واللّهَ حتـــى   نكـــون عبـــادَ صـــدقٍ مخلصـــينا

ويعلـــمَ أهـــلُ مكـــة حـــين ســـاروا   وأحـــزابٌ أتَـــوْا متحزِّبينـــا

بـــأن الله لـــيس لـــه شـــريكٌ   وأن الله مـــولى المؤمنينـــا

فإمَّـــا تقتلـــوا ســـعدًا ســـفاهًا   فـــإن الله خـــير القادرينـــا

ســـيدْخِله جِنَانًـــا طيبـــاتٍ   تكـــون مَقَامَـــةً للصـــالحينا

كمـــا قـــد رَدَّكُـــمْ فَلًّـــا شـــريدًا   بغيظكمـــو خَزَايـــا خائبينـــا

خزايـــا لم تنـــالوا ثـــمَّ خـــيرًا   وكِـــدْتُم أن تكونـــوا دامِرينـــا

بـــريحٍ عاصـــفٍ هَبَّـــتْ علـــيكم   فكنـــتم تحتهـــا متكمِّهينـــا

بل لقد كانت هناك نقائض بين المسلمين الجدد القادمين على المدينة فى عام الوفود قبل وفاة النبى بعام وبين شعراء المدينة، كما هو الحال حين وقف الزبرقان بن بدر أمامه صلى الله عليه وسلم يباهى بمآثر قومه قائلا:

نحـــنُ الكِـــرَامُ، فَلَـــا حَـــى يعادِلُنـــا   مِنّـــا المُلـــوكُ، وَفينـــا تُنْصَـــبُ البِيـــعُ

وَكَـــمْ قَسَـــرْنا مِـــنَ الأَحيـــاءِ كُلِّهِمـــو   عِنْـــدَ النِّهـــابِ، وَفضْـــلُ العِـــزِّ يتَّبَـــعُ

ونحـن يطْعَـمُ عنـد القحـطِ مَطْعَمُنـا ... مِـنَ الشِّـواءِ إذا لم يـونَسِ القَـزَعُ

بِمـا تـرى النّـاسُ تأتِينـا سَـرَاتُهُمُو ... مِـن كُـلِ أَرْضٍ هُوِيـا ثـم تصْـطَنِعُ

فَنَنْحَـرُ الكُـومَ عَبْطًـا فـى أَرُومَتِنـا ... لِلنـازِلِينَ إذا مـا أُنْزِلـوا شَـبِعوا

فَـلا ترانـا إلى حَـى نُفـاخِرُهُم ... إلا استقادوا فكـانوا الـرَأْسَ يقْتَطَـعُ

فَمَـن يفاخِرُنـا فـى ذاكَ نَعْرِفُـهُ ... فَيرْجِـع القَـومَ، وَالأخبـارُ تُسـتَمَعُ

إِنّـا أَبَينـا، وَلَـم يـأبَ لَنـا أَحَـدٌ ... إِنّـا كَـذلِكَ عِنْـدَ الفَخْـرِ نَرتَفِـعُ

تِلـكَ المكـارِمُ حُزْناهـا مُقارَعَـةً ... إذا الكِـرامُ عَلـى أَمْثالِهـا اقْتَرَعـوا

فأجابه حسان بقصيدة منها الأبيات التالية:

إِنَّ الـذَّوائِبَ مِـن فِهـرٍ وَإِخْـوَتَهُم ... قَـد بَينـوا سُـنَّةً لِلنـاسِ تُتَّبَـعُ

يرْضَـى بِهـا كُـلُّ مَـن كانَـت سَـريرَتُهُ ... تَقْـوَى الإلَـهِ وَبِـالأَمْرِ الـذى شَـرَعوا

قَـوْمٌ إذا حـارَبوا ضَـرُّوا عَـدُوَّهُمُو ... أَو حـاولوا النفـعَ فـى أشـياعِهِمْ نَفَعـوا

سَـجِيةٌ تلـك مِـنهم غَـيرُ مُحْدَثَـةٍ ... إِنَّ الخَلائِـقَ حَقًـا شَـرُّها البِـدَعُ

لا يرْقَـعُ النـاسُ مـا أَوْهَـتْ أَكُفُّهُمُـو ... عنـدَ الـدِّفاعِ وَلا يوهُـونَ مـا رَقَعـوا

إِنْ سـابَقوا النـاسَ يوْمًـا فـازَ سَـبْقُهُمو ... أَو وازَنـوا أَهْـلَ مَجْـدٍ بِالنَّـدَى مَتَعـوا

إِن كـانَ فـى النـاسِ سَـبّاقونَ بَعْـدَهُمُو ... فَكُـلُّ سَـبْقٍ لأَدْنَـى سَـبْقِهِم تَبَـعُ

وَلا يضِـنّونَ عـن مَـولًى بِفَضْـلِهِمو ... وَلا يصـيبُهُمُو فـى مَطْمَـعٍ طَبَـعُ

لا يجْهَلـونَ، وَإِنْ حاوَلْـتَ جَهْلَهُمُـو ... فـى فَضْـلِ أَحْلامِهِـم عـن ذاكَ مُتَّسَـعُ

أَعِفَّـةٌ ذُكِـرَت فـى الـوَحْى عِفَّـتُهُم ... لا يطْمَعـونَ وَلا يـرْديهِمُ الطَّمَـعُ

كَـم مِـن صَـديقٍ لَهُـم نـالوا كَرامَتَـهُ ... وَمِـن عَـدُوٍّ عَلَـيهِم جاهِـدٍ جَـدَعوا

أَعْطَـوْا نَبِـى الهُـدى وَالبِـرِّ طـاعَتَهُم ... فَمـا وَنَـى نَصْـرُهُم عنـه وَمـا نَزَعـوا

إِن قـالَ: «سِيروا» أَجَدُّوا السَّيـرَ جَهْدَهُمُو ... أَو قـال: «عُوجُـوا علينـا سـاعَةً» رَبَعـوا

ومع هذا فإن تلك النقائض التى عرفها صدر الإسلام، كما سبق القول،تغيب عادة عن انتباه الدارسين رغم أن ابن هشام قد استخدم لتلك القصائد والمقطوعات اصطلاح «النقيضة» مرارا. وكان من نتيجة ذلك أن أستاذا كبيرا ومؤرخا للأدب واسع الإحاطة بموضوعه كالدكتور شوقى ضيف لا يلتفت إلى نقائض عصر الرسول البتة، فنراه يتحدث، فى كتابه: «العصر الإسلامي»، عن نقائض عصر بنى أمية بوصفها ثمرة لأوضاع العصر الاجتماعية والثقافية والسياسية، وهو ما قد يفهم منه أنه لم يكن للشعر العربى بها عهد من قبل، متجاهلا بذلك كل النقائض التى دارت معاركها بين مشركى مكة ويهود يثرب وغيرهم من جهة وبين المسلمين فى المدينة من جهة أخرى، وكذلك نقائض عام الوفود، فلم يذكر إلا أنها قد سبقتها مقدمات فى العصور السالفة، وجاءت إشارته إلى تلك المقدمات عارضة لا تلفت البصر رغم أن الأستاذ أحمد الشايب قد وضع كتابا عن النقائض فى منتصف أربعينات القرن الماضى تعرَّض فيه بالتفصيل لنقائض عصر الرسول، بل قفز راجعا إلى الوراء مؤكدا أن الجاهليين عرفوا النقائض قبل ذلك، وإن لم تجئ نقائضهم متفقة فى البحر والروى، فضلا عن أنها لم تنحصر فى الشعر، بل شملت النثر كذلك. كما رأينا كيف سكت د. عمر فروخ عن نقائض عصر الرسول فلم يشر إليها، وانتقل مباشرة إلى التهاجى بين شعراء الجاهلية.

وقد سلف أن قلنا إن شعراء النقائض الأساسيين فى عصر الرسول كانوا منقسمين إلى معسكرين: معسكر المشركين واليهود ومعسكر المسلمين، أى أن انقسامهم دينى، فى حين كانوا فى عصر بنى أمية منقسمين انقساما قبليا لا دينيا رغم ما نعرفه من أن الأخطل نصرانى، إذ لم يشترك فى تلك النقائض بوصفه نصرانيا يعادى الإسلام كما كان المشركون واليهود فى عصر النبى عليه السلام يعادونه ويؤلبون عليه، بل على أساس أنه من قبيلة تغلب. أى أن الشعراء المتناقضين فى عصر بنى أمية كانوا كلهم مسلمين ما عدا الأخطل، وكانوا كلهم ينتمون إلى ذات

الدولة، بخلاف نقائض المسلمين والمشركين فى عصر النبى عليه السلام، كما كانت خصوماتهم جميعا قبلية. أما فى عصر الخلفاء الراشدين فلا نعرف أنه كان هناك شعراء نقائض.

والآن إذا قارنّا بين ما قاله شعراء الجاهلية والشعراء المخضرمون قبل إسلامهم وما قاله الشعراء المسلمون لمسنا فرقا ضخما على عكس ما يزعمه بعض المستشرقين من أن الإسلام لم يؤثر فى الشعر العربى، بل ظل ذلك الشعر، مثلما كان عليه قبل مجيء النبى محمد، يتناول نفس الأغراض القديمة، ويتغنى بنفس القيم القديمة، ويستعمل المفردات والعبارات القديمة. ونظرة إلى ما قاله كعب بن زهير مثلا قبل إسلامه ثم إلى ما قاله بعد ذلك يرينا الفارق بين الشعرين فى أقوى ضوء وأشده بريقا. يقول كعب ساخرا بالنبى صلى الله عليه وسلم، ومتهما أخاه بجيرا بالضلال لاعتناقه الإسلام:

أَلا أَبْلِغـا عَنِّـى بُجَـيرًا رِسـالَةً ... فَهَل لَكَ فيما قُلْت بِالخَيفِ؟ هل لَكَا؟

شَـرِبْتَ مَـعَ المَـأْمون كَأسًـا رَوِيـةً ... فَأَنْهَلَـكَ المَـأْمُونُ منهـا وَعَلَّكـا

وَخالَفْـتَ أَسْـبابَ الهُـدَى وَتَبِعْتَـهُ ... علـى أى شـيءٍ، وَيـبَ غـيرك، دَلَّكـا؟

عَلـى خُلُـقٍ لَـم تُلْـفِ أُمًّـا وَلا أَبًـا ... عَلَيـهِ، وَلَـم تُـدْرِكْ عَلَيـه أَخًـا لَكَـا

فـإنْ أنـت لم تفعـلْ فلسـتُ بآسـفٍ ... ولا قائـلٍ إمـا عثـرتَ: لَعًـا لَكَـا

أما بعد الإسلام فيقول مثلا:

أُنبِئْـتُ أَنَّ رَسـولَ اللَـهِ أَوعَـدَنى ... وَالعَفْـوُ عِنْـدَ رسـولِ اللَّـهِ مـأمولُ

مَهلًا. هَداكَ الّذى أَعطاكَ نافِلَةَ الـ ... ـقُرآنِ فيهـا مَـواعيظٌ وَتَفصـيلُ

إِنَّ الرَّسـولَ لَنُـورٌ يستَضـاءُ بِـهِ ... مُهَنَّـدٌ مِـنْ سُـيوفِ اللَّهِ مَسْـلولُ

فـى عُصْبَةٍ مِـن قُـرَيشٍ قـالَ قـائِلُهُم ... بِـبَطنِ مَكَّـةَ لَمّـا أَسْـلَمُوا: زُولُـوا

زَالُـوا، فمـا زالَ أَنكـاسٌ وَلا كُشُـفٌ ... عِنـدَ اللِقـاءِ وَلا مِيـلٌ مَعَازِيـلُ

شُــمُّ العَــرانينِ أبطــالٌ، لَبُوسُــهُمُو مِـن نَسْـجِ داوُدَ فـى الـهَيجَا سَرابيلُ

وكان بجير قد أجاب أخاه على أبياته الساخرة المقرّعة قـائلا بتـأثير مـن دينـه الجديد:

مـن مُبْلِـغٌ كعبًـا: فهـل لـك فـى التـى تلــوم عليهــا باطلًــا وَهْــى أحْــزمُ؟

إلى اللّه، لا العُـزَّى ولا الـلات، وحـده فتنجـــو إذا كـــان النَّجَـــاءُ وتَسْـــلَمُ

لَــدَى يــومٍ لا ينجــو ولــيس بمفلــتٍ مــن النــاس إلا طــاهرُ القلــبِ مُسْلِمُ

فــدِينُ زهــيرٍ، وهْــوَ لا شــيءَ دينُــه، وديــن أبــى سُــلْمَى علــى محــرمُ

بل إن الأعشى ذاته، وكان مشركا، وأراد أن يفد على النبى ويعتنـق الإسـلام لو لا أن صدته قريش عامَه ذاك وأغرته بمال وفير، كان قد أعد قصـيدة ليلقيهـا بـين يدى النبى معلنا إسلامه. وها هى ذى بضعة أبيات منها تدل أقوى دلالة على أن أثر الإسلام فى الشعر كان من القوة بحيث ظهر حتى فى قصـيدة الأعشـى رغـم أنـه لا يزال على دين قومه. والكلام فى بداية الأبيات عن ناقتـه التـى كـان يمتطيهـا ناويـا الذهاب إلى يثرب حيث يلقى النبى ويعلن دخوله فى دينه:

ألا أيهَــذا الســائِلى: أيــنَ يمَّمَــتْ؟ فَــإِنَّ لَهــا فــى أَهْـلِ يثْــرِبَ مَوْعِـدا

فَأَمّــا إِذا مــا أَدْلَجَــتْ فَتَــرى لهــا رَقيــبَينِ: جَــدْيا لا يغِيــبُ وَفَرْقَــدا

وَفيهــا إِذا مــا هَجَّــرَتْ عَجْرَفِيــةٌ إِذا خِلْــتَ حِرْبــاءَ الظَّهــيرَةِ أَصْــيدا

أَجَــدَّت بِرِجْلَيهــا نَجَــاءً، وَراجَعَــتْ يــداها خِنافًــا لَينًــا غَــيرَ أَحْــرَدا

فَآلَيــتُ لا أَرثــى لَهــا مِــن كَلالَــةٍ وَلا مِــن حَفًــى حَتّــى تَــزُورَ مُحَمَّــدا

مَتى ما تُناخِى عِنْدَ بابِ ابْنِ هاشِمٍ تُريحــى وَتَلْقَــى مِــن فَواضِـلِهِ يــدا

نَبِــى يــرى مــا لا تَــرَوْنَ، وَذِكــرُهُ أَغــارَ، لَعَمْــرِى، فــى الـبِلادِ وَأَنْجَـدا

لَــهُ صَــدَقاتٌ مــا تُغِــبُّ وَنائِــلٌ وَلَــيسَ عَطــاءُ اليــومِ مانِعَــهُ غَــدا

أَجِــدَّكَ لَــم تَسْــمَعْ وَصَــاةَ مُحَمَّــدٍ نَبِــى الإِلَــهِ حــينَ أَوْصَــى وَأَشْــهَدا:

إِذا أَنتَ لَم تَرْحَل بِزادٍ مِنَ التُّقَى ... وَلاقَيتَ بَعْدَ المَوْتِ مَنْ قَدْ تَزَوَّدا

نَدِمْتَ عَلى أَلا تَكونَ كَمِثْلِهِ ... وَأَنَّكَ لَم تُرْصِدْ لِما كانَ أَرْصَدا

فَإِيّاكَ وَالمَيتاتِ لا تَأْكُلَنَّها ... وَلا تَأْخُذَنْ سَهْمًا حَديدًا لِتَفْصِدا

وَذا النُّصُبَ المنصوبَ لا تَنْسُكَنَّهُ ... وَلا تَعْبُدِ الأَوْثانَ، وَاللَّهَ فَاعبُدا

وَصَلِّ عَلى حينِ العَشِياتِ وَالضُّحَى ... وَلا تَحْمَدِ الشَيطانَ، وَاللَّهَ فَاحْمَدا

وَلا السائِلَ المحرومَ لا تَتْرُكَنَّهُ ... لِعاقِبَةٍ وَلا الأَسِيرَ المُقَيدا

وَلا تَسْخَرَنْ مِن بَائِسٍ ذى ضَرارَةٍ ... وَلا تَحْسَبَنَّ المَرْءَ يومًا مُخَلَّدا

وَلا تَقْرَبَنَّ جارَةً. إِنَّ سِرَّها ... عَلَيكَ حرامٌ، فَانْكِحَنْ أو تَأَبَّدا؟

وهى قصيدة صحيحة ولا يقدح فى صحتها ما أورده د. شوقى ضيف من اعتراضات سبق أن رددتُ عليها فى هذا الكتاب. وبوجهٍ أحرى نجد أثر الإسلام قويا فى شعر حسان وابن رواحة وكعب بن مالك ولبيد بن ربيعة والنابغة الجعدى، وغيرهم كثيرون، إذ تطالعنا المفردات والمعانى الإسلامية كالصلاة والصوم والصدقات والجهاد والنفاق والجنة والنار والثواب والعقاب والملائكة، إلى جانب العبارات القرآنية. كما نَلْقَى الإشارةَ إلى الوقائع التى حدثت أوانذاك كبدر وأحد والأحزاب والفتح وخيبر وحادثة الإفك منظورا إليها من زاوية إسلامية ساطعة،بالإضافة إلى الإشادة بالنبى عليه الصلاة والسلام. ونلمس هذا لمسا فى شعر وفود العام التاسع للهجرة حين قدم إلى المدينة زعماء قبائل العرب ورجالاتها ليبايعوا النبى على الزعامة ويعلنوا اعتزازهم بالدين الجديد. فها هو ذا حسان مثلا يرد على أبى سفيان بن الحارث **قائلا:**

وَقالَ اللّهُ: قَد أَرْسَلْتُ عَبْدًا ... يقُولُ الحَقَّ إِنْ نَفَعَ البَلاءُ

شَهِدتُ بِهِ، وَقَوْمى صَدَّقوهُ ... فَقُلْتُم: ما نُجيبُ وَما نَشاءُ

وَجِبريلٌ أَمينُ اللّهِ فينا ... وَرُوحُ القُدْسِ لَيسَ لَهُ كِفَاءُ

ألا أَبْلِــغْ أَبــا سُــفيانَ عَنّــى: فَأَنْــتَ مُجَــوَّفٌ نَخِــبٌ هَــواءُ

هَجَــوْتَ مُحَمَّــدًا، فَأَجَبْــتُ عَنــهُ وَعِنْــدَ اللّهِ فــى ذاكَ الجَــزاءُ

أَتَهْجُــوهُ، وَلَسْــتَ لَــهُ بِكُــفْءٍ؟ فَشَــرُّكُما لِخَيرِكُمــا الفِــداءُ

هَجَــوْتَ مُبارَكًــا بَــرًّا حَنيفًــا أَمــينَ اللَــهِ شِــيمَتُهُ الوَفَــاءُ

فَمَــنْ يهْجُــو رَسُــولَ اللَّــهِ مِــنْكُم وَيمْدَحُــهُ وَينْصُــرُهُ سَــوَاءُ

فَــإِنَّ أَبِــى وَوالِــدَهُ وَعِرْضِــى لِعِــرْضِ مُحَمَّــدٍ مِــنكُم وِقَــاءُ

وها هو ذا كعب بن مالك يقول راثيا حمزة سيد الشهداء عقب معركة أحد:

بَكَــتْ عَينِــى، وَحــقَّ لهــا بُكَاهــا وَمــا يغْنِــى البُكَــاءُ وَلا العَويــلُ

عَلَــى أَسَــدِ الإِلَــهِ غَــداةَ قــالوا: أَحَمْــزَةُ ذاكُــمُ الرَّجُــلُ القَتيــلُ؟

أُصِــيبَ الــمُسْلِمون بــه جَميعًــا هُنــاكَ، وَقَــدْ أُصِــيبَ بِــهِ الرَّسُــولُ

أَبَــا يعْلَــى، لَــكَ الأَرْكــانُ هُــدَّتْ وَأَنْــتَ الماجِــدُ البَــرُّ الوَصُــولُ

عَلَيــكَ سَــلامُ رَبِّــكَ فــى جِنَــانٍ مُخَالِطُهــا نَعِــيمٌ لا يــزُولُ

أَلا يــا هاشِــمَ الأَخيــارِ، صَــبْرًا فَكُــلُّ فعــالِكم حَسَــنٌ جَمِيــلُ

رَســولُ اللّهِ مُصْــطَبِرٌ كَــرِيمٌ بِــأَمْرِ اللَّــهِ ينْطِــقُ إِذ يقُــولُ

أَلا مَــنْ مُبْلِــغٌ عَنّــى لُؤَيــا؟ فَبَعْــدَ اليــوْمِ دائِلَــةٌ تَــدُولُ

وَقَبْــلَ اليــومِ مــا عَرَفــوا وَذاقُــوا وَقائِعَنــا بهــا يشْــفَى الغَليــلُ:

نَسِــيتُم ضَــرْبَنا بِقَلِيــبِ بَــدْرٍ غَــداةَ أَتَــاكُمُ المــوتُ العَجِيــلُ

غَــداةَ ثَــوَى أَبــو جَهْــلٍ صَــرِيعًا عليــه الطَّــيرُ حائِمَــةً تَجُــولُ

وَعُتْبَــةُ وَابْنُــهُ خَــرًّا جَمِيعًــا وَشَــيبَةُ عَضَّــه الســيفُ الصــقيلُ

وَمَتْرَكَنــا أُمَيــةَ مُجْلَعِبًّــا وفــى حَيزُومِــهِ لَــدْنٌ نَبِيــلُ

وَهــامَ بَنِــى رَبِيعَــةَ ســائِلُوها ففــى أَسْــيافِنا منهــا فُلُــولُ

أَلا يــا هِنْــدُ، فَــابْكِى، لا تَمَلِّــى فَأَنْــتِ الوالِــهُ العَبْــرَى الــهَبُولُ

أَلا يـــا هِنْـــدُ، لا تُبْـــدِى شَـــمَاتًا ... بِحَمْـــزَةَ. إِنَّ عِزَّكُمُـــو ذَلِيـــلُ

وقال النابغة الجعدى من قصـيدة يعاتـب فيهـا زوجتـه لمحاولتهـا ثَنْيـه عـن الخروج فى سبيل الله:

باتَـــت تُـــذَكِّرُنى بِاللَّـــهِ قاعِـــدَةً ... وَالـدَّمْعُ يَنْهَـلُّ مِـن شَـأْنَيهما سَـبَلا

يـا ابنَـةَ عَمِّـى، كِتـابُ اللّهِ أَخْرَجَنـى ... عَـنْكُم. وَهَـل أَمْـنَعَنَّ اللّهَ مـا فَعَـلا؟

فَـإِنْ رَجَعْـتُ فَـرَبُّ النـاسِ يرْجِعُنـى ... وَإِن لَحِقْـتُ بِرَبِّـى فَـابْتَغِى بَـدَلا

مـا كُنْـتُ أَعْـرَجَ أَو أَعْمَـى فَيعْـذِرَنى ... أَوضـارِعًا مِـن ضَنًى لم يسْتَطِعْ حِوَلا

على أنْ ليس معنى انتشار المفردات والعبارات والمفاهيم الإسـلامية فى شـعر ذلك العصر أن الأشعار قد خلت من ذكر الخمر مثلا أو كفت عن النسيب والغـزل أو توقف أصحابها عن الافتخار، بل لا نزال نجد أشياء من هذه فيها. وهذا وضـع طبيعى، فالبشر هم البشر، وهم لا يقدرون على أن يصـيروا ملائكـة طـاهرين. وفى الجزء الافتتاحى من قصيدة كعب بن زهير مثلا التى اعتذر فيها للنبى عـما كـان قـد فَرَط منه فى حقه نجد تريثا من الشاعر لدن سعاد وجمال سـعاد وعينـى سـعاد وفـم سعاد، الذى يذكّر الشاعر بخمر صافية معتقة مبرّدة، كل ذلـك فى قصـيدة تُنْشَـد فى حضرة النبى بل توجَّه إليه، وتكـون هـى أوراق اعـتماد الشـاعر فى الـدين الجديـد. وليس كعب بدعا بين شعراء ذلك العصر، بل كان هذا ديدن عدد مـنهم، وإن كـان بعضهم قد تنكب مثل تلك الموضوعات والمعانى.

وهذا يأخذنا إلى قضية أريقت فى مناقشتها أحبـار غزيـرة، واسْـتُهْلِكَتْ فيهـا أوراق كثيرة هى قضية موقف الإسلام من الشعر، تلك القضية التى ما كـان ينبغـى أن نتوقف إزاءها البتة ما دمنا قد ورثنا عن عصر النبى والصحابة كل ذلـك المقـدار الهائل من الشعر، إذ لا يعقل أن يكون الإسلام قد أنكر الشعر، ورغم هـذا اسـتمر الصحابة فى نظمه، والنبى فى الاستماع إليه، وكأن الدين لم يعلن أنه فن مبغوض كـما قد يفْهَم من بعض النصوص القرآنية والحديثية، من مثـل قولـه تعـالى: ﴿وَمَاعَلَّمْنَـٰهُ

ٱلشِّعۡرَ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُۥٓۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ وَقُرۡءَانٞ مُّبِينٞ ﴿٦٩﴾ ،وقوله عز شأنه: وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلۡغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمۡ تَرَ أَنَّهُمۡ فِي كُلِّ وَادٖ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمۡ يَقُولُونَ مَا لَا يَفۡعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا وَٱنتَصَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْۗ وَسَيَعۡلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٖ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾ إلا أن حقيقة الأمر سرعان ما يسفر ضياؤها متى ما وضعنا هذين النصين وأمثالهما فى سياقها الصحيح: فالنص الأول يرد على المشركين الكذابين الذين كانوا يتهمون النبى بأنه شاعر وأن ما ينزل عليه من آيات وسور ليس وحيا سماويا بل شعرا أتته به شياطين وادى عبقر كما تأتى كل الشعراء، فنزل الوحى مؤكدا أن محمدا ليس شاعرا يتخيل ويزين الكلام من عنده تلذذا بنشوة الإبداع الشعرى وتوخيا لإثارة العواطف بغض النظر عن صواب ما يقول أو لا،وبغض النظر عن إمكان تحقيقه أو لا، وبغض النظر عن إنسانية ما ينظم من كلام أو لا، إذ المهم عند الشعراء هو إبداع الشعر وإذاعته ودغدغة خيالات المستمعين ومشاعرهم والاستمتاع بالشهرة والأموال التى يجنونها من وراء ذلك، ثم لا شيء آخر.

وقد وضَّح هذا كلَّه النصُّ الآخر، الذى نزل يرد اتهام الكفار له صلى الله عليه وسلم بأن القرآن قد تنزلت به الشياطين. قال تعالى: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتۡ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمۡ وَمَا يَسۡتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّمۡعِ لَمَعۡزُولُونَ ﴿٢١٢﴾ فَلَا تَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾ وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنۡ عَصَوۡكَ فَقُلۡ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِي يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾ هَلۡ أُنَبِّئُكُمۡ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٖ ﴿٢٢٢﴾ يُلۡقُونَ ٱلسَّمۡعَ وَأَكۡثَرُهُمۡ كَٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلۡغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمۡ تَرَ أَنَّهُمۡ فِي كُلِّ وَادٖ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمۡ يَقُولُونَ مَا لَا يَفۡعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا وَٱنتَصَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْۗ وَسَيَعۡلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٖ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾﴾». أى أن الشياطين إنما تنزل على

الشعراء الغاوين الذين يتبعهم أمثالهم ممن لا يبـالون بحـق أو باطـل، ولا بخـير أو شر، ولا بصدق أو كذب، ولا بصلاح أو فساد، ولا بإثارة الفتن أو تهدئة الأوضاع، ولا بتمزيق الأعراض أو الحفاظ عليها. ولهذا نرى النص الكريم يُخْرِج، مـن خانـة الشعراء المذمومين، فريقَ الشعراء المؤمنين الذين يتوخَّوْن العمل الصالح ويضـعون الله نُصْبَ أعينهم ولا يظلمون أحدا، لكنهم يدفعون الظلم عن أنفسهم. وفى ضـوء هذا ينبغى أن نقرأ الأحاديث المنسوبة إليه صلى الله عليه وسلم فى هذا الشأن كقوله: «لَأَن يمتلئَ جوفُ أحدِكم قَيحًا يريه خيرٌ من أن يمتلئ شِعْرًا».

المشكلة إذن لم تكن فى الشعر كفن أدبى، بل فى اتهام المشركين للنبى بأنه لـيس نبيا يوحى إليه جبريل بآيات القـرآن المطهـرة كـى يـدعو النـاس إلى الإيـمان بـربهم ويقبلوا على عمل الصالحات استعدادا ليوم يقف فيه الناس أمام ربهـم ليحاسـبهم، بل شاعرا توحى إليه الشياطين الشعر تسليا واستفزازا للشـرور النائمـة فى نفـوس الغواة الفاسدين. وكيف ينهى الإسلام عن الشعر، وكان للرسـول شـعراؤه الـذين ينافحون عنه وعن دينه وعن أتباعـه، وكـان يشـجعهم ويقـربهم إليـه ويـدعو لهـم بالتوفيق، كما كان يستمع إلى الشعر ويستنشـد صـحابته مـا يحفظـون منـه، ويقـول تعقيبا على ما يسمعه أحيانا مـن بدائعـه: «إن مـن البيـان لسـحرا، وإن مـن الشـعر لحكمة»، فضلا عن أن كثيرا من المسـلمين آنـذاك كـانوا شـعراء ينظمـون الشـعر لم يتوقفوا عنه؟

ثم من الناحية المنطقية البحتة ماذا فى الشعر من إثم يجعله حرامـا؟ إنـه كـلام كباقى الكلام: فما كان من الكلام حراما فهو فى الشعر حرام، وما كـان منـه حـلالا فهو فيه حلال، وما كان منه واجبا مفروضا فهو فيه واجب مفـروض. ولا نـنس أن ما فى الشعر من جمال تعبيرى وتوقيعى وتصويرى يجعله أجمل وأمتع، ومن ثم أقوى وأعمق تأثيرا. ولا ننس أن الشعراء إنما يعبرون عن آمالنا وآلامنا ويخففون عنا ما فى الحياة من إزعاج وملل وضيق، ويجعلون الثَّقْب الضيق الذى ننظر منـه إلى الوجـود

نافذة واسعة نتنفس منها ملء رئتنا وننظر على راحتنا، فنرى العالم أكثر حياة وأغنى مشاعر وأحلى منظرًا ومستمَعًا ومتنفَّسًا. من هنا فلا معنى البتة للحديث عن حرمة الشعر فى الإسلام، فالإسلام لم يأت للتضييق على الناس وإعناتهم، بل للتخفيف عنهم وتجميل حياتهم بقدر المستطاع. ثم لو كان الإسلام قد حرَّم على العرب الشعر فما الذى يتبقى لهم فى ميدان الثقافة الفكرية؟ هل كان للعرب غير الشعر والخطب؟

وهناك حديث مرسل مُفَادُه أنه «لما نَزَلَتْ «وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ» جاءَ عبدُ الله بنُ رواحةَ وحسَّانُ بنُ ثابتٍ وكعبُ بنُ مالكٍ وهم يبكونَ، فقالوا: يا رسولَ الله، أنزلَ اللهُ هذهِ الآيةَ وهوَ يعلَمُ أنَّا شعراءُ! فقالَ: اقرأوا ما بعدَه: «إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ»: أنتُم، «وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا»: أنتُم». وفى الحديث «أَنَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان له شُعَرَاءُ يصْغِى إليهم منهم حسَّانُ بنُ ثابتٍ وعبدُ الله بنُ رواحةَ، واستَنشَدَ الشَّريدَ شِعرَ أُميةَ بنَ أبى الصَّلت، واستمعَ إليهِ». و«عن عمرو بنِ الشَّريدِ عن أبيه قال: استنشَدَنى النبى صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ شعرَ أُميةَ بنَ أبى الصَّلتِ، فأنشدتُه، فكلما أنشدتُه بيتًا قال: «هِيهِ» حتى أنشدتُه مائةَ قافيةٍ. قال: كاد ابنُ أبى الصَّلتِ يسلِمُ». ويقول النابغة الجعدى عن قيامه بين يدى النبى وإنشاده رائيته المشهورة: «أنشدتُ النَّبى صلَّى اللهُ عليه وسلَّم:

بلغنا السَّماءَ مجدنا وجدودنا ... وإنَّا لنرجو فوق ذلك مَظْهَرا

فقال: أين المظهرُ يا أبا ليلى؟ قلتُ : الجنَّةُ. قال: أجل إن شاء الله. ثمَّ قلتُ:

ولا خيرَ فى حِلمٍ إذا لم تكُنْ له ... بوادرُ تحمى صفْوَه أن يكَدَّرا

ولا خيرَ فى جهلٍ إذا لم يكُنْ له ... حليمٌ إذا ما أورد الأمرَ أصدرا

فقال لى رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: «لا يفْضُضِ اللهُ فاك» مرَّتَين». وفى الحديث كذلك «أنَّ رسولَ الله صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أتى، فقيل: يا رسولَ الله، إنَّ أبا سفيانَ بنَ الحارثِ بنِ عبدِ المُطلبِ يهجُوك، فقام ابنُ رواحةَ فقال: يا رسولَ الله، اِيذَنْ لى فيه. فقال: أنت الذى تقول: «ثبَّتَ اللهُ»؟ قال: نعم قلتُ يا رسولَ الله:

فثَبَّــتَ اللّهُ مَــا آتَــاكَ مِــن حَسَــنٍ تَثْبِيتَ مُوسَى وَنَصْرًا كَالَّذى نُصِرُوا

قال: وأنت يفعل اللهُ بك خيرًا مثلَ ذلك. قال: ثم وثَبَ كعبٌ فقال: يا رسولَ الله، اِيذنْ لى فيه. قال: أنت الذى تقول: «همَّتْ»؟ قال: نعم قلتُ يا رسولَ الله:

هَمَّــتْ سَــخِينَةُ أَن تُغَالِــبَ رَبَّهــا فَلَيغْلَــبَنَّ مُغالِــبُ الغَلَّــابِ

قال: أما إن اللهَ لم ينسَ لك ذلك. قال: ثم قام حسَّانُ فقال: يا رسولَ الله، اِيذَنْ لى فيه. وأخرج لسانًا له أسودَ فقال: يا رسولَ الله، اِيذنْ لى. إن شئتَ أَفْرَيتُ بهم المزادَ. فقال: اذهبْ إلى أبِى بكرٍ لِيحَدِّثكَ حديثَ القوم وأيامَهم وأحسابَهم ثم اهجُهُمْ وجبريلُ معكَ». وفيه أيضا «أَنَّ عُمرَ بنَ الخطَّابِ مرَّ بحَسَّانَ، وَهوَ ينشدُ فى المسجدِ فلحظَ إليهِ، فقال: قد كنتُ أنشدُ فيهِ، وفيهِ مَن هوَ خيرٌ منكَ. ثمَّ التفتَ إلى أبى هُرَيرةَ فقالَ: أَنْشُدُكَ اللهَ، أسمِعتَ رسولَ اللهَّ صلَّى اللهُّ عليهِ وسلَّمَ يقولُ: أجِبْ عنِّى. اللَّهمَّ أيدهُ بروح القُدسِ؟ فقالَ: اللَّهمَّ نعم».

وقد كان هناك شعراء كثار فى ذلك العصر على عكس ما يقال عادة من أن الشعر انحسر آنئذ وقل عدد متعاطيه. إلا أن عدد الشاعرات مع هذا قليل. وسبق أن ذكرنا بعض الشعراء فى الفقرات السابقة، ويمكننا أن نذكر أيضا بعضا آخرين كالعباس بن مِرْداس وعمرو بن مَعْدِيكَرِب وزيد الخيل وعَبْدة بن الطبيب والحُصَين بن الحُمَام المُرِّى والنَّمِر بن تَوْلَب والشَّمَّاخ بن ضِرَار والمخبَّل السعدى وأبى ذؤيب الهُذَلِى وأبى خرَاش الهذلى وأبى مِحْجَن الثقفى وسُحَيم عبد بنى الحسحاس والحطيئة وحُمَيد بن ثور الهلالى والمخبَّل السعدى وقيس بن عمرو النجاشى الحارثى والأحنف بن قيس وأبى الطمحان القينى وربيعة بن مقروم وأبى زبيد الطائى وعروة بن حزام وسُوَيد بن أبى كاهل ومتمم بن نويرة والأغلب العجلى الراجز وعمرو بن شأْس ومعن بن أوس المُزَنى والخنساء وليلى الأخيلية،وغيرُهم جِدُّ كثيرين.

وإذا أردنا أن نستشهد بمزيد من أشعار ذلك العصر ـ فلدينا مثلا أبيات الخنساء البديعة فى وصف سباق بين أبيها وأخيها لما فيها من روعة الوصف والتصوير وحسن استبطان المشاعر:

جـارى أبـاهُ، فَـأَقْبَلا وَهُمـا يتعَـاوَرانِ مُلَـاءَةَ الفَخْـرِ
حَتّى إذا نَـزَتِ القُلـوبُ، وَقَـدْ لُـزَّتْ هنـاك العُـذْرُ بِالعُـذْرِ
وَعَلَـا هُتـافُ النـاس: أيهُمـا؟ قـالَ المجيـبُ هنـاك: لا أَدْرِي
بَـرَزَتْ صَـحِيفَةُ وَجْـهِ والِـدِهِ وَمَضَـى عَلـى غُلَوائِـهِ يجْـرِي
أَوْلى فَـأَوْلَى أن يسـاوِيهُ لـولا جَـلالُ السِّـنِّ وَالكِبْـرِ
وَهُمَـا كَأَنَّهُمـا، وَقَـد بَـرَزَا، صَـقْرانِ قـد حَطّـا عَلـى وَكْـرِ

أما ليلى الأخيلية، وكانت جميلة فصيحة تجادل الرجال بذلاقة وفصاحة، فقد رثت حبيبها توبة بن الـحُمَيِر بهذه القصيدة الملتاعة:

أَقْسَـمْتُ أَرْثِـى بَعْـدَ تَوْبَـةَ هالكًـا وأَحْفِـلُ مَـنْ دارَتْ عَلَيـهِ الـدَّوائِرُ
لَعَمْرُكَ مـا بـالمَوْتِ عـارٌ على الفَتَى إذا لَـمْ تُصِـبْهُ فـى الحيـاةِ المَعَـايرُ
ومَـا أَحَـدٌ حَـى، وإنْ عـاشَ سـالِمًا، بأخْلَـدَ ممَّـنْ غَيبتْـهُ المقـابِرُ
ومَنْ كان، مِمّا يحْدِثُ الدَّهْرُ، جازعًا فـلا بُـدَّ يوْمًـا أنْ يـرَى وهـو صـابِرُ
ولَيسَ لـذِى عَيش عـنِ المـوتِ مَقْصَرٌ ولَـيسَ علـى الأيـامِ والـدهرِ غـابِرُ
ولا الحى، ممّـا يحْدِثُ الـدَّهْرُ، مُعْتَبٌ ولا الـمَيتُ، إنْ لَمْ يصْبِرِ الحى، ناشِرُ
وكـلُّ شـبابٍ أو جَدِيـدٍ إلى بِلًـى وكُـلُّ امـرِيءٍ يوْمًـا إلى اللّـهِ صـائِرُ
وكُـلُّ قَرِينَـى أُلْفَـةٍ لِتَفَـرُّقٍ شَـتاتًا، وإنْ ضَـنًّا وطـالَ التَّعَاشُـرُ
فـلا يبْعِـدَنْكَ اللّـهُ حيـا ومَيتًـا أخـا الحـربِ إنْ دارَتْ عَلَيكَ الـدَّوائِرُ
فآلَيـتُ لا أنْفَـكُّ أَبْكِيـكَ مـا دَعَـتْ علـى فَـنَنٍ وَرْقـاءُ أوْ طـارَ طـائِرُ

وفى ليلى قال توبة متخيلا أنه قد مات، وكُوِّم فوقه التراب والحجارة، ثم جاءت ليلى تزور قبره وتحييه:

فلَوَ انَّ ليلى الأَخْيلِيةَ سَلَّمَتْ ... على، وفوقى تُرْبَةٌ وصَفائحُ
لَسَلَّمْتُ تسليمَ البشاشَةِ أو زَقَا ... إليها صَدًى من جانبِ القبرِ صائحُ

وفى المقطوعة التالية ترثى هند بنت عتبة، زوجةُ أبى سفيان وأمُّ معاوية، مَنْ سقط صريعا من أهلها فى غزوة بدر، وكانت على الشرك آنذاك:

لله عينا مَنْ رأى ... هُلْكًا كهُلْكِ رِجَالِيَهْ
يا رُبَّ باكٍ لى غدًا ... فى النائبات وباكِيَهْ
كم غادروا يوم القَلِيـ ... ـبِ غداةَ تلك الواعيهْ
من كل غيثٍ فى السنيـ ... ـن إذا الكواكبُ خاويهْ
قد كنت أحذرُ ما أرى ... فاليومَ حَقَّ حِذارِيَهْ
قد كنت أَحْذَر ما أرى ... فأنا الغداةَ مُوَامِيَهْ
يا رُبَّ قائلةٍ غدًا: ... يا وَيحَ أُمّ معاويهْ!

وهذا كعب بن الأشرف اليهودى، بعد عودته من زيارته الخيانية لمكة حيث حرض أهلها ضد الرسول والمسلمين فى المدينة بدلا من أن ينصرهم حسبما تقضى بنود الصحيفة التى كُتِبَتْ بين طوائفها من مسلمين ويهود غِبَّ مَقْدَم النبى عليه السلام إليها، أخذ يشَبِّب بأم الفضل زوجة العباس بن عبد المطلب عم النبى وغيرها من نساء المسلمين قائلا:

أراحلٌ أنت لم تحلُلْ بِمَنْقَبَةٍ ... وتاركٌ أنتَ أمّ الفضلِ بالحرمِ؟
صَفراء رادعة لو تُعْصَرُ انعصرَتْ ... من ذى القواريرِ والحِنّاء والكَتَمِ
يرتجُّ ما بَين كَعْبَيها ومِرْفَقها ... إذا تأَتَّتْ قيامًا ثم لم تَقُمِ
أشباهُ أمّ حكيمٍ إذْ تواصلُنا ... والحبلُ منها متينٌ غير منجذمِ

إِحدَى بَنِى عامرٍ، جُنَّ الفؤادُ بها ... ولو تشاء شفتْ كعبًا من السَّقَمِ
فَرْعُ النساء، وَفَرْعُ القوم والدُها ... أهلُ التَّحِلّة والإيفاءِ بالذِّمَمِ
لَمْ أَرَ شَمْسًا بِلَيلٍ قبلها طلَعَتْ ... حَتى تجلّتْ لنا فى ليلةِ الظّلَمِ

وهو بهذا قد سبق ابن قيسِ الرُّقَيات فى تشبيبه بنساء البيت الأموى بغية إغاظة حكام بنى أمية وإهانتهم.

ورَدًّا على ما اتُّهِم به من اشتراكه فى تشنيعات الإفك الذى رُمِيتْ به عائشة رضى الله عنها يقول حسان بن ثابت مدافعا عن نفسه، ونافيا أن يكون قد خَبَّ أو وَضَعَ فى تلك الفتنة المنتنة، ومؤكدا أن الصِّدِّيقَة بنت الصِّدِّيق لا يمكن أبدا أن تَعْلَقَ بها الرِّيب لأنها شريفة كريمة من بيت شريف كريم، وأخلاقها سامية سامقة، ولسانها عف لا يتَدَهْدَى إلى ما تَتَدَهْدَى إليه ألسنة النساء من لَوْك أعراض الأخريات:

حَصَانٌ رَزَانٌ ما تُزَنُّ بِرِيبَةٍ ... وَتُصْبِحُ غَرْثَى مِن لُحُومِ الغَوافِلِ

عَقيلَةُ حَى مِن لُؤَى بن غالِبٍ ... كِرامِ المساعى مَجْدُهُم غَيرُ زائِلِ

مُهَذَّبَةٌ قَد طَيبَ اللّهُ خِيمَها ... وَطَهَّرَها مِن كُلِّ سوءٍ وباطِلِ

فَإن كُنْتُ قَد قُلْتُ الذى قد زَعَمْتُمُو ... فَلا رَفَعَتْ سَوْطِى إلَى أنامِلي

فَكَيفَ، وَوُدّى ما حَييتُ وَنُصْرَتى ... لآلِ رَسُولِ اللَهِ زَينِ المَحَافِلِ؟

لَهُ رَتَبٌ عالٍ عَلَى الناسِ كُلِّهِمْ ... تَقَاصَرُ عَنهُ سَوْرَةَ المُتَطاوِلِ

رأيتُكِ، ولْيغْفِرْ لكِ اللّهُ، حرةً ... مِن المحصَنات غيرِ ذات الغوائلِ

ويقول العباس بن مرداس مادحا الرسول ومعتزا بنصرته له ولدينه:

مَنْ مُبلِغُ الأَقْوامِ أَنَّ مُحَمَّدًا ... رَسولَ الإلَهِ راشِدٌ حَيثُ يمَّما؟

دَعا رَبَّهُ وَاسْتَنْصَرَ اللّهَ وَحْدَهُ ... فَأَصْبَحَ قَد وَفَّى إِلَيهِ وَأَنعَما

سَرَينا وَواعَدْنا قُدَيدًا مُحَمَّدًا ... يؤُمُّ بِنا أَمْرًا مِنَ اللّهِ مُحْكَما

تَمارَوْا بِنا فى الفَجْرِ حَتّى تَبَينوا ... مَعَ الفَجْرِ فِتْيانًا وَغابًا مُقَوَّما

عَلَى الخيلِ مَشدُودًا عَلَينا دُرُوعُنا ... وَرَجْلًا كَدُفَّاعِ الأَتِى عَرَمْرَما

فَـإِنَّ سَـراةَ الحـى، إن كُنْـتَ سـائِلًا، — سُـلَيمٌ، وَفِـيهِم مِنهُمـو مَـنْ تَسَـلَّما

وَجُنْــدٌ مِــنَ الأَنْصــارِ لا يخْذُلونَــهُ — أَطــاعوا، فَمــا يعْصُـونَهُ مــا تكَلَّمــا

فَإِن تكُ قد أَمَّرْتَ فى القَوْمِ خالِدًا — وَقَدَّمْتَــــهُ فَإِنَّــــهُ قَــــدْ تقَــــدَّما

بِجُنْــدٍ هَــداهُ اللّهُ أَنــتَ أَمــيرُهُ — تُصيبُ بِهِ فى الحَقِّ مَن كانَ أَظْلَما

حَلَفْـــتُ يمِينًـــا بَـــرَّةً لِمُحَمَّـــدٍ — فَأَكمَلْتُهـا أَلْفًـا مِـنَ الخَيـلِ مُلْجَمـا

وَقـــالَ نَبِـــى الْمُـــؤْمِنِينَ: تقَــدَّموا — وَحُــبَّ إِلَينــا أَن نكُــونَ الْمُقَــدَّما

وَبِتْنــا بِنهْــى الْمُسْـتَدِيرِ، وَلَـم يكُـنْ — بِنــا الخَــوْفُ إِلّــا رَغْبَــةً وَتحَزُّمــا

أَطَعْنـاكَ حَتّـى أَسْـلَمَ النـاسُ كُلُّهُـم — وَحَتّـى صَبَحْنا الجمْـعَ أَهْلَ يلَمْلَمـا

يضِلُّ الحِصانُ الأَبْلَقُ الـوَرْدُ وَسْطَهُ — وَلا يطْمَــئِنُّ الشَّــيخُ حَتّــى يسَــوَّما

سَمَوْنا لَهُـم وِرْدَ القَطَـا زَفَّـهُ ضُـحًى — وَكُـلٌّ تـراهُ عَـنْ أَخيـهِ قَـدَ احْجَمـا

لَــدُنْ غُــدْوَةً حَتّــى ترَكْنــا عَشِـيةً — حُنَينًــا وَقَــدْ ســالَتْ مَدامِعُــهُ دَمــا

إِذا شِـئْتَ مِـن كُـلٍّ رَأَيـتَ طِمِـرَّةً — وَفارِسَــها يهْـوِى وَرُمْحًــا مُحَطَّمــا

وَقَـد أَحْـرَزَتْ مِنّـا هَـوازِنُ سِـرْبَها — وَحُــبَّ إِليهــا أَن نخِيــبَ وَنُحْرَمــا

أَصَــبْنا قُرَيشًــا غَثَّهــا وَسَــمِينَها — وَأَنعَـــمَ حِفْظًـــا بِـــالَهُمْ فَتكَلَّمــــا

فَمـا كـانَ منهـا كـانَ أَمـرًا شَـهِدْتُهُ — وَسـاعَدْتُ فيـهِ بِالَّـذِى كـانَ أَحْزَمـا

وَيــومٍ إِلى موســى تلاقَــتْ جِيادُنــا — قَبائِـلَ مِـن نَصْـرٍ وَرَهْـطِ ابـنِ أَسْلَما

فَمـــا أَدْرَكَ الأَوْتـــارَ إِلا سُــيوفُنا — وَإِلا رِمـــاحٌ نَسْـــتَدِرُّ بِهـــا الـــدِّما

وحين انتقل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الرفيـق الأعـلى رثـاه حسـان بقصيدة ملتاعة يسودها القلق والتوجس:

مــا بـــالُ عَينِـــى لا تنــامُ كَأَنَّمــا — كُحِلَــتْ مَآقيهــا بِكُحْــلِ الأَرْمَــدِ؟

جَزَعًــا عَلـى الـمَهْدِى أَصْـبَحَ ثاوِيـا — يـا خَـيرَ مَـن وَطِئَ الحَصى، لا تبْعُـدِ!

جَنْبِـى يقِيـكَ الثُّـرْبَ. لَهْفِـى! لَيتَنِـى — غُيبْــتُ قَبْلَــكَ فــى بَقيــعِ الغَرْقَــدِ

أأُقِيمُ بَعْدَكَ بِالمدينةِ بَينَهُم؟ يا لَهْفَ نفسِى! لَيتنى لَمْ أُولَدِ

بِأَبِى وَأُمّى مَنْ شَهِدْتُ وَفاتَهُ فى يومِ الاثنَينِ النَّبِى المهتدي

فَظَلِلْتُ بَعْدَ وَفاتِهِ مُتَلَدِّدًا يا لَيتنى أُسْقِيتُ سمَّ الأَسوَدِ

أَوْ حَلَّ أَمرُ اللهِ فينا عاجِلًا مِنْ يوْمِنا فى رَوْحَةٍ أَوفى غَدِ

فَتَقُومُ ساعَتُنا فَنَلْقَى طَيبًا مَحْضًا ضَرائِبُهُ كَريمَ المَحْتِدِ

يا بِكرَ آمِنَةَ المُبارَكَ ذِكرُهُ وَلَدَتْكَ مُحْصَنَةٌ بِسَعْدِ الأَسْعدِ

نورًا أَضاءَ عَلى البَريةِ كُلِّها مَن يهْدَ لِلنورِ المُبارَكِ يهْتَدِ

يا رَبِّ، فَاجْمَعنا مَعًا وَنَبِينا فى جَنَّةٍ تُثْنِى عُيونَ الحُسَّدِ

فى جَنَّةِ الفِردَوسِ، وَاكْتُبْها لَنا يا ذا الجَلالِ وَذا العُلا وَالسُّؤْددِ

وَاللهِ أَسمَعُ، ما حَييتُ، بِهالِكٍ إلا بَكَيتُ عَلَى النَّبِى مُحَمَّدِ

يا وَيحَ أَنْصارِ النبِى وَرَهْطِهِ بَعْدَ المُغَيبِ فى سَواءِ المُلْحَدِ

أما كعب بن مالك فقال:

وباكيةٍ حَرَّى تَحَرَّقُ بالبُكا وَتَلْطِمُ مِنها خَدَّها والمُقلَّدا

على هالِكٍ بَعْدَ النبى مُحَمَّدٍ وَلَوْ عَلِمَتْ لَمْ تَبْكِ إِلّا محمَّدا

فُجِعْنا بخَيرِ النّاسِ حَيا وَميتًا وأَدْناهُ مِنْ رَبِّ البَريةِ مَقْعَدا

وأَفْظَعِهِمْ فَقْدًا على كُلِّ مُسْلِمٍ وأَعْظَمِهِمْ فى النّاسِ كُلِّهِمُويدَا

إذا كان منه القولُ كان مُوَفَّقًا أوكانَ حيا كان نورًا مجدَّدَا

لقد وَرِثَتْ أَخْلاقُهُ المَجْدَ والتُّقَى فلم تَلْقَهُ إِلّا رشيدًا ومُرْشِدَا

وعقب موت الرسول ثارت فتنة الردة، وانطلق الشعراء يقولون فى أحداثها ما عندهم من شعر. ومن عجائب الأمور أن نرى الحارث بن هشام، الذى أثنى عليه كعب بن الأشرف اليهودى لتفانيه فى محاربة الإسلام، ينصر رأى أبى بكر على رأى عُمَر فى محاربة المرتدين وعدم التساهل معهم ولو فى عقال كانوا يؤدونه لرسول الله عليه السلام، ويؤكد أنه هو التوفيق بعينه:

عُمَــــرٌ رأَى، وَاللَّـــــهُ بَـــالِغُ أَمْــرِهِ، رَأْيـــا، فَخَــالَفَ رَأْيَـــهُ الصِّـــدِّيقُ
إِذْ قَالَ: «غَمِّضْ فِى الْهُدَى إِغْمَاضَةً وَارْفُـقْ، فَإِنَّـكَ فِـى الأُمُـورِ رَفِيـقُ
وَتَجَـافَ عَـنْ أَمْـوَالِهِمْ»، فَـأَبَى لَـهُ، إلا قِتَـــالَ عَـــدُوِّهِ، التَّوْفِيـــقُ
إِنَّ الَّـذِى كَانَــتْ عَلَيــهِ نُفُوسُـنَا فِى الحَادِثَاتِ مِنَ الحُرُوبِ تَتُوقُ
قَـوْلُ الْخَلِيفَـةِ: «قَـاتِلُوا أَعْـدَاءَكُمْ إِنَّ الدَّنِيـــــةَ رِدَّةُ التَّعْوِيــــقِ
وَاللَّـهِ لَـوْ مَنَعُـوا عِقَـالا وَاحِـدًا أَوْ فَـاتَ مِمَّـا عِنْـدَهُ تُفْـرُوقُ
لَرَمَيـتُ قَوْمًـا بِالْقَبَائِـلِ وَالْقَنَـا مَنَعُـوا الزَّكَـاةَ، وَإِنَّنِـى لَمَحُـوقُ
بِقِتَـالِهِمْ فِـى قِلَّـةٍ أَوْ كَثْـرَةٍ مَـا دَامَ لِلسَّـهْمِ الـمُرَيشِ فُـوقُ»
أَعْظِـمْ بِنِعْمَتِـهِ عَلَيْنَـا نِعْمَـةً فِيهَـا لِـحَرْبِ عَـدُوِّنَا مَسْـبُوقُ!

وممن سعر فتنةَ الردة مالكُ بن نُوَيرَة، الذى حض قومه على عصيان السلطة والامتناع عن دفع الزكاة ما دامت السلطة ضعيفة، أما إذا ما خرجت من الردة منتصرة فلا بأس بأن يدخلوا فى الطاعة مع الداخلين:

وقـال رجـالٌ: سُـدِّدَ اليـومَ مالـكٌ وقـال رجـالٌ: مالـكٌ لم يسَـدَّدِ
فقلـتُ: دَعُـونِى. لا أبَـا لأبيكمـو! فلـم أُخْطِ رأيا فى المقامِ ولا النَّدِي
فـدونكموها. إنمـا هـى مـالكم مصـرَّرةً أخلافهـا لم تجـدَّدِ
وقُلتُ: «خذوا أموالكم» غيرَ خائفٍ ولا نـاظرٍ فيما يجـيءُ بـه غـدي
سـأجعلُ نفسـى دون مـا تحذرونـه وأرهـنكم يومًـا، بمـا قُلتُـهُ، يـدي
فـإن قـامَ بـالأمرِ المجـدَّدِ قـائِمٌ أطعنـا وقلنـا: الـدينُ ديـنُ محمـدِ

وكان أن قتله خالد بن الوليد، الذى أرسله الخليفة لمحاربته هو وأمثاله من المرتدين الشاغبين، فقال أحد بنى قومه يتهم خالدا بأنه إنما قتله ليفوز بزوجته الجميلة:

يـا معشـرَ الأشـهاد، إن أميركـم أَمَـرَ الغـداةَ بـبعض مـا لم يـؤْمَرِ
حَرُمَـتْ عليـه دماؤنـا بصـلاتنا واللّهُ يعلـم أننـا لم نَكْفُـرِ

إن تقتلونـــا تقتلـــوا إخـــوانكم	**والراقصـــاتِ إلى مِنًـــى والـــمَشْعَرِ**
يــا ابــن المغــيرة، إن فينــا خطــةً	**شـــنعاءَ فاحشـــةً، فخُـــذْها أو ذَرِ**

وقال آخر فى نفس المعني:

ألا قــل لحــى أوطئــوا بالســنابكِ:	**تطــاول هــذا الليــل مــن بعــد مالــكِ**
قضــى خالــدٌ، بَغْيــا، عليــه لعِرْسِــه	**وكــان لــه فيهــا هَــوًى قبــل ذلــكِ**
فأمضــى هــواه خالــدٌ غــير عــاطفٍ	**عِنَــان الهــوى عنهــا ولا متمالــكِ**
وأصــبح ذا أهــلٍ، وأصــبح مالــكٌ	**علــى غــير شــيء هالكًــا فــى الهوالــكِ**
فمــن لليتــامى والأرامــل بعــده؟	**ومــن للرجــال الــمُعْدِمين الصَّعَالِكِ؟**

ومن الأشعار التى قيلت فى فتنة الردة أيضا قول الفجاءة بن عبد ياليل يسخر من أبى بكر وانخداعه بما قاله له من أنه يريد قتال أهل الردة حتى حصـل منـه عـلى السلاح والجنود ثم قتل الجنود ووزع السـلاح والجيـاد عـلى السـفهاء مـن قبيلتـه، فحاربوا المسلمين وعاثوا فى الأرض فسادا:

ألم ترنـــى خـــدعتُ القـــوم حـــتي	**قَويــتُ بمــا أخــذتُ مــن الســلاحِ**
وقلـــتُ لـــه: أبـــا بكـــرٍ أَعِنِّـــي	**علـــى مَـــنْ بالبُزَاخَـــة والبِطَـــاحِ**
وقلــتُ لــه: أُقَاتِــلُ مَــنْ عصــاكم	**وأنصــركم علـــى أهـــل الجُنَـــاحِ**
فقَـــوّانى بكـــل أَقَـــبَّ نَهْـــدٍ	**وبَـــضٍ كالعقـــائق والرمـــاحِ**
فمِلْــتُ بهــا علــى الأَقْصَــينَ قتلًــا	**وفـــى الأَدْنَـــينَ آثـــارُ الجـــراحِ**
ولســت أرى علــى تقتيــل قــومي	**ولا قتـــل الأباعـــد مـــن جُنَـــاحِ**
ســوى أنـــى أقـــول إذا اعترتـــني	**همــومُ الــنفس مــن كــل النــواحي:**
ســـتلقانى المنيـــةُ مســـتقلًّا	**بأوتـــاد الرجـــال ذوى الســـلاحِ؟**
وتلـــك سَـــجِيتى. إنـــى وَلُـــوعٌ	**بإيثـــار الفســـادِ علـــى الصـــلاحِ**

فرد عليه الضحاك بن سفيان الكلابى قائلا:

أَلا يا لِقَوْمِى مِنْ حَوَادِثِ ذَا الدَّهْرِ	**وَإِجْمَـاعِ قَــوْمٍ لِلْفُجَـاةِ عَلَـى الْكُفْـرِ**

غَــوِى دَعَــا قَوْمًــا غُــوَاةً لِفِتْنَــةٍ وَقدْ يهْلِكُ الإِنْسَانُ مِنْ حَيثُ لا يدْرِي
فَقُلْــتُ لِقَــوْمِى: إِنَّــهُ قَــاذِفٌ بِكُــمْ غَدًا، يا بَنِى ذَكْوَانَ، فى لُجَّةِ الْبَحْرِ
وَإِنَّ لَكُــمْ مِنْــهُ، فَــلا تَبْعَثُــوا بِــهِ، لَيوْمًــا عَبُوسًــا هُــوأَحَــرُّ مِــنَ الْجَمْــرِ
فَلَمَّــا دَعَــاهُمْ كَــانَ أَوْدَعَ سِــرّهم إِلَيـهِ وَجِيـف الْخَيـل فِـى الْبَلَـدِ الْقَفْـرِ
أَلا قَاتَـلَ اللَّـهُ الْفُجَـاةَ! لَقَـدْ أَتَـى بِغَدْرَتِـهِ الكُبْـرَى عَظِيمًــا مِــنَ الأَمْــرِ
فَظَـنَّ بِـهِ الصِّـدِّيقُ ظَنًّـا، فَخَانَـهُ وَجَــرَّرَ أَثْــوَابَ الخِيانَـــةِ وَالـــمَكْرِ
وَلَــيسَ يحِيــقُ الــمَكْرُ إِلا بِأَهْلِــهِ كَـذَاكَ قَضَـاءُ اللَّـهِ فِـى مُحْكَـمِ الزُّبْـرِ
وَإِنِّـى لَأَسْـتَحْيِى مِـنَ اللّهِ أَنْ أُرَى عَلَـى كُـلِّ حَـالٍ نَاصِـبًا لأَبِـى بَكْـرِ
وَلا لابِسًا فِى النَّاسِ أَثْوَابَ غَدْرَةٍ أَذُوقُ بَهــا كَأْسًــا أَمَــرَّ مِــنَ الصَّــبْرِ
أَبَى اللّهُ لِى بَيعَ الْهُدَى بِضَلالَةٍ أُعَـابُ بِهَـا حَيـا وَمَـا دُمْـتُ فِـى قَبْرِي

أما أهل عمان فظلوا على طاعتهم وإخلاصهم للدولة والـدين لم ينقلبـوا مع المرتدين، وكان عمرو بن العاص فى ذلك الوقت واليا عليهم، فاسـتدعـاه أبو بكر كى يجهزه لقتال المرتدين، فخرج مع عمرو جماعة منهم يحرسونه حتـى بلـغ المدينة سالما، فقال أحد شعرائهم، وهو قتادة بن النعمان:

وَفَينــا لعَمْــرو يــومَ عَمْــرو كأَنَّــهُ طَريــدٌ نَفَتْــهُ مَــذْحِجٌ وَالسَّكاسِــكُ
رَســولُ رســولِ اللّه أَعْظِــمْ بحقِّــه علينــا! ومَــنْ لا يعـرفُ الحـقَّ هالِـكُ
ردَدْنــاهُ لم يشْــتَمْ لُــؤَى بــن غالِــبٍ بِــهِ الآنَ إِذ ضــاقَتْ عليــهِ المســالكُ
تَضَــمَّنَه منــا عِبَــادٌ وَجَيفَــرٌ وَظَــالِمٌ المــودى إِليــهِ الصَّــعالِكُ
فأَصــبحَ عَمْــرٌو بالمدينــةِ ســالِمًا يقهقِــهُ مَرْجِيــا عليــهِ الأَرَامِــكُ
وَنَحــنُ أُنــاسٌ يــأْمَنُ الجــارُ وَسْطَنا إِذا كـانَ يـوْمٌ كاسِفُ الشَّمْسِ حالِكُ
بِــذلكَ أَوْصَــى نســوةُ الخــير قومَــه وعمــرانُ والحــامى الحقيقــةِ مالِــكُ

وبعيدا عن الردة وفِتَنِها نجد للشماخ بن ضرار الهذلى أبياتا عجيبة يصور فيهـا غضب عروسه منه أول مقدمها إلى بيته ثم رجوعهـا إلى أهلهـا، وحَلِفـه لهـم أنـه لم يظلمها فى شيء:

أَلا أَصْبَحَتْ عِرْسِى مِنَ البَيْتِ جـامِحًـاً — عَلَـى غـيرِ شَـيءٍ: أى أَمْـرٍ بَـدَا لهـا؟

عَلـى حَـيرَةٍ كانَـتْ أَمِ الْعِـرْسُ جـامِحٌ؟ — وَكَيفَ، وَقَد سُقْنَا إِلى الحَى مالَها؟

وَلَـم تَـدْرِ مـا خُلْقِـى فَـتَعلَم أَنَّنـى — لَـدَى مُسْـتَقَرِّ البَيـتِ أُنعِـمُ بالَهـا

سَـتَرْجِعُ نَـدْمَى خَسَّـةَ الحَـظِّ عِنْـدَنا — كَمـا صَـرَمَتْ مِنّـا بِلَيـلٍ وِصـالَها

أَعَـدْوَ القِبِصَّـى قَبْـلَ عَـيرٍ وَمـا جَـرَى — وَلَمْ تَدْرِ ما خُبْرِى، وَلَم أَدْرِ ما لَها؟

وَكُنْـتُ إذا زالَـتْ رِحَالَـةُ صـاحِبٍ — شَـتِمْتُ بِـهِ حتـى لَقِيـتُ مِثالَهـا

وَجـاءَت سُـلَيمٌ قَضَّـها بِقَضِيضِـها — تُمَسِّـحُ حَـوْلى بِـالبَقِيعِ سِـبَالَها

يقولون لى: «اِحْلِفْ»، «فَلَسْتُ بِحَالِفٍ» — أُخـادِعُهُم عنهـا لِكَيمَـا أَنالَهـا

فَفَرَّجْـتُ كَـرْبَ الـنفسِ عَنّـى بِحَلْفَـةٍ — كَما شَـقَّتِ الشَّـقْرَاءُ عنهـا جِلالَها

بِصَـاعِقَةٍ لَـوْ صـادَفَتْ رَمْـلَ عـالِجٍ — وَرَمْـلَ الغَنَـا يومًـا لَهالَـتْ رِمالَهـا

فَقـالوا: «أَعِـدْها نَستَمِعْ كَيفَ قُلتَهـا» — فَقـالَ كَـثِيرٌ: «لا نُحِـلُّ عِلالَهـا»

ولسُحَيم عبد بنى الحسحاس، وهـو عبـد حبشـى أو نُـوبِى الأصـل، شِعْرٌ مفحشٌ منه القطعة التالية التى يصور فيها، صدقا أو زعـما، مـا صـنعه فى ليلـة مـن الليالى مع بنت سيده فوق رمال الصحراء:

وبِتْنَـا وِسَـادَانا إلى عَلَجَانَـةٍ — وحِقْـفٍ تَهَـاداه الريـاحُ تهاديـا

تُوَسِّـدُنى كفَّـا، وتَثْنِـى بمعصـمٍ — علـى، وتَحْـوِى رِجْلَهـا مِـنْ ورائيـا

وهَبَّـتْ شَـمَالٌ آخِـرَ الليـلِ قُـرَّةٌ — ولا ثَـوبَ إلا دِرْعُهـا وردائيـا

فمـا زال ثَـوبى طَيِّبًـا مـن نسـيمها — إلى الحَوْل حتى أَنْهَجَ الثوبُ باليا

ومن شعره العجيب هذه الأبيات التى يصف فيها ما يعتمل فى نفسه تجاه تجاهل الجميلات له وفوزه فى آخر المطاف رغم ذلك بقلوبهن:

ألا نادِ، فى آثارهنَّ، الغوانيا — سُقِينَ سِمَامًا! ما لهنَّ وما ليا؟

وراهُنَّ ربِّى مثلما قد وَرَيْنَنِى — وأحْمَى على أكبادهنَّ المكاويا

وقائلةٍ والدَّمعُ يحدرُ كحلها: — أهذا الذى وَجْدًا يبَكِّى الغوانيا؟

أَشارَت بِمِدْرَاها وَقالَت لِتِرْبِها: — أَعَبْدُ بَنى الحَسْحَاس يزْجِى القَوافِيا؟

رَأَت قَتَبًا رَثًّا وسَحْقَ عَباءةٍ — وأَسْوَدَ مِمّا يمْلِكُ الناسُ عاريا

وَما ضَرَّنى إلا كَما ضَرَّ خِضْرِمًا — مِنَ البَحْرِ خُطّافٌ حسا منه ماضِيا

فَقُلْ لِلغوانى: ما لَهُنَّ وَما لِيا؟ — تَسَاقَيْنَ سمًّا إذ رَأَيْنَ حَيالِيا

يرَجِّلْنَ أَقوامًا، وَيترُكْنَ لِمَّتى — وَذاكَ هَوانٌ ظاهِرٌ قد بَدَا لِيا

أَغالِى، أَعلى اللّهُ كَعْبَكِ عالِيا — وَرَوَّى بِرَيّاكِ العِظَامَ البَوالِيا

أغالى، لو أَشْكو الّذى قَدْ أَصابَنى — إلى جَبَلٍ صَعْبِ الذُّرَى لانْحَنَى لِيا

أغالى، ما شَمْسُ النَّهارِ إذا بَدَت — بأَحْسَنَ مِما بَينَ بُرْدَيكِ غالِيا

أَغالِى، عُلِّينى بِرِيقِكِ عَلَّةً — تكُنْ رَمَقِى أَو (نَفْسى) عَن فُؤَادِيا

تحَدَّرْنَ مِن تِلْكَ الهِضَاب عَشِيةً — إلى الطَّلْعِ يبْغِين الهوى وَالتَّصَابِيا

فَلَو كُنْتُ وَرْدًا لَوْنُهُ لَعَشِقْنَنى — وَلَكِنَّ رَبِّى شانَنى بسَوَادِيا

فَما ضَرَّنى أن كانَتِ امِّى وَلِيدةً — تصُرُّ وتبْرِى بِاللِّقَاحِ التَّوادِيا

تعاوَرْنَ مِسْواكى وأَبْقَينَ مُذْهَبًا — مِنَ الصَّوْغِ فى صُغْرَى بَنانِ شِمالِيا

وقُلنَ: أَلا يا العَبْنَ ما لَم يرُدَّنا — نُعَاسٌ، فإِنَّا قد أَطَلْنا الثَّنائِيا

لَعِبْنَ بِدَكْداكٍ خَصِيبٍ جَنابُهُ — وأَلْقَينَ عَن أَعْطافِهِنَّ المَرَادِيا

وَقُلْن لِمِثْلِ الرِّئْم: أَنْتِ أَحَقُّنا — بنَزْعِ الرِّداء إن أَرَدْتِ تخَالِيا

فَقامَتْ وَأَلْقَتْ بِالخِمارِ مُدِلَّةً — تَفَادَى القِباحُ السودُ مِنها تَفَادِيا

وَما رِمْنَ حَتّى أَرْسَلَ الحَى داعِيا — وَحَتَّى بَدَا الصُّبْحُ الذى كان تالِيا

تَمَـارَين حَتَّـى غـابَ نَجْـمٌ مُكَبَّـدٌ   وَحَتَّـى بَـدَا الـنَّجْمُ الَّـذى كـانَ تالِيـا
وَحَتّى استبانَ الفَجْرُ أشقَرَ ساطِعًا   كَـأَنَّ عَلَـى أَعْـلاهُ سِـبًّا يمَانِيـا
فـأَدْبَرنَ يخْفِضْنَ الشُّخُوصَ كأنَّمـا   قَـتلْنَ قَتِيلًـا أو أَصَـبْنَ الـدَّواهِيا
وأَصْبَحْنَ صَرْعَى فى البُيوتِ كأنَّما   شَـرِيْنَ مُـدَامًا مـا يجِـبْنَ الـمُنادِيا

ومن شعر أبى ذُؤَيبِ الـهُذَلِى، صاحب العينية الطويلـة المشـهورة فى التفجـع على أولاده الأربعة، اخترت هذه المقطوعة العجيبة التى تحرق القلب بنارها الهادئة. وهى فى رثاء ابن عم له قُتِل، اسمه نُشَيبَة:

يقولونَ لى: «لوكـانَ بِالرَّمْلِ لَم يمُـتْ   نُشَـيبَةُ»، وَالطَّـرّاقُ يكْـذِبُ قِيلُهـا
وَلَوْ أَنَّنى استَوْدَعْتُهُ الشَّمْسَ لارْتَقَتْ   إِلَيـهِ المنايـا عَينُهـا وَرَسُـولُها
وَكُنـتُ كَعَظْـمِ العاجِمـاتِ اكتَنَفْنَـهُ   بِأَطْرافِـهِ حَتّـى اسـتَدَقَّ نُحُولُهـا
عَلى حينَ ساواهُ الشَّبابُ، وَقارَبَتْ   خُطَاى، وَخِلْتُ الأَرضَ وَعْثًا سُهُولُها
حَـدَرْناهُ بِـالأَثوابِ فـى قَعْـرِ هُـوَّةٍ   شَديدٍ عَلى ما ضَمَّ فى اللَّحْدِ جُولُها

وله فيه أيضا:

لَعَمْـرُكَ إنـى يـومَ فارَقْـتُ صاحبى   عَلَـى أنْ أراه قافلًـا لَشَـحِيحُ
وإنّ دمـوعى إِثْـرَهُ لكـثيرةٌ   لَـوَانَّ الـدموع والـزفير يـريحُ
فـواللّه لا أنسـى ابـن عـمٍّ كأنـه   نُشَـيبَة مـا دام الحمـام ينـوحُ
فـإن تُمْـسِ فـى رَمْـسٍ بِرَهْـوَةَ ثاويـا   أَنِيسُـكَ أَصـداءُ القبـور تصـيحُ
على الكُرْه منـى مـا أكفكـفُ عَبْـرَةً   ولكـنْ أُخَلِّـى سِـرْبَها فتَسـيحُ
فمـا لـكَ جـيرانٌ، ومـا لـك ناصـرٌ   ولا لَطَـفٌ يبكـى عليـك نصـيحُ

ولدينا أيضا أبو مِحْجَنٍ الثَّقَفِى، الـذى أسـلم فى آخـر حيـاة الرسـول، وكـان مغرما بالخمر غراما بالغا لا يستطيع أن يقلع عنها، وقد حُـدَّ فيهـا عـلى عهـد عمـر مرارا:

ألا سَـقِّنى يـا صـاحِ خمـرًا، فـإنّنى بمـا أنـزلَ الـرحمنُ فـى الخمـرِ عـالمُ

وجُـدْ لى بهـا صِـرْفًا لأَزْدادَ مَأْثَمًـا ففـى شُـرْبِها صِـرْفًا تـتِمُّ المـآثمُ

هـى النّـارُ إلّـا أنّنـى نلـتُ لـذةً وقضَّـيتُ أوطـارى، وإن لام لائـمُ

لكنْ تاب الله عليه، فاستطاع أن يتوقف عن شربها تماما رغم إغراء رفقائه القدامى أن يعاود شربها معهم، وقال فى ذلك شعرا جميلا منه الأبيات التالية:

أَلَم تَرَنِى وَدَّعْتُ ما كنتُ أشربُ من الخمر، إذ رأسى، لَكَ الخيرُ، أشْيبُ ؟

وكنـتُ أُرَوِّى هـامَتى مـن عُقَارِهـا إذِ الحـدُّ مـأخوذٌ، وإذ أنـا أُضْـرَبُ؟

فلمّـا دَرَوْا عنِّـى الحـدودَ تركتُهـا وأضـمرتُ فيهـا الخـيرَ، والخـيرُ يطْلَـبُ

وقـال لى النـدمانُ لمـا تركتُهـا: « أأَلْجِـدُّ هـذا مِنْـكَ أم أنـتَ تلعـبُ؟ »

وقالوا: « عجيبٌ تركُكَ اليومَ قهوةً » كـأنّى مجنـونٌ، وجِلْـدِى أجـربُ

سـأتركُها للّهِ ثـم أذُمهـا وأهجرُهـا فـى بيتهـا حيـثُ تُشْـرَبُ

وهذا الوعى بحرمة بنت الحان حتى عند من لا يصبرون عليها هو شيء جديد على شعر الخمر لم يكن يعرفه الجاهليون، إذ لم تكن الخمر حراما فى الوثنية كما هى فى الإسلام، وإنْ نَفَرَ بعض الجاهليين من شربها حفاظا على مروءتهم، إذ هو مجرد تحرُّج اجتماعى، وليس تأثما دينيا.

وكان أبو محجن محبوسا يوم القادسية فى بيت سعد بن أبى وقاص قائد الجيش بسبب شرب الخمر، فلما هاجت الحرب تململ فى قيوده وأنشأ قصيدة رائعة يعبر فيها عن شوقه إلى الاشتراك فى المعركة جهادا فى سبيل الله، فسمعته زوجة سعد فأطلقته على أن يعود بعد الحرب فيضع القيد فى قدميه ويتوب عن الخمر، وهو ما حدث فعلا بعدما أبلى فى ذلك اليوم العصيب بلاء عظيما، مما يدل على أن أمر النفس البشرية معقد أشد التعقيد. فها هو ذا رجل مغرم بالخمر غراما فاحشا، لكنه حريص مع ذلك على المشاركة فى الجهاد ونصرة الإسلام لا يستطيع أن يهدأ فى كبوله إلا إذا حمل السيف وحارب وتعرض للشهادة. ولنقرأ هذه الدرة الفريدة:

كَفَى حَزَنًا أن تُطْعَنَ الخيلُ بالقَنَا وأُصْبِحَ مَشْدودًا على وَثاقِيا

إذا قُمْتُ عَنّانى الحديدُ، وأُغْلِقَتْ مَصَارِعُ مِنْ دونى تُصِمُّ المُنَادِيا

وقد كنتُ ذا مالٍ كثيرٍ وإخوةٍ فأصبحتُ منهم واحدًا لا أخَا لِيا

فإن مُتُّ كانت حاجةً قد قَضَيتُها وخَلّفْتُ سَعْدًا وحدَه والأمانيا

وقد شَفَّ جسمى أننى كلَّ شارقٍ أعالجُ كَبْلًا مُصْمَتًا قد بَرَانِيا

فَلِلَّهِ دَرِّى يومَ أُتْرَكُ مُوثَقًا وتَذْهَلُ عنى أُسْرتى ورجاليا

حبيسًا عن الحرب العَوَان، وقد بَدَتْ وإعمالُ غيرى يومذاك العَواليا

ولِلَّهِ عهدٌ لا أَخِيسُ بعهدِه لئن فُرِجَتْ ألا أزور الحَوَانِيا

هَلُمَّ سلاحى، لا أبا لك. إننى أرى الحربَ لا تزدادُ إلا تماديا

ويقول حُمَيد بن ثور الهلالى مخاطبا زوجته، وكانت تكره منه بسط يده لمن يقصده من ذوى الحاجات:

لَقَد أَمَرَتْ بِالبُخْلِ أُمُّ مُحَمّدٍ فَقُلتُ لَها: حُثّى عَلى البُخْلِ أَحْمَدا

فإنى امرؤٌ عَوَّدْتُ نَفسِى عادةً وَكُلُّ امرِيءٍ جارٍ عَلى ما تَعَوّدا

أَحِينَ بَدَا فى الرأسِ شَيبٌ، وأَقبَلَتْ إلى بَنُو عَيلان مَثْنَى وَمَوْحَدَا

رَجَوْتِ سِقَاطى واعتِلالى وَنَبْوَتى؟ وَراءَكِ عَنّى طالِقًا، وارْحَلى غَدَا

وقال يصف ذئبا كان يتبع الجيش طمعا فى أن يتخلف عن الجنود أحدٌ، فيثب عليه ويفترسه:

ينامُ بإحدى مُقلَتَيهِ، وَيتّقى بأُخْرَى الأَعادِى، فَهوَ يقظانُ هاجِعُ

إذا قام أَلْقَى بَوْعَه قدرَ طولِهِ وَمدَّد مِنهُ صُلْبَه وَهْوَ بائِعُ

وَفَكّكَ لَحْيِيهِ، فَلمّا تعادَيا صَأَى ثُمَ أَقْعَى، والبِلادُ بلاقِعُ

فَظلّ يراعِى الجيشَ حَتّى تغَيبَتْ حُبَاشٌ، وَحالَتْ دونَهُنَّ الأَجارِعُ

هُوَ البَعِلُ الدّانِى مِنَ الناسِ كالذى ... لَـهُ صُحْبَةٌ، وَهْوَ العَدُوُّ المُنازِعُ

خَفِيفُ المِعَا إلا مَصِيرًا يبُلُّهُ ... دَمُ الجَوْفِ أو سُؤْرٌ من الحَوْضِ ناقِعُ

إذا ما غَدَا يوْمًا رأيتَ غَيايةً ... مِنَ الطَّيرِ ينْظُرنَ الّذِى هُوَ صانِعُ

فَهَمَّ بأَمْرٍ ثُمَّ أَزمَعَ غَيرَهُ ... وإن ضاقَ أمرٌ مَرَّةً فَهْوَ واسِعُ

ومن شعر ربيعة بن مقروم الضبى الذى يسرد بعضا من ذكرياته فى الشرب والحرب والجهاد ومجالسة الملوك ننتخب الأبيات التالية:

وَلَقَد شَهِدْتُ الخَيلَ يومَ طِرَادِها ... بسَلِيمِ أَوْظِفَةِ القَوائِمِ هَيكَلِ

مُتَقاذِفٍ شَنِجِ النَّسَا عَبْلِ الشَّوَى ... سَبّاقِ أَنْدِيةِ الجِيادِ عَمَيْثَلِ

لَولا أُكَفْكِفُهُ لَكَادَ، إذا جَرَى ... مِنهُ الغَرِيمُ، يدُقُّ فَأسَ المِسْحَلِ

وَإذا جَرَى مِنهُ الحَمِيمُ رَأَيتَهُ ... يهْوِى بِفارِسِهِ هُوِى الأَجْدَلِ

وَإذا تُعَلَّلُ بالسِّياطِ جِيادُنا ... أَعْطاكَ نائِلَهُ، وَلَمْ يتَعَلَّلِ

فَدَعَوا: «نَزَالِ»، فَكُنْتُ أَوَّلَ نازِلٍ ... وَعَلامَ أَركَبُهُ إذا لَمْ أَنْزِلِ؟

وَلَقَد جَمَعْتُ المالَ مِنْ جَمْعِ امرِئٍ ... وَرَفعتُ نَفْسِى عن لَئِيمِ المَأْكَلِ

ودَخَلتُ أَبْنِيةَ المُلوكِ عَلَيهِمو ... وَلَشَرُّ قَوْلِ المرءِ ما لم يفْعَلِ

وَشَهِدْتُ مَعْرَكَةَ الفُيولِ، وَحَوْلَها ... أَبْناءُ فارِسَ بَيضُهُمْ كَالأَعْبَلِ

مُتَسَرْبِلِى حَلَقِ الحديدِ كَأَنَّهُم ... جُرْبٌ مُقارِفَةٌ عَنِيةَ مُهْمِلِ

فَحَبَسْتُ مُحْتَسِبًا سَيالًا، صابِرًا ... نَفْسِى رَجَاءَ ثَوَابِ رَبٍّ مُفْضِلِ

وَلَرُبَّ ذِى حَنَقٍ عَلَى كَأَنَّما ... تَغْلِى عَداوَةُ صَدْرِهِ كَالمِرْجَلِ

أَوْجَيتُهُ عَنِّى، فَأَبْصَرَ قَصْدَهُ ... وَكَوَيتُهُ فَوْقَ النَواظِرِ مِنْ عَلِ

وَأَخِى مُحافَظَةٍ عَصَى عُذّالَهُ ... وَأَطاعَ لَذَّتَهُ مُعِمٍّ مُخْوِلِ

هَشٍّ يراحَ إلى النَّدَى نَبَّهْتُهُ ... وَالصُّبْحُ ساطِعُ لَوْنِهِ لَم ينْجَلِ

فَأَتَيتُ حانوتًا بِهِ فَصَبَحْتُهُ ... مِن عانِقٍ بِمِزاجِها لَم تُقْتَلِ

صَهْباءَ صافِيةِ القَذَى أَغْلَى بِها ... يسِرٌ كَرِيمُ الخِيمِ غَيرُ مُبَخَّلِ

وَلَقَد أَصَبْتُ مِنَ المَعِيشَةِ لِينَها ... وَأَصابَنِى مِنهُ الزَّمانُ بِكَلْكَلِ

فَــإذا وَذاكَ كَأَنَّــهُ مــا لَــمْ يكُــنْ إلا تَـــذَكُّرهُ لِمَـــنْ لم يجْهَــل

وَلَقَــد أتَــتْ مائــةٌ عَلَــى أعُــدُّها حَوْلًــا فَحَوْلًــا إنْ بَلَاهــا مُبْتَــل

فِــإذا الشَــبابُ كَمِبْـذَلِ أنْضَــيتُهُ وَالــدَّهْرُ يبْلِــى كُــل جِــدَّة مِبْــذَلِ

ولعمرو بن معديكرب قصيدة بديعة يفتخر فيها ببطولته وشجاعته ومناقبه الإنسانية الرفيعة، وينْسب بلَمِيس:

لَـــيسَ الـــجَمالُ بِمِئْـــزَرٍ فــاعْلَمْ، وإنْ رُدِّيــتَ بُـــرْدَا

إنَّ الجَمَـــالَ مَعَـــادِنٌ ومَنَاقِـــبٌ أَوْرَثْـــنَ مَجْـــدَا

أَعْـــدَدْتُ لِلحَـــدَثان ســـا بِغَـــةً وعَـــدَّاءً عَلَنْـــدَي

نَهْـــدًا وذا شُـــطَبٍ يقُـــدْ دُ البَـــيضَ والأَبْـــدَانَ قَـــدًّا

وَعَلِمْـــتُ أنِّـــى يـــومَ ذا كَ مُنَـــازِلٌ كَعْبًـــا ونَهْـــدَا

قَــوْمٌ إذا لَبِسُــوا الحَدِيـــدَ تَنَمَّـــرُوا حَلَقًـــا وقِـــدًّا

كُـــلُّ امْـــرِيءٍ يجْـــرِى إلى يـــوْمِ الهيـــاجِ بِمـــا اسْـــتَعَدَّا

لَمَّـــا رَأَيـــتُ نِســـاءَنا يفْحَصْـــنَ بـــالمَعْزاءِ شَـــدَّا

وبَـــدَتْ لَمِـــيسُ كأنَّهـــا قَمَـــرُ السَّـــماءِ إذا تَبَـــدَّي

ويَـــدَتْ مَحاسِـــنُها التـــى تخْفَـــى، وكـــانَ الأَمْـــرُ جِـــدًّا

نـازَلْـــتُ كَبْشَـــهُمُو، ولَـــمْ أرَ مِـــن نِـــزالِ الكَـــبْش بُـــدًّا

هُــمْ ينْــذِرُونَ دَمِــى، وأَنْـــذِرُ إنْ لَقِيـــتُ بـــأَنْ أَشُـــدَّا

كَـــمْ مِـــن أَخٍ لِـــى صـــالِحٍ بَوَّأْتُـــهُ بِيـــدَى لَحْـــدَا

مــا إنْ جَزِعْــتُ ولا هَلِعْـــتُ ولا يـــرُدُّ بُكَـــاى زَنْـــدا

أَلْبَسْـــتُهُ أثوابَـــهُ وحُلِقْـــتُ، يـــومَ خُلِقْـــتُ، جَلْـــدَا

أُغْنِـــى غَنَـــاءَ الذَّاهِبِيـــنَ، أعـــدُّ لِلْأَعْـــداءِ عَـــدَّا

ذَهَـــبَ الـــذين أُحِـــبُّهُمْ وبَقِيـــتُ مِثْـــلَ السَّـــيفِ فَـــرْدَا

كذلك له أشعار يشكو فيها قلة عطائه فى الفتوح رغم بسالته وتفانيه فى حرب الأعداء، ويذم سعد بن أبى وقاص دون حق، متجاهلا بلاءه النبيل فى سبيل الله منذ أيام الإسلام الأولى، وناسيا بطولاته الحربية الفذة:

أَلَـمّ خيـالٌ مـن أمَيمَـة مَوْهِنًـا وقـد جَعَلَـتْ أولَـى النّجـومِ تَغُـورُ

ونحـن بصـحراءِ العُـذَيب، ودارُهـا حجازيـةٌ. إنَّ المَحَـلَّ شَـطِيرُ

تَحِـنُّ بباب القادسـية نـاقتى وسـعدُ بـنُ وقّـاصٍ علـى أمـيرُ

وسـعدٌ أمـيرٌ شـرُّهُ دون خـيرِهِ طويـلُ الشَّـذَا كـابِى الزنـادِ قصـيرُ

تـذكَّرْ، هَـداكَ اللّهُ، وَقْـعَ سـيوفنا بباب قُـدَيس، والـمَكَرُّ عسـيرُ

عشـيةَ وَدَّ القـومُ لـو أنَّ بعضـهم يعَـارُ جنـاحَى طـائرٍ فـيطيرُ

ومثل ذلك قوله:

أَمِـنْ ليلـى تَسَـرَّى، بعـد هَـدْءٍ، خيـالٌ هـاجَ للقلـبِ ادِّكـارًا؟

يـذكّرنى الشـبابَ وأُمَّ عمـروٍ وشـاماتِ الـمَرابعِ والـدِّيارا

وَحَيـا مـن بنـى صَعْبِ بـن سـعدٍ سُـقُوا الأَرْصـادَ والـدِّيَمَ الغِـزَارا

ألا أَبْلِـغْ أمـيرَ القـومِ سـعدًا فَقَـدْ كَـذَبَتْ أَلِيتُـهُ وَجَـارا

وحَـرَّق نابَـهُ ظُلمًـا وجهلًـا عَلَـى، فقـد أتـى ذَمًّـا وعـارا

هُبِلْـتَ! لقـد نَسِـيتَ جِـلادَ عمـروٍ وأنـت كخـامعٍ تَلِـجُ الوجَـارا

أُطَـاعِنُ دونَـكَ الأَعـداءَ شَـزْرًا وأَغْشَـى البِـيضَ والأَسَـلَ الحِـرَارا

ببـابِ القادسـية مُسـتميتًا كَلَيـثِ أُرَيكَـةٍ يـأْبَى الفِـرارا

أكُـرُّ عليهمُـو مُهْـرِى وأحمـى، إذا كرهـوا، الحقـائقَ والـذِّمارا

جـزاكَ اللّهُ فـى جنبـى عُقُوقًـا وبعـد المـوت زَقُّومًـا ونـارا

وحين مات عثمان بن عفان رثاه الراثون، ومنهم كعب بن مالك، الذى نختار له الأبيات التالية فى رثاء الصحابى الجليل، وقد سبق أبا نواس فى الإنكار على من يبكى على الأطلال والدِّمَن كما هو واضح فى البيت الأول:

يــا لَلرِّجــالِ لأمــرٍ هــاجَ لى حَزَنًــا ... لقد عَجِبْتُ لِمن يبْكِى على الدِّمَنِ!

إنــى رأيــتُ قتيــلَ اللّهِ مُضْـطَهَدًا ... عثمان يهْدَى إلى الأجداثِ فى كفنِ

يــا قَاتَــلَ اللّهُ قومًــا كــان أمرُهُمــو ... قَتْـلَ الإمـام الزكـى الطيـب الـرُّدُنِ

لم يقتلــوهُ علـــى ذنـــبٍ ألمَّ بـــهِ ... إلا الـــذى نطقـــوا زُورًا، ولم يكُـــنِ

وفى رثائه أيضا يقول أيمن بن خُرَيم:

تفاقــد الــذابحو عثمــانَ ضــاحيةً ... أى قتيـــلٍ حـــرامٍ، ذُبِّحُـــوا، ذَبَحُـــوا؟

ضَحَّوْا بعثمـانَ فـى الشهر الحرام، ولم ... يخْشَـوْا علـى مطمـح الكـفِّ الـذى محـوا

مــاذا أرادوا، أضــل اللّه ســعيهمو، ... من سَفْح ذاك الدم الزاكى لذى ســفحو

فاستوردتْهم سيوف المسلمين على ... تمــام ظِــمْءٍ كمــا يسْــتَوْرَد النضــح

إن الـــذين تَوَلَّـــوْا قتلـــه سَـــفَهًا ... لَقُـــوا أثَامًـــا وخســـرانًا، فمـــا رَبِحُـــوا

وبالمثل رثاه حُمَيد بن ثور الهلالى فقال:

إن الخلافــة لمــا أظعنــتْ ظعنــوا ... من أهل يثرب، إذ غيرَ الهدى سلكوا

صــارت إلى أهلـها مـنهم وأورثهـا ... لمَّا رأى اللّهُ فى عثمانَ ما انتهكوا

السَّــافكى دمِــه ظلمًــا ومعصــيةً ... وأى دمٍ، لا هُدُوا من غيهم، سَفَكوا؟

والهــاتكى ســتر ذى حــقٍّ ومحرمــةٍ ... فـأى سـترٍ علـى أشـياعهم هَتَكـوا؟

والفــاتحى بــابِ قِيـلٍ لا يــزال بــه ... قَتْـــلٌ بقتْـــلٍ إلى دهـــرٍ ومُعْتَـــرَكُ

ولأم الهيثم بنت العريان النخعية قصيدة حزينة فى مقتل على بـن أبـى طالـب كرم الله وجهه، وإن كانت بعض أبياتها تنسب أيضـا لأبـى الأسـود الـدؤلى. وهـذا نصها:

ألا يـــا عـــينُ، وَيحَـــكِ، أَسْـــعِدِينا ... ألا تبكــــى أمــــير المؤمنينــــا؟

تُبَكِّـــــى أُمُّ كلثــــومٍ عليــــــه ... بعَبْرَتهـــا، وقـــد رأت اليقينـــا

ألا قـــل للخـــوارج حيـــث كـــانوا ... فـــلا قَـــرَّتْ عيـــون الشـــامتينا:

أفـــى شـــهر الصـــيام فجعتمونـــا | بخـــير النـــاس طُـــرًّا أجمعينـــا؟
قتلـــتم خـــير مَـــنْ رَكِـــبَ المطايـــا | وذلّلَهـــا ومَـــنْ ركـــب الســـفينا
ومَـــنْ لَـــبِس النِّعَـــالَ ومـــن حـــذاها | ومـــن قـــرأ المثـــانى والمِئِينـــا
فكـــل مناقـــب الخـــيرات فيـــه | وحـــبُّ رســـول رب العالمينـــا
لقـــد علمـــت قـــريشٌ حيـــث كانـــت | بأنـــك خيرُهـــا حســـبًا ودينـــا
إذا اســـتقبلتَ وجـــه أبـــى حســـينٍ | رأيـــتَ البـــدر فـــوق الناظرينـــا
وكنـــا قبـــل مقتلـــه بخـــيرٍ | نـــرى مـــولى رســـول الله فينـــا
يقـــيم الحـــق لا يرتـــاب فيـــه | ويعـــدل فـــى العِـــدَا والأقربينـــا
ولـــيس بكـــاتمٍ علمًـــا لديـــه | ولم يخْلَـــقْ مـــن المتجبرينـــا
كـــأن النـــاس إذ فقـــدوا عليـــا | نَعَـــامٌ حـــارَ فـــى بلـــدٍ ســـنينا
فـــلا تشـــمتْ معاويـــةُ بـــن صـــخرٍ | فـــإن بقيـــةَ الخلفـــاء فينـــا

أما الحطيئة فإنى مورد له الأبيات التالية من قصيدة فى هجاء الزبرقان بن بدر، الذى لم تحسن زوجته فى غيابه استقبال الشاعر وأسرته، فتحول عنهم إلى قريبهم بغيضٍ، فأكرمه، فمدحه وقرّع الزبرقان قائلا إنه كان بمستطاعه، لو كانت زوجته قامت بالواجب نحوه، أن يحظى هو بهذا المديح، لكن الفرصة قد ضاعت عليه:

وَاللّهِ مـا مَعْشَـرٌ لامُـوا امْـرَأً جُنُبًـا | فـى آلِ لَـأْىِ بْـنِ شَـمّاسٍ بِأَكْيـاسِ
مـا كـانَ ذَنْـبُ بَغِـيض، لا أَبـا لَكُمُـو، | فـى بـائِسٍ جـاءَ يحْـدُو آخِـرَ النـاسِ؟
لَقَـدْ مَرَيتُكُمُـو لَـوْ أَنَّ دِرَّتَكُـم | يوْمًـا يجِـيءُ بِهـا مَسْـحى وَإِبْسَاسـي
وَقَـد مَـدَحتُكُمُو عَمْـدًا لأُرْشِـدَكُم | كَيمَـا يكُـونَ لَكُـم مَتْحِـى وَإِمراسـي
وَقَـد نَظَرتُكُمُـو إعْشـاءَ صـادِرَةٍ | لِلخِمْسِ طـالَ بِهـا حَبْسـى وَتَنْسَاسـي
فَمـا مَلَكْـتُ بِـأَنْ كانَـت نُفوسُـكُمُو | كَفـارِكٍ كَرِهَـتْ ثَـوْبِى وَإِلباسـي
لَمّـا بَـدا لِـى مِـنكُم غَيـبُ أَنفُسِـكُم | وَلَـم يكُـنْ لِجِراحِـى مِنكُمُـو آسـي

أَزمَعْـتُ يأْسًـا مُبِينًـا مِـن نَوَالِكُمُـو | وَلَـنْ تَـرَى طـارِدًا لِلحُـرِّ كَالْيـاسِ
أنـا ابـنُ بَجْـدَتِها عِلْمًـا وَتَجْرِبَـةً | فَسَـلْ بِسَـعْدٍ تَجِـدْنى أَعْلَـمَ النـاسِ
مـا كـانَ ذَنْـبُ بَغـيضٍ أَن رَأى رَجُلًـا | ذا فاقَـةٍ عـاشَ فـى مُسـتَوْعرٍ شـاسِ؟
جـارٌ لِقَـوْمٍ أَطـالوا هُـونَ مَنْزِلِـهِ | وَغـادَرُوهُ مُقيمًـا بَـيْنَ أَرْمـاسِ
مَلّـوا قِـراهُ، وَهَرَّتْـهُ كِلابُهُمُـو | وَجَرَّحُـوهُ بِأَنْيـابٍ وَأَضْـراسِ
دَعِ المَكـارِمَ لا تَرْحَـلْ لِبُغْيَتِهـا | وَاقْعُـدْ، فَإِنَّـكَ أَنْـتَ الطـاعِمُ الكاسي

والآن أحب أن أتريث قليلا إزاء القصيدة التالية التى دار حول نسبتها وزمن نظمها أَخْذٌ ورَدٌّ فى القديم، وفى الحديث أيضا إلى حد ما:

الحمـد لله، لا شـريكَ لـهُ | مَـن لم يقُلْهـا فنَفْسَـه ظَلَمـا
الـمُولِجِ الليـلَ فـى النهـارِ | وَفِـى الليـلِ نَهـارًا يفـرِّجُ الظُّلَمـا
الخـافِضِ الرافِـعِ السَّـماءَ عَلـى الـ | أَرْضِ، وَلَـمْ يـبْنِ تَحْتَهـا دِعَمـا
الخـالِقِ البـارِئِ المُصَـوِّرِ فـى الـ | أَرْحـامِ مـاءً حَتّـى يصِـيرَ دَمـا
مِـن نُطْفَـةٍ قَـدَّها مُقـدِّرُها | يخلُـقُ مِنهـا الأَبْشـارَ وَالنَّسَـما
ثُـمَّ عِظامًـا أَقَامَهـا عَصَـبٌ | ثُمَّـتَ لَحْمًـا كَسَـاهُ فَالْتَأَمـا
ثُـمَّ كَسَـا الـرِّيشَ والعَقـائِقَ أَبْـ | ـشارًا وَجِلْـدًا تَخَالُـهُ أَدَمـا
والصـوتَ واللـونَ وَالمَعـايشَ وَالـ | أَخـلاقَ شَـتَّى وَفَـرَّقَ الكَلِمـا
ثُمَّـتَ لا بُـدَّ أَنْ سَـيجْمَعُكُم | وَاللَّـهِ جَهْـرًا شَـهادَةً قَسَـما
فَـائتَمِرُوا الآنَ مـا بَـدا لَكُمُـو | وَاعْتَصِـمُوا إِنْ وَجَـدْتُمُو عِصَـما
فِـى هـذِهِ الأَرضِ وَالسَّـماءِ، وَلا | عِصْـمَةَ مِنْـهُ إِلّـا لِمَـنْ رَحِمـا
يـا أَيهـا النـاسُ، هَـل تَـرَوْنَ إِلى | فَـارِسَ بـادَت، وَخَـدُّهَا رَغِمـا؟
أَمْسَـوْا عَبِيـدًا يرْعَـوْنَ شـاءَكُمُو | كَأَنَّمـا كـانَ مُلْكُهُـمْ حُلُمـا
مِـن سَـبَإِ الحاضِـرِينَ مَـأْرِبَ إِذ | يبْنُـونَ مِـن دُونِ سَـيلِهِ العَرِمـا
فَمُزِّقُـوا فِـى الـبِلادِ واعترَفُـوا الـ | ـهُونَ وَذاقُـوا البَأْسـاءَ والعَـدَما

وَيُــدِّلُوا السِّــدْرَ وَالأَرَاكَ بِـــهِ الخَمْـــ ـــطَ، وَأَضْــحَى البُنْيـــانُ مُنْهَــدِما

يـــا مالِــكَ الأَرْضِ وَالسَّـــماءِ، وَمَـــن يفْـــرَقْ مِـــنَ اللّهِ لا يخَـــفْ أَثَمـــا

إِنِّــى امــرُؤٌ قَــد ظَلَمْــتُ نَفسِــى، وَإِلَّــا تَعْـــفُ عَنّـــى أُغْلـــى دَمًـــا كَثِمـــا

أُطْــرَحُ بِالكَــافِرينَ فــى الــدَّرْكِ الـــ أَسْــفَلِ، يـــا ربِّ، أصــطَلى الضَّــرَما

يرْفَـــعُ بالقـــارِ والحَدِيـــدِ مِـــنَ الـــ ـــــجَوْزِ طِوالًـــا جُـــذُوعُها عُمُمـــا

نُـــودِى: قُـــمْ وَارْكَـــبْ بأَهلِـــكَ إِنـــ ـــن اللّٰه مُـــوفٍ لِلنـــاسِ مـــا زَعَمـــا

فمن هو صاحب تلك القصيدة يا ترى؟ ومتى نظمها؟ جاء فى «الاستيعاب فى معرفة الأصحاب» لابن عبد البر مثلا عن النابغة الجعدى أنه «كان يذكر فى الجاهلية دين إبراهيم والحنيفية ويصوم ويستغفر، فيما ذكروا. وقال فى الجاهلية كلمته التى أولها:

الحمـــــد للّه، لا شــــــريكَ لــــــه مـــــن لم يقُلْهـــا فنَفْسَـــــه ظَلَمـــا

وفيها ضروب من دلائل التوحيد والإقرار بالبعث والجزاء والجنة والنار وصفة بعض ذلك على نحو شعر أمية بن أبى الصلت. وقد قيل: «إن هذا الشعر لأمية»، ولكنه قد صححه يونس بن حبيب وحماد الرواية ومحمد بن سلام وعلى بن سليمان الأخفش للنابغة الجعدي». وفى «الأغاني» لأبى الفرج: «أخبرنى محمد بن الحسن بن دريد قال: أخبرنى أبو حاتم قال: أخبرنا أبو عبيدة قال: كان النابغة الجعدى ممن فكَّر فى الجاهلية وأنكر الخمر والسُّكْر وما يفعل بالعقل، وهَجَر الأزلام والأوثان، وقال فى الجاهلية كلمته التى أولها:

الحمـــــد للّه، لا شــــــريكَ لــــــه مـــــن لم يقُلْهـــا فنَفْسَـــــه ظَلَمـــا

وكان يذكر دين إبراهيم والحنيفية، ويصوم ويستغفر، ويتوقى أشياء لعواقبها». ونقل عبد القادر البغدادى هذا الكلام فى «خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب». وفى «الأغاني» عنه أيضا: «أما خبره مع عثمان فأخبرنا به أحمد بن عبد العزيز الجوهرى قال: حدثنا عمر بن شبة قال: قال مسلمة بن محارب: دخل النابغة

الجعدى على عثمان رضى الله تعالى عنه فقال: أستودعك الله يا أمير المؤمنين. قال: وأين تريد يا أبا ليلى؟ قال: ألحق بإبلى فأشرب من ألبانها، فإنى منكرٌ لنفسى. فقال: أتَعَرُّبًا بعد الهجرة يا أبا ليلى؟ أما علمتَ أن ذلك مكروه؟! قال: ما علمتُه، وما كنت لأخرج حتى أُعْلِمَك. قال: فأَذِن له، وأَجَّل له فى ذلك أجلا، فدخل على الحسن والحسين ابنى على فودعهما، فقالا له: أنشدْنا من شعرك يا أبا ليلى. فأنشدهما:

الحمد لله، لا شريكَ له ... من لم يقُلْها فنفْسَه ظَلَما

فقالا: يا أبا ليلى، ما كنا نروى هذا الشعر إلا لأمية بن أبى الصلت. فقال: يا ابْنَى رسول الله صلى الله عليه وسلم، إنى لَصَاحبُ هذا الشعر وأول من قاله. وإن السَّرُوق لَمَنْ سرق شعرَ أمية». وفى «طبقات الشعراء» لمحمد بن سلام الجمحى مثل ذلك. وفى «معجم الشعراء»: «وهو القائل:

الحمد لله، لا شريكَ له ... من لم يقُلْها فنفْسَه ظَلَما

وتُرْوَى لأمية بن أبى الصلت. والصحيح أنها للنابغة». ويقول لويس شيخو فى كتابه: «النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية»: «وممن ذكروا نوحا وسفينه فى الجاهلية النابغة الجعدى فى ميميته التى أولها:

الحمد لله، لا شريكَ له ... من لم يقُلْها فنفْسَه ظَلَمَا»

كما نجد القصيدة أيضا فى ديوان النابغة الشيبانى، وهو من شعراء العصر الأموى. وقد عزاها د. سامى العانى فى كتابه: «الإسلام والشعر» مرة إلى ذلك الشاعر، ثم عاد ونسبها مرة أخرى لنابغة بنى جعدة دون أن يحاول فَكَّ هذا التناقض.

ورأيى أن القصيدة لا يمكن أن تكون جاهلية لأنها تتفق مع آيات القرآن اتفاقا شديدا. فلو كانت جاهلية، سواء كانت للنابغة الجعدى أو لأمية بن أبى الصلت، لأمسك بها المشركون واتخذوا منها سلاحا يطعنون به الإسلام فى مقتلِ متهمين النبى بأنه كان يسرق قرآنه من شعر الشعراء، وهو ما لم يحدث، إذ لم يثِرْ هذه

النقطةَ أى مشركٍ أو يهودى أو منافقٍ أو أميـةَ نفسِـه رغـم حقـده عـلى النبـى نبوتـه وتأليبه قريشا ضده بعد أن سقط صناديدها فى بدر، أو النابغة، الذى لم يكـن ليسْـلِم وهو يرى شعره مأخوذا ومبثوثا فى القرآن. أما أمية فـلا وجـود للقصـيدة أصـلا فى ديوانه. ومن ثم كان من الصعب أن أقتنـع بـما هـو منسـوب إلى الحسـنين رضى الله عنهما من إنكارهما على النابغة إنشاده القصيدة لكونها لأمية. إنهما، فى الواقـع، آخـر من يمكن أن يصدر عنه مثل ذلك الكلام العجيب. ومن الواضح أن القصيدة لا بد أن تكون لشاعر مسلم قد وضع القرآن نصب عينيه وأخذ يمتح من معانيه وألفاظـه وعباراته وتراكيبه وصوره. كما أن حديثها عن فتح بـلاد فـارس وخضـوع الفـرس لحكم العرب يجعل من المستحيل أن تكون قد نظمت قبـل الإسـلام بـل بعـد فـتح تلك البلاد فى عهد عمر رضى الله عنه.

وعلى هذا فإن نسبتها صارت الآن تنحصر فى النابغتين: الجعدى والشيبانى لا تخرج عنهما. فمن منهما يا ترى أحق من الآخر بأن يكون ناظمها؟ لقد اشترك نابغـة بنى جعدة فى فتح بلاد الفرس، فمن الطبيعى أن يشـعر شـعورا قويـا بـالفخر بهـذا الفتح، الذى كان لا يزال غضا آنذاك. أما نابغـة بنـى شـيبان فلـم يشـترك فى تلـك المعارك لأنه أتى بعدها بعشرات السنين، فضلا عن أنه من الصعب أن تظل ذكرياتها حية فى قلبه بعد ذلك الزمن الطويل، وبخاصة أنه لم يجدّ جديد يثير تلك الـذكرى فى نفسه أو فى نفس غيره. كما أن التصاق القصيدة بالنص القرآنى على النحـو اللصـيق الذى نراه يشير إلى أن القرآن كان لا يزال قريب عهد بالنزول، أما فى العصر الأموى وما بعده فإن الشعراء، رغم أنهـم لم يكفـوا يومـا عـن الاقتبـاس مـن كتـاب الله، لم يكونوا يلتصقون به هذا الالتصاق الحرفى. علاوة على أن أحدا من القدماء لم يتطرق لنسبتها إلى النابغة الشيبانى، وإن وجدت فى بعض طبعات ديوانه.

وبعد، فهل تمتاز أشعار صدر الإسلام عن أشعار الجاهلية؟ والجـواب: نعـم تمتاز عنها بأنها، بوجه عام، لم تعد تفتخر بـالخمر والميسر والأزلام والأنسـاب، ولم

تعد تتباهى بالظلم والعدوان، ولم تعد تمجد الأوثان أو تـذكر الكهـان. كـما بـرزت أشعار الوعظ والتأمل فى الكون والتقديس لله سبحانه، والثناء عـلى الرسـول عليـه السلام، والاعتزاز بالجهاد فى سـبيل الله وتمجيـد الشـهادة والحـديث عـن التقـوى وخشية الله وإيثار الآخرة والتطلع إلى الفـوز بالجنـة والعيـاذ مـن النفـاق والكفـر. كذلك انتشرت فى تلك الأشعار مفردات وعبارات ومفاهيم وقيم قرآنية كثـيرة كـما نرى فى النصوص الشعرية الماضية، مثل: «آمَـنَ بِـالنَّبى مُحَمَّـدٍ قَلْبـى، بُرْهـانُ الإِلَـهِ عَظيمُ، إِنَّ الرَسولَ لَنُورٌ يستَضاءُ بِهِ، يوم لا ينجو إلا طاهر القلـب مسـلمُ، زاد مِـنَ التُّقَى، فَإِياكَ وَالمَيتاتِ لا تَأكُلَنَّها، جِبريلٌ أَمينُ الله، روح القدس، تَقُومُ ساعَتُنا، يـا ذا الجَلالِ، ولله عهدٌ لا أَخِيسُ بعهدِه، قَاتَـلَ اللهُ قومًـا، أضـلَّ الله سـعيهم، لَقُـوا أثامـا وخسرانا، فما رَبِحُـوا، شـهر الصـيام، رسـول رب العـالمين، يقـيم الحـق، وكـذلك العبارات الموجودة فى التالية:

هَـداكَ الَّـذى أعطـاكَ نافِلَـةَ الـــــ ـــقُرآنِ فيهـــا مَـــواعيظٌ وَتَفْصـــيلُ

* * *

وَذا النُصُـبَ المنصـوبَ لا تنسُـكَنَّهُ وَلا تَعْبُـدِ الأَوثـــانَ، وَاللَّـــهَ فَاعْبُـدا

وَصَلِّ عَلى حينِ العَشِياتِ وَالضُّحَى وَلا تَحْمَـدِ الشَّـيطانَ، وَاللَّـهَ فَاحْمَـدا

وَلا الســـائِلَ المحـــرومَ لا تترُكَنَّـــهُ لِعاقِبَـــةٍ وَلا الأَســـيرَا المُقَيــدا

وَلا تَسْـخَرَنْ مِـن بـائِسٍ ذى ضَـرارَةٍ وَلا تَحْسَـبَنَّ المَــرْءَ يومًــا مُخَلَّــدا

* * *

عَلَيــكَ سَــلامُ رَبِّــكَ فــى جِنَــانٍ مُخَالِطُهـــا نعـــيمٌ لا يــــزُولُ

***

مـا كُنْـتُ أَعْـرَجَ أَو أَعْمَـى فَيعْـذرَنى أَو ضـارِعًا مِن ضَنًى لم يسْتَطِع حِوَلا

* * *

فثبَّـتَ اللّهُ مَـا آتَـاكَ مِـن حَسَـنٍ   تَثبِيتَ مُوسى وَنَصْرًا كَالّذى نُصِرُوا

***

رأيتُـكِ، ولْيَغْفِـرْ لَـكِ اللّهُ، حـرةً   مـن المُحْصَنات غـيرِ ذات الغوائـلِ

***

فَحَبَسْتُ مُحْتَسِبًا سَيالًا، صابِرًا   نفْسِـى رَجَـاءَ ثـوَابِ رَبٍّ مُفْضِـلِ

***

جـزاكَ اللَـه فـى جنبِـى عُقُوقًـا   وبعـد المـوت زَقُّومًـا ونـارا »

وعلى هذا فما قاله مثلا أحمد حسن الزيات عن الشعر فى عصر الرسول والخلفاء الراشدين بل وبنى أمية أيضا من أنه ظل جاهليا لم يتغير هو كلام لا قسط له من الصحة. كما أن حكمه على شعر حسان فى الإسلام بالضعف مقارنةً به فى الجاهلية هو حكم غريب. ولقد تناولت هذه القضية بالدراسة فى كتابى عن النابغة الجعدى، فبينت أن قائلى هذا الكلام فى القديم، وهم فى المقام الأول لغويون، إنما كانوا يرددون حكما متحيزا متأثرين فيه بميولهم واهتماماتهم العلمية ليس إلا، وأن مقاييسهم فى ذلك التقويم هى مقاييس منافرة لموضوعها، إذ كان اهتمامهم منصبا على الأشعار التى تتضمن الكثير من الألفاظ الغريبة.

ومما لفت نظرى فى أشعار ذلك العصر تعجُّب كعب بن مالك ممن يبكى على الدِّمَن قبل أن يفعل ذلك أبو نواس فى العصر العباسى مما يعده النقاد ومؤرخو الأدب العربى عنصرا من عناصر التجديد فى القصيدة العربية. يقول كعب بن مالك فى رثاء عثمان، وإن كانت تُرْوَى لحسان بن ثابت أيضا مع بعض الاختلاف:

يـا لَلرِّجـالِ لأمـرٍ هـاجَ لى حَزَنًـا   لقد عَجِبْتُ لِمَنْ يبْكِى على الدِّمَنِ!

ويقول أبو نواس:

عـاجَ الشَّـقِى عَلـى دارٍ يسـائِلُها   وَعُـدْتُ أَسْـأَلُ عَـن خَمّـارَةِ البَلَـدِ

لا يرْقِئُ اللّهُ عَينَى مَنْ بَكَى حَجَرًا   وَلا شَـفَى وَجْـدَ مَـن يصْبو إِلى وَتَـدِ

قـالوا: ذكَـرْتَ دِيـارَ الحَـى مِـن أَسَـدٍ **لا دَرَّ دَرُّكَ! قُـلْ لى: مَـنْ بَنُـو أَسَـدِ؟**

وَمَـنْ تمِـيمٌ؟ وَمَـنْ قَـيسٌ وَإخـوَتُهُم؟ **لَـيسَ الأعاريـبُ عِنْـدَ اللّهِ مِـنْ أَحَـدِ**

دَعْ ذا، عَـدِمتُكَ، وَاشْـرَبْها مُعَتَّقَـةً **صَـفْراءَ تُعْنِـقُ بَـينَ المـاءِ وَالزَبَـدِ**

ويقول أيضا:

قُـلْ لِمَـنْ يبْكـى عَلَـى رَسْـمٍ دَرَسْ **واقِفًـا: مـا ضَـرَّ لَـو كـانَ جَلَـسْ؟**

أُتْـرُكِ الرَّبْـعَ وَسَـلْمَى جانِبًـا **وَاصْـطَبِحْ كَرْخِيَـةً مِثْـلَ القَـبَسْ**

بِنْـتُ دَهْـرٍ هُجِـرَت فـى دَنِّهـا **وَرَمَـتْ كُـلَّ قَـذاةٍ وَدَنَـسْ**

كَـدَمِ الـجَوْفِ إذا مـا ذاقَهـا **شـارِبٌ قَطَّـبَ منهـا وَعَـبَسْ**

إلا أن كعبا لم يتساخف فى كلامه تساخف أبى نواس. وجدير بالذكر أن الأشعار التى وصلتنا لكعب تخلو تماما من الوقوف على الأطلال أو البكاء على الدِّمَن. وبدلا من ذلك يتكرر عنده طلب إبلاغ هذه القبيلة أو تلك كذا أو كذا من الأخبار كقوله مثلا:

ألا أَبْلِـغْ قُرَيشًـا أَنَّ سَـلْعًا **ومـا بَـينَ العُـرَيضِ إلى الصِّـمادِ**

نَواضِـحُ فـى الحـروبِ مُـدرَّباتٌ **وحُـوصٌ ثُقِّبَـتْ مِـنْ عَهْـدِ عـادِ**

* * *

أَبْلِـغْ أُبَيـا أنَّـهُ فَـالَ رَأْيُـهُ **وَحَـانَ غَـدَاةَ الشِّعْبِ، والحَـينُ واقـعُ**

* * *

ألا أَبْلِغَـا فِهْـرًا علـى نَـأْىِ دَارِهَـا **وعِنْـدَهُمُو مـن عِلْمِنَـا اليـومَ مَصْـدقُ**

بِأنّـا، غَدَاةَ السَّفْحِ مـن بَطْنِ يثْرِبٍ، **صَـبَرْنَا، وَرَايـاتُ الـمَنِيةِ تخْفِـقُ**

وكثيرا ما يدخل فى موضوعه مباشرة أو يمهد للرثاء بالحديث عن هم ومه التى تنتاشه من كل جانب وتحرمه الرقاد لموت أحبابه. ومن ثم كان كعب بن مالك

أخلص لدعوته من أبى نواس، الذى كثيرا ما وقف رغم ذلك على الأطلال كما كان يفعل كثير من الشعراء منذ الجاهلية.

وقد يمكن أن نلحق بذلك قول حسان فى مفتتح إحدى قصائده:

مــا هــاجَ حَسّــانَ رُسُــومُ المقــام ... وَمَظْعَــنُ الحَــى وَمَبْنَــى الخِيــام

وَالنُّــؤْى قــد هَــدَّمَ أَعْضَــادَهُ ... تَقــادُمُ العَهْــدِ بِــوادٍ تهَــام

قــد أَدْرَكَ الواشُــونَ مــا حــاوَلوا ... فالحبْـلُ مِــن شَــعْثاءَ رَثٌّ الرِّمــام

جِنِّيــــةٌ أَرَّقَنــــى طَيفُهــــا ... تَـذْهَبُ صُـبْحًا، وَتُـرَى فـى المنـام

إلا أن هناك فرقا مهما بين كعب وحسان يتمثل فى أن الأخير قد وقف على الأطلال والرسوم وبكى الديار رغم هذا، وهو ما لم يفعله ابن مالك قط فى الشعر الذى وصلنا عنه. وقد ظلت القصيدة العربية فى ذلك العصر تجرى فى بنائها بوجه عام على ما كانت تجرى عليه فى الجاهلية من ابتداء بعضها بالوقوف على الأطلال أو ذكر الهموم والسهاد مع تعدد الموضوعات، ودخول بعضها فى موضوعها مباشرة دون مقدمات أو تمهيدات مع البُعْد عن التعدد. والملاحظ أن أشعار النساء التى وصلتنا من هذا العصر غير كثيرة، وأنها لا تبلغ أن تكون قصائد إلا فى النادر كما هو الحال فى الجاهلية مما سبق الإيماء إليه.

الخطابة:

أما فى ميدان الخطب فظل العرب بعد الإسلام يعرفون خطبة النكاح وخطبة الصلح وما إلى ذلك، لكنْ جَدَّت ثلاثة ألوان من الخطب: الخطبة الدينية الأسبوعية كل يوم جمعة، والسنوية فى العيدين والحج، والخطبة السياسية التى يقوم فيها الحاكم محدثا رعيته عن أمور الدولة وكيفية تدبير مصالحها وما أشبه، ثم الخطبة العسكرية التى يحمس فيها القائد جنوده على الجهاد حاضًّا لهم على الثبات، ومذكِّرًا إياهم بما ينتظرهم من أجر، ومعظما دور الشهادة فى سبيل الله.

وبالنسبة للخطب الدينية قد يقال إن قس بن ساعدة الإيادى فى الجاهلية مثلا كان يقوم فى سوق عكاظ فيعظ الناس ويلفتهم إلى آيات الله فى خلقه ويحثهم على التأمل فيها وأخذ العبرة. لكن لا بد من الالتفات إلى أن خطب قس وغيره كانت خطبا تطوعية يقوم بها من تلقاء نفسه بطريقة غير رسمية ولا دورية، فضلا عن أنه إنما يتناول فيها بعض الأمور الكونية العامة بخلاف خطب الجمعة والعيدين والحج حيث يحدّث النبى مثلا جماعة المسلمين كل أسبوع مرة، وكل عام مرتين، عن أمور دينهم تحديدا، مبصِّرًا إياهم بعقائد ذلك الدين ومبادئه وقيمه ومذكرا لهم بربهم وبالآخرة وما فيها من ثواب وعقاب، إلى جانب ما يتناوله من الأمور التشريعية. وكان لتلك الخطب أصول متبعة منها أنها تبدأ بالحمد لله والثناء عليه والشهادة بوحدانيته سبحانه وبنبوة محمد عليه الصلاة والسلام، وتذكِّر الناس بوجوب تقوى الله، وتقتبس الآيات القرآنية، علاوة على انقسامها إلى جزئين يقف أثناءهما الخطيب ثم يجلس بينهما جلسة قصيرة سرعان ما يقف بعدها لاستئناف ما كان يخطب فيه، ثم ينهى خطبته بعبارة تُؤْذِن بهذا الانتهاء كقوله صلى الله عليه وسلم فى آخر خطبة الوداع مثلا: «اللهم هل بلَّغْتُ؟ اللهم فاشهد». ويلقى الخطيب كلمته واقفا على منبر، وكان العرب فى الجاهلية يقفون أثناء الخطابة على مرتفع من الأرض، فتطور هذا فى الجمعة والعيدين إلى إلقاء الخطبة من فوق منبر. وهى الأصول التى استمرت بعد ذلك حتى يوم الناس هذا.

ومن الأمثلة على الخطبة الدينية خطبته عليه الصلاة والسلام أول صلاة جمعة له بالمدينة فى بنى سالم بن عوف: «الحمد لله أحمَدُهُ وأستعينُهُ، وأستغفره وأستهديه وأومن به ولا أكفُرُه، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأنَّ محمدا عبده ورسوله، أرسله بالهدى والنور والموعظة على فترة من الرسل، وقِلَّة من العلم، وضلالة من الناس، وانقطاع من الزمان، ودنوِّ الساعة وقُرب الأجل. مَن يطِع الله ورسوله فقد رَشَد، ومَن يعصِهما فقد غوى وفرَّط وضلَّ ضلالا بعيدا. أوصيكم

بتقوى الله، فإن خير ما أوصى به المسلمُ المسلمَ أن يحضَّه على الآخرة أو أن يأمره بتقوى الله. فاحذروا ما حذركم الله من نفسه، ولا أفضل من ذلك نصيحة، ولا أفضل من ذلك ذكرا. وإن تقوى الله لِمَن عَمِل به على وجل ومخافة من ربِّه عونُ صدقٍ على ما تبغون من أمر الآخرة. ومَن يصْلِحْ بينه وبين الله من أمره فى السّر والعلانية لا ينوى بذلك إلا وجه الله يكُنْ له ذِكْرًا فى عاجل أمره، وذُخْرًا فيما بعد الموت حين يفتقر المرء إلى ما قدَّم. وما كان من سوى ذلك يوَدُّ لو أن بينه وبينه أمدا بعيدا. ويحذِّركم الله نفسه، والله رؤوف بالعباد، والذى صَدَقَ قولُه ونَجَز وعدُه، ولا خُلْفَ لذلك، فإنه يقول عزَّ وجلَّ: «ما يبَدَّل القول لدى وما أنا بظلَّام للعبيد». فاتقوا الله فى عاجل أمركم وآجله، فى السِّر والعلانية، فإن من يتَّقِ الله يكَفِّرْ عنه سيئاته، ويعْظِمْ له أجرا. ومن يتَّقِ اللهَ فقد فاز فوزا عظيما، وإنَّ تقوى الله يوَقِّى مَقْتَه، ويؤمن عقوبته ويوقى سخطَه، وإنَّ تقوى الله يبيض الوجوه، ويرْضِى الربَّ، ويرفع الدرجة. خُذوا بِحظِّكم، ولا تُفَرِّطوا فى جَنْب الله، فقد علَّمكم الله كتابَه ونَهَجَ لكم سبيله ليعْلَم الذين صدقوا ويعْلَم الكاذبين. فأَحْسِنوا كما أحسن الله إليكم، وعادُوا أعداءه، وجاهدوا فى سبيل الله حقَّ جهاده. هو اجتباكم وسمَّاكم: «المسلمين» مِنْ قَبْلُ ليهْلِك من هَلَكَ عن بينة ويحْيا من حَى عن بينة. ولا قوة إلا بالله. فأكثروا ذكر الله، واعملوا لما بعد اليوم، فإنه من يصْلِح ما بينه وبين الله يكفيه الله ما بينه وبين الناس. ذلك بأنَّ الله يقضى على الناس ولا يقضون عليه، ويملك من الناس ولا يملكون منه. الله أكبر، ولا قوة إلا بالله العلى العظيم».

ويمكننا، فى الخطب السنوية، أن نورد خطبته صلى الله عليه وسلم فى حجة الوداع، وهى تجرى على النحو التالى: «الحمدُ لله، نَحْمَده ونَستعينُه، ونستغفرُه ونتوب إليه، ونعوذُ باللهّ مِن شُرور أنفسِنا ومن سيئات أعمالنا. مَن يهدْ اللهُ فلا مُضِلّ له، ومن يضْلِلْ فلا هادِى له. وأشهَدُ ألا إله إلّا اللهُّ وحْدَه لا شريك له، وأشهد أنَّ محمّدا عبدُه ورسولُه. أُوصِيكم عِبَادَ اللهَّ بتَقوى اللهَّ، وأحُثّكُمْ على طاعته، وأستفتِحُ

بالذى هو خير. أمّا بعد، أيها الناس، اسمَعُوا منِّى أبينْ لكم، فـإنِّى لا أدرِى لعَـلِّى لا ألقاكم بعدَ عامى هذا فى مـوقِفى هـذا. أيهـا النـاس، إنَّ دمـاءَكم وأمـوالَكم حـرام عليكم إلى أنْ تلقَوْا ربَّكم كحُرْمة يومكم هذا فى شهركم هذا فى بلدكم هذا. ألا هل بَلَّغت؟ اللّهم اشهَدْ! فمَنْ كانت عِنده أمانة فليؤدِّها إلى الذى ائْتَمنَه عليها. وإنَّ رِبَـا الجاهلية موضوع، وإنّ أوّلَ ربًا أَبْدَأُ به رِبَا عمِّى العباس بنِ عبد المطَّـلب. وإنَّ دمـاءَ الجاهلية موضوعة، وإنّ أوّلَ دم نبدأ به دمُ عـامر بـن ربيعـة بـن الحـارث بـن عبـد المطَّلب. وإنَّ مآثِرَ الجاهلية موضوعة غيرَ السِّدانة والسِّـقاية. والعَمْـد قَـوَد، وشِـبْه العَمد ما قُتِل بالعصا والحجَر، وفيه مائة بعير، فمن زاد فهو من أهل الجاهلية.

أيها الناس، إنّ الشيطان قد يئِس أن يعْبَدَ فى أرضكم هذه، ولكنّه قد رَضِى أن يطاعَ فيما سوى ذلك مما تَحْقِرون من أعمالكم. أيها الناس، إنّ النَّسِيءَ زيادةٌ فى الكُفْـر يضَلُّ به الذّينَ كَفَرُوا يحِلّونه عامًا ويحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرّمَ اللهُ فَيحِلّوا مَا حَرّمَ اللهُ. إنّ الزّمانَ قد استدار كهيئته يوْمَ خَلَقَ اللهُ السَّـمواتِ والأرض. وإنّ عِـدَّةَ الشّهُورِ عِنْدَ الله اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كتِابِ اللهَّ يـوْمَ خَلَـقَ السّـمواتِ وَالْأَرْض، مِنْهـا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ: ثلاثة متواليات، وواحدٌ فرد: ذو القَعْدة وذو الحِجَّة والمحـرَّم، ورَجَـب الذى بين جُمَادَى وشعبان. ألا هَلْ بلَّغْتُ؟ اللَّهم اشهد!

أيها النَّاس، إنّ لنسائكم عليكمْ حَقًّـا، ولكـمْ علـيهنَّ حـقّ: لكـم علـيهنَّ ألّا يوطِئْن فُرُشَكم غيرَكم، ولا يدْخِلْن أحدًا تكرهونه بيـوتَكم إلّا بـإذنكم، ولا يـأتين بفاحشةٍ مُبينةٍ. فإنْ فعلْنَ فإنّ اللهَّ قد أذِن لكم أن تَعْضُلوهنّ وتهجروهنَّ فى المضاجع وتضربُوهنّ ضربًا غير مـبرِّح. فـإن انتهـين وأطعـنكم فعلـيكم رِزقُهـنَّ وكسـوتُهُنَّ بالمعروف. وإنّما النساء عندكم عَوَانٍ لا يملكن لأنفسـهنَّ شـيئًا. أخـذتُمُوهنَّ بأمانـة اللهَّ، واستحللتُم فروجَهُنَّ بكلمة الله. فاتّقوا الله فى النِّساء واستوصوا بهنَّ خـيرا. ألا هل بلَّغت؟ اللهم اشهد!

أيها الناس، إنّما المؤمِنُونَ إخْوَةٌ، ولا يحلُّ لامرئٍ مُسْلِم مالُ أخيه إلّا عن طِيب نفسٍ منه. ألا هل بلَّغتُ؟ اللهم اشهد! فلا ترجِعُنَّ بعدى كُفّارًا يضربُ بعضُكم رقابَ بعض، فإنى قد تركتُ فيكم ما إنْ أخذتُم به لم تَضِلُّوا بعدَه: كتابَ الله. ألا هل بلَّغت؟ اللّهم اشهد! أيها الناس، إنَّ ربَّكم واحد، وإنَّ أباكم واحد. كلّكم لآدم، وآدمُ مِن تراب. أكرمُكم عِنْدَ اللهَّ أتقْاكُم، إنّ الله عليم خبيرٌ. وليس لعربى على عجَمى فضلٌ إلا بالتّقوى. ألا هل بلّغت؟ اللهمَّ اشهد! قالوا: نعم. قال: فلْيبَلِّغ الشّاهدُ الغائبَ. أيها الناس، إنّ اللهَّ قَسَم لكلِّ وارثٍ نصيبَه من الميراث، فلا تجوزُ لوارثٍ وصيةٌ، ولا تجوز وصيةٌ فى أكثَرَ من الثّلُث. والوَلَدُ للفِراش، وللعاهر الحجَرُ. من ادَّعى إلى غير أبيه أو تولَّى غير مَوَاليه فعليه لعنةُ الله والملائكة والنّاس أجمعين، لا يقْبَل مِنْه صَرْفٌ ولا عَدْلٌ. والسلام علكم ورحمة اللهَّ وبركاته».

ويمكننا أن نعد النص التالى من الخطب الحربية، وهو من كلام سعد بن معاذ قبيل غزوة بدر حين رأى الرسولُ أن يستطلع طِلْعَ الأنصار ليعرف إلى أى مدى هم مستعدون للمشاركة فى حرب قريش خارج المدينة المنورة إذا دعت الضرورة، فرد سعد على تساؤلات الرسول التلميحية قائلا: «يا رسول الله، إيانا تريد؟ فوالذى أكرمك وأنزل عليك الكتاب ما سلكتُها قط ولا لى بها علم. ولئن سِرْتَ حتى تأتى برك الغماد من ذى يمن لنسيرنَّ معك ولا نكون كالذين قالوا لموسى: اذهب أنت وربك فقاتلا، إنا ههنا قاعدون. ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا، إنا معكما متبعون. ولعلك أن تكون خرجتَ لأمر، وأحدث الله إليك غيره. فانظر الذى أحدث الله إليك، فامض فصِلْ حبال من شئت، واقطع حبال من شئت، وعادِ من شئت، وسالِمْ من شئت، وخذ من أموالنا ما شئت، وأعطنا ما شئت. وما أخذتَ منا كان أحب إلينا مما تركت، وما أمرتَ به من أمر فأَمْرُنا تبعٌ لأمرك. فوالله لئن سرتَ حتى تبلغ البرك من غمدان لنسيرنَّ معك».

وكانت أول خطبة سياسية خطبها أبو بكر الصديق إثر توليه الخلافة بعد وفاة رسول الله هى الخطبة التالية. قال فيها بعد أن حمد الله وأثنى عليه: «أما بعد فإنى وُلِّيتُ هذا الأمر وأنا له كاره. والله لَوَدِدْتُ أن بعضكم كَفَانِيه. ألا وإنكم إنْ كلفتمونى أن أعمل فيكم مثل عمل رسول اللهّ صلى الله عليه وسلم لم أقم به. كان رسول الله صلى الله عليه وسلم عبدا أكرمه الله بالوحى وعَصَمَه. ألا وإنما أنا بشر، ولستُ بخيرٍ من أحدكم، فراعُونى: فإن رأيتمونى استقمتُ فاتبعونى، وإذا رأيتمونى زُغْتُ فقَوِّمُونى. واعلموا أن لى شيطانا يعترينى، فإذا رأيتمونى غضبت فاجتنبونى لا أؤثر فى أشعاركم وأبشاركم».

ومن خطبه الوعظية: «أما بعد، فإنى أوصيكم بتقوى الله، وأن تُثْنُوا عليه بما هو أهله، وأن تخلطوا الرغبة بالرهبة وتجمعوا الإلحاف بالمسألة، فإن الله تعالى أثنى على زكريا وعلى أهل بيته فقال: «إنهم كانوا يسارعون فى الخيرات ويدْعُوننا رَغَبًا ورَهَبًا، وكانوا لنا خاشعين». ثم اعلموا، عباد الله، أن الله قد ارتهن بحقِّه أنفسكم، وأخذ على ذلك مواثيقكم، واشترى منكم القليل الفانى بالكثير الباقى. وهذا كتاب الله فيكم لا تفنى عجائبه، ولا يطفأ نوره، فصدِّقوا قوله وانتصحوا قوله واستضيئوا منه ليوم الظلمة. وإنما خلقكم لعبادته، ووَكَل بكم الكرامَ الكاتبين يعلمون ما تفعلون. ثم اعلموا، عباد الله، أنكم تغدون وتروحون فى أجلٍ قد غُيب عنكم علمُه، فإن استطعتم أن تنقضى الآجال وأنتم فى عمل الله فافعلوا. ولن تستطيعوا ذلك إلا بالله، فسابقوا فى مهلِ آجالَكم قبل أن تنقضى آجالكم فيردّكم إلى أسوإ أعمالكم. فإن أقواما جعلوا آجالهم لغيرهم ونَسُوا أنفسهم، فأنهاكم أن تكونوا أمثالهم. الوَحَا الوحا! النَّجَا النجا! إن وراءكم طالبا حثيثا أمرُه سريعٌ».

ومن قول عمر عندما ولى الخلافةَ الخطبةُ التاليةُ، إذ صَعِد المِنْبَر فحَمد اللهّ وأثنى عليه ثم قال: «يأيها الناس، إنى داعٍ فأمِّنوا: اللهم إنى غَلِيظٌ، فَلَيِّنّى لأهل طاعتك بموافقة الحقّ ابتغاء وجهك والدار الآخرة، وارزقْنى الغِلْظة والشدّة على

أعدائك وأهل الدَّعارة والنِّفاق من غير ظُلْمٍ منّى لهم ولا اعتداء عليهم. اللهم إنى شحيح، فسَخِّنى فى نوائب المعروف قَصْدًا من غير سَرَفٍ ولا تَبْذير ولا رياءٍ ولا سُمْعة، واجعلنى أبتغى بذلك وَجْهَك والدارَ الآخرَة. اللهم ارزقنى خَفْض الجَناح ولِين الجانب للمؤمنين. اللهم إنى كثيرُ الغَفْلة والنِّسيان، فألْهمنى ذِكْرك على كلّ حال، وذِكْر الموت فى كلّ حين. اللهم إنى ضعيف عند العمل بطاعتك، فارزقنى النشّاط فيها والقوّة عليها بالنية الحسنة التى لا تكون إلا بعزّتك وتَوْفيقك. اللهم ثَبِّتْنى باليقين والبرّ والتَّقوى، وذِكْر المقام بين يديك، والحَياء منك، وارزقنى الخشوع فيما يرْضِيك عنى، والمحاسبة لنفسى، وصلاح النِّيات، والحذر من الشّبهات. اللهم ارزقنى التفكّر والتدبّر لما يتلوه لسانى من كتابك، والفَهْم له، والمعرفة بمعانيه، والنظر فى عجائبه، والعملَ بذلك ما بقيتُ. إنك على كلّ شيء قدير».

وله، رضوان الله عليه، كلمة خطبها حين أراد القفول من عمواس حيث كان الطاعون متفشيا أيام خلافته، فقال: «ألا إنى قد وليت عليكم وقضيت الذى على فى الذى ولانى الله من أمركم إن شاء الله، فبسطْنا بينكم فَيأكم ومنازلكم ومغازيكم، وأبلغناكم ما لدينا، فجَنَّدْنا لكم الجنود، وهيأنا لكم الفروج، وبَوَّأْنا لكم ووَسَّعْنا عليكم ما بَلَغَ فَيؤُكم، وما قاتلتم عليه من شامكم، وسَمَّينا لكم أطعمتكم، وأمرْنا لكم بأعطياتكم وأرزاقكم ومغانمكم. فمَنْ عَلِمَ منكم شيئا ينبغى العمل به فلْيعْلِمْنا نعملْ به إن شاء الله، ولا قوة إلا بالله».

ومن خطبه أيضا تلك الخطبة التى خطبها عام الرمادة، إذ بعد حمد الله والثناء عليه والصلاة على نبيه قال: «أيها الناس، استغفروا ربكم إنه كان غفّارًا. اللهم إنى أستغفرك وأتوب إليك. اللهم إنا نتقرب إليك بعَمِّ نبيك وبقية آبائه وكِبار رجاله، فإنك تقول، وقَوْلُك الحقُّ: «وأمّا الجِدَارُ فكانَ لغُلامينْ يتِيمين فى المدينة، وكانَ تَحْتَه كَنْزٌ لهما، وكان أَبُوهما صالحًا»، فحفظتَهما لصلاح أبيهما، فاحفظ اللهم نبيك فى عَمّه.

اللهم اغفر لنا إنك كنت غفـارا. اللهـم أنـت الرّاعـى، لا تُهْمـل الضـالّة ولا تَـدَع الكَسِيرة بمَضْيعة. اللهم قد ضَرِع الصغير، وَرَقّ الكبير، وارتفعت الشكوى، وأنت تعلم السرّ وأخْفى. اللهم أغِثْهم بغِياثك قبل أن يقْنَطوا فَيهْلِكوا، فإنه لا ييـأس مـن رَوْحٍ اللهّ إلا القومُ الكافرون».

وخطب سعد بن أبى وقاص يوم الشورى بعد مقتل عمر حين اجتمع السـتة الذين كانوا قد عينهم الفاروق لاختيار أحدهم خليفة للمسلمين من بعـده، فقـال: «الحمد لله: بَدِيا كان، وآخِرًا يعود. أحمده كما أنجـانى مـن الضـلالة، وبَصَّرَـنى مـن العماية. فبرحمة الله فاز مَنْ نجا، وبهَدْى الله أَفْلَحَ مَنْ وَعَـى، وبمحمـد بـن عبـد الله صلى الله عليه وسلم استقامت الطرق، واستبانت السُّبُل، فظهر كل حق، ومات كل باطل. إياكم، أيها النَّفَر، وقول أهل الـزور وأمنيـة الغـرور، فقـد سـكنت الأمـانى قبلكم قوما ورثوا ما ورثتم، ونالوا ما نِلْتُم، فاتخذهم الله أعداءً، ولَعَنَهم لعنًا كثـيرًا. قال الله عز وجل: «لُعِنَ الذين كفروا مِنْ بَنِى إسرائيلَ على لسـانِ داودَ وعيسـى بـنِ مَرْيمَ. ذلك بما عَصَوْا وكانوا يعتدون * كانوا لا يتناهَوْن عن مُنْكَرٍ فَعَلُوه. لَبِئْسَ مـا كانوا يفْعَلون». وإنى نكبتُ قَرْنى فأخذت سهمى الفالج، وأخذت لطلحة بن عبيد الله فى غيبته ما ارتضيتُ لنفسى فى حضورى، فأنا به زعيم، وبما أَعْطَيتُ عنه كفيـل. والأمر إليك، يا ابن عوف، بصِدْق النفس وجُهْد النُّصْح. وعلى الله قَصْـدُ السـبيل، وإليه المصير».

ومن خطب على بن أبى طالب الخطبة التى ألقاها فى أول جمعـة لـه بالكوفـة، وهذا نصها: «الحمد لله. أحمده وأستعينه وأستهديه، وأُومِن به وأتوكل عليه. وأعوذ بالله من الضلالة والردى. من يهد اللهُ فلا مُضِـلَّ لـه، ومـن يضْـلِلْ فـلا هـادى لـه. وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبـده ورسـوله، انتخبـه لرسالته، واختصه لتبليغ أمره، أَكْرَم خَلْقه عليه، وأحـبّهم إليـه، فبلَّـغ رسـالة ربـه، ونَصَحَ لأمته، وأَدَّى الذى عليه صلى الله عليه وسلم. أُوصِـيكم، عبـادَ الله، بتقـوى

الله، فإن تقوى الله خير ما تـواصى بـه عبـاد الله، وأقربـه لرضـوان الله، وأفضـله فى عواقب الأمور عند الله. وبتقوى الله أُمِرْتُمْ، وللإحسان خُلِقْتُم. فاحذروا من الله مـا حذَّركم نفسه، فإنه حَذَّر بأسًا شديدًا، واخْشَوُا الله خشيةً ليسـت بتعـذير، واعملـوا من غير رياء ولا سمعة، فإنه من عمل لغير الله وَكَلَه الله إلى مـا عمـل، ومـن عمـل مخلصًا له تولاه الله وأعطاه أفضل نيته، وأَشْفِقُوا من عذاب الله، فإنه لم يخلقكم عبثًا، ولم يترك شيئًا من أمـركم سُـدًى. قـد سـمى آثـاركم، وعلـم أسراركـم، وأحصى أعمالكم، وكتب آجالكم. فلا تغرَّنَّكم الدنيا، فإنها غَرَّارة لأهلها، والمغرور مَنِ اغـترَّ بها، وإلى فناءٍ ما هى. وإن الآخرة هى دار القرار. نسأل الله منازل الشهداء، ومرافقة الأنبياء، ومعيشة السعداء، فإنما نحن به وله».

وتنسب لعلى بن أبـى طالـب، كـرم الله وجهـه، خطـب كثـيرة جُمِعَـتْ، مـع نصوص أخرى مَعْزُوَّة إليه، فى كتاب «نَهْج البلاغة». ومن هـذه الخطـب مـا يغلـب على النفس أنه صحيح أو ما ليس بمستبعد، ومنها ما لا يمكـن أن يكـون عـلى قـد قاله. ومن الخطب التى «قد» تكون صحيحة الخطبة التالية التى ذُكِـر أنـه، رضى الله عنه، قالها بعد مقتل طلحة والزبير فى حربهما معه: «بِنَا اهْتَدَيتُمْ فِى الظَّلْمَاءِ، وتَسَـنَّمْتُمْ ذُرْوَةَ الْعَلْياءِ، وبِنَا أَفْجَرْتُمْ عَنِ السِّرَارِ. وُقِرَ سَـمْعٌ لَمْ يفْقَـهِ الْوَاعِيـةَ. وكَيـفَ يرَاعِـى النَّبْأَةَ مَنْ أَصَمَّتْهُ الصَّيحَةُ؟ رُبِطَ جَنَانٌ لَمْ يفَارِقْهُ الْخَفَقَانُ. مَا زِلْتُ أَنْتَظِرُ بِكُمْ عَوَاقِـبَ الْغَدْرِ، وأَتَوَسَّمُكُمْ بِحِلْيةِ الْمُغْتَرِّينَ حَتَّى سَتَرَنِى عَنْكُمْ جِلْبَـابُ الـدِّينِ، وبَصَّرَـنِيكُمْ صِدْقُ النِّيةِ. أَقَمْتُ لَكُمْ عَلَى سَنَنِ الْحَقِّ فِى جَـوَادِّ الْمَضَـلَّةِ حَيـثُ تَلْتَقُـونَ ولا دَلِيـلَ، وتَحْتَفِرُونَ ولا تُمِيهُونَ. الْيوْمَ أُنْطِقُ لَكُمُ الْعَجْمَاءَ ذَاتَ الْبَيانِ. عَزَبَ رَأْى امْرِئٍ تَخَلَّفَ عَنِّى. مَا شَكَكْتُ فِى الْحَقِّ مُذْ أُرِيتُهُ. لَمْ يوجِسْ مُوسَى عليه السلام خِيفَةً عَـلَى نَفْسِـهِ، بَلْ أَشْفَقَ مِنْ غَلَبَةِ الْجُهَّالِ، ودُوَلِ الضَّلالِ. الْيوْمَ تَوَاقَفْنَا عَلَى سَبِيلِ الْحَـقِّ والْبَاطِـلِ. مَنْ وَثِقَ بِمَاءٍ لَمْ يظْمَأْ».

ومن النـوع الآخـر نـورد الـنص التـالى: «الْحَمْـدُ للهَّ الَّـذِى لا يبْلُـغُ مِدْحَتَـهُ الْقَائِلُونَ، ولا يحْصِى نَعْمَاءَهُ الْعَادُّونَ، ولا يؤَدِّى حَقَّهُ الْمُجْتَهِدُونَ، الَّذِى لا يدْرِكُهُ بُعْدُ الْهِمَمِ، ولا ينَالُهُ غَوْصُ الْفِطَنِ، الَّذِى لَيسَ لِصِفَتِهِ حَدٌّ مَحْدُودٌ، ولا نَعْتٌ مَوْجُودٌ،ولا وَقْتٌ مَعْدُودٌ، ولا أَجَلٌ مَمْدُودٌ. فَطَرَ الْخَلائِقَ بِقُدْرَتِهِ، ونَشَرَ الرِّيـاحَ بِرَحْمَتِـهِ، ووَتَّـدَ بِالصُّخُورِ مَيدَانَ أَرْضِهِ. أَوَّلُ الدِّينِ مَعْرِفَتُـهُ، وكَـمَالُ مَعْرِفَتِـهِ التَّصْـدِيقُ بِـهِ، وكَـمَالُ التَّصْدِيقِ بِهِ تَوْحِيدُهُ، وكَـمَالُ تَوْحِيـدِهِ الإِخْـلاصُ لَـهُ، وكَـمَالُ الإِخْـلاصِ لَـهُ نَفْـى الصِّفَاتِ عَنْهُ لِشَهَادَةِ كُلِّ صِفَةٍ أَنَّهَا غَيرُ الْمَوْصُوفِ، وشَهَادَةِ كُلِّ مَوْصُـوفٍ أَنَّـهُ غَـيرُ الصِّفَةِ. فَمَنْ وَصَفَ اللهَّ سُبْحَانَهُ فَقَدْ قَرَنَـهُ، ومَـنْ قَرَنَـهُ فَقَـدْ ثَنَّـاهُ، ومَـنْ ثَنَّـاهُ فَقَـدْ جَزَّأَهُ،ومَنْ جَزَّأَهُ فَقَدْ جَهِلَهُ، ومَنْ جَهِلَهُ فَقَدْ أَشَارَ إِلَيهِ، ومَنْ أَشَـارَ إِلَيـهِ فَقَـدْ حَـدَّهُ، ومَنْ حَدَّهُ فَقَدْ عَدَّهُ، ومَنْ قَالَ: «فِيمَ؟» فَقَدْ ضَمَّنَهُ، ومَنْ قَالَ: «عَـلامَ؟» فَقَـدْ أَخْـلَى مِنْهُ. كَائِنٌ لا عَنْ حَدَثٍ، مَوْجُودٌ لا عَنْ عَدَمٍ، مَعَ كُـلِّ شَيءٍ لا بِمُقَارَنَـةٍ، وغَـيرُ كُـلِّ شَيءٍ لا بِمُزَايلَةٍ، فَاعِلٌ لا بِمَعْنَى الْحَرَكَاتِ والآلَةِ، بَصِيرٌ إِذْ لا مَنْظُورَ إِلَيهِ مِنْ خَلْقِـهِ، مُتَوَحِّدٌ إِذْ لا سَكَنَ يسْتَأْنِسُ بِهِ ولا يسْتَوْحِشُ لِفَقْـدِهِ. أَنْشَـأَ الْخَلْـقَ إِنْشَـاءً، وابْتَـدَأَهُ ابْتِدَاءً، بِلا رَوِيةٍ أَجَالَهَا، ولا تَجْرِبَةٍ اسْتَفَادَهَا، ولا حَرَكَـةٍ أَحْـدَثَهَا، ولا هَمَامَـةِ نَفْـسٍ اضْطَرَبَ فِيهَا. أَحَالَ الأَشْياءَ لأَوْقَاتِهَا، ولأَمَ بَينَ مُخْتَلِفَاتِهَا، وغَرَّزَ غَرَائِزَهَا، وأَلْزَمَهَـا أَشْبَاحَهَا، عَالِمًا بِهَا قَبْلَ ابْتِدَائِهَا، مُحِيطًا بِحُدُودِهَا وانْتِهَائِهَا، عَارِفًا بِقَرَائِنِهَا وأَحْنَائِهَـا. ثُمَّ أَنْشَأَ سُبْحَانَهُ فَتْقَ الأَجْوَاءِ، وشَقَّ الأَرْجَاءِ، وسَكَائِكَ الْهَـوَاءِ، فَـأَجْرَى فِيهَـا مَـاءً مُتَلاطِمًا تَيارُهُ، مُتَرَاكِمًا زَخَّارُهُ، حَمَلَهُ عَلَى مَتْنِ الـرِّيحِ الْعَاصِـفَةِ، والزَّعْـزَعِ الْقَاصِـفَةِ، فَأَمَرَهَا بِرَدِّهِ، وسَلَّطَهَا عَلَى شَدِّهِ، وقَرَنَهَا إِلَى حَدِّهِ. الْهَوَاءُ مِنْ تَحْتِهَا فَتِيـقٌ، والْمَـاءُ مِـنْ فَوْقِهَا دَفِيقٌ. ثُمَّ أَنْشَأَ سُبْحَانَهُ رِيحًا اعْتَقَمَ مَهَبَّهَا، وأَدَامَ مَرَبَّهَا، وأَعْصَفَ مَجْرَاهَا،وأَبْعَدَ مَنْشَاهَا، فَأَمَرَهَا بِتَصْفِيقِ الْمَاءِ الزَّخَّارِ، وإِثَارَةِ مَوْجِ الْبِحَارِ، فَمَخَضَتْهُ مَخْضَ السِّـقَاءِ، وعَصَفَتْ بِهِ عَصْفَهَا بِالْفَضَاءِ. تَرُدُّ أَوَّلَهُ إِلَى آخِـرِهِ، وسَـاجِيهُ إِلَى مَـائِرِهِ، حَتَّـى عَـبَّ عُبَابُهُ، ورَمَى بِالزَّبَدِ رُكَامُهُ، فَرَفَعَهُ فِى هَوَاءٍ مُنْفَتِقٍ، وجَوٍّ مُنْفَهِـقٍ، فَسَـوَّى مِنْـهُ سَـبْعَ

سَـمَوَاتٍ جَعَـلَ سُـفْلاهُنَّ مَوْجًـا مَكْفُوفًـا، وعُلْيـاهُنَّ سَـقْفًا مَحْفُوظًـا، وسَـمْكًا مَرْفُوعًا،بِغَيرِ عَمَدٍ يدْعَمُهَا، ولا دِسَارٍ ينْظِمُهَا. ثُـمَّ زَينَهَـا بِزِينَـةِ الْكَوَاكِـبِ، وضِـياءِ الثَّوَاقِبِ، وأَجْرَى فِيهَا سِرَاجًا مُسْتَطِيرًا، وقَمَرًا مُنِيرًا، فِى فَلَكٍ دَائِرٍ، وسَـقْفٍ سَـائِرٍ، ورَقِيمٍ مَائِرٍ. ثُمَّ فَتَقَ مَا بَينَ السَّمَوَاتِ الْعُـلَا فَمَلَأَهُـنَّ أَطْـوَارًا مِـنْ مَلائِكَتِـهِ: مِـنْهُمْ سُـجُودٌ لا يرْكَعُـونَ، ورُكُـوعٌ لا ينْتَصِـبُونَ، وصَـافُّونَ لا يتَزَايلُـونَ، ومُسَـبِّحُونَ لا يسْأَمُونَ، لا يغْشَاهُمْ نَوْمُ الْعُيـونِ ولا سَـهْوُ الْعُقُـولِ، ولا فَـتْرَةُ الأَبْـدَانِ ولا غَفْلَـةُ النِّسْيانِ. ومِنْهُمْ أُمَنَاءُ عَلَى وَحْيهِ، وأَلْسِنَةٌ إِلَى رُسُلِهِ، ومُخْتَلِفُونَ بِقَضَائِهِ وأَمْرِهِ. ومِنْهُمُ الْحَفَظَةُ لِعِبَادِهِ، والسَّدَنَةُ لأَبْوَابِ جِنَانِهِ. ومِنْهُمُ الثَّابِتَةُ فِى الأَرَضِينَ السُّفْلَى أَقْـدَامُهُمْ، والْمَارِقَةُ مِنَ السَّمَاءِ الْعُلْيا أَعْنَاقُهُمْ، والْخَارِجَةُ مِنَ الأَقْطَارِ أَرْكَانُهُمْ، والْمُنَاسِبَةُ لِقَـوَائِمِ الْعَرْشِ أَكْتَافُهُمْ، نَاكِسَةٌ دُونَهُ أَبْصَارُهُمْ، مُتَلَفِّعُونَ تَحْتَهُ بِـأَجْنِحَتِهِمْ، مَضْرُـوبَةٌ بَيـنَهُمْ وبَينَ مَنْ دُونَهُمْ حُجُبُ الْعِـزَّةِ، وأَسْـتَارُ الْقُـدْرَةِ. لا يتَوَهَّمُـونَ رَبَّهُـمْ بِالتَّصْـوِيرِ، ولا يجْرُونَ عَلَيهِ صِفَاتِ الْمَصْنُوعِينَ، ولا يحُدُّونَهُ بِالأَمَاكِنِ، ولا يشِيرُونَ إِلَيهِ بِالنَّظَائِرِ».

ذلك أن التكلف يسود تلك الخطبة بما فيها من أسجاع ومجانسات وموازنات وترادفات مطردة على نحو لا يعرفه عصر الإمام كرم الله وجهه، إلى جانب التعمـق فى أمور علم الكلام من حديث عن نفى الصفات وما إليه مما لم يكن قـد تسرـب إلى الفكر الإسـلامى بعـد، فضـلا عـن التفصـيل العجيـب الغريـب فى الحـديث عـن الملائكة، وكأن قائله قد رآهم مكافَحَةً وعرفهم مبـاشَرَةً، فـأَنَّى لـه ذلـك، وليسـت هناك آيات قرآنية أو أحاديث نبوية تذكر عنهم هذا؟ وهذا واضح فى قوله: «ومِـنْهُمُ الثَّابِتَةُ فِى الأَرَضِينَ السُّفْلَى أَقْدَامُهُمْ، والْمَارِقَةُ مِنَ السَّمَاءِ الْعُلْيـا أَعْنَـاقُهُمْ، والْخَارِجَـةُ مِنَ الأَقْطَارِ أَرْكَانُهُمْ، والْمُنَاسِبَةُ لِقَوَائِمِ الْعَرْشِ أَكْتَافُهُمْ». هذه جرأة فى الحـديث عـن الغيب أربأ بعلى رضى الله عنه أن يتورط فيها.

ثم هذه السلاسل الأسلوبية التى تكررت والتى تأخذ كل حلقـة فيهـا برقبـة الحلقة السابقة عليها، وهى شيء متكلَّف متعسَّف لا يعرفـه أسـلوب تلـك الفـترة.

وهذا مثال على ذلك، ومن الصعب على من يعرف أساليب ذلك العصر أن يسلم بأن هذا الكلام لعلى: «فَمَنْ وَصَفَ اللهَّ سُبْحَانَهُ فَقَدْ قَرَنَهُ، ومَنْ قَرَنَهُ فَقَدْ ثَنَّاهُ، ومَنْ ثَنَّاهُ فَقَدْ جَزَّأَهُ، ومَنْ جَزَّأَهُ فَقَدْ جَهِلَهُ، ومَنْ جَهِلَهُ فَقَدْ أَشَارَ إِلَيهِ، ومَنْ أَشَارَ إِلَيهِ فَقَدْ حَدَّهُ، ومَنْ حَدَّهُ فَقَدْ عَدَّهُ، ومَنْ قَالَ: «فِيمَ؟» فَقَدْ ضَمَّنَهُ، ومَنْ قَالَ: «عَلامَ؟» فَقَدْ أَخْلَى مِنْهُ». وانظر أيضا إلى ذلك التركيب الذى لا يمكن أن يكون على أو أى من معاصريه قد استعمله، وهو التركيب الذى يقوم على التعريف عن طريق النفى لا الإثبات مع تكرره عدة مرات متتاليات، كقوله عن رب العزة سبحانه: «كَائِنٌ لا عَنْ حَدَثٍ، مَوْجُودٌ لا عَنْ عَدَمٍ، مَعَ كُلِّ شَيءٍ لا بِمُقَارَنَةٍ، وغَيرُ كُلِّ شَيءٍ لا بِمُزَايلَةٍ،فَاعِلٌ لا بِمَعْنَى الْحَرَكَاتِ والآلَةِ، بَصِيرٌ إِذْ لا مَنْظُورَ إِلَيهِ مِنْ خَلْقِهِ، مُتَوَحِّدٌ إِذْ لا سَكَنَ يَسْتَأْنِسُ بِهِ ولا يَسْتَوْحِشُ لِفَقْدِهِ». لقد كان الإيمان بالله فى ذلك العصر أبسط من ذلك كثيرا وأبعد عن هذا التفيهق والتنطع، كما كانت الأساليب أنأى ما تكون عن ذلك التعقيد.

وهذا كله غير المفردات والمصطلحات الكلامية التى لم تُعْرَف إلا بعد ذلك بزمن طويل كـ«المقارنة» و«المزايلة» و«الأشباح. ثم إن ما أوردته هنا لا يمثل سوى نصف الخطبة المزعومة. فأين لأحد من أهل ذلك العصر بالصبر الذى يعينه على الإنصات لكل ذلك مع صعوبته واعتسافه وغرابته؟ بل من أين لعلى ذلك الارتجال المتدفق مع ما نراه فى الكلام من غور بعيد وتكلف شديد واعتساف مزعج لا يواتى مريده بهذه السلاسة؟

هذا كلام يحْوِج صاحبَه إلى العكوف على كتابته ومراجعته وتكلفه، ولا يمكن أن يتدفق سلسا على هذا النحو الارتجالى ولا حتى فى العصر العباسى، فما بالنا بعصر الصحابة؟ ولا أتصور أبدا أن تلك الخطبة، لو صحت، كان يمكن أن تمر دون أن يهيج السامعون ويخرج عَلَى عَلِى مزيدٌ من الخوارج الذين يكيلون له الاتهامات ويشغبون عليه ويزيدون أمره تشعثا وانتقاضا ويرفعون عليه السيوف.

لهذا كله وغير هذا كله أرفض تماما أن يكون على قد خطب هذه الخطبة، وأُنْكِر إنكارا باتا أن تكون قد خطرت بباله ولا حتى فى الأحلام. وعَلِى برىءٌ منها براءةَ الذئبِ من دم المسكين يوسف. إن نظرة سريعة بل عابرة على تلك الخطبة، وما أكثر أمثالها فى «نهج البلاغة»، تؤكد لنا أنها من نسيج مختلف تماما عن خطب الخلفاء الراشدين، والصحابة بوجه عام، ولا يمكن أن تكون من كلامهم. ثم إن ها هنا سؤالا مهما، وهو: أين كانت تلك الخطب العلوية طوال عدة القرون التى تفصل ما بين على وبين ظهور كتاب «النهج»؟ لو كان على قالها لوجدنا الجاحظ وغير الجاحظ يشيرون إليها وينقلون عنها ويعربون عن استغرابهم للمستوى الفكرى والتعبيرى الذى تكشف عنه مما لا يلائم ذلك العصر. لقد ثارت شكوك عند ابن سلام والأصفهانى والجاحظ نحو بعض نصوص الشعر الجاهلى لما رَأَوْا من اختلافه عن سائر أشعار الجاهليين، فكيف لم تُثِر تلك الخطبُ، لو كانت موجودة منذ وقت مبكر، ارتيابَ أولئك العلماء كما أثارت ارتياب غيرهم بعد صدور «نهج البلاغة»؟ معنى هذا أنها لم تكن موجودة، وهى لم تكن موجودة لأن عليا لم يقلها، وهو لم يقلها لأن قوله لها مستحيل كما وضحنا.

الرسائل:

وهناك فى هذا العصر أيضا الرسائل النثرية، التى لم نسمع أن العرب كانوا يعرفونها فى الجاهلية، فقد كانوا أميين إلى حد بعيد. أما فى الإسلام فقد تغيرت الأمور، إذ دعا الدينُ المحمدى أتباعَه إلى السعى الحثيث فى طلب المعرفة وتعلم القراءة والكتابة. ومن ذلك رسالة النبى صلى الله عليه وسلم إلى هرقل: «بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد بن عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم: سلامٌ على من اتبع الهدى. أما بعد فإنى أدعوك بدَعَاية الإسلام. أَسْلِمْ تَسْلَمْ يؤْتِكَ اللهُ أجرَك مرتين. فإن تَوَلَّيتَ فإن عليك إثم الأريسيين. يا أهل الكتاب، تَعَالَوْا إلى كلمةٍ سواءٍ

بيننا وبينكم ألّا نعبدَ إلا الله ولا تشركَ به شيئًا ولا يتَّخِذَ بعضُنا بعضًا أربابًا من دون الله. فإن تَوَلَّوْا فقولوا: اشهدوا بأنّا مسلمون».

وكذلك رسالته إلى كسرى: «بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس: سلامٌ على من اتبع الهدى، وآمن بالله ورسوله، وشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدًا عبده ورسوله. وأدعوك بدعاء الله، فإنى أنا رسول الله إلى الناس كافَّةً لأُنْذِرَ مَنْ كان حيا ويحِقَّ القولُ على الكافرين. فإن تُسْلِمْ تَسْلَمْ، وإن أَبَيتَ فإن إثم المجوس عليك».

ولدينا أيضا معاهدته صلى الله عليه وسلم مع قريش فى صلح الحديبية على أن يعود صلى الله عليه وسلم إلى المدينة عامَهُ ذلك دون أن يدخل مكة ودون أن يعمل العمرة التى كان قد أتى هو والمسلمون لتأديتها على أن يؤدوها فى العام المقبل: «هذا ما صالح عليه محمدُ بنُ عبد الله سُهَيلَ بنَ عمرو: اصطلحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين يأمن فيهن الناس ويكفّ بعضهم عن بعض، على أنه من أتى محمدًا من قريش بغير إذن وليه رَدَّهُ عليهم، ومن جاء قريشًا ممن مع محمد لم يردوه عليه. وإنّ بيننا عَيبَةً مكفوفةً، وإنه لا إسلال ولا إغلال، وإنه مَنْ أَحَبَّ أن يدخل فى عَقْد محمد وعهده دخل فيه، ومَنْ أَحَبَّ أن يدخل فى عَقْد قريش وعهدهم دخل فيه، وإنك ترجع عامك هذا فلا تدخل علينا مكة، وإنه إذا كان عامُ قابِل خَرَجْنا عنك فدَخَلْتَها بأصحابك، فأقمتَ فيها ثلاثًا معك سلاح الراكب: السيوف فى القُرُب، لا تدخلها بغيرها».

ثم رسالته إلى يهود خيبر: «بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم صاحب موسى وأخيه والمصدِّق لما جاء به موسى: ألا إن الله قد قال لكم يا معشر أهل التوراة، وإنكم لتجدون ذلك فى كتابكم: «محمدٌ رسولُ الله والذين معه أَشِدَّاءُ على الكفارِ رُحَمَاءُ بينهم، تراهم رُكَّعًا سُجَّدًا يبتغون فضلًا من الله ورضوانًا. سِيمَاهم فى وجوههم من أثر السجود. ذلك مَثَلُهم فى التوارة ومَثَلُهم فى

الإنجيل كزرع أَخْرَجَ شَطْأَه فآزَرَه فاستغلظ فاستوى على سُوقِهِ يعجب الزُّرَّاع ليغِيظَ بهم الكفارَ. وَعَدَ اللهُ الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرةً وأجرًا عظيمًا». وإنى أَنْشُدكم بالله، وأنشدكم بما أنزل عليكم، وأنشدكم بالذى أطعم من كان قبلكم من أسباطكم المنَّ والسلوى، وأنشدكم بالذى أيبس البحر لآبائكم حتى أنجاهم من فرعون وعمله إلَّا أخبرتمونى: هل تجدون فيما أنزل الله عليكم أن تؤمنوا بمحمد؟ إن كنتم لا تجدون ذلك فى كتابكم فلا كره عليكم. «قد تبين الرشد من الغي». فأدعوكم إلى الله وإلى نبيه».

وعهده إلى أهل نجران عام الوفود: «بسم الله الرحمن الرحيم. هذا كتاب محمد النبى رسول الله لأَهل نجران إذا كان حكمه عليهم أن فى كل سوداء أَو بيضاء وصفراء وثمرة ورقيق، وأَفْضَل عليهم وترك ذلك لهم على أَلْفَى حُلّة: فى كل صَفَر أَلْفُ حُلّة، وفى كل رجب أَلْف حُلّة، مع كل حُلّة أُوقية. ما زادت على الخراج أَو نقصت على الأَواقى فبحساب، وما قَضَوْا من دروع أو خيل أو ركاب أو عرض أَخَذَ منهم بحساب، وعلى نَجْرَان مَثْواةُ رُسُلى ومُتْعَتُهم بها عشرين فَدُونَه، ولا يُحْبَسُ رسولٌ فوق شهر، وعليهم عارية ثلاثين درعًا وثلاثين فرسًا وثلاثين بعيرًا إذا كان كيد باليمن ومعذرة. وما هلك مما أَعاروا رَسُولى مِن دُرُوع أَو خَيل أَو رِكاب فهو ضمانٌ على رسولى حتى يؤديه إليهم. ولنجران، وحَسْبُها، جِوارُ اللهّ وذِمَّةُ محمد النبى على أنفسهم وملتهم وأرضهم وأموالهم وغائبهم وشاهدهم وعشيرتهم وتبعهم، وألا يغَيروا مما كانوا عليه، ولا يغير حقٌّ من حقوقهم ولا ملتهم، ولا يغير أَسْقُفٌ من أَسقفيته، ولا راهبٌ من رهبانيته، ولا واقِهٌ من وَقْهِيتِهِ وكل ما تحت أَيديهم من قليل أو كثير، وليس عليهم ريبة ولا دم جاهلية، ولا يُحْشَرون ولا يعَشَّرون، ولا يطأ أَرْضَهم جيشٌ. ومن سأَل منهم حقًّا فبينهم النَّصْف غير ظالمين ولا مظلومين، ومن أَكل رِبًا من ذى قبل فذمتى منه بريئة، ولا يؤْخَذ رجلٌ منهم بظلم آخر. وعلى ما فى

هذه الصحيفة جِوَارُ الله وذِمَّةُ محمدٍ النبى رسولِ الله حتى يأْتِى اللهُ بأمره ما نَصَحُوا وأَصْلَحُوا فيما عليهم غير منقلبين بظلم».

وكتب أبو بكر بعد وفاة النبى عهدا إلى أهل نجران يؤكد عهد النبى عليه السلام معهم هذا نصه: «بسم الله الرحمن الرحيم. هذا الكتاب من عبد الله أبى بكر خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم لأهل نجران: أجارهم مِنْ جنده ونفسه، وأجاز لهم ذمة محمد صلى الله عليه وسلم إلا ما رجع عنه محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم بأمر الله عز وجل فى أرضهم وأرض العرب ألا يسكن بها دينان. أجارهم على أنفسهم بعد ذلك وملتهم وسائر أموالهم وحاشيتهم وعاديتهم، وغائبهم وشاهدهم، وأسقفهم ورهبانهم وبِيعهم حيثما وقعت، وعلى ما ملكت أيديهم من قليل أو كثير، عليهم ما عليهم. فإذا أَدَّوْه فلا يُحْشَرون ولا يعَشَّرون. ولا يُغَيَّر أسقف من أسقفيته ولا راهب من رهبانيته. ووفَّى لهم بكل ما كتب لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى ما فى الكتاب من ذمة محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم وجوار المسلين. وعليهم النصح والإصلاح فيما عليهم من الحق».

وبعث أبو عبيدة بن الجراح إلى أبى بكر رضى الله عنهما فيما جرى بين أهالى الشام ومَلِكهم: «بسم الله الرحمن الرحيم. أما بعد فالحمد لله الذى أعزّنا بالاسلام، وأكرمنا بالإيمان، وهدانا لما اختلف المختلفون فيه بإذنه. إنه يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم. وإن عيونى من أنباط أهل الشام أخبرونى أنّ أوائل أمداد ملك الروم قد قَدِموا إليهم، وأنّ أهل مدائن الشام قد بعثوا رسلهم إليه يستمدّونه، وأنه كتب إليهم أنّ أهل مدينة من مدائنكم أكثر ممن قَدِمَ عليكم من العرب، فانهضوا إليهم فقاتِلوهم، فإنّ مددى يأتيكم من ورائكم. فهذا ما بلغَنا عنهم. وأنفس المسلمين طيبة بقتالهم. وقد أخبرونا أنهم قد تهيأوا لقتالنا. فأنزل الله على المسلمين نصره، وعلى المشركين زجره. إنه بما يعملون عليم. والسلام».

وقد رد الصديق عليه رضوان الله برسالة تقول: «أما بعد فقد جاءنى كتابك تذكر فيه تيسُّر عدوكم لمواقعتكم وما كتب به إليهم ملكهم من عِدَته إياهم أن يمدهم من الجنود بما تضيق به الأرض الفضاء. ولَعَمْرُ الله لقد أصبحت الأرض ضيقة عليه برُحْبها. وَايمُ الله ما أنا بيائسٍ أن تزيلوه من مكانه الذى هو به عاجلا إن شاء الله تعالى. فبُثَّ خيلك فى القرى والسَّوَاد، وضَيِّقْ عليهم بقَطْع المِيرَة، ولا تحاصر المدائن حتى يأتيك أمرى. فإن ناهدوك فانهض إليهم، واستعن بالله عليهم، فإنه ليس يأتيهم مدد إلا أمددناكم بمثلهم أو ضعفهم. وليس بكم، والحمد لله، قلة ولا ذلة. ولا أعرفنَّ ما جَبُنْتم عنهم، فإن الله فاتحٌ لكم، ومُظْهِرُكم على عدوكم، ومُعِزُّكم بالنصر، وملتمسٌ منكم الشكرَ لينظر كيف تعملون. وعمرو فأوصيك به خيرا، فقد أوصيتُه ألا يضيع لك حقا. والسلام عليك».

ومنها أيضا رسالة عمر بن الخطاب فى القضاء إلى أبى موسى الأشعرى، وهى: «بسم الله الرحمن الرحيم. من عبد الله عمر بن الخطاب أمير المؤمنين إلى عبد الله بن قيس: سلام عليك. أما بعد فإن القضاء فريضة محكمة، وسنة متبعة. فافهم إذا أُدْلِى إليك، فإنه لا ينفع تَكَلُّمٌ بحق لا نفاذَ له. آسِ بين الناس بوجهك وعدلك ومجلسك حتى لا يطمع شريفٌ فى حَيفِك، ولا ييأس ضعيف من عدلك. البينة على من ادَّعَى، و اليمين على من أنكر. والصلح جائز بين المسلمين إلا صلحًا أحلَّ حرامًا أو حرَّم حلالًا. لا يمنعنَّك قضاءٌ قضيتَه اليوم فراجعتَ فيه عقلَك وهُدِيتَ فيه لرشدك أن ترجع إلى الحق، فإن الحق قديمٌ، ومراجعة الحق خير من التمادى فى الباطل. الفَهْمَ الفَهْمَ فيما تلجلج فى صدرك مما ليس فى كتاب ولا سُنَّةٍ. ثم اعرف الأشباه والأمثال، فقِسِ الأمورَ عند ذلك، واعمد إلى أقربها إلى الله، وأشبهها بالحق، واجعل لمن ادعى حقا غائبا أو بينة أمدًا ينتهى إليها: فإن أحضر بَيِنَتَه أخذتَ له بحقه، وإلا استحللتَ عليه القضية، فإنه أَنْفَى للشك، وأَجْلَى للعمى. المسلمون عدولٌ بعضهم على بعض إلا مجلودا فى حد، أو مجرَّبا عليه شهادة زور أو ظنينا فى

ولاء أو نسب. فإن الله تولى منكم السرائر، ودرأ بالبينات والأيمان. وإياك و الغَلَقَ والضَّجَرَ والتأذِّى بالخصوم والتنكُّرَ عند الخصومات، فإن الحق فى مواطن الحق لَيعَظِّم الله به الأجر، ويحسن به الذخر. فمن صَحَّتْ نيته وأقبل على نفسه كفاه الله ما بينه وبين الناس، ومن تخلق للناس بما يعلم الله أنه ليس من نفسه شانه الله. فما ظنك بثواب غير الله عز وجل فى عاجل رزقه وخزائن رحمته؟ والسلام».

وهذا نص رسالة عمر بن الخطاب أيضا إلى عمرو بن العاص عامله على مصر فى أمر الخراج وقلة ما يرِدُ إليه من مصر: «بسم الله الرحمن الرحيم. من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى عمرو بن العاص: سلام عليك. فإنى أحمد إليك الله، الذى لا إله إلا هو. أما بعد فإنى فكرت فى أمرك والذى أنت عليه، فإذا أرضك أرض واسعة عريضة رفيعة قد أعطى الله أهلها عددًا وجَلَدًا وقوةً فى بَرٍّ وبحرٍ، وأنها قد عالجتها الفراعنة وعملوا فيها عملًا محكما مع شدة عُتُوِّهم وكفرهم، فعجبتُ من ذلك. وأعجب مما عجبتُ أنها لا تؤدى نصف ما كانت تؤديه من الخراج قبل ذلك على غير قحوط ولا جدوب. ولقد أكثرتُ فى مكاتبتك فى الذى على أرضك من الخراج، وظننتُ أن ذلك سيأتينا على غير نَزْر، ورجوتُ أن تفيق فترفع إلى ذلك، فإذا أنت تأتينى بمعاريض تعبأ بها لا توافق الذى فى نفسى. ولست قابلا منك دون الذى كنت تُؤْخَذ به من الخراج قبل ذلك. ولست أدرى ما الذى أَنْفَرَكَ من كتابى وقَبَضَك! فلئن كنت مجزئًا كافيا صحيحًا إن البراءة لنافعة، ولئن كنت مضيعًا نطفًا إن الأمر لعلى غير ما تحدِّث به نفسَك. وقد تركتُ أن أبتغى ذلك منك فى العام الماضى رجاء أن تفيق فترفع إلى ذلك. وقد علمتُ أنه لم يمنعك من ذلك إلا عمالك عمال السوء وما تُوَالِس عليه وتلفف. اتخذوك كهفًا، وعندى بإذن الله دواء فيه شفاء عما أسألك عنه. فلا تجزع، أبا عبد الله، أن يؤْخَذ منك الحق وتُعْطَاه، فإن النَّهْر يخرج الدَّرَّ. والحقُّ أبلج، ودعنى وما عنه تتلجلج، فانه بَرِحَ الخفاء. والسلام».

وقد رد عليه عمرو بن العاص بالرسالة التالية: «بسم الله الرحمن الرحيم. لعبد الله عمر أمير المؤمنين من عمرو بن العاص: سلام عليك، فإنى أحمد إليك الله،الذى لا إله إلا هو. أما بعد فقد بلغنى كتاب أمير المؤمنين فى الذى استبطأنى فيه من الخراج والذى ذكر فيه من عمل الفراعنة قبل، وإعجابه من خراجها على أيديهم، ونقص ذلك منها منذ كان الإسلام. ولَعَمْرِى لَلْخَرَاجُ يومئذ أوفرُ وأكثرُ، والأرضُ أعمرُ، لأنهم كانوا على كفرهم وعُتُوِّهم أرغبُ فى عمارة أرضهم منا منذ كان الإسلام. وذكرتَ بأن النَّهْز يخْرِج الدَّرَّ، فحلبتها حلبًا قطع دَرَّها. وأكثرتَ فى كتابك وأَنَّبْتَ، وعَرَّضْتَ وثَرَّبْتَ. وعلمتُ أن ذلك عن شيء تخفيه على غير خُبْرٍ، فجئتَ لعمرى بالمفظِعات المقذِعات. ولقد كان لك فيه من الصواب من القول رصين صارم بليغ صادق. وقد عملنا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولمن بعده، فكنا بحمد الله مُؤَدِّين لأماناتنا، حافظين لما عَظَّمَ اللهُ من حق أئمتنا، نرى غير ذلك قبيحًا، والعمل به سيئًا، فيعْرَف ذلك لنا ويصَدَّق فيه قِيلُنا. معاذ الله من تلك الطُّعَم، ومن شر الشِّيم، والاجتراء على كل مأثم. فاقبض عملك، فإن الله قد نزَّهنى عن تلك الطُّعَم الدَّنِية والرغبة فيها بعد كتابك الذى لم تَسْتَبْقِ فيه عِرْضًا، ولم تُكْرِم فيه أخًا. والله، يا ابن الخطاب، لَأَنَا حين يراد ذلك منى أشدُّ لنفسى غضبا، ولها إنزاهًا وإكرامًا. وما عملتُ من عمل أرى على فيه مُتَعَلَّقًا، ولكنى حفظتُ ما لم تحفظ. ولو كنتُ من يهود يثرب ما زدتَ، يغفر الله لك ولنا. وسكتُّ عن أشياء كنتُ بها عالما، وكان اللسان بها منى ذَلُولًا، ولكن الله عَظَّمَ مِنْ حَقِّك ما لا يجهل. والسلام».

وقد أوردتُ رسالة عمر وردّ عمرو عليه رغم ما يحوك فى النفس تجاهها من أشياء: فمن المستبعد جدا أن يكون عمر متلهفا على كثرة الخراج بهذا الشكل، إذ كان رضى الله عنه أرحم برعيته فى البلاد المفتوحة من ذلك. كذلك من الغريب أن يقارن الفاروق بين خراج الفراعنة وخراج عمرو وكأن تحت يديه إحصاءات

اقتصادية بما تنتجه مصر من خيرات عبر العصور ينظر فيها. ولنفترض أننا غضضنا النظر عن هذه النقطة لقد كانت المقارنة بين ما كان الرومان يستخرجونه من هذا الخراج وما يستخرجه عمرو منه أحرى وأقرب إلى العقل والمنطق لأن العرب فتحوا مصر فى عهد الاحتلال الرومانى لا فى عهد الفراعنة، وهذا إن كان حكم الفراعين شيئا واحدا فى الازدهار الاقتصادى. كذلك ليس من السهل أن أتصور جرأة عَمْرو فى الرد على ابن الخطاب الـمَهِيب بهذا الأسلوب الذى نراه فى رسالته. ويكفى أن نستحضر فى أذهاننا موقف عمر منه فى حكاية المصرى الذى اعتدى عليه ابن عمرو بعد أن تفوق عليه المصرى فى سباق الخيل حتى نعرف أن عَمْرًا لا يمكن أن يجرؤ على عمر كل تلك الجراءة. ثم كيف نوفق بين موقف عَمْرو من طلب عُمَر كما يعكسه رده عليه وبين موقفه منه فى عام الرمادة لدى استنجاد الفاروق به كى يعينه على مواجهة المجاعة فى بلاد العرب. لقد كتب إليه عمر: «من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى العاصى بن العاصى. سلام عليك، أما بعد أفترانى هالكًا ومَنْ قِبَلِى وتعيش أنت ومَنْ قِبَلك؟ فياغوثاه! يا غوثاه!»، فكان رد ابن العاص: «سلام عليك. فإنى أحمد الله إليك الذى لا إله إلا هو. أما بعد فقد أتاك الغوث. فلَأَبْعَثَنَّ إليك بِعِيرٍ أولها عندك، وآخرها عندى إن شاء الله»، ثم أتبع الوعد بالتنفيذ فى الحال. أترى من الممكن أن يكون صاحبا هاتين الرسالتين وهذين التصرفين هما هما أنفسهما صاحبى الرسالتين الأُولَيين؟ مجرد سؤال.

أما الرسالة التالية فهى أول ما كتبه عثمان إلى عماله: «أمّا بعد فإن الله أمر الأئمة أن يكونوا رُعَاةً، ولم يتقدّم إليهم أن يكونوا جُبَاةً. وإنّ صَدْر هذه الأمة خُلِقُوا رعاة، ولم يخلقوا جباة. وليوشِكَنّ أئمتُكم أن يصيروا جباة ولا يكونوا رعاة. فإذا عادوا كذلك انقطع الحياء والأمانة والوفاء. ألا وإنّ أعدل السِّيرة أن تنظروا فى أمور المسلمين فيما عليهم فتعطوهم ما لهم، وتأخذوهم بما عليهم، ثم تُثَنُّوا بالذمّة،

فتعطوهم الذى لهم، وتأخذوهم بالذى عليهم. ثم العدوّ الذى تنتابون فاستفتحوا عليهم بالوفاء».

وفى اتفاقية التحكيم بين على ومعاوية كُتِب كتاب هذا نصه: «بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما تقاضى عليه على بن أبى طالب ومعاوية بن أبى سفيان: قاضى على عَلَى أهل الكوفة ومن معهم من شيعتهم من المؤمنين والمسلمين، وقاضى معاويةُ على أهل الشام ومن كان معهم من المؤمنين والمسلمين. إنا ننزل عند حكم الله عز وجل وكتابه، ولا يجمع بيننا غيره، وإن كتاب الله عز وجل بيننا من فاتحته إلى خاتمته: نحيى ما أحيا، ونميت ما أمات. فما وجد الحكمان فى كتاب الله عز وجل، وهما أبو موسى الأشعرى عبد الله بن قيس وعمرو بن العاص القرشى، عَمِلا به. وما لم يجدا فى كتاب الله عز وجل فالسُّنَّة العادلة الجامعة غير المفرِّقة. وأخذ الحكمان من على ومعاوية ومن الجند من العهود والميثاق والثقة من الناس أنهما آمنان على أنفسهما وأهلهما. والأمة لهما أنصارٌ عَلَى الذى يتقاضيان عليه. وعلى المؤمنين والمسلمين من الطائفتين كلتيهما عهد الله وميثاقه أنّا على ما فى هذه الصحيفة، وأنْ قد وجبت قضيتهما على المؤمنين. فإن الأمن والاستقامة ووضع السلاح بينهم أينما ساروا على أنفسهم وأهليهم وأموالهم، وشاهدهم وغائبهم. وعلى عبد الله بن قيس وعمرو بن العاص عهد الله وميثاقه أن يحكما بين هذه الأمة، ولا يذراها فى حرب ولا فرقة حتى يقضيا. وأُجِّل القضاء إلى رمضان. وإنْ أَحَبَّا أن يؤَخِّرا ذلك أَخَّراه على تراضٍ منهما. وإن تُوُفِّى أحد الحكمين فإن أمير الشيعة يختار مكانه، ولا يأْلُو من أهل الـمَعْدَلَة والقِسْط. وإنَّ مكان قضيتهما الذى يقضيان فيه مكانٌ عَدْلٌ بين أهل الكوفة وأهل الشام. وإنْ رَضِيا وأَحَبَّا فلا يحْضُرهما فيه إلا من أرادا. ويأخذ الحكمان من أرادا من الشهود، ثم يكتبان شهادتهما على ما فى هذه الصحيفة. وهم أنصارٌ على من ترك ما فى هذه الصحيفة، وأراد فيه إلحادًا وظلمًا. اللهم إنا نستنصرك على مَنْ ترك ما فى هذه الصحيفة».

ومن هذه النصوص يتبين لنا أن الرسائل والمعاهدات فى ذلك العصر تتسم بالقِصَر فى معظم الأحيان وتنتهج أسلوبا بسيطا مباشرا ليس فيه شيء من التكلف ولا الحرص على الزينة من سجع وجناس وموازنة واستعارات طريفة، بل تضع همها كله فى إيراد المعنى وإبرازه فى أوضح صورة ممكنة دون تزيد أو فضول أو أى لون من ألوان الإطناب. فالمقدمة قصيرة تنتهى فى كلمتين أو ثلاث، ولا تفخيم فى الألقاب أو مبالغة فى التعبير، إذ يجرى الأمر فيها طبقا للتعبير الإنجليزى الذى يقول عن الشخص الصريح إنه يسمِّى الجاروف: جاروفا. إن هذه النصوص تتسم بالصراحة والقصد إلى الفكرة المرادة دون لف أو دروان أو غموض. والتراكيب فيها بسيطة محكمة، والتعابير مصبوبة فى قوالب منضبطة. ويحس القارئ وكأنه فى بيته بين أهله دون أى شعور بالوحشة. ولا ينبغى إذن أن يقال إن الرسائل قد بدئت بعبد الحميد آخر كاتب فى الدولة الأموية، وكان فارسى الأصل، إذ ها نحن أولاء إزاء رسائل ومعاهدات تنتمى إلى العصر ـ الإسلامى فى عهد الرسول وفى عهود الخلفاء الراشدين. فالرسائل إذن كانت موجودة قبل عبد الحميد. نعم قد دخل الرسائل ألوان من التطور، لكن هذا لا يعنى أن فن الرسائل لم يعرف إلا على يده. ذلك أنه من الطبيعى أن يعترى ذلك الفن فى مساره الطويل ما اعتراه من تغييرات، فهذه سنة الحياة، التى يعد التطور ركنا أصيلا من أركانها.

ولعل عبد الحميد ذا الأصل الفارسى قد اختير قصدا إلى القول بأن فن الرسائل يدين للفرس بظهوره، بمعنى أن العرب لم يعرفوا هذا الفن قبلا، أو أن ما أتانا من رسائل قبل عبد الحميد لا ينبغى أن يدْعَى: «رسائل» بحق وحقيق، بل كتابة بدائية لا قيمة لها فى عالم الكتابة. ولنفترض أن عبد الحميد هو ابن بجدتها، فمن أين تعلم عبد الحميد الكتابة والإبداع الأدبى؟ أليس قد تعلم الكتابة والإبداع الأدبى من العرب ومن أدب العرب وأشعارهم وخطبهم وأمثالهم وقصصهم ووصاياهم، ومن القرآن ومن الأحاديث وغير ذلك مما يشكل ثقافة العرب، التى

تغذت عليها عقول الفرس وصاروا يكتبون بلغة العرب كما يكتب العرب فى دولـة العرب؟ ومع هذا يأبى بعض الناس إلا أن يقلبوا الأمور رأسا على عقب كى يجردوا العرب من كل فضيلة حتى فضيلة الكتابة والإبداع بلغتهم.

لقد كانت الحياة فى عصر صدر الإسلام بسيطة لا تعرف التكلـف، وتكتفـى من الزينة بأبسط مقدار. فمن طبيعة الأشياء أن تكـون الرسـائلُ فى الدولـة الوليـدة التى لم تسبقها فى بلاد العرب دولةٌ رسائلَ بسيطةً يراد منهـا أن تـؤدى المعنـى المـراد بأسرع الطرق وأبسطها وأكثرها مباشرة. ولكن بعدما تعقدت أمور الحياة وتعمقت الثقافة واتسعت ومال الناس إلى الزخرف وتشقيق القول كان لا بد أن ينعكس هذا وذاك على فن الرسائل، فتتعقد صيغها وتطول نصوصها وتظهر المغالاة فى سطورها وتُغَشّيها مسحة من التكلف والتفخيم وتبرز فيها مراعاة الرسوم الملكية وتتأصل لها قواعد تُلْتَزَم فى المبدإ والختام والمتن. وهل كان من الممكن أن تُكْتَب رسـالة ديوانيـة فى عهد عبد الملك بن مروان أو هارون الرشيد على ذات النحو الذى كانـت تُكْتَـب به تحت حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم أو فى سلطان الصِّـدّيق أو الفـاروق أو ذى النورين أو أبى الحسن رضوان الله عليهم أجمعين؟ هل ظلت البيوت كـالبيوت، أو استمر الطعام هو الطعام، أو بقيت الملابس هى الملابـس؟ فكيـف إذن ننتظـر أن تدوم الرسائل على حالها الأول؟ وكما أننا لا يصح أن ننفى وجـود طعـام فى عصـــر الرسول لأن الطعام كان بسيطا فى ذلك الحين وتطوَّر بعد هذا تطورا بعيدا، فكذلك لا يصح القول بأن الرسائل لم يكن لها وجود لأنها كانت فى ذلك الوقـت بسـيطة لا تعقيد فيها ولا تكلف ولا حرص على التزيين كما صارت فيما بعد.

بل لقد وصلنا عن العرب رسائل من الجاهلية، لكنها كانت رسائل شعرية لا نثرية، إذ كانوا أمة تغلب عليها الأمية ولا تعرف الورق والقلم إلا لماما، بـل تعتمـد على ذاكرتها. والشعر سهل الحفظ بخلاف النثر كما هو معروف، فلذلك كـان أكثـر من النثر ملاءمة للأمم الأمية. ونحن جميعا نعرف بل نحفظ قصيدة لقيط بن يعمـر،

الذى كان يشتغل فى ديوان كسرى مترجما عربيا، ثم نما إلى علمه أن العاهل الفارسى يجهز جندا لغزو قومه، فأنشأ عينيته البديعة يحذّر فيها بنى إياد من غدر كسرى ويستحثهم على اليقظة والاستعداد للحرب حتى لا يؤخذوا على حين غرة. ويقال إن القصيدة قد وقعت فى يد كسرى، فعاقبه بقطع لسانه ثم قتله. وفيها يقول:

أبْلِــغْ إيــادًا وَخَلِّــلْ فــى سَــرَاتِهِمو أنّى أرَى الرَّأْى، إنْ لَمْ أُعْصَ، قَدْ صَعا

فهى رسالةٌ بَعَثَ بها موظفٌ يعمل فى ديوان ملكى، وإن لم تكن الرسالة صادرة عن الديوان ولا لمصلحة الدولة صاحبة الديوان، بل كانت ضد تلك الدولة. وقد سبق أن أوردنا منها شطرا كبيرا ضمن شواهد الشعر الجاهلى. وتشبهها رسالة عدى بن زيد الشعرية التى تقول:

]أبْلِــــغْ أُبَيــــا عَلَــــى نَأْيِــــهِ]وهَــلْ ينفَــعُ المــرءَ مــا قَــد عَلِــمْ؟

]بــــأَنَّ أَخــــاكَ شَــــقيقَ الفُــــؤا]دِ كُنْــتَ بِــه واثِقًــا مــا سَــلِمْ

]لَـدَى مَلِـكٍ مُوثَـقٍ فـى الَحديــــــــــدِ]إمَّـــا بِحَـــقٍّ وإمـــاَّ ظُلِـــمْ

]فـــلا أَعْرِفَنْـــكَ كَـــدَأْبِ الغُـــلا]مِ مــا لَــمْ يجِــدْ عارِمًــا يعْتَــرِمْ

]فأَرْضَـــكَ أَرْضَـــكَ. إنْ تَأْتِنـــا]تَــنَمْ لَيلَــةً لــيس فيهــا حُلُــمْ

وقوله أيضا من رسالة بعث بها من السجن إلى صهره النعمان بن المنذر ملك الحيرة يعاتبه ويناشده أن يطلق سراحه:

أَبْلِــغِ النُّعْمــانَ عنّــى مَأْلُكًــا أَنَّــهُ قَـد طـالَ حَبْسِـى وانتظـاري

لــو بغــيرِ المــاءِ حَلْقِــى شَــرِقٌ كُنْـتُ كالغَصَّـانِ بالمـاءِ اعتصـاري

لَيـتَ شِـعْرِى عـن دَخِيـلٍ يفْتَـرِى حَيثُمـــا أَدْرَكَ لَيلِـــى ونَهَـــارِي

قاعِـــدًا يكْـــرُبُ نَفْسِـــى بَثُّهـــا وحَرَامًـا كـانَ سِـجْنى واحْتِصَـاري

أَجْـــلَ نُعْمَـــى رَبَّهـــا أَوَّلُكـــم ودُنُـوِّى كـانَ مِـنْكُم واصْـطِهاري

أَجْـــلَ أَنَّ اللّٰهَ قَـــدْ فَضَّـــلَكُم فَــوْقَ مَــنْ أَحْكَــأَ صُــلْبًا بــإِزَارِ

نحــنُ كُنَّــا، قَــد علمــتم، قَــبْلَكُم عُمُــدَ البَيــتِ وأَوْتــادَ الإِصَــارِ

نُحْسِنُ الهِنْءَ إذا اسْتَهْنَأْتنا ... ودفاعًا عَنْكَ بالأيدى الكِبارِ
وأبُوكَ المرءُ لم يشْنَأْ بِهِ ... يوْمَ سِيمَ الخَسْفَ مِنَّا ذُو الخَسَارِ
وعُدَاتى شَمِتَتْ، أعْجَبَهُمْ ... أنَّنى غُيبْتُ عَنْهُم فى إسَارِ
لِامْرِئٍ لم يبْلُ مِنِّى سَقْطَةً ... إن أصابَتْهُ مُلِمَّاتُ العِثارِ
فَلَإِنْ دهرى تَوَلَّى خَيرُهُ ... وَجَرَتْ بِالشَّرِّ لى منه الجواري
لَبِمَا أَلْهُو بِخَوْدٍ كاعِبٍ ... تَمْلأُ العَينَ عَنِ الفُحْشِ نَوَارِ
رُبَّ دَهْرٍ قَد تَمَتَّعْتُ بها ... وقَصَرْتُ اليَوْمَ فى بَيتِ عِذَاري
بسَمَاعٍ يأْذَنُ الشَّيخُ لَهُ ... وحديثٍ مِثْلِ ماذِى مُشَارِ
فَقَضَينا حاجَةً مِن لَذَّةٍ ... وحَياةُ المرءِ كالشَّيءِ المُعَارِ
لَثِقِ الرِّيشِ تَدَلَّى غُدْوَةً ... مِن أعَالى صَعْبَةِ المَرْقَى طِمَارِ

وقول عمرو بن كلثوم يتهدد النعمان بن المنذر ملك الحيرة:

ألا أَبْلِغِ النعمانَ عنّى رِسالَةً ... فَمَجْدُكَ حَوْلِى، وَلُؤْمُكَ قارِحُ
مَتَى تَلْقَنى فى تَغْلِبَ ابنةِ وائِلٍ ... وَأَشْياعِها تَرْقَى إِلَيكَ المَسَالِحُ

وكانت عادة كثير من شعراء الجاهلية أن يستخدموا فى رسائلهم الشعرية تعبير «أبلغ فلانا أو أبلغ القوم الفلانيين...» أو «أبلغهم أو أَلِكْنِى إليهم مألكة أو رسالة». ومن ذلك قول مهلهل بن ربيعة:

أَبْلِغْ بَنِى شَيبانَ عَنّا، فَقَدْ ... أَضْرَمْتُمو نيرانَ حَرْبٍ عَقُوقْ

وقول الحارث بن ظالم المري:

أَبْلِغْ جذيمةَ إنْ عَرَضْتَ، فإننى ... عَمْدًا تركتُهمو عبيدَ سنانِ

وقول الحصين بن حمام الفزاري:

ألا أَبْلِغْ لَدَيكَ أبا حُمَيسٍ ... وَعاقِبَةُ الملامَةِ لِلمُلِيمِ

وقول الفِنْد الزِّمَّاني:

أَبْلِغْ ربيعةَ أعلاها وأسفَلَها ... أنّا أُناسٌ حللنا سُرَّةَ الوادي

وقول تأبَّط شَرًّا:

ألا أبْلِـــغْ بَنــى فَهْـمِ بــنِ عَمْــروٍ ... عَلــى طــولِ التَّنــائى وَا لمقالَـــه

وقول صفية بنت ثعلبة الشيبانية:

أَبْلِـغْ طميحًـا يـا رسـولُ، وقـل لـه: ... بِسـيوفِ تغْلِـبَ تُغْلَـب الأقــرانُ

وقول ابن جُوَين الطائي:

أَبْلِــــغِ الملــــوكَ مأْلُكَـــــةً ... مَــنْ نَــأَى فــى الأَرْضِ أَو قَرُبــا

وقول عبد الله بن العجلان:

فـأَبْلِغْ أبـا الحجـاج عنـى رسـالةً ... مغلغلـــةً لا يغْلِبَنْـــكَ بســـورها

وقد ظل شعراء العرب ينشئون تلك الرسائل بعد ذلـك. ومـن المخضرـمين الذين بعثوا برسالة أو أكثر من هذا النوع الشاعر الأعشي:

أَبْلِـغْ يزيـدَ بنـى شَـيبانَ مَأْلُكَـةً: ... أَبــا ثُبَيــتٍ، أمــا تنفَـكّ تأْتَكِـلُ؟

والنجاشى الحارثي:

أَبْلِـغْ لـدَيكَ بَنِـى قَحْطَـانَ مَأْلُكَـةً ... عَضَّــتْ بــأَيرِ أبيهــا سَــادَةُ الــيمَنِ

وهذه رسالة أخرى مـن رسـائل الشـعر بعـث بهـا ابـن عـابس الكنـدى إلى الصِّدّيق أيام أحداث الرِّدَّة يطلعه على أحوال قبيلتـه، التـى ارتـدت مـع المرتـدين، والجهود التى بذلها لإرجاعهم إلى سبيل الرشاد وإعادتهم إلى حظيرة الدولة والدين:

ألا أَبْلِــــغْ أبــــا بَكْــــرٍ رَسُـــولًا ... وَخُـــصَّ بهـــا جَمِيـــعَ المســـلمينا

فَلَسْـــتُ مُجـــاوِرًا أَبَـــدًا قَبِيلًـــا ... بِمـــا قـــالَ الرَّسُـــولُ مُكَـــذِّبينا

دَعَـــوْتُ عَشِـــيرَتى لِلسَّـــلْمِ لَمّـــا ... رأَيتُهُمُـــــو تَوَلَّـــــوْا مُـــــدْبِرينا

فَقُلْـــتُ لَهُـــم: أَنِيبُـــوا، يـــالَقَوْمى، ... إلى مـــا قـــد أنـــابَ المســـلمونا

فَقَـــدْ وَلَّـــوْا أَبَـــا بَكْـــرٍ جميعـــا ... أُمُورَهُمُـــــو هَزِيلًـــــا أَوسَـــــمِينا

وَمـــا عَـــدَلُوا بِـــهِ أَحَـــدًا، ولـــولا ... أبـــو بَكْـــرٍ لَقَـــدْ أَضْـــحَوْا عِزِينـــا

وكونـــوا مِنهُمُـــو أنَّـــى اهْتَـــدَيتُم وَإلَّـــا فـــاقنعوا بِالـــذُّلِّ فينـــا

فَـــإنِّى آخِـــذٌ عـــنكم شِـــمَالًا بِرَحْلِـــى إِن ضَـــلَلْتُم أَو يمينـــا

فَلَمَّـــا أَنْ عَصَـــوْنى لم أُطِعْهُـــم ولا أَطْمَعْـــــتُهُم مُتَحَزِّبِينـــــا

أَحَـدْتُ الفَضْـلَ إذ جـارُوا، وَحَسْبِى بأَخْـذِ الفَضْـلِ دِينًـا مُسْـتَبِينا

فَلَسْـــتُ مُبَـــدِّلًا بِـــاللّٰهِ رَبًّـــا وَلا مُسْـــتَبْدِلًا بالسَّـــلْمِ دِينـــا

شَـــأَمْتُم قَـــوْمَكم وَشـــأَمْتمونا وغـــابِرُكم سَيشْـــأَمُ غابِرينـــا

وَكـانَ الأَشْـعَثُ الكِنْـدِى رأسًـا فَقَـدْ أَضْـحَى بِهـا غَلِقًـا مَـدِينا

أَيجمَـــعُ غَـــدْرَتَين مَعًـــا جَمِيعًـــا وفـــى شَـــهْرَين مَنْكُـــوبَين فينـــا؟

فـــلا للمســـلمين وَفَيـــتَ صَـــبْرًا، وَقَـــد صَـــبَرُوا، وَلا للمْشْـــركينا

فَضَـــحْتَ بَنـــى مُعَاويـــةٍ، وَلَمَّـــا تنَـــال بِـــذاكَ حِجْـــرًا وَالسَّـــكُونا

وكنـــتَ بهـــا أَخَـــا إِفْـــكٍ وكِـــذْبٍ وَلَـــمْ تَـــكُ فـــى فِعَالِـــكَ مُسْـــتَبِينا

وهذه رسالة شعرية أخرى من ضرار الفهرى يحذر فيها أبا بكر مما ينتويه هرقل تجاه دولة الإسلام:

أَبلِـــغْ أَبـــا بَكْـــرٍ إذا مـــا لَقِيتَـــهُ بِـــأَنَّ هِرَقْلًـــا عَنكُمُـــو غَـــيرُ نـــائِمِ

فَجَيشُـكَ لا يخـذلْ، وَأَمْـرُكَ لا يهـنْ أَلا رُبَّ مَـــوْلًى نَصْـــرُهُ غَـــيرُ عـــاتِمِ

يقِيكَ الأَسَى الرحمنُ من دون غَيرِهِ وَحَسْـبِى إِلَــهٌ نَصْـرُهُ خَـيرُ غـانِمِ

ولم تقف الرسالة الشعرية عند الموضوعات السابقة وأمثالها، بل دخلت ميدان الحب والعشق والصداقة. ومثالا على ذلك نأخذ أبيات عمر بن أبى ربيعة إلى إحدى صواحبه، وهى من الشعر الأموي:

كَتَبْـــتُ إِلَيـــكِ مِـــنْ بَلَـــدِى كِتـــــابَ مُوَلَّـــــهٍ كَمِـــــدِ

كَئِيـــبٍ واكِـــفِ العَيـنَيـــــــــــ ـــــــنِ بِالحســـراتِ مُنْفَـــرِدِ

يؤَرِّقُـــــهُ لَهيـــــبُ الشَّـــــوْ قِ بَـــينَ السَّـــحْرِ وَالكَبِـــدِ

فَيمْسِـــــــكُ قَلْبَــــــهُ بِيــــــــدٍ   وَيمْسَـــــــحُ عَينَـــــــهُ بِيـــــــدِ

وكـذلك الأبيـات الرائعـة التاليـة للعبـاس بـن الأحنـف الشـاعر العباسـى المعروف:

أَزَيــنَ نِسَــاءِ العــالَمِينَ، أَجِيبِــى   دُعــاءَ مَشُــوقٍ بِــالعِراقِ غريــبِ

كَتَبْــتُ كتــابى مــا أُقِــيمُ حُروفَــهُ   لِشِــدَّةِ إِعْــوالى وَطُــولِ نَحِــيبِي

أَخُــطُّ وأمحــو مــا خَطَطْــتُ بِعَبْــرَةٍ   تَسُــحُّ عَلــى القِرْطــاسِ سَــحَّ غَــرُوبِ

أَيـا فَـوزُ، لَـو أَبْصَـرْتِنى مـا عَرَفْتِنـى   لِطُـولِ شُـجُونى بَعْـدَكُم وَشُـحُوبِي

وَأَنتِ مِنَ الدُنيا نَصِيبى، فَإِنْ أَمُتْ   فَلَيتَـكِ مِـن حُـورِ الجِنَـانِ نَصِـيبِي

سَأَحْفَظُ مـا قَـدْ كـانَ بَينـى وَبَيـنَكُم   وَأَرْعــاكُمُو فــى مَشْــهَدى وَمَغِــيبِي

وَكُنْــتُم تَزينُــونَ العِــراقَ، فَشَــانَهُ   تَــــرَحُّلُكُم عَنْــــهُ، وَذاكَ مُــــذِيبِي

وَكُنْــتُم وَكُنّــا فــى جِــوارٍ بِغِبْطَــةٍ   نُخَــالِسُ لَحْــظَ العَــينِ كُــلَّ رَقِيــبِ

فَإِنْ يكُ حـالَ النـاسُ بَينـى وَبَيـنَكُم   فَــإِنَّ الهَــوَى وَالــودَّ غَــيرُ مَشُــوبِ

فَلا ضَحِكَ الواشونَ، يـا فَوْزُ، بَعْدَكُم   وَلا جَمَـدَتْ عَـينٌ جَـرَتْ بِسُـكُوبِ

وَإِنّــى لَأَسْـتَهْدِى الريــاحَ سَـلامَكُم   إذا أَقبَلَــتْ مِــن نَحْــوِكُم بِهُبُــوبِ

وَأَسْــأَلُها حَمْــلَ السَّــلامِ إِلَيكُمُــو   فَــإِنْ هِــى يوْمًــا بَلَّغَــتْ فَــأَجِيبِي

أَرَى الـبَينَ يشْـكُوهُ المُحِبُّـونَ كُلُّهُـم   فَيــا رَبُّ، قَــرِّبْ دارَ كُــلِّ حَبِيــبِ

ومن ذلك أيضا هذه القصيدة للبهاء زهير:

كَتَبْـتُ إِلَيـكَ أَشْـرَحُ فـى كِتَـابى   أُمُـــورًا مِـــنْ فِراقِـــكَ أَشْـــتكيها

وَعَيشِــكَ إِنَّ لى مُــذْ غِبْــتَ عَنّــى   لَحَالًـــا مـــا أَظُنُّـــكَ تَرْتَضِـــيها

وفـى سـوقِ الغَـرَامِ عَرَضْـتُ نَفسـى   رَخِيصًــا لَــم أَجِــدْ مــن يشْــتريها

وَلَــم أَرَ مَــنْ لَــهُ حــالٌ كَحَــالِى   فَــأَعْرِف فــى الصَّــبابَةِ لى شَــبِيها

فَجُــدْ بِرِضَــاكَ. إِنَّ رِضَــاكَ عَنّــى   لَــأَعْظَمُ شَــهْوَةٍ أَنــا أَشْــتَهِيها

وَلى وَعْـــدٌ إِلى سَـــنَةٍ، فَـــإِنْ لم   يكُــنْ فيهــا يكُــنْ فيمــا يلِيهــا

وَقَـدْ أَنْهَيـتُ مِـن شَـوْقِى أُمُـورًا لِمَوْلانَـا عُلُـوُّ الـرَّأْىِ فيهـا

وهكذا حتى نصل إلى عصرنا فنجد ذلك حتى فى الأغانى ذاتها فصيحة وعامية.

وأخيرا فقد ينبغى أن نعرف أسماء الكتاب فى عصر صدر الإسلام. وقد أوردهم ابن عبد ربه فى كتابه: «العقد الفريد». وها نحن أولاء نشير إلى بعضهم: فمن كُتّاب النبى عليه الصلاة والسلام على بن أبى طالب وعثمان بن عفان وأبى بن كعب وخالد بن سعيد بن العاص ومعاوية والمغيرة بن شعبة وعبد الله بن أبى الأرقم. وكتب لأبى بكر عثمانُ بن عفان وزيدُ بن ثابت. وكَتب لعمر بن الخطاب زيدُ بن ثابت وعبدُ الله بن الأرقم وعبدُ الله بن خَلف الخزاعى على ديوان البصرة، وأبو جَبِيرة بن الضحاك على ديوان الكوفة. وكتب لعثمان مروانُ بن الحَكَم، وعبدُ الملك بن مَرْوان على ديوان المدينة، وأبو جَبِيرة على ديوان الكُوفة، وعبدُ الله بن الأرقم على بيت المال. وكتب لعلى بن أبى طالب سعيدُ بن نِمْران الهَمْدانى وعبدُ الله بن جعفر وعبدُ الله بن أبى رافع وسِمَاكُ بن حَرْب.

القَصَص:

على أن الأدب النثرى فى عصر صدر الإسلام لم يكن مقصورا على الخطب والرسائل والمعاهدات، إذ عرف القصص والأمثال أيضا. بل لقد كان القصص معروفا فى الجاهلية، لكن لم يصل لنا شيء مكتوب منه، وإنما بدأ تسجيله كتابة بعد الإسلام، وبخاصة فى العصر العباسى حيث صاغه جامعوه بطبيعة الحال بأساليبهم هم، ولم يظلَّ على وضعه الأسلوبى القديم لأنه من المستبعد جدا أن تبقى النصوص القصصية النثرية، وهى بطبيعتها طويلة، دون تغيير خلال ذلك الوقت الطويل. أما فى عصر صدر الإسلام فلدينا القصص القرآنى والقصص النبوى: فأما القرآن فقد سُجِّل أولا بأول، وعكف المسلمون عليه يحفظونه ويتلونه ويقدسونه، ومن ثم لم تكن هناك فرصة لطروء أى تغيير عليه. وأما الأحاديث النبوية فلم تسجَّل كتابةً فى

البداية بنفس الاهتمام الذى سُجّل به القرآن، وإن كان هناك صحابة كتبوا منها الكثير رغم ذلك. وفى كل الأحوال فمن الطبيعى أن يهتم المسلمون بأحاديث نبيهم اهتماما شديدا لا على أنها مادة للتسلية كما كان الجاهليون ينظرون إلى قصصهم، بل على أنها كلام نبيهم الذى أتاهم بوحى السماء، وهو كلام شديد الأهمية.

وفى القرآن، كما نعرف، كثير من القصص كقصص الأنبياء وقصص الأمم السابقة وقصص الحيوان. وكلنا يعرف تلك القصص حق المعرفة، ولا أظن أحدا يحتاج إلى الاستشهاد عليها. ومع هذا سوف أسوق إحداها، وهى قصة موسى والعبد الصالح المذكورة فى سورة «الكهف»: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ ۚ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾ فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴿٧٣﴾ فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ ۞ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي ۖ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ﴿٧٦﴾ فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ ۖ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ

فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾﴾ [سورة الكهف: الآية 60:84]

أما القَصَص النبوى فمنه العينات التالية: «مثَلُ المُدْهِنِ فى حدودِ الله والواقع فيها مَثَلُ قوم اسْتَهَموا سفينةً، فصارَ بعضُهُم فى أسْفَلِها، وصارَ بَعْضُهُم فى أعلاها. فكان الذى فى أسفلِها يمرُّ بالماءِ على الذين فى أعلاها، فتَأَذَّوْا به، فأخذَ فأسًا، فجعلَ ينْقُرُ أسفلَ السَّفينةِ، فأتَوْهُ فقالوا: ما لكَ؟ قال: تأذَّيتُم بى، ولا بُدَّ لى من الماءِ. فإنْ أَخَذُوا على يدَيهِ أَنْجَوْهُ ونَجَّوْا أنفُسَهم، وإنْ تركُوه أَهلكوه وأهلكوا أنفسَهم».

«بينما رجلٌ يمشى بطريقٍ اشتدَّ عليه العطشُ، فوجد بئرًا فنزل فيها فشرب، ثم خرج، فإذا كلبٌ يلهثُ يأكلُ الثَّرَى من العطشِ. فقال الرجل: لقد بلغ هذا الكلبَ من العطشِ مِثْلُ الذى كان بَلَغَ منى. فنزل البئرَ فملأَ خُفَّه ماءً ثم أمسكه بفيه حتى رَقِى فسَقَى الكلبَ، فشكر اللهُ له، فغَفَر له. قالوا: يا رسولَ الله، وإنَّ لنا فى هذه البهائمِ لأجرًا؟ فقال: فى كلِّ كبدٍ رطبةٍ أجرٌ».

«ذهَب ثلاثةُ نفرٍ رَادَةً لأهلِهم، فأخَذهم مطرٌ فلجَأوا إلى غار، فوقَع عليهم من فم الغارِ حجرٌ فسدَّ عليهم فمَ الغارِ، ووقَع بمتجافٍ عنهم، فقال النَّفَرُ بعضُهم لبعضٍ: عفا الأثرُ، ووقَع الحجرُ، ولا يعلَمُ بمكانِكم إلا اللهُ تعالى. فتعالَوْا، فليدْعُ كلُّ رجلٍ منكم بأوثقِ عملٍ عمِله لله عزَّ وجلَّ عسى أن يُخْرِجَكم من مكانِكم. قال أحدُهم: اللَّهُمَّ إن كُنْتَ تعلَمُ أنِّى كُنْتُ بَرًّا بوالدى، وأنِّى أرَحْتُ غنمى ليلةً، وكُنْتُ أحلُبُ لأبوى فآتيهما وهما مُضطَجِعانِ على فراشِهما حتَّى أسقيهما بيدى، وأنِّى أتيتُهما ليلةً من تلك اللَّيالى وجِئْتُ بشرابِهما فوجَدْتُهما قد ناما، وأنِّى جعَلْتُ أرغَبُ لهما فى

نومِهِما وأكرَهُ أن أُوقِظَهما وأكرَهُ أن أرجِعَ بالشَّرابِ فيستيقظانِ فلا يجدانى عندَهما، فقُمْتُ مكانى قائمًا على رؤوسِهما كذلك حتَّى أصْبَحْتُ، اللَّهُمَّ فإن كُنْتَ تعْلَمُ أنِّى فَعَلْتُ ذلك ابتغاءَ وجهِك فافرِجْ عنَّا. فزال ثُلُثُ الحجرِ انفراجًا. قالوا للآخَرِ: إيهًا! أى قُلْ. فقال الثَّانى: اللَّهُمَّ إن كُنْتَ تعْلَمُ أنِّى أحبَبْتُ ابنةَ عمٍّ لى حبًّا شديدًا، وأنِّى خطَبْتُها إلى أهلِها فمنعونيها حتَّى جعَلْتُ لها ما رَضِيتْ به بينى وبينَها ثُمَّ دعَوْتُ بها فخلَوْتُ بها فقعَدْتُ منها مقعدَ الرَّجُلِ من المرأةِ، فقالت: «لا يحِلُّ لك أن تفُضَّ الخاتمَ إلا بحقِّه»، فانقبَضْتُ إلى نفسى ووفَّرْتُ حقَّها عليها ونفسَها، اللَّهمَّ إن كُنْتَ تعلَمُ أنِّى فعَلْتُ ذلك ابتغاءَ وجهِك فافرِجْ عنَّا. فزال انفراجًا. وقالوا للثَّالثِ: إيهًا! أى قُلْ. قال: اللَّهُمَّ إن كُنْتَ تعلَمُ أنِّى عَمِل لى عاملٌ على صاع من طعام، فانطَلَق العاملُ، ولم يأخُذْ صاعَه، فاحتبَس على طويلًا من الدَّهْرِ. وإنِّى عَمَدْتُ إلى صاعِه أحرثه حتَّى اجتَمَع من ذلك الصَّاع بقرٌ كثيرٌ وشاءٌ كثيرٌ ومالٌ كثيرٌ، وإنَّ ذلك العاملَ أتانى بعد زمانٍ يطلُبُ الصَّاعَ من الطَّعام، وإنِّى قُلْتُ: إنَّ صاعَك ذلك من الطَّعام قد صار مالًا كثيرًا وشيئًا كثيرًا وبقرًا كثيرًا، فخُذْ هذا كلَّه، فإنَّه من ذلك الصَّاع. قال لى: أتسخَرُ بى؟ قُلْتُ له: لا والله، ولكنَّه الحقُّ. فانطَلَق به يسوقُ المالَ أجمعَ. اللَّهمَّ فإن كُنْتَ تعلَمُ أنِّى فعَلْتُ ذلك ابتغاءَ وجهِك فافرِجْ عنَّا. فانفَلَق الحجرُ فوقَع، فخرَجوا يتماشَوْنَ».

«جلس إحدى عشرةَ امرأةً، فتعاهدْنَ وتعاقَدْنَ ألا يكتُمْنَ من أخبارِ أزواجِهنَّ شيئًا. قالت الأولى: زوجى لحمُ جملٍ غَثٌّ على رأسِ جبلٍ وَعْرٍ، ولا سهلٌ فيرْتَقَى ولا سمينٌ فينْتَقَل. قالت الثانيةُ: زوجى لا أَبُثُّ خبرَه. إنى أخاف ألا أذرَه. إن أذكرْه أذكرْ عُجَرَه وبُجَرَه. قالت الثالثةُ: زوجى العَشَنَّقُ. إن أَنطِقْ أُطَلَّقْ، وإن أسكتْ أُعَلَّقْ. قالت الرابعةُ: زوجى كلَيلِ تِهامة، لا حرٌّ ولا قُرٌّ، ولا مخافةَ ولا سآمة. قالت الخامسةُ: زوجى إن دخل فهِدَ، وإن خرج أسِدَ، ولا يسْأل عما عهِدَ. قالت السادسةُ: زوجى إن أكل لفَّ، وإن شرب اشتفَّ، وإن اضطجع التفَّ، ولا يولِجُ

الكفَّ ليعلمَ البثَّ. قالت السابعةُ: زوجى غياياءُ طَباقاءُ. كلُّ داءٍ لـه داءٌ. شـجَّكِ أو فَلَّكِ، أو جمع كُلًّا لكِ. قالت الثامنةُ: زوجى الريحُ ريحُ زَرْنب، والمسُّ مَسُّ أرنـب. قالت التاسعةُ: زوجى رفيعُ العِمادِ، طويلُ النِّجادِ، عظيمُ الرَّمادِ، قريـبُ البيـتِ مـن النادى. قالت العاشرةُ: زوجى مالِكٌ. وما مالِكٌ؟ مالِـكٌ خـيرٌ مـن ذلـك. لـه إبـلٌ كثيراتُ المَبارِكِ، قليلاتُ المسارح. إذا سمعْنَ صوتَ الـمزهرِ أيقـنَّ أنهـن هوالـك. قالت الحاديةَ عشرةَ: زوجى أبو زَرْع، فما أبو زرع؟ أَناسَ من حُلِى أُذُنـى، ومـلأ مـن شحم عَضُدَى. وبَجَّحَنى فبَجِحَتْ إلى نفسى. وجدنى فى أهلِ غُنَيمةٍ بشِقٍّ، فجعلنى فى أهلِ صهيلٍ وأطيطٍ ودائـسٍ ومُنـقٍّ. فعنـده أقـول فـلا أُقـبَّحُ، وأرقُـدُ فأتصـبَّحُ، وأشرب فأتقنَّحُ. أمُّ أبى زرع فما أمُّ أبى زرع؟ عكومُها رَدَاحٌ. وبيتُها فَسَاح. ابنُ أبـى زرع فما ابنُ أبى زرع؟ مَضْجَعُهُ كَمَسَلِّ شَطْبَةٍ، ويشبعه ذراعُ الجَفرةِ. بنـتُ أبـى زرع فما بنتُ أبى زرع؟ طوعُ أبيها وطوعُ أمِّها، وملءُ كسائِها وغيظُ جارتِها. جاريـةُ أبـى زرع فما جاريةُ أبى زرع؟ لا تبثُّ حديثَنا تبثيثًا، ولا تنقث ميرتَنا تنقيثًا، ولا تملأُ بيتَنـا تعشيشًا. قالت: خرج أبو زرع، والأوطابُ تُمْخَضُ، فلقِـى امـرأةً معهـا وَلـدانِ لهـا كالفهدينِ يلعبان من تحت خَصْرِها برُمَّانتَينِ، فطَلَّقَنى ونكحَها. فنكحتُ بعدَه رجلًا سريا، ركب شَرِيا، وأخذ خطِيا، وأراح عـلى نَعَـمًا ثريـا، وأعطـانى مـن كـلِّ رائحـةٍ زوجًا. قال: كُلِى أمَّ زرع ومِيرى أهلَكِ. فلو جمعتُ كلَّ شيءٍ أعطانى مـا بلـغ أصـغرَ آنيةِ أبى زرع. قالت عائشةُ: قال لى رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: كنتُ لكِ كـأبى زرعٍ لأمِّ زرع».

«قال النَّاسُ: يا رسولَ الله، هل نرى ربَّنا يومَ القيامـةِ؟ فقـال النَّبـى صـلَّى اللهُ عليه وسلَّم: هل تُضارُّونَ فى الشَّمْسِ ليس دونَها سَحابٌ؟ قالوا: لا يـا رسـولَ الله. قال: فهل تُضارُّونَ فى القمرِ ليلةَ البدرِ ليس دونَه سَحابٌ؟ قالوا: لا يـا رسـولَ الله. قال: فإنَّكم ترَوْنَه يومَ القيامةِ كذلكَ. يجمَعُ اللهُ النَّاسَ يومَ القيامةِ فيقـولُ: مَـن كـان يعْبُدُ شيئًا فلْيتْبَعْه. فيتبَعُ مَن كان يعْبُدُ الشَّمْسَ الشَّمْسَ، ومَن كان يعبُدُ القمَرَ القمرَ،

ويتبَعْ مَن كان يعبُدُ الطَّواغيتَ الطَّواغيتَ، وتبقى هذه الأُمَّةُ فيها مُنافِقوها، فيأتيهم اللهُ جلَّ وعلا فى غيرِ صورتِه التى يعرِفونَ فيقولُ: أنا ربُّكم. فيقولونَ: نعوذُ باللهِ منكَ. هذا مَقامُنا حتَّى يأتينا ربُّنا. فإذا جاءنا ربُّنا عرَفْناه. قال: فيأتيهم فى الصُّورةِ الَّتى يعرِفونَ فيقولُ: أنا ربُّكم فيقولونَ: أنتَ ربُّنا. ويضْرَبُ جِسرٌ على جَهنَّمَ. قال النَّبى صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: فأكونُ أوَّلَ مَن يجُوزُه، ودعوةُ الرُّسلِ يومَئذٍ: اللَّهمَّ سلِّمْ سلِّمْ، وبه كلاليبُ مِثْلُ شَوْكِ السَّعْدانِ. هل تدرونَ شَوْكَ السَّعدانِ؟ قالوا: نعم يا رسولَ الله. قال: فإنَّها مِثْلُ شَوْكِ السَّعْدانِ، غيرَ أنَّه لا يعلَمُ قدرَ عِظَمِها إلا اللهُ، فتخطَفُ النَّاسَ بأعمالِهم: فمنهم المُوبَقُ بعمَلِه، ومنهم المُخَرْدَلُ ثمَّ ينجو. حتَّى إذا فرَغ اللهُ مِن القضاءِ بَينَ عبادِه وأراد أنْ يخرِجَ مِن النَّارِ مَنْ أراد ممَّن كان يشهَدُ ألا إلهَ إلا اللهُ أمَر اللهُ الملائكةَ أنْ يخْرِجوهم، فيعرفونَهم بعلامةِ آثارِ السُّجودِ. قال: وحرَّم اللهُ على النَّارِ أنْ تأكُلَ مِن ابنِ آدَمَ أثَرَ السُّجودِ. قال: فيخرِجونهم قد امْتُحِشوا، فيصَبُّ عليهم ماءٌ يقالُ له: «ماءُ الحياةِ»، فينبُتونَ نباتَ الحِبَّةِ فى حَميلِ السَّيلِ. قال: ويبقى رجُلٌ مُقبِلٌ بوجهِه على النَّارِ، فيقولُ: يا ربِّ، قد قشَبنى ريحُها، وأحرَقنى ذُكَاؤُها، فاصرِفْ وجهى عنِ النَّارِ. فلا يزالُ يدعو، فيقولُ اللهُ جلَّ وعلا: فلعلِّى إنْ أعطَيتُكَ ذلكَ أنْ تسأَلَنى غيرَه؟ فيقولُ: لا وعزَّتِكَ، لا أسأَلُكَ غيرَه. فيصرِفُ وجهَه عنِ النَّارِ، ثمَّ يقولُ بعدَ ذلكَ: يا ربِّ، قرِّبْنى إلى بابِ الجنَّةِ. فيقولُ جلَّ وعلا: أليس قد زعَمْتَ ألا تسأَلَنى غَيرَه؟ وَيلَكَ يا ابنَ آدَمَ! ما أغدرَكَ! فلا يزالُ يدعو، فيقولُ جلَّ وعلا: فلعلَّكَ إنْ أعطَيتُكَ ذلكَ أنْ تسأَلَنى غَيرَه؟ فيقولُ: لا وعزَّتِكَ، لا أسأَلُكَ غيرَه. ويعطى اللهَ مِن عهودٍ ومواثيقَ ألا يسأَلَه غيرَه، فيقرِّبُه إلى بابِ الجنَّةِ. فلمَّا قرَّبه منها انفَهَقَتْ له الجنَّةُ، فإذا رأى ما فيها سكَت ما شاء اللهُ أنْ يسكُتَ ثمَّ يقولُ: يا ربِّ، أدخِلْنى الجنَّةَ. فيقولُ جلَّ وعلا: أليس قد زعَمْتَ ألا تسأَلَنى غيرَه؟ وَيلَكَ يا ابنَ آدَمَ! ما أغدَرَكَ! فيقولُ: يا ربِّ، لا تجعَلْنى أشقى خَلْقِكَ. قال: فلا يزالُ يدعو حتَّى يضحَكَ جلَّ وعلا. فإذا ضحِك منه أذِن له بالدُّخولِ دخولِ الجنَّةِ،

فإذا دخَل قيل له: «تمَنَّ كذا، وتمَنَّ كذا»، فيتمنَّى حتَّى تنقطِعَ به الأمانى، فيقولُ جلَّ وعلا: هو لكَ ومِثْلُه معه. وذلك الرَّجُلُ آخِرُ أهلِ الجنَّةِ دخولًا».

وبعض الأحاديث النبوية هى قصص فى حد ذاتها لم ينطق بها الرسول، بل كان عليه السلام أحد أبطالها ورواها بعض الصحابة، كقصة إسلام عمر بن الخطاب على سبيل المثال: «رُوِى أن النبى دعا فقال: اللهم أَعِزَّ الإسلامَ بأبى جهل بن هشام أو بعمر بن الخطاب. وكان عمر رجلًا شديد الشكيمة لا يرَام ما وراء ظهره، وقد أسلمت أخته فاطمة بنت الخطاب وهى تحت سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل. وكان خبّاب بن الأرتّ ينتابها ويقرئها القرآن. قال: فتذاكرت قريش فى ناديها أَمْرَ النبى ﷺ وما يحدث من التفرق والالتئام، فانتدب عمر له و خرج من بينهم متوشحا بسيفه وهو يريد رسول الله، وقد ذكر أنه فى بيت الأرقم بن الأرقم عند الصفا، فلقيه نُعَيم بن عبد الله النحّام، فقال له: أين تريد يا عمر؟ قال: أريد هذا الصابئ الذى فرَّق أمر قريشٍ فأقتله. فقال له نعيم: لقد غَرَّتْك نفسك! أترى بنى عبد مناف تاركيك تمشى على الأرض، وقد قتلت ابن عمهم؟ أفلا ترجع إلى أهلك فتقيم أمرهم؟ قال عمر: أى أهلى؟ قال: أختك وختنك. فعدل عمر عن الطريق إليهما، فإذا عندهم خباب يقرئهم القرآن ومعه صحيفة فيها سورة «طه». فلما أحسوا بعمر غَيبُوا خبابا وخبأوا الصحيفة، فقال عمر: ما هذه الهينمة التى سمعتها وأنا على الباب؟ قالوا: ما سمعت إلا خيرا. قال: بلى، وإنى قد أُخْبِرْت أنكما صَبَوْتُما. و بطش بخباب، فقامت أخته تَكُفّه عنه، فأصابتها شجةٌ، فدَبِرا لذلك وأظهرا إسلامهما وقالا: بلى قد أسلمنا، فاصنع ما بدا لك.

فارعوى عمر وقال لأخته: «أعطينى هذه الصحيفة أنظر ما فيها»، وكان عمر كاتبا، فقالت: إنى أخشاك عليها. فأعطاها عهد الله وميثاقه أنه يردها، فقالت: إنك نجس، وإنه لا يمسها إلا طاهر. فقام عمر فاغتسل وأخذ الصحيفة وقرأ صدرا من السورة، فأعجب به وألقى الله فى قلبه الإسلام، فخرج إليه خباب وقال: يا عمر،

إنى لأرجو أن يكون الله قد خصك بدعوة نبيه. قال عمر: فـأين محمـد يـا خبـاب؟ قال: فى دار الأرقم عند الصفا. فجاء عمر حتى قرع عليهم الباب، فقـام رجـل مـن الصحابة فنظر من خَلَل الباب فرجع وهو فزع مذعور فقـال: هـذا عمـر متوشـحا بسيفه. فقال حمزة بن عبد المطلب: إن كان جاء يريد خيرا بذلناه، وإن كان يريـد شرا قتلناه بسيفه. فأذن له ونهض رسول الله ﷺ فلقيه وأخذ بحُجْزَته ثم جذبـه جذبـة شديدة فقال: ما جاء بك يا ابن الخطاب؟ فوالله ما أراك تنتهى حتـى ينْـزِل اللهُ بـك قارعةً. قال: جئـت لأومـن بـالله ورسـوله. فقـال النبـى: الله أكـبر. وأسـلم عمـر وقال:كم أنتم؟ قال: أربعون. قال: والله لا نعبـد الله بعـده سرا. فخـرج إلى النـاس وأظهر الإسلام. فقال ابن مسعود: إن إسلام عمر كـان فتحـا، وإن هجرتـه كانـت نصرا، وإن خلافته كانت رحمة. وما كنـا نقـدر أن نصـلى عنـد الكعبـة حتـى أسـلم عمر».

وثم حديث إذا صحت نسبته إلى أبى هريرة كان نصا آخر من نصوص الفـن القصصى فى ذلك العصر من كلام أبى هريرة نفسه لا من كلام الرسول. وهو يجرى كالآتى: «وَكَّلَنِى رسولُ الله ﷺ بحفظ زكاة رمضان، فأتانى آتٍ فجعل يحثـو مـن الطعام، فأخذتُه وقلتُ: لأرفعنَّك إلى رسول الله صـلى الله عليـه وسـلم. قـال: إنـى محتاج، وعلى عيال، ولى حاجة شديدة! قال: فخَلَّيتُ عنه. فأصـبحتُ، فقـال النبـى ﷺ: يا أبا هريرة، ما فعل أسيرك البارحة؟ قال: قلت: يا رسول الله، شـكا حاجـةً شديدةً وعيالًا، فرحمتُه وخليتُ سبيله. قال: أمَا إنه قد كَذَبَك، وسيعود. فعرفتُ أنه سيعود لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم إنه سيعود. فرصدتُه، فجـاء يحثـو مـن الطعام، فأخذته فقلت: لأرفعنَّك إلى رسول الله ﷺ. قـال: دعنـى، فـإنى محتـاج، وعلى عيال. لا أعود! فرحمتُه وخليتُ سبيله. فأصبحت، فقال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا أبا هريرة، ما فعل أسيرك البارحة؟ قلت: يا رسول الله، شكا حاجـة وعيالا، فرحمتُه فخَلَّيتُ سبيله. قال: أما إنه قد كَذَبَك، وسـيعود. فرصـدتُه الثالثـة،

فجاء يحثو من الطعام، فأخذتُه فقلت: لأرفعنك إلى رسول الله ﷺ. وهذا آخر ثلاث مرات أنك تزعم أنك لا تعود، ثم تعود. فقال: دَعْنِى أُعَلِّمْك كلماتٍ ينفعك الله بها. قلت: ما هُنَّ؟ قال: إذا أويتَ إلى فراشك فاقرأ آية الكرسى: «الله لا إله إلا هو الحى القيوم» حتى تختم الآية، فإنك لن يزال عليك من الله حافظ، ولا يقربك شيطان حتى تصبح. فخليتُ سبيله، فأصبحتُ، فقال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما فعل أسيرك البارحة؟ قلت: يا رسول الله، زعم أنه يعلّمنى كلمات ينفعنى الله بها، فخليت سبيله. قال: وما هى؟ قال: قال لى: إذا أويتَ إلى فراشك فاقرأ آية الكرسى من أولها حتى تختم الآية: «الله لا إله إلا هو الحى القيوم». وقال لى: لن يزال عليك من الله حافظ، ولا يقربك شيطان حتى تصبح. فقال النبى صلى الله عليه وسلم: أَمَا إنه صَدَقَكَ، وهو كذوب. تَعْلَمُ من تخاطب ثلاث ليال يا أبا هريرة؟ قلت: لا. قال: ذاك شيطان».

ومن القَصَص الذى وقعت أحداثه فى تلك الفترة، وإن كنت لا أظنه كُتِب حينذاك، بل بعده بزمن طويل عندما عرف العرب الورق والقلم والنسخ على نطاق واسع يسمح بتسجيل مثل تلك القصة، وأغلب الظن أن ذلك كان فى العصر العباسى، القصة التالية التى تحكى لنا إسلام جبلة وتنصُّره وموته على دين الصليب رغم أن جميع الأطراف كانت تريد أن يرتد إلى دين التوحيد مثلما انسلخ منه، وإن كان من الواضح أن القصة لم تبق كما وقعت بل دخلها التحوير الفنى فجعل منها قصة شائقة ممتعة: «حدثنى أبو الحسن على بن أحمد بن عمر بن الأجدع الكوفى بهيت قال: حدثنى إبراهيم بن على مولى بنى هاشم قال: حدثنا ثقات شيوخنا: أن جَبَلَة بن الأيهم بن أبى شمر الغسانى لما أراد أن يسْلِم كتب إلى عمر بن الخطاب من الشام يعلمه بذلك يستأذنه فى القدوم عليه، فسُرَّ بذلك عمر والمسلمون، فكتب إليه أَنِ اقْدَمْ، ولك ما لنا، وعليك ما علينا. فخرج جبلة فى خمسمائة فارس من عك وجفنة، فلما دنا من المدينة ألبسهم ثياب الوَشْى المنسوج بالذهب والفضة، ولبس

يومئذ جبلةُ تاجَه، وفيه قرط مارية، وهى جدته، فلـم يبـق يومئـذ بالمدينـة أحـد إلا خرج ينظر إليه حتى النساء والصبيان. وفـرح المسـلمون بقدومـه وإسـلامه، حتـى حضر الموسمَ من عامه ذلك مع عمر بن الخطاب. فبينما هو يطوف بالبيت إذ وطـئ على إزاره رجل من بنى فزارة فحَلَّه. فالتفت إليه جبلة مغضبًا، فلطمه فهشـم أنفـه. فاستعدى عليه الفزارى عمرَ بن الخطاب، فبعث إليه فقال: ما دعاك يا جبلـة إلى أن لطمتَ أخاك هذا الفزارى فهشمتَ أنفـه؟ فقـال: إنـه وطـئ إزارى فحَلَّـه. ولـولا حرمة هذا البيت لأخذتُ الذى فيه عيناه. فقال له عمر: أما أنت فقد أقررتَ. فإمـا أن ترضيه، وإلا أَقَدْتُه منك. قال: أَتُقِيده منى، وأنا ملك، وهو سُوقَة؟ قال: يا جبلة، إنه قد جمعك وإياه الإسلام، فما تَفْضُله بشيء إلا بالعافية. قال: والله لقد رجـوتُ أن أكون فى الإسلام أعزَّ منى فى الجاهلية. قال عمر: دع عنك ذلك. قال: إذن أتنصَّر. قال: إن تنصَّرْتَ ضربتُ عنقك. قال: واجتمع قوم جبلة وبنو فزارة، فكادت تكون فتنة. فقال جبلة: أَخِّرْنى إلى غَدٍ يا أمير المؤمنين. قال: ذلك لك. فلما كان جِنْح الليل خرج هو وأصحابه، فلم يَنِْ حتى دخل القسطنطينية عـلى هرقـل فتنصّـَر، وأقـام عنده. وأعظمَ هرقلُ قدومَ جبلة وسُرَّ بذلك، وأقطعه الأموال والأراضى والرِّبَاع.

فلما بعث عمر بن الخطاب رسـولًا إلى هرقـل يـدعوه إلى الإسـلام أجابـه إلى المصالحة على غير الإسلام. فلما أراد أن يكتب جواب عمر قال للرسول: أَلَقِيتَ ابن عمك هذا الذى ببلدنا (يعنى جبلة) الذى أتانا راغبًا فى ديننا؟

قال: ما لقِيتُه.

قال: الْقَهُ، ثم ائتنى أُعْطِك جواب كتابك.

وذهب الرسول إلى باب جبلة، فإذا عليه من القهارمـة والحجّـاب والبهجـة وكثرة الجمع مثل ما على باب هرقل. قال الرسول: فلم أزل أتلطف فى الإذن حتـى أذن لى، فدخلت عليه فرأيت رجلًا أصهب اللحية ذا سبال، وكان عهدى بـه أسـمر أسود اللحية والرأس. فنظرت إليه فأنكرته، فإذا هو قد دعا بسُحَالة الذهب فـذَرَّها

فى لحيته حتى عاد أصهب، وهو قاعد على سرير من قوارير، قوائمه أربعة أُسُود من ذهب. فلما عرفنى رفعنى معه فى السرير، فجعل يسائلنى عن المسلمين، فذكرت خيرًا وقلت: **قد أضعفوا أضعافًا على ما تعرف.**

فقال: كيف تركت عمر بن الخطاب؟

قلت: بخير.

فرأيت الغم قد تبين فيه لما ذكرت له من سلامة عمر. قال: فانحدرتُ عن السرير، فقال: لم تأبى الكرامة التى أكرمناك بها؟ قلت: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن هذا. قال: نعم، صلى الله عليه وسلم، ولكن نَقِّ قلبك من الدنس، ولا تُبَالِ علامَ قعدت. فلما سمعته يقول: «صلى الله عليه وسلم» طمعتُ فيه. فقلت له: ويحك يا جبلة! ألا تُسْلِم، وقد عرفتَ الإسلام وفضله؟

قال: أبعد ما كان منى؟

قلت: نعم، قد فعل رجل من بنى فزارة أكثر مما فعلت. ارتد عن الإسلام وضرب وجوه المسلمين بالسيف، ثم رجع إلى الإسلام، وقُبِل ذلك منه، وخَلَّفْتُه بالمدينة مسلما.

قال: ذَرْنى من هذا. إن كنت تضمن لى أن يزوجنى عمر ابنته ويولينى الأمر من بعده رجعت إلى الإسلام.

قلت: ضمنت لك التزوج، ولم أضمن لك الإمرة.

قال: فأومأ إلى خادم بين يديه، فذهب مسرعًا، فإذا خدم قد جاءوا يحملون الصناديق فيها الطعام، فوُضِعَتْ ونُصِبَتْ موائد الذهب وصحاف الفضة، وقال لى: كُلْ.

فقبضت يدى وقلت: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن الأكل فى آنية الذهب والفضة.

فقال: نعم، ﷺ ، ولكن نَقِّ قلبك، وكُلْ فيما أحببت.

قال: فأكل فى الذهب والفضة، وأكلتُ فى الخليج. فلـما رُفِـع الطعـام جـيء بطِسَاس الفضة وأباريق الذهب، وأومأ إلى خادم بين يديه، فمـر مسرـعًا، فسـمعت حِسًّا فالتفتُّ، فإذا خدم معهن الكراسى مرصعة بـالجواهر، فوُضِـعَتْ عشرـة عـن يمينه وعشرة عن يساره. ثم سمعت حِسًّا، فإذا عشر جَـوَارٍ قـد أقـبلن مطمومـات الشعر متكسرات فى الحَلْى عليهن ثياب الديباج، فلم أر وجوها قـط أحسـن مـنهن، فأقعدهن على الكراسى عن يمينه. ثـم سـمعت حِسًّـا، فـإذا عشرـ جـوارٍ أخـرى، فأجلسهن على الكراسى عن يساره. ثم سمعت حِسًّا، فـإذا جاريـة كأنهـا الشـمس حُسْنًا، وعلى رأسها تاج، وعلى ذلك التاج طائر لم أر أحسن منـه، وفى يـدها اليمنـى جامٌ فيه مسك وعنبر، وفى يدها اليسرى جامٌ فيه مـاء ورد. فأومـأتْ إلى الطـائر، أو قال: فصفرتْ بالطائر، فوقع فى جامِ ماء الورد فاضطرب فيه. ثـم أومـأتْ إليـه، أو قال: فصفرتْ به، فطار حتى نزل على صليب فى تاج جبلة، فلم يـزل يرفـرف حتـى نفض ماء ريشه عليه، وضحك جَبَلة من شدة السرور حتى بدت أنيابه، ثـم التفـت إلى الجوارى اللواتى عـن يمينـه، فقـال: بـالله أطربننـى. فانـدفعن يتغنَّـينَ، يخفقـن بعيدانهن ويقلن:

لله دَرُّ عصـــــــابةٍ نـــــــادمتُهم ... يومًـــا بجِلَّـــقَ فـــى الزمـــان الأوّلِ

يسْـقُون مــن ورد الـبريصَ عليهمــو ... بَــرَدَى يصَــفَّق بــالرحيق السَّلْسَـلِ

أولاد جفنـــة حـــول قـــبر أبيهمـــو ... قــبر ابــن ماريــةَ الكــريمِ الــمُفْضِلِ

يغْشَـوْن حتـــى مـــا تَهِـرُّ كلابُهـــم ... لا يسْـــألون عـــن الســـواد المقبـــلِ

بــيض الوجــوه كريمــة أحســابهم ... شُــمّ الأنــوف مـــن الطــراز الأولِ

قال: فضحك حتى بدت نواجذه، ثم قال: أتدرى من قائل هذا؟

قلت: لا.

قال: قائله حسان بن ثابت شاعر رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ثم التفت إلى الجوارى اللاتى عن يساره، فقال: بالله أبكيننا.

فاندفعن يتغنَّيْنَ، يخفقن بعيدانهن ويقلن:

لمـــن الـــدارُ أقفـــرتْ بمعـــانِ	بـــين أعلـــى اليرمـــوك فالخمّـــانِ؟
ذاك مَغْنًى لآل جفنـةَ فـى الدهـــ	ـــر محلًّـــا لحـــادث الأزمـــانِ
قـــد أرانـــى هنـــاك دهـــرًا مكينًـــا	عنـد ذلـك التـاج مقعـدى ومكـاني
ودنـــا الفِصْـــحُ فالولائـــد ينظمـــ	ـــن ســـراعًا أكِلّـــة المرجـــانِ
لم يعللـــن بالمغـــافير والصمـــ	ـــغ ولا نَقْـف حنظـل الشـريانِ

قال: فبكى حتى جعلت الدموع تسيل على لحيته، ثم قال: أتـدرى مـن قائـل هذا؟

قلت: لا أدري.

قال: حسان بن ثابت. ثم أنشأ يقول:

تنصَّرَتِ الأشراف من عـار لطمـةٍ	ومـا كـان فيهـا، لـو صـبرتَ لهـا، ضـررْ
تكنَّفنـــى منهـــا لجـــاجٌ ونخـــوةٌ	وبعـتُ لهـا العـين الصـحيحة بـالعَوَرْ
فيـا ليـت أمـى لم تلـدنى، وليـتني	رجعـتُ إلى الأمـر الـذى قـال لى عمـرْ
ويـا ليتنـى أرعـى المخـاض بقفـرة	وكنـت أسـيرًا فـى ربيعـةَ أو مُضَـرْ
ويـا ليـت لى بالشـام أدنـى معيشـةٍ	أجـالس قـومى ذاهـبَ السمعِ والبصرْ

ثم سألنى عن حسان: أحى هو؟

قلت: نعم، تركته حيا.

فأمر لى بكُسْوَةٍ ومالٍ ونُوقٍ مُوقَرَةٍ بُرًّا، ثم قال لى: إن وجدتَه حيا فـادفع إليـه الهدية وأقرئه سلامى. وإن وجدته ميتًا فادفعها إلى أهله، وانحر الجمال على قبره.

فلما قدمتُ على عمر أخبرته خبر جبلة وما دعوته إليه من الإسلام، والشـرط الذى شرطه، وأنى ضمنت له التزوج، ولم أضمن له الإمرة. فقال: هلا ضَـمِنْتَ لـه الإِمْرَة؟ فإذا أفاء الله به الإسلام قضى عليه بحكمه عز وجل. ثم ذكـرتُ لـه الهديـة

التى أهداها إلى حسان بن ثابت، فبعث إليه، وقد كُفَّ بصره، فأُتِى به، وقائد يقوده. فلما دخل قال: يا أمير المؤمنين، إنى لأجد رياح آل جفنة عندك.

قال: نعم، هذا رجل أقبل من عنده.

قال: هات يا ابن أخى. إنه كريم من كرامٍ مدحتهم فى الجاهلية، فحلف ألَّا يلْقَى أحدًا يعرفنى إلا أهدى إلى معه شيئًا. فدفعت إليه الهدية: المال والثياب، وأخبرته بما كان أَمَرَ به فى الإبل إن وُجِد ميتًا. فقال: وددت أنى كنت ميتًا فنُحِرَتْ على قبرى.

قال الزبير: وانصرف حسان وهو يقول:

إن ابن جفنة من بقية معشر ... لم يغْذُهم آباؤهم باللّؤمِ
لم ينسنى بالشام إذ هو ربُّها ... مَلِكًا ولا متنصِّرًا بالرومِ
يعطى الجزيل، ولا يراه عنده ... إلا كبعض عطية المذمومِ

فقال له رجل كان فى مجلس عمر: أتذكر ملوكًا كفرةً أبادهم الله وأفناهم؟ قال: ممن الرجل؟ قال: مُزَنِى. قال: أمَا والله لولا سوابق قومك مع رسول الله صلى الله عليه وسلم لطَوَّقْتُكَ طَوْقَ الحمامة.

قال: ثم جهزنى عمر إلى قيصر وأمرنى أن أضمن لجبلة ما اشترط به، فلما قدمت القسطنطينية وجدت الناس منصرفين من جنازته، فعلمت أن الشقاء غَلَب عليه فى أُمّ الكتاب».

ولم يقتصر القصص الإسلامى على نصوص النثر، بل امتد إلى الشعر أيضا كما فى قول الحطيئة مثلا:

وَطَاوِى ثلاثٍ عاصِبِ البَطْنِ مُرْمِلِ ... بِتَيهَاءَ لَم يعْرف بِها ساكِنٌ رَسْمَا
أَخِى جَفْوَةٍ فيهِ مِنَ الإِنْسِ وَحْشَةٌ ... يرَى البُؤْسَ فيها مِن شَرَاسَتِهِ نُعْمَي
وَأَفْرَدَ فى شِعْبٍ عَجُورًا إزاءها ... ثلاثةُ أَشْباحٍ تَخَالُهُمُو بَهْمَا
رَأى شَبَحًا وَسْطَ الظَّلامِ، فَراعَهُ ... فَلَمّا بَدا ضَيفًا تَسَوَّرَ وَاهْتَمَّا

وَقَالَ ابْنُهُ لَمّا رَآهُ بِحَيرَةٍ ... أَيا أَبَتِ، اذْبَحْنى وَيسِّر لَهُ طُعْمَا

وَلا تَعْتَذِر بِالعُدْمِ. عَلَّ الَّذى طَرَا ... يظُنُّ لَنَا مالًا فَيوسِعَنا ذَمَّا

فَرَوَّى قَليلًا ثُمَّ أَحْجَمَ بُرْهَةً ... وَإِنْ هُوَ لَمْ يذْبَحْ فَتاهُ فَقَدْ هَمَّا

فَبَينا هُما عَنَّتْ عَلى البُعْدِ عانَةٌ ... قَدِ انْتَظَمَتْ مِن خَلْفِ مِسْحَلِها نَظْمَا

عِطَاشًا تُريدُ الماءَ، فانسابَ نَحْوَها ... عَلَى أَنَّهُ منها إِلى دَمِها أَظْمَا

فَأَمْهَلَها حَتّى تَرَوَّتْ عِطاشُها ... فَأَرْسَلَ فيها مِنْ كِنانَتِهِ سَهْمَا

فَخَرَّت نَحُوصٌ ذاتُ جَحْشٍ سَمِينَةٌ ... قَدِ اكْتَنَزَتْ لَحْمًا، وَقَد طُبِّقَت شَحْمَا

فَيا بِشْرَهُ إِذْ جَرَّها نَحْوَ قَوْمِهِ! ... وَيا بِشْرَهُم لَمّا رَأَوْا كَلْمَها يدْمَى!

فباتوا كِرامًا قَدْ قَضَوْا حَقَّ ضَيفِهِمْ ... فَلَم يغْرَمُوا غُرْمًا، وَقَدْ غَنِمُوا غُنْمَا

وَباتَ أَبُوهُم مِنْ بَشَاشَتِهِ أَبًا ... لِضَيفِهِمُو، وَالأُمُّ مِنْ بِشْرِها أُمّا

الأمثال:

ويبقى من فنون الأدب فى عصرنا هذا فن المثل، الذى يقول الأستاذ السباعى بيومى، فى «تاريخ الأدب العربي- فى العصر الإسلامي»، إنه «انعدم تقريبا لأنه كان قائما قبل الإسلام على ضعف الرابطة الاجتماعية ونمو الشخصية الفردية وفراغ الإنسان لنفسه يرقب أطوارها ويعنى بشؤونها. ولم يك هذا متوافرا فى صدر الإسلام إذ انساقت الأمة إلى الغزو والجهاد ونشر معالم الشريعة والدين غير شاعرة أفرادها إلا أنها لَبِنات فى بناء تفنى شخصياتها فى مجموعه وتبقى متماسكة به لإقامة أركانه. هذا هو وجه انعدام المثل مع ما راعهم من أمثال القرآن وأمثال الرسول».

ويلاحظ القارئ كيف يردد الكاتب هنا ذات الأسباب تقريبا التى أوردها من قالوا بصمت الشعراء عن إبداع الشعر لدن مجيء الإسلام، وكأن الإسلام يوقف المراكب السائرة. كذلك من الغريب أن يعزو اختفاء الأمثال إلى انشغال المسلمين بالغزو والجهاد ثم يتحدث عن أمثال الرسول الكريم، وكأنه لم يكن يغزو

أو يجاهد. ثم هل يحتاج المثل إلى احتشاد وفراغ كما يقول كاتبنا؟ وإذا كان الإسلام لم يشغل الشعراءَ عن الاستمرار فى إبداعاتهم الشعرية، والشِّعْر هو ما هو، فكيف نتصور أن يشغل الناسَ عن ضَرْبِ الأمثال، وضربُ الأمثال أهون آلاف المرات من نظم الشعر؟ وبالمثل نستغرب قول الأستاذ بيومى إن الأمثال تقوم على ضعف الروابط الاجتماعية وعكوف الشخص على نفسه، رغم ما هو معروف من أنها تنهض على التواصل الاجتماعى، وإلا فكيف يتوصل الإنسان إلى صوغ المثل ما لم يتأمل أحوال الناس والمجتمع من حوله؟ وما فائدة المثل إذا ظل حبيس صدر الإنسان؟ ثم إن المثل لا نعرف له فى معظم الأحيان صاحبا معينا، وهو ما يؤكد الصبغة الجماعية له. كذلك قلما كان العربى ينعزل عن قبيلته وعشيرته، إذ لم يكن العرب قراء ولا متأملين فى الكون متحنثين فى الكهوف وعلى قمم الجبال لا يصلح أمرهم إلا مع الانفراد عن البشر. ثم كيف نوفق بين دعوى كاتبنا وبين كثرة ما أُثِر عن رسولنا صلى الله عليه وسلم من أمثال؟ أتراه، دون مَنْ حوله، كان منعزلا عن أمته عاكفا على نفسه لا يختلط بالمسلمين؟ ومن الطريف أنه لم يؤثر عنه شيء من الكلمات المأثورة أيام تحنثه وانفراده بنفسه كثيرا فى غار حراء، على حين كثرت أقواله السائرة المحفوظة بعد البعثة. وعلى أية حال فالأمثال للمجتمع كالماء والهواء لا يمكنه الاستغناء عنها.

وقد مرت طائفة من أقواله عليه السلام فى هذا الفصل مما صار أمثالا مشهورة. أما الأمثال التى أتتنا عن الصحابة الكرام فمنها على سبيل المثال قول بلال فى غزوة بدر وهو يستعد لقتل أبى جهل معذِّبه فى الجاهلية: «لا نجوتُ إن نجا»، وقول الصِّدِّيق: «اصطناع المعروف يقى مصارع السوء»، وقوله عند موت الرسول وذهول عمر آنذاك: «من كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حى لا يموت»، وقوله لعمر عند اقتراحه تجنُّب الاصطدام بالمرتدين: «أجَبَّارٌ فى الجاهلية وخَوَّارٌ فى الإسلام؟»، وقول الفاروق: «مَنْ كَتَمَ سِرَّه كان الخِيارُ فى يده»،

«أعقلُ الناس أعذرُهم للناس»، «إن السماء لا تمطر ذهبا ولا فضة»، «لستُ بالخِبّ، ولكن الخِبّ لا يخدعني»، «لو كان الشكر والصبر بَعِيرَين ما باليتُ أيهما أركب»، وقوله يمدح فقه على: «قضيةٌ ولا أبا حسنٍ لها»، وقوله لمعاوية واليه على الشام تعليقا على بعض تصرفاته السياسية: «لا آمُرُك ولا أنهاك»، وقوله لعمرو بن العاص حين ضرب ابنُه رجلا مصريا سبقه بالخيل: «متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا؟»، وقوله لبطنه حين كانت تقرقر من الجوع أيام الرمادة: «قَرْقِرْ ما تُقَرْقِر، فليس لكَ إلا الزيت»، وقوله: «وَلِّ حارّها من تولى قارّها»، أى المفروض أن يتحمَّل ثقلَ الأمر مَنْ سبق أن استفاد من خيراته، وقول عبد الرحمن بن عوف له عندما طلب منه أن يمد يده ليبايعه خليفة: «ما سمعتُ منك فَهَّةً فى الإسلام قبلها»، وقول أحد رعيته له حين صارحه بأنه لا يمكن أن يحبه أبد الدهر، لكنه لن يظلمه: «إنما يبكى على الحب النساء»، وقول عثمان: «ما يزَعُ الله بالسلطان أكثرُ مما يزع بالقرآن»، «أنتم إلى إمامٍ فعَّال أحوجُ منكم إلى إمامٍ قوَّال»، وقول على: «مَنْ تكلَّف ما لا يعنيه فاته ما يعنيه»، «أهون الأعداء كيدًا أظهرهم لعداوته»، «إلى الله أشكو بلادة الأمين ويقظة الخائن»، «الناس من خوف الذل فى ذل»، «الوحدة خير من رفيق السوء»، «قيمة كل امرئ ما يحسنه»، «من فاز بفلان فقد فاز بالسهم الأَخْيب»، وقوله للزبير بن العوام حين لم ينصره فى وقعة الجمل رغم مبايعته له قبلا: «ما عَدَا مما بَدَا؟»، وقول عائشة له عند انتصاره فى تلك الوقعة: «إذا ملكتَ فأَسْجِحْ»، وقول خالد بن الوليد: «لا نامتْ أعين الجبناء»، وقول ابن مسعود: «ما شيءٌ أحقَّ بطول سجنٍ من لسان»، وقول معاوية: «أنقصُ الناس عقلا مَنْ ظلم مَنْ هو دونه»، «مَنْ طلب عظيما خاطَر بعظيمِه»، وقوله محبورا حين بلغه موت الأشتر النخعى، وكان من رجال على: «واهًا! ما أبردها على الفؤاد! »، وقول عمرو بن العاص: «إمامٌ عادل خيرٌ من مطرٍ وابِل»، «زَلَّة الرِّجْل عَظْمٌ يجْبَر، وزلة اللسان لا تُبْقِى ولا تَذَر»، «ليس العاقل مَنْ يعرف الخير من الشر، ولكنه من يعرف خير

الشَّرَّين»، وقول المغيرة بن شعبة: «فى كل شيء سَرَفٌ إلا فى المعروف»، وقول عبد الله بن العباس: «الهوى إلهٌ معبود»، «إذا جاء القَدَر عَمِى البَصَر»، وقول عبد الله بن عمر: «البِرُّ شيءٌ هَين: وجهٌ طَلْقٌ، وكلامٌ لَين»، وقول الحسن بن على: «أَكْيس الكَيس التُّقَى، وأحمقُ الحُمْقِ الفجور»، وقول أخيه الحسين: «خير المال ما وُقِى به العِرْض»، وقولهم: «أشأم من طُوَيس»، وهو مخنث كان يقول: «وُلِدْتُ يوم مات رسول الله صلى الله عليه وسلم، وفُطِمْتُ يوم مات أبو بكر رضى الله عنه، وبلغت الحنث يوم قُتِل عمر رضى الله عنه، وتزوجت يوم قُتِل عثمان، ووُلِدَ لى ليلة قُتِلَ على عليه السلام»، وقولهم: «تقيس الملائكة إلى الحدادين»، الذى يفسره المفضل بن سلمة فى كتابه: «الفاخر» كما يلى: «الحدّادون: السجّانون. ويقال لكل مانع: حدّاد... ومعنى الكلام: تشبه خَزَنَةَ جهنم بالسجّانين من الناس؟ ويقال إن أصل هذا المثل أنه لما نزلت هذه الآية: «عَلَيهَا تِسْعَةَ عَشَرَ» قال رجل من كفار قريش من بنى جُمَح...: أنا أكفيكم ثمانية عشر، واكفونى واحدًا... فقال رجل سمع كلامه: «تقيس الملائكة إلى الحدّادين؟». فأنزل الله جل وعز: «وما جَعَلْنَا أصحابَ النَّارِ إِلاَّ مَلاَئِكَةً»...».

ومن هذه الأمثال قولهم: «نام نومةَ عَبُّود»، وهو أوَّل الناس دخولًا الجنة حسبما ينْسَب إلى رسول الله عليه السلام، إذ يحْكَى أن الله عز وجل بعث نبيا إلى أهل قرية، فلم يؤمن به أحدٌ إلا ذلك العبد الأسود، وأن قومه احتفروا له بئرًا فصيروه فيها وأطبقوا عليه صخرة، فكان ذلك الأسود يخرج فيحتطب ويبيع الحطب ويشترى به طعامًا وشرابًا ثم يأتى تلك الحفرة، فيعينه الله تعالى على الصخرة، فيرفعها ويدْلِى إليه ذلك الطعام والشراب، وأنه احتطب يومًا ثم جلس يستريح فضرب بنفسه الأرض بشِقِّهِ الأيسر فنام سبع سنين، ثم هب من نومه فقام، ثم ضرب بنفسه الأرض بِشِقِّهِ الأيمن فنام سبع سنين، ثم هب من نومه وهو لا يرى أنه نام إلا ساعةً من نهار، فحمل حُزْمته فأتى القرية فباع حطبه ثم أتى الحفرة فلم

يجد النبى فيها، وقد كان بدا لقومه فيه فأخرجوه، فكان يسأل عن الأسود، فيقولون: «لا ندرى أين هو»، فَضُرِب به المثل لكل من نام نومًا طويلًا.

ولنضرب صفحا عن كل ما أوردناه من أمثال قالها مسلمون، ولنفترض أن ما قاله الأستاذ السباعى بيومى عن تأثير الإسلام فى انصراف أتباعه عن اختراع الأمثال صحيح، فهل هو ملزم للمشركين واليهود والنصارى؟ بطبيعة الحال لا. ومن الأمثال التى أبدعها آنذاك من لم يسلموا أصلا أو من لم يكونوا قد أسلموا بَعْدُ قولهم: «ويلٌ للشَّجِى من الخَلِي». وهذا المثل ينسب إلى أكثم بن صيفى، الذى ما إن سمع ببعثة النبى صلى الله عليه وسلم بمكة حتى أرسل ابنه حبيشا يستطلع طِلْعَه، فلما عاد له بخبره وجد أن كل ما يدعو إليه نبيل كريم، فجمع قومه وأظهرهم على جلية الأمر ونصحهم أن يسارعوا إلى الدخول فى الدين الجديد بملء رضاهم قبل أن تلجئهم الحوادث إلجاءً إلى ذلك عند استفاضته وتمكنه، لكن أحد كبارهم رفض نصيحة الشيخ الحكيم واتهمه بأنه شاخ وغلبه الخَرَف، فقال لهم حينئذ: «ويلٌ للشَّجِى من الخَلِي».

ومن هذا اللون أيضا المثل التالى: «لا فى العِيرِ ولا فى النَّفِير»، وصاحبه أبو سفيان بن حرب. وذلك أنه أقبل بِعِيرِ قُريش، وكان رسول الله ﷺ قد تحينَ انصرافَها من الشام فندب المسلمين للخُروج معه، وأقبل أبو سفيان حتى دنا من المدينة، وقد خاف خوفًا شديدًا، فقال لرجل هناك: هل أحسستَ من أحدٍ من أصحاب محمد؟ فأجابه: ما رأيتُ من أحد أُنْكِرُه إلا راكبين أتيا هذا المكان، وأشار له إلى مُنَاخِ جاسُوسَى رسول الله ﷺ ، فأخذ أبعارًا من أبعار بعيرَيهما ففتَّها، فإذا هى نَوًى. فقال: علائفُ يثرب! هذه عيونُ محمد! فضرب وجوه عِيرِهِ فساحَلَ بها وترك بدْرًا على يساره. وقد كان بعث إلى قريش حين غادر الشام يخبرهم بما يخاف من النبى عليه السلام، فأقبلت قريش من مكة. فأرسل إليهم يخبرهم أنه قد أحرز العِيرَ ويأمرهم بالرجوع، فأبتْ قريش أن ترجع. ورجعت بنو زُهرة من ثنية لَفْتٍ:

عدلوا إلى الساحل منصرفين إلى مكة، فصادفهم أبو سفيان فقال: يا بنى زُهرَة، لا فى العيرِ ولا فى النَّفير! قالوا: أنت أرسلت إلى قريش أن ترجع. ومضت قريش إلى بدر فوافقهم النبى عليه السلام، فأَظْفَرَهُ الله بهم. ولم يشهد بدرًا من المشركين من بنى زُهْرَة أحد... إلخ. وهذه مجرد عينة سريعة عارضة من الأمثال والأقوال السائرة التى نعرف أصحابها، فما بالنا بجميع الأمثال والأقوال التى نعرف والتى لا نعرف لها صاحبا؟ والعجيب أن الأستاذ السباعى بيومى، بعد هذا كله، قد أورد، خلال كلامه عن مميزات النثر فى صدر الإسلام، عددا لا بأس به من الأمثال والحكم التى قالها الصحابة.

العصر الأموي

يبدأ هذا العصر من العام الحادى والأربعين للهجرة حين آلت خلافة المسلمين إلى معاوية بن أبى سفيان إثر مقتل على بن أبى طالب رضى الله عنه آخر الخلفاء الراشدين، وينتهى عام 132هـ حين هزم العباسيون مروانَ بنَ محمدٍ آخرَ خليفة من بنى أمية. وينتسب الأمويون إلى أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قُصَى، وكان سيدًا من سادات قريش فى الجاهلية مساويا لعمه هاشم بن عبد مناف جد النبى عليه السلام فى الشرف، وإن كان يفوقه مالا وولدا. وكان البيت الأموى والبيت الهاشمى يتنافسان على رئاسة قريش بمكة. فلما ظهرت النبوة فى بنى هاشم تفوقوا على بنى أمية فى الشرف، وزادوا شرفًا حين أسرعوا إلى الدخول فى الإسلام ومناصرة الرسول فى الدعوة والجهاد بالنفس والمال، فى الوقت الذى لم يناصره من بنى أمية إلا القليل، وقاوم معظمهم الإسلام بقيادة أبى سفيان صخر بن حرب بن أمية، الذى لم يعتنق الدين الجديد هو وبعض الأمويين إلا عند فتح مكة عام 8هـ. وحاولوا أن يتلافَوْا بعد هذا ما فاتهم من هذا الشرف، فأَبْلَوْا فى فتوح الشام بلاء حسنا. وحينما صار معاوية واليا على ذلك الإقليم كسب قلوب أهله بسياسته ودهائه، ثم استمر فى هذه السياسة حينما آلت إليه مقاليد الدولة الإسلامية كلها، فجعل من دمشق عاصمة للدولة، ووطد فيها سلطانه.

وتعاقب على خلافة بنى أمية أربعة عشر خليفة هم على التوالى: معاوية بن أبى سفيان بن حرب بن أمية (41-60هـ)، ويزيد بن معاوية (60- 64هـ)، ومعاوية بن يزيد بن معاوية (64هـ)، ومروان بن الحكم بن أبى العاص (64- 65هـ)، وعبد الملك بن مروان بن الحكم (65- 86هـ)، والوليد بن عبد الملك (86- 96هـ)، وسليمان بن عبد الملك (96- 99هـ)، وعمر بن عبد العزيز بن مروان (99- 101هـ)، ويزيد بن عبد الملك (101- 105هـ)، وهشام بن عبد

الملك (105 – 125هـ)، والوليد بن يزيد بن عبد الملك (125 – 126هــ)، ويزيـد بن الوليد بن عبد الملك (126هـ)، وإبراهيم بن الوليد بن عبـد الملـك (126هــ)، ومروان بن محمد بن مروان بن الحكم (127 – 132هـ).

وقد اهتم الأمويون بنشر الإسلام، فوصلت دولتهم إلى حدود الصين شرقًـا، وإلى المحيط الأطلسى غربًا، وإلى أسوار القسطنطينية شمالًا، وإلى بلاد النوبة جنوبًا. واعتزوا بهذا الدور، وشارك كثير من فتيانهم فى قيادة فيالق الجهاد. كما اهتموا باللغة العربية فجعلوها لغة الدولة، ونمت فى عهـدهم حركـة تعريبيـة واسـعة، واتخـذوا الكُتَّاب فى دواوين الرسائل والخراج والجند والشرطة والقضـاء، وأشـهرهم عبـد الحميد كاتب مروان بن محمد آخر خلفائهم. كذلك خلق الأمويون وظيفة الحاجب بعد تآمر الخوارج على حياة على ومعاويةَ وعمرِو بنِ العاص ونجاحهم فى قتـل ابـن أبى طالب، وعينوا القضاة، وأنشـأوا محكمـة للمظـالم تشـبه محكمـة الاسـتئناف فى زماننا، وكانت تُعْقَد تحت رئاسة الخليفة أو الوالى أو من ينوب عـن أحـدهما. وأمـر عمر بن عبدالعزيز بتدوين الحديث النبوى الشريف تدوينًا رسميا.

وبالمثل أولى الأمويون فن العمارة رعايتهم، وتفنن بنّاؤوهم فى الطراز العمارى والزخرفة. كما عُنُوا بالأدب والفكر منذ أيام معاوية، الذى أنشأ بيتًا للحكمة يتكون من مكتبة ومركز للبحث، واعتنَوْا بالترجمة، وكثـر التـأليف فى عهـدهم، وتصـدى الوليد بن يزيد لجمع أشعار العرب وأخبارهم وأنسابهم، واهتموا بالتعليم، وتنبهوا إلى أهمية المراصد الفلكية فبنَوْا مرصدًا فى دمشق، وأحدثوا البريد بمراحلـه وفنادقـه وخيوله السريعة، ووضعوا نظام الأوقاف والأحباس والحسبة والقضـاء ودواويـن الملك ومراسيمه، وبلغوا فى التنظيم الحربى شأوا عظيمًا، وساد أسطولهم مياه البحـر المتوسط، وغزت سفنهم القسطنطينية واشتد حصارهم لها حتـى كـادت تسـقط فى أيديهم، وحرصوا على تنمية موارد الدولة المالية فأصـلحوا وسـائل الـرى ونوَّعـوا المحاصيل الزراعية واستصلحوا الأراضى البور وفتحوا القنوات وبَنَوُا السدود.

وقد سقطت الدولة الأموية بعد قيامها بنحو ثمانين عاما لعدة عوامل: فقد اتسمت سياسة الأمويين بالاعتماد على العرب وتمييزهم على غيرهم، مما أدى إلى نفور كثير من الأعاجم وانضمامهم إلى الأحزاب المعارضة للحكم كالشيعة والخوارج. كما أطلت العصبية القبلية البغيضة برأسها من جديد فى عهدهم نتيجة لسياسة عدد منهم فى تفضيل بعض القبائل على بعضها الآخر، فكانت ثمرة ذلك احتدام الصراع بين القبائل المضرية والقبائل اليمانية واشتعال بعض الفتن والثورات، وبخاصة فى عهد الوليد بن يزيد بن عبد الملك. وكان معاوية قد استحدث البيعة لابنه يزيد، فصار هذا النهج سنةً متبعة لدى خلفائه، مما كانت نتيجته وقوع النزاع بين أبناء الأسرة الأموية وتفرق كلمتهم وضعفهم، وهو ما شكَّل فرصة ثمينة للراغبين فى إسقاط حكمهم.

وفى عهد الدولة الأموية وقعت عدة فتن منها مقتل الحسين بن على رضى الله عنه، إذ حين مات معاوية بن أبى سفيان وخَلَفَه ابنُه يزيد تخلف الحسين عن مبايعته ورحل إلى مكة فى جماعة من أصحابه حيث أقام عدة أشهر، ومن هناك دعاه إلى الكوفة أشياع الهاشميين على أن يبايعوه بالخلافة، مؤكدين له أنهم فى جيش متهيئ للوثوب على الأمويين، فأجابهم وخرج فى أهله ومواليه. وعلم يزيد بسفره فوجه إليه جيشًا اعترضه فى كربلاء بالعراق قرب الكوفة حيث نشبت معركة عنيفة بين الفريقين قُتِل الحسين خلالها يوم الجمعة العاشر من المحرم عام 61هـ. وهناك أيضا حركة المختار الثقفى (1 – 67هـ) أحد الزعماء الثائرين على بنى أمية. وكان مع على رضى الله عنه بالعراق، ثم سكن البصرة بعده. وعندما قُتِل الحسين سنة 61هـ لم يؤيد المختارُ عُبَيدَ الله بنَ زياد أميرَ البصرة الأموى، فقبض عليه ابنُ زياد وجلده وحبسه، ثم نفاه إلى الطائف. وقد بايع المختارُ عبدَ الله بنَ الزبير حين خرج على بنى أمية بعد وفاة معاوية، ثم استأذنه فى التوجه إلى الكوفة ليدعو الناس إلى طاعته، فوثق به وأرسله. لكنْ كان أكبر همه منذ دخل الكوفة أن يقتل من قاتلوا الحسين،

فدعا إلى إمامة محمد بن الحنفية قالا إنه استخلفه، فبايعه ما يقرب من 17000 رجل سرًّا، فخرج بهم عَلَى والى الكوفة واستولى على الموصل، وعظم شأنه، وتتبع قتلة الحسين فقتل منهم شمر بن ذى الجوشن وخولى بن يزيد وعمر بن سعد بن أبى وقاص، وأرسل إبراهيم بن الأشتر فى عسكر كثيف إلى عبيد الله بن زياد مجهِّز الجيش الذى حارب الحسين، وقتل كثيرًا ممن كان لهم ضلع فى الجريمة. ثم علم المختار أن ابن الزبير اشتد على ابن الحنفية وابن عباس لامتناعهما عن بيعته فى المدينة، وحصرهما ومن كان معهما فى الشِّعْب بمكة، فأرسل المختار عسكرًا هاجم مكة وأخرجهما من الشّعب. وعمل مصعب بن الزبير، أمير البصرة من قِبَل أخيه عبد الله بن الزبير، على كسر شوكة المختار، فقاتله ثم حصره فى قصر الكوفة وقتله ومن معه.

وفى عهد عبد الملك بن مروان تولى الحجاج بن يوسف الثقفى إمرة الجيش المكلف بالقضاء على حركة عبد الله بن الزبير بمكة، فحاصر مكة وضربها بالمنجنيق، مما أدى إلى تفرق الجموع من حول ابن الزبير، الذى ظل يقاتل حتى قُتِل، فصلبه الحجاج، الذى كافأه عبد الملك بتوليته العراق مع الحجاز. وانتقل الحجاج إلى العراق حيث الفتن مشتعلة، وهيبة الدولة مستباحة، إذ كثرت أعمال العصيان والتمرد والتعدى على الولاة وطردهم، فقرر إعمال القسوة واتباع سياسة القبضة الحديدية، وضَرَب العصبياتِ بعضها ببعض، ثم عمل على احتوائها واستثمار عنفوانها فى القضاء على أشكال التمرد المختلفة، فكان اليد القوية لعبد الملك بن مروان فى تثبيت دعائم الدولة.

ومن الفتن فى ذلك العهد أيضا ثورة عبد الرحمن بن الأشعث الكندى (ت85هـ) أحد القادة الشجعان الدُّهَاة. وكان الحجاج قد سيره بجيشٍ لغزو بلاد رتبيل ملك الترك فيما وراء سجستان، فغزا بعض أطرافها، وأخذ منها حصونًا وغنائم، وكتب إلى الحجاج يخبره بذلك وأنه يرى ترك التوغل فى بلاد رتبيل إلى أن

يختبر مداخلها ومخارجها، فاتهمه الحجاج بالضعف والعجز، وأمره بالمُضِى فى الفتح، وإلا فأخوه إسحاق بن محمد هو أمير الناس. فاستشار عبدُ الرحمن من معه، فلم يرَوْا رأى الحجاج لما فيه من التعجُّل، واتفقوا على نبذ طاعته، وبايعوا عبد الرحمن وخلعوا الحجاج وعبد الملك بن مروان، وزحفوا نحو العراق لإزاحة الحجاج عنه، ثم ساروا إلى البصرة بعد أن هزموا جيشًا للحجاج فدخلوها، وخرج الحجّاج منها. ثم دخلوا بعدها الكوفة، فعاد الحجاج إلى البصرة، وكتب إلى عبد الملك يطلب المدد منه، فأرسل إليه جيشًا من الشام عليه ابنه وأخ له، وأمرهما أن يفاوضا ابن الأشعث ويعِداه بولاية خراسان أو أية ولاية أخرى مع إقالة الحجاج من العراق وتسوية أهله بأهل الشام فى العطاء، فإذا لم يقبل أهل العراق هذا فليجتمع أهل الشام تحت إمرة الحجاج وليحاربوهم. ولم يقبل أهل العراق ذلك اعتقادًا منهم أن المدد سينقطع عن أهل الشام فيغلبوهم، ولم يحدث ما ظنُّوه، ودخل جند الشام تحت إمرة الحجاج، فحاربوا أهل العراق حربًا عنيفةً، وهزموهم فى موقعة دير الجماجم مع مواقع أخرى حدثت بين الطرفين. وهرب ابن الأشعث إلى كجستان مع فلول جيشه، وأَمَّن الحجاجُ أهلَ العراق، فعاد إليه عدد كبير منهم.

وقد ظل ابن الأشعث يقاوم بعوث الحجاج، وعقد عهدًا مع رتبيل أن يؤيده إذا هزمه الحجاج، ولجأ فعلا إليه عندما هزمه القائد الأموى، الذى ساوم رتبيلَ على تسليمه مقابل إعفائه مما كان يدفعه من أموال إلى الدولة. وانتهى الأمر بأن سلَّم رتبيلُ ابنَ الأشعث ميتًا إلى الحجاج. وتفرقت فلول جيشه فى خراسان، فتصدى لها يزيد بن المهلب، وقبض على زعمائها، وتساهل مع اليمانيين وأرسل عددًا من القيسيين إلى الحجاج فقتلهم. وبهذا انتهت ثورة ابن الأشعث.

وشعراء ذلك العصر كثيرون كثرة هائلة. ومن أسماء المعروفين منهم البعيث وعَدِى بن الرِّقَاع والطِّرِمّاح وعمران بن حطّان وابن قيسِ الرُّقَيات والكُمَيت وكُثَير والأحوص والعَرْجِى وعمر بن أبى ربيعة والقُطَامى وقيس بن الملوَّح وقيس بن

ذَرِيح وجميل بثينة وهُدْبة بن الـخَشْرَم والنابغة الشيبانى والعجّاج ورؤبة وذو الرُّمَّـة وأبو الأسود الدؤلى وسابق البربرى. وأشهرهم جميعا جرير والفـرزدق والأخطـل، وقد جاءت شهرة هؤلاء الثلاثة من المدائح التى دبجوها فى حكام ذلك العصر ومن النقائض التى كانوا يتبادلونها ويفاخر كل منهم فيها الآخر ويحقر مـن شـأنه وشـأن قبيلته ويعمل على إضحاك الناس منه، فضلا عن متانـة شـعرهم وفحولـة صـياغته وقعقعته بوجه عام. بَيدَ أن شعر المديح لا يـروق لى كثـيرا، وبخاصـة إذا مـا اتخـذه الشعراء مهنة، فهم يمدحون فلانا أو علانا أو ترتانا عمالا عـلى بطـال، مسـتخدمين أسلوبا تقليديا فى الألفاظ والعبارات والتراكيب والصور فلا يقتبسـون مـا يقولونـه من ذوب الفؤاد، بل يجعلون كل همهم ما يكسبونه من وراء المديح من أموال طائلـة تأتيهم عفوا صفوا دون أن يتعبوا جراءها أو يتكلفوا لها شيئا سوى إراقة ماء الوجه. صحيح أن شعرهم يتسم بالفحولة والقعقعة، إلا أنه لا يخاطب القلب مثلما لم يخرج من القلب عن إخلاص إلا للدينار والدرهم. كما أن شعر المديح عند هؤلاء الثلاثـة يتسم بكثرة ما فيه من حُوشِى الألفاظ والتعـابير، ممـا يحوجنـا إلى مشـاورة المعـاجم بحثا عن معانيها. ونأخذ مثالًا على ذلك من شعر الفرزدق، الذى لُقِّب بهذا الاسـم لجهامة وجهه وغِلَظه بحيث كان يشـبه الفرزدقـة، أى رغيـف الخبـز، قولَـه يمـدح سليمان بن عبد الملك حين أجار يزيدَ بن المهلب بن أبى صفرة، أحد ولاة الأمـويين وقادتهم، من الحجاج عند هربه من السجن الذى كان الحجاج قد حبسه فيه خشـية من طموحه. وكان يزيد أحد قواد الدولة الأموية وولاتها المشـهورين، وإن عـاد فى أخريات حياته فشغب عليها، وانتهى الأمر بمقتله:

لَعَمْـرِى لَقَـدْ أَوْفَـى وَزادَ وَفـاؤُهُ ... عَلـى كُـلِّ جـارٍ جـارُ آلِ المُهَلَّـبِ

أَمَـرَّ لَهُـم حَبْلًـا فَلَمّـا ارتَقَـوْا بِـهِ ... أَتـى دونَـهُ مِـنهُم بِـدَرْءٍ وَمَنْكَـبِ

وَقـالَ لَهُـم: حُلُّـوا الرحـالَ، فَـإِنَّكُم ... هَـرَبْتُم، فَأَلقَوْهـا إِلى خَـيرِ مَهْـرَبِ

أَتَـوْهُ، وَلَـم يرْسِـل إِلَـيهِم، ومـا أَلَـوْا ... عَنِ الأَمْنَـعِ الأَوْفَـى الجِوَارِ المُهَذَّبِ

فَكَـانَ كمـا ظَنّـوا بِـهِ وَالَّـذى رَجَـوْا ... لَهُم حينَ أَلْقَـوْا عَن حَرَاجيجَ لُغَّبِ

إِلى خَـيرِ بَيـتٍ فيـهِ أَوْفَـى مُجـاوِرٍ ... جِـوارًا إِلى أَطنابِــهِ خَــيرُ مَــذْهَبِ

خَبَــبْنَ بِهِــم شَــهرًا إِلَيــهِ، وَدُونَــهُ ... لَهُـمْ رَصَـدٌ يخْشَـى عَلـى كُـلِّ مَرْقَـبِ

مُعَرَّقَــةَ الأَلْحَــى كَــأَنَّ خَبِيبَهـا ... خَبِيـبُ نَعَامـاتٍ رَوايِـحَ خُضَّـبِ

لَقَـد رَقَـأَت مِنهـا العُيـونُ وَنَوَّمَـت ... وَكانَـتْ بِلَيـلِ النّـائِحِ الـمُتَحَوِّبِ

وَلَــولا سُـلَيمانُ الخَليفَــةُ حَلَّقَـت ... بِهِم مِنْ يدِ الحَجّاجِ أَظْفارُ مُغْرِبِ

كَـأَنَّهُمُو عِنْـدَ ابْـنِ مَـرْوانَ أَصْـبَحُوا ... عَلـى رَأْسِ غَينـا مِـن ثَـبيرٍ وَكَبْكَـبِ

أَبَى، وَهْوَ مَوْلَى العَهدِ، أَن يقْبَلَ التي ... يـلامُ بِهـا عِـرْضُ الغَـدُورِ الـمُسَبَّبِ

وَفـاءَ أَخـى تَيمـاءَ إِذ هُـوَ مُشْـرِفٌ ... ينادِيــهِ مَغْلولًـا فَتًـى غَـيرُ جَأْنَـبِ

أَبــوهُ الَّــذى قــالَ: اقْتُلــوهُ، فَــإِنَّني ... سَـأَمْنَعُ عِرْضِـى أَن يسَـبَّ بِـهِ أَبِـي

فَإِنّــا وَجَــدْنا الغَــدْرَ أَعْظَــمَ سُـبَّةً ... وَأَفضَحَ مِنْ قَتْلِ امرِئٍ غَيرِ مُذْنِبِ

فَـأَدّى إِلى آلِ امْـرِئِ القَـيسِ بَـزَّهُ ... وَأَدْراعَــهُ مَعْروفَــةً لَــم تُغَيــبِ

وفى «الشعر والشعراء» لابن قتيبة عـن جريـر ووفـوده عـلى عبـد الملـك بـن مروان: «لما مدح جريرُ بن الـخَطَفَى الحجاجَ بنَ يوسف بشعره الذى يقول فيه:

مَـنْ سَـدَّ مُطَّلَـعَ النفـاقِ عليكمـو ... أَمْ مَـنْ يصـولُ كصَـوْلَةِ الحجّـاجِ

أَمْ مَـنْ يغـارُ علـى النسـاء حفيظـةً ... إذ لا يــثِقْنَ بغَـيرَةِ الأزواجِ؟

وقوله:

]دعا الحجاجُ مثلَ دعاءِ نوحٍ]]فأَسْمَعَ ذا المعارجِ، فاستجابا

قال له الحجاج: إن الطاقة تعجز عن المكافأة، ولكنى مُوفِدك على أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان، فسِرْ إليه بكتابى هذا. فسار إليه، ثم استأذنه فى الإنشاد، فأذن له، فقال: «أتصحو بل فؤادك غير صاحى؟». قال له عبد الملك: بل فؤادك. فلما انتهى إلى قوله:

]تعَزَّتْ أُمُّ حَزْرَةَ ثم قالت:]رأيتُ الواردين ذَوِى امْتِياحِ

]ثقى بالله، ليس له شريكٌ]ومِنْ عند الخليفة بالنجاحِ

] سأشكر إن رددتَ إلى ريشي`]وأثبتَّ القوادم فى جناحي

]ألستم خير مَنْ ركب المطايا]وأَنْدَى العالمين بطونَ راحِ؟

ارتاح عبد الملك، وكان متكئا، فاستوى جالسا، ثم قال: مَنْ مَدَحَنا منكم فليمدحْنا بمثل هذا أو ليسكت. ثم قال له: يا جرير، أترى أم حزرة تُرْوِيها مائة ناقة من نَعَم كلب؟ قال: إذا لم تُرْوِها يا أمير المؤمنين فلا أرواها الله. فأمر له بمائة ناقة من نَعَم كلب كلُّها سُودُ الحَدَقة، فقال: يا أمير المؤمنين، إنها أباق، ونحن مشايخ، وليس بأحدنا فضلٌ عن راحلته، فلو أمرتَ بالرِّعاء. فأمر له بثمانية من الرِّعَاء. وكانت بين يدى عبد الملك صحاف من فضة يقرعها بقضيب فى يده، فقال له جرير: والمحلب يا أمير المؤمنين. وأشار إلى صحفة منها، فنبذها إليه بالقضيب وقال: خذها، لا نفعتْك. ففى ذلك يقول جرير:

]أَعْطَوْا هُنَيدَةَ يحدوها ثمانيةٌ]ما فى عطائهمو مَنٌّ ولا سَرَفُ»

وإلى القارئ بعضا من أبيات القصيدة الأخيرة، وهى فى مديح يزيد بن عبد الملك:

لما ارْتَحَلْنا، وَنَحْوَ الشامِ نِيتُنا، … قالَتْ جُعادَةُ: هذى نِيةٌ قَذَفُ

كَلَّفْتُ صَحْبِى أَهْوالًا عَلَى ثِقَةٍ … لِلَّهِ دَرُّهُمُو رَكْبًا، وَما كَلِفُوا

ساروا إليكَ مِنَ السَّهْبَى، وَدُونَهُمُو … فَيحانُ فَالحَزْنُ فَالصَّمّانُ فَالوَكَفُ

يزْجُونَ نَحْوَكَ أَطْلاحًا مُخَدَّمَةً … قَد مَسَّها النَّكْبُ وَالإنقابُ وَالعَجَفُ

فى سَيرِ شَهْرَينِ ما يطْوِى ثَمائِلَها … حَتّى تُشَدّ إلى أغراضِها السُّنُفُ

يا ابنَ الأَرُومِ، وفى الأعياصِ مَنْبِتُها … لا قادِحٌ يرْتَقِى فيها وَلا قَصَفُ

إنّى لَزائِرُكُم وُدًّا وَتَكْرِمَةً … حَتّى يقارِب قَيدَ المَكْبِرِ الرَّسَفُ

أرجو الفَواضِلَ. إنَّ اللَّهَ فَضَّلَكُم … يا قَبْلَ نَفسِكَ لاقى نَفْسِى التّلَفُ

ما مَنْ جَفَانا إذا حاجاتُنا نَزَلَت … كَمَنْ لنا عِنْدَهُ التَّكْرِيمُ وَاللَّطَفُ

كَمْ قَدْ نَزَلْتُ بِكُم ضَيفًا فَتَلْحَفُني … فَضْلَ اللِحافِ، وَنِعْمَ الفَضْلُ يلْتَحَفُ

أَعْطَوْا هُنَيدَةَ يحْدُوها ثَمانِيةٌ … ما فى عَطائِهِمُو مَنٌّ وَلا سَرَفُ

كُوما مَهاريسَ مِثْلَ الهَضْبِ لَو وَرَدَت … ماءَ الفُراتِ لَكادَ البَحْرُ ينْتَزَفُ

إنّى شَكَرْتُ، وَقَد جَرَّبْتُ أَنَّكُمُو، … عَلَى رِجالٍ، وَإن لَم يشكُروا، عُطُفُ

يا رُبَّ قَوْمٍ وَقَوْمٍ حاسِدِينَ لَكُم … ما فِيهُمُو بَدَلٌ مِنكُم وَلا خَلَفُ

إنَّ القَديمَ وَأَسْلافًا تُعَدُّ لَكُم … نِعْمَ القَديمُ إذا ما عُدَّ وَالسَلَفُ

حَرْبٌ وَآلُ أَبى العاصى بَنَوْا لَكُمُو … مَجْدًا تَلادا، وبعضُ المَجْدِ مُطَّرَفُ

يا ابنَ العَواتِكِ خَيرَ العالِمينَ أَبًا … قَد كانَ يدْفِئُنى مِن رِيشِكُم كَنَفُ

إنَّ الحجيجَ دَعَوْا يسْتَمْتِعُونَ بِهِ … تَكادُ تَرْجُفُ جَمْعٌ كُلَّما رَجَفُوا

وَما ابْتَنَى الناسُ مِن بُنْيانِ مَكْرُمَةٍ … إلّا لَكُمْ فَوْقَ مَن يبنى العُلَا غُرَفُ

ضَخمُ الدَّسِيعَةِ وَالأبياتِ، غُرَّتُهُ كَالبَدْرِ لَيلَةَ كادَ الشَّهْرُ يَنتَصِفُ
اللّهُ أعطاكَ، فَاشْكُرْ فَضْلَ نِعْمَتِهِ أعطاكَ مُلْكَ الَّتى ما فَوْقَها شَرَفُ
هَذِى البَرِيةُ تَرْضَى ما رَضِيتَ لها إن سِرْتَ سارَوا، وَإن قُلتَ: «ارْبَعوا» وَقَفوا
هُوَ الخَليفَةُ، فَارْضَوْا ما قَضَى لَكُمُو بِالحَقِّ يصْدَعُ، ما فى قَوْلِهِ جَنَفُ
يقضِى القَضاءَ الَّذى يشْفَى النفاقُ بِهِ فَاستَبْشَرَ الناسُ بِالحقِّ الذى عَرَفوا

ويبقى الأخطل، وأسوق عنه من «الأغاني» هذا الخبر، الذى أستظرفه لكن لا أطمئن إليه كثيرا. فأبو الفرج كاتب مبدع وقلمه ساحر، بيد أنى لا أثق بكثير مما يرويه إلا على حذر وتربص: «أخبرنى أحمد بن عبد العزيز الجوهرى قال: أخبرنا عمر بن شبة قال: حدثنا أبو بكر العليمى قال: حدثنا أبو قحافة المرى عن أبيه قال: دخل الأخطل على بِشْر بن مَرْوان، وعنده الراعى، فقال له بشرٌ: أنت أَشْعَرُ أم هذا؟ قال: أنا أشعر منه وأكرم. فقال للراعى: ما تقول؟ قال: أما أشعر منى فعَسَى، وأما أكرمُ فإن كان فى أمهاته مَنْ وَلَدَتْ مثل الأمير فنَعَمْ. فلما خرج الأخطل قال له رجلٌ: أتقول لخال الأمير: أنا أكرم منك؟ قال: ويلك! إن أبا نسطوس وضع فى رأسى أَكْؤُسًا ثلاثا، فوالله ما أعقل معها. قال: ودخل الأخطل على عبد الملك بن مروان، فاستنشده، فقال: قد يبس حلقى، فمُرْ من يسقينى. فقال: اسقوه ماء. فقال: شراب الحمار، وهو عندنا كثير. قال: فاسقوه لبنًا. قال: عن اللبن فُطِمْتُ. قال: فاسقوه عسلًا. قال: شراب المريض. قال: فتريد ماذا؟ قال: خمرًا يا أمير المؤمنين. قال: أَوَعَهِدْتَنى أسقى الخمر لا أُمَّ لك؟ لولا حُرْمَتُك بنا لفعلتُ بك وفعلتُ! فخرج فلقى فرّاشا لعبد الملك فقال: ويلك! إن أمير المؤمنين استنشدنى، وقد صحل صوتى، فاسقنى شربة خمر. فسقاه، فقال: اعدله بآخر. فسقاه آخر. فقال: تركتَهما يعتركان فى بطنى! اسقنى ثالثًا. فسقاه ثالثًا، فقال: تركتَنى أمشى على واحدة. اعدل ميلى برابع. فسقاه رابعًا، فدخل على عبد الملك فأنشده:

حَفَّ القطينُ، فراحوا منك وابتكروا   وأزعجتْهم نوًى فى صَرْفِها غِيَرُ

فقال عبد الملك: خذ بيده يا غلام فأَخْرِجْه، ثم أَلْقِ عليه من الخِلَع ما يغْمُره، وأَحْسِنْ جائزته. وقال: إن لكل قوم شاعرًا، وإن شاعر بنى أمية الأخطل».

والآن هذه طائفة من أبيات القصيدة التى أعجبت عبد الملك والتى تقترب من التسعين بيتا:

حَفَّ القَطِينُ فَراحُوا مِنكَ أو بَكَروا   وَأَزعَجَتهُم نَوًى فى صَرْفِها غِيَرُ

كَأَنَّنى شارِبٌ يومَ استُبِدَّ بِهِم   مِن قَرْقَفٍ ضُمِّنَتْها حِمْصُ أو جَدَرُ

كَأَنَّنى ذاكَ أو ذو لَوْعَةٍ خَبَلَتْ   أوصالَهُ أو أَصابَتْ قَلبَهُ النُّشَرُ

شَوْقًا إِلَيهِم وَوَجْدًا يومَ أُتْبِعُهُم   طَرْفِى، وَمِنْهُم بِجَنْبَى كَوْكَبٍ زُمَرُ

يا قاتَلَ اللهُ وَصْلَ الغانِياتِ إذا   أَيقَنَّ أَنَّكَ مِمَّنْ قد زَهَا الكِبَرُ

أَعْرَضْنَ لَمّا حَنَى قَوْسِى مُوَتِّرُها   وَابْيضَّ بَعْدَ سَوادِ اللِّمَّةِ الشَّعَرُ

ما يرْعَوينَ إلى داعٍ لِحَاجَتِهِ   وَلا لَهُنَّ إِلى ذى شَيبَةٍ وَطَرُ

وَقَعْنَ أُصْلًا، وَعُجْنا مِن نَجَائِبِنا   وَقَدْ تُحُينَ مِن ذى حاجَةٍ سَفَرُ

إلى امْرِئٍ لا تُعَرّينا نَوافِلُهُ   أَظْفَرَهُ اللهُ، فَلْيهْنَأْ لَهُ الظَّفَرُ

الخائِضِ الغَمْرَ وَالميمونِ طائِرُهُ   خَليفَةِ اللهِ يسْتَسْقَى بِهِ المَطَرُ

وَالهَمُّ بَعدَ نَجِى النَّفسِ يبْعَثُهُ   بِالحَزْمِ وَالأَصْمَعَانِ: القَلْبُ وَالحَذَرُ

وَالمُستَمِرُّ بِهِ أَمْرُ الجَميعِ، فما   يغْتَرُّهُ بَعْدَ تَوْكيدٍ لَهُ غَرَرُ

وَما الفُرَاتُ إذا جاشَتْ حَوالِبُهُ   فى حافَتَيهِ وَفى أَوْساطِهِ العُشَرُ

وَذَعْذَعَتْهُ رِياحُ الصَّيفِ وَاضْطَرَبَتْ   فَوْقَ الجَآجِئِ مِن آذِيهِ غُدُرُ

مُسْحَنْفِرًا مِن جِبالِ الرومِ تَسْتُرُهُ   مِنها أَكافيفُ فيها دُونَهُ زُوَرُ

يوْمًا بِأَجْوَدَ مِنْهُ حِينَ تَسأَلُهُ   وَلا بِأَجْهَرَ مِنْهُ حِينَ يجْتَهَرُ

أما النقائض فهى قصائد على نفس الوزن والقافيـة يتهـاجى بهـا شـاعران أو أكثر، فيعْمَل كل منهما على النيل من الآخر ويحقره ويهـدده ويـنقُض معانيـه ويسـبه ويقلب كل مكرمة يتفاخر فيها بقبيلته مذمة ونقصا. والمشهور أنها بدأت فى العصرـ الأموى بين الفرزدق وجرير والأخطل والبعيث وغيرهم رغم مـا سـبقها فى عصرـ الرسول من نقائض دارت بين شعراء الإسلام وبين شعراء الشرك ويهود بعد هجرة الرسول من مكـة إلى يثـرب وقيـام الدولـة الإسـلامية وانفجـار الصراـع الحربـى والسياسى بين معسكر الإيمان ومعسـكر الكفـر، إذ مـا إن يـنظم شـاعر مـن أحـد المعسكرين قصيدة فى الفخر على المعسكر الآخر والنيل منه حتـى يهـب شـاعر مـن ذلك المعسكر ناقضا ما يقـول فى قصـيدة مـن نفـس البحـر والـروى، وإن لم يكـن لنقائض عصر الرسول ذلك الدوى الذى كان لنقائض الأمويين، فضلا عن أن هذه النقائض الأخيرة لم تكن تعبيرا عن حرب بين دولتين، بل مجرد تهاج قبلى وشخصىـ يتغيا تسلية الجماهير فى سوق المربد حيث كان الشعراء المتناقضـون يقومـون بإنشـاد أشعارهم وقد تحلق حـولهم المتحلقـون يسـتمتعون بـما يشـاهدون ومـا يسـمعون، ويشجعون هذا الشاعر أو ذاك.

ولست أرافئ الأستاذ أحمد الشايب على رأيه فى أن النقـائض الأمويـة تهـذب النفوس أو أنها تمثل أرقى مستوى للشعر فى ذلك العصرـ وأهـم فـن فيـه. ذلـك أن النقائض المذكورة، بوجه عام، تشوه الأذواق وتنال من الأخلاق الكريمـة وتشـعل النعرات الجاهلية وتسير عكس سبيل الإسـلام بانتهاجهـا سـبيل التشـاتم والتنـابز بالألقاب وتمزيق الأعراض ومصادمة القيم الكريمة. أما من الناحية الأدبية فليست أرقى من غيرها من الفنون، ولا يمكن أن تكون، وإنْ تصدر صفوفَها مَنْ يوصَفون بأنهم فحول الشعراء كالفرزدق وجرير والأخطل، إذ الفـن فيهـا قليـل، والسـباب سيد الموقف، والمعانى والعبارات والتراكيب متقاربة لا جديد فيها ولا إبداع، وإن لم

تَخْلُ بين الحين والحين من معنى دقيق مبتكر أو صورة فنية لافتة كقـول الأخطـل فى قوم جرير:

]قـومٌ إذا استنبحَ الأضيافُ كَلْبَهمـو]قــالوا لأُمِّهمــو: بُــولِى علــى النــارِ

أو قول جرير فى الفرزدق:

]وإنــك لــو تعطــى الفــرزدقَ دِرْهَمًــا]علـــى ديـــنِ نصـــرانيةٍ لَتَنصَّـــرا

أو قول جرير فى الأخطل:

]إنَّ الأُخَيطِـلَ خِنْزيــرٌ أطــافَ بِــهِ]إحْدى الدَّواهِى التى تُخْشَى وَتُنْتَظَرُ

]قــادوا إلَـيكُم صُـدُورَ الخَيـلِ مُعْلَمَـةً]تَغْشَـى الطِّعـانَ، وَفِـى أَعْطافِهـا زَوَرُ

]كانَـت وَقـائِعُ قلنـا: لَـن تُـرَى أَبَـدًا]مِــن تَغْلِــبٍ بَعْـدَها عَــينٌ وَلا أَثَــرُ

]حَتّى سَمِعْتُ بِخِنْزيـرٍ ضَـغًا جَزَعًـا]مِنهُم فَقُلتُ: أرى الأَمْواتَ قَد نُشِروا

]أحيـــاؤُهم شَـــرُّ أحيـــاءٍ وَأَلْــأَمُهُمْ]وَالأَرْضُ تَلْفِــظُ مَوْتــاهُم إذا قُبِــروا

***

]والتغلبـــــى إذا تُنُــــبِّحَ لِلْقِــــرَي □]حَـــكَّ اسْـــتَهُ وتمثَّـــلَ الأمثـــالا

ثم ماذا تساوى النقائض أمام أشعار قيس وجميل وكُثَير الأسـيانة اليائسـة فى حبائهن أو أشعار عمر بن أبى ربيعة المعجبانية فى صواحبه أو أشـعار ذى الرمـة فى تصوير اللوحات الصحراوية مثلا أو أشعار الفرق السياسية التى ترينا مسيرة الأمة التاريخية واصطراع الآراء والمواقف التى تصنع الحاضر والمستقبل؟

ابن قيس الرّقَيّات شاعر الزّبَيْرِيّين:

ومن شعراء الفرق السياسية نأخذ عُبَيد الله بن قيسِ الرُّقَيات شاعر الزبيريين. وقد سُمِّى بهذا اللقب لأنه، فيما يقال، تغزل فى عدة نسـاءٍ اسـمُ كـل مـنهن رُقَيـة أو كانت له ثلاث جدات متتابعات كلهن تُدْعَى: رُقَية.

ومن شعره فى إحدى الرُّقَيات:

رُقَـى، بِعَمْـرِكُم لا تَهْجُرينـا   وَمَنِّينـا الـمُنَى ثُـمَّ امْطُلينـا

عِـدِينا فـى غَـدٍ مـا شِـئْتِ. إنّـا   نُحِـبُّ، وَلَـو مَطَلْـتِ، الواعِـدينا

فَإِمّـا تُنْجِـزِى عِـدَتى وَإِمّـا   نَعِـيشُ بِمـا نُؤَمِّـلُ مِنْـكِ حينـا

تَقِـنَّ اللّهَ فِـى، رُقَـى، وَاخْشَـي   عُقُوبَـةَ أَمرِنـا. لا تَقْتُلينـا

بِعَيشِـكِ، وَارفُقِـى بِـى أُمَّ عَمْـرٍو   وَيَـوْمَ رِجـالُ أَهْلِـكِ يَنْـذرونا

دَمِـى ثُـمَّ انـدَحَلْتُ إِلَيـكِ حَتّـي   أَحَطَّيـتُ النِّيـامَ الحارِسـينات

فَبِـتُّ تَمَسُّـهُم قَـدَمِى وَثَـوْبِي   وَوَدُّوا مِـن دَمِـى لَـوْ يشْـرَبونا

وَيَـومَ تَبِعْـتُكُم، وَتَرَكْـتُ أَهْلِـي،   عَجِـيجَ العَـوْدِ يَتَّبِـعُ القَرينـا

وقال يمدح مصعب بن الـزبير، ويهـاجم الأمـويين وأشـياعهم مـن اليمانيـة ويتوعدهم ويندد بشغبهم على الزبيريين بما أدى إليه من انقسام العرب والمسلمين ما بين شام وحجاز، ويرد على الخوارج، الذين يريـدون أن تكـون الخلافـة فى العـرب عامة لا فى قريش خاصة، مؤكدا أنها لا تصلح إلا أن تكون بيد قـريش وحـدهم فى الحجاز. يقصد الزبيريين وأشياعهم هناك:

أَقْفَـرَتْ بَعْـدَ عَبْـدِ شَـمسٍ كَـدَاءُ   فَكُـدَى فَـالرُّكْنُ فَالبَطْحـاءُ

فَمِنـى فَالجِمـارُ مِـن عَبْـدِ شَـمسٍ   مُقْفِـراتٌ فَبَلْـدَحٌ فَحِـرَاءُ

فَالخِيـامُ الَّتـى بِعُسْـفانَ فَالجُحْـ   ـفَةُ مِـنهُم فَالقـاعُ فَـالأَبْواءُ

مُوحِشـاتٌ إِلى تَعَـاهِنَ فَالسُقْـ   ـيا قِفارٌ مِن عَبْدِ شَمْسٍ خَلاءُ

قَـد أَراهُـم، وَفـى المواسِمِ، إِذ يغْـ   ـدُونَ: حِلـمٌ وَنائِـلٌ وَبَهـاءُ

وَحِسَـانٌ مِثـلُ الـدُّمَى عَبْشَـمِيا   تٌ عَلَـيهِنَّ بَهْجَـةٌ وَحَيـاءُ

لا يـبِعْنَ العِيـابَ فـى مَوْسِـمِ النـا   سِ إِذا طـافَ بِالعِيـابِ النِّسـاءُ

ظاهراتُ الجمالِ والسَّرْوِ ينْظُرْ   نَ كَما ينظرُ الأراكَ الظِّباءُ

حبَّذا العيشُ حينَ قَوْمى جَميعٌ   لَم تُفَرِّق أُمُورَها الأهْواءُ

قَبلَ أن تطمَعَ القَبائِلُ فى مُلْـ   ـكِ قُرَيشٍ وتَشْمَتَ الأعداءُ

أيها المُشْتَهى فَناءَ قُرَيشٍ   بِيدِ اللهِ عُمْرُها والفَناءُ

إن تُوَدِّع مِنَ البِلادِ قُرَيشٌ   لا يكُنْ بَعْدَهُم لِحَى بَقاءُ

لَوْ تقَفِّى وتَترُكُ الناسَ كانوا   غَنَمَ الذِّئبِ غابَ عَنها الرِّعاءُ

هَل ترى مِن مُخَلَّدٍ غَيرَ أنَّ الـ   ـلهَ يبْقَى وتَذهَبُ الأشياء

يأمُلُ الناسُ فى غَدٍ رَغَبَ الدَّهْـ   ـرِ. ألا فى غَدٍ يكُونُ القَضاءُ

لَم نَزَل آمِنينَ يحْسُدُنا النا   سُ، وَيجرى لنا بِذاكَ الثَّراءُ

فَرَضِينا، فَمُتْ بِدائِكَ غَمًّا   لا تُميتَنَّ غَيرَكَ الأدواءُ

لَو بَكَتْ هَذِهِ السَّماءُ عَلى قَوْ   مٍ كِرامٍ بَكَتْ عَلينا السَّماءُ

نحنُ مِنّا النَّبى الأُمِّى والصِّدْ   دِيقُ، مِنّا التَّقِى والخُلَفاءُ

وقَتيلُ الأحْزابِ حَمْزَةُ مِنّا   أسَدُ اللهِ، والسَّناءُ سَناءُ

وعَلِى وجَعْفَرٌ ذو الجَناحَيـ   ـنِ هُناكَ الوَصِى والشُّهَداءُ

والزُّبَيرُ الذى أجابَ رَسولَ الـ   ـلهِ فى الكَرْبِ، والبَلاءُ بَلاءُ

غُيبُوا عَن مَواطِنٍ مُفْظِعاتٍ   لَيسَ فيها إلا السُّيوفَ رَحاءُ

حَسَدًا إذ رَأَوْكَ فَضَّلَكَ الـ   ـلهُ بِما فُضِّلَتْ بِهِ النُّجَباءُ

فَعَلَى هَدْيهِم خَرَجْتَ، وَما طِبْـ   ـبُكَ فى اللهِ، إذ خَرَجْتَ، الرِّياءُ

إن تَعِشْ لا تَزَلْ بِخَيرٍ، وإن تَهْـ   ـلِكْ تَزُلْ مِثلَما يزُولُ العَماءُ

إنَّما مُصْعَبٌ شِهابٌ مِنَ اللـ   ـهِ تَجَلَّتْ عَن وَجْهِهِ الظَّلْماءُ

مُلْكُهُ مُلكُ قُوَّةٍ لَيسَ فيهِ   جَبَروتٌ وَلا بِهِ كِبْرِياءُ

يتَّقى اللّهَ فى الأُمـورِ، وَقَـد أَفْــــــ ـــــلَحَ مَــن كــانَ هَمَّــهُ الاتّقَــاءُ

إنَّ لِلَّــــــهِ دَرَّ قَــــــومٍ يريــــــدو نَــكَ بِــالنَّقْصِ، وَالشَّــقاءُ شَــقاءُ

بَعْـدَما أَحـرَزَ الإِلَـهُ بِـكَ الرَّتْـــــــ ـــــــقَ، وَهَـرَّت كِلابَـكَ الأَعـداءُ

عَـينِ، فَـابْكِى عَلى قُـرَيشٍ! وَهَـل يـرْ جِـعُ مـا فـاتَ، إنْ بَكَيـتِ، البُكـاءُ

مَعْشَرٌ حَتْفُهُم سُيوفُ بَنى العَلْــ ـــلاتِ يخْشَـوْنَ أَن يضِـيعَ اللِـواءُ

تــرَكَ الـــرَّأْسَ كَالنَّغَامَــةِ مِنّــي نَكَبَـــاتٌ تسْــرِى بِهـــا الأَنبـــاءُ

مِثلُ وَقْعِ القَدُومِ حَلَّ بِنا، فَالنْــ ــناسُ مِمـــا أَصـــابَنا أَحْـــلاء

لَــيسَ لِلَّــهِ حُرْمَـــةٌ مِثْــلُ بَيــتٍ نَحْـــنُ حُجّابُـــهُ عَلَيـــهِ الـــمُلاءُ

حَصَّـــهُ اللَـــهُ بِالكَرامَـــةِ، فَالبــا دونَ وَالعـــاكِفونَ فيـــهِ سَـــواء

حَرَّقَتـــهُ رِجـــالُ لَخْـــمٍ وَعَـــكٍّ وَجُـــذامٌ وَحِمْـــيرٌ وَصُـــداءُ

فَبَنَينــاهُ مِـــنْ بَعْــدِما حَرَّقـــوهُ فَاسْتَوَى السَّمْكُ، وَاسْتَقَلَّ البِنَاءُ

كَيــفَ نَـوْمِى عَلَـى الفِـراشِ وَلَمّـا يشْـــمَلِ الشَّـــامَ غـــارَةٌ شَـــعْواءُ

تُـذهِلُ الشَّـيخَ عَـن بَنِيـهِ، وَتُبْـدِي عَـــنْ بُرَاهـــا العَقِيلَـــةُ العَـــذْراءُ؟

أَنــا عَــنْكُم، بَنِــى أُمَيــةَ، مُــزْوَرْ رٌ، وَأَنْـــتُم فـــى نَفْسِـــى الأَعـــداءُ

إنَّ قَتْلَــى بِــالطَّفِّ قَــد أَوْجَعَــتْني كــانَ مِــنْكُم، لَـئِن قُتِلْـتُم، شِـفَاءُ

ومن شعره السياسى الذى يتخذ صورة التغزل بنساء الأمويين بغية الإساءة إلى أعراضهم، مما سبق إليه كعب بن الأشرف فى صدر الإسلام حين استعمل التغزل بنساء المسلمين للنيل منهم، قوله:

أَلا هَزِئَـــت بِنـــا قُرَشِيـــــــــــــ ـــــــيَـــــةٌ يهْتَـــزُّ مَوكِبُهـــا

رَأَتْ بِـــى شَـــيبَةً فِـــى الـــرأْ سِ مِنّـــى مـــا أُغَيبُهـــا

فَقالَـــتْ: أَبْـــنُ قَـــيسٍ ذا؟ وَغَـــيرُ الشَّـــيبِ يعْجِبُهـــا

رَأَتْنـى قَـدْ مَضَـى مِنّـي ... وَغَضّـاتٌ صَـواحِبُها

وَمِثْلِـكِ قَـد لَهَـوْتُ بِهـا ... تَمَـامُ الـحُسْنِ أَعْيبُهـا

لَهـا بَعْـلٌ غَيـورٌ قـا ... عِـدٌ بِالبـابِ يحْجُبُهـا

يرانـى هكـذا أمشـي ... فَيوعِـدُها وَيضْـرِبُها

ظَلِلْـتُ عَلـى نَمَارِقِهـا ... أُفَـدّيها وَأَخْلُبُهـا

أُحَـدِّثُها، فَتُـؤمِنُ لـي ... فَأَصْـدُقُها وَأَكْـذِبُها

فَـدَعْ هَـذا، وَلَكِـن حـا ... جَـةٌ قَـد كُنـتُ أَطلُبُهـا

إِلى أُمِّ البَـنينَ: مَـتي ... يقَرِّبُهـا مُقَرِّبُهـا؟

أَتَتْنِـى فـى المنـامِ، فَقُلْـ ... ـتُ هـذا حـينَ أُعْقَبُهـا

فَلَمّـا أَن فَرِحْـتُ بِهـا ... وَمـالَ عَلَـى أَعْـذَبُها

شَـرِبْتُ بِريقِهـا حَتّـى ... نَهِلْـتُ وَبِـتُّ أُشْـرِبُها

وَبِـتُّ ضَـجِيعَها جَـذْلا ... نَ تُعْجِبُنـى وَأُعْجِبُهـا

وَأُضْـحِكُها وَأُبْكِيهـا ... وَأُلْبِسُـها وَأَسْـلُبُها

أُعالِجُهـا، فَتَصْـرَعُني ... فَأُرْضِـيها وَأُغْضِـبُها

فَكانَـت لَيلَـةٌ فـى النَّـو ... مِ نَسْـمُرُها وَنَلْعَبُهـا

فَأَيقَظَنـا مُنـادٍ في ... صَـلاةِ الصُّـبحِ يرْقُبُهـا

فَكـانَ الطَّيـفُ مِـن جِنْـ ... ـنِـيةٍ لَـم يـدْرَ مَـذْهَبُها

يؤَرِّقُنـا إِذا نِمْنـا ... وَيبْعُـدُ عَنْـكَ مَسْـرَبُها

وفى «الأغاني» روايةً عن الشاعر نفسه: «خرجتُ مع مصعب بن الزبير حين بلغه شخوص عبد الملك بن مروان إليه، فلما نزل مصعب بن الزبير بمسكن ورأى معالم الغدر ممن معه دعانى ودعا بمال ومناطق، فملأ المناطق من ذلك المال وألبسنى

منها، وقال لى: انطلق حيث شئتَ، فإنى مقتول. فقلت لـه: لا والله لا أَرِيـمُ حتـى أرى سبيلك. فأقمت معه حتى قُتِل، ثم مضيت إلى الكوفة، فأول بيـت صرتُ إليـه دخلتُه، فإذا فيه امرأة لها ابنتان كأنهما ظبيتان، فرَقِيتُ فى درجة لها إلى مشربة فقعـدتُ فيها، فأمرت لى المرأة بما أحتاج إليه من الطعام والشراب والفرش والمـاء للوضـوء، فأقمتُ كذلك عندها أكثر من حَوْل تقيم لى ما يصلحنى، وتغدو على فى كل صـباح فتسألنى بالصباح والحاجة، ولا تسألنى من أنا ولا أسـألها مـن هـى، وأنـا فى ذلـك أسمع الصياح فى والـجُعْل. فلـما طـال بـى المقـام وفقـدت الصـياح فى وغَرِضْـتُ بمكانى غدت على تسألنى بالصباح والحاجة، فعرَّفتها أنـى قـد غرضـت وأحببـت الشخوص إلى أهلى، فقالت لى: نأتيك بما تحتاج إليه إن شاء الله تعـالى. فلـما أمسـيتُ وضرب الليل بأرواقه رَقِيتْ إلى وقالت: إذا شئتَ! فنزلـتُ وقـد أعـدتْ راحلتـين عليهما ما أحتاج إليه، ومعهما عبد. وأعطـت العبـد نفقـة الطريـق، وقالـت: العبـدُ والراحلتان لك.

فركبتُ وركب العبد معى حتى طرقتُ أهل مكة، فدققتُ منـزلى، فقـالوا لى: من هذا؟ فقلت: عبيد الله بن قيس الرقيـات. فوَلْوَلُـوا وبَكَـوْا، وقـالوا: مـا فارقَنـا طلبُك إلا فى هذا الوقت. فأقمت عندهم حتى أَسْحَرْتُ، ثم نهضـتُ ومعـى العبـد حتى قَدِمْتُ المدينة، فجئتُ عبدَ الله بن جعفر بن أبى طالب عند المساء وهـو يعشِّـى أصحابه، فجلست معهم وجعلت أتعاجم وأقول: يـار يـار ابـن طيـار. فلـما خـرج أصحابه كشفت له عن وجهى، فقال: ابن قيس؟ فقلت: ابن قـيس! جئتـك عائـذًا بك. قال: ويحك! ما أَجَدَّهم فى طلبك وأَحْرَصهم على الظَّفَر بك! ولكنـى سـأكتب إلى أم البنين بنت عبد العزيز بن مروان، فهى زوجة الوليـد بـن عبـد الملـك، وعبـدُ الملك أرقُّ شيء عليها. فكتب إليها يسألها أن تشـفع لـه إلى عمهـا، وكتـب إلى أبيهـا يسأله أن يكتب إليها كتابًا يسألها الشفاعة. فدخل عليها عبد الملـك كـما كـان يفعـل وسألها: هل من حاجة؟ فقالت: نعم لى حاجة. فقال: قد قضيتُ كل حاجة لـكِ إلا

ابن قيس الرقيات. فقالت: لا تَسْتَثْنِ على شيئا! فنفح بيده فأصاب خدها، فوضعت يدها على خدها، فقال لها: يا بنتى، ارفعى يدك، فقد قضيتُ كل حاجة لك، وإن كانت ابن قيس الرقيات. فقالت: إن حاجتى ابن قيس الرقيات: تؤمِّنه، فقد كتب إلى أبى يسألنى أن أسألك ذلك. قال: فهو آمِنٌ، فمُرِيه يحضر مجلسى العشية.

فحضر ابن قيس، وحضر الناس حين بلغهم مجلس عبد الملك، فأخَّر الإذنَ، ثم أذن للناس، وأخَّر إذنَ ابن قيس الرقيات حتى أخذوا مجالسهم، ثم أَذِنَ له. فلما دخل عليه قال عبد الملك: يا أهل الشام، أتعرفون هذا؟ قالوا: لا. فقال: هذا عبيد الله بن قيس الرقيات، الذى يقول:

كيف نومى على الفِراش ولَّما ... تشمل الشامَ غارةٌ شعواءُ

تُذْهِل الشيخَ عن بنيه، وتُبْدِي ... عن بُرَاها العقيلةُ العذراءُ؟

فقالوا: يا أمير المؤمنين، اسقنا دم هذا المنافق! قال: الآن وقد أمَّنتُه وصار فى منزلى وعلى بساطى؟ قد أَخَّرْتُ الإذن له لتقتلوه، فلم تفعلوا. فاستأذنه ابن قيس الرقيات أن ينشده مديحه، فأذن له، فأنشده قصيدته التى يقول فيها:

عادَ لَهُ من كَثِيرةَ الطَّرَبُ ... فعَيْنُه بالدموع تنسكبُ

كوفيةٌ نازحٌ محلَّتُها ... لا أَمَمٌ دارُها ولا صَقَبُ

والله ما إن صَبَتْ إلى ولا ... إنْ كان بينى وبينها سببُ

إلا الذى أورثتْ كثيرةُ فى الـ ... ـقلب، وللحبِّ سَوْرَةٌ عَجَبُ

حتى قال فيها:

إن الأَغَرَّ الذى أبوه أبو الـ ... ـعاصى عليه الوقارُ والحُجُبُ

يعتدل التاجُ فوق مَفْرِقِهِ ... على جبينٍ كأنه الذهبُ

فقال له عبد الملك: يا ابن قيس، تمدحنى بالتاج كأنى من العجم، وتقول فى مصعب:

إنمـا مصـعبٌ شـهاب مـن الـــــــله تجلَّـتْ عـن وجهـه الظلمـاءُ

مُلْكُــه مُلْــكُ عِـــزَّةٍ لـــيس فيـــهِ جـــبروتٌ منـــــه ولا كبريـــــاءُ؟

أما الأمان فقد سبق لك، ولكن والله لا تأخذ مع المسلمين عطاء أبـدا! قـال: وقال ابن قيس الرقيات لعبد الله بن جعفر: ما نفعنى أمانى. تُرِكْتُ حَيـا كَمَيـت. لا آخذ مع الناس عطاء أبدا. فقال له عبد الله بن جعفر: كم بلغـتَ مـن السـن؟ قـال: ستين سنة. قال: فعَمِّرْ نفسك. قال: عشرين سنة من ذى قبل، فـذلك ثمانـون سـنة. قال: كم عطاؤك؟ قال: ألفا درهم. فأمر له بأربعين ألف درهـم، وقـال: ذلـك لـكَ على إلى أن تموت على تعميرك نفسك. فعند ذلك قال عبيـد الله بـن قـيس الرقيـات يمدح عبد الله بن جعفر:

نقـدتْ بى الشـهباء نحـوابـن جعفـرٍ ســـواءٌ عليهـــا ليلُهـــا ونهارُهـــا

تـــزورا مـــرأً قـــد يعلـــم الله أنـــه تجـــود لـــه كـــفٌّ قليـــلٌ غِرارُهـــا

أتينـاك نُثنِـى بالـذى أنـت أهْلُـهُ عليك كمـا يثنى على الـروض جارُها

فـوالله لـولا أن تـزورابـن جعفـر لكـان قليلًـا فـى دمشـقَ قرارُهـا

إذا مِـتَّ لم يوصَـل صـديقٌ ولم تقُـمْ طريـقٌ مـن المعـروف أنـت منارُهـا

ذكرتُـك أنْ فـاض الفـراتُ بأرضـنا وفـــاض بـــأعلى الـــرّقّتَين بحارُهـــا

وعنـــدى ممـــا خـــوّل الله هَجْمَـــةٌ عطـــاؤك منهـــا شُـــولها وعِشَـــارُها

مباركـــةٌ كانـــت عطـــاءَ مبـــاركٍ تمـــانح كبراهـــا وتنمـــى صـــغارُها»

وبالنسبة إلى كثيرة المذكورة فى القصيدة هى تلك المرأة التى آوتـه وأكرمتـه فى الكوفة وجهزته إلى أهله برَكُوبةٍ وزادٍ وخـادم. وقـد وجَّـه المرزبـانى فى «موشَّـحه» اعتراض عبد الملك على النحو الآتى: «قال قدامة بن جعفر: أفضل مديح الرجال ما قُصِد به الفضائل النفسية الخاصية لا بما هو عَرَضِى فيـه. ومـا أتـى مـن المـدح عـلى خلاف ذلك كان مَعِيبًا. ومن الأمثلة الجياد فى هذا الموضع ما قالـه عبـد الملـك بـن

مروان لعبيد الله بن قيس الرقيات حيث عتب عليه فى مدحه إياه: «إنك قلتَ فى مصعب بن الزبير:

إنما مصعب شهاب من الـلـه تجلتْ عن نوره الظلماء

وقلتَ:

يأتلق التاجُ فوق مَفْرِقِهِ على جبينٍ كأنّه الذّهبُ»

فوَجْهُ عَيب عبد الملك إنما هو من أجل أن هذا المادح عَدَلَ به عن الفضائل النفسية التى هى العقل والعفة والعدل والشجاعة وما جانس ذلك، ودخل فى جملته إلى ما يليق بأوصاف الجسم فى البهاء والزينة، وذلك غلط وعيب».

هذا ما جاء فى «الموشح». ولا شك أن كثيرا من الحكام يحبون أن يمْدَحوا بالفضائل النفسية والعقلية والخلقية. إلا أن ثم كثيرا أيضا من الحكام يهتمون بأن يمدحهم المادحون بتيجانهم وعروشهم وذهبهم وفضتهم وجيوشهم وجبروتهم وما يدخلونه على النفوس من الرعب والرَّوْع. وهناك حكاية أخرى فضَّل فيها عبدُ الملك من يمدحه بالتقوى على الشعراء الذين يشبهونه بالأسد والجبل وما أشبه. وعلى أية حال فإنى أرى الأمر فى حالة ابن قيس الرقيات مختلفا، فقد عفا عنه عبد الملك من وراء قلبه كما رأينا، وكان يريد أن يقوم له من يقتله من تلقاء نفسه دون أن يصدر هو أمره بذلك. فلهذا كان مضطغنا على الشاعر، وكان يتربص به أية غلطة، فكان البيت المذكور هو هذه التعلة، التى أتصور أنه كان يرحب بها فى ظروف غير الظروف، ومن شاعر آخر سوى ابن قيس الرقيات، وإلا أفليس التاج هو سبب المعارك الطاحنة التى دارت بينه وبين الزبيريين ممدوحِى ابن قيس؟ ألم يكن التاج هو علة العلل فى الحروب التى كانت بين على ومعاوية؟ أما كان التاج هو الباعث على المؤامرات بين أفراد ذرية عبد الملك نفسه ومقتل حفيده الوليد بن يزيد؟ إن التاج رمز الملك والسلطان والقوة، فما وجه العيب فيه؟

وفى «الموشح» أيضا، وردَّده د. عمر فروخ فى ترجمته للشاعر بالجزء الأول من كتابه: «تاريخ الأدب العربي» ولكن دون تفصيل، تخطئةٌ لابن قيس الرقيات فى بعض المسائل النحوية كعدم تنوينه اسم «مصعب» فى قوله:

ومصعبُ حين جدَّ الأمـ ... ـرُ أكثرُها وأطيبُها

مع أنها ضرورة شعرية متقبَّلة. كما أُخِذ عليه أيضا قوله: «وارَزِيتِيهْ» فى البيت التالي:

تبْكِى لَهُم أسماءُ مُعْوِلَةً ... وتَقُولُ لَيلَى: وارَزِيتِيهْ

إذ قال الأصمعى: «كان ينبغى أن يقول: وارزيئتاه كما تقول: واعماه...». لكننا نقرأ فى «الكتاب» لسيبويه» رأى الخليل بأنه «يجوز فى النُّدْبة «واغلامِيهْ» من قِبَل أنه قد يجوز أن أقول: «واغُلامِي»، فأُبَين الياء كما أُبَينُها فى غير النداء، وهى فى غير النداء مبينة فيها لغتان: الفتح والوقف. ومن لغة مَنْ يفتح أن يلْحِق الهاء فى الوقف حين يبين الحركة كما أُلْحِقَت الهاء بعد الألف فى الوقف لأن يكون أوضحَ لها فى قولك: يا رَبّاه. فإذا بَيْنَتَ الياء فى النداء كما بَيْنْتَها فى غير النداء جاز فيها ما جاز إذا كانت غيرَ نداء. قال الشاعر، وهو ابن قيس الرُقيات:

تبكيهم دَهْمَاءُ مُعْوِلةً ... وتقول سَلْمَى: وارَزِيتِيهْ»

وقد فصَّل عباس حسن القول فى صُوَر الندبة فى «النحو الوافي» ذاكرا من بينها «واغلامي»، ثم أنت بالخيار بعد هذا فى هاء الوقف: فإن شئت أثبتَّها، وإن شئت لم تثبتها. ومن ثم لا أستطيع أن أرافئ الأصمعى فى تخطئته ابن قيس الرقيات.

كما أُخِذ عليه أيضا تقفية قصيدته التالية التى قالها يبكى بها أقاربه وأحبابه فى وقعة الحرة أيام يزيد بن معاوية حين كان يعيش بعيدا عن المدينة بالجزيرة والتى منها البيت الفائت:

ذهَبَ الصِّبا وتَرَكتُ غَيتِيهْ ... وَرَأى الغَوَانى شَيبَ لِمَّتِيهْ

وَهَجَرْنَنى، وَهَجَرْتُهُنَّ، وَقَدْ ... غَنِيتْ كَرائِمُها يطُفْنَ بِيهْ

إذْ لِمَّتــى سَــوْداءُ لَــيسَ بِهــا وَضَـــحٌ، وَلَــم أُفْجَــع بِإِخْوَتِيــهْ
الحــامِلِينَ لِــواءَ قَوْمِهِمُــو وَالذائِـــدينَ وَراءَ عَوْرَتِيــهْ
إِنَّ الحَــوادِثَ بالمدينَــةِ قَــدْ أَوْجَعْنَنــى وَقَــرَعْنَ مَرْوَتِيــهْ
وَجَبَبْنَنــى جَــبَّ السَّــنامِ، فَلَــمْ يَترُكْــنَ ريشًــا فــى مَناكِبِيــهْ
وَأَتــى كِتــابٌ مِــن يزيــدَ، وَقَــد شُــدَّ الحِــزامُ بِسَــرْجِ بَغْلَتِيــهْ
يَنْعَــى بَنِــى عَبْــدٍ وَإِخــوَتَهُم حَــلَّ الهَلَــاكُ عَلــى أَقارِبِيــهْ
وَنَعَــى أُســامَةَ لى وَإِخوَتَــهُ فَظَلَلْــتُ مُسْــتَكًّا مَســامِعِيهْ
كَالشَّــارِبِ النَّشْــوانِ قَطَّــرَهُ سَــمَلُ الزِّقَــاقِ تَفِــيضُ عَبْرَتِيــهْ
سَــدِمًا يعَزِّينــى الصَّــحِيحُ، وَقَــدْ مَــرَّ الــمَنُونُ عَلــى كَرِيمَتِيــهْ
كَيْــفَ الرُّقــادُ، وَكُلَّمــا هَجَعَــتْ عَينِــى أَلَــمَّ خَيــالُ إِخْوَتِيــهْ؟
تَبْكِــى لَهُــم أَسمــاءُ مُعوِلَــةً وَتَقــولُ لَيلَــى: وارَزِيتِيــهْ
وَاللَّـــهِ أَبْـــرَحُ فـــى مُقَدَّمَـــةٍ أَهْــدِى الجيــوشَ، عَلَــى شِــكَّتِيهْ

إذ قيل إنها قافيةٌ مخنَّثةٌ كما جاء فى «الشعر والشعراء» لابن قتيبة. ولا أدرى وجه العيب فى تلك التقفية، وقد اعتمدها القرآن فى بعض فواصل سورة «الحاقة» فى حديثه عن أهل الجنة وأهل النار. وقال الشاعر نفسه شيئا شبيها بهذا. لكن أبا هلال العسكرى قد خطَّأه فى كتابه: «الصناعتين» فقال إن فواصل السورة حسنة الموقع، أما قوافيه هو ففيها لين. وهو رد يعيدنا إلى نقطة الصفر دون أن يقول شيئا، إذ كان ينبغى أن يوضح كيف يكون هذا اللين عيبا. فأما وصفها بالمخنثة فهو سخفٌ ساخفٌ. وأما إن كان المقصود باللين أنها قافية لا قعقعة فيها بل همس وضعف إنه لمن السهل بمكان أن يشار إلى أن القصيدة إنما تتحدث عن الأرزاء التى

بهظت الشاعر، فمن المناسب أن يستعمل قافية لينة تتسق مع حالـة الانكسـار التـى تعالجها.

شعراء الشيعة:

من أشهرهم أبو الأسود الدُّؤَلى وأيمن بن خُرَيْم وكُثَـير والكُمَيـت بـن زيـد وسليمان بن قتة وعوف بن عبد الله بن الأحمر الأزدى وعبيد الله بـن الحـر والمفضَّـل المُطَّلِبى وعبد الله بن كُثَيِر السَّهْمِى وحرب بن المنذر بـن الجـارود. ومـن شـعر أبـى الأسود فى التشيع لعلى والرد على من ينتقدونه من أجل هذا التشيع:

يقُـولُ الأَرْذلُـونَ بَنُـو قُشَـيرٍ: ... طَـوَالَ الـدَّهْرِ لا تَنْسَـى عَلِيـا؟

فَقُلْـتُ لَهُـم: وَكَيـفَ يكـونُ تَرْكِـي ... مِـنَ الأَعْمـالِ مـا يقْضَـى عَلَيـا؟

أُحِـبُّ مُحَمَّـدًا حُبًّـا شَـدِيدًا ... وَعَبّاسًـا وَحَمـزَةَ وَالوَصِـيا

وَجَعفَـرَ. إنَّ جَعفَـرَ خَـيرُ سِـبْطٍ ... شَـهِيدًا فـى الجِنـانِ مُهَاجِرِيـا

وَمـا أَنْسَـى الَّـذى لاقـى حُسَـينٌ، ... وَلا حَسَـنٌ بِـأَهْوَنِهِم عَلَيـا

بَنُـو عَـمِّ النَّبِـى وَأَقْرَبُـوهُ ... أَحَـبُّ النـاسِ كُلِّهِمُـو إِلَيـا

فَـإِن يـكُ حُـبُّهُم رُشْـدًا أُصِـبْهُ ... وَفـيهِم أُسْـوَةٌ إِن كـانَ غَيـا

فَكَـم رَشَـدًا أَصَـبْتُ وَحُـزْتُ مَجْـدًا ... تَقاصَـرَ دُونَـهُ هـامُ الثُّرَيـا

هُمُـو أَهْـلُ النَّصِـيحَةِ مِـن لَـدُنِّي ... وَأَهْـلُ مَـوَدَّتى مـا دُمْـتُ حَيـا

هَـوًى أُعْطِيتُـهُ لَمّـا اسـتَدارَت ... رَحَـى الإِسـلامِ لم يعْـدِل سَـوِيا

أُحِبُّهُمُـو لِحُـبِّ اللّهِ حَتّـي ... أَجِـيءَ، إِذا بُعِثْـتُ، عَلـى هَوَيـا

رَأَيـتُ اللّهَ خـالِقَ كُـلِّ شَـيءٍ ... هَـداهُم واجْتَبَـى مِـنهُم نَبِيـا

وَلَـم يخْصُـص بِهـا أَحَـدًا سِـواهُم ... هَنِيئًـا مـا اصْـطَفاهُ لَهُـم مَرِيـا

هُمُـو آسَـوْا رَسُـولَ اللّـهِ حَتّـي ... تَرَبَّـعَ أَمْـرُهُ أَمْـرًا قَوِيـا

ويقول أيمن بن خُرَيم فى الهاشميين، وهو ما تمنى عبد الملك بن مروان أن يمدحه الشعراء بمثله بدلا من تشبيهه بالأسد الأبخر والجبل الأوعر وما إلى ذلك حسبما كتب أبو الفرج فى «أغانيه»:

نهارُكمو مكابدةٌ وصومٌ ... ولَيلُكمو صلاةٌ واقْتِراءُ

وَلِيتُمْ بالقُرَان وبالتزكِّى ... فأسرعَ فيكمو ذاك البلاءُ

بَكَى نجدٌ غداةَ غدٍ عليكم ... ومكةُ والمدينةُ والجِوَاءُ

وحَقَّ لكل أرضٍ فارقوها ... عليكم، لا أبَا لكم، البكاءُ

أأجعلكم وأقوامًا سواءً ... وبينكمو وبينهم الهواءُ

وهم أرضٌ لأرجلكم، وأنتم ... لأرؤسهم وأعينهم سماءُ؟

ومن شعر كُثَيِّر عزة فى التشيع للهاشميين تلك القصيدة التى قالها يهاجم فيها عبد الله بن الزبير حين حبس محمد بن على بن أبى طالب من زوجته الحنفية فى مكة أيام دولة الزبيريين. وكان عبد الله قبل ذلك قد عاذ بالبيت الحرام فى عهد يزيد بن معاوية، فسخر منه كثير قائلا: إن العائذ الحقيقى من الظلم هو ابن الحنفية، الذى حبستَه فى سجنٍ عارمٍ بغيا وعدوانا:

تُخَبِّرُ من لاقَيتَ أنك عائذٌ ... بل العائذ المحبوس فى سجنِ عارمِ

ومن يلْقَ هذا الشيخَ بالخَيف من مِنًى ... من الناس يعلمْ أنه غير ظالمِ

سَمِى النبى المصطفى وابنُ عمه ... وفكّاكُ أغلالٍ وقاضى مَغَارمِ

أبَى، فهو لا يشْرِى هُدًى بضلالةٍ ... ولا يتقى فى الله لومة لائمِ

ونحن، بحمد الله، نتلُو كتابه ... حُلُولًا بهذا الخيف حَيف المحارمِ

بحيث الحَمَامُ آمناتٌ سواكنٌ ... وتلقَى العدوَّ كالصديق المسالمِ

فما رَوْنَقُ الدنيا بباقٍ لأهْله ... ولا شدةُ البلوى بضربةِ لازمِ

ومع تشيع كُثَيِّرٍ رأيناه يمدح بنى أمية بعد أن وفد ابنُ الحنفية على عبد الملك بن مروان فى دمشق فأكرم نُزُلَه، وكان فى معيته كُثَيِّرٌ، الذى بعثه إكرام ابن مروان لسيده على مديحه ومديح غيره من خلفاء بنى أمية كما فى الأبيات التالية التى يثنى فيها عليهم ويلحقهم بالخلفاء الراشدين. وهو مديح غريب لأن هذا الكلام يهدم دعوى الشيعة فى أن عليا وأبناءه هم أصحاب الحق فى الخلافة بعد النبى عليه السلام:

وكان الخلائفُ بعد الرسو … ل لله كُلُّهم تابِعَا

شهيدان من بعد صِدِّيقِهم … وكان ابنُ حربٍ لهم رابعَا

وكان ابنُه بعده خامسًا … مطيعًا لمن قبله سامعًا

ومروانُ سادسُ من قد مضي … وكان ابنُه بعده سابعًا

إلا أننا نقرأ فى «الأغاني» ما يمكن أن يحل هذا الإشكال حسبما جاء فى الرواية التالية: «أخبرنى محمد بن الحسن بن دريد قال: حدثنا أبو حاتم قال: حدثنى الحجاجى قال: بلغنى أن الطِّرِمّاح جلس فى حلقةٍ فيها رجل من بنى عبس، فأنشد العبسى قولَ كُثَيِّرٍ فى عبد الملك:

فكنتَ المعلَّى إذ أُجِيلَتْ قِدَاحُهم … وجال المَنِيحُ وَسْطها يتقلقلُ

فقال الطرماح: أمَا إنه ما أراد به أنه أعلاهم كعبًا، ولكنه مَوَّه عليه فى الظاهر، وعَنَى فى الباطن أنه السابع من الخلفاء الذين كان كثير لا يقول بإمامتهم، لأنه أخرج عليا عليه السلام منهم، فإذا أخرجه كان عبدُ الملكِ السابعَ، وكذلك المعلَّى السابعُ من القداح. فلذلك قال ما قاله. وقد ذكر ذلك فى موضع آخر فقال:

وكان الخلائفُ بعد الرسو … ل لله كُلُّهم تابِعَا

شهيدان من بعد صِدِّيقِهم … وكان ابنُ حربٍ لهم رابعَا

وكان ابنُه بعده خامسًا … مطيعًا لمن قبله سامعًا

ومروانُ سادسُ من قد مضي … وكان ابنُه بعده سابعًا

قال: فعجبنا من تنبه الطرماح لمعنى قول كثير، وقد ذهب على عبد الملك، فظنه مدحا».

لكن إذا كان الأمر كذلك فكيف يوصف كُثَير بأنه كان مُحَمَّقا؟ أَوَمَنْ يصنع هذا بعبد الملك وهشام ودهاة بنى أمية أيوصف بالحماقة وقلة العقل؟ وبالمثل كيف يصف د. شوقى ضيف، فى كتابه: «العصر الإسلامي»، حبه لعزة بأنه لم يكن نابعا من القلب بل كان يتكلفه، متخذا من بناء قافية تائيته فى عزة على حرفين دليلا على هذا التكلف، مع أنه قد حَكَمَ على تلك القصيدة بأنها أروع أشعاره فيها؟ والحق أن القصيدة رائعة فائقة الروعة سواء فى صورها العجيبة أو فى لفتاتها الفريدة أو فى حرارتها اللافحة أو فى تعبيراتها الطريفة، ولا يبدو عليها أى لون من ألوان التكلف. وكيف يتكلف من يحمل فى قلبه مثل ذلك الحب اللاعج اللاهب الذى يتمنى صاحبه لو يصيب رجله الشلل وتضيع ناقته كى يبقى قريبا من حبيبته عاجزا عن مغادرة ديارها، مع خشيته فى ذات الوقت أن يسبب بقاؤه بالقرب منها الملل لها؟ يقول كثير فى تائيته البديعة:

خَلِيلَى، هذا رَبْعُ عَزَّةَ، فَاعْقِلا ... قَلُوصَيكُما ثُمَّ ابْكِيا حَيثُ حَلَّتِ

وَمُسَّا تُرابًا كَانَ قَد مَسَّ جِلْدَها ... وَبِيتَا وَظَلَّا حَيثُ باتَتْ وَظَلَّتِ

وَلا تَيأَسا أَنْ يمحُوَ اللّٰهُ عَنْكُما ... ذُنوبًا إِذا صَلَّيتُما حَيثُ صَلَّتِ

وما كنتُ أدرى قَبْلَ عَزَّةَ ما البُكَا ... وَلا مُوجِعاتِ القَلْبِ حَتَّى تَوَلَّتِ

وَما أَنْصَفَتْ: أَمّا النِّساءَ فَبَغَّضَتْ ... إِلينا وَأَمَّا بِالنَّوالِ فَضَنَّتِ

وَكانَت لِقَطْعِ الحَبلِ بينى وَبَينَها ... كَنَاذِرَةٍ نَذْرًا وَفَتْ فَأَحَلَّتِ

فَقُلتُ لها: يا عَزَّ، كُلُّ مُصيبَةٍ ... إِذا وُطِّنَت يوْمًا لها النَّفْسُ ذَلَّتِ

كَأَنّى أُنادِى صَخْرَةً حِينَ أَعْرَضَتْ ... مِنَ الصُّمِّ لو تَمْشِى بِها العُصْمُ زَلَّتِ

صَفُوحٌ، فما تَلْقَاكَ إِلا بَخيلَةً ... فَمَنْ مَلَّ مِنها ذَلِكَ الوَصْلَ مَلَّتِ

أباحَتْ حِمًى لم يرْعَهُ النـاسُ قَبْلَهـا ... وَحَلَّـتْ تِلاعًـا لَـم تكُـنْ قَبْـلُ حُلَّـتِ

فَلَيـتَ قَلُوصِـى عِنْـدَ عَـزَّةَ قُيـدَتْ ... بِحَبْـلٍ ضَـعيفٍ غُـرَّ مِنهـا فَضَـلَّتِ

وَغُـودِرَ فـى الحَـى المُقـيمينَ رَحْلُهـا ... وَكـانَ لَهـا بـاغٍ سِـواى فَبَلَّـتِ

وَكُنتُ كَذى رِجْلَينِ: رِجْلٍ صَحيحَةٍ ... وَرِجْـلٍ رَمَـى فيهـا الزَّمـانُ فَشَـلَّتِ

وَكُنـتُ كَـذاتِ الظَّلْـعِ لَمّـا تَحامَلَـتْ ... عَلـى ظَلْعِهـا بَعْـدَ العِثـارِ اسْـتَقَلَّتِ

أُريــدُ الثَّــواءَ عِنــدَها، وَأَظُنُّهــا ... إذا مـا أَطَلْنـا عِنـدَها الـمُكْثَ مَلَّـتِ

وَلى زَفَـراتٌ لَـو يَـدُمْنَ قَتَلْنَنـي ... تَـوالى الَّتِـى تـأتى الـمُنَى قَـد تَوَلَّـتِ

أَسِـيئِى بِنـا أَو أَحْسِـنى لا مَلُومَـةً ... لَـدَينا وَلا مَقْلِيـةً إِن تَقَلَّـتِ

وَلَكِـن أَنيلِـى وَاذْكُـرِى مِـنْ مَـوَدَّةٍ ... لنـا خُلَّـةً كَانَـتْ لَـدَيكُم فَضَـلَّتِ

وَإِنّـى، وَإِن صَـدَّتْ، لَمُـثْنٍ وَصـادِقٌ ... عَلَيهـا بِمـا كانَـتْ إِلَينـا أَزَلَّـتِ

فَمَـا أنـا بِالـداعى لِعَـزَّةَ بِـالرَّدَي ... وَلا شـامِتٍ إِنْ نَعْـلُ عَـزَّةَ زَلَّـتِ

فَـلا يحْسَـبِ الواشُـونَ أَنَّ صَـبَابَتِي ... بِعَـزَّةَ كَانَـت غَمْـرَةً فَتَجَلَّـتِ

فأصبحتُ قَد أَبْلَلْتُ مِن دَنَفٍ بِها ... كَمـا أُدْنِفَـت هَيمـاءُ ثُـمَّ اسـتَبَلَّتِ

فَوَاللَّـه ثُـمَّ اللّٰه لا حَـلَّ بَعْـدها ... وَلا قَبْلَهـا مِـن خُلَّـةٍ حَيـثُ حَلَّـتِ

وَمـا مَـرَّ مِـنْ يَـوْمٍ عَلَـى كيومِهـا ... وَإِن عَظُمَـتْ أَيـامُ اخْـرَى وَجَلَّـتِ

وَحَلَّـت بِـأَعْلى شـاهِقٍ مِـن فُـؤَادِهِ ... فَـلا القَلْـبُ يسْلاها وَلا النَّفْسُ مَلَّـتِ

فَـوا عَجَبـا لِلقَلْـبِ كَيـفَ اعترافُـهُ ... وَلِلـنَّفْسِ لَمّـا وُطِّنَـت فَاطْمَأَنَّـتِ

ولسليمان بن قتة، وهو مَوْلًى لبنـى تـيم كـان منقطعـا إلى بنـى هاشـم، نـورد الأبيات التالية التى يشير فيها إلى مصرع الحسين بن على رضى الله عنه:

مـررتُ علـى أبيـات آل محمّـدٍ ... فلـم أرهـا كعهـدها يـوم حُلَّـتِ

فـلا يبْعِـدِ اللّٰهُ الـدّيارَ وأهلَهـا ... وإنْ أصبحتْ مـن أهلـها قـد تخلّـتِ

وكــانوا رجــاءً ثــم عـــادوا رَزِيـــةً ... فقـد عَظُمَــتْ تلـك الرّزايــا وجَلَّــتِ

وإنّ قتيــل الطَّــفِّ مـــن آل هاشــمٍ ... أذلَّ رقـــابَ المســـلمين فـــذلّتِ

وعنــد غنـــى قطـــرةٌ مـــن دمائنـــا ... سـنجزيهمو يومًـا بهـا حيـث حلّـتِ

إذا افتقــرتْ قــيسٌ جَبَرْنــا فقيرَهــا ... وتقتُلنـــا قـــيسٌ إذا النّعـــلُ زلّـــتِ

أما الكميت بن زيد الأسدى فشيعى زيدى. وله عدد من القصـائد الشـديدة الطول، وإن كان كثير جدا من أشعاره مكونا من بيت واحد. ولأنه كان زيـديا نـراه لا يتطاول على الشيخين رضى الله عنهما. قال فى التشيع لعلى كرم الله وجهه:

أَهْــوَى عَلِيــا أمِــيرَ المــؤمِنِينَ وَلَـــا ... أَرْضَــى بِشَــتْمِ أَبِــى بَكْــرٍ وَلَــا عُمَــرَا

ولا أَقُــولُ، وإنْ لَــم يعْطِيــا فَــدَكًا ... بِنْــتَ الرَّسُــولِ ولا مِيراثَــهُ: كَفَــرَا

اللّهُ يعْلَــمُ مـــاذا يأْتِيـــان بِـــهِ ... يــوْمَ القِيامَــةِ مــن عُــذْرٍ إذا اعتَــذَرَا

إنَّ الرَّسُــولَ رَسُــولَ اللّهِ قَــالَ لَنَــا: ... إنَّ الــوَلِى علــى غَــيرَ مــا هَجَــرَا

فــى مَوقِــفٍ أوقَــفَ اللّهُ النَّبِــى بِــهِ ... لم يعْطِــهِ قَبْلَــهُ مــن خَلْقِــهِ بَشَــرَا

هُــوَ الإمَــامُ إمــامُ الحَــقِّ نَعْرِفُــهُ ... لا كاللَّــذينِ اســتَزَلّانا بِمَــا ائْتَمَــرَا

مَــن كَــانَ يرْغِمُــه رُغْمًــا فَــدَامَ لَــهُ ... حَتَّــى يــرَى أَنْفَــهُ بــالتُّرْبِ مُنْعَفِــرَا

ومن شعره المتشيع أيضا:

نَفَى عَنْ عَينِكَ الأَرَقُ الهُجُوعَا ... وَهَــمٌّ يمْتَــرِى مِنهــا الــدُّمُوعَا

دَخِيلٌ فى الفُؤَادِ يهِيجُ سُقْمًا ... وَحُزْنًــا كــانَ مــن جَــذَلٍ مَنُوعَــا

وَتَوْكَافُ الدُّمُوعِ على اكْتِئَابٍ ... أَحَــلَّ الــدَّهْرُ مُوجِعَــهُ الضُّــلُوعَا

يرَقْــرِقُ أسْــجُمًا دِرَرًا وَسَــكْبًا ... يشَــبَّهُ سَــحُّها غَرْبًــا هَمُوعَــا

لِفُقْـدَانِ الــخَضَارِمِ مِـن قُـرَيشٍ ... وَخَـيرِ الشَّــافِعِينَ مَعًــا شَـفِيعَا

لَدَى الـرحمنِ يصْدَعُ بالـمَثَانِي ... وكَــانَ لــه أَبُــو حَسَـنٍ مُطِيعًــا

حَطُوطًــا فــى مَسَــرَّتِهِ وَمَــوْلَّي ... إلى مَرْضَــاةِ خَالِقِــهِ سَــرِيعَا

وأصْـفَاهُ النَّبِــى علَــى اخْتِيـارٍ ... بِمَـا أَعْيـا الرَّفُـوضَ لـه الـمُذِيعَا

وَيَــوْمَ الــدَّوْحِ دَوْحِ غَـدِيرِ خُـمٍّ ... أبَــانَ لــهُ الولَـايــةَ لــو أُطِيعَــا

ولكِـــنَّ الرِّجَـــالَ تَبَايعُوهَـــا ... فَلَـمْ أرَ مِثْلَهَــا خَطَـرًا مَبِيعَــا

فَلَــم أبلُــغْ بِهِــم لَعْنًــا، وَلَكِــن ... أَسَــاءَ بِــذَاكَ أوَّلُهُــم صَــنِيعَا

فَصَــارَ بِــذَاكَ أَقْــرَبُهُم لِعَــدْلٍ ... إلى جَــوْرٍ وأحفَظُهُــم مُضِــيعَا

أضَــاعُوا أمــرَ قَائِـدِهم فَضَــلُّوا ... وأَقْــوَمُهم لَــدَى الحَـدَثَانِ رِيعَـا

فَقُـل لِبَنِـى أُمَيـةَ حَيـثُ حَلُّـوا ... وإن خِفْـتَ الــمُهَنَّدَ والقَطِيعَــا:

ألا أُفٍّ لِـــدَهْرٍ كُنْـــتُ فِيـــهِ ... هِــدَانًا طَائِعًــا لَكُمُــو مُطِيعَــا

أجَــاعَ اللّٰهُ مَـــن أشْـــبَعتُمُوهُ ... وأشْـبَعَ مَـن بِجَوْرِكُمُـو أُجِيعَـا

وَيلْعَـــنُ فَــدَّ أُمَّتِـــهِ جِهَـــارًا ... إذَا سَــاسَ البَرِيــةَ والخَلِيعَــا

بِمَرْضِــى السِّياسَــةِ هَاشِــمِي ... يكُــونُ حَيــا لأُمَّتِــهِ رَبِيعَــا

وَلَيثًــا فِـى المَشَـاهِدِ غَـيرَ نِكْـسٍ ... لِتَقْــوِيمِ البَرِيــةِ مُسْـــتَطِيعَا

أما قصيدته التالية فقد تحول فيها تحولا شديدا، إذ نظمها فى مـدح هشـام بـن عبد الملك وابنه مَسْلَمة بعد أن كان هشام قد أهدر دمه لوقوفه مـع الهاشـميين ضـد بنى أمية:

]قـــف بالـــديار وقـــوفَ زائـــرْ]وتـــأنَّ. إنـــك غـــير صـــاغِرْ

]مـــاذا عليـــك مـــن الوقـــو]ف بهَامِـــدِ الطللـــين داثِـــرْ

]درجـــــتْ عليـــــه الغاديـــــا]تُ الرائحــاتُ مــن الأعاصِــرْ؟

]يـــا مَسْـــلَم بـــن أبـــى الـــولى]ـــد لميـــتٍ، إن شـــئتَ، ناشـــرْ

]عَلِقَـــتْ حبـــالى مـــن حبـــا]لـــك ذمّـــةَ الجـــار المجـــاورْ

]فـــالآن صـــرتُ إلى أميـــــــ]ـيـــةَ، والأمـــورُ إلى المصـــايرْ

]والآن كنـــــتُ بـــــهِ المصـــــى]ــــــبَ كمُهْتَــدٍ بــالأمس حــائرْ

]يـــا ابـــنَ العقائـــل للعقـــا]ئـــل والجَحَاجِحَـــةِ الأخـــابرْ

]مِـــنْ عبـــد شمـــسٍ والأكـــا]بـــرِ مـــن أميـــةَ فالأكـــابرْ

]إن الخلافـــــــــــــة والإلا]فَ بـــرغم ذى حســـدٍ وواغِـــرْ

]دلَفَـــا مـــن الشـــرف التليـــــــ]ـــــــد إليـكَ بالرِّفْـد المـوافرْ

]فحَلَلْـــتَ مُعْـــتَلِجَ البطـــا]حِ، وحَـــلَّ غـــيرُك بـــالظواهرْ

]كـــم قـــال قـــائلكم: «لَعًـــا]لـــكَ»، عنـــد عثرتـــه، لعـــاثرْ

]وغفرتمـــو لـــذوى الـــذنو]ب مـــن الأكـــابر والأصـــاغرْ

]أبَنِـــى أميـــةَ، إنكـــم]أهـــل الوســـائل والأوامـــرْ

ثقتـــــى لكـــــل مُلِمَّـــــةٍ وعشـــــيرتى دون العشــــائرْ

الطيبـــوثُـــرْبِ المغـــار س والمنابــــت والمكاســــرْ

والســـــاحبون اللاحفـــــو ن الأرضَ هُـــــدَّابَ المــــآزرْ

أنــــتم معــــادن للخـــــلا فــة كــابرًا مــن بعــد كــابرْ

بالتســــــعة المتتابعيـــــــــ ــــــن خلائفًا، وبخيرِ عاشرْ

ومن الواضح أن الرجل خائف على نفسه، وهذا طبيعى، ولا ينبغى الإغـراق فى لومه إذا ما لجأ إلى التقية كى ينجو بجلده بعد أن كان هشام قد أهدر دمه. أو لعله وجد أن مصلحته تقتضى هذا بعد فشل الهاشميين فى الوصول إلى الحكم، الذى كان يراه حقا لهم.

شعراء الخوارج:

وهم كثيرون يعدون بالعشرات، ومنهم عمرو بن الحصين العنبرى ومـرداس بن أدية وسميرة بن الجعد وأم الجراح العدوية وأم حكيم والبهلول بن بشر الشيبانى وحبيب بن خدرة الهلالى وحسان بن جعدة والرهين بـن سـهم المـرادى وزيـد بـن جندب الأزرقى وعمران بن حطان السدوسى وعمرة أم عمران بن الحارث وفروة بن نوفل الأشجعى وقطرى بن الفجاءة المازنى وكعب بن عميرة ومحارب بـن دثـار ومسلم بن جبير والمصك الطـائى والمنهـال الشـيبانى البصـرى ونـافع بـن الأزرق ونجدة بن عامر الحنفى ويزيد بن حبناء. وتتميـز أشـعارهم عمومـا بالقلـة وقِصَر النفس معا، وجميعها تقريبا فى مدح الزهد والعفـاف والتقـوى والتغنـى بالجهـاد فى سبيل الله، ونادرا ما تكون غزلا، وغزلهم عـلى قلتـه يـدور فى عمومـه عـلى التغنـى بتقوى الحبيبة وحرصها على المشاركة فى القتـال وتحمسـها لمبـادئ الخـروج ومـا إلى ذلك بسبيل. وهو شعر بسيط لا تعقيد فيه ولا حرص عـلى الغريـب أو الفخامـة أو الفحولة.

يقول فروة بن نوفل الأشجعى مخطِّئًا عليا لقبوله التحكيم بينه وبين معاوية مع أن الخوارج هم الذين اضطروه اضطرارا إلى قبوله قبل أن يعودوا فيطلبوا منه أن يتراجع عنه بعدما تم الاتفاق بين الطرفين عليه:

كَرِهْنا أن نُريقَ دَمًا حَلالًا ... وَهَيهاتَ الحَرامُ مِنَ الحلالِ

وَقُلْنا فى الَّتى (كانت) بِقَوْلٍ: ... مَعاذَ اللهِ مِنْ قِيلٍ وَقالِ

نُقاتِلُ مَن يقاتِلُنا وَنَرْضَي ... بِحُكْمِ اللَهِ لا حُكْمِ الرِّجالِ

وَفارَقْنا أَبا حَسَنٍ عَلِيا ... فَما مِن رَجْعَةٍ أُخْرَى الليالي

فَحَكَّمَ فى كِتابِ اللهِ عَمْرًا ... وَذاكَ الأَشعَرِى أَخا الضَّلالِ

وقالت أم الجراح العدوية الخارجية ترثى اثنين من رجال الخوارج وتهدد بالثأر لهما:

وَما بَعْدَ مِرْداسٍ وَعُرْوَةَ بَينَنا ... وَبَينَكُمُو شَيءٌ سِوَى عِطْرِ مَنْشِمِ

فَلَسْتَ بِناجٍ مِن يدِ اللهِ بَعْدَما ... هَرَقْتَ دِماءَ المسلِمينَ بِلا دَمِ

وقالت عمرة ترثى ابنها عمران بن الحارث بن وهب الراسبى بعد مقتله يوم دولاب مع نافع بن الأزرق:

اللَّهُ أَيدَ عِمْرانًا وَطَهَّرَهُ ... وَكانَ عِمْرانُ يدعو اللهَ فى السَّحَرِ

يدْعوهُ سِرًّا وَإِعلانًا لِيرْزُقَهُ ... شَهادَةً بِيدَى مِلْحادةٍ غُدَرِ

وَلَّى صَحابَتُهُ عَن حَرِّ مَلحَمَةٍ ... وَشَدَّ عِمْرانُ كَالضِّرغامَةِ الهَصِرِ

أَعْنِى ابْنَ عَمْرَةَ إِذ لاقَى مَنِيتَهُ ... يوْمَ ابنُ بابٍ يحامِى عَوْرَةَ الدُّبُرِ

ولسميرة بن الجعد قصيدة يتحدى فيها الحجاجَ معلنا تمسكه بمذهب الخوارج، الذى يسميه: دينا، دون غيره من المذاهب:

فَمَنْ مُبْلِغُ الحجّاجِ أَنَّ سَميرَةً ... قَلَى كُلَّ دينٍ غَيرِ دينِ الخَوارِجِ؟

رَأَى الناسَ، إلا مَن رَأَى مِثْلَ رَأْيِهِ، ... مَلاعِينَ تَرّاكينَ قَصْدَ المَناهِجِ

فَأَى امْرِئٍ أَى امْرِئٍ يا ابنَ يوسُفٍ ... ظَفِرْتَ بِهِ لَم يأتِ غَيرَ الوَلائِجِ

إِذَنْ لَرَأَيتَ الحَقَّ مِنهُ مُخالِفًا ... لِدينِكَ أَنْ كُنتَ امرَءًا غَيرَ فالِجِ

يسائِلُنى الحجّاجُ عَن أَمْرِ دينِهِ ... وَلَيسَ هَوَاهُ لِلصَّوابِ بِواشِجِ

فَأَضْلِل بِهِ مِن واشِجٍ خَلَجَتْ بِهِ ... عَنِ الدينِ وَالإِسْلامِ إِحدى الخوالِجِ!

وَهَيهاتَ فَلْجٌ وَالمُقِيمُ بِنَهْرِها ... إذا قِسْتَها فى البُعْدِ مِن رَمْلِ عالِجِ

فَيا لَيتَنى، إذ أَمكَنَتْنِى فُرْصَةٌ، ... فَتَكْتُ بِهِ فَتْكَ امْرِئٍ غَيرِ نافِجِ

فَقَد كِدتُ، لَولا اللّهُ، أَن أَمْزِجَ الهُدَي ... هُدَى الحَقِّ مِن قَلْبِى بِمَذْقَةِ مازِجِ

فَعَمَّمْتُهُ مِثلَ العَقِيقَةِ صارِمًا ... تَخالُ عَلى مَتْنَيهِ ماءَ الصَّهارِجِ

فَأَقْبَلْتُ نَحْوَ اللّهِ بِاللّهِ واثِقًا ... وَما كُرْبَتى غَيرُ الإِلهِ بِفارِجِ

عَلَى ظَهْرِ مَحْبوكِ القَرا مُتَمَطِّرًا ... إِلَى فِتْيَةٍ بِيضِ الوُجُوهِ مباهِجِ

إِلى قَطَرِى فى الشُّرَاةِ مُعالِجًا ... وَلَسْتُ إِلى غَيرِ الشُّراةِ بِعائِجِ

إِلى عُصْبَةٍ أَمّا النَهارَ فَإِنَّهُم ... هُمُ الأُسْدُ عِنْدَ الحربِ أُسْدُ التَهايِجِ

وَأَمّا إذا ما اللَّيلُ جَنَّ فَإِنَّهُم ... قِيامٌ كَأَنْواحِ النِّساءِ النَواشِجِ

ينادونَ بِالتحكيمِ للّهِ. إِنَّهُم ... رَأَوْا حُكْمَ عَمْروٍ كَالرِّياحِ الهوائِجِ

وَحُكْمَ ابن قيسٍ مِثْلَ ذاكَ، فَأُعْصِموا بِحَبْلٍ شَدِيدِ الـمَتْنِ لـيسَ بِنـاهِجِ

وَلا خَيرَ فى الدنيا إذا الدينُ لَم يكُن صَحيحًا وَلَم يصْمُد لِقَصْدِ المَخارِجِ

وقالت أم حكيم الخارجية، وكانت أجمل نساء زمانها ومن أشجع الناس وأحسنهم بديهة، حين خطبها جماعة من أشراف الخوارج، فردتهم:

ألا إنَّ وجهًا حَسَّنَ اللّهُ خَلْقَه لأَجْدَرُ أنَّ يلْقَى به الحسنُ جامعا

وأُكْرِمُ هذا الجِرْمَ عن أن ينالـه تَـوَرُّك فَحْـلٍ هَمُّـه أن يجامِعـا

و كانت مع قطرى بن الفجاءة فى عسكر الأباضـية، فكانـت ترتجـز فى تلـك الحروب وتقول:

أحمـلُ رأسًـا قـد سئمتُ حَمْلَـهْ وقـد مَلِلْـتُ دَهْنَـهُ وغَسْـلَهْ

ألا فَتًى يحمل عنى ثقْلَهْ؟

ومن شعر مرداس بن أُدَيَة الخارجى نختـار تلـك الأبيـات التـى ينتقـد فيهـا الفسادَ الإدارى فى الدولة الأموية:

إلَهِـى، هَـبْ لى زُلْفَـةً وَوَسـيلَةً إلَيكَ، فَإنّى قد سَئِمْتُ مِنَ الدَّهْرِ

وَقَد أَظْهَرَ الجَوْرَ الوُلاةُ وَأَجمَعوا عَلى ظُلْمِ أَهْلِ الحَقِّ بِالغَدْرِ وَالكُفْرِ

وَفيـكَ، إلهـى إن أَرَدْتَ، مُغَـيرٌ لِكُلِّ الذى يأْتِى إلَينا بَنُو صَخْرِ

فَقَد ضَيقوا الدنيا عَلَينا بِرُحْبِها وَقَـد تَرَكُونـا لا نَقَـرُّ مِـنَ الـذُّعْرِ

فَيـا رَبِّ، لا تُسْلِمْ وُلَاتَـكَ لِلـرَّدَي وَأَيـدْهُمُو، يـا رَبِّ، بِالنَّصْرِ وَالصَّبْرِ

وَيسِّـرْ لنـا خَـيرًا وَلا تَحْرِمَنَّنـا لِقـاءَ ذَوِى الإلحـادِ فى عَدَدٍ دَثْـرِ

فَلَسْنا، إذا جَمَّتْ جُموعُ عَدُوِّنا وَجاؤوا إلَينـا مِثْلَ طامِيةِ البَحـرِ

]نَكُفُّ إِذا جاشَت إِلَينا بُحُورُهُم]وَلا بِمَهايِيبٍ نَحِيدُ عَنِ البُثْرِ

]وَلكِنَّنا نَلْقَى القَنَا بِنُحُورِنا]وَبِالهامِ نَلْقَى كُلَّ أَبْيضَ ذى أَثْرِ

]إذا جَشَأَتْ نَفْسُ الجبانِ وَهَلَّلَت]صَبَرْنا وَلَوكانَ القِيامَ عَلى الجَمْرِ

وللطِّرِمّاح اخترنا الأبيات التالية التى خصصها لوصف حيوانه مكثرا من الغريب الـحُوشِى الذى يستعمله عادةً وُصّاف الإبل والخيول. وقد أخذ بعض النقاد القدماء على الشاعر استعماله لهذه الألفاظ والعبارات لأنه لم يكن يضعها مواضعها المناسبة نظرا إلى أنه ليس من أهل البادية، بل يستعيرها منهم استعارة ولا تصدر عنه صدورا طبيعيا. والقصيدة التى أخذنا منها الأبيات طويلة على خلاف شعر الخوارج بوجه عام:

]قَلَّ فى شَطِّ نَهْرَوانَ اغْتِماضي]وَدَعانى هَوَى العُيونِ المِراضِ

]فَتَطَرَّيتُ لِلهَوى ثُمَّ أَقْصَرْ]تُ رِضًا بِالتُّقَى، وَذُو البِرِّ راضي

]وَأَرانى المليكُ رُشْدى، وَقَد كُنْـ]ـتُ أَخا عُنْجُهِيةٍ وَاعْتِراضِ

]غَيرَ ما رِيبَةٍ سِوى رَيقِ الغِرْ]رَةِ ثُمَّ ارعَوَيتُ عِنْدَ البَياضِ

]لاتَ هَنّا ذِكْرَى بُلَهْنِيةِ الدهـ]ـرِ، وَأَنَّى ذِكْرَى السِّنينَ المواضى؟

]فَاذْهَبوا ما إِليكُمُو. خَفَضَ الحِلْـ]ـمُ عِنانى، وَعُرِّيتْ أَنقاضي

]وَذَهَلتُ الصِّبا، وَأَرشَدَنى الـ]ـلهُ بِدَهْرٍ ذى مِرَّةٍ وَانْتِقاضِ

]وَجَرَى بِالذى أَخافُ مِنَ البَيْـ]ـنِ لَعِينٌ ينوضُ كُلَّ مَناضِ

]صَيدَحِى الضُّحَى كَأَنَّ نَساهُ]حِينَ يجْتَثُّ رِجلَهُ فى إِباضِ

]سَوفَ تُدْنِيكَ مِن لَمِيسَ سَبَنْتا]ةٌ أَمارَت بِالبَوْلِ ماءَ الكِراضِ

أَضْمَرتْهُ عِشرينَ يوْمًا، وَنِيلَتْ   حِينَ نِيلَتْ يعارَةً فى عِراضِ

فَهْى قَوْداءُ نُفِّجَت عَضُداها   عَن زَحاليقَ صَفْصَفٍ ذى دَحاضِ

عَوْسَرَانِيةٌ إِذا انتَفَضَ الخِمْـ   ـسُ نِطافَ الفَظِيظِ أى انْتِفاضِ

وَأَوَت بِلَّةُ الكَظُومِ إلى الفَظْـ   ـظِ، وَجالَتْ مَعاقِدُ الأَرْباضِ

مِثلُ عَيرِ الفَلاةِ شاحَسَ فاهُ   طولُ كَدْمِ القَطَا وَطولُ العِضاضِ

صُنْتُعُ الحاجِبَينِ حَرَّطَهُ البَقْـ   ـلُ بَدِيا قَبْلَ استِكاكِ الرِّياضِ

فَهْوَ خِلوُ الأَعْصالِ إلا مِنَ الما   ءِ وَمَلْهودٍ بارِضٍ ذى انهياضِ

وَيظَلُّ المَلِى يوفِى عَلَى القَرْ   نِ عَذُوِيًا كَالحُرْضَةِ المُسْتَفاضِ

يرْعَمُ الشَّمْسَ أَنْ تَميل بِمِثل الـ   ـجَبْءِ جَأْبٌ مُقَذَّفٌ بِالنِّحاضِ

وَحَوى سَهْلٍ يثيرُ بِهِ القَوْ   مُ رِياضًا لِلْعَينِ بَعْدَ رِياضِ

وَقِلاصًا لَم يغْذُهُنَّ غَبُوقٌ   دائِماتِ التَّجيمِ وَالإنقاضِ

وَمَحاريجَ مِن سعارٍ وَغَينٍ   وَغَمَاليلِ مُدْجَنَاتِ الغِياضِ

مُلْبَسَاتِ القَتَامِ يمْسِى عَلَيها   مِثلُ ساجى دَواجِنِ الحَرّاضِ

ولعمرو بن الحصين العنبرى نص شعرى شديد الطول أيضا بالنسبة لأشعار الخوارج يرثى فيه بعض من قُتِل من رفاقه فى محاربة الأمويين، ومنهم أبو حمزة الشارى خطيبهم المشهور فى أواخر العصر الأموى. وتلاحظ فى هذا الرثاء تركيز الشاعر على صفات العفاف والتقوى والجهاد فى سبيل الله، فلا كلام عن الحسب والنسب ولا عن أمور الدنيا من قريب أو بعيد:

هَبَّتْ قُبَيل تبلُّج الفجرِ ... هندٌ تقول، ودمعها يجري

إذ أبصرتْ عينى وأدمعها ... تنهلّ واكفةً على النحرِ

أنَّى اعتراك، وكنتَ عَهْدِى لا ... سَرِبَ الدموعِ، وكنت ذا صبرِ؟

أقَذًى بعينك لا يفارقها ... أمْ عائرٌ، أم ما لها تدْري

أم ذِكْرُ إخوانٍ فُجِعْتَ بهم ... سلكوا سبيلهمو على قَدْرِ؟

فأجبتُها: بل ذِكْرُ مصرعهم ... لا غَيرُه عبراتِها يمْرِي

يا رب، أَسْلِكْنى سبيلهمو ... ذا العرش، واشْدُدْ بالتُّقَى أزري

فى فتيةٍ صَبَروا نفوسَهمو ... للمَشْرَفية والقنا السُّمْرِ

تاللّهِ ما فى الدهر مثلهمو ... حتى أكون رهينةَ القبرِ

أوْفَى بذمتهم إذا عقدوا ... وأعَفّ عند العسر واليسرِ

متأهبون لكل صالحةٍ ... نافون من لاقَوْا عن النُّكْرِ

صُمُتٌ إذا حضروا مجالسهم ... من غير ما عِى بهم يزْرِي

إلا تجيئهمو فإنهمو ... رُجُف القلوب بحضرة الذِّكْرِ

متأوهون كأن جمر غضًا ... للموت بين ضلوعهم يسري

لا ليلهم ليلٌ فيلبسَهم ... فيه غواشى النوم بالسُّكْرِ

إلا كَرًى خلسًا، وآونةً ... حَذَرَ العقاب، فهم على ذُعْرِ

كم من أخ لك قد فُجِعْتَ به ... قوَّام ليلته إلى الفجرِ

]متأوهـا يتلـو قـوارع مـن]آى الكتـاب مفـزَّع الصـدرِ

]ظمـآن وَقْـدَةَ كـلِّ هـاجرة]تَـرَّاك لذتـه علـى قـدْرِ

]رفّـاض مـا تهـوَى النفـوسُ إذا]رِغَبُ النفوس دعت إلى المُزْري

]ومـبرَّأ مـن كـل سـيئةٍ]عـفّ الهـوى ذا مِـرَّةٍ شَـزْرِ

]والمصطلى بـالحرب يوقـدها]بحسـامه فـى فتيـةٍ زُهْـرِ

]يختاضـها بأَفَـلَّ ذى شُـطَبٍ]عَضْب المضـارب ظـاهر الأثـرِ

]لا شـيء يلقـاه أسَـرَّ لـه]مـن طعنـة فـى ثُغْـرَة النحـرِ

]منهـارة منـه تجـيش بمـا]كانـت عواصـم جوفـه تجـري

شعراء الشعوبية:

كانت الدولة الأموية تغالى بالعروبة ولا تسمح لأحد مـن الأعـاجم أن ينـال من العرب منالا مهما صغر. ورغم هذا كانـت هنـاك بعـض الأصـوات الشـعوبية القليلة الخافتة النبرة بوجه عام أشهرها إسماعيل بن يسار. وهو فارسى الأصل مـن موالى بنى تيم. وكان ظريفا مهذارا يحـرص مَـنْ حولـه عـلى صـحبته. ومـن ظرفـه وحلاوة نكتته، كما حكى صاحب «الأغاني»، أنه لما خرج عروة بن الـزبير إلى الشـام يريد الوليد بن عبد الملك أخرج معه إسماعيل بن يسـار بعـدما كـان منقطعـا إلى آل الزبير، فعادله على الناقة. فقال عروة ليلة من الليالى لبعض غلمانه: انظر كيـف تـرى المحمل. قال: أراه معتدلًا. قال إسماعيل: الله أكبر! ما اعتـدل الحـق والباطـل قبـل الليلة قط. فضحك عروة، وكان يستخفّ إسماعيل ويستطيبه. ويحكـى أبـو الفـرج أيضا أن إسماعيل بن يسار كان ينزل فى موضع يقال له: حديلـة، وكـان لـه جلسـاء يتحدثون عنده، ففقدهم أياما، وسأل عنهم فقيل: هـم عنـد رجـلٍ يتحـدثون إليـه طيبِ الحديث حلوٍ ظريف قَدِمَ عليهم يسـمَّى: محمـدا، ويكنـى: أبـا قـيس. فجـاء

إسماعيل فوقف عليهم، فسمع الرجلُ القومَ يقولون: قد جاء صديقنا إسماعيل بن يسار. فأقبل عليه فقال له: أنت إسماعيل؟ قال نعم. قال: رحم الله أبويك، فإنهما سَمَّياك باسمِ صادقِ الوعد، وأنت أكذب الناس. فقال له إسماعيل: ما اسمك؟ قال: محمد. قال: أبو من؟ قال: أبو قيس. قال: لا! ولكن لا رحم الله أبويك، فإنهما سمياك باسم نبى، وكَنَّياك بكنية قرد. فأُفْحِم الرجلُ، وضحك القوم، ولم يعد إلى مجالستهم، فعادوا إلى مجالسة إسماعيل.

وفيه أيضا: «استأذن إسماعيل بن يسار النسائى على الغمر بن يزيد بن عبد الملك يومًا، فحجبه ساعةً ثم أذن له، فدخل يبكى. فقال له الغمر: ما لك، يا أبا فائد، تبكى؟ قال: وكيف لا أبكى وأنا على مروانيتى ومروانية أبى أُحْجَب عنك؟ فجعل الغمر يعتذر إليه، ويبكى. فما سكت حتى وصله الغمر بجملةٍ لها قدر. وخرج من عنده، فلحقه رجلٌ فقال له: أخبرنى، ويلك، يا إسماعيل: أى مروانية كانت لك أو لأبيك؟ قال: بُغْضُنا إياهم. امرأته طالقٌ إن لم يكن يلعن مروان وآله كل يوم مكان التسبيح، وإن لم يكن أبوه حضره الموت، فقيل له: «قل: لا إله إلا الله»، فقال: «لعن الله مروان» تقربًا بذلك إلى الله تعالى وإبدالًا له من التوحيد وإقامةً له مقامه».

ومن طرائفه كذلك وحسن بديهته وبراعته فى التخلص، إذا صحت الحكاية، أنه دخل على عبد الملك بن مروان بعد مقتل عبد الله بن الزبير، فسلم ووقف موقف المنشد واستأذن فى الإنشاد، فقال له عبد الملك: الآن يا ابن يسار؟ إنما أنت امرؤٌ زبيرى، فبأى لسان تنشد؟ فقال له: يا أمير المؤمنين، أنا أصغر شأنا من ذلك، وقد صفحت عن أعظمَ جرمًا وأكثر غناءً لأعدائك منى. وإنما أنا شاعرٌ مضحكٌ. فتبسم عبد الملك، وأومأ إليه الوليد بأن ينشد. فأنشد قائلا:

ألا يا لقومى للرقاد المُسْهِدِ ... وللماءِ ممنوعًا من الحائم الصَّدِي

حتى قال:

إليك، إمامَ الناس، من بطن يثربٍ ... ونِعْمَ أخو ذى الحاجة المتعمِّدِ

رَحَلْنا لأن الجود منك خليقةٌ ... وأنك لم يذْمُمْ جنابَك مجتدِي

ملكتَ فزدتَ الناس ما لم يزدهمو ... إمامٌ من المعروف غيرِ المصرَّدِ

وقمتَ فلم تنقض قضاءَ خليفةٍ ... ولكنْ بما ساروا من الفعل تقتدي

ولما وَلِيتَ الملكَ ضاريْتَ دونه ... وأسندتَه، لا تأتلى، خيرَ مُسْنَدِ

جعلتَ هشامًا والوليدَ ذخيرةً ... ولِيينِ للعهد الوثيق المؤكَّدِ

فنظر عبد الملك متبسما إلى هشام والوليد، والتفت إلى سليمان قائلا: أخرجك إسماعيل من هذا الأمر. فقطب سليمان ونظر إلى الشاعر فى غضب، فما كان من ابن يسار سوى أن قال: يا أمير المؤمنين، إنما وزن الشعر أخرجه من البيت الأول. وقد قلت بعده:

وأمضيتَ عزمًا فى سليمانَ راشدًا ... ومن يعتصمْ بالله مثلَك يرْشُدِ

فأمر له بأَلْفَى درهمٍ صلةً، وزاد فى عطائه، وفرض له، وقال لولده: أَعْطُوه. فأَعْطَوْه ثلاثة آلاف درهم.

وقد اتهم ابن يسار بالشعوبية. وفى «الأغاني» أنه دخل على هشام بن عبد الملك فى خلافته وهو بالرصافة، فاستنشده ظنا منه أنه سوف يمدحه كعادة الشعراء فى تلك الحال، فأنشده قصيدته التالية:

يا رَبْعَ رامةَ بالعلياء من رِيمِ ... هل تَرْجِعَنَّ، إذا حَييتُ، تسليمى؟

ما بالُ حَى غدتْ بُزْلُ المطى بهم ... تَخْدِى لغربتهم سَيرًا بتقحيمِ؟

كأننى، يوم ساروا، شاربٌ سلبتْ ... فؤادَه قهوةٌ من خمر داروم

حتى انتهى إلى قوله:

إنى، وجَدِّكَ، ما عُودِى بذى خَوَرٍ]عند الحِفَاظ ولا حوضى بمهدومِ

أصلى كريمٌ، ومجدى لا يقاس به]ولى لسانٌ كحَدِّ السيف مسمومِ

أحمى به مجد أقوامٍ ذوى حسبٍ]من كل قَرْمٍ بتاج الملك معمومِ

جحاجحٍ سادةٍ بُلْجٍ مرازبةٍ]جُرْدٍ عِتَاقٍ مساميحٍ مطاعيمِ

مَنْ مِثْلُ كسرى وسابور الجنود معًا]والهرمزان لفخرٍ أو لتعظيمِ؟

أُسْدُ الكتائب يوم الرَّوْع إن زحفوا]وهم أذلُّوا ملوك الترك والرومِ

يمشون فى حَلَقِ الماذى سابغةً]مَشْى الضراغمة الأُسْد اللهاميمِ

هناك إن تسألى تُنْبَى بأن لنا]جرثومةً قهرتْ عز الجراثيمِ

وأن هشاما قد غضب قائلا له: «يا عاضَّ بَظْر أمه! أَعَلَىَ تفخر، وإياى تنشد قصيدةً تمدح بها نفسك وأعلاج قومك؟ غُطُّوه فى الماء». فغَطُّوه فى البركة حتى كادت نفسه تزهق، ثم أمر بإخراجه وطرده فى الحال، فأُخْرِج عن الرصافة منفيا إلى الحجاز. ثم أضاف على لسان راوى الحكاية أن ابن يسار كان مبتلًى بالعصبية للعجم والفخر بهم، فكان لا يزال مضروبا محروما مطرودا.

فكيف يمكن أن نصدق هذا؟ إن تصرف ابن يسار لهو الانتحار بعينه. ترى ما الذى دفعه إلى ذلك المأزق المستحيل؟ لقد كان مولى ضعيفا لا عزوة له ولا عصبية يمكنه الاحتماء بها، ولا أحد فى القصر الأموى يمكن أن يدافع عنه أو يتشفع له حتى لا يعاقب، ولا جماعة أعجمية تقف وراءه وتستفزه إلى ذلك نشرا لفكرها واتجاهها السياسى. بل إن الأعاجم، حين ثاروا على بنى أمية بعد ذلك، لم يثوروا

تحت راية الأعجمية بل تحت راية بنى العباس. فكيف يجازف ابـن يسـار كـل تلـك المجازفة التى كان يمكن أن تكلفه رقبته، على غير هدى، وفى غير طائل؟ ثم إنه كان رجلا مهذارا، ومثل ذلك المهذار لا يعرّض نفسه للتلف على هذا النحو مهـما تكـن الأسباب. كما أنه، فى غير تلك المناسبة إن صحت، لم يكن مضر ـوبا محروما مطـرَّدا بسبب الشعوبية كما قرأنا فى الخبر السابق، بل كان يمدح الأمـويين وغـير الأمـويين من العرب وينال العطايا الطائلة على مدائحه، التى لم يحدث أن افتخر فيها بـالعجم كما صنع فى تلك القصيدة، إن صح أنه أنشدها بين يدى هشام بـن عبـد الملـك. وفى «الأغاني» ذاتها لأبى الفرج، الذى أورد أنه كان دائما منفيـا محرومـا مطـرودا بسـبب شعوبيته، نقرأما يلى: «كان إسماعيل بن يسارٍ النسائى مولى بنـى تَـيمٍ بـن مـرة، تـيم قريش، وكان منقطعا إلى آل الزبير. فلما أفضت الخلافة إلى عبد الملك بن مروان وفد إليه مع عروة بن الزبير، ومدحه ومدح الخلفاء من ولده بعده. وعاش عمرًا طـويلًا إلى أن أدرك آخر سلطان بنى أمية، ولم يدرك الدولـة العباسـية. وكـان طيبًـا مليحًـا مُنَدِّرًا بطَّالًا مليحَ الشِّعْر».

ثم لماذا فخر ابن يسار بالفرس على هذا النحو الأرعن أمـام هشـام بالـذات، وقد مدح أمويين قبله وبعده فلم يفخر فى مديحه لهم بأصله العجمى؟ لقد وفد عـلى عبد الملك قبل ذلك فمدحه، فأنكر عليه فى البداية حضـوره إلى بلاطـه بعـدما كـان يقف مع ابن الزبير، فما كان منه سوى أن حقر نفسه قائلا إنما هو شـاعر لا وزن لـه، وإن الخليفة قد سامح مِنْ أعدائه من هم أكبر جرما منه. وليس هذا بجـواب رجـل يمكن أن يقف بين يدى ابن هذا الخليفة متفاخرا بالعجم دون أن يلطف جرمه عـلى الأقل بشيء من المديح له. ولنلاحظ أنه، فى عهد عبد الملك، كان أصغر سنا مما كـان فى عهد هشام، وصِغَر السن مظنة التغشمر وعدم التبصر فى العواقـب بخـلاف مـا يكسبه الإنسان من الخبرة بالحياة والميل إلى المصانعة مع التقدم فى العمر. كما أنه وفد بعد ذلك على الوليد بن يزيد ومدحه ونال عطاياه وعطايا أخيه الغمـر، ولم يتغشـمر

كما تغشمر مع هشام حسب ذلك الخبر. ثم هل يعقل أن يخلى القصيدة من بعض المديح لهشام مهما قَلَّ؟ إن هذا لم يحدث فى تاريخ المدائح الشعرية فى الأدب العربى فى حدود علمى. وإذا كان قد جبه هشاما بهذه الطريقة الفِجَّة فطرده هشام وتوعده ووضع وعيده موضع التنفيذ فكيف قَبِلَ مَنْ أتى بعده من خلفاء بنى أمية أن يفد ابن يسار عليهم ويعطوه الجوائز؟

أما بلاشير المستشرق الفرنسى فيخمِّن، لدى ترجمته لابن يسار فى كتابه عن «تاريخ الأدب العربي»، أن يكون إبراهيم ابن الشاعر هو الذى نظم هذه القصيدة وأضافها إلى أشعار أبيه تقربا إلى العباسيين يوهمهم أن أسرته كانت تكره الأمويين ولم تمدحهم. لكن لو كان هذا صحيحا لكان أحرى به أن يحذف من ديوان أبيه مدائحه للأمويين، وهى متعددة. لكنه لم يفعل. وهَبْهُ فَعَل ذلك هل كانت جميع نسخ ديوان أبيه تحت يده بحيث لا يعرف العباسيون أن أباه قد مدح الأمويين؟ بل هل كانت مدائحه للأمويين من الخفاء بحيث تجوز هذه الحيلة أو تلك على العباسيين؟ ثم إن بعض شعراء الشيعة والزبيريين، وابنُ يسار ذاته من أنصار هؤلاء الأخيرين، قد وفدوا بعد سقوط دولة ابن الزبير على البلاط الأموى ونالوا هناك الحظوة والمال، مما يدل على أن تحويل الدفة السياسية لدى الشعراء فى مثل تلك الظروف أمر شائع، وليس فيه ما يسْتَنْكَر كثيرا ما دام الشاعر المتحول يتصف باللباقة وحسن التأتى. ولا شك أن أمر ابن ابن يسار فى مثل ذلك الموقف أهون كثيرا من أمر أبيه نفسه لأنه هو نفسه لم يشارك فى مدح بنى أمية. ولقد وفد عروة بن الزبير، أخو عبد الله ومصعب، على عبد الملك ومدحه دون أن يقوم موقفُ أخويه من الأمويين حائلا بينه وبينهم. كما أن جميع الشعراء من مخضرمى الدولتين تقريبا قد انتقلوا بولائهم من الأموية إلى العباسية كالعادة فى مثل تلك الظروف دون حاجة إلى تزييف مواقفهم القديمة.

وفوق ذلك لم يحدث أن شكك أحد من القدماء فى أن ابن يسار هو صاحب تلك الأشعار كما يقترح بلاشير، فضلا عن أن شعره الشعوبى ليس وقفا على تلك القصيدة التى يقال إنه ألقاها بين يدى هشام بن عبد الملك، بل له شعر شعوبى آخر. ثم إن الأمر ليس أمر مدح أو عدم مدح للأمويين، بل أمر تعصب للأعاجم، وهو ما لا يفيد ابنَه كثيرا لدى العباسيين، الذين سرعان ما أطاحوا عند أول بادرة بأبى مسلم، أقوى وأشهر قوادهم الذين خدموهم ونصروهم وأوصلوهم إلى العرش من الأعاجم. ثم أين كان عقل إسماعيل بن يسار وحكمته حين أقدم على هذه الخطة المهلكة، وهو القائل فى المداراة والمصانعة فيما هو أتفه من ذلك كثيرا:

]فَدَعْ عَنكَ المِراءَ، وَلا تُرِدْهُ]لِقِلَّةِ خَيرِ أَسْبابِ المِرَاءِ
]وَأَيقِنْ أَنَّ مَنْ مارَى أَخاهُ]تَعَرَّضَ مِن أَخِيهِ لِلِّحاءِ
]وَلا تَبْغِ الخِلافَ، فَإِنَّ فيهِ]تَفَرُّقَ مِنْ ذَواتِ الأَصْفِياءِ
]وَإِنْ أَيقَنْتَ أَنَّ الغَى فيما]دَعاكَ إِلَيهِ إِخْوانُ الصَّفاءِ
فَجامِلْهُم بِحُسْنِ القَوْلِ فيما]أَرَدْتَ، وَقَد عَزَمْتَ عَلى الإِباءِ؟

لقد كان يستعمل تلك المصانعة مع من هم أضأل من هشام شأنا وأهون خطرا حسبما قرأنا آنفا عن حكايته مع الغمر بن يزيد بن عبد الملك، الذى لم يكن خليفةً مثل عمه، فكيف لم يستعملها مع هشام؟ وإن كنت مع هذا أستغرب هذا الذى كتبه أبو الفرج كثيرا، إذ كيف يمكن أن تغيب شعوبية ابن يسار عن الغمر، والمفروض أنها أشهر من نار على علم، على الأقل بعدما وقع منه ما وقع مع هشام بن عبد الملك؟ وكيف يمكن أيضا أن تغيب عنه زبيريته، وهى ليست بالأمر المجهول أو حتى المغمور؟ كذلك هل كان يجرؤ أن يصارح ابنُ يسار الرجلَ الذى قام وراءه واستفسر منه عن مروانيته المدعاة برأيه فى المروانيين على هذا النحو الشنيع الحاقد، وبتلك الأريحية، وهو لا يعرفه، معرِّضًا نفسه بذلك لاحتمال القتل الوَحِى

على يد الغمر والأمويين؟ ثم من ذلك الرجل يا ترى؟ وكيف نصدق أنه الوحيـد فى ذلك المجلس الذى كان يعرف اتجاه ابن يسار السياسى؟ مـن هنـا أرى أن قصـيدته تلك إنما نظمها ردا على بعض من كان يتنقص منه ومن قومه من الناس العاديين كما حدث بين بشار وبعض الأعراب فيما بعد، ولم ينشـدها بـين يـدى هشـام بـن عبـد الملك.

على أننى، حين أقول ذلك، لا أقصد أننى مع تحقير الأعاجم أو مـع اسـتكبار بعض العرب على غير العرب. كلا، فالإسلام قد أعلنها صريحة فى أن الناس والأمم والأقوام جميعا متساوون كأسنان المشـط، وأنـه لا فضـل لعربـى عـلى عجمـى ولا العكس إلا بالتقوى والعمـل الصـالح، وأن الله خلقنـا شـعوبا وقبائـل لا لنتفـاخر ونتقاطع ونتدابر ونتعادى بل لنتعارف ونتعاون ونتوادّ. ومعروف أن الإنسـان يحـنّ لأمته ويحبها ولا يقبل أن ينال أحد منها منالا. وعلى هذا فلو أن ابن يسار قد تعرض للغض من شأن قومه الفرس على يد أحد من العرب فله كل الحق فى أن يرد. ولكن من الناحية الأخرى لا بد أن نقف هنيهة أمام البراعة التى حققهـا ذلـك الرجـل فى لغة العرب وشعرهم وتمثُّله تقاليد ذلك الشعر بما فيه الوقوف على الأطلال رغم كل ذلك الشعور الشعوبى أَيا كان منبعه، وهل هو من العصبية العمياء للفـرس أم هـل كان جوابا على عربى أراد الغض من وَضْعه ووَضْع قومه.

وهذه قصيدة أخرى له فى الافتخار بقومه الفرس. ولنلاحظ كيف تبدأ تلـك القصيدة ذات العنصر الشعوبى بتقليد الوقوف على الأطلال، ذلك التقليـد العربـى الأصيل:

مـا عَلـى رَسْـمِ مَنـزِلٍ بِالـجَنَابِ]لَو أَبانَ الغَدَاةَ رَجْعَ الـجَوابِ؟

]غَيرَتْـهُ الصَّـبَا وَكُـلُّ مُلِـثٍّ]دائِـمِ الـوَدْقِ مُكْفَهِـرِّ السَّـحابِ

]دار هِنْـدٍ، وَهَـلْ زمـانى بِهِنْـدٍ]عائِـدٌ بِالـهَوَى وَصَفْوِ الـجَنابِ

]كالـذى كـان، وَالصَّـفاءُ مَصُـونٌ]لَـم تَشُـبْهُ بِهجْـرَةٍ وَاجْتِنَــابِ؟

ذاكَ منهـا إِذْ أَنـتَ كَالغُصْنِ غَضٌّ]وَهْــى رُؤْدٌ كَدُمْيــةِ المِحْــرابِ

غــادَةٌ تَسْـتَبِى العُقُـولَ بِعَـذْبٍ]طَيــبِ الطَّعْـمِ بـارِدِ الأَنْيــابِ

]وَأَثِيــثٍ مِــنْ فَــوْقِ لَــوْنٍ نَقِــى]كَبَيـاضِ اللُّجَـينِ فـى الزِّرْيـابِ

]فَأَقِــلَّ الــمَلامَ فيهــا وَأَقْصِــرْ]لَـجَّ قلبـى مِـنْ لَوْعَـةٍ وَاكْتِئَـابِ

صـاحِ، أَبْصَرْتَ أَوْ سَمِعْتَ بـراعٍ رَدَّ فى الضَّرْعِ ما قَرَى فى العِلَابِ؟

انْقَضَـتْ شِرَّتى، وَأَقْصَرَ جَهْلـى]وَاسْتَراحَت عَـواذِلى مِن عِتَـابي

]رُبَّ خَـــالٍ مُتَـــوَّجٍ لى وَعَـــمّ]ماجِـدٍ مُجْتَـدًى كَـرِيمِ النِّصَـابِ

إِنَّمـا سُـمِّى الفَـوارِسُ بـ«الفُـرْ]سِ» مُضَـاهاةَ رِفْعَـةِ الأَنْسَـابِ

]فَـاتْرُكِى الفَخْرَ، يـا أُمـامُ، عَلَينـا]وَاتْرُكى الـجَوْرَ وَانْطِقى بِالصَّوابِ

وَاسأَلى، إِن جَهِلْتِ، عَنّـا وعَنكُم:]كَيفَ كُنّا فى سالِفِ الأَحْقـابِ؟

]إذ نربِّـــى بناتِنـــا، وتدسّـــو]ن سِـفَاهًا بنـاتِكم فـى الـترابِ

وأغلـب الظـن أن «أمامـة» فى القصـيدة ترمـز إلى العـرب. ويقـال، تتمـيما للحكاية، إن أحد العرب ممن سمعوه يقول هذا قد رد عليـه قـائلا: «إن حاجتنـا إلى بناتنا غير حاجتكم» فأفحمه. يريد أن العجم يربون بناتهم لينكحوهن، والعـرب لا تفعل ذلك.

وممن جرى فى ذلك العصر هذا المجرى الشعوبى أيضا يزيد بن ضَبَّة، وضـبة أمه، وهو من موالى ثقيف، وكان مقربا إلى الوليد بن يزيد ومـن شـعرائه. ولم يصـلنا من شعره سوى القليل جدا الذى لا تتجاوز نصوصه أصابع اليد الواحـدة. ورغـم

هذا يبالغ أبو الفرج كعادته فيقول فى رواية من رواياته إنه ترك وراءه ألـف قصـيدة انتحلتها العرب وأدخلتها فى أشعارها. ترى كيف يمكن أن يصح هذا؟ وكيف كان هو الوحيد الذى كان له دون الشعراء جميعا ذلك العدد الهائل من القصائد؟ وكيـف خفيت تلك القصائد على جامعيها فلم يصلوا منها إلا إلى خمسة نصـوص معظمهـا مقطوعات قصيرة؟ بل كيف عرفوا أصلا أنه كانت له ألف قصيدة وأنها انتحلـت؟ وكيف نُسِيتْ تلك القصائد الألف من كل الأذهان، فلـم يتبـق منهـا سـوى تلـك النصوص الخمسة ليس غير؟ على كل حال فالقصيدة التالية هى أطول شعره القليل جدا، وهو يتفاخر فيها بالعجم، ولكن دون أن يصرح باسمهم، بالإضافة إلى تخفيفه هذا الفخر بأنهم كانوا فى خدمة العـرب يعينـونهم فى تنفيـذ أمـورهم. فهـو إذن لا يتشامخ عليهم بل يتمحك فيهم. ومـن ثـم لـيس لفخـره بأصـله الأعجمـى تلـك الفظاظة التى يشعر بها القارئ فى شعر ابن يسار. قال:

أرى سـلمى تَصُـدُّ ومـا صَـدَدْنا]وغَــيرَ صُــدُودِها كنّــا أردْنــا

]لقــد بَخِلَــتْ بنائِلِهــا علينــا]ولــو جــادتْ بنائِلــها حَمِــدْنا

وقد ضَنَّتْ بما وعدتْ وأمستْ]تَغَــيرَ عهــدُها عمــا عَهِــدْنا

ولـو علمـتْ بمـا لاقيـتُ سـلمى]فتُخْبِرنــى وتَعْلَــم مــا وَجَــدْنا

]تُلِــمُّ علــى تنــائى الــدارِ منّــا]فيسْــهِرُنا الخيــالُ إذا رقــدْنا

]ألم تـــر أننـــا، لمـــا وَلِينـــا]أمـورًا حُرِّقَـتْ فَوَهَـتْ، سَـدَدْنا

]إذا هــاب الكريهــةَ مــن يليهــا]وأعظمَهــا الــهَيوبُ لهـا عَمَـدْنا

]فــلا تَنْسَــوْا مَواطِنَنــا، فإنّــا]إذا مـا عـاد أهـلُ الـجُرْم عُـدْنا

ومـا هِيضَـت مَكَاسِرُ مَنْ جَبَرْنـا]ولا جُبِـرَت مُصِـيبةُ مَـن هَـدَدْنا

]ألا مَــنْ مُبلــغٌ عَنّــى هِشــامًا؟ …]فمــا مِنّــا الــبلاءُ، ومــا بَعُــدْنا

ومــا كنــا إلى الخلفــاء نُفْضِــى …]ولا كنــــا نُــــؤَخَّرُ إن شَــــهِدْنا

]ألم يــكُ بــالبلاءِ لنـــا جــزاءٌ …]فنُجْزَى بالمحاسنِ أم حُسِدْنا؟

]وقــد كــان الملــوك يــرَوْن حقًّــا …]لوافِـــدِنا فنُكْـــرَمُ إن وَفَـــدْنا

]وَلِينَــا النــاسَ أزمانًــا طِوَالًــا …]وسُسْــناهم ودُسْــناهم وقُــدْنا

وكــان أبــوك قــد أسـدى إلينــا …]جَسِــيمةَ أمــرِه، وبــه سَــعِدْنا

]كـــذلك أوّلُ الخلفـــاء كـــانوا …]بنــا جَــدُّوا كمــا بِهِمُــو جَــدَدْنا

]ونَكْــوى بالعــداوة مَــنْ بَغَانــا …]ونُسْــعِدُ بــالمودّة مَــن وَدِدْنــا

]نــرى حقًّــا لســائِلِنا علينــا …]فنَحْبُــوه ونُجْــزِلُ إن وعَــدْنا

]ونَضْــمَنُ جارَنــا ونــراه منّــا …]فنَرْفِــدُه ونُجْــزِلُ إن رَفَــدْنا

]ومــا نَعْتَــدُّ دون المجــدِ مالًــا …]إذا يغْلَــى بمكرُمَـــةٍ أَفَــدْنا

]وأتْلَــدُ مجــدِنا أنّــا كــرامٌ …]بِحَــدّ المشــرفيةِ عنــه ذُدْنــا

وأغلب الظن أن يكون ابن ضبة قد قصد العرب حين ذكر سلمى فى هذه القصيدة. ويقول د. أحمد الحوفى، فى «أدب السياسة فى العصر الأموي» لدى الكلام عن الشاعر، إن ابن ضبة قد أنشد أمام الوليد بن يزيد شعرا يفخر فيه بالفرس، فلم ينكر عليه. إلا أن الأستاذ الدكتور لم يشر للأسف إلى المصدر الذى استقى منه ذلك حتى يمكننا مناقشة هذا الكلام فنقبله أو نرفضه عن بينة. كذلك قد يفْهَم من كلامه أن الوليد بن يزيد كان من العوامل المشجعة على أن تُظْهِر الشعوبيةُ رأسَها فى دولة بنى أمية، إذ قال مفتخرا:

أنــا ابْـنُ كِسْـرى، وأبـى مَـرْوان وَقَيصَـرُ جَـدّى، وجَـدِّى خَاقَـان

ذلك أن أمه هى سارية بنت فيروز بن كسرى. لكن أمر الوليد فى هذا الفخـر يختلف عن الشعوبية تماما، فكلامه لا يعنى إلا شيئا واحدا هو أن العرب قد هزمت الفرس وحازت نساءهم وجعلتهن إماء، فهو فى الواقع فخر مبطن بـالعرب بغـض النظر عن قصده ذلك أو لا. كما أنه يذكر ملوك الفرس بوصفهم أجداده، ولا يتغنى بالفرس أنفسهم كعنصر يقف فى وجه العنصر العربى حسبما يفعل الشعوبيون، بـل يتغنى بأنه جمع المملوكية من الطرفين: طرف أبيه وطرف أمه.

شعراء الغزل العذري:

عرف هذا العصر نفرا من الشعراء الغزلين منهم العذرى الموحِّد فى حبـه فـلا يعرف سوى امرأة واحدة ولا يميل إلى غيرها مهما تفوقت عليها فى الجمال والأناقـة ولا يمكنه أن يسلوها رغم ما يلاقيه فى حبها مـن بُرَحـاء العـذاب واتصـال الأنـين والدموع، ومنهم اللاهى الذى يتخذ مـن الحـب وسـيلة للتسـلى وتقضـية الوقـت اللذيذ، وتُغْنِيه أية امرأة جميلة عن غيرها متى لم يوفَّق فى غرامه الأول. ومن الشعراء العذريين مجنون ليلى. واسمه، حسب المتعـارَف عليـه، قـيس بـن الملـوح. وأخبـاره متاحة بوفرة فى كتاب «الأغاني» لأبى الفرج الأصفهانى، وبتفصـيل أقـلَّ فى كتـاب «الشعر والشعراء» لابن قتيبة وغيره. وقد اختلف الناس حول وجوده: فمنهم مـن يثْبِته، ومنهم من يرى أنه لم يكن له وجود. ومن المنكـرين المتشـددين فى الإنكـار د. طه حسين، ففى الجزء الأول من كتابه: «حديث الأربعاء» نراه ينفى وجود المجنـون مؤكدا دون أى دليل أنه اختراع خيالى مـن صـنع الـرواة والإخبـاريين بغيـة تسـلية الناس، زاعما أن الذين يضيقون بإنكار وجود قيس بن الملوح إنما يريدون أن يضيفوا إلى المجد العربى مجدا ويجعلوا من أمة العرب أشرف الأمم، ولغتهم أحسن اللغات، وأدبهم أروع الآداب. يقصد أن العرب قليلو المجد وأن آدابهـم لا تبلـغ فى روعتهـا آداب غيرهم من الأمم. وهذا كـلام ينقصـه النضـج والجِـدّ، إذ مـا علاقـة إثبـات

الدارسين لوجود المجنون أو إنكارهم لهذا الوجـود بتشـييد دعـائم مجـد العـرب أو هدمها؟ وهل إثبات وجود هذه الشخصية هو الذى سوف يدعم مجد العرب بحيث إذا جاء منكر كطه حسين مثلا أو غيره فأثبت أنها لم يكن لهـا وجـود حقيقـى انهـدم ذلك المجد؟ ألا إن المجدَ العربى لتافهٌ حقا إذا كان ينحصر فى ذلك الأمر؟ إن معنى هذا أنه لا يوجد فى الأدب العربى شيء آخـر سـوى أشـعار ابـن الملـوح. إن ذلـك الأدب، حتى فى ميدان الغزل، والغزل العفيف وحـده دون سـواه، لغنـى بـالنماذج الكثيرة التى لا يعد شعر المجنون بالقياس إليها إلا قطرة من بحر، على روعـة ذلـك الشعر «المجنوني» إن صح اللفظ. ثم هب أن المجنون من بُنَيـات الخيـال والأوهـام وأن الشعر المنسوب إليه ليس له من ثَمَّ لأنه ليس له وجود حقيقى، فهل يطعن هذا فى شعر العرب؟ فمن نظمه إذن؟ أليس الذى نظمـه عربيـا مـن العـرب، ومـن ثـم ينتسب هذا الشعر إلى العرب؟ إذن فلن ينقص من مجد العرب شيء. كل ما فى الأمر أن ذلك الشعر سوف ينْسَب إلى شخص آخر غير المجنون، ولكنـه فى نهايـة المطـاف شخص عربى، ثم سواء بعد ذلك أعرفنا اسم هذا الشخص أم جهلناه.

وطه حسين إنما يقيم إنكاره لشخصية المجنون بناء على أن الرواة لم يتفقـوا لـه على اسم أو نسب ولا على أحداث حياته. لكن هل اتفـق النـاس، فـيما يخـص كـل شاعر من الشعراء القدماء، وبخاصة فى الجاهلية وصدر الإسـلام، عـلى مثـل تلـك الأشياء؟ إن الاختلاف فى تلك الأشـياء بالنسـبة إلى هـؤلاء الشـعراء لكثـير. وطـه حسين يلجأ إلى المغالطة حين يدعى أن القدماء كلهم كانوا يشكّون فى وجـود قـيس بن الملوَّح. ذلك أن الشاكّين لم يكونوا يمثلون إلا جزءا يسيرا ليس إلا، لكنـه يخلـط بين وجود المنكرين وبين انتشار الشك بين جميع الدارسـين. وهـذا غـير ذاك. وهـو يضيف إلى هذا أن أبا الفرج الأصفهانى كان لا بد أن يروى أخبـار المجنـون نـزولًا على وضع كتابه: «الأغاني»، ذلك الكتاب الذى كان يتطلب ذكـر المجنـون وأمثالـه تطلبا. يقصد أنه كان للمجنون أغانٍ تُغَنَّى فى العصر ـ العباسـى، وأن طبيعـة كتـاب

الأصفهانى هى تتَبُّع مثل تلك الأغانى والتحدث عنها وعن أصحابها والترجمة لهم والاستشهاد بأشعارهم، فكان لا بد لأبى الفرج، ما دام هناك أغانٍ تُنْسَب للمجنون، من أن يورد تلك الأغانى ويترجم لصاحبها. ثم يستمر قائلا إن أبا الفرج قد أعلن وبالغ فى الإعلان أنه يخرج من عهدة هذه الأخبار التى يوردها عن المجنون ويتبرأ منها ويضيف العهدة فيها إلى الرواة الذين ينقل عنهم.

فهل هذا هو فعلا موقف الأصفهانى؟ لقد قال الرجل فى بداية الصفحات التى خصصها للمجنون ما يلى: «هو، على ما يقوله مَنْ صَحَّح نسبه وحديثه، قيسٌ. وقيل: مهدى. والصحيح أنه قيس بن الملوح بن مزاحم بن عدس بن ربيعة بن جعدة بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة. ومن الدليل على أن اسمه قيسٌ قولُ ليلى صاحبته فيه:

ألا ليت شِعْرِى، والخطوب كثيرةٌ: متى رَحْلُ قيسٍ مستقلٌّ فراجِعُ؟

وأخبرنى الحسن بن على قال: حدثنا أحمد بن زهير قال: سمعت من لا أحصى يقول: اسم المجنون قيس بن الملوح. وأخبرنى هاشم بن محمد الخزاعى، قال: حدثنا الرياشى وأخبرنى الجوهرى عن عمر بن شبة أنهما سمعا الأصمعى يقول، وقد سئل عنه: لم يكن مجنونا، ولكن كانت به لُوثَةٌ كلُوثَةِ أبى حية النميري». إذن هناك، فى رأى الأصفهانى، من يصحح نسب المجنون. بل إنه هو نفسه يرى أن الصحيح فى أمر المجنون هو كذا وكذا، بما يدلّ على أنه لا يرى وهمية المجنون كما يزعم د. طه حسين.

أما بالنسبة لما قاله د. طه عن إعلان الأصفهانى خروجه من عهدة الأخبار والأشعار التى تروى للمجنون وعنه فهذا نص ما قاله الأصفهانى نفسه: «وأنا أذكر مما وقع إلى من أخباره جملا مستحسنةً، متبرئًا من العهدة فيها، فإن أكثر أشعاره المذكورة فى أخباره ينسبها بعض الرواة إلى غيره وينسبها من حُكِيتْ عنه إليه، وإذا قدمتُ هذه الشريطة برئتُ من عيبِ طاعنٍ ومتتبعٍ للعيوب». وأول كل شيء هو أن

الأصفهانى قد قال ذلك بعدما أورد أخبارا وأشعارا كثيرة له، ولم يقله فى مبتدإ كلامه. أى أن التحرز والتحفظ إنما يختص بما سوف يأتى من كلامه لا بما مضى. ثم إننا لو فَلَّينا عن معنى هذا النص لاتضح لنا أن الأصفهانى إنما يشير إلى أن بعض الرواة فقط، لا جميع الرواة، ينسب أكثر شعره لا كله إلى غيره، وليس إلى أنه يشك فى وجود الشاعر نفسه. أى أن الخلاف يعُمّ كل ما يتعلق بالشاعر بل بقسم منه فحسب. ثم إن الاختلاف بشأن شخص من الأشخاص أو شيء من الأشياء لا يعنى بالضرورة أنه باطل، بل أنه مختلَف فيه، وهذا كل ما هنالك. ولو كان العلم ومنهجه يقتضى إنكار كل ما اختلف الناس حوله إذن لقد بطل كل شيء فى الدنيا لأن الناس لم تتفق فى أمور الحياة إلا على القليل، وحتى هذا القليل نراهم يختلفون فى كثير من تفاصيله. ولقد مازح المرحوم إبراهيم المازنى د. طه حسين ذات مرة فى مقال له عن كتابه: «فى الشعر الجاهلي» فشكك بنفس الطريقة فى وجود طه حسين ذاته تبعا لاختلاف الناس بشأن تفصيلات حياته وشخصيته.

ولريجى بلاشير، عند ترجمته للمجنون فى كتابه: «تاريخ الأدب العربي»، رأى مشابهٌ لما يقوله طه حسين، إذ يؤكد أَنْ «ليس ثمة فى الواقع أى عنصر يدعم حقيقة هذا الشخص التاريخية الذى يمثل فقط ملامح بطل روائي». أما كيف كان ذلك وما مسوغاته فإن بلاشير لا يحير إجابة. وهذا ليس بالموقف العلمى السديد، إذ لا بد أن يسوق الباحث حيثيات حكمه وألا يكتفى بإصدار الحكم فقط. كما يكرر د. محمد مندور، فى كتابه: «مسرحيات شوقي»، كلام طه حسين عن موقف الأصفهانى من قصة المجنون، قائلا إن أكبر مصدر لها، وهو أبو الفرج الأصفهانى، قد شكك فيها وفى تفاصيلها ورواها بكل حذر واحتياط قبل طه حسين بزمن طويل. وهو ما تحققنا أنه غير صحيح.

ويبقى الأساس الفنى الذى اعتمد عليه طه حسين فى إنكار قيس بن الملوح، وهو أن الشعر المنسوب إليه لا يشير إلى شخصية واحدة ولا إلى نَفَس واحد. والحق

إن ذلك الشعر ليعبق إلى حد بعيد بالأنفاس ذاتها فنا ومضمونا واستيلاء على القلب. ولست أدرى كيف وقع طه حسين فى تلك الغلطة، اللهم إلا إذا استحضرنا ما كان يسيطر عليه فى كثير من كتاباته ومواقفه من عناد ورغبة فى التمرد مهما يكن من تهافت الاعتبارات التى يقدمها بين يدى ذلك العناد والتمرد. ونص ما قاله هو: «هل نستطيع أن نجد للمجنون شخصية ظاهرة بينة فى هذه الأشعار الكثيرة المختلفة التى يرويها له أبو الفرج وغيره من الرواة؟ أما أنا فأزعم أنْ ليس إلى ذلك من سبيل. لا أطيل فى إثبات هذا الرأى، وإنما ألخص لك ما انتهيت إليه بعد البحث». أما ذلك البحث الذى أدى بطه حسين إلى ذلك الإنكار فها هو ذا نسوقه إلى القارئ كما سجله طه حسين. قال: «كل هذا الشعر الذى يضاف إلى المجنون لا يخلو من أن يكون شعرا قد قاله شاعر معروف وأخطأ الرواة فأضافوه إلى المجنون، أو قاله شاعر مجهول ووجد الرواة فيه ليلى فأضافوه إلى المجنون، أو انتحله الرواة أنفسهم أو انتحله المغنّون وأصحاب الموسيقى وأضافوه إلى المجنون. ولقد أجهدت نفسى فى البحث عن شخصية ظاهرة مشتركة تظهر فى هذا الشعر كله أو بعضه فلم أوفق من ذلك إلى شيء». وواضح من هذا النص أن كاتبه يدور فى حلقة مفرغة، إذ يتخذ من نفسه شاهدا على نفسه دون أن يقدم دليلا واحدا على ما يقول، وإلا لقد كان يجب عليه إيراد تلك الأشعار التى يرى أنها لا تعكس شخصية واحدة فى الفن أو فى المحتوى ثم يبين لنا دلالتها على ما يريد التدليل عليه. أما أن يكتفى بالزعم الذى لا يثبته شيء سوى زعم له آخر بأنه قد تعب فى البحث فلم يصل إلى شيء فهذا ليس من البحث العلمى فى قليل أو كثير.

نخرج من هذا بأن المجنون ليس شخصية وهمية، ولكن من الممكن أن يكون شعره قد اختلطت به أشعار الآخرين، وأن تكون أخباره قد دخلتها المبالغات على نحو ما يحدث فى مثل تلك الحالة. وهذا ما يراه أيضا د. محمد غنيمى هلال، الذى يؤكد، فى «دراسات أدبية مقارنة»، أنه لا يجد فيما قاله عنه المشككون من الرواة دليلا

يقطع بعدم وجوده، وإن كانت بعض أخباره يظهر فيها التمحل والاختراع أو المبالغة والإسراف، إذ متى كانت المبالغة فى الأخبار دليلا على عدم وجود صاحبها؟ ومعروف أن كل من نبغ فى أمر أو شذ فيه يحاط، كما يقول د. هلال، بهالة من الأساطير فى حياته أو بعد مماته، وبخاصة أن أخبار المجنون قد وصلت إلينا عن طريق الرواية، والروايات تصيب وتخطئ، ولا ينبغى أن نتخذ الخطأ فى بعضها ذريعة لإنكارها كلها، وإلا لتعرضت أكثر شخصيات عظماء التاريخ للشك فيها.

وما قاله الدكتور هلال صحيح تمام الصحة، أما أن نعتمد فى إنكار وجود المجنون مثلا على ما ورد فى بعض أخباره فى كتاب «الأغاني» من أن أحدهم قد مر ببطون بنى عامر بطنا بطنا يسألهم عن المجنون فلم يجد أحدا يعرف عن أمره شيئا فهو كلام مضحك، إذ من ذا الذى لديه مثل ذلك الفراغ الطويل والصبر العجيب حتى ليطوف ببطون بنى عامر كلها سائلا فى كل بطن عن الشاعر، وكأنه يؤدى مهمة مقدسة؟ وهل كان الناس ليتركوا مثل ذلك الملحف فى السؤال والبحث فلا يجعلوه هدفا لعبثهم وتهكمهم، إن لم يكن لشتمهم واتهامهم فى عقله؟ بل كيف سكت بنو عامر فلم يصلنا عن أحد منهم أن رجلا أتاهم ذات يوم فجعل يطوف بهم بطنا بطنا يسألهم عن مدى صحة الوجود التاريخى للمجنون فأجمعوا كلهم على بكرة أبيهم أنه ليس له وجود؟

وبالمناسبة فهناك من الباحثين من يقف من قضية وجود المجنون موقفا وسطا، واصفا قيس بن الملوَّح وغيره من الشخصيات التى تتضمنها أخباره بأنها شخصيات «شبه تاريخية»:

وبالمناسبة فهناك من الباحثين من يصف قيس بن الملوَّح وغيره من الشخصيات التى تتضمنها أخباره بأنها شخصيات شبه تاريخية:

«Majnun

(lit. possessed) is an epithet given to the semi-historical character Qays b. al-Molawwab. Mozāem of the tribe Banu 'Āmer b. a'a'a», «the characters are semi-historical».

وصاحب هذا الكـلام هـو كاتـب المـادة الموجـودة فى « Encyclopedia Iranica» باسم «Leyli O Majnun». ومعنى ذلك أنه لا ينكر وجود المجنون وأصحابه على سبيل القطع، مثلما لا يثبته على سبيل القطـع أيضـا، بـل يضـعه، كـما يقول المعتزلة فى حق مرتكب الكبيرة، «فى منزلة بين المنزلتين». لكـن يلاحَـظ أنـه لم يحاول أن يسوق الحيثيات التى دفعته إلى إصدار هذا الحكم.

ومن «سير أعلام النبلاء» للحافظ الذهبى نقرأ فى ترجمة قيس بـن الملـوح مـا نصه: «المجنون: قيس بن الملوح، وقيل: ابن معاذ، وقيل: اسمه بحترى بـن الجعـد، وقيل غير ذلك، من بنى عامر بن صعصعة، وقيل: من بنى كعب بـن سـعد، الـذى قتله الحب فى ليلى بنت مهدى العامرية. سمعنا أخباره تأليف ابن المرزبان. وقد أنكر بعضهم ليلى والمجنون، وهذا دَفْعٌ بالصدر، فما مَنْ لم يعلم حجة على من عنـده علـم ولا المثبت كالنافى. لكن إذا كان المثبت لشيء شبه خرافة، والنافى ليس غرضـه دفـع الحق، فهنا النافى مقدم». وهو كلام علمى إلى مدى بعيد، فأخبار المجنون ليست من الخرافات فى شيء، اللهم إلا بعض المبالغات كما شرحـت آنفـا. أمـا شـعره فيقـول الذهبى فى الحكم عليه: «وشعره كثير من أرقِّ شيء وأعذبه»، وهـو مـا يشـير إلى أن ذلك الشعر ذو ماء واحد وينفح بعبق واحد كما ذكرنا.

ومعروف أن قيس بن الملوح ينتمى إلى العصر الأموى طبقا لأخبـاره وأسـماء الولاة والشخصيات التاريخية الشـهيرة الـذين يـرد ذكـرهم فيهـا، ويقـول الحـافظ الذهبى إنه «كان فى دولة يزيد وابن الزبير». ومن ثم فحكايته، حتى لو صـدقنا أنهـا حكاية خرافية، لا يمكن أن تنتمى إلى مـا قبـل تلـك الفـترة، فضـلا عـن أن تسـبق الإسلام كما يدعى ابراهيم العريس فى مقال له بجريدة «الحياة» اللبنانية بتاريخ 14/

12/ 2009م عنوانه: «ألف وجه لألف عام- مجنون ليلى على الطريقة الفارسية: صورة حضارات مشتركة»، إذ يقول إن حكاية «ليلى والمجنون» فى الأصل حكاية عربية تنتمى من دون ريب إلى عصور ما قبل الإسلام حتى وإن كان ثمة تخمينات وفرضيات تقول إنه أعيد الاشتغال عليها شعريا وروايةً حتى من بعد ظهور الإسلام. وهذه نظرية يدعمها طه حسين فى كتابه الشهير والمثير للجدل: «فى الشعر الجاهلي»...».

ولقد بحثت فى كتاب طه حسين المذكور فلم أجده قال هذا الكلام، وكل ما عثرت عليه هو قوله: «للعرب خيالهم الشعرى، وهذا الخيال قد جَدَّ وعَمِل وأثمر، وكانت نتيجة جِدّه وعمله وإثماره هذه الأقاصيص والأساطير التى تُرْوَى لا عن العصر الجاهلى وحده بل عن العصور الإسلامية التاريخية أيضا. وقد رأيتَ فى فصولنا التى سميناها: «حديث الأربعاء» أنا نشك فى طائفة من هذه القصص الغرامية التى تُرْوَى عن العذريين وغيرهم من العشاق فى العصر الأموى. يجب حقا أن نلغى عقولنا كما يقول بعض الزعماء السياسيين لنؤمن بأن كل ما يروى لنا عن الشعراء والكتاب والخلفاء والقواد والوزراء صحيح لأنه ورد فى كتاب «الأغاني» أو فى كتاب الطبرى أو فى كتاب المبرّد أو فى سِفْر من أسفار الجاحظ»، ولا وشيجة بينه وبين ما زعمه إبراهيم العريس كما هو ظاهرٌ جلي.

ومن شعر قيس فى ليلى، التى خبلته وجننته:

وَقالوا: لو تشاءُ سَلَوْتَ عَنها — فَقُلْتُ لَهُم: فَإِنّى لا أَشاءُ

وَكَيفَ، وَحُبُّها عَلِقٌ بِقَلْبِي — كَما عَلِقَتْ بِأَرْشِيةٍ دِلاءُ؟

لَها حُبٌّ تَنَشَّأَ فى فُؤادي — فَلَيسَ لَهُ، وَإِن زُجِرَ، انتِهاءُ

وَعاذِلَةٍ تُقَطِّعُنى مَلامًا — وفى زَجْرِ العَواذِلِ لى بَلاءُ

ومن شعره أيضا فيها:

مَتَى يشْتَفِي مِنْكِ الفُؤادُ المُعَذَّبُ ... وَسَهْمُ المَنَايا مِنْ وِصَالِكِ أَقْرَبُ؟

فَبُعْدٌ وَوَجْدٌ وَاشتِياقٌ وَرَجْفَةٌ ... فَلا أَنتِ تُدْنِينِى وَلا أَنا أَقْرُبُ

كَعُصْفورَةٍ فِى كَفِّ طِفلٍ يزُمُّها ... تذوقُ حِياضَ المَوتِ، وَالطِّفلُ يلْعَبُ

فَلا الطِّفْلُ ذو عَقْلٍ يرِقُّ لِما بِها ... وَلا الطيرُ ذو ريشٍ يطيرُ فَيذْهَبُ

وَلِى أَلفُ وَجْهٍ قد عَرَفْتُ طَرِيقَهُ ... وَلَكِنْ بِلا قَلْبٍ إِلى أَينَ أَذْهَبُ؟

ومنه كذلك:

فَوَاللَّهِ ثُمَّ اللهِ إِنِّى لَدائِبٌ ... أُفَكِّرُ ما ذَنْبِى إِلَيكِ فَأَعْجَبُ

وَوَاللَّهِ ما أَدْرِى عَلَامَ هَجَرْتِنِي ... وَأَى أُمُورِى فيكِ، يا لَيلَ، أَركَبُ

أَأَقطَعُ حَبْلَ الوَصْلِ، فَالموتُ دونَهُ ... أَمَ اشْرَبُ كَأْسًا مِنْكُمُو لَيسَ يشْرَبُ

أَمَ اهْرُبُ حتّى لا أرى لى مُجَاوِرًا ... أَمَ افعَلُ ماذا أَمْ أَبُوحُ فَأُغْلَبُ؟

فَأَيهُما، يا لَيلَ، ما تَفْعَلينَهُ ... فَأَوَّلُ مَهْجُورٌ، وَآخَرُ مُعْتَبُ

فَلَوْ تَلْتَقِى أَرواحُنا بَعْدَ مَوْتِنا ... وَمِنْ دونِ رَمْسَينا مِنَ الأَرْضِ مَنْكبُ

لَظَلَّ صَدَى رَمْسِى، وَإِن كُنتُ رِمَّةً، ... لِصَوْتِ صَدَى لَيلَى يهَشُّ وَيطْرَبُ

وَلَو أَنَّ عَينًا طاوَعَتْنِى لَم تَزَلْ ... تَرَقْرَقُ دَمْعًا أَو دَمًا حينَ تَسْكُبُ

وقال:

أَمُرُّ مُجَنَّبًا عَنْ بَيتِ لَيلَي ... وَلَمْ أُلْمِمْ بِهِ، وَبِى الغَلِيلُ

أَمُرُّ مُجَنَّبًا، وَهَوَاى فيهِ ... فَطَرْفِى عَنْهُ مُنْكَسِرٌ كَلِيلُ

وَقَلبـى فيـهِ مُقْتَتِـلٌ، فَهَـل لـي … إلى قلبـى وَسـاكِنِه سَـبِيلُ؟

أُؤَمِّـلُ أَن أُعَـلَّ بِشُـرْبِ لَيلَـي … وَلَـمْ أُنهَـلْ، فَكَيـفَ لِـى العَلِيـلُ؟

وقال:

وَقـالَ نِسـاءٌ لَسْـنَ لى بِنَواصِـحٍ … لِيعْلَمْنَ ما أُخْفِى، وَيعلَمْنَ ما أُبْدِي:

أَأَحْبَبْتَ لَيلَى جَهْدَ حُبِّكِ كُلّهُ؟ … لَعَمْرُ أَبِى لَيلَى، وَزِدْتُ عَلى الـجَهْدِ

عَلى ذاكَ ما يمْحُولِى الذَّنْبَ عِنْدَها … وَتَمْحُو دَواعِى حُبِّها ذَنْبَها عندي

أَلا إِنَّ قُـرْبَ الـدارِ لـيسَ بِنـافِعٍ … وَقَلْبُ الَّذى تَهْواهُ مِنْكَ عَلَى البُعْدِ

وقال:

فَإِنْ تَكُ ليلى قَد جَفَتْنى وَطاوَعَتْ، … عَلى صَرْمِ حَبْلى، مَنْ وَشَى وَتَكَذَّبا

لَقَد باعَدَتْ نَفْسًا عَلَيها شَفيقَةً … وَقَلْبًا عَصَى فيها الـحَبِيبَ الـمُقَرَّبا

فَلَستُ، وَإِنْ لَيلَى تَوَلَّتْ بِوُدِّها … وَأَصْبَحَ باقى الوَصْلِ مِنها تَقَضَّبا

بِمُثْنٍ سِوَى عُرْفٍ عَلَيها وَمُشْمِتٍ … وُشاةً بِها كانوا شُهُودًا وَغُيبا

وَلَكِنَّنى لا بُدَّ أَنِّى قائِلٌ، … وَذو اللُبِّ قَوّالٌ إِذا ما تَعَتَّبا:

فَلا مَرْحَبًا بِالشامِتِينَ بِهَجْرِنا … وَلا زَمَنٍ أمسى بِنا قَدْ تَقَلَّبا

وقال، وقد أخذ يردد لاهجا باسم «ليلي»، وكأنه صوفى يتطوح بذكرها وجدا وهياما:

شَكَوْتُ إِلى رَفيقَى الذى بي … فَجَاءانى، وقد جَمَعا دَواءَ

وَجاءا بِالطَّبيبِ لِيكْوِياني … وَما أَبْغِى، عَدِمْتُهُما، اكْتِواءَ

فَلَـو ذَهَبـا إلى ليلـى فَشـاءَت ... لَأَهْـدَتْ لى مِـنَ السَّـقَمِ الشِّـفاءَ
تَقولُ: « نَعَم سَأَقْضِي » ثُمَّ تُلْوِي ... وَلا تَنْـوِى، وَإِن قَـدرَتْ، قَضـاءَ
أَصـارِمَةٌ حبـالَ الوَصْـلِ ليلـي ... لِأَخْضَـعَ يـدَّعى دونـى وَلاءَ
وَمُـؤْثِرَةُ الرِجـالِ عَلـى لَيلَـي ... وَلَـم أُوثِـرْ علـى لَيلَـى النِّسـاءَ؟
وَلَـو كانَـتْ تَسُوسُ البَحْـرَ ليلي ... صَـدَرْنا عَـن شَـرائِعِهِ ظِمـاءَ
فَمُـرَّا، صـاحِبَى، بِـدارِ لَيلَـى ... جُعِلْـتُ لَهـا، وَإِن بَخِلَـتْ، فِـداءَ
أَرَيتَـكَ إِن مَنَعْـتَ كَـلامَ لَيلَـي ... أَتَمْنَعُنـى عَلَـى لَيلَـى البُكَـاءَ؟

وقال:

ألا مـا لليلى لا تُرَى عند مضجعي ... بليـلٍ ولا يجـرى بـذلك طـائرُ؟
بلى إنّ عُجْمَ الطير تجرى، إذا جرت، ... بليلـى، ولكـن لـيس للطـير زاجـرُ
أزالـت عـن العهـد الذى كـان بيننـا ... بذى الأثْل أم قد غَيرَتْها المقادرُ؟
فواللّه مـا فى القرب لى منكِ راحةٌ ... ولا البعـدُ يسْلِينى ولا أنـا صـابرُ
ووالله مـــا أدرى بأيـــة حيلـــةٍ ... وأى مـرامٍ أو خِطَـارٍ أخـاطرُ
وتـاللّه إن الدهر فى ذات بينِنا ... علـى لهـا فـى كـل حـالٍ لجـائرُ
فلو كنتِ، إذ أزمعتِ هجرى، تركتِنى ... جميعَ القُوَى، والعقلُ مِنّى وافرُ
ولكـــنّ أيـــامى بحقـــل عنيـــزةٍ ... وبالرّضْـم أيـامٌ جَنَاهـا التجـاورُ
وقـد أصبح الـود الـذى كـان بيننـا ... أمـانى نفـسٍ، والمؤمِّـل حـائرُ
لَعَمْـرِى لقـد رَنَّقْـتِ يـا أم مالـكٍ ... حيـاتى، وسـاقَتْنى إليكِ المقـادرُ

ومن الغزلين العذريين كذلك جميل بثينة، الذى يحلل العقاد، فى كتيبه الـذى يحمل اسمه، طبيعة حبه هو وأمثاله تحليلا دقيقا، فيقول فى فصل بعنوان «عِشْق جميل وبثينة»: «كل ما قرأناه عن جميل أو قرأناه من كلام جميل يـدل عـلى طبيعـة العلاقـة التى كانت بينهما، وهى العلاقة التى تكون بين الرجل والمرأة، وتتعطل فيهـا الإرادة بعض التعطيل أو كل التعطيل، أو هى العلاقة التى نسميها: العشق والغـرام. ومـن الواجب أن نذكر هنا أن العلاقات الإنسانية كلها تستتبع شيئا من تقييد الإرادة قَـلَّ أو كَثُرَ: فالصديق لا يفارق صديقه بمحض اختيـاره، والشريـك لا يفـارق شريكـه وله مندوحة عن فراقه، وكذلك الزميل أو الزوج أو صاحب الطريق. ولكن التفرقة هنا ضرورية بين تعطيل وتعطيل، وبين تقييد وتقييد. فالذى يتعـاطى دواء ينفعـه أو ينتظر منه النفع يصعب عليه أن يتركه ويكف عن تعاطيـه، والـذى تعـود التـدخين يصعب عليه كذلك أن يتركه ويكف عن تعاطيه. ولكن الفرق بين تقييـد الإرادة فى الحالتين واضح كل الوضوح: ففـى الحالـة الأولى يفكـر الإنسـان فى العواقـب وفى المنافع فلا يقْدِم على الامتناع، وفى الحالة الثانية يفكر الإنسان أو لا يفكـر، فالنتيجـة سواء. بل هو قد يفكر ويؤمن بالضرر ويمتلئ يقينا بفائدة الامتناع ثم لا يمتنع، ولا يفلح أحيانا لو حاول الامتناع.

وهذا هو الفرق بين القيود التى يفرضها «الهوي» والقيود التى يفرضها الرأى أو المصلحة. فالتدخين «هَوًي» من البداية إلى النهاية. وعندما يبدأ الإنسان فى تعـود التدخين يكون قد بدأ فى الهوى أو أراد الهوى إن صح هذا التعبير. وليس كذلك من يتناول الدواء أو يتناول حتى اللـون المحبـوب لديـه مـن ألـوان الطعـام. وتعطيـل الإرادة أصيل فى الهوى كله، ولا سيما الهـوى الـذى نسـيمه بـ«العشـق» أو نسـميه بـ«الغرام»، لأن المرء يرتبط فيه بإرادة شخص آخر، فهو مقيد بهذا الارتباط الذى لا تتفق فيه الإرادتان فى جميع الأحيان. ثم يتقيد الشخصان معـا بـإرادة النـوع كلـه أو بالإرادة القاهرة التى تتمثل فى الغريزة النوعية وتتغلب كثيرا عـلى إرادة العاشـقَين،

وإنِ اتفقا على حالة من الحالات. ثم يتقيدان بالعرف الذى يفرضه المجتمع، وتفرضه الآداب والأخلاق فوق ما تفرضه الطبيعة من طريق الغريزة النوعية. ثم يتقيدان بظروف المعيشة وأحوال الدنيا التى تتاح على وفاق الهوى أو لا تتاح.

فإذا تميز العشق بين سائر العلاقات الإنسانية بخاصة من الخواصّ الظاهرة فأكبر ما يتميز به هذا التقييد الشديد لإرادة العاشق من جملة نواحيه. وقد يبلغ هذا التقييد لإرادته أن يحول بينه وبين فهم إرادته فلا يعلم ماذا يريد، فضلا عن أن يعْلَمه ويعجز عنه، فإذا به قد انقسم على نفسه كما ينقسم المعسكر الواحد إلى ضدين متحاربين، ولا غنيمة لأحدهما فى الانتصار، إذ هو انتصار لا يخلو فى الحالتين من خَسَار. وينتهى به الأمر إلى البقاء على حاله عجزًا عن تغييره لا سرورا به ولا رغبة فيه. فهو لا يتعلق بمعشوقه لأنه راضٍ عن هذه العلاقة يلتذّها ويتشهّاها ويتذوق النعمة والهناءة فيها، ولكنه يتعلق به لأنه عاجز عن فراقه مقيد بضروب من العادات والوساوس لا حيلة له فيها ولا قدرة له عليها. ومَثَلُه فى ذلك مَثَلُ المدمن الذى يتعاطى السموم ولا يجهل بلواها، ولكنه يقْلِع عنها فلا يقَرّ له قرار، فيمضى فيها وهو كاره لها يبحث ما استطاع عن سبيل النجاة. وقد قيل لجميل كل سبب يوجب عليه، لو ملك اختياره، أن يسلو عن بثينة ويقْلِع عن هواها، فكان جوابه لكل سبب من هذه الأسباب أنه لا يستطيع، ولم يكن جوابه أنه يجهل تلك الأسباب أو أنه يعرفها ولا يراها موجبةً عنده للتفكير فى السُّلُوّ والفراق».

والعقاد، فى تحليله النفسى، لطبيعة عشق جميل لبثينة يعتمد، إلى جانب ثقافته العميقة، على تجربته المؤلمة أشد الألم فى حبه لسارة، ذلك الحب الذى عكف على وصفه وتحليله ورواية وقائعه ولذاته وشكوكه وآلامه فى روايته المسماة باسم تلك الحبيبة، وصَوَّر نيران الجحيم وهى تحرقه كل يوم شكا وعجزا عن اتخاذ قرار بهجرها رغم ما كان ينتاشه آنذاك من الشواهد المقلقة المزعجة. وهذا التحليل من شأنه أن يبصّرنا حالةَ جميل والنيرانَ المتلظية التى كان يصطليها كل يوم، ثم هو

عاجز مع ذلك عن تحرير نفسه من تلك العلاقة الباهظة التى كانت تلفحه فى كل لحظة بشواظ من الجحيم:

إذا قُلتُ: «ما بى، يا بُثينةُ، قاتِلِي … مِنَ الحُبِّ» قالَت: ثابِتٌ وَيزِيدُ

وَإن قُلتُ: «رُدِّى بَعْضَ عَقْلى أَعِشْ بِهِ» … تَوَلَّتْ وَقالت: «ذاكَ مِنْكَ بَعِيدُ»

فلا أنا مردودٌ بِما جِئْتُ طالِبًا … وَلا حُبُّها فيما يبِيدُ يبيدُ

وَأَفنَيتُ عُمْرى بِانتِظارِى وَعْدَها … وَأَبْلَيتُ فيها الدَّهْرَ، وَهْوَ جَدِيدُ

يموتُ الهوى مِنّى إذا ما لَقِيتُها … وَيحيْا إذا فارَقْتُها فَيعُودُ

يقولون: جاهِدْ، يا جَمِيلُ، بِغَزْوَةٍ … وَأَى جِهادٍ غَيرهُنَّ أُرِيدُ؟

لِكُلِّ حَدِيثٍ بَينَهُنَّ بَشَاشَةٌ … وَكُلُّ قَتِيلٍ عِنْدَهُنَّ شَهِيدُ

تذَكَّرْتُ لَيلَى، فَالفُؤادُ عَمِيدُ … وَشَطَّتْ نَوَاها، فالمزارُ بَعِيدُ

عَلِقْتُ الهوى مِنها وَلِيدًا، فَلَم يزَلْ … إلى اليومِ ينْمِى حُبُّها وَيزِيدُ

فَما ذُكِرَ الخُلَّانُ إلا ذَكَرْتُها … وَلا البُخْلُ إلا قُلتُ: سَوْفَ تَجُودُ

ولنستمع إلى هذه أيضا:

فَهَل تجزِينّى أُمُّ عَمْرٍو بِوُدِّها؟ … فَإِنَّ الذى أُخْفِى بِها فَوْقَ ما أُبْدِي

وَكُلُّ مُحِبٍّ لَم يزِدْ فَوْقَ جُهْدِهِ … وَقَد زِدتُها فى الحُبِّ مِنّى على الجُهْدِ

إذا ما دَنَتْ زِدْتُ اشتِياقًا، وَإِن نَأَتْ … جَزِعْتُ لِنَأْى الدارِ منها وَلِلْبُعْدِ

أَبَى القَلْبُ إلا حُبَّ بَثْنَةَ لم يرِدْ … سِواها، وَحُبُّ القَلْبِ بَثْنَةَ لا يجْدِي

تَعَلَّقَ روحى روحَها قَبلَ خَلْقِنا … وَمِن بَعْدِ ما كُنّا نِطافًا، وَفى المهدِ

فَزادَ كَمَا زدنا فَأَصْبَحَ نامِيا … وليس، إذا مِتْنا، بِمُنْتَقِضِ العَهْدِ

وَلَكِنَّـهُ بـاقٍ عَلـى كُـلِّ حالَـةٍ ... وَزائِرُنـا فى ظُلْمَـةِ القبرِ واللحدِ
وَما وَجَدَتْ وَجْدى بِها أُمٌّ واحِدٍ ... وَلا وَجَدَ النَهْدِى وَجْدِى على هِنْدِ
وَلا وَجَدَ العُـذْرِى عُـرْوَةُ إِذْ قَضَـي ... كَوَجْدِى وَلا مَنْ كـانَ قَبْلى وَلا بَعْدي
عَلى أَنَّ مَنْ قد ماتَ صادَفَ راحَةً ... وَمـا لِفُـؤادى مِـن رَوَاحٍ وَلا رُشْـدِ
وَإِنّـى لَمُشْـتـاقٌ إِلى ريـحِ جَيبِهـا ... كما اشتاقَ إِدْريسٌ إِلى جَنَّةِ الخُلْدِ
لَقَـدْ لامَنِـى فيهـا أَخٌ ذو قَرابَـةٍ ... حَبيـبٌ إِلَيهِ فى مَلامَتِـهِ رُشْدي
وَقـالَ: أَفِق! حَتّى مَتَى أَنتَ هـائِمٌ ... بِبَثْنَةَ، فيها قَد تُعِيدُ وَقَد تُبْدِى؟
فَقُلتُ لَهُ: فيهـا قَضَى اللّٰهُ مـا تَرَي ... عَلى. وَهَلْ فيما قَضَى اللّٰهُ مِن رَدِّ؟
فَإِن كـانَ رُشْدًا حُبُّهـا أَو غوايـةً ... فَقَدْ جِئْتُهُ. ما كـانَ مِنّى عَلَى عَمْدِ
وَمـا زادَهـا الواشـونَ إِلا كَرامَـةً ... عَلَـى، وَمـا زالـت مَوَدَّتُهـا عِنْـدِي
أَفِى النـاسِ أَمْثـالى أَحَبَّ، فَحـالُهُم ... كَحَالى، أَمَ احْبَبْتُ مِن بَينِهِم وحدى؟
وَهَل هَكَذا يلْقَى الـمُحِبّونَ مِثلَ ما ... لَقيتُ بِها أَمْ لم يجِدْ أَحَدٌ وَجْدِى؟
يغُـورُ، إِذا غـارَت، فُـؤادى. وَإِن تكُـنْ ... بِنَجْدٍ يهِمْ مِنّى الفُؤادُ إِلى نَجْدِ
أَتَيتُ بنى سَعْدٍ صَحِيحًا مُسَلَّمًا ... وَكانَ سَقَامَ القَلْبِ حُبُّ بنى سَعْدِ

واسمع هذه كذلك:

أَعُـوذُ بِكَ اللـهمَّ أَن تَشْحَطَ النَّوَى ... بِبَثْنَةَ فى أَدْنى حَياتى وَلا حَشْري
وَجَـاوِرْ إِذا مـا مِـتُّ بَينِـى وَبَينَهـا ... فَيا حَبَّذا مَوْتِى إِذا جاوَرَتْ قبرى!
عَدِمْتُكَ مِن حُبٍّ! أَما مِنْكَ راحَةٌ ... وَما بِكَ عَنّى مِن تَوَانٍ وَلا فَتْرِ؟

ألا أيها الحبُّ المُبَرِّحُ، هَل تَرَي ... أَخا كَلَفٍ يغْرى بِحُبٍّ كَما أُغْرِى؟

أَجِدَّكَ لا تَبْلَى، وَقَد بَلِى الهوى ... وَلا ينْتَهِى حُبّى بُثَينَةَ لِلزَّجرِ

هِى البَدْرُ حُسْنًا، وَالنِّساءُ كَواكِبٌ ... وَشَتّانَ ما بَينَ الكَواكِبِ وَالبَدْرِ

لَقَد فُضِّلَتْ حُسْنًا عَلى الناسِ مثلما ... عَلَى أَلْفِ شَهرٍ فُضِّلَتْ لَيلَةُ القَدْرِ

عَلَيها سَلَامُ اللَهِ مِن ذى صَبابَةٍ ... وَصَبٍّ مُعَنًّى بِالوَساوِسِ وَالفِكْرِ

أَيبْكِى حَمَامُ الأَيكِ مِن فَقْدِ إِلفِهِ ... وَأَصْبِرُ؟ ما لى عَن بُثَينَةَ من صَبْرِ

وَما لِى لا أبكى، وفى الأَيكِ نائِحٌ ... وَقَد فارَقَتْنى شَخْتَةُ الكَشْحِ وَالخَصْرِ؟

يقولون: مَسْحورٌ يجَنُّ بِذِكْرِها! ... وَأُقْسِمُ ما بى مِن جنونٍ وَلا سِحْرِ

وَأُقْسِمُ لا أَنْساكِ ما ذَرَّ شارِقٌ ... وَما هَبَّ آلٌ فى مُلَمَّعَةٍ قَفْرِ

وَما لاحَ نَجْمٌ فى السَّماءِ مُعَلَّقٌ ... وَما أَوْرَقَ الأغصانُ مِن فَنَنِ السِّدْرِ

لَقَد شُغِفَتْ نفسى، بُثَينَ، بِذِكْرِكُم ... كَما شُغِفَ المخمورُ، يا بَثْنَ، بِالخمرِ

وَلَو سَأَلَتْ مِنّى حياتى بَذَلْتُها ... وَجُدْتُ بِها إِن كانَ ذلك من أَمري

مضى لى زمانٌ لَو أُخَيرُ بينه ... وبين حياتى خالِدًا آخِرَ الدهرِ

لَقُلْتُ: ذَرُونى ساعَةً وَبُثَينَةً ... على غَفْلَةِ الواشينَ، ثُمَّ اقْطَعوا عُمْري

فَلا أُنْعِمَتْ بَعْدِى ولا عِشْتُ بَعْدَها ... وَدامَتْ لنا الدنيا إلى مُلْتَقَى الحَشْرِ

ولنلاحظ كيف شبه جميل نفسه بمدمن الخمر، الذى لا يستطيع لها تركا ولا عنها سلوا، وهو ما يقترب جدا مما قاله العقاد فى تشبيه عشقه هو وأمثاله بإدمان التدخين. بل لقد سلف قوله إن حبه لها قضاء من الله قدَّره عليه، فهو لا يستطيع له دفعا ولا عليه تأبيا. وهذا أشد من الإدمان وأطغى.

وقد أخذ السباعى بيومى على شاعرنا، فى أواخر كتابه: «تاريخ الأدب العربى فى العصر الإسلامي»، أشياء فى نظمه غير ذات أهمية: بعضها مما نوافق عليه، وبعضها تختلف فيه الأنظار. فمن ذلك مثلا أن عزة قد استغربت دعاءه عليها فى البيت الأول من أبياته التالية:

رَمَى اللهُ فى عَينَى بُثَينَةَ بِالقَذَي   وَفى الغُرِّ مِن أَنْيابِها بِالقَوادِحِ

رَمَتْنى بِسَهْمٍ رِيشُهُ الكُحْلُ لَم يضِرْ   ظَواهِرَ جِلْدى، فَهْوَ فى القَلْبِ جارِحي

أَلا لَيتَنى قَبْلَ الذى قُلْتُ شِيبَ لي   مِنَ المُذْعِفِ القاضى سِمَامُ الذَّرارِحِ

فَمُتُّ وَلَم تُعْلَمْ عَلَى خِيانَةٌ   أَلا رُبَّ باغى الرِّبْحِ لَيسَ بِرابِحِ

فَلا تَحْمِليها وَاجْعَليها جِنَايةً   تَرَوَّحْتُ مِنها فى مِياحَةِ مائِحِ

أَبُوءُ بِذَنْبِى أَنَّنى قَدْ ظَلَمْتُها   وَإِنّى بِباقى سِرِّها غَيرُ بائِحِ

بيد أننا لا ينبغى أن نتعامى عن الآلام الرهيبة التى قال فيها هذا الكلام جراء حرمانه منها. كما لا ينبغى أن يفوتنا اعتذاره السريع عنه إذ تمنى لو كان قد مات بالسم الذعاف قبل أن يتلفظ به، ورجاها أن تغفر له هذا الذى أفلت من لسانه بسبب شنع الألم على غير إرادة منه. ثم لا ينبغى أيضا أن ننسى وصفه لأسنانها بالغراء، وتأكيده أن عينيها قد أصابتاه بسهامها المصمية التى تصيب القلوب وتجرّحها تجريحا. إن هذا الكلام ليطهر بحارا وأنهارا من أية فظاظة يمكن أن تكون قد خالطتها لا مجرد كلمة سبقت اللسانَ من بُرَحاء العذاب الأليم، فلم يستطع إيقافها. ثم إن هذا الدعاء ليس له سوى معنى واحد أنها قد استولت على كيانه استيلاء تاما وتربعت على قلبه وفعلت به الأفاعيل بينما هو عاجز تمام العجز لا يقدر على شيء من شدة حبه لها. وكثيرا ما ندعو على من نعجب به دلالة على شدة هذا الإعجاب. كذلك فجميل لم يكن من الغزلين المحترفين المزوِّقين للكلام الذين كل

همهم التقرب إلى النساء وخداعهن بالكلام المعسول، بل كان يقبس من قلبه المحترق. وأخيرا، وليس آخرا، كيف يمكن أن نحاسب الطعين وهو يتلوى من الألم على أنْ بدرت منه كلمة لا تراعى أصول الغزل بين الأحبة؟ لقد تكون مثل تلك الكلمة هى العلامة الصادقة التى لا تطيش ولا تخيب فى الدلالة على شدة حبنا لمن صدرت تلك الكلمة فى حقهم. بل لعلها تكون أقوى فى التعبير عن شدة ذلك الحب من الكلام المزوَّق الجميل. ثم إنه يتمنى لو كان قد مات بالسم الذعاف قبل أن يلفظ فمه فيها ما لَفَظَ. أوليس هذا كافيا وفوق الكافى؟

كذلك أخذ الأستاذ بيومى عليه قوله، فى البيت الثانى من البيتين التاليين، إن نسيانه لها قليل، وكان ينبغى فى نظره أن يقول إنه لا يوجد نسيان أصلا:

وإنى وتكرارى الزيارةَ نحوكم، ... بُثينَ، لَذُو هجرٍ، بُثينَ، يطولُ

وإن صباباتى بكم لَكثيرةٌ ... بثين، ونسيانيكمو لَقَلِيلُ

لكن فات الأستاذ الناقد أن القليل قد يعنى العدم. والأمور لا تؤخذ هكذا بالمسطرة. ولنفترض أن الشاعر قصد ذلك، فهل يمكن أن يلام عليه؟ هل المحب لا يمكن أن يفكر فى شيء آخر ليلَه ونهارَه سوى حبيبته؟ ألا ينام؟ ألا يتحدث مع الآخرين؟ ألا يمرض؟ ألا يأكل ويشرب؟ أليس له عمل يمارسه ويرتزق منه؟ إن لحظات النسيان فى مثل هذه الحالة أمر طبيعى لأنها نعمة من الله يخفف الله بها عن عباده المبتلَين بالحب اليائس المبرح، ويعطيهم هدنة من العذاب، وإلا هلكوا. كما أن الحياة قائمة على الثنائية ما بين ليل ونهار، وصحة ومرض، وفقر وغنى، وذكر ونسيان... إلخ. فجميل إذن لم يعْدُ الواقعَ حين ذكر هذا، وليس عليه فيه من بأس. فهى إذن لمسة واقعية تنفح بالصدق، وتستجلب له منا العطف والمرحمة. وقد قلنا إنه ليس من أصحاب التزاويق اللفظية على كل حال. وهناك أشياء أخرى مثل هذه أخذها عليه السباعى بيومى، و يمكن أن يقال فيها ما قيل هنا.

وثم إشارات غير هذه وتلك أوردها الكاتب مؤداها أن جميلا أخذ هذا المعنى أو ذاك من شاعر سابق، وهو ما لا يقدح فى جمال شعره ولا يخفف من سطوته على القلوب، فما أفكارنا ولا لغتنا فى الواقع إلا ثمرة لما سبق أن قرأناه واستمعنا إليه، مضافةً إليه بطبيعة الحال إبداعاتُنا، التى تظهر فيها شخصياتنا وتكسبها نكهتها المتميزة رغم كل شيء. والمهم ألا يسرق الشاعر الآخرين سرقة غبية توقعه تحت طائلة النقد الأدبى، وهو ما لم يصنعه جميل. ومعظم ما يكون صدى فى إبداعاتنا لما عند الآخرين يتسرب إلى ما نكتبه دون التفات منا، إذ هو يجرى فى دمنا ويستكن فى أطواء ذاكرتنا منذ قرأناه أو سمعناه على غير وعى أو قصد من جانبنا.

الغُزِلون المعدِّدون:

أما الشعراء المعدِّدون الذين يشبهون النحلة فى وقوعها على الزهور جميعا دون الاختصاص بزهرة معينة لا تعدوها فنختار منهم عمر بن أبى ربيعة. وعمر، فى نسيبه، يختلف عما كان نقادنا القدماء يطالبون به الشعراء فى غزلهم من الترامى على حبائبهن، إذ كان فى معظم غزلياته يعكس الأمر فيصور الفتيات والنساء مشغوفات به مدلهات فى غرامه حريصات على لفت نظره يعانين أشد المعاناة فى حبهن له. وربما كان السبب فى ذلك أنه كان مترفا وسيما أنيقا يملك الرقيق والجوارى، وشاعرا مشهورا عنده من الفراغ الكثير لثرائه الهائل، ووحيد أُمّه السَّبِية التى قامت على تربيته بعدما مات أبوه، وكان تاجر عطور فاحش الثراء وواليا فى عهد النبى ومن بعده على بعض أقاليم اليمن. كما كان المغنون والمغنيات إلى جانب عمر دوما يغنون شعره وينشرونه فى كل مكان، فكانت النساء يولَعْنَ به ويرِدْنَ أن يشْهَرَهُنّ فى قصائده. وكانت النسوة اللاتى يتحدث عنهن فى أشعاره ينتمين إلى الطبقة الأرستقراطية، فكان فى حبه لاهيا لا يعرف الألم وحرقات القلب التى كان يصطليها جميل وقيس وكثير ممن كان كل منهم منقطعا إلى حبيبة واحدة تملك عليه حياته، وتطير النوم من عينيه، وتجعل وجوده جحيما لا يحتمل. لقد كان الحب عنده

لهوا وتسلية أكثر منه غرامًا حارًّا وولعًا لاعِجًا. ولقد التفت كل من كتبوا عنه من قدامى ومحدثين إلى تلك الظاهرة فى شعره، وأرجعها المحدثون منهم، كالدكتور زكى مبارك فى «حب ابن أبى ربيعة وشعره» ود. طه حسين فى «حديث الأربعاء» والعقاد فى كتابه: «شاعر الغزل» ود. شوقى ضيف فى الفصل الذى عقده له من كتاب «العصر الإسلامي» وغيرهم، إلى إعجابه بذاته. كذلك يكثر فى شعر عمر القَصَص، وهو قصص غرامى فيه الوقائع والحوارات والحبكة والوصف والنهاية السعيدة.ومن أمثلة ذلك الغزل العُمَرِى القصصى الجارى على غير التقاليد الشعرية الأبيات التالية:

قالَتْ لِتِرْبٍ لها تُحَدِّثُها: لَتُفْسِدِنَّ الطَّوَافَ فى عُمَرِ

قومى تصَدَّى لَهُ لِيبْصِرَنا ثُمَّ اغْمِزيهِ يا أُخْتُ فى خَفَرِ

قالت لَها: «قَدْ غَمَزْتُهُ، فَأَبي» ثُمَّ اسْبَطَرَّتْ تَسْعَى عَلَى أَثَرِي

وهذه القصيدة أيضا:

هَيجَ القَلْبَ مَغَانٍ وَصِيرْ دارِساتٌ قَدْ عَلاهُنَّ الشَّجَرْ

وَرِياحُ الصَّيفِ قَد أَزْرَتْ بِها تَنْسِجُ التُّرْبَ فُنونًا وَالمَطَرْ

ظِلْتُ فيها ذاتَ يَوْمٍ واقِفًا أَسْأَلُ المَنْزِلَ: هَلْ فيهِ خَبَرْ؟

لِلَّتى قالَت لأَتْرابٍ لَها قُطُفٍ فيهِنَّ أُنْسٌ وَخَفَرْ:

قَد خَلَوْنا فَتَمَنَّيْنَ بِنا إِذْ خَلَوْنا اليومَ نُبْدِى ما نُسِرّْ

فَعَرَفْنَ الشَّوْقَ فى مُقْلَتِها وَحَبابُ الشَّوقِ يبْديهِ النَّظَرْ

قُلْنَ يسْتَرْضِينَها: مُنْيتُنا لو أتانا اليَوْمَ فى سِرٍّ عُمَرْ

بَينَمــا يــذْكُرْنَنى أَبْصَــرْنَني   دونَ قِيدِ المِيلِ يعْدُو بى الأَغَرّْ

قالَتِ الكبرى: أَتَعْرِفْنَ الفَتَى؟   قالَتِ الوسطى: نَعَم، هَذا عُمَرْ

قالَتِ الصُّغرى، وَقَد تَيمْتُهـا: قد عَرَفْناهُ، وَهَل يخْفَى القَمَرْ؟

ذا حَبِيـبٌ لَـم يعَـرِّج دونَنـا   سـاقَهُ الـحَينُ إِلَينـا وَالقَـدَرْ

فَأَتانـا حـينَ أَلْقَـى بَرْكَـهُ   جَمَـلُ اللَّيـلِ عَلَيـهِ وَاسْـبَطَرّْ

وَرُضَـابُ المِسْـكِ مِـن أَثْوابِـهِ   مَرْمَـرَ المـاءَ عَلَيـهِ فَنَضَـرْ

قَـدْ أَتانـا مـا تَمَنَّينـا، وَقَـدْ   غُيـبَ الأَبْـرامُ عَنّـا وَالقـذرْ

ثم هذا النص الشائق:

قالَتْ عَلى رِقْبَةٍ يوْمًا لِجارَتِها: ما تَـأْمُرِينَ؟ فَإِنَّ القَلْبَ قَد تُبِلا

وَهَلْ لِى اليوْمَ مِن أُخْتٍ مُواسِيةٍ   مِنكُنَّ أَشْكو إِليها بَعْضَ ما عَمِلا؟

فَجاوَبَتْها حَصَانٌ غَيرُ فاحِشَةٍ   بِرَجْعِ قَوْلٍ وَأَمْرٍ لَم يكُن خَطِلا:

اقْنَى حَياءَكِ فى سِتْرٍ وَفى كَرَمٍ   فَلَسْتِ أَوَّلَ أُنثى عُلِّقَتْ رَجُلا

لا تُظْهِرى حُبَّهُ حَتَّى أُراجِعَهُ   إِنّى سَأَكْفِيكِهِ إِنْ لَمْ أَمُتْ عَجَلا

صَدَّت بِعَادًا وَقالَت لِلَّتِى مَعَها: بِاللَّهِ لُومِيهِ فى بَعْضِ الَّذى فَعَلا

وَحَدِّثِيهِ بِما حُدِّثْتُ وَاسْتَمِعي   مـاذا يقُـولُ وَلا تَعْيى بِهِ جَدَلا

حَتّى يرى أَنَّ ما قال الوُشَاةُ لَهُ   فينـا لَدَيهِ إِلينـا كُلَّـهُ نُقِـلا

وَعَرِّفيهِ بِهِمْ كَالهَزْلِ، وَاحْتَفِظِي   فى غَيرِ مَعْتَبَةٍ أَن تُغْضِبى الرَّجُلا

فَإِنَّ عَهْدى بِهِ، وَاللَّهُ يحفَظُهُ،   وَإِنْ أَتى الذَّنْبَ، مِمَّن يكْرَهُ العَذَلا

]لو عِنْدَنا اغْتِيبَ أو نِيلَتْ نَقِيصَتُهُ]مـا آبَ مُغْتابُـهُ مِـنْ عِنْـدِنا جَـذِلا

وقد خَطَّأَ العقادُ ابنَ أبى ربيعة لغويا فى كتابه: «شاعر الغزل» حين رآه ينصب المضارع أو يجزمه دون سبب من النحو لهذا أو لذاك، عازيا الأمر إلى ضرورة الـوزن والقافية مما لا يقع فيه الشعراء الكبار على هذا النحو المتكرر كما فى قوله:

]مَنْ ذا يلُمْنى إن بكيتُ صبابةً]أو نُحْتُ صَبًّا بالفؤادِ المُنَضَّجِ؟

***

]فقلتُ لهم: كيف الثريا؟ هُبِلْتُمُوا!]فقالوا: ستدرى ما مَكَرْنا وتَعْلَمَا

***

]فهلَّـــا تســـألى أفنــــاءَ سَـــعْدٍ]وقـد تبـدو التجـاربُ لِلَّبِيـبِ؟

ولقد استغربت ذات يوم أنا أيضا وجود مثـل هـذا فى شـعر بشـار، ووقفـت أمامه متحيرا، إلى أن عرفتُ أن من العرب قديما من كان يحذف نون الأفعال الخمسة فى غير نَصْبٍ أو جَزْمٍ، ومن كان يبْقِى حرف العلة فى آخر المضـارع رغـم انجزامـه. وفى القـرآن الكـريم مـثلا: «لـولا أَخَّرْتَنـى إلى أجـلٍ قريـبٍ فأَصَّـدَّقَ وأَكُـنْ مـن الصالحين»، حيث جُزِمَتْ «أَكُنْ» رغم عطفها على منصوب. وفى إحـدى القـراءات القرآنية حُذِفَتْ نون الرفع من أحد الأفعال الخمسة دون ناصـب أو جـازم فى قولـه تعالى من سورة «الزُّمَر»: «قال: أَتُحَاجُّونِى فى الله، وقد هَدَانِ؟». ولو تنبـه العقـاد إلى ذلك لأعاد النظر فى حكمه من هذه الناحية على الشاعر، إذ لا يعقل أن يخطئ شاعر كبير كعمر فى لغته على النحو الذى ظنه العقاد وحكم عليه لهذا بالضعف.

ومن الغزلين من غير العذريين الشاعر الأحوص. وهو شاعرٌ أَوْسِى معـاصرٌ لجرير والفرزدق اشتهر بشعره الغزلى، وإن لم يقتصر فى الشعر على الغزل كعمـر بـن أبى ربيعة، بل مدح بعض الخلفاء الأمويين. يقول فى أسماء، وهى واحدة ممـن كـان

يقع فى غرامهن، الواحدة بعد الأخرى، من حرائر وإماء على عكس ابن أبى ربيعة، الذى لم يكن يعرف إلا الحرائر وإلا المترفات من الطبقة الراقية:

رامَ قَلْبى السُّلُوَّ عَن أسماءِ ... وَتَعَزَّى، وَما بِهِ مِنْ عَزاءِ

سُخْنَةٌ فى الشِتاءِ بارِدَةُ الصيـ ... ـفِ سِراجٌ فى الليلةِ الظلماءِ

كَفِّنانى، إن مِتُّ، فى دِرْعِ أَرْوَي ... وامْتَحا لى مِنْ بِئْرِ عُرْوَةَ مائي

إِنَّنى، والذى تَحُجُّ قُرَيشٌ ... بَيتَهُ سالِكينَ نَقْبَ كَداءِ

لَمُلِمٌّ بِها، وإن أُبْتُ مِنها ... صادِرًا كالذى وَرَدْتُ بِداءِ

وَلَها مَرْبَعٌ بِبُرْقَةِ خاخٍ ... وَمَصِيفٌ بِالقَصْرِ قَصْرِ قُبَاءِ

قَلَبَتْ لى ظَهْرَا المِجَنِّ فأَمْسَتْ ... قَدْ أطاعَت مَقالَةَ الأعداءِ

ويقول فى أم جعفر، وهى مثله من الأنصار، وقد تكرر نسيبه بها مما أغضب أخاها أيمن، فاستعدى السلطات عليه:

وَإِنّى لَيَدْعُونى هَوَى أُمِّ جَعْفَرٍ ... وَجارَاتِها مِن ساعَةٍ، فأُجِيبُ

وإِنّى لآتِى البَيتَ ما إن أُحِبُّهُ ... وأُكْثِرُ هَجْرَ البَيتِ وَهْوَ حَبِيبُ

تَطيبُ لِى الدُّنيا مِرَارًا، وإِنَّها ... لَتَخْبُثُ حَتّى ما تكادُ تَطِيبُ

وإِنى إذا ما جِئتُكُم مُتَهَلِّلًا ... بَدَا مِنكُمُ وَجْهٌ عَلى قَطُوبُ

وَأُغْضِى عَلَى أَشْياءَ مِنكم تَسُوؤُني ... وَأُدْعَى إلى ما سَرَّكُم فأُجيبُ

وأُحْبِسُ عَنْكِ النَّفْسَ، والنَّفْسُ صَبَّةٌ بِقُرْبِـكِ، والمشـى إِلَيـكِ قَريـبُ

وَمـا زِلْـتُ مِـن ذِكْـراكِ حَتّـى كـأَنَّني أَمِـيمٌ بِأَفْيـاءِ الـدِّيارِ سَـلِيبُ

أَبُثُّكِ مـا أَلْقَى، وفى النَّفسِ حاجَـةٌ لَهـا بَـينَ جلـدى والعِظَـام دَبِيـبُ

هَبِينـى امْـرَأً إِمَّـا بَرِيئًـا ظَلَمْتِـهِ وإِمَّـا مُسِـيئًا مُـذْنِبًا فَيتـوبُ

فَـلا تَترُكـى نَفْسـى شَـعَاعًا، فإِنَّهـا مِـنَ الحـزنِ قـد كـادَت عَلَيكِ تَـذُوبُ

لَـكِ اللّهُ. إِنّـى واصِـلٌ مـا وَصَـلْتِني وَمُـثْنٍ بِمـا أَوْلَيتِنـى وَمُثِيـبُ

وَآخُـذُ مـا أَعْطَيـتِ عَفْـوًا، وَإِنَّـني لَـأَزْوَرُ عَمّـا تكْـرَهِينَ هَيـوبُ

ويقول فى سُعْدَي:

إِنّـى لآمُـلُ أَن تَـدْنُو وَإِن بَعُـدَت والشّـيءُ يؤمَـلُ أَنْ يـدْنُو وَإِنْ بَعُـدا

أَبْغَضْـتُ كُـلَّ بِـلادٍ كُنْـتُ آلَفُهـا فَمَـا أُلائِـمُ إِلا أَرْضَـها بَلَـدا

يـا لَلرِّجـالِ لمقتـولٍ بِـلا تِـرَةٍ لا يأخُـذونَ لَـهُ عَقْلًـا وَلا قَـوَدا

إِن قَرُبَتْ لَمْ يفِقْ عنها، وَإِن بَعُدَتْ تَقَطَّعَـتْ نَفْسُـهُ مِـن حُبِّهـا قِـدَدا

مـا تُذْكَرُ الدهرَ لى سُعْدَى، وإِن نَزَحَتْ، إِلا تَرَقْـرَقَ مـاءُ العَـينِ فـاطَّرَدا

وَلا قَـرَأْتُ كِتابًـا مِنـكِ يبْلُغُنـي إِلا تَنَفَّسْـتُ مِـن وَجْـدٍ بِكُـم صُـعَدا

وَقَـد بَـدَت لِـى مِـن سُـعْدَى مُعاتَبَـةٌ أَمْسَى وَأَضْحَى بِها جَدّى بِكُم سَعِدا

وَلَــو أُعاتِــبُ ذا حِقــدٍ قَتَلــتُ لَــهُ نَفْسًــا مُعــاتَبَتى إِيــاكِ مــا حَقــدا

وقال يتغزل فى سلَّامة المغنية:

سَـــلّامُ، ذِكْـــرُكِ مُلْصَـــقٌ بِلِسَـــاني وَعَلَـــى هَـــواكِ تَعُـــودُنى أَحزانِـــي

مَــا لِــى رَأَيتُــكِ فــى المنــامِ مُطِيعَــةً وَإِذا انتبَهْتُ لَجَجْتِ فى العِصْيانِ؟

أَبَـــدًا مُحِبُّـــكِ مُمسِـــكٌ بِفُـــؤادِهِ يخْشَى اللَّجَاجَـةَ مِنْـكِ فى الهِجْـرانِ

إِن كُنـــتِ عاتِبَـــةً فَـــإِنّى مُعْتِـــبٌ بَعْـدَ الإِســاءةِ، فَــاقْبَلى إِحســانِي

لا تَقْتُلــى رَجُلًــا يــراكِ لِمَــا بِــهِ مِثْــلَ الشَّــرَابِ لِغُلَّــةِ الظَّمـــآنِ

وَلَقَــد أَقــولُ لِقــاطِنينَ مِــنَ اهْلِنــا كانــا عَلَــى خُلُقِــى مِــنَ الإِخــوانِ:

يــا صَــاحِبَى، عَلَــى فُــؤادِى جَمْــرَةٌ وَيَـرَى الهـوى جِسْـمى كَمـا تَرَيـانِ

أَمُرَقِّيَـــــانِ إِلى سَـــــلامَةَ أَنتُمـــــا مــا قــد لَقِيــتُ بِهــا وَتَحْتَسِـبانِ؟

لا أَسْـتَطيعُ الصَّـبْرَ عَنهــا. إِنَّهــا مِــن مُهْجَتــى نَزَلَــتْ بِكُــلِّ مَكــانِ

ومن طريف القول ما كتبه د. شوقى ضيف من أن النساء كن يتحاشَين الأحوص لأنه كان يصرح فى غزله بأسمائهن، إذ السؤال هو: وهل كان ابن أبى ربيعة مثلا يخفى أسماء من يتغزل بهن؟ أم هل كان جميل وكثير وقيس بن الملوح وقيس بن ذريح وابن قيس الرقيات يفعلون ذلك؟ أم هل كان يصنع ذلك بشار؟ أم هل كان يصنعه العباس بن الأحنف؟ أم هل كان يصنعه أبو العتاهية؟ أم هل كان يصنعه الملك الضليل وعنترة وطرفة من قبل فى الجاهلية؟ إن معظم الشعراء فى تلك العصور كانوا يصرحون بأسماء من يحبون من النساء. بل من المعروف أن النساء كن

يسعدهن أن يشبب ابن أبى ربيعة مثلا بهن. وغير خافٍ ما كان ابن قيس الرقيات يصنعه فى شعره لا من التشبيب فقط بالنساء بل من الزعم بأنه صنع كذا وكذا مع نسوة كبار الأمويين أنفسهن غير مبال بإساءته هذه إلى أعراضهن. فلماذا يا ترى لم تتحاش النساء شعراءنا القدامى إذن؟ ولو أخذنا أم جعفر مثالا لوجدنا أن الذى غضب إنما هو أخوها أيمن لا هى.

وكان الأحوص من مُدّاح الأمويين. ومن أخبار مدائحه لهم فى «الأغاني» أنه «دس إلى حبابة، فغنَّتْ يزيدَ قوله:

كريم قريشٍ حين ينْسَب والذي ... أقرَّتْ له بالملك كهلًا وأمردا

وليس، وإن أعطاك فى اليوم، مانعًا، ... إذا عُدْتَ، من أضعاف أضعافه غَدا

أهان تلاد المال فى الحمد. إنه ... إمامُ هدًى يجرى على ما تعوَّدا

تشَرَّف مجدًا من أبيه وجده ... وقد ورثا بنيان مجدٍ تشَيدا

فقال يزيد: ويلكِ يا حبابة! مَنْ هذا مِنْ قريش؟ قالت: ومن يكون؟ أنت هو يا أمير المؤمنين. فقال: ومن قال هذا الشعر؟ قالت: الأحوص يمدح به أمير المؤمنين. فأمر به أمير المؤمنين أن يقدم عليه من دهلك، وأمر له بمالٍ وكسوة...

دخل الأحوص على يزيد بن عبد الملك وهو خليفةٌ، فقال له يزيد: والله لو لم تمتَّ إلينا بحرمةٍ ولا توسلت بِدَالَّةٍ ولا جدَّدت لنا مدحًا غير أنك مقتصرٌ على البيتين اللذين قلتهما فينا لكنت مستوجبا لجزيل الصلة منى حيث تقول:

وإنى لأستحييكمو أن يقودني ... إلى غيركم من سائر الناس مطمعُ

وأن أجتدى للنفع غيرك منهمو ... وأنت إمامٌ للرعية مقنعُ»

وثم قضية هامة فى حياة الأحوص أودّ التوقف عندها لشدة حساسيتها وغرابتها. وقد تحدَّث عنها أبو الفرج مثلا فى «الأغاني» قائلا إن «الأحوص كان يوما عند سُكَينَة، فأذَّن المؤذن، فلما قال: «أشهد ألا إله إلا الله، أشهد أن محمدا رسول الله» فخرتْ سكينة بما سمعتْ، فقال الأحوص:

فخرتْ وانتمتْ، فقلتُ: ذَرِيني   ليس جهلٌ أَتيتِه ببديعِ

فأنا ابن الذى حمت لحمَه الدَّبْـ   ـرُ قتيلِ اللِّحْيان يومَ الرَّجِيعِ

غَسَّلَتْ خالى الملائكةُ الأبْـ   ـرارُ مَيتًا. طُوبَى له من صريعِ!»

كما ذكر أيضا أن الخليفة الأموى سليمان (أو الوليد) بن عبد الملك قد عاقبه على ذلك بالنفى. لكن هل يعقل أن يصف مسلم، وبخاصة فى ذلك الوقت المبكر من تاريخ الإسلام، افتخار حفيدة رسول الله به بالجهل والتهور؟ ولو افترضنا أنه كان من السفاهة بحيث يقول ذلك أكانت سكينة تسكت عليه وتتقبل ما قال بهذه البساطة؟ لا أظن إلا أنها تصفعه على وجهه وتفضحه فضيحة الدهر، وهى التى لم يكن أحد يستطيع الثبات أمامها فى أخذ الكلام ورده؟ وهل كانت جماهير المسلمين لتتركه دون أن تنزل به عقابا صارما يجعله عبرة لكل معتبر؟ وهل كان الخليفة ليكتفى بعقوبة النفى على هذه الوقاحة فى حق رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ وما دام فسوق الأحوص عن الإسلام قد بلغ هذا الحد هل كان ليفتخر بأن الله قد حمى جثة خاله بوساطة النحل من أن تمتد إليه يد الكفار بالتمثيل بها، وأن الملائكة قد غسلته وصلت عليه؟ إن هذا معناه أنه يؤمن بالإسلام وبأن الله قد أكرم خاله بهذه الكرامة جزاء إيمانه بالرسول جد سكينة. فكيف يتسق هذا وذاك؟ اللهم إلا إذا كان قد قال هذه الأبيات ردا على شيء آخر غير افتخارها برسول الله صلى الله عليه وسلم أو على امرأة أخرى غيرها أصلا. ثم ما الدافع لها إلى الافتخار بجدها عند

سماع هذا الأذان بالذات، واسم رسول الله يـذْكَر لـدى كـل أذان، وفى كـل مكـان، وعلى كل لسان بكل لسان؟ ثم هل كانت حفيدة النبى بحاجة إلى الافتخار بجـدها، وهو الذى يؤمن به المسلمون جميعا ويوقرونه ويحبونه ويصلون عليه كل يوم مـرات ومرات؟

وقد أورد أبو هلال العسكرى هـذه الأبيـات فى كتابـه: «الأوائـل» فى سـياق حديثه عن مقتل خُبَيب بن عَدِى على يد بنـى لحيـان دون أن يشـير إلى سـكينة مـن قريب أو من بعيد. والغريب أن طه حسين، الذى جعل الشـك ديدنـه حتـى لينكـر كثيرا من الشعر الذى لا يمكن إنكاره عن حق، قد قبل، لدى كلامه عن الأحـوص فى «حديث الأربعاء»، صحة هذه الأبيات، وإنْ وجهها توجيهـا سياسـيا فكتـب أن الشاعر أراد أن يقول لسكينة: فِيمَ الفخرُ بجدك، وقد استولى بنو أميـة عـلى الحكـم وحرموكم حقكم ونكلوا بكم؟ والطريف أن طه حسين، رغم ذلـك، يبـدى أسـفه على أن الرواية لم تُبْقِ لنا إلا هذه الأبيات القليلة. والأبيات فى حـد ذاتهـا لا توضـح لنا، كما يرى القارئ، مَنْ تلك المرأة التى يوجـه لهـا الأحـوص خطابـه ولا السـياق الذى فخرت فيه ولا بم فخرتْ أصلا.

وعندنا من شعراء الغزل المعدِّدين فى العصر الأمـوى أيضـا العَرْجِـى حفيـد عمرو بن عثمان بن عفان، الذى يشبه فى غزلـه عمـر بـن أبـى ربيعـة، وبخاصـة فى انتحائه منحى القصص والرسائل. وكعمر أيضا كان يتعرض للحـواجِّ إلى بيـت الله الحرام، وإن كان على خلاف عمر قد اشترك فى الفتوح الإسـلامية مـع مسـلمة بـن عبد الملك بأرض الـروم وأبـلى بـلاء حسـنا، فضـلا عـن أنـه كـان مولعـا بالصـيد والقنص. ومع أنه لا يختلف عن عمر فى اتجاهه الغزلى العام فـإن د. شـوقى ضـيف يقول إنه كان يخرج إلى شيء من الإباحية ويتعرض للنساء اللاتى يحججـن. ويفهـم من كلامه أنه يختلف فى هذا عن عمر، ولا أدرى كيـف يكـون ذلـك. ومـن شـعره الذى أخذه عليه د. شوقى ضيف رحمه الله قوله:

قالَت: رَضِيتُ، وَلَكِن جِئْتَ فى قَمَرٍ ... هَلَّا تَلَبَّثْتَ حَتّى تَدْخُل الظُّلَمُ؟

وقوله:

باتا بِأَنْعَمِ لَيلَةٍ حَتّى بَدَا ... صُبْحٌ تَلَوَّحَ كَالأَغَرِّ الأَشْقَرِ

فَتَلازَما عِنْدَ الفِراقِ صَبَابَةً ... أَخْذَ الغَرِيمِ بِفَضْلِ ثَوْبِ المُعْسِرِ

وقوله:

أَماطَتْ كِساءَ الخَزِّ عَن حُرِّ وَجْهِها ... وَأَرْخَتْ عَلى المَتْنَينِ بُردًا مُهَلْهَلا

مِنَ اللّاءِ لَم يحْجُجْنَ يبْغِينَ حِسْبَةً ... وَلَكِنْ لِيقْتُلْنَ البَرِيءَ المُغَفَّلا

مع أن عمر بن أبى ربيعة قد صنع مثل ذلك بل تجاوزه كما هو معروف. ونترك القارئ الآن مع المقطوعة الرقيقة التالية من شعر الشاعر:

هاجَ قَلْبى بَعْدَما كانَ سَكَنْ ... لِبُرَيقٍ لاحَ مِنْ نَحْوِ اليمَنْ

فاعْتَرانى الشوقُ لَمّا خِلْتُهُ ... مَوْهِنًا قَد لَجَّ وَهْنًا وَالحَزَنْ

فَالحِمَى مِنهُ حِمَى العَرْجِ إلى ... أَظْرُبِ الأَحْسا إلى القَصْرِ قَمَنْ

تِلكَ أَوطانٌ لِلَيلَى وَلَنَا ... ما يهِيجُ ذا الهوى إلا الوَطَنْ

باتَ يلْحانى رَفِيقِى أَنْ رَأَى ... سَنَنَ الدَّمْعِ، وللدمعِ سَنَنْ

قُلتُ: يا صاحِ، إِذا ما لَم تُعِنْ ... فَدَعِ اللَّوْمَ هَوَى ليلى، فَمَنْ؟

يعْتَرِيهِ مِن مُحِبٍّ شَوْقُهُ ... نازِحِ الدّارِ غَرِيبٍ ذى شَجَنْ

فَارْعَوَى عن ذاك إِذْ فَطَّنْتُهُ ... لِلّذى نَلْقَى، وَما كانَ فَطِنْ

ولسوء حظه عمد العرجى، على طريقة ابن قيس الرقيات، إلى إيلام محمد بن هشام المخزومى خال هشام بن عبد الملك الخليفة الأموى وواليه على المدينة بالتغزل

فى امرأته رغم أنه لم يكن متعلقا بها، فضربه الزوج وحبسه. قال العرجى فى تلك السيدة:

عُوجِى عَلَينا رَبَّةَ الهَوْدَجِ   إنَّكِ إلّا تَفْعَلى تَحْرَجِي

أَيسَرُ ما نالَ مُحِبٌّ لَدَي   بَينِ حَبِيبٍ قَوْلُهُ: عَرِّجِ

نُقْضَ إلَيهِ حاجَةٌ أو يقُلْ:   هَلْ لِى مِمّا بِى مِن مَخْرَجِ؟

مِن حَيكُم بِنْتُم، وَلَم ينْصَرِمْ   وَجْدُ فُؤادِ الهائِمِ المُنْضَجِ

فَعاجَتِ الدَّهْماءُ بى خِيفَةً   أن تَسْمَعَ القَوْلَ، وَلَم تُعْنِجِ

فَما اسْتَطاعَتْ غَيرَ أَنْ أَوْمَأَت   نَحْوى بِعَينَى شادِنٍ أَدْعَجِ

يأوى إلى أَدْماءَ مِن حُبِّهِ   تَحْنُو عَلَيهِ رائِمٍ عَوْهَجِ

تُرِيكَ وَحْفًا فوقَ جِيدٍ لها   مِثْلَ رُكامِ العِنَبِ المُدْمَجِ

كَأَنَّما الحَلْى عَلَى نَحْرِها   نُجُومُ فَجْرٍ ساطِعٍ أبلَجِ

تَحُودُ بِالبُرْدِ لَها عَبْرَةً   جادَت بِها العَينُ وَلم تَفْشَجِ

مَخافَةَ الواشينَ أن يفْطِنُوا   لِشَأْنِها وَالكاشِحِ المُزْعِجِ

كَأَنَّها رِيمٌ بِذى مَثْوَبٍ   أَحْوَرُ يقْرُو مُصَّعَ العَوْسَجِ

كِناسُهُ الأَرْطَى، ومُصْطافُهُ   مَعَ الغَضا المُورِسِ وَالعَرْفَجِ

وَانطَلَقَتْ تَهْوِى بِها بَغْلَةٌ   فى بَغَلاتٍ وُقَّحٍ وُسَّجِ

يحْمِلْـــنَ بِيضًـــا جُـــرْدًا بُـــدَّنًا مِثْـــلَ غَمــامِ البَـــرَدِ الـــمُثْلِجِ

قُمْـــتُ طَوِيلًـــا بَعـــدَما أَدْبَـــرُوا أَنْظُـــرُ فِعْـــلَ الـــمُفْحَمِ الـــمُرْتَجِ

أَقُـــولُ لَمّـــا فَـــاتَنى مِنْهُمُـــو مــا كُنْـتُ مِـن وَصْـلِهِمِ أَرْتَجِـي:

إِنّـــى أُتِيحَـــت لى يمانِيـــةٌ إِحْـدَى بنـى الحـارثِ مِـنْ مَـذْحِجِ

نَلْبَـــثُ حَوْلًـــا كامِلًـــا كُلَّـــهُ لا نَلتَقـــى إِلا عَلَـــى مَـــنْهَجِ

فـى الحـجِّ إِن حَجَّـتْ. ومـاذا مِنًـي وَأَهْلُـــهُ إِنْ هِـــى لَـــم تَحْجُـــجِ؟

الوليد بن يزيد الخليفة الشاعر:

قليل الشِّعْر قصيره طبقا لما وصل إلينا. وقد يكون ضاع من شعره الكثير مع الزمن وعداوة الأمويين والعباسيين له. وهو شعر يتوزعه فى الأساس الغزل ووصف الخمر والصيد، ويتسم بالرقة والسلاسة والانسيابية، لكنه ليس بالقوة التى نجدها عند جميل مثلا أو قيس أو عمر أو العرجى. إلا أننا لا نوافق د. طه حسين على أنه أقرب إلى الرداءة اللفظية منه إلى الجودة كما كتب فى دراسته عنه بـ«حديث الأربعاء». ويصعب تماما أن نوافقه على أنه كان يقول الشعر وهو سكران، إذ كيف يكون الإنسان سكران لا يعقل ما يصنع أو يقول ثم ينظم شعرا، فضلا عن أن يكون شعرا جميلا رقيقا كشعر الوليد؟ هذا ما لا أفهمه. بل إنه ليكاد يقول إنه نَظْمٌ لا شعر. وهذه قسوة غير مبررة فى الحكم على هذا الشعر الرقيق الجميل.

وكانت للوليد ابنة عم تدعى: سلمى، وكانت أختا لزوجته، فوقع فى عشقها منذ أول مرة وقع عليها بصره، ولم يستطع عليها صبرا، مما دفعه إلى تطليق زوجته

كى يحل له تزوجها، لكن الظروف لم تساعده على ذلك إلا بعد اللتيا والتى وبعدما صار خليفة. ومن شعره يصف حرمانه منها وتدلهه فى هواها:

يا سُلَيمَى يا سُلَيمَي   كُنْتِ لِلقَلْبِ عَذَابا

يا سُلَيمَى ابْنَةَ عَمِّي   بَرَدَ اللَّيلُ وَطابا

أيمَا واشٍ وَشَى بي   فَامْلَئِى فاهُ تُرابا

رِيقُها فى الصُبْحِ مِسْكٌ   باشَرَ العَذْبَ الرُّضَابا

ومن شعره فيها أيضا:

شاعَ شِعْرِى فى سُلَيمَى وَظَهَرْ   وَرَوَاهُ كُلُّ بادٍ وَحَضَرْ

وَتَهادَتْهُ العَذارَى بَينَها   وَتَغَنَّينَ بِهِ حَتّى انْتَشَرْ

قُلْتُ قَوْلًا لِسُلَيمَى مُعْجِبًا   مِثْلَ ما قالَ جَمِيلٌ وَعُمَرْ:

لو رَأَينا لِسُلَيمَى أَثَرًا   لَسَجَدْنا أَلْفَ أَلْفٍ لِلْأَثَرْ

وَاتَّخَذْناها إِمامًا مُرْتَضًى   وَلَكانَتْ حَجَّنا وَالمُعْتَمَرْ

إِنَّما بِنْتُ سَعِيدٍ قَمَرٌ   هَل حَرِجْنا إِن سَجَدْنا لِلقَمَرْ؟

وقال يخاطبها ويستعطفها:

أراني اللهُ، يا سَلْمَى، حَياتي   وفى يَوْمِ الحِسَابِ كما أَرَاكِ

أَلا تَجْزِينَ مَنْ تَيمْتِ عُمْرًا   وَمَنْ لَوْ تَطْلُبِينَ لَقَدْ أَتاكِ

وَمَــن إِن مِــتِّ مــاتَ، وَلا تَــمُوتي، وَإِن يَنْسَــأْ لَــهُ أَجَــلٌ بَكَــاكِ

وَمَن لَو قُلتِ: «مُتْ»، وَأَطاقَ مَوْتًا إِذن ذاقَ المَمــاتَ وَمــا عَصَــاكِ

وَمَــن حَقًّــا لَــوْ اعْطِــى مــا تَــمَنّي مِــنَ الأَرْضِ العَرِيضَــةِ مــا عَــدَاكِ؟

أَثِيبِــى هائِمًــا كَلِفًــا مُعَنًّــي إِذا خَــدِرَتْ لَــهُ رِجْــلٌ دَعــاكِ

وفى ليلة الدخلة طال انتظاره إياها وهم يجلونها قبل أن تطلع عليه بجمالها الفتان:

خَــفَّ مِـــن دارِ جِيرَتـــي، يـــا خَليلَـــى، أُنْسُـــها

أَفَلَـــا تَخـــرُجُ العَـــرُو سُ؟ فَقَـــد طـــالَ حَبْسُـــها

قَـــد دَنـــا الصُّـــبْحُ أو بَـــدَا وَهْـــى لَـــم يقْـــضَ لُبْسُـــها

خَرَجَـــتْ كالمهـــاةِ في لَيلَـــةٍ غـــابَ نَحْسُـــها

بَـــينَ خَمْـــسٍ كَواعِـــبٍ أكـــرَمُ الجِـــنْسِ جِنْسُـــها

ومن شعره فيها كذلك تلك الأبيات الرشيقة التى تسيل عذوبة وظَرْفا:

خَبَّرُونـــى أَنَّ سَـــلْمَي خَرَجَـــتْ يَـــومَ الـــمُصَلَّي

فَـــإِذا طَـــيرٌ مَلِـــيحٌ فَـــوْقَ غُصْـــنٍ يتَفَلَّـــي

قُلـــتُ: مَـــن يعـــرِفُ ســـلمى؟ قـــال: «هـــا» ثُـــمَّ تَعَلَّـــي

قُلـــتُ: يـــا طَـــيرُ، ادْنُ مِنّـــي قـــال: «هـــا» ثُـــمَّ تَـــدَلّي

قُلْـتُ: هَــل أَبْصَــرْتَ ســلمى؟ قـــال: «لا» ثُـــمَّ تَـــوَلَّي

فَنَكَـــا فـــى القَلْـــبِ كَلْمًـــا باطِنًـــــا ثُـــمَّ تعَلَّـــي

ومن شعره أيضا ما نظمه فى الخمر. ويذكر مؤرخو الأدب العربى أنه أول من خصص أشعارا مستقلة لبنت الكَرْم بعدما كـان الحـديث عنهـا يـأتى فى مقـدمات القصائد أو فى تضاعيفها ضمن مواضيع متعددة. ومن خمرياته الأبيات التالية:

اصْـدَعْ نَجِــى الهمــومِ بِــالطَّرَبِ وَانْعَــمْ علــى الــدَّهْرِ بِابْنَــةِ العِنَــبِ

وَاسْـتَقبِلِ العَــيشَ فــى غَضــارَتِهِ لا تَقْــفُ مِنــهُ آثــارَ مُعْتَقِـــبِ

مِــن قَهْـــوَةٍ زانَهـــا تَقادُمُهـــا فَهْــى عَجُــوزٌ تَعْلُــو علــى الحِقَــبِ

أَشْـهَى إِلى الشَّـرْبِ يـومَ جَلْوَتِهـا مِــنَ الفتـــاةِ الكريمـــةِ النَّسَـــبِ

فَقَـــدْ تجَلَّـــتْ وَرَقَّ جَوْهَرُهـــا حَتّــى تَبَــدَّتْ فــى مَنْظَــرٍ عَجَــبِ

فَهْـــى، بِغَــيرِ المِــزاجِ، مِــن شَــرَرٍ وَهْــى، لَــدَى المــزْجِ، ســائِلُ الــذَّهَبِ

كَأَنَّهـــا فـــى زُجَاجِهـــا قَـــبَسٌ تَــذْكُو ضِــياءً فــى عــينِ مُرْتَقِــبِ

فى فِتيةٍ مِن بَنى أُمَيةَ أَهْـــــ ـــــلِ المجدِ وَالمأثراتِ وَالحَسَبِ

مــا فــى الــوَرَى مِــثْلُهُم وَلا فيهِمُــو مِثْلِـــى وَلا مُنْـــتَمٍ لِمِثْـــلِ أَبـــي

وهناك كلام كثير عن زندقته ومجونه لا تميل نفسى ولا يقتنع عقلى بمعظم مـا رُوِى منه. فعلى سبيل التمثيل نقرأ فى «الأغاني» مـثلا مـا يـلى: «ذكـرتْ جاريـةٌ أنـه واقعـها يوما وهو سكران، فلما تنحى عنها آذنه المؤذن بالصـلاة، فحلـف ألا يصـلى

بالناس غيرُها، فخرجت متلثمةً فصَلَّتْ بالناس». وأنا، فى واقع الأمر، لا يمكن أن أصدق كلمة واحدة من ذلك الخبر، إذ لا يعقل أن تؤم الجارية الناس وهى متلثمة فلا يعرف المصلون مَنِ الإمام الذى يصلى بهم، وبخاصة فى حضور الخليفة. وهذا لو سلمنا جدلا بأن الوليد يمكن أن يقدم على مثل ذلك التصرف، وهو ما لا يمكن أن يكون حتى لو قبلنا كل ما يرْوَى عنه من إلحاد وزندقة، إذ هناك ضوابط تحكم تصرفات الساسة فى كل عصر مهما كانت عقيدتهم التى يحتفظون بها لأنفسهم. وكان ذلك العصر- قريب عهد بعصر- المبعث، فكان للدين قدسيته فى نفوس الجماهير، ولا يستطيع أى حاكم بالغا ما بلغ طغيانه أن يكسر- هذه القدسية بمثل تلك البساطة الخرقاء المتهورة. وهبنا قَبِلْنا أن تؤم جارية بهذا الشكل المسلمين فى أهم جوامع العالم الإسلامى آنذاك لكونه الجامع الذى يصلى فيه الخليفة ذاته بشحمه ولحمه فى عاصمة ملكه، فكيف يا ترى استطاعت تلك الجارية أن تغير صوتها وهيئتها وحركاتها وتخفى بروز صدرها وأردافها بحيث يحسب المصلون وراءها أنها رجل لا امرأة؟ وهبها استطاعت ذلك، أفكانت فقيهة قرارية تعرف أحكام صلاة الجماعة بكل تفاصيلها بحيث لا تأتى تصرفا يريب المصلين ويدفعهم إلى مجادلتها والاحتكاك بها مما من شأنه أن يثير فتنة فى المسجد على الفور كما يقع فى مثل تلك الأحوال؟ ثم إن إمامة امرأة للرجال فى الصلاة قد انتظرت أكثر من أربعة عشر قرنا، واستلزمت تدخل دهاة المستشرقين والمبشرين والحاخامات ورجال المخابرات الأوربية والأمريكية وتجهيز عتاة المنحرفين والمنحرفات من أبناء المسلمين وبناتهم المرتبطين والمرتبطات بدوائر الاستعمار الغربى، ومع هذا استفز الأمر العالم الإسلامى وهاجه هياجا من أقصاه إلى أقصاه. فكيف نصدق بالله ما رواه الأصفهانى فى هذا الموضوع بما عُرِف عنه من خفة وطيش ومجون؟ وهذا من جهة المنطق العام دون الدخول فى علم الرجال والرجوع إلى أحداث التاريخ ومقابلة ما كتبه الأصفهانى بما كتبه غيره، وما إلى ذلك!

ومن ذلك أيضا قول الأصفهانى: «أخبرنى الحسن بن على الخفاف وعبد الباقى بن قانع قالا: حدثنا محمد بن زكريا الغلابى قال: حدثنى مهدى بن سابق قال: حدثنى سليمان بن غزوان مولى هشام قال: حدثنى عمر القارى بن عيد قال: قال الوليد بن يزيد يوما: «لقد اشتقتُ إلى معبد». فوجه البريد إلى المدينة فأتى بمعبد، وأمر الوليد ببركةٍ قد هُيئَتْ له فمُلِئَتْ بالخمر والماء، وأُتِى بمعبد، فأمر به، فأُجْلِس والبركة بينهما، وبينهما ستر قد أُرْخِى، فقال له: غننى يا معبد:

لَهْفِى على فتيةٍ دَلَّ الزمانُ لهم	فما أصابهمو إلا بما شاؤوا
ما زال يعدو عليهم رَيبُ دَهْرِهِمُو	حتى تفَانَوْا، ورَيبُ الدهر عَدَّاءُ
أَبْكَى فراقُهمو عَينِى وأَرَّقَها	إن التفرق للأحباب بكَّاءُ

فغناه إياه، فرفع الوليد الستر ونزع ملاءةً مطيبةً كانت عليه وقذف نفسه فى تلك البركة، فنهل منها نهلةً، ثم أُتِى بأثوابٍ غيرها، وتلَقَوَّهْ بالمجامر والطيب. ثم قال: غَنِّنى:

يا رَبْعُ، ما لك لا تجيب متيما	قد عاج نحوك زائرا ومسلِّما؟
جادَتْكَ كُلُّ سحابةٍ هَطَّالَةٍ	حتى تُرَى عن زهرةٍ متبسِّما

فغناه، فدعا له بخمسة عشر ألف دينارٍ فصبها بين يديه، ثم قال: انصرف إلى أهلك، واكتم ما رأيتَ». فبالله من أين يمكن الحصول على خمر تملأ بركة؟ وكيف تقبل نفسه أن يشرب منها بعدما تلوثت بجسده وشَعْره وسوأتيه وقدميه وملابسه مهما كان من حرصه على نظافته الشخصية؟ ثم بالله كيف يطلب من معبد كتمان ما رأى، وهو الخليع الذى لا يبالى كلام الناس طبقا لما صوروه لنا؟ وما معنى أن يطلب منه هذا الطلب، وكل الحاشية تعرف ذلك وتراه رأى العين؟ وهل يعقل أن

تهفو نفسه لسماع معبد فيرسل إليه فيستدعيه من المدينة على بعد آلاف الأميال لكى يقضى معه مجلسا غنائيا واحدا ثم يطلب منه أن يعود من حيث أتى؟

ومما يقوله صاحب «الأغاني» أيضا: «أخبرنى محمد بن خلف وكيع قال: وجدت فى كتاب عن عبيد الله بن سعيد الزهرى عن عمر عن أبيه قال: خرج الوليد بن يزيد، وكان من أصحابه على شراب، فقيل له: إن اليوم الجمعة، فقال: والله لأخطبنهم اليوم بشعر. فصعد المنبر فخطب فقال:

الحمد لله ولى الحمدِ … أحمده فى يسْرِنا والجهْدِ

وهو الذى فى الكَرْب أستعينُ … وهو الذى ليس له قرينُ

أشهد فى الدنيا وما سواها … ألّا إله غيرُه إلها

ما إنْ له فى خَلْقِه شريكُ … قد خضعتْ لملكه الملوكُ

أشهد أن الدين دين أحمدِ … فليس مَنْ خَالَفَه بمهتدي

وأنه رسول ربِّ العرشِ … القادرِ الفَرْدِ الشديدِ البطشِ

أرسله فى خلقه نذيرا … وبالكتاب واعظا بشيرا

ليظْهِر اللّهُ بذاك الدينا … وقد جُعِلْنا قبلُ مشركينا

من يطع اللّهَ فقد أصابا … أو يعْصِه أو الرسولَ خابا

ثم القُرَانُ والهُدَى السبيلُ … قد بَقِيا لَمَّا مَضَى الرسولُ

كأنه لما بَقِى لَدَيكُمو … حَى صحيحٌ لا يزال فِيكُمو

إنكـــــم، مِــــنْ بَعْـــدُ، إنْ تَزِلُّـــوا	**عــــن قصـــده أو نهجـــه تَضِـــلُّوا**
لا تتركُــنْ نصـحى، فــإنى ناصِـحُ	**إن الطريـــق، فـــاعْلَمُنَّ، واضِـــحُ**
مــن يتَّــقِ اللهَ يجــدْ غِــبَّ التُّقَــي	**يــوم الحســاب صــائرًا إلى الهُــدَي**
إن التُّقَـى أفضـل شـيءٍ فـى العمـلْ	**أرى جِمَــاع البِــرِّ فيــه قــد دخــلْ**
خــافوا الجحــيم، إخــوتى، لعلكُــمْ	**يــوم اللقـــاء تعرفـــوا مـــا سَـــرَّكُمْ**
قــد قيــل فــى الأمثــال لــو علمــتمْ	**فـــــانتفعوا بـــــذاك إن عقلـــــتمْ:**
مــا يــزرعِ الــزارعُ يومــا يحصــدُهْ	**ومـــا يقـــدِّمْ مـــن صـــلاح يحمَـــدُهْ**
فاســـــتغفروا ربكـــــم وتوبـــــوا	**فـــالموت مـــنكم، فـــاعلموا، قريـــبُ**

ثم نزل».

ترى هل يمكن أن يقتنع الإنسان بأن خليفة المسلمين، بالغا ما بلغ فسقه وتهتكه، يمكن أن يجهل أن هذا هو يوم الجمعة، الذى لا بد أن يشهد الصلاة فيه مع رعيته ويخطب فيهم؟ فكيف لم يبال الوليد مع هذا وراح يشرب، ولم يتنبه إلا بعدما قيل له ذلك؟ ولنفترض أنه فعلا تجاهل هذا وعَبَّ من الشراب عَبًّا على هذا النحو فكيف عَقَل ما قيل له عن ذلك اليوم؟ هل السكران يمكن أن يتنبه إلى أن هناك فى ذلك اليوم صلاة وأنه لا بد أن يحضرها مع الناس ويكون رده أنه سوف يخطبهم شعرا؟ إن هذا لبكلام المجان وتصرفاتهم أشبه. ونحن هنا لسنا فى موقف مجون بل فى موقف سكر وغياب عن الوعى والفهم، فكيف وعى الوليد كل هذا؟ بل كيف لم يحاول أحد ممن معه أن ينبهه إلى مغبة ما يفعل وخطره على مركزه كخليفة للمسلمين؟ بل كيف لم يتنبه المصلون إلى سكره وفقدانه الوعى وهو يصعد إلى

المنبر؟ ودَعُونا من كل ذلك، وتعالَوْا نتساءل: هل يمكن السكرانَ أن ينظم شعرا، ويكون هذا الشعر شعرا مرتجلا؟ وأن يكون الشعر الذى يرتجله وهو فوق المنبر، والوجوه مشرئبةٌ نحوه، والعيون مُتْئِرَةٌ نظرَها فيه، شعرا دينيا منظما يتناول المعانى التى يتناولها الخطباء يوم الجمعة فلا تتفكك روابط الكلام فى يديه، ودعنا من أن يخطر للوليد هذا الكلام الذى تسيل منه التقوى سيلانا؟ وهل السكران يمكنه الوقوف على المنبر دون أن يتلعثم فى الكلام ويترنح ويسقط كما يحدث مع السكارى؟ ومنذ متى كان الوليد، السكير العربيد الفاسق الماجن المتهتك المتمرد حسبما يصفونه، يستطيع أن يقول شعرا دينيا، فضلا عن أن يقوله ارتجالا، والعيون تحاصره تعد عليه أنفاسه؟ ثم أليس من الغريب، وقد بدأ الأمر كله مجونا فى مجون، ألا يزل لسان الوليد السكران ببيت أو لفظ ماجن طوال القصيدة؟ يا له من سكران عاقل تقى نقى وقور عالم بما ينبغى أن تكون عليه خطبة الجمعة وبما ينبغى أن يكون عليه تصرف المسلم، فضلا عن الخطيب، فى المسجد ذلك اليوم!

ولا ينبغى أبدا أن ننسى أن هذا الشعر لا يشبه فى شيءٍ شعر الوليد لا فى روحه ولا فى لغته، فضلا عن أن الموضوع ليس من اهتمامه أصلا. كذلك من المستغرب جدا أن يخاطب الوليد الناس، وهو الخليفة الأموى المتغطرس السكران، بقوله: «يا إخوتي». ثم هل يمكن أن يقدم الوليد على هذه الفعلة التى لم يفعلها أحد من قبل ولا من بعد، فيتلقاها المصلون ببرود ولا يحدث فى المسجد لغط وإنكار، وبخاصة أن الخطبة الشعرية المزعومة قد خلت من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، وكانت خطبة واحدة متصلة لا خطبتين يجلس بينهما الخطيب؟ وأخيرا، وليس آخرا، كيف مرت هذه الفعلة الشنعاء فلم يذكرها أحد من المؤرخين ولا العلماء الموثوقين؟ ألم يجد التاريخ أحدا يسجلها سوى الأصفهانى؟ بل إن الخطبة قد مرت دون أن تحظى بكلمة يعلق بها أحد المصلين الذين شاهدوا هذه الواقعة العجيبة. وهو أمر شاذ لا يدخل العقل أيضا. وقد توقف د. شوقى ضيف، لدن

ترجمته للوليد فى كتابه: «العصر الإسلامي»، بشأن تلك الخطبة فكان كل ما قاله أنها لو صحت لكان الوليد هو رائد استخدام المزدوجات فى النظم التعليمى.

وفى «الأغاني» كذلك: «دعا الوليد بن يزيد ذات ليلة بمصحف، فلما فتحه وافق ورقةً فيها: «واستفتحوا وخابَ كلُّ جبارٍ عنيدٍ * مِنْ ورائه جهنمُ ويسْقَى من ماءٍ صديدٍ»، فقال: أسجعًا سجعًا! ثم أخذ القوس والنَّبْل فرماه حتى مزقه، ثم قال:

أتُوعِدُ كلَّ جبارٍ عنيدٍ؟ فها أنا ذاك جبارٌ عنيدُ

إذا لاقيتَ ربَّك يومَ حشرٍ فقل للّه: مزقنى الوليدُ

والعجيب أن ينْتَظَر منا التصديق بأن الوليد استغرب ما فى القرآن من فواصل فقال مستنكرا: «أسجعا سجعا؟»، وكأنه يرى الفواصل فى القرآن لأول مرة. ثم إن الرواية لم تقل لنا لماذا استدعى بالمصحف تلك الليلة ما دام لا يؤمن به وينظر إليه بهذه العين المبغضة. وهناك رواية أخرى تقول إنه أحضر المصحف ليستفتح به، وفى رواية ثالثة: ليتفاءل به. ولكن أليس من الغريب جدا أن يستفتح أويتفاءل بالقرآن من هو كافرٌ به مُتَحَدٍّ لآياته لا يصدق ما تقول؟ إن الكافر بالقرآن المتحدى لآياته لا يمكن أن يفكر فى الالتجاء إليه كى يقرر أمره الذى التاث عليه ولا يدرى كيف يتصرف بشأنه، إذ إن الاستفتاح يدل، بالعكس من ذلك، على أن صاحبه رجل مؤمن بالقرآن وبالله، الذى أنزل هذا القرآن. فكيف يصوب إليه السهم ويعلن إلحاده وكفره؟ ثم كيف يقال إنه حين استفتح بالقرآن ظهرت له تلك الآية الكريمة؟ يا لها من مصادفة عجيبة! ثم إن المصحف لم يقل إن الوليد جبار عنيد، بل بشر الجبارين المعاندين بالخيبة والخسران، وكان بمستطاع الوليد أن يقول: الحمد لله، فهذا الكلام لا ينطبق على لأنى لست جبارا عنيدا. ألم يسبق أن قال أنصار معاوية حين قُتِلَ على أيديهم عمار بن ياسر، الذى تنبأ له الحديث بأَنْ سوف تقتله الفئةالباغية، فما كان من رجال معاوية الذين قُتِل على أيديهم إلا أن قالوا عاكسين

الأمر وَجْهًا لِقَفًا: «قتله من أخرجوه»، أى قتله على وأنصاره؟ كذلك فللوليد أبيات يفتخر فيها، ضمن مفاخر متعددة، بالنبى عليه الصلاة والسلام قائلا:

نَبِى الهُدَى خالى، وَمَنْ يكُ خالُهُ نَبِى الهُدى يعْلُ الوَرَى فى المَفَاخِرِ

ترى كيف يفاخر بانتسابه للنبى عليه السلام ويسميه: «نبى الهدي»، وفى ذات الوقت يعلن كفره بالقرآن، الذى نزل عليه ويكذّب بيوم الحشر ويتحدى الله ويجاهر بالإلحاد والتجبر على هذا النحو المفزع؟ ومما له دلالته هنا أن الوليد قد سمى ابنين من أبنائه بـ«مؤمن» و«أمة الله». فهل هذا صنيع ملحد يكفر بالله ولا يقر بربوبيته، وبخاصة أنه لا يوجد فى أسلافه من كان له هذا الاسم أو ذاك كيما يقال إنه قد سمى ابنيه بذلك إحياء لذكراه أو ذكراها لا إيمانا بالله؟ كما يبدو من غير المعقول أن يقدم الوليد على فعلة تمزيق المصحف الشنعاء، ولا تذكر الرواية رد فعل الحاضرين على تلك الفعلة؟ اللهم إلا إذا لم يكن أحد حاضرا تلك الشنعة، وفى هذه الحالة سوف يبرز على الفور السؤال التالى: فمن روى الحكاية إذن؟ وماذا كان تعليقه يا ترى؟ إن أمرا كهذا لا يمكن أن يمر بهذه البساطة وكأنه عطسة عطسها أحدهم. بل إن العطسة لتستخرج التشميت ممن يسمعها. فهل ضَرْب الوليد المصحف بالسهام أقل شأنا من عطسة؟

وبالمثل لا نستطيع أن نكفّ أنفسنا عن استغراب رَمْى الوليد للنبى فى الأبيات التالية بأنه قد زيف الوحى والقرآن زورًا وزعم أن هناك يوما آخر وحسابا وثوابا وعقابا فى الوقت الذى رأيناه يعلن افتخاره بالنبى الكريم. فهل يمكن أن يفتخر برجل يعلن هو نفسه أنه دجال كذوب يأتى بالقرآن من لدنه وينسبه إلى الله باطلا وافتراء؟ بل هل يمكن أن يعلن كفره بذلك الرسول الذى يحكم هو أمة كاملة باسمه وبسببه؟ ألم يكن يخشى الفضائح والخزى والتمرد عليه من رجاله أو من رعيته؟ أنا لا أتكلم الآن عن الإيمان بل عن السياسة. فهل كان الوليد أحمق أخطل

إلى هذا الحد؟ وهل كانت مثل تلك الأبيات تمر على المسلمين وقتذاك مرور الكرام دون أن تخلف وراءها ضجة بل عواصف وأعاصير وزلازل وبراكين؟ من الممكن بطبيعة الحال أن يكون الحاكم ملحدا فيما بينه وبين نفسه، لكن أن يعلن هذا على الملإ، وفى زمن مبكر من تاريخ الإسلام على هذه الشاكلة، فهذا ما لا يعقله العاقلون! وهذه هى الأبيات المذكورة:

تلعَّبَ بالخلائق هاشمي ... بِلَا وحى أتاه ولا كتابِ

أتُوعِدُنى الحسابَ، ولست أدري: ... أحقٌّ ما تقول من الحسابِ؟

فقُلْ لله: يمنعنى طعامي ... وقل لله: يمنعنى شرابي

وفوق هذا كله فإن الوليد يتفق مع النبى من جهة جدته لأبيه فى الانتساب إلى هاشم، فكيف لا يجد، فى التهكم بالنبى والسخرية من الوحى، إلا لقب «الهاشمي»، ذلك اللقب الذى يجمع بينهما؟ ويعلق نشوان الحميرى فى «الحور العين» على البيت الأخير قائلا: «إن هذا البيت لبُجَير بن عبد الله بن عامر بن سلمة القشيرى فى شعره الذى رثى به هشام بن مغيرة المخزومى (يقصد رثاءه له عقب مقتله فى غزوة بدر)، إلا أن الوليد قلب البيت فجعل عروضه ضربا، وضربه عروضا. وهذا قول بجير:

تُحَيى بالسلامة أُمُّ بَكْرٍ؟ ... وهل لكَ بعد رَهْطِكَ من سلامِ؟

ذَرِينِى أصطبحْ يا بَكْرُ. إني ... رأيت الموت نَقَّبَ عن هشامِ

ونقَّب عن أبيك، وكان قَرْمًا ... من الفتيان شرَّاب المُدامِ

فوَدَّ بنو المغيرة لو فَدَوْهُ ... بألفٍ من رجالٍ أو سَوَامِ

وودَّ بنو المغيرة لو فدَوْهُ ... بألفِ مدجَّجٍ وبألفِ رامِ

وكـــــائِنْ بـــالطَّوِى طَـــوِى بــــدرٍ	مــــن الفتيـــان والخيـــل الجِسَـــامِ
وكــــائِنْ بـــالطوى طـــوى بـــدرٍ	مــــن الأحســـاب والقـــوم الكـــرامِ
وكـــائن بـــالطوى طـــوى بـــدرٍ	مــــن الشِّـــيزَى تُكَلَّـــل بالسَّـــنَامِ
أيوعِـدُنا ابـن كبشـةَ أنْ سـنحيا؟	وكيــــف حيـــاةُ أصـــداءٍ وَهَـــامِ؟
أيعجــــز أن يــــردَّ المـــوت عــــني	ويحْيينـــــى إذا بَلِيـــتْ عظـــامى؟
ألا مَــــنْ مُبْلِـــغُ الـــرحمنِ عــــني	بــــأنى مفطـــرٌ شــــهرَ الصـــيامِ؟
فقُـــــلْ للّٰه: يمنعنـــــى شـــــرابي	وقـــــل للّٰه: يمنعنـــــى طعـــــامي

وكان المشركون يسمون النبى صلى الله عليه وآله وسلم: ابن كبشة، وابن أبى كبشة. وكان أبو كبشة رجلًا من خزاعة مخالفا لقريش فى عبادة الأوثان، وكان يعبد الشِّعْرَى العَبُور. وقد ذكر الله تعالى ذلك فى كتابه بقوله: «وأنه هو رب الشعري»، أى رب هذا النجم الذى يعْبَد مِنْ دُونِه. وأبو كبشة جد جد النبى صلى الله عليه وآله وسلم لأمه، وأم النبى صلى الله عليه وآله وسلم آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة، وأم وهب بن عبد مناف كبشة بنت أبى كبشة الخزاعي».

على أننى أشك فى أن يكون بجير قد قال فى أبياته:

ألا مَــــنْ مُبْلِـــغُ الـــرحمن عــــني	بــــأنى مفطـــرٌ شــــهرَ الصـــيامِ؟

إذ متى كان المشركون يتطاولون على الله سبحانه؟ لقد كانوا يعبدون الأوثان يتقربون بها إلى الله، لكنهم لم يكونوا كافرين به عز وجل. ثم لماذا يتحدى بجير شعيرة الصيام بالذات، وليس لها علاقة بغزوة بدر ولا أثارت لدى المشركين عند فرضها على المسلمين أى رد فعل، وبخاصة أنهم لم يكونوا يساكنون النبى والمسلمين

المدينة حتى يمكن أن يكون لهم رد فعل على ما يتمسك به المسلمون من أوامر دينهم ونواهيه؟ ولو كـانوا يريـدون السـخرية بشـعيرة مـن شـعائر المسـلمين لقـد كـانوا يستطيعون أن يسخروا من الصلاة، التى كان المسلمون يؤدونها منذ كـانوا فى مكـة. لكنهم لم يفعلوا، فكيف يسخرون من الصيام، الذى لم يكن قد شُرِع بعـد فى الفـترة المكية؟ بل كيف يسخرون منه، وكانوا يسكنون مكة على مبعـدة أكثـر مـن أربعمائـة كيلومتر من المدينة حيث يمارسه المسلمون حين شُرِع؟ ولا ينبغى أن يغيب عن بالنـا أن الصوم عبادة سالبة، فهى امتناع عن الطعام، ومن ثَمَّ لا تثير أحـدا لأن أحـدا لا يشاهد الصوم على عكس الصلاة مثلا، إذ يشاهد الآخرون المسلمين وهـم يؤدونهـا قائمين راكعين ساجدين قارئين جالسين على نحو لم يكونوا يعرفونه من قبل. ثم هل طالب النبى المشركين بصوم رمضان حتى يعلنوا أنهم لن يصوموا؟ إن المشـكلة مـع الكفار أنهم غير مؤمنين أصلا بالإسلام لا بهذه الشَّعِيرة وحدها. وهذا كله من شأنه أن يدفعنا إلى التريث عن تصديق كل ما جاء فى بعـض تلـك الحكايـات دون تمعـن وتمحيص.

شعراء أمويون يزعم لويس شيخو أنهم نصاري:

1- هُدْبَة بن الـخَشْرَم:

لم يحدث بتاتا أَنْ قال أحدٌ قبل لويس شيخو الراهب اليسـوعى اللبنـانى ابـن القرن التاسع عشر والقرن العشرين إن هدبة بن الخشرم الشاعر الأمـوى المعـروف كان نصرانيا. لقد أتـى شـيخو إلى نـص ورد فى «شرح ديـوان الحماسـة» للخطيـب التبريزى يقول إن هدبة وجماعة معه هاجموا صهره زيادة ليلا فقتلوه، فلما أحس بهـم ارتجز قائلا:

مــن أيــن جـاءت عــامرُ القُبُـوحِ؟ لا مرحبًـــا بأمـــة المســـيحِ

فاستخرج منه أن هدبة نصرانى لأن البيتين المذكورين يشيران إلى قبيلته عامر بأنها أمة المسيح، متجاهلا أن كل شيء فى حياة هدبة وشعره وما كُتِب عنه يؤكد أنه مسلم أصيل.

والواقع أن استخراج النتائج من النصوص بهذه الطريقة هو ضرب من العبث، والرد عليه من السهولة بمكان: فأولا متى كان المسلمون ينظرون إلى «قبيلة» واحدة من القبائل على أنهم «أمة» دين من الأديان بأكملها؟ وثانيا هل كان المسلمون فى ذلك الوقت يسمون النصارى: «أُمَّة المسيح»؟ وإذا كانوا يرَوْنهم كذلك فكيف يقولون لهم: لا مرحبا بكم؟ وهذا إن كان زيادة قائل الرجز مسلما، أما إن كان نصرانيا فكيف يعيب أمة النصارى، التى هو واحد منها؟ وأيضا كيف يدل البيت الأول على أن هدبة ومن معه نصارى؟ إن المعنى غامض، وليس من المقنع استنتاج ما استنتجه شيخو منه. وإذا كان الشيء بالشيء يذكر فلَمْ ترد عبارة «أُمَّة المسيح» فى العهد الجديد. أما إن كان المقصود هو «أَمَة المسيح» (مقابل اسم «عبد المسيح» للرجال) فمن المقصود بذلك هنا؟ وما معنى الكلام على هذا التخريج؟ وما دخل امرأة، أيا كان اسمها، فى السياق الحالى؟ ثم أين كان هذان البيتان من قبل شرح التبريزى لديوان «الحماسة» فلم يعرفهما أحد إلى أن أتى هو وذكرهما؟ ومن أى مصدر يا ترى استقى التبريزى هذين البيتين والقصة المرتبطة بهما حتى يكون بمستطاعنا تقليب الأمر فى أذهاننا على نور وهدى؟ لقد حاولت كثيرا الوصول إلى مصدر هذين البيتين، فأعيانى الأمر.

ولقد قرأت حكاية هدبة مفصلة فى عدد من الكتب منها كتاب «المغتالين من الأشراف فى الجاهلية والإسلام» لابن حبيب (ت245هـ)، وهو سابق على الخطيب التبريزى (ت502هـ) بأكثر من قرنين ونصف، وفى كتاب «الأغاني» لأبى الفرج

(ت356هـ)، وهو سابق على التبريزى بقرن ونصف، وفى كتاب «تـزيين الأشـواق فى أخبار العشاق» لداود الأنطاكى (ت1008هـ)، وهو متأخر عن التبريزى بـأكثر من خمسة قرون، فلم أجد هذين البيتين. ولنفترض أننا قد توصلنا إلى أصـل البيتـين وتيقنا أنهما صحيحان، ألا يمكن أن تكون العبارة محل التحرير هى: «لا مرحبا بأُمِّـه المسيح» مثلا، أى الممسوحة، على وزن «فَعِيل» بمعنى «مفعولة» كـ«جَـرِيح وقَتِيـل وكَحِيل»، بمعنى أنها جَبَّاء رَسْحَاء، فلا أثـداء لهـا ولا أرداف، وهـو ممـا تُهْجَـى بـه النساء ويشَنَّع به عليهن لأن المرأة حينئذ تشـبه الرجـال؟ وإن كنـت لا أفهـم وجـه ورود مثل ذلك الهجاء هنا.

ثم لو كان هدبة نصرانيا فما الذى أدخل كبار المسلمين فى الأمر كالحسين وابن جعفر وابن عمر وابن عثمان وغيرهم يجمعون له الدية مضاعفة رغبة منهم فى إنقاذة من السيف، وجَعَل المسلمين الذين يعرفون أمره ينتفضون له ويخْشَوْن أن يقاد منـه، ويجتهد والى المدينة ومعاوية بن سفيان (الخليفة) نفسه فى تأجيـل تنفيـذ الإعـدام فى هدبة بكل ما يسعفهما الشرع به، ويتبارى الناس على حفظ أشـعاره؟ وبالمقابـل أيـن البطرق والقساوسة وكبار رجال النصرانية؟ لماذا لا نرى أحـدا مـنهم فى الصـورة؟ أليس هدبة واحدا منهم يهمهم أمره ويجدون من واجبهم أن يتدخلوا لإصلاح ذات البين بينه وبين صهره حتى لا يتسع الشر، مذكرين أهل زيادة بما يقوله الإنجيل مـن أنه «إذا ضربك أحد على خدك الأيمن فأدر له خدك الأيسر»، وبهذا يحلون المشـكلة من أسهل طريق وأسرعه؟

ويمضى شيخو فى دعاواه قائلا إن الأبيات التالية التى قالها هدبـة حـين قُـدِّم للقتل تدل على الورع والتُّقَى المسيحي:

أذا العـرشِ، إنـى لائـذٌ بـك عائـذٌ ... مـن النـار ذو بَـثٍّ إليـك فقـيرُ

بغيضٌ على الظلمُ مـا لم أصبْ بـه، ... مـن الظلـم مشـعوفُ الفـؤاد نَفِـيرُ

وإنـى، وإن قـالوا: أمـيرٌ مسـلَّطٌ ... وحُجّـابُ أبـوابٍ لهـنَّ صـريرُ

لَـــأَعْلَمُ أن الأمــرَ أَمْــرُكَ: إن تَـــدِنْ فَـــرَبٌّ، وإن تغفـــرْ فأنـــت غفـــورُ

مع أن الأبيات تنفح بالأنفاس الإسلامية بدءا من قوله: «أذا العرش»، مرورا بـ«عائذٌ بك من النار» و«إليك فقير»، وانتهاء بـ«أنت غفـور». ففـى القـرآن: «رَبِّ، إنى لما أنزلتَ إلى مـن خـيرٍ فقـيرٌ»، «يـا أيهـا النـاس، أنـتم الفقـراءُ إلى الله»، «رفيـعُ الـدرجات ذو العـرش»، «إلى ذى العـرش»، «عنـد ذى العـرش»، «وهـو الغفـور الودود»، «والله غفور رحيم»، «فإن ربَّك غفور رحيم»، وفى الحـديث: «عائـذٌ بـالله مِن النَّارِ»، «أعوذ بك من النار»، أما الكتاب المقدس فليس فيه شيء من هذا ما عـدا وصف الله بـ«الغفور»، الذى لم يتكرر رغم هذا فيه سوى مرتين على حـين تكـرر فى القرآن مرارا جد كثيرة. كما أورد شيخو ما تداولته الروايات من أن هدبة أرسـل إلى السيدة عائشة رضى الله عنها لتستغفر له. فهل يعقل أن يفعل هذا نصرانى لا يـؤمن بمحمد؟ أم هل يعقل أن يصلى نصرانى قبل قتله ركعتين كـما صـنع هدبـة؟ أم هـل يعقل، لو كان هدبة نصرانيا، أن امرأة مسلمة كانت تعرفه تقول حين مر بها ليقتلوه: «فى سبيل الله شبابُك وجَلَدُك وشِعْرُك وكَرَمُك»؟ إن هـذه لا تقـال مـن مسـلم إلا لمسلم. وكان لهدبة أخت تدعى: فاطمة. فهل هناك نصارى يسمون بناتهم: فاطمة؟ وبالمناسبة فليس فى سلسلة نسب هدبة أو فى أسماء أقاربه اسـم نصـرانى قـط. أمـا «الكاهن» (اسم أحد أجداده) فليس بِاسْمٍ نصرانى كما يزعم شيخو، بـل المقصـود، فى أغلب الظن، أنه كان كاهنا من كهان العرب. وبالمناسبة لم ترد كلمـة «كـاهن» فى الكتاب المقدس بعهديه: القديم والجديد معا بوصفها اسم عَلَم قـط، وإن تكـررت فيه مرارا على أنها اسم جنس!

وفيما أورده شيخو من حكاية هدبة أيضا أنه وبعض أفراد عشيرته قد «ضربوا (أخا صهرهم) الـحَدّ» لكونه عَرَّض فى رَجَزٍ له بأن عَمَّ هدبة ابن حرام. فهل يعرف النصارى الحدود؟ كذلك نرى زيادة صهر هدبة يذكر فى شعر له كلمة «الجاهليـة»، فهل كان غير المسلمين يستعملون هذه اللفظة بهذا المعنى فى ذلـك الوقـت؟ وحـين

يقتل هدبةُ صهرَه زيادة يقبض والى المدينة على أقارب هدبة ويسجنهم بها إلى أن يسلّم هدبة نفسه للسلطات، فيطلقهم ويحبسه هو مكانهم. فمنذ متى كان غير المسلمين، وبخاصة فى ذلك الوقت المبكر من الإسلام، يدخلون مدينة الرسول، بَلْهَ تُدْخِلُهم السلطات فيها؟ وهذا كله قد أورده شيخو فى ترجمته لهدبة من كتابه: «شعراء النصرانية» مستقيا إياه من المصادر القديمة غير دارٍ أنه ينسف فكرته نسفا.

فإذا ما أتينا إلى ديوان هدبة لم نجد فيه البتة شيئا نصرانيا بينما الإسلاميات فيه كثيرة. من ذلك قوله يذكر مكة ومنى وتجمّع الحجيج عندهما داعيا خصومه إلى المنافرة هناك:

تعالَوْا إذا ضَمَّ المَنازِلُ من مِنًي	**وَمَكّةُ من كُلِّ القَبائِلِ مَنْكِبَا**
نواضِعُكُم أبناءَنا عَن بَنِيكُمُو	**عَلى خَيرِنا فى الناسِ فَرْعًا وَمَنْصِبَا**
وخَيرٍ لِجَارٍ مِن مَوَالٍ وَغيرِهِم	**إذا بادَرَ القَومُ الكَنِيفَ المُنَصَّبا**
وَأَشْرَعَ فى المِقْرَى وَفى دَعْوَةِ النَّدَي	**إذا رائِدٌ لِلقَومِ رادَ فأَجْدَبا**
وأَقْوَلِنا لِلضَّيفِ ينزِلُ طارِقًا	**إذا كُرِهَ الأَضْيافُ: أَهْلًا وَمَرحَبا**
وأَصْبَرَ فى يوْمِ الطِّعانِ إذا غَدَتْ	**رِعَالًا يبَارِينَ الوَشِيجَ المُدَرَّبا**
هُنالِكَ يعطِى الحَقَّ مَنْ كانَ أَهْلَهُ	**ويغلبُ أَهْلُ الصِّدقِ مَن كانَ أَكْذَبا**
وإن تسأموا من رِحْلَةٍ أَو تُعَجِّلوا	**إنَى الحَجِّ أُخْبِرْكُم حَدِيثًا مُطَنّبا**

وقوله يـؤمن بالقضـاء والقـدر ويعلـن إذعانـه لهـا، ويسـمى الآخـرة: «دار المستقرّ» اتباعا لقوله تعالى عنها: «إلى ربك يومئذٍ الـمُسْتَقَرّ»:

لا أرى ذا المَـــــوْتَ إلا هَيِّنًـــــا إِنَّ بَعْـــدَ المَـــوتِ دارَ الـــمُسْتَقَرّْ

اصْـــبِرَا اليـــومَ، فـــإنى صـــابِرٌ كُـــلُّ حَـــى لِقَضـــاءٍ وَقَـــدَرْ

وقوله إن التقى خير المتاع، وهو ما يذكّر بقوله جـل جلالـه: «وتـزَوَّدوا فـإن خير الزادِ التقوي»:

وأنَّ التُّقَـــى خَـــيرُ المَتـــاعِ، وإنَّمـــا نَصِـيبُ الفَتَـى مِـن مالِـهِ مـا تَمَتَّعـا

وقوله:

وأَحْبِــبْ إذا أحببـتَ حبًّـا مقاربًـا فإنــك لا تــدرى متــى أنــت نــازعُ

وأَبْغِـضْ إذا أبغضـتَ بغضًـا مقاربًـا فإنــك لا تــدرى متــى أنــت راجــعُ

الذى أخذه من قول الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم: «أَحْبِـبْ حبيبَـكَ هوْنًا ما عَسَى أنْ يكونَ بَغيضَكَ يومًا ما، وأَبْغِضْ بغيضَكَ هوْنًا ما عَسَـى أنْ يكـونَ حبيبَكَ يومًا مَا». إن الأمر هنا ليس أمر مفاضلة بين دين ودين، ولكنـه أمـر بحـث عن الحقائق التاريخية، بمعنى: هل كان هدبة بن الخشرم نصرانيا أو مسلما؟ وقد رأينا أن الشواهد والأدلة تقف فى صف إسلامه، ومع هذا يقول لويس شيخو العكس.

2- النابغة الشيباني:

جاء فى ترجمة «النابغة الشيباني» عند أبى الفرج فى «أغانيه»: «كـان، فـيما أرى نصرانيا، لأنى وجدته فى شعره يحلف بالإنجيل والرهبان وبالأيمان التى يحلـف بهـا النصاري». كما كتب عنه صلاح الدين الصفدى فى «الوافى بالوفيـات»: «وقيـل إنـه كان نصرانيا»، لكن دون أن يقول لنا من الذى يقول ذلك، وهل هو أبو الفرج فقـط

أم هل هناك أحد آخر غيره يقول هذا أيضا. وفى العصر ـ الحديث رأينا جرجى زيدان، فى الجزء الأول من «تاريخ آداب اللغة العربية»، يعده نصرانيا قولا واحدا. كما وجدنا لويس شيخو، الذى صير بالقوة الغشوم كل شعراء الجاهلية تقريبا نصارى، يلحق بهم شعراء كثيرين من المسلمين، ومنهم نابغتنا الشيبانى اعتمادا على كلمة أبى الفرج العابرة، وكلمة الصفدى التضعيفية، إضافة إلى ما قاله عبد العزيز بن مروان أخو عبد الملك الخليفة الأموى حين بلغه اقتراح الشاعر على الخليفة بإزاحة عبد العزيز من ولاية العهد وتحويلها إلى ابنه، إذ هدد عبد العزيز بأنه سوف يقتل «ابن النصرانية». لكنْ رغم وجود روايات متعددة بنسب الشاعر أوردها كلها لويس شيخو فى كتابه: «شعراء النصرانية» فالملاحظ أنه لا يوجد فى أية سلسلة منها اسم نصرانى أو اسم يشْتَمّ أنه لنصرانى. ثم إن أحدا من القدماء لم يقل عنه إنه نصرانى فعلا، بل كل ما هنالك أن الأصفهانى وجده يحلف بما يحلف به النصارى، فاستنتج أنه كان نصرانيا، إلا أنه لم يجزم بذلك ولا عضد كلامه برأى أحد آخر. كما أن الصفدى فى «الوافى بالوفيات» قد استعمل صيغة تمريضية كما رأينا، فضلا عن أنه لم يذكر أنه يوافق على ذلك ولا ساق ما يمكن أن ننظر فيه لنرى أهو نصرانى فعلا أم لا. أما عبد العزيز بن مروان فقد لقبه من باب السخط عليه بـ«ابن النصرانية»، وهو تلقيب لا يعنى فى حد ذاته أنه نصرانى بل أمه. ومعروف أن بعض زوجات النبى صلى الله عليه وسلم كن يغَرْن من أم المؤمنين صفية بنت حيى بن أخطب وينادينها: «يا يهودية بنت يهوديين» مع أنها كانت قد تركت دين آبائها وأجدادها وصارت مسلمة قوية الإيمان شديدة الحب لله ولرسول الله.

بل إننا لنرى جريرا يتهم الفرزدق المسلم بأنه هو وقومه نصارى رغم ما هو معروف من أنهم مسلمون لا يشك أحد فى ذلك أبدا ولا جرير نفسه. بَيدَ أن الخصومة الأدبية بين الشاعرين الأمويين ورغبة جرير فى الانتصار بأى سبيل على

منافسه فى ميدان الشعر قد سولت له أن يدعى ذلك على خصمه دون أن يهتز له جفن. قال:

إِنَّ الفَـرَزْدَقَ، حـينَ يـدخلُ مَسْجِدًا، رِجْـسٌ، فَلَـيسَ طَهُـورُهُ بِطَهُـورِ

رَهْـطُ الفَـرَزْدَقِ مِـنْ نَصَـارَى تَغْلِـبٍ أَوْ يـدَّعِى كَـذِبًا دَعَـاوَةَ زُورِ

حُجُّـوا الصَّـلِيبَ وَقَرِّبُـوا قُرْبـانَكُم وَحُـدُوا نَصِـيبَكُمُو مِـنَ الخِنْزِيـرِ

وعلى كل فلو كان ابن مروان يقصد ما يريد تقريره لويس شيخو لقال: «النصراني»، وليس «ابن النصرانية». ولو أخذنا الكلمة على معناها الحرفى لم تعن إلا أن أم الشاعر كانت نصرانية، وقد تكون غادرت دين النصارى إلى الإسلام.

كذلك ليس فى حياة الشاعر أى خبر يدل على أنه هو أو أيا من آبائه كان نصرانيا، كذهابه إلى الكنيسة مثلا أو تعليقه صليبا فى عنقه أو أكله الخنزير. أما حلفه بالإنجيل والرهبان فليس دليلا على نصرانيته ضرورةً، فقد يقسم بعض المسلمين بكتب الله الأخرى لسبب أو لآخر كما هو الحال فى قول أبى نواس:

بحـقِّ ديـنِ النصـاري عليـكَ فـى الأديـانِ

وبالمسـيحِ ولوقـا ويوحَنّـا المَعْمَـدانِ

وأَسْـقُفٍ عنـده السـ ـسجود للمطـرانِ

وبالشَّـعَانين في كـلِّ موضـعٍ ومكـانِ

وبالـدِّيارات مـع مَـنْ بهـا مـن السُّـكَّانِ

لَـمَّا رَحِمْـتَ اشـتكائي لِطَرْفِـك الفتّـانِ

وإلى جانب الحَلِف هناك أيضا قول السَّرِى الرَّفَّاء فى الخمر:

تمسَّكْتُ بالإنجيلِ لما أباحَها   وخالفْتُ فيها نصَّ ما فى المصاحفِ

وقول لسان الدين بن الخطيب فى الإنجيل:

لقَد رسَخَتْ آى الجَوَى فى جَوانِحِي   كَما رسَخَ الإنْجِيلُ فى قلْبِ قِسّيسِ

وقول ابن رشيق القيروانى فى حديثه عن بعض علماء الإسلام:

هَجَرُوا المضاجِعَ قانِتِينَ لِرَبِّهِمْ   طَلَبًا لِخَيرِ مُعَرَّسٍ وَمَغَانِ

وَإِذا دَجَا اللَّيلُ البَهِيمُ رَأَيتَهُمْ   مُتَبَتِّلينَ تَبَتُّلَ الرُّهْبانِ

وعلى الناحية الأخرى عندنا قول إبراهيم الأسود، وهو لبنانى نصرانى توفى عام 1938م، فى عصفور كنارى كان يسمع تغريده كل صباح ثم مات:

يا أهل لبنان الكبير، له اجعلوا   ورد الخمائل والرُّبَى أكفانا

وتسربلوا بُرْدَ الحِدَاد له أسًي   وادعوا رجال الدين والرهبانا

وابنوا الضريح له رفيعًا واقرأوا   ما فوقه الإنجيلَ والقرآنا

أما بالنسبة إلى حَلِف النابغة الشيبانى بالإنجيل والرهبان فالواقع أن لويس شيخو ذاته، الذى أمسك بكلمة أبى الفرج ليجعل منه شاعرا نصرانيا، لم يستشهد له فى «شعراء النصرانية» إلا بهذا المثال:

آلَيتُ جَهْدًا، وَصادِقٌ قَسَمِي،   بِرَبِّ عَبْدٍ تجُنُّهُ الكُرُحُ

يظل يتلو الإنجيلَ يدرسه   من خشية الله قلبه قَفِحُ

لَابْنُكَ أَوْلَى بملك والده   وعمُّه عن عصاك مُطَّرَحُ

بل إن الشيباني، في القصيدة التي أخذنا منها هذه الأبيات، يخاطب الخليفة قائلا:

تسُوسُ أَهْلَ الإِسْلامِ عُمْلَتَهُم وَأَنتَ عِنْدَ الرَحمنِ مُنتصَحُ

إِن تَلقَ بَلْوَى فَصَابِرٌ أَنِفٌ وَإِن تُلاقِ النُّعْمَى فَلَا فَرِحُ

فهل يهتم نصراني بأهل الإسلام هذا الاهتمام أو يستلهم كلام القرآن عن الصبر في البأساء والضراء؟ ومن الجهة الأخرى يوجد للشيباني شعر يمدح جبل حراء، الذى كان يتحنث فيه النبي صلى الله عليه وسلم قبيل بعثته:

وَخَيرُ المُتْهِمينَ بَنُو الأعاصي كَما خَيرُ الجِبالِ بها حِرَاءُ

كما أن له شعرا يعلن فيه إيمانه ورضاه بالقضاء والقدر، ويتحدث عن الأخوة في الله كما يفعل المسلمون:

وليس يقِيمُ ذو شَجَنٍ مقيمٍ ولا يمضى إذا ابْتُغِى المَضَاءُ

طَوَالَ الدهر إلا فى كتابٍ ومقدارٍ يوافقه القضاءُ

وكلُّ أُخُوَّةٍ فى الله تبقي وليس يدوم فى الدنيا إخاءُ

أما تعقيب لويس شيخو على البيتين التاليين له:

فسَلُوا شَيبَانَ إن فارقتُهم يوم يمشون إلى قبرى بنَعْش

هل غَشِينا مَحْرَمًا من قومنا أو جَزَينا جاريا فُحْشًا بفُحْش؟

بقوله: «ما أحسن هذا الختام! وفيه دليل واضح على نصرانية شيبان العاملين بوصية السيد المسيح وأمره بمحبة الأعداء» فالرد عليه أنهما في الواقع صدى لقول المولى تبارك وتعالى: «ولا تستوى الحسنة ولا السيئة. ادفع بالتي هي أحسن، فإذا

الذى بينك وبينه عداوةٌ كأنه ولى حميم»، «ادفع بالتى هى أحسنُ السيئة»، «ولَمَنْ صَبَرَ وغَفَرَ إن ذلك لِمِنْ عَزْم الأمور»، «وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا: سلاما»، «ولْيعْفُوا ولْيصْفَحُوا»، «فاعفوا واصفحوا حتى يأتى الله بأمره»؟ أما ما يقوله الإنجيل من وجوب إدارة الخد الأيسر لمن صفعك على خدك الأيمن فهذا شيء آخر لا وجود له هنا. ثم متى كان النصارى يتحدثون عن «المحرم» و«المحارم» كما يتحدث الشيبانى فى هذا الشعر؟

كذلك لو كان النابغة الشيبانى نصرانيا أكان يفضل صاحبته التى يشتهيها ويتغزل فى محاسن جسدها على دمية الراهب كما فى النص التالي:

رِيَحْلَةٌ إِن مَشَتْ أَرْحَتْ مَفاصِلَها فَارْتَجَّ مِن بدنِها الأَوْصالُ وَالكَفَلُ

شَمْسُ النَّهارِ وَبَدْرُ اللَّيلِ، سُنَّتُها زَينُ الحُلِى وَلا يزْرِى بِها العَطَلُ

عَجْزاءُ عَبْهَرَةٌ غَرّاءُ مُكْمَلَةٌ فى مُقْلَتَيها، وَإِنْ لم تَكْتَحِلْ، كَحَلُ

ما دُمْيةٌ ظَلَّت الرهبانُ تَعْهَدُها يومًا بِأَحْسَنَ مِنها حينَ تَغْتَسِلُ

يعْلُو مَآكِمَها فَرْعٌ لها حَسَنٌ مِنَ السُّخَامِ أَثِيتٌ نَبْتُهُ رَجِلُ

وَزانَ أَنْيابَها منها إذا ابْتَسَمَتْ أَحْوَى اللِّثاتِ شَتِيتٌ نَبْتُهُ رَتِلُ

كَأَنَّ رِيقَتَها فى مُضاجِعِها شِيبَتْ بِها الثَّلْجُ والكافورُ والعَسَلُ

وأيضا لو كان الشيبانى نصرانيا أكان يذكر عادا وثمود ذكر المؤمن بحقيقتهما، أو يصور الموت وحتميته تصوير القرآن له، أو يقول إن خير الزاد التقوى مثلما يقول القرآن، كما فى الأبيات التالية؟:

أباد الأولين وكلَّ قَرْنٍ وعادًا مثلما بادت ثمُود

ولا ينْجِي من الآجال أرضٌ يحلُّ بها ولا القصرُ المَشِيدُ

وتقوى الله خير الزاد ذخرًا وعند الله للأتقى مزيدُ

أما فى الأبيات التالية فنراه يسرد طائفة من أسماء الله الحسنى حسبما وردت فى القرآن والأحاديث:

فقلتُ وقد مرت حتوفُ بأهلها: ألا ليس شيءٌ غَيرَ رَبِّى غابِرُ

هو الباطنُ الرَّبُّ اللطيفُ مكانُه وأَوَّلُ شيءٍ ربُّنا ثم آخِرُ

كريمٌ حليمٌ لا يعَقَّب حُكْمُه كثيرُ أيادى الخير، للذنب غافرُ

وبالمثل يقتبس فى شعره آيات القرآن الكريم مما لا يمكن أن يفعله سوى مسلم:

ألا أيها الإنسان، هل أنت عاملٌ؟ فإنك بعد الموت، لا بد، ناشرُ

ألم تر أن الخير والشر فتنةٌ ذخائرُ مَجْزِى بهنَّ ذخائرُ؟

ومن يعملِ الخيراتِ أو يخْطِ خاليا يجَازَ بها أيامَ تُبْلَى السرائرُ

فإنْ عُسْرَةٌ يومًا أضَرَّتْ بأهلها أتت بعدها من غير شكٍّ مياسرُ

إنّ من يركب الفواحش سرًّا حين يخلو بسره غيرُ خالِ

كيف يخلو، وعنده كاتباه شاهداه وربُّه ذو المِحَالِ؟

فـاتق الله مـا اسـتطعتَ، وأَحْسِـنْ   إن تقـــوى الإلـــه خـــيرُ الخـــلالِ

وهل يمكن أن يفرح نصرانى بتحول الكنيسة مسجدا تتلى فيه آيات القرآن المجيد مسميا إياه: «مسجدنا»، ويتحدث عن أهلها حديثه عن أغراب لا تربطه بهم صلة، ويرى المسلمين هم أهل الدين الحقيقيين، وصلاتهم «صلاة الحق»، ويذكر نفسه بوصفه واحدا منهم فيقول: «دعا النصارى لنا»، أو يصف الكعبة بأنها «قبلتنا»، كما يفعل الشيبانى فى هذه الأبيات؟:

أَخْـــزَى طُرَيْـــدَةَ منـــه وابِـــلٌ بـــردٌ   وعســـكرٌ لم تَقُـــدْه العُـــزَّل الـــجُوفُ

مــا زال مَسْـلَمَةُ الميمــونُ يحصــرها   وركنُهـــا بثقـــال الصـــخر مقـــذوفُ

وقـد أحاطـت بهـا أبطـال ذى لجـبٍ   كمـا أحـاط بـرأس النخلـة الليـفُ

حتـى عَلَـوْا سـورها مـن كـل ناحيـةٍ   وحـان مـن كـان فيهـا وهـو ملـهوفُ

فأهلـــها بـــين مقتـــول ومســـتلَبٍ   ومنهمـــا مُوثَـــقٌ فـــى القِـــدِّ مكتـــوفُ

يـا أيهـا الأجـدع البـاكى لمسـلكهم،   هل بأسُ ربك عن من نام مصروفُ؟

دعـا النصـارى لنـا بالنصـر ضـاحيةً   واللهُ يعلـم مـا تخفـى الشراسـيفُ

قلعـتَ بِيعـتهم عـن جـوف مسـجدنا   فصخرُها عن جديد الأرض منسوفُ

كانـت إذا قـام أهـل الـدين فـابتهلوا   باتـــت تجاوبنـــا فيهـــا الأســـاقيفُ

فـــاليومَ فيـــه صـــلاةُ الحـــق ظـــاهرةٌ   وصـــادقٌ مـــن كتـــاب الله معـــروفُ

تـــرى تهاويلَـــه مـــن نحـــو قِبْلتنـــا   يلـــوح فيـــه مـــن الألـــوان تفويـــفُ

فيـــه المثـــانى وآيـــاتٌ مفصَّـــلةٌ فـــيهن مـــن ربنـــا وعـــدٌ وتخويـــفُ

أم هل يمكن أن يقول نصرانى إن الإسلام يمنعه ارتكاب الفواحش؟:

وَتُعْجِبُنــى اللَــذّاتُ ثُــمَّ يعُــوجُني وَيسْــتُرُنى عنهــا مِــنَ اللّهِ ســاتِرُ

وَيزْجُرُنـى الإِسـلامُ وَالشَّـيبُ وَالتُّقَـي وَفـى الشَّـيبِ وَالإسـلامِ للمـرءِ زاجِـرُ

أم هل يمكن أن يكون مديح نصرانى لخليفة مسلم هو أنه يقوم الليل مبتهلا لله باكيا من خشيته تاليا لكتابه؟:

وَحَبــاهُ المليــكُ تقْــوَى وَبِــرًّا وَهْــوَ مِــن سُــوسِ ناسِــكٍ وَصَّــالِ

يقطَــعُ اللَّيــلَ آهَــةً وَانْتِحَابًــا وَابْتِهَالًــــا لِلَّــــهِ أَى ابْتِهــــالِ

تــارَةً راكِعًــا، وَطَــوْرًا سُــجُودًا ذا دُمــــوعٍ تَنْهَــــلُّ أَى انْهِــــلالِ

وَلَــــهُ نَحْبَــــةٌ إِذا قــــامَ يتلْــــو سُــوَرًا بَعْــدَ سُــورَةِ «الأَنْفــالِ»

عــادِلٌ مُقْسِــطٌ وميــزانُ حَــقٍّ لَــم يحِــفْ فــى قَضــائِهِ لِلْمَــوَالي

وفى «مختصر تاريخ دمشق» لابن منظور: «قال عيسى بن عمر: كان نابغة بنى شيبان ينشد الشعر فيكْثِر، حتى إذا فرغ قبض على لسانه فقال: لأسلطنَّ عليك ما يسوؤك: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر».

3- القُطَامِي:

يقول صاحب «الأغاني»: «القُطَامِى: لقبٌ غَلَبَ عليه. واسمه عُمَير بن شُييم، وكان نصرانيا. وهو شاعرٌ إسلامى مُقِلٌّ مُجِيد». أما ابن قتيبة فلم يتعرض فى ترجمة الشاعر فى «الشعر والشعراء» إلى ديانته، بل اكتفى بذكر اسمه وأنه من بنى

تغلب فقط. وبالمثل سكت المرزبانى فى «معجم الشعراء» عن ديـن الرجـل، مكتفيـا بالقول بأنه «كان فى صدر الإسلام». وفى «سِمْط اللآلى فى شرح أمالى القـالي» لأبـى عبيد البكرى أنـه «نصرـانى شـاعر إسـلامي». وفى «خزانـة الأدب» للبغـدادى أن «القطامى كان نصرانيا فأسلم، وهو ابن أخت الأخطل النصرانى المشهور». أما ابن عساكر فى «تاريخ دمشق» فقال عن القطامى: «كان نصرانيا فأسـلم». وفى «شـعراء النصرانية» للويس شيخو: «قال أبـو الفـرج الأصـبهانى فى الأغـانى (118: 20): «وكان القطامى نصرانيا، وهو شاعر إسلامي». فقولـه: «كـان نصرـانيا» يثبتـه أولا نسبُه إلى تَغْلِبَ القبيلة المتحمسة فى دينها حتـى أيـام بنـى عبـاس. وثانيـا قرابتُـه إلى الأخطل الراسخ فى دينه النصرانى كما رأيت. والقطامى ابن أختـه. وثالثـا افتخـارُه بقومه وبحروبها ومآثرها ما يدل على مجاراته لهديها. رابعا: ولا يخلو شـعر القطـامى من إشارات إلى التوراة والكتب النصرانية (اطلب كتابنـا: «النصرـانية وآدابهـا بـين عرب الجاهلية» ص263 و271). أما قول صاحب الأغانى إنه «شـاعر إسـلامي» فليس معناه أنه صـار مسـلما بـل أنـه عـاش فى الإسـلام، ولم يبلـغ عهـد الجاهليـة كالمخضرمين. ولعل هذا الذى خـدع ابـن عسـاكر فى «تـاريخ دمشـق» فقـال عـن القطامى: «كان نصرانيا فأسلم». وهو أول من قال بذلك. وابـن عسـاكر مـن كتبـة القرن السادس للهجرة (توفى سنة 572هـ)، وعنه أخذ الذين قالوا بإسلام القطامى كعبد القادر البغدادى (فى «الخزانة» 393: 1) وصاحب «معاهد التنصيص». وقـد جنح إلى ذلك أيضا المستشرق الألمانى برث، الذى نشر ديوانـه فعَـدَّه مـن المسـلمين مستشهدا بابن عساكر. وليس فى نسخ ديوان القطامى ما يؤيده فى ذكر نسـبه، إلا أن بعض النساخ زاد ذلك على هامش نسخة مصر مستندا إلى ابن عساكر. أما ما ورد فى بعض أبيات القطامى من مدح الإسلام والمسلمين فيمكن حملـه عـلى المجاملـة كـما ترى فى شعر الأخطل». وفى «العصر الإسلامي» للدكتور شوقى ضيف أنه «من بنى الفَدَوْكَس عشيرة الأخطل، ومن ثم نشأ نصرـانيا، غـير أنـه، فـيما يظهـر، دخـل فى

الإسلام». أما د. عمر فروخ ففى ترجمة الشاعر بالمجلد الأول من كتابه: «تاريخ الأدب العربي» لم يتطرق إلى موضوع دينه مكتفيا بكتابة بيت يثنى فيه على الإسلام بالحرف البارز، وكأنه يريد أن يقول: «قفوا أمام هذا البيت وفكروا: هل يمكن أن يقوله شاعر نصرانى؟». وفى ترجمة الشاعر الموجزة التى قدمتْ بها «موسوعة الشعر العربي» الضوئية لديوانه أنه كان من نصارى تغلب فى العراق وأسلم».

أما أنا فلم أقرأ لمن قالوا عنه إنه أسلم كيف تم إسلامه. ولكن من جهة أخرى ليس صعبا ولا غريبا أن يدخل مثله فى الإسلام، ذلك الدين الذى اعتنقه المليارات من البشر منذ سطع نوره قبل أكثر من أربعة عشر قرنا حتى الآن، وفيهم الوثنى والنصرانى واليهودى والبوذى والكونفوشيوسى والشنتوى والملحد واللاأدرى وغير ذلك من المذاهب والأديان. وعلى هذا فإن اتخاذ لويس شيخو من واقع كونه ابن أخت الأخطل الشاعر النصرانى المتعصب لنصرانيته حجة لإنكار إسلامه هو أمر غير ملزم، فكم من متعصبين متشددين قد تخلَّوْا عن تعصبهم وتشددهم وأقبلوا على الإسلام بعقل غير عقلهم السابق، فما بالنا بأبناء أخواتهم أو إخوتهم مثلا؟ بل إن القطامى ليحمل على الأخطل ساخرا فى البيتين التاليين على النحو الذى كان يسخر به منه جرير: مرة مصغرا اسمه كما كان جرير يفعل حين يهاجيه، ومرة مسميا إياه: «دَوْبَلًا»، والدوبل هو الخنزير. وكانت أم الأخطل قد لقبته به وهو غلام، فكان جرير يسبه به، وها هو ذا القطامى يجرى فى أثره:

إنَّ الأُخَيطِلَ ليس الدهر مائرَهم ... أو يبعث اللّهُ عادًا أو ترى إرَما

وَدَوْبَلٌ لا يكونُ المجدُ غايتَهُ ... ولن يجدَّ إذا شيطانُه اعترما

وأنا أرى أن الرجوع إلى ديوان الشاعر بأنفسنا والنظر فيه لمعرفة دينه الذى انتهى إليه هو أحجى ما يمكن أن يتخذه باحث من مواقف لأنه لا يفيدنا فى مثل تلك القضية شيء ككلام صاحبها عن نفسه واعتقاده. فأولا ليس فى ديوان الرجل

ما يشْتَمّ منه أنه يعتقد النصرانية أبدا. بل إن القَسَم الوحيد الذى قابلته فى ديوانه لم يكن بشيء نصرانى، بل برب النُّوق التى يركبها الحاجّ فى رحلته إلى البيت الحرام، وهو ما كان كثير من شعراء المسلمين يستعملونه:

إنى حَلَفْتُ بِرَبِّ مَنْ عَمِلَتْ له حُوصُ المَطِى بكلِّ خَبْتٍ سَمْلَقِ

أما ما يقوله شيخو من أن ديوانه يشتمل على إشارات إلى التوراة والكتب الإلهية فهأنذا أورد ما قاله هو نفسه عن القطامى وأشعاره فى ذلك الكتاب: «وقال القطامى يذكر نساء النصارى فى صومهن (التاج 8: 99):

يلُذْنَ بأعقار الحياضِ كأنَّما نساءُ النصارى أصبحتْ وَهْى كُفَّلُ

... ويحسن بنا أن نروى هنا ماقال القطامى الشاعر النصرانى فى عهد بنى أمية عن نوح وسفينته (ديوانه ص84 ولسان العرب 6: 334):

وأنذركم مصايرَ قوم نوحٍ وكانت أُمَّةً فيها انتشارُ

وكان يسبّح الرحمنَ شكرًا ولله المحامدُ والوقارُ

فلمّا أنْ أراد اللهُ أمرًا مضى، والمشركون لهم جُؤَارُ

ونادى صاحبُ التنوّر نوحًا وصُبَّ عليهمُو منهُ البَوَارُ

وضَجُّوا عند جيئَتهِ وفَرُّوا ولا ينْجِى من القَدَر الحِذَار

وجاش الماءُ منهمرًا إليهم كأنَّ عَنَاءهُ خرقٌ نشارُ

وعامت وهى قاصدةٌ بإذنٍ ولولا اللهُ جارَ بها الجِوَارُ

إلى الجودِى حتى صار حجرًا وحان لذلك الغمرِ انحسارُ

فهـــذا فيـــه موعظـــةٌ وحُكْـــمٌ ولكنـــى امـــرؤٌ فِـــى افتخـــارُ

... (عبد ياسوع): وممن عرف بهذا الاسم عبد ياسـوع بـن كـرب بـن سـعد التغلبى. جاء ذكره فى شعر القطامى (ص76 من ديوانه):

وقد كنتَ تُدْعَى: «عبد ياسوع» مرة وأخلفتَ، والإخلاف من سَيئ الذِّكْرِ

ورد فى «الأغانى فى ترجمة القطـامي» (20: 128): اسـمه سـعدان بـن عبـد المسيح، الذى قُتِل فى مرج راهط (ص250)».

فأين الإشارات فى هذا الشعر إلى التوراة والكتب الإلهية؟ الواقـع أَنْ ليسـت هناك إشارة إلى شيء من ذلك. أما بيت الشاعر الذى يشير فيـه إلى نسـاء النصـارى فهو ضد شيخو لا له، إذ الشاعر بهذه الطريقة يتحدث عن نساء النصارى بوصفهن نساء غريبات عنـه. ولـو كـان نصرـانيا مـثلهن لقـال: «نسـاؤنا» مسـتعملا ضـمير المتكلمين بوصفه واحدا من النصارى أو شيئا من هذا الطراز لا «نسـاء النصـاري» بوصفهن غريبات عنه لا صلة تربطه بهن. كـما أن تشـبيه النـوق العطـاش بالنسـوة النصرانيات فى الصوم لا يخلو من نخس فيهن. أما كلامه عن عبد ياسـوع فقـد ورد فى سياق الهجاء. ولهذا مغزاه هنا.

نعم هناك ذكر لنوح والطوفان، ولكن ما قاله القطامى مستلهَمٌ كله ومقتبَسٌ فى كثير من ألفاظه وعباراته من القرآن المجيد لا من العهد القديم. وإليك البيان: ففى العهد القديم ترسو السفينة على جبل أرارات، أما فى القرآن فعلى الجودِى، وهو ما يقوله القطامى. كما أنه لا وجود فى العهد القديم للتَّنُّور بخلاف القرآن، الذى ذكره، وهو ما جرى عليه القطامى. ثم إن القرآن فى سورة «القمر» يقول: «ففتحْنا أبوابَ السماء بماءٍ منهمر»، وفى الأبيات القطامية نجد كلمة «انهمار» اتباعا لأسلوب القرآن لا العهد القديم. كما يذكر القرآن أحيانا عقب قصص الأمم السابقة أن فيها «موعظة» أو «آية» للمؤمنين، وهو ما صنعه القطامى فى آخر أبياته هنا. ولدينا أيضا

كلمة «أنذر»، التى استخدمها القطامى فى أول الأبيات المذكورة، وهى من أسلوب القرآن لا العهد القديم، كما فى قوله تعالى مثلا فى سورة «هُود»: «وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ». كذلك وَصَف القطامى خصوم نوح بـ«المشركين»، وهذا أسلوب قرآنى لا وجود له فى العهد القديم. وفى سورة «نوح» نسمعه عليه السلام يخاطب قومه: «ما لكم لا ترجون لله وقارا؟»، وهنا نجد القطامى يقول: «ولله المحامد والوقار». وبالمثل فاصطلاح «قوم نوح» اصطلاح قرآنى لا يستعمله العهد القديم أبدا. وأيضا يقول القطامى إن نوحا كان يسبِّح ربه فى الفلك ويشكره، وهو ما لا نجده فى ذلك الكتاب، أما فى القرآن فيقول عليه السلام للمؤمنين الذين اصطحبهم فى السفينة: ﴿وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾﴾ [سورة هود: الآية 41]، ويخاطب الله تعالى نوحا بقوله: ﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [سورة المؤمنون: الآية :29:28] ، وفى القرآن يقول ربه عنه: «إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا».

وإلى جانب هذا نرى شاعرنا يمدح قريشا قوم الرسول عليه السلام ويشيد بخدمتهم للإسلام معلنا إيمانه برسالة محمد عليه الصلاة والسلام ومؤكدا أنه خاتم المرسلين قائلا:

أمَّا قريشٌ فَلَن تلقاهمو أبَدًا — إِلَّا وهم خيرُ مَن يحْفَى وَينْتَعِلُ

إِلَّا وهُمْ جَبَلُ الله الذى قَصُرَتْ — عنه الجبالُ، فما ساوى به جَبَلُ

قَومٌ هُمُو ثبّتوا الإسلامَ وامتنعوا — قوم الرسولِ الذى ما بَعْدَه رُسُلُ

كما يستعمل كلمة «الجاهلية» للدلالة على فترة ما قبل الإسلام أو للدلالة على الضلال والبطلان واتباع الهوى والشهوات، وهـذا استعمال قرآنـى لا يـردده غـير المسلمين:

زمـــانَ الجاهليـــةِ كُـــلُّ حـــي	أبَرْنـــا مـــن فصـــيلتِهِ لِمَاعَـــا

***

إذ بَـــاطِلِى لم تَقَشَّـــعْ جاهليتُـــهُ	عنـــى، ولم يـــترك الـــخُلَّانُ تَقْـــوَادي

أما فى الأبيات التالية فيشير إلى هود عليه السلام إشارة المؤمن بـه، وأهـل الكتاب لا يؤمنون به، بل إنهم ليشككون فى وجـود عـاد ذاتهـا. كما يصف نوحـا بالنبى، وهو ما لا وجود له فى العهد القديم، إذ أقصى ما يقال فيه هنـاك أنـه رجـلٌ بارٌّ:

نرجـو البقـاءَ، ومـا مِـن أُمَّـةٍ خُلِقَـتْ	إلا سَـــيهْلِكُها مـــا أهلَـــكَ الأُمَمـــا
أمـــا سَـــمِعْتَ بـــأنَّ الـــريحَ مُرْسَـــلةً	فى الدهرِ كانت هَلاكَ الحى مِن إرَما
وقـــوم نـــوحٍ، وقـــد كـــانوا يقـــول لهـــم:	يـــا قـــومُ، لا تعبـــدوا الأَوثـــانَ والصَّـــنَما
فكـــذَّبوا مَـــنْ دَعَـــا للخـــير، واجتنبـــوا	مـــا قـــال، وامـــتلأت آذانُهـــم صَـــمَما
فـــلا هُمُـــو رَهِبـــوا مـــا قَـــد أظلَّهُمُـــو	ولا نَبِيهُمُـــــو عَمَّـــــى ولا كَتَمـــــا

ومن شعره أيضا:

فـــاتَّقِ اللّه مـــا اســـتطعتَ وأَحْسِـــنْ	إن تقـــــوى اللّه خـــــير الخـــــلالْ

وقد أخذ العبارة الأولى فى هذا البيت من قوله تعالى فى سورة «التغابُن»: «فاتقوا الله ما استطعتم». أما العبارة الأخرى فقريبة جدا من قوله تعالى: «وتَـزَوَّدُوا فإن خَيرَ الزادِ التقوي». كذلك استخدم شاعرنا فى البيت التالى العبارة القرآنية التى تدل على التأبيد: «إلى يوم القيامة»، وهو ما لا يقوله العهد القديم، بل يقول: «إلى (دهر/ انقضاء) الدهور» وما إليها. يقول القطامي:

فأبٌ يكونُ إلى القيامة مَجْدُهُ وأبٌ يكونُ على بَنِيهِ ضَمَانا

كما نراه يطلق، على الذين خرجوا من مصر مع موسى وهارون ونجَوْا بينما غرق فرعون ومَلَؤُه، اسم «أصحاب موسي»:

وشُقَّ البَحْرُ عن أصحابِ موسي وغُرِّقَت الفراعِنةُ الكفارُ

وهو نفسه ما يقوله القرآن فى الآية التالية من سورة «الشعراء»: «قال أصحاب موسى إنا لَمُدْرَكون». ليس هذا فحسب، بل إنى لا أستبعد أن يكون القطامى مسلما منذ البداية لا أنه كان نصرانيا وأسلم، إذ لا يوجد أى دليل على أنه كان نصرانيا أصلا، ومن الممكن أن يكون أبوه قد أسلم ثم نشأ هو فى بيت مسلم. أما قول أبى الفرج إنه كان نصرانيا فلا دليل عليه، بل هو مجرد قول مرسل. ولا يقدح فى هذا أن يكون ابن أخت الأخطل، إذ ما الذى فى ذلك من دليل على أنه كان نصرانيا مثله؟ كم وكم وكم من أبناء أخت يعتنقون ديانة غير ديانة أخوالهم، بل غير ديانة آبائهم وأمهاتهم أنفسهم!

الخطابة في العصر الأموى:

ازدهرت الخطابة فى العصر الأموى بألوانها المختلفة، ومن أشهر رجالها زياد بن أبيه والحجاج وواصل بن عطاء وأبو حمزة الشارى وغيرهم. فأما زياد بن أبيه فقد ولد بمكة فى العام الأول للهجرة، وأمه سمية، وكانت جارية للحارث بن كَلَدَة المتطَبِّب المشهور فى الجاهلية. ويقال إنه زوَّجها لواحد من عبيده اسمه أبو زياد. إلا

أنهم يقولون إن أبا سفيان اتصل بها فى الجاهلية اتصال سِفَاح، وإنه صرح يوما فى أحد المجالس بعد إسلامه أمام على بن أبى طالب بأنه هو أبوه الحقيقى، وكان زياد يخطب ساعتذاك، فأعجب به الحاضرون، وعلق عمرو بن العاص قائلا: نعم هذا الفتى لو كان أبوه قرشيا! وهنا انبرى أبو سفيان مصرحا بما صرح به. ولهذا الاضطراب فى نسبه قيل: زياد بن سمية، وفى أحسن الأحوال: زياد بن أبيه. والأولى معناها مفهوم، وهو أنه معروف الأم مجهول الأب. أما الثانية فلا تعنى شيئا فى الواقع من ناحية فض هذا الالتباس، إذ تنسبه إلى أبيه، ولكن من أبوه؟ لا تقول التسمية، كما نرى، شيئا. فكل منا هو ابن أبيه فعلا، وإلا فابن من؟ لكن العبرة ليست فى أن يقال إنه ابن أبيه، بل العبرة فى تسمية هذا الأب، وهو ما كان يشكل عقدة فى نسب زياد. وقد استلحقه معاوية بعد استقرار الأمور له عقب موت على والحسن ابنه، فجعله زيادَ بنَ أبى سفيان.

وكان زياد من أنصار على فى حياته وتولى له بعض الأعمال، وكان موفقا عظيم التوفيق، فأراد معاوية أن يكسبه إلى جانبه وأرسل إليه ومَنَّاه الأمانى، إلا أنه رفض الانضمام إلى معاوية رفضا شديدا وقال فى حقه كلاما قارصا. بل لقد ظل من أنصار ابنى على بعد مماته، لكنْ بعد تنازل الحسن عن الحكم لمعاوية اختلف الأمر، ونجح معاوية فى استقدامه أخيرا وولاه العراق وما وراءه ثم زاده بلادا أخرى فى أواسط آسيا، ثم أضاف إليها الحجاز، فنجح فى ضبط الأمور المتشعثة فى ولايته وحكمها بالحديد والنار، ونشر الرعب والفزع حتى استتبت الأمور. ويذكرون أن زيادا أول من ألف كتابا فى مثالب العرب، لكنه لم يصل إلينا. فهل يصح القول بأنه أراد أن يهين العرب جميعا ردا على ما كان يشعر به من إهانة وخزى بسبب مسألة نسبه المضطربة؟ لكن متى ألف ذلك الكتاب الذى لم يصل إلينا واقتصر علمنا به على ما تقوله الروايات الطائرة؟ هل يعقل أن يكون ألفه وهو تحت إمرة على؟ لكن هل كان على ليصمت إزاء هذا الصنيع المفحش؟ أم تراه ألفه بعد أن حل له معاوية

تلك المشكلة ولو رسميا على الأقل؟ لكن هل كان ليفكر فى العبث بهذا الجرح بعد أن توقف سيلانه وبدا وكأنه اندمل؟ ذلك أن من أهم مثالب العرب، كما زعم الكاتبون الأعاجم، أمر النسب، إذ كثيرا ما شكك أولئك المتحاملون فى الأنساب العربية، وهى أعز ما كان العربى يعتز به بين الأمم. ولا ننس أن أم زياد وأباه، أى العبد الذى زوجها منه الحارث بن كلدة، كانا غير عربيين، وهو ما شكل عقدة أخرى لزياد. بل هل كان الأمويون يتركونه يذيع مثل هذا الكتاب، وقد كانت دولتهم تتعصب للعرب؟ وهل أشار إلى ذلك الكتاب أحد من الأعاجم الذين ألفوا فى ذات الموضوع بعد ذلك؟

يقول أبو الفرج فى «أغانيه»: «أصل المثالب زيادٌ لعنه الله. فإنه لما ادَّعَى إلى أبى سفيان وعلم أن العرب لا تُقِرّ له بذلك مع علمها بنسبه ومع سوء آثاره فيهم عمل كتاب «المثالب»، فألصق بالعرب كلها كل عيب وعار وباطل، ثم ثنى على ذلك الهيثم بن عدى، وكان دعيا، فأراد أن يعُرّ أهل البيوتات تشفيا منهم. وفعل ذلك أبو عبيدة مَعْمَر بن الـمُثَنَّى، وكان أصله يهوديا، أسلم جده على يدى بعض آل أبى بكر الصديق رضى الله عنه، فانتمى إلى ولاء بنى تميم، فجدد كتاب زياد وزاد فيه. ثم نشأ عَلَّان الشعوبى لعنه الله، وكان زنديقًا ثَنَوِيا... فأبدع كتابا عمله لطاهر بن الحسين، وكان شديد التشعب والعصبية، خارجا عن الإسلام بأفاعيله. فبدأ فيه بمثالب بنى هاشم وذكر مناكحهم وأمهاتهم وصنائعهم، وبدأ منهم بالطيب الطاهر رسول الله صلى الله عليه وسلم فغمصه وذكره، ثم والى بين أهل بيته الأذكياء النجباء عليهم السلام، ثم ببطون قريش على الولاء، ثم بسائر العرب، فألصق بهم كل كذب وزور، ووضع عليهم كل خبر باطل، وأعطاه على ذلك مائتى ألف درهم فيما بلغني». لكن هل من المعقول أن يصدر كتاب زياد فى عهد الأمويين ولا يثير بينهم ولا بين رعيتهم ضجة واستنكارا؟ لكننا نقرأ فى «الأغاني» أن أحد الأشخاص «دخل على عبد الملك بن مروان، فقال له عبد الملك: هل عندك كتاب زياد فى

المثالب؟ فتلكأ، فقال له: لا بأس عليك. وبحقى إلا جئتَنى بـه. فمضى ـ فجـاء بـه، فقال له: اقرأ على. فقرأه، وجعل عبد الملك يتغيظ ويعجب مما فيه من الأباطيل، ثـم تمثل قول الشاعر:

وأجـرأ مـن رأيـتُ بظهـر غيـبٍ   علـى عيـبِ الرجـال أُولُـو العيـوبِ

ثم أمر بالكتاب فأحرق». لكـن السـؤال هـو: ألم تكـن هنـاك سـوى نسـخة واحدة من الكتاب أمر بإحراقها عبد الملك، فانتهى أمر الكتاب إلى الأبـد، ولم يعـد إلى الحصول عليه بعد ذلك من سبيل؟ وفى «سمط اللآلى فى شرح أمالى القالي» لأبى عبيد البكرى أن أصل كتاب «المثالب» لأبى عبيدة هو لزياد بـن أبيـه. وفى «أنسـاب الأشراف» للبلاذرى أن واضع كتاب «الأنساب» إنما هو عبيد الله بن زياد، أى ليس زيادا أباه. وتقول مادة «زياد بن أبى سفيان» فى «الموسوعة العربية العالميـة»: «ومـن المرجح أنه صاحب أول مؤلف فى المثالب. ويقال: إنه ألّفه ليكـون أداة فى يـد أبنائـه للدفاع عما يوجه إلى أصالتهم. وكـان الكتـاب متـداوَلًا فى القـرن الثـانى الهجـرى (الثامن الميلادى)، وقرّظه الهيثم بن عدى (ت 206هـ- 821م)، وهذب نصه أبـو عبيدة معمر بن الـمُثَنَّى (ت 208هـ- 823م)، ووردت بعض نصوصه فى «كتـاب العرب» لابن قتيبة. لكن من حقنا أن نتساءل: متى كان زياد بن أبيه يؤلف الكتب؟ لقد كان سياسيا وقائدا عسكريا وخطيبا متميزا بغـض النظـر عـن بعـض سياسـاته الفظة القاسية بعد انضمامه لمعاويـة، لكـن لم يعْـرَف عنـه تـأليف، أم تـرى «مثالـب العرب» هى بيضة الديك؟ ثم كيف يسكت بنو أمية عن وضـعه لهـذا الكتـاب فـلا يفتحون سيرته معه قط رغم خطورة ما فيه وتعارضه مع توجهاتهم؟

وكان زياد خطيبًا مِصْـقَعًا، ووصـلتنا عنـه خطـب متعـددة أشـهرها خطبتـه بالبصرة أول مقدمه واليا عليها وعلى خراسـان وسجسـتان مـن قِبَـل معاويـة عـام 53هـ، وهـى الخطبـة التـى لم يفتتحهـا بالتحميـد والصـلاة عـلى النبـى، فسـميت

بـ«البتراء» و«الشوهاء»، وإن كان قد ورد فى روايـات أخـرى أنـه قـد بـدأها فعـلا بالحمد. وأنا أرجح خلوّها منه، وأتصور أنه قصد ذلك قصدا كى يلقـى الرعـب فى القلوب ويطِيش العقول. ولا ينبغى أن ننسى فى هـذا السـياق كيـف بـدأت سـورة «التوبة» بغير بسملة، على خلاف سائر السور المائـة والـثلاث والعشرـين، إذ إن مـا فيها من تهديد للمشركين الغادرين والأمر بأخذهم بالشدة والصرامة جزاء خيانتهم للعهد الذى كان بينهم وبين المسلمين لا يناسبه أن تبدأ بالبسملة التى تذكر اسـم الله الرحمن الرحيم. وكان أهل البصرة، قبل أن يأتيهم زياد واليا، قد عُرِف عنهم الفساد والعدوان والشغب والتمرد حتـى ضـعف الأمـن، ولم يعـد الخـروج مـن البيـوت والسير فى الطرق والسفر بين البلاد مما يبعث عـلى الاطمئنـان حتـى لقـد قـرأت فى شرح «نهج البلاغة» أن الفساق كانوا يخطفـون المـرأة ليغتصـبوها لكـنهم، قبـل أن ينالوا منها مبتغاهم، يطلبون منها أن تصرخ ثلاثـا، فـإنْ خَـفَّ لنجـدتها أحـد، وإلا أَمْضَوْا ما يريدون من هتك عِرْضها.

وكتب النويرى، فى «نهاية الأَرَب فى فنون الأدب»، بشأن قصة تلـك الخطبـة والظروف التى ألقيت فيها قائلا: «قَدِم زيادٌ البصرةَ فى آخر شـهر ربيـع الآخـر مـن السنة، فدخلها والفسق فيها ظاهرٌ فـاشٍ، فخطـب خطبـة بـتراء لم يحمـد الله فيهـا، وقيل: بل حمد الله فقال: الحمد لله على إفضاله وإحسـانه، ونسـأله المزيـد مـن نعمـه وإكرامه. اللهم كما زدتنا نعمًا فألهمنا شكرًا على نعمـك فينـا. أمـا بعـد فـإن الجهالـة الجهلاء، والضلالة العمياء، والفَجْر الموقد لأهله النار البـاقى علـيهم سـعيرها، مـا يأتيه سفهاؤكم ويشتمل عليه حلماؤكم من الأمور العظام، فيثب فيها الصـغير، ولا ينحاش عنها الكبير كأن لم يسمعوا نبى الله، ولم يقرأوا كتاب الله، ولم يعلموا ما أعـد الله من الثواب الكريم لأهـل طاعتـه، والعـذاب الألـيم لأهـل معصـيته فى الـزمن السرمدى الذى لا يـزول. أتكونـون كمـن طرفـت عَينَـه الـدنيا وسـدَّت مسـامعَه الشهواتُ، واختار الفانية على الباقية، ولا تذكرون أنكم أحدثتم فى الإسلام الحدث

الذى لم تُسْبَقوا إليه مِنْ تَرْكِكم الضعيفَ يقْهَر ويؤخَذ مالـه، والضـعيفةَ المسـلوبةَ فى النهار المبصر، والعدد غير قليل؟ ألم تكن منكم نُهَاةٌ تمنع الغُوَاة عن دَلَج الليل وغارة النهار؟ قرَّبتم القرابة وباعدتم الدين! تعتذرون بغير العذر وتُغَطُّون على المختلس! كل امرئ منكم يذُبّ عن سفيهه صُنْعَ من لا يخاف عاقبة ولا يخشى مَعَادًا! ما أنـتم بالحلماء، ولقد اتبعتم السفهاء، فلم يزل بهم ما تَرَوْن من قيامكم دونهم حتى انتهكوا حُرَم الله والإسلام ثم أطرقوا وراءكم كنوسًا فى مكانس الريب! حرام على الطعـام والشراب حتى أسويها بالأرض هدمًا وإحراقًا! إنى رأيت هذا الأمر لا يصـلح إلا بما صلح به أوله: لينٌ فى غير ضعف، وشدةٌ فى غير جَبْرِية وعنف. وإنى أقسـم بـالله لآخذنَّ الولى بالمولى، والمقيم بالظاعن، والمقبل بالمـدبر، والصـحيح مـنكم فى نفسـه بالسقيم، حتى يلقى الرجل منكم أخاه فيقـول: انْـجُ سـعد، فقـد هلـك سُـعَيد، أو تستقيمَ لى قناتكم!

إن كذبة المنبر بلقـاء مشـهورة، فـإذا تعلقـتم عـلى بكذبـة فقـد حَلَّـتْ لكـم معصيتى! من بُيتَ منكم فأنا ضامن لما ذهب له. إياى ودلج الليـل، فـإنى لا أُوتَـى بمُدْلِجٍ إلا سفكتُ دمه. وقد أجلتكم فى ذلك بقدر ما يـأتى الخـبرُ الكوفـةَ ويرجـع إليكم. وإياى ودعوى الجاهلية، فإنى لا أجد أحدًا دعا بها إلا قطعـت لسـانه. وقـد أحدثتم أحداثًا لم تكن، وقد أحدثنا لكل ذنب عقوبة: فمن غرَّق قومًا غرَّقناه، ومـن حرَّق قومًا حرَّقناه، ومن نَقَب بيتًا نقبتُ عن قلبه، ومن نـبش قـبرًا دفنتُـه فيـه حيـا! فكُفُّوا عنى أيديكم وألسنتكم أَكْفُفْ عنكم يدى ولسانى. ولا يظهرُ من أحد مـنكم خلافُ ما عليه عامتكم إلا ضربتُ عنقه! وقد كانت بينى وبين أقوام إِحَنٌ فجعلـتُ ذلك دُبُرَ أذنى وتحت قدمى. فمن كان منكم محسنًا فليزدد إحسانًا، ومن كان مسـيئًا فلينزع عن إساءته. إنى لو علمت أن أحدكم قد قتله السل من بغضى لم أكشـف لـه قناعًا ولم أهتك له سـترًا حتـى يبـدى لى صـفحته، فـإذا فعـل لم أُنْظِـرْه. فاسـتأنفوا

أموركم، وأعينونى على أنفسكم. فرُبَّ مبتئس بقدومنا سيسَرّ، ومسرور بقدومنا سيبتئس.

أيها الناس، إنا أصبحنا لكم ساسَة، وعنكم ذادَة، نسوسكم بسلطان الله الذى أعطاناه، ونذود عنكم بفَيءِ الله الذى خَوَّلَناه. فلنا عليكم السمع والطاعة فيما أحببنا، ولكم علينا العدل فيما وُلِّينا. فاستوجبوا عدلنا وفيئنا بمناصحتكم لنا. واعلموا أنى مهما قَصَّرتُ عنكم فإنى لا أقصِّر عن ثلاث: لست محتجبًا عن طالب حاجة منكم ولو أتانى طارقًا بليل، ولا حابسًا رزقًا ولا عطاءً عن إِبَّانه، ولا مُجَمِّرًا لكم بعثًا. فادعوا الله بالصلاح لأئمتكم، فإنهم ساستكم المؤدبون، وكهفكم الذى إليه تأوون، ومتى يصلحوا تصلحوا. ولا تُشْرِبُوا قلوبَكم بغضَهم، فيشتد لذلك غيظكم، ويطول له حزنكم، ولا تدركوا حاجتكم، مع أنه لو استجيب لكم فيهم لكان شرًّا لكم. أسأل الله أن يعِين كُلًّا على كُلٍّ. فإذا رأيتمونى أُنْفِذ فيكم الأمر فأنفذوه على أذلاله. وايمُ اللهِ إن لى فيكم لَصَرْعَى كثيرة، فلْيحْذَرْ كل امرئ منكم أن يكون من صَرْعَاى!».

فقام إليه عبد الله بن الأهتم فقال: أشهد، أيها الأمير، أنك أُوتيتَ الحكمةَ وفَصْلَ الخِطَاب. فقال: كذبتَ، ذاك نبى الله داود عليه الصلاة والسلام. فقال الأحنف: قد قلتَ فأحسنتَ أيها الأمير. والثناء بعد البلاء، والحمد بعد العطاء. إنا لا نُثْنِى حتى نُبْتَلَى، ولا نحمد حتى نُعْطَى. فقال زياد: صدقت. فقام أبو بلال مرداس بن أُدَيَة وهو يقول: أنبأنا الله بغير ما قلت. قال الله تعالى: «وإبراهيمَ الذى وَفَّى * أَلَّا تَزِر وازرةٌ وِزْرَ أخرى * وأنْ ليس للإنسانِ إلا ما سَعَى * وأنَّ سَعْيه سوف يرَى * ثم يجْزَاه الجزاءَ الأوفي»، فأوعدَنا الله خيرًا مما أوعدتَنا يا زياد. فقال زياد: إنا لا نجد إلى ما نريد منك ومن أصحابك سبيلًا حتى نخوض إليكم الباطل خوضًا!

وقيل: إنه لما قَدِم العراقَ خطب، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «إن معاوية غير مَخُوفٍ على قومه، ولم يكن ليلْحِق بنَسَبه من ليس منه. وقد شهدتِ الشهودُ بما قد بلغكم، والحقُّ أَحَقُّ أن يتبع. والله حيث وضع البينات كان أعلم. وقد رحلتُ عنكم، وأنا أعرف صديقى من عدوى. وقد قدمت عليكم، وصار العدوُّ صديقًا مناصحًا، والصديقُ عدوًّا مكاشحًا، فاشتمل كل امرئ على ما فى صدره، فلا يكونن لسانه شفرة تجرى على وَدَجه، وليعلم أحدكم إذا خلا بنفسه أنى قد حملت سيفى بيده: فإن شَهَرَه لم أُغْمِدْه، وإن أغمده لم أَشْهَرْه»، ثم نزل.

واستعمل على شرطته عبد الله بن حصن، وأَجَّل الناسَ حتى بلغ الخبرُ الكوفةَ وعاد إليه وصول الخبر. وكان يؤخر العشاء الآخرة، ثم يصلى ويأمر رجلا، فيقرأ سورة «البقرة» أو مثلها يرتل القرآن، فإذا فرغ أمهل بقدر ما يرى أن إنسانًا يبلغ أقصى البصرة، ثم يأمر صاحب شرطته بالخروج فيخرج فلا يرى إنسانًا إلا قتله. فخرج ذات ليلة، فأخذ أعرابيا فأتى به زيادًا، فقال: هل سمعت النداء؟ قال: لا والله. قَدِمْتُ بحَلُوبَة لى، وغَشِينى الليلُ، فاضطررتُها إلى موضع، وأقمت لأُصْبِح، ولا علم لى بما كان من الأمير. قال: أظنك والله صادقًا، ولكن فى قتلك صلاح الأمة. ثم أمر به فضُرِبَتْ عنقه. وكان زياد أول من شدد أمر السلطان، وأكد الملك لمعاوية، وجرد السيف، وأخذ على الظِّنَّة، وعاقب بالشبهة، وخافه الناس خوفًا شديدًا، حتى أَمِنَ بعضُهم بعضًا، وحتى كان الشيء يسقط من الرجل أو المرأة فلا يعْرِض له أحد حتى يأتيه صاحبه فيأخذه، ولا يغلق أحد بابه، وأَدَرَّ العطاء، وبنى مدينة الرزق، وجعل الشرط أربعة آلاف. وقيل له، إن السبيل مَخُوفَة. فقال: لا أعانى شيئًا وراء المِصْر حتى أصلح المِصْر. فإن غلبنى فغيره أشد غلبة منه. فلما ضبط المصر وأصلحه تكلف ما وراء ذلك وأحكمه، وهو أول من سَيرَ بين يديه بالحراب والعمد، واتخذ الحرس خمسمائة لا يفارقون المسجد. والله أعلم».

ومن الواضح أنه كان هناك فقدان أمن شنيع، فلم يكن من سبيل إلى القضاء على تلك المشكلة إلا بالصرامة والقسوة. ولو أن الناس لم تخرج على القانون على هذا النهج الذى فاق حدود التحمل ما كانت تلك الصرامة القاسية التى خرج فيها زياد على أصول القانون، وكأن لسان حاله يقول: أنتم خرجتم على القانون ودستموه بأقدامكم، وليس لكم عندى إلا علاج من نفس النوع، وهو أن أدوس القانون كما دستموه. ولا ريب أن مرداس بن أدية كان على حق حين قال له إنه يحكم بغير ما قال الله فى كتابه من وجوب تحمل كل مذنب جريرته وحده دون أن يعاقَب عليها سواه. إلا أن زيادا رد عليه بأن سلوك الناس المتمرد على القانون هو الذى اضطره إلى ذلك، وإلا فسدت الأمور. يريد أن يقول: كيف تريدنى أن ألتزم العدل مع ناس مثلكم لا يلتزمون الحق والاستقامة؟

وبالمناسبة فمرداس هذا هو مرداس الخارجى الذى أنكر هو ورفاقه من الخوارج قبول على التحكيم مع معاوية بعدما ضغطوا عليه حتى يقبله ثم عادوا فانقلبوا على ما طلبوه منه واضطروه إليه، والذى سوف يخرج على الدولة الأموية مع أمثاله ويحاربها أيام عبيد الله بن زياد بن أبيه ويسْجَن أولا ثم يهرب من السجن ثم يدخل فى معركة مع جيش للأمويين يقوده عبيد الله هذا فينتصر أولا على الجيش الأموى، إلا أنه ينهزم هو وأصحابه بعد ذلك ويقْتَلون. وكان مرداس شاعرا وخطيبا مفوَّها من شعراء الخوارج وخطبائهم. وحين يقْتَل سوف يرثيه أمثاله من شعراء الخوارج ويتفجعون عليه تفجعا شديدا كما فعل مثلا عمران بن حطان، الذى قال فيه: «ما الناس بعدك يا مرداس بالناسِ» وأم الجرَّاح العدوية، التى هددت الأمويين بأنها وسائر الخوارج لن ينْسَوْا قتل مرداس ورفاقه أبد الدهر حتى ينتقموا لهم.

وهذا يقودنا إلى نقطة هامة، ألا وهى أن الخوارج كانوا يعيشون فى نعمة وعافية فى ظل حكم على بن أبى طالب، إلا أنهم بغبائهم وضيق أفقهم وتشددهم وتنطعهم وكونهم لا يعجبهم العجب ولا الصيام فى رجب قد شغبوا عليه وحاصروه فى كل عمل يأتيه أو يدعه متصورين أنهم يفهمون الدين أفضل منه، غير دارين أنهم، وإن صَلَّوْا كثيرا وصاموا طويلا وتنطسوا وتوسوسوا، لم يكونوا يضعون نصوص الدين مواضعها الصحيحة، فأساؤوا وأفسدوا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا. وها هم أولاء يحصدون سريعا ثمار غبائهم وتنطعهم وانغلاق عقولهم وغرورهم ونشوفة أدمغتهم وجفاف عواطفهم الإنسانية رغم ظنهم أن تدينهم حار بل ملتهب، غافلين عن أن الإسلام لا يمكن أن يؤخَذ بغير العقل، وإلا فسد أمره كله كما حدث على أيديهم. لقد قتلوا عليا، فأتاهم زياد وأمثال زياد. رفضوا الرحمة والكرامة فجاءهم من لم يرحمهم أو يكرمهم.

ويعطينا فكرة عن قلة عقلهم أنهم بعد أن انتصروا على عبيد الله بن زياد قائد جيش الأمويين ضدهم نشبت بينهم وبينه معركة أخرى حانت أثناءها صلاة الجمعة، فطلبوا هدنة ليصلوا، فوافقهم زياد حتى إذا ما انخرطوا فى الصلاة باغتهم وهم مشغولون بها فأبادهم عن بكرة أبيهم تقريبا. ولو كانوا يعقلون لما اطمأنوا إلى عدوهم ولأخذوا حذرهم جيدا حتى لا يؤْخَذوا على حين غرة فصَلَّوْا صلاة الخوف التى يعرفها الإسلام فى مثل هذه الحالة، وهى أن ينقسم المصلون فريقين: فريقا يصلى مع الإمام، وفريقا يراقب الأعداء من خلفهم حتى لا يميلوا عليهم ميلة واحدة كما جاء فى القرآن. فهم، كما ترى، يطبقون دائما بعض الإسلام ويتركون بعضه، فتأتى أحكامهم على الأشياء والأشخاص طائشة، وإلا ما قتلوا مثلا عَلِيا ولما اندمجوا كلهم أجمعين فى الصلاة لدى محاربتهم جيش الأمويين دون أن يأخذوا حذرهم كيلا يباغَتوا من جانب خصومهم فيضيعوا فى شربة ماء.

وفى الخطبة إشارة إلى أن زيادا فرض على أهل ولايته ما نسميه اليوم: «حظر التجول»، إذ منع الناسَ الخروجَ ليلًا بعد صلاة العشاء، ومَنْ لقيته الشرطة بعد ذلك فى الطريق قبضت عليه وقتلته. ولقد بلغ الأمر من التصلب فى تنفيذ حظر التجول، كما رأينا، أن وجدت الشرطة أعرابيا جاهلا يسير فى الطرقات بعد المهلة المحددة لسريان الحظر، فبسط لزياد عذره، فصدقه زياد، لكن هذا لم يضع حدا للمشكلة، التى انقلبت مأساة بناء على فهم الوالى لكيفية تسيير أمور الرعية، إذ كان من رأيه أنه، رغم اقتناعه ببراءة الشيخ الأعرابى، لا بد من قتله، وقَتَلَه فعلا حتى يبث الرعب فى النفوس فلا يخطر على بال أحد، كائنا ما كان شأنه أو حاجته إلى الخروج ليلا، أن يفكر فى ذلك. ولقد آتت خطة زياد أُكُلَها سريعا، فخاف الناس وانتهَوْا لوقتهم عن الخروج على القانون وحرصوا على الأمن تمام الحرص.

ولكن السؤال هو: ألم يكن الناس فى غنى عن هذا كله باحترام القانون والانكماش عن الفساد والشغب؟ لكن هل يمكن تغيير طبيعة البشر؟ إن البشر هكذا كانوا، وهكذا هم، وهكذا سيكونون! وكذلك نسأل: أية قيمة لأمان كهذا يفرضه السيف فرضا؟ إلا أن هذا السؤال الذى يشغل عقول الفلاسفة والمفكرين والمصلحين لا يشغل عقول العامة والجماهير، الذين كل همهم هو الأكل والشرب والأمن رغم أنهم هم أول من يخرج عليه ويعتدى عليه ويفسده، وهم أول من يضجون منه ويتَمَنَّوْن العودةَ لنِير الاستبداد هروبا من أمرٍ هُمْ صانعوه ومحدثوه. وهكذا تزداد الأمور تعقيدا كتعقيد الطبيعة البشرية التى تقف وراء هذا كله.

كذلك عندنا زياد، وقد كان فى بداءة أمره يقف فى صف على بن أبى طالب ضد معاوية فى الخلاف الذى كان ناشبا بينهما. وحاول معاوية أن يستميله، إلا أنه رفض هذه الاستمالة رفضا قاطعا، وسَبَّه وهدده بالقضاء عليه لو أَذِنَ له على رضوانُ الله عليه. ثم إنه ظل بعد مقتل على ينصر ابنيه: الحسن والحسين ولا يوافق معاوية علَى شيء مما يصنع، إلى أن تنازل الحسن ثم مات واستتبت الأمور لمعاوية، فاستأنف

هذا محاولته كسب زياد إلى صفه إلى أن نجح أخيرا، وزاد فألحقه بأبى سفيان وجعله أخاه.

والعجب من أمر زياد شديد، فقد وقف مع على بكل قواه وتحمُّسه، ونصح له خير نصح، ولم يأْلُ فى نصرته والكيد لخصمه، ثم ها هو ذا ينقلب على عقبيه بكل قواه أيضا ويسرف إسرافا بالغا فى نصرة معاوية إلى الحد الذى رأيناه فى الخطبة وفى تصرفاته على أرض الواقع تطبيقا لما هدد به الرعية، بل إنه حين ضُمَّتْ إليه الكوفة مع البصرة نزل كالمطرقة فوق رؤوس الشيعة فيها يحطمها تحطيما ويسلم كبارهم للدولة لتقتلهم، ويرحّل الآلاف منهم، وكأنه لم يكن بالأمس القريب واحدا منهم يخلص لعلى ويدافع عنه مثلهم مدافعة لا تعرف الهوادة ولا الجمجمة. فكيف ذلك؟ هذا ما لا أفهمه. قد يضطر الإنسان إلى ترك الطريق المستقيمة التى كان سائرا فيها لأنها قد سُدَّتْ فى وجهه، لكن أن ينقلب عليها ويأخذ الطريق الأخرى المعاكسة المناقضة فيعدو فيها بكل همة ونشاط غير مبال ولا متحرج فهذا ما لا أفهمه، اللهم إلا إذا قلنا إنه، حين رأى الحسن يتخلى عن الخلافة لمعاوية، لم يشأ أن يكون هاشميا أكثر من الهاشميين.

ثم لدينا أيضا استلحاق معاوية زيادا وقبوله نسبته إلى أبى سفيان والده. لقد قيل فى تخطئة هذا التصرف إنه ضد الحديث القائل: الولد للفِرَاش، وللعاهر الحَجَر. لكنى أنظر إلى ما هو أبعد من ذلك فأتساءل: كيف عُرِف أن زيادا هو ابن أبى سفيان؟ هناك رواية تقول إن أبا سفيان قد أقر بذلك يوم أثنى عمرو بن العاص على زياد لدن سماعه يخطب خطبة بليغة. وهم يذكرون أنه قد عاشر سمية أم زياد فى الجاهلية يوم كانت تشتغل بالبغاء لحساب الحارث بن كلدة. لكن كيف عرفوا أنه لا بد أن يكون ابن أبى سفيان بالذات، والبَغِى لا تعاشر رجلا واحدا؟ إننا الآن نستطيع أن نلجأ إلى اختبار الدِّى إن إيه، لكن الأمر هنالك كان يختلف تماما عما لدينا. فهذه نقطة أخرى تزيد المسألة تعقيدا. ثم كيف قبل زيادٌ الانتسابَ إلى أبى

سفيان بوصفه ابنه من الزنا؟ لقد ذكرت الروايات أن لزياد أخا أنكر عليه قبول اتهام أمه بالزنا والانتفاء من أبيه الحقيقى، عبد الحارث بن كلدة، الذى زَوَّجه من سمية فى الجاهلية. كما أنكر أحد الشعراء على معاوية الإقرار على أبيه بالزنا من سمية من خلال إلحاق زياد به. بل ذُكِر أن بعض الأمويين قد ضاقوا بما صنع معاوية وأنكروه عليه.

وفى خطبة زياد سجع وموازنة فى بعض الأحيان، وفى بعض الأحيان الأخرى لا سجع ولا موازنة، وهذا يعطيها نفسا قويا من التلقائية والطبيعية بخلاف ما لو كانت كلها من أولها إلى آخرها قائمة على التوازن والتسجيع، إذ تصير مرهِقة بعض الشيء لما يسودها من نظام مطرد قد يبعث على الملل. خذ مثلا قوله: «الجهالة الجهلاء، والضلالة العمياء»، ففيه موازنة وسجع، لكنه ينتهى عقب ذلك مباشرة على هذا النحو: «والفجر الموقد لأهله النار الباقى عليهم سعيرها» حيث لا سجع ولا اتزان. ومثله العبارة التالية له، وهى: «يأتيه سفهاؤكم، ويشتمل عليه حلماؤكم من الأمور العظام، فيثب فيها الصغير، ولا ينحاش عنها الكبير كأن لم يسمعوا نبى الله، ولم يقرءوا كتاب الله، ولم يعلموا ما أعد الله من الثواب الكريم لأهل طاعته، والعذاب الأليم لأهل معصيته فى الزمن السرمدى الذى لا يزول»: فقوله: «يأتيه سفهاؤكم ويشتمل عليه حلماؤكم» فيه سجع وموازنة، إلا أن زيادا يزيد هنا «من الأمور العظام» فيكسر التناظر الموسيقى والتركيبي... وهكذا إلى آخر الخطبة.

والغريب أنك تنظر فى الخطبة من بدئها إلى ختامها فلا تجد لفظة صعبة تحوجك إلى النظر فى المعجم، بل يقرؤها القارئ فى عصرنا هذا فلا يقابله شيء يستعصى على فهمه، وكأنه يستمع إلى خطيب من العصر الحديث. وبالمثل لا يحوجنا تركيب من تراكيب الخطبة إلى التمهل أمامه بغية محاولة فك تعقيده أو غرابته. كما تتميز عامة جمله بالقصر، أما الطويل منها فيقسمه زياد إلى عبارات قصيرة فى الغالب

فلا تكون هناك صعوبة لدى مستمعيها فى التتبع والاستيعاب. وهـذا يصـدق عـلى روايات الخطبة المختلفة، وهى روايات لا تتباعد عن بعضها البعض تباعدا جـذريا مما يدل على أن الآذان والأفئدة قد وعتها إلى درجة معقولة. وهذا طبيعى، وإلا فـإذا لم يهتم الناس بمثل تلك الخطبة العجيبة فبأى الخطب يهتمـون؟ ولا شـك أن خلـو الخطبة من الألفاظ الصعبة والتراكيب الغريبـة فى ذلـك الوقـت المبكـر مـن تـاريخ الأدب العربى يدل على قدرة بلاغية ضخمة لـدن زيـاد. وقـد ذكـر بعـض العلـماء القدامى أنك مهما استمعت إليه وهو يخطب فلن تضيق به أو تمل حديثه أبدا.

كما نرى زيادا واضعا عينه طوال الوقت على مستمعيه لا يحولها عـنهم، فهـو دائم التوجه نحوهم والمخاطبة لهم غير منشغل بـالكلام النظـرى بـل بالـدق فـوق رؤوسهم حتى يعوا جيدا ما يقول لأنه يعنى كل حرف فيه، وينوى أن يطبقـه بكـل صرامة، وهو ما فعله بحذافيره دون أدنى تردد غير واضع فى ذهنه حسابا لأى شيء أو لأى أحد سوى فرض هيبة الدولة بكل سبيل دون النظر فى حِلّ ذلك أو حُرْمَته. إنه متحمس أشد التحمس للأمويين مثلما كان متحمسا أشـد الـتحمس لعـلى أيـام عمله مع على من غير أن يفكر لحظة واحدة فى تسويغ انقلابه، إذ هو رجل عمـلى لا يريد سوى الانتصار لما يتبناه فى اللحظة الراهنة. ولسوف يكون مقتـل الحسـين بـن على على يد ابنه عبيد الله بن زياد. وهى مفارقة عجيبة! فعُبَيد الله يقتـل الحسـين بـن على، رغم أن أبا عبيد الله كان يتعصب لأبى الحسين تعصبا متصلبا. ودعنا الآن مـن أن الحسين هو ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم.

كذلك يتلاعب زياد بالكلمات خبرا واستفهاما وأمرا ونهيا وتهديـدا ووعيـدا مع بعض الوعود المطمئنة فى ثنايا ذلك هاضبا بالجُمَل كالسيل يقفـو بعضـها بعضـا دون توقف أو تلعثم أو تروية. ومن تلاعبه بالكلام أنه يقول لهم: «إنى رأيـت هـذا الأمر لا يصلح إلا بما صلح بـه أولـه: لـينٌ فى غـير ضـعف، وشـدةٌ فى غـير جَبْرِيـة وعنف» ثم يعقب على ذلك فى التو واللحظة قائلا قبل أن يطرفوا بعيـونهم: «وإنـى

أقسم بالله لآخذنَّ الولى بالمولى، والمقيم بالظاعن، والمقبل بالمدبر، والصحيح منكم فى نفسه بالسقيم، حتى يلقى الرجل منكم أخاه فيقول: انْجُ سعد، فقد هلك سُعَيد، أو تستقيمَ لى قناتكم!». فهل هذا هو اللين فى غير ضعف، والشدة فى غير عنف؟ إن هذا يذكرنى بالمسؤولين فى بعض دول العالم الثالث حين يزفون إلى الناس مثلا «بشري» غلاء الأسعار، فلا يقولون إن الأسعار سوف تغلو بل يطلقون على الأمر: تحريك الأسعار. وشتان «الغلاء» و«التحريك». لكنه التلاعب بالألفاظ!

ومن تلاعب زياد بالألفاظ أيضا قوله عن دولة الأمويين وسلطانهم إن الله هو الذى أعطاهم إياه. وهو كلام صحيح، لكنه لا ينحصر فى أمر دولة الأمويين، بل يشمل كل ما فى الكون، إذ ما من شيء إلا والله هو خالقه ومعطيه. لكن هذا لا ينفى مشيئة الإنسان، الذى خلقه الله وخلق له مشيئة هو أيضا، وإن كانت مشيئة محدودة، وجعل له القدرة على الفعل والترك فى حدود كافية بحيث يحاسب على ما تقترفه يداه بناء على هذه الاستطاعة ومداها. ولقد كان السلطان فى يد على قبل ذلك، وكان الله هو من أعطاه هذا السلطان، فلم خرج معاوية على على إذن؟ أم هو عطاء الله حين يتعلق الأمر بالأمويين، وليس عطاء الله حين يتعلق بسواهم؟ ثم هل معنى إعطاء الله عبدا من عباده السلطان أنه يجوز له أن يصنع بالناس الذين يحكمهم ما يريد، وليس لهم فى أى حال سوى السمع والطاعة لأن الحاكم هو وحده الذى يعرف مصلحتهم وما ينفعهم وما يضرهم؟

والملاحظ أيضا أن الخطبة تخلو تمام الخلو من الاستشهاد بأية آية قرآنية أو الاستناد إلى أى حديث نبوى. ليس ذلك وحسب، بل تخلو الخطبة أيضا من أى بيت شعرى، كما عَرِيتْ عن ضرب الأمثال، اللهم إلا مثلا وحيدا يتيما هو قوله: «انج سعد، فقد هلك سعيد». لقد كان كل هم زياد آنذاك هو التهديد والوعيد وإتباع الكلام بالصنيع دون تلجلج أو شفقة، ومن ثم لم يكن يبالى أن يستشهد

بقرآن أو سنة أو شعر أو مثل، بل كل جهده كان منصبا على تقرير سياسته وإعلانها للعالمين، وكفى. ومن لا يلتزم بها حرفيا فليكن مستغنيا عن رقبته.

ولا بد كذلك من الإقرار بأن الخطبة متماسكة قوية، ولا تعرف الوهن ولا التفكك ولا العثكلة ولا التردد. إنها طلقات متتابعة من زخات الرصاص المنتظمة الانطلاق، وقد أتت بالثمرة المرجوة كما قلنا، وإن كان ذلك على حساب الحرية والكرامة. إلا أننا نعود فنقول للناس آنذاك ما يقوله المثل العربى: «يدَاكَ أَوْكَتَا، وفُوكَ نَفَخَ». فلا تلومُنَّ إلا أنفسَكم. لقد كنتم فى ستر الله وعافيته، فأبيتم إلا أن تهتكوا ستر الله وأن تمزقوا عنكم عافيته، فوَكَلكم إلى اختياركم. وكما تكونوا يوَلَّ عليكم. «وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آَمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يصْنَعُونَ». إلا أن المسألة لَمَّا تنتهِ فصولا، فهناك من المنتسبين لأهل العلم من يرى أن الناس يجب عليهم السمع والطاعة حتى لو ضرب الحاكم أبشارهم، أى فعل بهم الأفاعيل، ولا يحق لهم أبدا التفكير فى تغييره بأيديهم، بل عليهم الرضا بما يصنع، وإلا كانوا آثمين يبوؤون بسخط الله. ومن ثم فزياد، فى نظر هؤلاء، على حق فيما كان يصنعه بالناس، وما دام يصلى فهنيئا له جبروته وفظاعة تصرفاته وأخذه الناس بالغشم الرهيب.

لكن الإنصاف يقتضى الإشارة إلى أن زيادا لم يقف عند هذا الحد، بل نبه الناس إلى أنه سوف يسير فيهم بالعدل ولن يحبس عن أحد حقه أو يتعسف معه. ومع هذا لا ينبغى أن يغيب عن البال ما أكده لهم من أن الله هو الذى أعطى الأمويين الدولة، فلا يحق لأحد أن يفكر بخلاف ذلك، بل عليه أن يأكل وهو ساكت دون أن ينبس ببنت شفة. إلا أن من الناس من لا يمكن أن يقبل بسياسة «انج سعد، فقد هلك سعيد»، تلك السياسة التى لا تستبصر ولا ترى أو تسمع، بل تجز رقبة كل من يقابلها متى ما وقع خطأ من أى إنسان كائنا من كان بغض النظر عَمَّنِ البريء وقتذاك أو المسيء، إذ لا وقت للسؤال عن المجرم، بل الجميع مَدِين،

ورقابهم جاهزة للتطيير فى الحال مهما كانت براءتهم. أما أصحاب العقل الجدلى فيمكنهم أن يردوا قائلين: لو أن الناس عقلوا وشكروا الله على نعمته عليهم واحترموا حاكمهم العادل الرحيم الذى يخشى ربه ولم يقتلوه لم يقع ما وقع. كذلك لو أنهم لم يخرقوا القانون وينتهجوا سياسة العصيان والفساد والعدوان ما سلط الله عليهم زيادا وأشباه زياد...

وهكذا يمكن أن نستمر فى هذا الجدل، فنذكر عيب هذا، ثم نتبعه بعيب هؤلاء حتى لا نترك أيا من الفريقين دون أن نكشف عوراته ويتضح أن التبعة تقع على كتفى الطرفين. إن هذا الوضع الذى أمامنا لم يكن ليتم لولا اشتراك الطرفين فيه، فهما كَشِقَّى المقص لا يمكن أن يقص أحدهما وحده دون الآخر. وهو نفسه ما يقال إذا انتظمت الأحوال وحسنت أمور الناس. ومع هذا فإننا لا يمكننا إلا الإعجاب بمنطق زياد حين أجاب من طلبوا منه الاشتغال بنشر الأمن والقضاء على الفساد فى الإقليم الذى كان يتولاه دفعة واحدة، إذ كان رأيه أنه منشغل الآن بالبصرة أوَّلًا، وحين ينتهى من إقرار الأمن فيها فعندئذ يمكنه الانتقال منها إلى سواها من المدن. أى أنه يتبع سياسة الخطوة خطوة بدلا من أن يفتح الباب واسعا على مصراعيه فلا يستطيع أن يغلقه بعد ذلك أبدا. ولا شك أن هذا دليل على الحزم وحسن التفكير وإحكام التخطيط والبعد عن الـهَوَج الـمُفْشِل.

وهناك أيضا الحجاج بن يوسف الثقفى، الذى ألقى خطبة تشبه خطبة زياد من فوق منبر جامع الكوفة حين أسندت إليه ولاية العراق. وكانت الفتن قد عادت إليها كرة أخرى، فبعث به عبد الملك بن مروان لِوَأْدِها، فاتجه مباشرة إلى المسجد وصعد المنبر لِتَوِّه وقد اشتمل سيفه، وتنكب قوسه، وتلثم بعمامته، ثم جلس بعض الوقت لا ينطق بحرف، مما أثار سخرية بعض الحاضرين وفكر فى أن يحذفه بالحجارة. لكنه نهض أخيرا من مجلسه فوق المنبر ودخل كالعاصفة فى خطبته، التى تذكرنا بخطبة زياد بما تحويه من تهديد ووعيد أتبعها بالتنفيذ العاجل دون تردد أو

لجلجة، وطير بعض الرقاب التى تباطأت فى التنفيذ رغم ما كان لها من عذر صادق مقنع.

وهذه هى الخطبة العاصفة وقصتها كما رواها الجاحظ فى كتاب «البيان والتبيين»: «خرج الحجَّاج يريد العراق واليا عليها فى اثنَى عشر راكبًا على النّجائب حتى دخل الكوفة فجأةً حين انتشرَ النّهار، وقد كان بشرُ بنُ مروان بَعث المهلَّبَ إلى الحَرُورية، فبدأ الحجَّاجُ بالمسجد فدخَلَه، ثم صعِدَ المنبَر وهو متلثّم بعمامةِ خَزٍّ حمراء، فقال: عَلَى بالناس. فحسِبوه وأصحابَه خوارجَ فهمُّوا به، حتّى إذا اجتمع النّاسُ فى المسجد قام فكشَفَ عن وجهه، ثم قال:

أنا ابنُ جَلَا وطَلّاعُ الثّنايا ... مَتَى أضَعِ العمامةَ تعرفوني

أمَا والله إنى لأحتملُ الشّرّ بحمْله، وأحذُوه بنَعْله، وأجزيه بمثله، وإنى لَأَرَى رؤوسًا قد أينعَتْ وحان قِطافُها، وإنِّى لَصَاحِبُها. وإنّى لأنظُرُ إلى الدِّماء تَرَقْرَقُ بين العمائم واللِّحَي.

قد شَمَّرَتْ عن ساقها فشمِّرا

ثم قال:

هذا أوانُ الشَّدِّ، فاشتدّى زِيَمْ ... قد لَفَّها الليلُ بسَوَّاقٍ حُطَمْ

ليسَ براعِى إبلٍ ولا غَنَمْ ... ولا بجزّارٍ على ظَهْرِ وَضَمْ

وقال أيضا:

قد لفّها اللَّيلُ بعَصْلَبِي ... أرْوَعَ خَرَّاجٍ من الدَّوِّي

مهاجِرٍ ليسَ بأعرابي

إنّى واللهَّ يا أهلَ العراق، والشِّقاق والنِّفاق، ومساوئ الأخلاق، ما أُغْمَزُ تَغْمازَ التِّين، ولا يقَعْقَع لى بالشِّنان. ولقد فُرِرت عن ذَكاءٍ، ولقد فُتِّشت عن تَجْرِبة، وجَرَيت إلى الغاية. إنَّ أميرَ المؤمنين كبَّ كِنانَتَه ثم عَجَم عيدانَها، فوجدنى أمَرَّها عودًا، وأصلبَها عمودًا، فوجَّهنِى إليكم، فإنَّكم طالما أَوْضَعْتُم فى الفِتن، واضطجعتم فى مراقد الضَّلال، وسننتم سُنَنَ الغَى. أمَا واللهَّ لأَلْحُوَنَّكم لَحْوَ العصا، ولَأَعْصِبَنَّكم عَصْبَ السَّلَمَة، ولَأَضْرِبَنَّكم ضَرْبَ غرائب الإبل، فإنكم لَكأهل قرية كانت آمنة مطمئنّة يأتيها رزقها رغدًا من كُلِّ مكانٍ، فكَفرتْ بأَنْعُم اللهَّ، فأذاقها اللهَّ لباسَ الجوع والخوف بما كانوا يصنعون. إنِّى واللهّ لا أَعِدُ إلّا وَفَيت، ولا أهمُّ إلّا أمضيت، ولا أَخلُقُ إلّا فَرَيت. فإياى وهذه الجماعاتِ، وقالَ وقيلَ، وما تقولون؟ وفيم أنتم وذلك؟ أمَا واللهَّ لَتَسْتَقِيمُنَّ على طريق الحقِّ أو لَأَدَعَنَّ لكلِّ رجلٍ منكم شُغْلًا فى جَسَده. مَن وجدتُ بعد ثالثةٍ من بَعْث المهلَّب سفكتُ دمه، وانتهبْتُ مالَه» ثم دخل منزله».

وفى «الأوائل» للعسكرى أن الحجاج بعد أن ألقى خطبته «دخل قصر الإمارة، وحجب الناس ثلاثة أيام، وأَذِن فى اليوم الرابع، فدخل عليه عمير بن ضابئ، فقال: أصلح الله الأمير. إنى شيخ كبير، وقد خرج اسمى فى هذا البعث. ولى ابن هو على الحرب والأسفار أقوى وأشجع عند اللقاء. فإن رأى الأمير أن يجعله مكانى فَعَل. فقال: انصرف أيها الشيخ راشدًا، وابعث ابنك بديلًا. فلما وَلَّى قال له عنبسة بن سعيد بن العاص: أيها الأمير، أتعرف هذا؟ قال: لا. قال: هو عمير بن ضابئ، الذى أراد أبوه أن يفتك بعثمان، فلم يزل محبوسًا عنده حتى أصابته الدُّبَيلَة فمات، ثم جاء هذا فوطئ أمير المؤمنين عثمان رضى الله عنه، وهو مقتول، فكسر ضلعا من أضلاعه، وأبوه الذى يقول:

هَمَمْتُ، ولم أفعل، وكِدْتُ، وليتني تركتُ على عثمانَ تبكى حلائلُهْ

فقال: على بالشيخ. فلما أُتِى به قال له: أمّا يوم الدار فتشهده بنفسك، وأمّا فى قتال الخوارج فتبعث بديلًا. إن فى قتلك لصلاحًا لأهل المصرين. يا حَرَسِى، اضرب عنقه. فضربت عنقه، فصاح البراجم على الباب، فقال: ارموا إليهم برأسه. فرُمِى به، فوَلَّوْا هاربين».

وفى الخطبة، كما نرى، استعانة بآيات القرآن الكريم. وفيها كذلك سجع وموازنة وترادف وإكثار من الصور البلاغية، وهى صور حادة عنيفة تبثّ الفزع فى القلوب بَثًّا. كما يستشهد فيها صاحبها بالشعر، ويقتبس ما يردده الناس فى حواراتهم اليومية تمثيلا للحال التى يصف. وجمله قصيرة أو مقسمة إلى عبارات قصيرة. ولسانه قاطع لا يبالى ما يقول، فهو يشتم أهل العراق شتما جارحا يسلخ الجلود ويفرى اللحوم، ويتهمهم بما يخرجهم من الدين ببساطة شديدة. والخطبة مفعمة بحديث الحجاج عن نفسه، وحديثه عن نفسه مفزع بشع كله تهديد وقعقعة لم يتوان أن يرِى الناس آثارهما، فحسم الداء وقضى عليه. وقد رأينا كيف اعتمد الأسلوب المسرحى عند صعوده على المنبر ليلقى خطبته لفتا للأنظار والأسماع وإحداثا للمباغتة المطيرة للعقول الناخبة للقلوب. وفضلا عن هذا وذاك وذلك نجده قد أتبع القول بالفعل حتى قذف الوهل فى النفوس، فكف الناس عن الفساد، رعبا لا اقتناعا. والمهم أنه قد أقر الأمور بعدما كانت الفتن تموج موجا. ولست أقصد أننى راض عن منهاجه، لكنى أنظر إلى الأمر بعين رجل الدولة الذى كلفه الخليفة بالقضاء على أسباب الاضطراب، فقضى عليها.

ولدينا كذلك واصل بن عطاء، وهو أحد الخطباء الوعاظ المتكلمين أيام الأمويين، ومات فى آخر دولتهم. وكان بارعا فى الخطابة مشهورا برباطة الجأش وقوة الإرادة وطول الأناة حتى لقد استطاع تجنب لُثْغَة قبيحة كانت فى لسانه، فظل يجاهدها حتى استطاع تحاشى كل كلمة بين حروفها راء مستبدلًا غيرها بها، سواء فى ذلك خطبه المحفوظة أو المرتجلة أو المحادثات أو المحاورات بينه وبين أشباهه من

العلماء وفى حضرة كبار الدولة. وقال د. شوقى ضيف فى كلامه عن الخطباء فى العصر الأموى إن الخطبة التى ألقاها واصل خاليةً تماما من حرف الراء لا يمكن أن تكون مرتجلة على البديهة على عكس ما يقال عن براعته فى ارتجال أية خطبة على الفور دون أن يسهو أو ينسى أو يخطئ فيضمنها راء، بل لا بد أن يكون قد أعدها مسبقا. وأشار الجاحظ إلى أن بعض خطبه يحتمل أن يكون سابق التجهيز، إلا أن مواقفه الجدالية وردوده العفوية كانت هى أيضا خالية من الراء، وهو ما لا يمكن أن يكون معدا سلفا. ومع هذا فليس من المستبعَد أن يكون قد ارتجل تلك الخطبة بعدما استحصدت مِرَّتُه فى هذا الجانب نتيجة لكثرة المرانة وطول الدُّرْبة ما دام الجاحظ قد ذكر أنه كان يصنع ذلك فى محاوراته مع خصومه، وفى ردوده العفوية على أصدقائه.

يقول الجاحظ فى «البيان والتبيين»: «لما علم واصلُ بنُ عطاء أنّه ألثغُ فاحش اللَّثَغ، وأنّ مَخْرج ذلك منه شنيع، وأنه إذ كان داعيةَ مقالةٍ، ورئيسَ نحلة، وأنّه يريد الاحتجاج على أرباب النحل وزعماء الملل، وأنّه لا بُدَّ له من مقارعَة الأبطال، ومن الخطب الطِّوال، وأنّ البيان يحتاج إلى تمييزٍ وسياسة، وإلى ترتيب ورياضة، وإلى تمام الآلة وإحكام الصنعة، وإلى سهولة المخرج وجَهارة المنطق، وتكميل الحروف وإقامة الوزن، وأنّ حاجة المنطق إلى الحلاوة كحاجته إلى الجزالة والفخامة، وأن ذلك من أكثر ما تُسْتَمال به القلوب، وتُثْنَى به الأعناق، وتُزَين به المعانى، وعلِمَ واصلٌ أنهّ ليس معه ما ينوب عن البيان التامّ واللسان المتمكِّن والقوة المتصرِّفة كنحو ما أعطى اللهَّ تبارك وتعالى نبيه موسى عليه السلام من التوفيق والتسديد، مع لباس التَّقوى وطابَعِ النبوة، ومع المِحْنة والاتساع فى المعرفة، ومع هَدْى النبيين وسَمْت المرسَلين، وما يغَشِّيهم اللهَّ به من القَبول والمهابة... ومع ما أعطى اللهُ تبارك وتعالى موسى عليه السلام من الحجَّة البالغة، ومن العلامات الظاهرة، والبرهانات الواضحة، إلى أن حلّ الله تلك العقدة وأطْلَقَ تلك الحُبْسة، وأسقط تلك المحنة،

ومن أجْل الحاجة إلى حُسْن البيان، وإعطاء الحروف حقوقَها من الفصاحة رامَ أبو حذيفةَ إسقاطَ الراء من كلامه، وإخراجَها من حروفِ منطقِه، فلم يزل يكابِد ذلك ويغالبُه، ويناضله ويساجله، ويتأتَّى لسَتْره والراحةِ من هُجْنته، حتَّى انتظم له ما حاول، واتَّسق له ما أمَّل. ولولا استفاضةُ هذا الخبرِ وظهورُ هذه الحال حتّى صار لغرابته مثلًا، ولطَرافته مَعْلَمًا، لما استجزَنْا الإقرارَ به، والتأكيدَ له. ولستُ أَعْنِى خُطَبَه المحفوظة ورسائله المخلَّدة، لأنَّ ذلك يحتمل الصَّنعة، وإنما عَنَيتُ محاجَّةَ الخصوم ومناقَلَةَ الأكْفاء ومفاوَضَةَ الإخوان...

وكان واصلُ بن عطاءٍ قبيحَ اللُّثغة شنيعَها، وكان طويلَ العنق جِدا. ولذلك قال بَشَّارٌ الأعمي:

مـا لِى أُشَايعُ غَزَّالًا له عنقٌ كنِقْنِقِ الدَّوِّ إن وَلَّى وإن مَثلا؟

عُنْقَ الزَّرافةِ، ما بالى وبالُكُمُو؟ أتُكْفِرون رجالًا أَكْفَروا رَجُلا؟

فلما هجا واصلًا وصوَّب رأى إبليسَ فى تقديم النَّار على الطِّين، وقال:

الأرض مُظْلِمةٌ، والنارُ مُشْرِقةٌ والنار معبودةٌ مُذْ كانت النارُ

وجعل واصلَ بنَ عطاءٍ غَزَّالًا، وزعَم أنَّ جميعَ المسلمين كفَروا بعد وفاة الرسول، فقيل له: وعلى أيضًا؟ فأنشد:

وما شَرُّ الثلاثةِ، أمَّ عمرٍو، بصاحبك الذى لا تَصْبَحينا

قال واصلُ بن عطاءٍ عند ذلك: أمَا لهذا الأعمى الملحِد المُشنَّف المُكَنَّى بـ«أبى معاذ» مَنْ يقتله؟ أما واللهَّ لولا أن الغِيلة سجِيةٌ من سجايا الغالية لبعثْتُ إليه من يبْعَج بطنه على مضجعه، ويقتُله فى جوف منزلِه وفى يوم حَفْله، ثم كان لا يتولَّى ذلك منه إلا عُقَيلى أو سَدُوسِى. قال إسماعيل بن محمّدٍ الأنصارى وعبد الكريم بن رَوْح الغِفَارى: قال أبو حفص عُمَر بن أبى عثمان الشَّمَّرِى: ألا تَريان كيف تجنَّب

الراء فى كلامه هذا، وأنتما، لِلَّذى تريان من سلامته وقلة ظهور التكلُّف فيه، لا تَظُنّان به التكلّف، مع امتناعه من حَرْفٍ كثير الدَّوران فى الكلام؟ ألا تريانِ أنّه حين لم يستطعْ أن يقول: «بشَّار، وابن بُرد، والمرعَّث» جعل «المشنَّف» بدلًا من «المرعَّث»، و«الملحِد» بدلًا من «الكافر»، وقال: لولا أنّ الغِيلة سجيةٌ من سجايا «الغالية»، ولم يذكر «المنصورية ولا المُغِيرِية» لمكان الراء، وقال: «لَبَعَثْتُ» من يبعج بطنه، ولم يقل: «لأرسلتُ إليه»، وقال: عَلَى «مضجعه»، ولم يقل: على «فراشه». وكان إذا أراد أن يذْكُر «البُرّ» قال: القمح أو الحنطة... قال قُطْرُب: أنشدنى ضِرَار بن عمرو قولَ الشاعر فى واصل بن عطاء:

ويجعل «البُرَّ» قمحًا فى تصرُّفه وجانبَ الراءَ حتّى احتال للشَّعَرِ

ولم يطِقْ «مَطَرًا»، والقول يعجِلُه فعاذَ بـ«الغيث» إشفاقًا من المَطرِ

قال وسألت عُثمانَ البُرّى: كيف كان واصلٌ يصنع فى العدد؟ وكيف كان يصنع بعشرةٍ وعشرين وأربعين؟ وكيف كان يصنع بالقَمَر والبدر ويوم الأربعاء وشهر رمضان؟ وكيف كان يصنع بالمحرم وصفر وربيع الأول وربيع الآخِر وجمادى الآخِرة ورجب؟ فقال: ما لى فيه قولٌ إلا ما قال صفوان:

مُلَقَّنٌ مُلْهَمٌ فيما يحاولهُ جَمٌّ خواطرُه جوّابُ آفاقِ

... وكان بشَّارٌ كثيرَ المديح لواصِل بن عطاء قبل أن يدين بَشَّارٌ بالرَّجْعة ويكفِّرَ جميع الأمَّة. وكان قد قال فى تفضيله على خالِد بن صفوانَ وشبيبِ بن شَيبَة والفضل بن عيسى، ويومَ خطَبوا عند عبد الله بن عمر بن عبد العزيز والى العراق:

أبا حُذَيفَةَ، قد أُوتِيتَ مُعْجِبَةً فى خُطْبَةٍ بَدَهَتْ من غير تقديرِ

وإنَّ قولًا يروق الخالِدَين معًا لَمُسْكِتٌ مُخْرِسٌ عن كلّ تحبيرِ

لأنه كان، مع ارتجاله الخطبَة التى نزع منها الراء، كانت مع ذلك أطولَ من خطبهم. وقال بشّار:

تكلَّفُوا القولَ، والأقوامُ قد حَفَلوا وحَبَّروا خُطَبًا ناهِيكَ من خُطَبِ

فقام مرتجِلًا تغلى بداهتُه كمِرْجَل القَين لما حُفَّ باللَّهب

وجانَبَ الراءَ لم يشْعُرْ بها أحدُ قبل التصفُّح والإغْراق فى الطّلبِ

وقال فى كلمة له يعنى تلك الخطبة:

فهذا بَدِيهٌ لا كتحْبيرِ قائلٍ إذا ما أراد القولَ زَوَّرَه شَهْرَا »

وهذه خطبة واصل بن عطاء المنزوعة الراء: «الحمد لله القديم بلا غاية، والباقى بلا نهاية، الذى علا فى دنوِّه، ودنا فى علوِّه، فلا يحويه زمان، ولا يحيط به مكان، ولا يؤُودُه حِفْظُ ما خَلَق، ولم يخلقه على مثالٍ سَبَق، بل أنشأه ابتداعا، وعدَّله اصطناعا، فأحسن كل شيء خلقه، وتمم مشيئته، وأوضح حكمته، فدل على ألوهيته، فسبحانه لا معقِّب لحكمه ولا دافع لقضائه. تواضع كل شيء لعظمته، وذل كل شيء لسلطانه، ووَسِع كلَّ شيء فَضْلُه، لا يعْزُب عنه مثقالُ حَبَّة، وهو السميع العليم. وأشهد ألا إله إلا الله وحده إلها. تقدست أسماؤه، وعظمت آلاؤه، وعلا عن صفات كل مخلوق، وتنزَّه عن شبيه كل مصنوع، فلا تبلغه الأوهام، ولا تحيط به العقول ولا الأفهام، يعْصَى فيحْلُم، ويدْعَى فيسْمَع، ويقبل التوبة من عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون. وأشهد شهادة حق، وقول صدق، بإخلاص نية، وصحة طَوِية، أن محمد بن عبد الله عبدُه ونبيه، وخالصتُه وصفيه، ابتعثه إلى خلقه بالبينة والهدى ودين الحق، فبلَّغ مَأْلُكَتَه، ونصح لأمته، وجاهد فى سبيل الله لا تأخذه فى الحق لومة لائم، ولا يصده عنه زَعْمُ زاعم، ماضيا على سنته، موفيا على قصده حتى أتاه اليقين. فصلى الله على محمد وعلى آل محمد أفضل وأزكى، وأتم

وأنمى، وأجل وأعلى صلاة صلاها على صفوة أنبيائه، وخالصة ملائكته، وأضعاف ذلك. إنه حميد مجيد.

أوصيكم، عباد الله، مع نفسى بتقوى الله، والعمل بطاعته، والمجانبة لمعصيته، وأَحُضُّكم على ما يدْنِيكم منه، ويزْلِفكم لديه، فإن تقوى الله أفضل زاد، وأحسن عاقبة فى معاد. ولا تُلْهِينَّكم الحياةُ الدنيا بزينتها وخُدَعها، وفَوَاتِن لذاتها وشهوات آمالها، فإنها متاعٌ قليلٌ، ومدةٌ إلى حين، وكل شيء منها يزول. فكم عاينتم من أعاجيبها، وكم نصبتْ لكم مِنْ حبائلها، وأهلكتْ مَنْ جَنَح إليها، واعتمد عليها. أذاقتهم حلوا، ومزجت لهم سما. أين الملوك الذين بَنَوُا المدائن، وشيدوا المصانع، وأوثقوا الأبواب، وكاثفوا الحجّاب، وأعدوا الجياد، وملكوا البلاد، واستخدموا التلاد؟ قبضتهم بمخلابها، وعضتهم بأنيابها، وعاضَتْهم من السعة ضيقا، ومن العزة ذلا، ومن الحياة فناء، فسكنوا اللحود، وأكلهم الدود، وأصبحوا لا تشهد إلا مساكنهم، ولا تجد إلا معالمهم، ولا تحس منهم من أحد، ولا تسمع لهم نَبْسًا. فتَزَوَّدوا، عافاكم الله، فإن أفضل الزاد التقوى، واتقوا الله يا أولى الألباب لعلكم تفلحون. جعلنا الله وإياكم ممن ينتفع بمواعظه، ويعمل لحظِّه وسعادته، وممن يستمع القول فيتَّبع أحسنه. أولئك الذين هداهم الله، وأولئك هم أُلُو الألباب. إن أحسن قصص المؤمنين، وأبلغ مواعظ المتقين، كتاب الله الزاكية آياته، الواضحة بيناته. فإذا تُلِى عليكم فأنصتوا له واسمعوا لعلكم تفلحون. أعوذ بالله القَوِى، من الشيطان الغَوِى. إن الله هو السميع العليم. ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ [سورة الإخلاص: الآية1: 4]. نفعنا الله وإياكم بالكتاب الحكيم، والوحى المبين، وأعاذنا وإياكم من العذاب الأليم، وأدخلنا وإياكم جنات النعيم».

ومن خطباء العصر الأموى المشهورين أبو حمزة الشارى، واسمه المختار بن عوف. وُلِد بالبصرة. وهو من الخوارج الإباضية، وكان عنيف العبارة قاسى الحكم

لا يوَرِّى ولا يدَاجِى، شأنه فى ذلك شأن الخوارج عموما. خرج على مروان بن محمد آخر خلفاء الأمويين بعد أن ظل يذهب للحج كل عام يحث الناس على حربه، ثم اشتبك بقواته أخيرا فى معركة مع جيشه، فدارت الدائرة عليه، وانهزم وقُتِل. ومما خطب به أهلَ المدينة الخطبةُ التاليةُ التى حمل فيها عليهم وعنَّفهم وسفَّههم وشكك فى دينهم. وتتسم بقصر الجمل وتوازنها واستعمال الترادف والسجع والمقابلة فى كثير من الأحيان، واستيحاء العبارة القرآنية بين الحين والحين. والألفاظ والعبارات والتراكيب سهلة منسابة لا عنت فيها. ويضع أبو حمزة الشارى نفسه فى موضع أعلى من موضع مخاطبيه، فهو يحكم حكما شديدا عليهم وعلى مذهبهم، راميا إياهم بالتفلت من الدين، ومؤكدا لهم أنهم شر خلف لخير سلف. قال بعد أن حمد الله وأثنى عليه: «يا أهل المدينة، مالى رأيتُ رسم الدين فيكم باقيا، وآثاره دارسة، لا تقبلون عظة، ولا تفقهون من أهله حجة؟ قد بَلِيتْ فيكم جِدَّتُه، وانطمستْ عنكم سُنَّتُه. تَرَوْن معروفه منكرا، والمنكر من غيره معروفا. إذا انكشفت لكم العِبَر، وأوضحت لكم النُّذُر، عَمِيتْ عنها أبصارُكم، وصَمَّتْ عنها أسماعُكم، ساهين فى غمرة، لاهين فى غفلة، تنبسط قلوبكم للباطل إذا نُشِر، وتنقبض عن الحق إذا ذُكِر، مستوحشةً من العلم، مستأنسةً بالجهل، كلما وقعت عليها موعظة زادتها عن الحق نفورا. تحملون قلوبا فى صدوركم كالحجارة أو أشد قسوة من الحجارة. أَوَلَمْ تَلِنْ لكتاب الله الذى لو أُنْزِل على جبل لرأيتَه خاشعا متصدعا من خشية الله؟ يا أهل المدينة، ما تُغْنِى عنكم صحةُ أبدانكم إذا سقمت قلوبكم؟ إن الله قد جعل لكل شئ سببا غالبا ينقاد له ويطيع أمره، وجعل القلوب غالبة على الأبدان. فإذا مالت القلوب ميلا كانت الأبدان لها تبعا. وإن القلوب لا تلين لأهلها إلا بصحتها، ولا يصححها إلا المعرفة بالله وقوة النية ونفاذ البصيرة. ولو اسْتَشْعَرَتْ تقوى الله قلوبُكم لاسْتُعْمِلَتْ فى طاعة الله أبدانُكم.

يا أهل المدينة، داركم دار الهجرة ومثوى رسول الله لـمّا نَبَتْ به دارُه، وضـاق به قرارُه، وآذاه الأعداء، وتجهمت له الأقرباء، فنقله الله إليكم، بل إلى قومٍ لَعَمْرِى لم يكونوا أمثالكم، متوازرين مع الحق عـلى الباطـل، مختـارين الآجـل عـلى العاجـل، يصبرون للضراء رجاء ثوابها، فنصرـوا الله وجاهـدوا فى سـبيله، وآوَوْا رسـول الله ونصروه واتبعوا النور الـذى أُنْـزِل معـه، وآثـروا الله عـلى أنفسـهم ولـو كـان بهـم خصاصة. قال الله تعالى لأمثالهم ولمن اهتدى بهداهم: ومَنْ يوقَ شُحَّ نفسِه فأولئـك هم المفلحون. وأنتم أبناؤهم، ومَنْ بَقِى مِـنْ خَلَفِهـم، تتركـون أن تقتـدوا بهـم، أو تأخذوا بسنتهم، عُمْى القلوب صُـمّ الآذان. اتبعـتم الهـوى، فـأرداكم عـن الهـدى وأسهاكم. فلا مواعظ القـرآن تزجـركم فتزدجـرون، ولا تعظكـم فتعتـبرون، ولا توقظكم فتستيقظون. لَبِئْس الخَلَفُ أنتم من قومٍ مَضَوْا قبلكم مـا سِرْتُـمْ بسـيرتهم، ولا حفظتم وصيتهم، ولا احتذيتم مثالهم. لو شُقَّتْ عنهم قبورهم فعُرِضَتْ عليهم أعمالكم لعجبوا كيف صُرِف العذابُ عنكم.

يا أهل المدينة، أَوَّلُكم خـيرُ أوّلٍ، وآخِـرُكم شرُّ آخِـرٍ. إنكـم أطعـتم قـراءكم وفقهاءكم فاختانوكم عن كتابٍ غيرِ ذى عِوَجٍ بتأويل الجاهلين، وانتحال المبطلـين، فأصبحتم عن الحق نائين، أمواتا غير أحياء وما تشـعرون. يـا أهـل المدينـة يـا أبنـاء المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان، ما أصحَّ أصلَكم، وأَسْـقَمَ فـرعَكم! كان آباؤكم أهل اليقين، وأهل المعرفة بالدين، والبصائر النافذة، والقلوب الواعيـة، وأنتم أهل الضلالة والجهالة. استعبدتْكم الدنيا فأذلتْكم، والأمانى فأَضَلَّتْكم. فـتح الله لكم باب الدين فسددتموه، وأغلق عنكم باب الدنيا ففتحتموه. سِرَاعٌ إلى الفتنة، بِطَاءٌ عن السُّنَّة، عُمْى عن البرهان، صُمٌّ عن العرفان، عبيد الطمـع، حلفـاء الجـزع. نِعْمَ ما ورَّثكم آباؤكم لو حفظتموه! وبئس ما تورِّثون أبناءكم إن تمسكوا بـه! نصرـ الله آباءكم على الحق، وخَذَلَكم على الباطل. كان عدد آبائكم قليلا طيبـا، وعـددكم

كثير خبيث. اتبعتم الهوى فأرداكم، واللهوَ فأسهاكم، ومواعظُ القرآن تزجركم فلا تزدجرون، وتعبِّركم فلا تعتبرون».

الرسائل فى العصر الأموى:

كثرت الرسائل الرسمية فى ذلك العصر واشتهر كثير من رجاله فى ذلك المجال. ومنهم عبد الحميد الكاتب (ت132هـ). جاء فى «الموسوعة العربية العالمية» أنه «عبد الحميد بن يحيى مولى العلاء بن وهب القرشى، من أعلام الكتاب فى القرن الثانى للهجرة، فارسى الأصل عربى الولاء. نشأ فى الأنبار أو الشام على خلاف بين المؤرخين. وظهر فى بداية أمره مساعدًا لصهره سالم صاحب ديوان الرسائل فى عهد الخليفة هشام بن عبد الملك، ثم عمل بعد ذلك كاتبًا لمروان بن محمد والى أرمينيا وأذربيجان، ثم عمل أخيرًا كاتبًا أول للدولة الأموية على عهد مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية. ولكنه قُتِل مع خليفته على يد العباسيين عندما تَوَلَّوُا الحكم. ويعَدّ عبد الحميد من أبرز الكتاب فى تاريخ النثر العربى، فهناك شبه إجماع بين المؤرخين والنقاد على أنه كان صاحب مدرسة جديدة فى كتابة الرسائل فى النثر العربى عمادها ما يلى: 1- الازدواج، أى إيراد عبارات متعددة متقاربة فى المعنى لتوكيد فكرته، ولإشاعة جو من التنغيم الموسيقى الجميل فى كتاباته. 2- الإطناب فى رسائله. 3- الإطالة فى تحميداته. 4- الإكثار من الوصف بالحال. 5- قِصَر الفواصل على طريقة الخطابة. 6- توسيع أغراض الرسائل لتشمل بعض الأغراض التى كانت قبله خاصة بالشعر، مثل التعزية والتهنئة والنصح والوصف وغيرها. وقد تأثر بهذه المدرسة عدد كبير من الكتاب الذين جاؤوا بعده... ويعَدّ عبد الحميد أبلغ كتاب الدواوين فى العصر الأموى حتى صارت بلاغته مضرب المثل، فقد قيل: فُتِحَتِ الرسائلُ بعبد الحميد، وخُتِمَتْ بابن العميد». وبالرغم من أننا لا نملك ديوانًا خاصًّا برسائله إلا أن كتب الأدب قد حفظت لنا قدرًا طيبًا من رسائله الديوانية والإخوانية لعل من أهمها:

1- رسالته إلى الكُتّاب، وفيها يبدو تأثره بما أُثِـرَ مـن وصـايا ملـوك الفـرس لكتابهم. 2- رسالته التى كتبها إلى عبد الله بن مـروان عـلى لسـان أبيـه. 3- رسـالته فى وصف الصيد والشطرنج. 4- رسالته إلى أهله وهو منهزم مع مروان بن محمد».

وقد قيل إن ثقافته فارسية يونانية. لكنى أرى على العكس من ذلك أن ثقافتـه عربية إسلامية. ذلك أن له رسالة وجهها إلى أمثاله من الكتاب ينصحهم بالاستفادة من القرآن والحديث والأشـعار العربيـة وأيـام العـرب، وهـذه كلهـا ثقافـة عربيـة إسلامية، وإن كان قد أضاف إلى ذلك أيام العجم أيضا، إلا أنها تـأتى عـلى هـامش العناصر الأصيلة السابقة. كما اشتغل الرجل محفظ قرآن زمنا طويلا قبـل أن يكـون كاتبا. ولا ننس أنه كان كاتبا عند الأمويين، وكان وفيا لهم إلى آخـر رمـق فى حياتـه، ومعروف أن الأمويين ذوو نزعة عروبية لا أعجمية. وفى رسـالة لـه كتـب بهـا عـن مروان بن محمد إلى فِرَق العرب حين فـاض العجـم مـن خراسـان بشـعار السـواد قائمين بالدولة العباسية: «فلا تمكِّنوا ناصية الدولة العربية، من يد الفئة الأعجميـة، واثبتوا ريثما تنجلى هذه الغمرة، ونصحو من هذه السكرة، فسينضب السيل، وتمحى آية الليل، والله مع الصابرين، والعاقبة للمتقين». فهو، كما نرى، ينحـاز إلى العـرب ودولتهم ضد الأعاجم. بل لقد آثر أن يقْتَل مع آخر خلفاء بنى أميـة عـلى أن يسـلم نفسه، بناء على نصـيحة هـذا الخليفـة، إلى العباسـيين، الـذين أدنَـوْا مـنهم الفـرس واستفادوا بهم فى إسقاط الدولة الأموية، إذ رأى أن هذا غدر لا يليق، وأن الناس فى أسوإ الأحوال لن تفهم أنه إنما فعل هذا بناء على نصيحة سيده، ومن ثم يلصقون به العار إلى الأبد.

أما بالنسبة لما قاله د. شوقى ضيف عن استفادة عبد الحميد من أدب الفـرس الأخلاقى فى نصحه للكتاب بمراعاة ما بينهم من أخوة فكيف نسى، رحمـه الله، مـا أكده الإسلام من أخوة المؤمنين وواجباتها وتبعاتها؟ قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ

عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ١١ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتٗا فَكَرِهۡتُمُوهُۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٞ رَّحِيمٞ ١٢ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ١٣﴾ سورة الحُجُرات: الآيـة10: 13] ، ﴿...وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ ....﴾ [سـورة المائـدة: الآيـة 2]، ﴿.. وَأَن تَعۡفُوٓاْ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۚ وَلَا تَنسَوُاْ ٱلۡفَضۡلَ بَيۡنَكُمۡ ... ﴾ [سـورة البقـرة: الآيـة 237]»، ﴿ وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا وَكُنتُمۡ عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنۡهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ١٠٣ وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ١٠٤ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخۡتَلَفُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ١٠٥ ﴾ [سورة آل عمران: الآية 105:103]

وقال ﷺ للمسلمين: «لا تحاسَدوا ولا تَناجَشوا ولا تباغَضوا ولا تـدابَروا، ولا يبعْ بَعْضُكُم علَى بَيعِ بعضٍ، وكونوا عبـادَ الله إخوانًـا. المسـلمُ أخـو المسـلمِ: لا يظلِمُهُ ولا يخذلُهُ ولا يحقِرُهُ... بحَسْبِ امرئٍ منَ الشَّرِّ أن يحقِـرَ أخـاهُ المُسـلمَ. كـلُّ المسلمِ علَى المسلمِ حرامٌ: دمُهُ ومالُهُ وَعِرْضُهُ»، «إيـاكُم والظَّـنَّ، فـإنَّ الظَّـنَّ أَكـذَبُ الحديثِ، ولا تحسَّسـوا ولا تجسَّسـوا ولا تَناجَشـوا ولا تحاسَـدوا ولا تباغَضـوا ولا تدابَروا، وَكونوا عِبادَ اللهَّ إخوانًا»، «انصر أخاك ظالما (أى امنعه عن ظلم الآخـرين) أو مظلوما»، «المسلمون تتكافأُ دمـاؤهم، ويسـعى بـذمَّتِهم أدنـاهم، ويـردُّ علـيهم أقصاهم، وهم يدٌ على من سواهم»، «من نفَّسَ عن مسلمٍ كُرْبَةً مِن كُرَبِ الدُّنيا نفَّسَ اللهُّ عنهُ كربةً مِن كُرَبِ يومِ القيامةِ، ومن يسَّرَ على مُعْسِرٍ فى الـدُّنيا يسَّرَ اللهُّ عليـهِ فى الدُّنيا والآخرةِ، ومن سَترَ على مُسلمٍ فى الدُّنيا سترَ اللهُّ علَيهِ فى الدُّنيا والآخـرةِ، واللهُّ

فى عونِ العَبْدِ ما كانَ العَبْدُ فى عونِ أخيهِ»، «المـؤمنُ للمـؤمنِ كالبنيـان يشُـدُّ بعضُـه بعضًا». ولا ننس أن من أول ما صنعه النبى عليـه السـلام لـدى مقدمـه إلى المدينـة إخاءه بين المسلمين، ذلك الإبـداع النبـوى العظـيم، بـما ترتـب عليـه مـن حقـوق وواجبات كان لها دور خطير فى تمتين العلاقات بين أفراد الأمة الوليدة لم يخطر عـلى بال أحد قبل اتخاذه صلى الله عليه وسلم تلك الخطوة العبقرية. وإذا كان الإسلام قد أوصى بمراعاة أخوة الإيمان العامة فأَحْرِ به أن ينـادى بمراعـاة الأُخُـوَّات الخاصـة كأُخُوَّة أهل الصنعة الواحدة وأهل الحى الواحد وأهل القبيلة الواحدة وما إلى هذا!

فكيف نترك ذلك كله ونذهب نبحث عن أساس دعوة عبد الحميد فى الأدب الفارسى، وهو المسلم الذى تشرب الثقافة الإسلامية وتشبع بها أيما تشبع، ونشـأ فى الإسلام، إذ كان مسلما من أب مسلم ومن جد مسلم على الأقل، فهو عبـد الحميـد بن يحيى بن سعد كما جاء فى «البداية والنهاية» لابن كثير، أى أنه لم يكن مجوسيا يوما حتى يقال إنـه تلقـى فى صـباه وشـبابه ثقافـة فارسـية، ولم يعـرف الثقافـة العربيـة الإسلامية إلا على كبر؟ بـل إن المسـعودى المـؤرخ الرحالـة المشـهور، وهـو عربـى صميم من سلالة الصحابى الجليل عبد الله بن مسعود، يذكر لعبد الحميد فى كتابـه: «التنبيه والإشراف» نسبا عربيا طويلا ينتهى به إلى لؤى بن غالب على النحو التـالى: «عبد الحميد بن يحيى بن سعد بن عبد الله بن جابر بن مالك بن حجر بن مَعِيص بن عامر بن لُؤَى بن غالب». وعلى كل حال فـإن عبـد الحميـد قـد نضـج فى الإسـلام وخدم الإسلام، وأخلص للدولـة الأمويـة ذات النزعـة العروبيـة وتشربـب اللغـة العربية والثقافة العربية الإسلامية وملك ناصيتها وزمامها.

كذلك يتحدث د. شوقى ضيف عن انتشار الازدواج فى رسائل عبد الحميـد بوصفه سمة تميز أسلوبه. لكن ينبغى أن نعرف، إلى جانب هذا، أن الازدواج منتشر فى كثير من الخطب والكتابات العربية القديمة. ولنأخذ مثالا على ذلك رسالة خالد بن الوليد إلى ملوك فارس، إذ جرت على النحو التالى: «بسم اللهّ الرحمن الرحيم: من

خالد بن الوليد إلى ملوك فارس، أما بعد، فالحمد للهّ الـذى حـلّ نظـامكم، ووهَّـن كيدكم، وفرق كلمتكم، ولو لم يفعل ذلك بكـم كـان شرا لكـم. فـادخلوا فى أمرنـا ندعكم وأرضكم، ونجوزكم إلى غيركم، وإلا كان ذلك وأنتم كارهون عـلى أيـدى قوم يحبون الموت كما تحبون الحياة».

وعندنا كذلك رسالة قَطَرِى بن الفُجَـاءة إلى الحجـاج حـين بعـث هـذا إليـه برسالة يهدده ويحقّره فيها، فرد عليه ابن الفجاءة بقوله: «من قطرى بـن الفُجـاءة إلى الحجَّاج بن يوسف، سلام على الهُدَاة من الوُلاة الذين يرْعَـوْن حـرِيمَ الله ويرْهَبـون نِقَمه. فالحمدُ لله على ما أظهَرَ من دينـه، وأظْلَـعَ بـه أهـل السِّـفَال، وهـدَى بـه مـن الضَّلال، ونصَرَ به عند استخفافك بحقِّه. كتبتَ إلى تذكرُ أنّى أعرابـى جِلـفٌ أمِّـى أستطعم الكِسْرة وأستشفى بالتَّمرة، ولعمرى يا ابنَ أمّ الحجَّاج إنَّك لُمتَيهٌ فى جِبِلّتك، مُطْلَخِمٌّ فى طريقتك، واهٍ فى وثيقتك، لا تعرف اللهَ ولا تَجْزَع مـن خطيئتـك. يئسـتَ واستيأستَ من ربِّك، فالشَّيطانُ قرينُـك، لا تجاذبُـه وَثاقَـك، ولا تنازِعُـه خِناقَـك. فالحمدُ لله، الذى لو شاء أبرز لى صـفحتَك، وأوضَـح لى صَـلْعَتَك. فوَالـذى نَفْـسُ قطرى بيده لعَرَفْتَ أنَّ مقارعَةَ الأبطال لـيس كتصـدير المقـال، مـع أنـى أرجـو أن يدْحِضَ اللهُ حُجَّتَك، وأن يمنحنى مُهْجَتَك». وقطرى سابق على عبد الحميد كما هو معروف. بل كان بعض الخطباء يعْنَوْن بالازدواج فى خطبهم كما هو الحال فى خطبـة زياد بن أبيه المشهورة بـ«البتراء»، إذ فيها كثير من العبـارات المزدوجـة كـما شـاهدنا قبلا.

وإذا كان د. شوقى ضيف يذكر لعبد الحميد أنـه جعـل النثـر يـؤدى وظيفـة الشعر فى الرثاء والوصف وما إلى ذلك فعندنا قبل ذلك مثلا رسالة الحجاج إلى عبد الملك بن مروان يصف فيها كيف هطل المطر من بعد جفاف فحَيتْ به الأرضُ بعـد موتها. ولا ينبغى أن يفوتنا ما فى الرسالة من الازدواجات الجميلة أيضا: «أمّـا بعـدُ فإنّا نخبر أميرَ المؤمنين أنَّه لم يصب أرضَنا وابلٌ منذ كتبتُ أخبره عن سُـقْيا اللهَّ إيانـا

إلَّا ما بلَّ وجهَ الأرض من الطَّشّ والرشّ والرّذاذ حتّى دَقِعَت الأرض واقشعرَّتْ واغبرَّتْ، وثارت فى نواحيها أعاصير تذرو دماق الأرض من تُرابها، وأمسك الفلّاحون بأيديهم من شِدّة الأرض واعتزازها وامتناعها، وأرضُنا أرضٌ سريعٌ تغيرها، وشيكٌ تنكُّرها، سَيئٌ ظَنٌّ أهلها عند قُحوط المطر حتّى أرسل اللهُ بالقَبول يوم الجمعة، فأثارت زِبْرِجًا متقطِّعًا متمصِّرًا، ثم أعقبَتْه الشَّمال يومَ السبت فطَحْطَحت عنه جَهَامَه، وألَّفَتْ متقطِّعَه، وجمعت متمصِّره حتَّى انتضَدَ فاستوى، وطَمَا وطحا، وكان جونًا مُرْثَعِنًّا قريبًا رواعده، ثم عادت عوائده بوابلٍ منهملٍ منسجلٍ يردُف بعضُه بعضًا، كلّما أردف شؤبوب أردفَته شآبيبُ لشدة وقعه فى العِرَاص. وكتبتُ إلى أمير المؤمنين وهى ترمى بمثل قِطَعِ القُطن قد ملأ اليبَاب، وسدَّ الشِّعاب، وسَقَى منها كلّ ساقٍ. فالحمد للهَّ الذى أنزل غيثَه، ونشر رحمتَه من بعد ما قَنطوا، وهو الولى الحميد. والسلام».

وها هو ذا أنس بن مالك هو أيضا يصف فى النص التالى شيئا قريبا مما وصفه الحجاج: «أصاب أهلَ المدينةِ قحطٌ على عهدِ رسولِ الله ﷺ ، فبينا هو يخطبُ يومَ جمعةٍ إذ قام رجلٌ فقال: يا رسولَ الله، هلكتِ الكُرَاعُ، هلكتِ الشاءُ، فادعُ اللهَ يسْقِينا. فمدَّ يديهِ ودعا. قال أنسٌ : وإنَّ السماءَ لمثلُ الزجاجةِ، فهاجتْ ريحٌ أنشأتْ سحابًا، ثم اجتمعَ، ثم أرسلتِ السماءُ عَزَالِيهَا، فخرجنا نخوضُ الماءَ حتى أتينا منازلنا، فلم نزلْ نُمْطَرُ إلى الجمعةِ الأخرى، فقام إليهِ ذلك الرجلُ أو غيره فقال: يا رسولَ الله، تهدَّمَتِ البيوتُ، فادْعُ اللهَ يحبسه. فتبسَّمَ ثم قال : حَوَالَيْنَا ولا علينا. فنظرتُ إلى السحابِ تصدَّعَ حولَ المدينةِ كأنَّهُ إكليلٌ». وفى القرآن الكريم من قَبْل الحجاج وغير الحجاج نصوص تصف الرياح والسحاب والبساتين والبحار. فعبد الحميد ليس ابن عذرتها إذن، بل هو يجرى على طريق ممهد لاحب.

وفى استعمال النثر أيضا فى الرثاء لدينا على سبيل المثال ما قاله أبو بكر فى خطبته غِبَّ وفاة النبى ﷺ ، إذ بعد أن حمد الله وأثنى عليه وصلى على النبى قال:

«يا أيها الناس، إن الله قد نعى نبيكم إلى نفسه وهو حى بين أَظْهُرِكم، ونعاكم إلى أنفسكم فقال: «إنك ميت، وإنهم ميتون»، «وما محمدٌ إلا رسولٌ قد خَلَتْ مِنْ قِبْلِه الرُّسُل. أفإن مات أو قُتِل انقلبتم على أعقابكم؟ ومن ينقلبْ على عَقِبَيه فلن يضرَّ اللهَ شيئا. وسيجزى اللهُ الشاكرين». يا أيها الناس، من كان يعبد الله فإن الله حى لا يموت، ومن كان يعبد محمدا أو يراه إلها فإن محمدا قد مات».

أما استعماله فى النصيحة والإرشاد فها هى ذى نصيحة تلك الأم الجاهلية لابنتها عند توديعها إياها إلى بيت الزوجية: «أَى بُنَيَة، إن الوصية لو تُرِكَتْ لَفضْلٍ فى أدبٍ تركتُ ذلك منك، ولكنها تذكرة للغافل، ومعونةٌ للعاقل. ولو أن امرأةً استغنت عن الزوج لِغِنَى أَبَوَيها وشدة حاجتهما إليها كُنتِ أغنى الناس عنه. ولكنْ للرجال خُلِقْنا ولنا خُلِقوا. أَى بُنَيَة، إنكِ فارقتِ الجوَّ الذى منه خرجتِ، وخلَّفتِ العُشَّ الذى فيه دَرَجتِ، إلى وَكْرٍ لم تعرفيه، وقرينٍ لم تألفيه، فأصبح بملكه إياك عليكِ رقيبا ومليكا، فكونى له أَمَةً يكُنْ لك عبدًا وشيكا. يا بُنَيَة، احملى عنى عشر خصال تكن لك ذُخْرًا وذِكْرا: الصُّحْبة بالقناعة، والمعاشرة بحُسْن السمع والطاعة، والتعاهُد لموقع عينيه، والتفقُّد لموضع أنفه، فلا تقع عيناه منك على قبيح، ولا يشمُّ منك إلا طيب الريح. والكحل أحسن الحُسْن الموجود، والماء أطيب الطِّيب المفقود. والتعاهد لوقت طعامه، والهُدُوُّ عنه حين منامه، فإن حرارة الجوع مَلْهَبة، وتنغيص النوم مغضبة، والاحتفاظ ببيته وماله، والإرعاء على حشمه وعياله، فإن الاحتفاظ بالمال حُسْنُ التقدير، والإرعاء على العيال والحشم حُسْنُ التدبير. ولا تُفْشِى له سرا، ولا تعصى له أمرا، فإنك إن أفشيتِ سره لم تأمنى غدره، وإن عصيتِ أمره أوغرتِ صدره. ثم اتَّقى مع ذلك الفرح إن كان تَرِحًا، والاكتئاب عنده إن كان فَرِحًا. فإن الخصلة الأولى من التقصير، والثانية من التكدير. وكونى أشدَّ ما تكونين له إعظامًا أشدَّ ما يكونُ لك إكرامًا، وأشد ما تكونين له موافَقَةً أطول ما يكون لك مُرافَقَة. واعلمى أنَّكِ لا تصلين إلى ما تُحِبِّين حتى تُؤْثِرى رضاه على رضاك، وهواه

على هواك فيما أحببتِ وكرهتِ. والله يَخِيرُ لكِ». وقد يقال إن النصيحة بهذا الشكل المنمق المزين هى من تحبير العصور التالية. فليكن! لكن النصيحة فى حد ذاتها جاهلية الأصل، والمهم فى المسألة أن اتخاذ النثر وسيلة للنصح والإرشاد هو أمر تعرفه العرب قبل عبد الحميد.

وكيف ننسى مواعظ الرسول عليه السلام فى كل موضوعات النصح والإرشاد؟ لقد كانت دعوته كلها نصحا وإرشادا خلقيا وذوقيا وسلوكيا واجتماعيا واقتصاديا وسياسيا، وقد صب عليه الصلاة والسلام كل هذا فى قالب النثر كما هو معروف كما فى الأحاديث التالية: «لا تحاسَدوا ولا تَناجَشوا ولا تباغَضوا ولا تدابروا، ولا يبِعْ بعضُكُم علَى بيعِ بعضٍ، وَكونوا عبادَ اللهِّ إخوانًا. المسلمُ أخو المسلمِ: لا يظلِمُهُ ولا يخذلُهُ ولا يحقِرُهُ. التَّقوَى ههُنا (ويشيرُ إلى صدرِهِ ثلاثَ مرَّاتٍ). بحَسْبِ امرئٍ منَ الشَّرِّ أن يحقِرَ أخاهُ المُسلمَ. كلُّ المسلمِ علَى المسلمِ حرامٌ: دمُهُ ومالُهُ وَعِرْضُهُ. إنَّ اللهَ لا ينظرُ إلى أجسادِكُم ولا إلى صُوَرِكُم، ولَكِنْ ينظرُ إلى قلوبِكُم (وأشارَ بأصابعِهِ إلى صدرِهِ)»، «عليكم بالصِّدْقِ، فإنَّهُ مع البرِّ، وهُمَا فى الجنةِ. وإياكمْ والكَذِبَ، فإنَّهُ مع الفُجورِ، وهُمَا فى النارِ. وسَلُوا اللهَ اليقينَ والمُعافاةَ، فإنَّهُ لمْ يؤْتَ أحدٌ بعدَ اليقينِ خيرًا من المُعافاةِ. ولا تَحاسَدُوا ولا تَبَاغَضُوا ولا تَقَاطَعُوا ولا تَدابَرُوا، وكُونُوا عِبادَ الله إخْوانًا كَمَا أمَرَكُمُ اللهُ». وعن حنيفة الرقاشى: «كنت آخذا بزمام ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى وسط أيام التشريق أذود عنه الناس، فقال: يا أيها الناس، هل تدرون فى أى شهر أنتم؟ وفى أى يوم أنتم؟ وفى أى بلد أنتم؟ قالوا: فى يوم حرام وبلد حرام وشهر حرام. قال: فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرامٌ كحُرْمَة يومكم هذا فى شهركم هذا فى بلدكم هذا إلى يومِ تَلْقَوْنَه. ثم قال: اسمعوا منى تعيشوا. ألا لا تظلموا، ألا لا تظلموا، ألا لا تظلموا. إنه لا يحلُّ مالُ امرئ مسلم إلا بطِيب نفسٍ منه. ألا وإن كل دم مأثرة ومال كان فى الجاهلية تحت قدمى هذه إلى يوم القيامة. وإن أول دم يوضع دم ربيعة بن الحارث

بن عبد المطلب. كـان مسترضـعا فى بنـى ليـث فقتلتـه هـذيل. ألا وإن كـل ربـا فى الجاهلية موضوع، وإن الله عز وجل قضى أن أول ربا يوضع ربـا العبـاس بـن عبـد المطلـب. «لكـم رؤوس أمـوالكم لا تَظْلِمـون ولا تُظْلَمـون». ألا وإن الزمـان قـد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض. ثم قرأ: «إن عِدَّةَ الشـهورِ عنـد الله اثنا عشر شهرا فى كتاب الله يومَ خَلَقَ السماواتِ والأرضَ منهـا أربعـةٌ حُـرُمٌ. ذلـك الدينُ القَيمُ، فـلا تظلمـوا فـيهن أنفسـكم». ألا لا ترجعـوا بعـدى كفـارا يضرب بعضـكم رقـاب بعـض. ألا إن الشـيطان قـد أَيِـسَ أن يعبـده المصـلون، ولكنـه فى التحريش بينكم. واتقوا الله فى النساء، فـإنهن عنـدكم عَـوَانٍ لا يملكـن لأنفسـهن شيئا، وإن لهن عليكم حقا، ولكم عليهن حقا أن لا يوطِئْن فُرُشَكم أحدا غيركم ولا يأْذَنَّ فى بيوتكم لأحد تكرهونـه. فـإن خفـتم نشـوزهن فعظـوهن واهجـروهن فى المضاجع واضربوهن ضربا غير مبرح. ولهـن رزقهـن وكسـوتهن بـالمعروف. وإنـما أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فُرُوجَهن بكلمة الله عـز وجـل. ألا ومـن كانـت عنده أمانة فَلْيؤَدِّها إلى من ائتمنه عليها. وبسط يديه وقال: ألا هل بلَّغْـتُ؟ ألا هـل بلغت؟ ألا هل بلغت؟ ثم قال: ليبلِّغ الشاهد الغائـب، فإنـه رب مبلَّـغ أسـعد مـن سامع».

وقبل الأحاديث كـان هنـاك القـرآن الكـريم: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى ۙ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ ي ۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ

مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثۡبِيتٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ كَمَثَلِ جَنَّةِۭ بِرَبۡوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٞ فَـَٔاتَتۡ أُكُلَهَا ضِعۡفَيۡنِ فَإِن لَّمۡ يُصِبۡهَا وَابِلٞ فَطَلّٞۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمۡ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٞ مِّن نَّخِيلٖ وَأَعۡنَابٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلۡكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٞ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعۡصَارٞ فِيهِ نَارٞ فَٱحۡتَرَقَتۡۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبۡتُمۡ وَمِمَّآ أَخۡرَجۡنَا لَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلۡخَبِيثَ مِنۡهُ تُنفِقُونَ وَلَسۡتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغۡمِضُواْ فِيهِۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾ ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغۡفِرَةٗ مِّنۡهُ وَفَضۡلٗاۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ﴿٢٦٨﴾ يُؤۡتِي ٱلۡحِكۡمَةَ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُؤۡتَ ٱلۡحِكۡمَةَ فَقَدۡ أُوتِيَ خَيۡرٗا كَثِيرٗاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾ وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوۡ نَذَرۡتُم مِّن نَّذۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُهُۥۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٍ ﴿٢٧٠﴾ إِن تُبۡدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَۖ وَإِن تُخۡفُوهَا وَتُؤۡتُوهَا ٱلۡفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمۡۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ﴿٢٧١﴾ ۞ لَّيۡسَ عَلَيۡكَ هُدَىٰهُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۗ وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَلِأَنفُسِكُمۡۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ ٱللَّهِۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ يُوَفَّ إِلَيۡكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تُظۡلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾ لِلۡفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحۡصِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسۡتَطِيعُونَ ضَرۡبٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ يَحۡسَبُهُمُ ٱلۡجَاهِلُ أَغۡنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعۡرِفُهُم بِسِيمَٰهُمۡ لَا يَسۡـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلۡحَافٗاۗ وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ فَلَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾ [سورة البقرة: الآية 261: 274] ، ﴿بَرَآءَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿١﴾ فَسِيحُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَرۡبَعَةَ أَشۡهُرٖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ غَيۡرُ مُعۡجِزِي ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخۡزِي ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٢﴾ وَأَذَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوۡمَ ٱلۡحَجِّ ٱلۡأَكۡبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ وَرَسُولُهُۥۚ فَإِن تُبۡتُمۡ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ غَيۡرُ مُعۡجِزِي ٱللَّهِۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ

عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ثُمَّ لَمۡ يَنقُصُوكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَمۡ يُظَٰهِرُواْ عَلَيۡكُمۡ أَحَدٗا فَأَتِمُّوٓاْ إِلَيۡهِمۡ عَهۡدَهُمۡ
إِلَىٰ مُدَّتِهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ (٤) فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلۡأَشۡهُرُ ٱلۡحُرُمُ فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ
وَجَدتُّمُوهُمۡ وَخُذُوهُمۡ وَٱحۡصُرُوهُمۡ وَٱقۡعُدُواْ لَهُمۡ كُلَّ مَرۡصَدٖۚ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ
وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ (٥) وَإِنۡ أَحَدٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ
ٱسۡتَجَارَكَ فَأَجِرۡهُ حَتَّىٰ يَسۡمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبۡلِغۡهُ مَأۡمَنَهُۥۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡلَمُونَ (٦)
كَيۡفَ يَكُونُ لِلۡمُشۡرِكِينَ عَهۡدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمۡ
عِندَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۖ فَمَا ٱسۡتَقَٰمُواْ لَكُمۡ فَٱسۡتَقِيمُواْ لَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ (٧)
كَيۡفَ وَإِن يَظۡهَرُواْ عَلَيۡكُمۡ لَا يَرۡقُبُواْ فِيكُمۡ إِلّٗا وَلَا ذِمَّةٗۚ يُرۡضُونَكُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَتَأۡبَىٰ
قُلُوبُهُمۡ وَأَكۡثَرُهُمۡ فَٰسِقُونَ (٨) ٱشۡتَرَوۡاْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلٗا فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِهِۦٓۚ
إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ (٩) لَا يَرۡقُبُونَ فِي مُؤۡمِنٍ إِلّٗا وَلَا ذِمَّةٗۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ
ٱلۡمُعۡتَدُونَ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِۗ وَنُفَصِّلُ
ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ (١١) وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُم مِّنۢ بَعۡدِ عَهۡدِهِمۡ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمۡ
فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ إِنَّهُمۡ لَآ أَيۡمَٰنَ لَهُمۡ لَعَلَّهُمۡ يَنتَهُونَ (١٢) أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوۡمٗا
نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ وَهَمُّواْ بِإِخۡرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ
أَتَخۡشَوۡنَهُمۡۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَوۡهُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ (١٣) قَٰتِلُوهُمۡ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ
بِأَيۡدِيكُمۡ وَيُخۡزِهِمۡ وَيَنصُرۡكُمۡ عَلَيۡهِمۡ وَيَشۡفِ صُدُورَ قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ (١٤)
وَيُذۡهِبۡ غَيۡظَ قُلُوبِهِمۡۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٥) أَمۡ
حَسِبۡتُمۡ أَن تُتۡرَكُواْ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَلَمۡ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا
رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَلِيجَةٗۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ (١٦) ﴾ [سورة التوبة: الآية 1:
16]، ﴿ وَإِذۡ قَالَ لُقۡمَٰنُ لِٱبۡنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ
(١٣) وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ وَهۡنًا عَلَىٰ وَهۡنٖ وَفِصَٰلُهُۥ فِي عَامَيۡنِ أَنِ ٱشۡكُرۡ
لِي وَلِوَٰلِدَيۡكَ إِلَيَّ ٱلۡمَصِيرُ (١٤) وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا
تُطِعۡهُمَاۖ وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗاۖ وَٱتَّبِعۡ سَبِيلَ مَنۡ أَنَابَ إِلَيَّۚ ثُمَّ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ

فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾﴾ [سورة لقمان: الآية13: 19]، ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾ أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ﴿٧﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ﴿٨﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿١١﴾ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿١٧﴾﴾ [سورة المطفِّفين: الآية1: 17].

أما بالنسبة إلى تطويل التحميدات فى أول رسائل عبد الحميد فالتحميدات أوّلًا سمة أسلوبية عربية وإسلامية انتحاها العرب والمسلمون فى كثير جدا من خطبهم ورسائلهم، وليست فارسية. وثانيا يوجد فى رسالة قطرى للحجاج الآنفة الذكر تحميد طويل كما لا بد أنْ قد لاحظ القارئ. ويبقى إكثار عبد الحميد من استعمال الحال فى رسائله، مما يعزوه د. طه حسين، فى كتابه: «من حديث الشعر والنثر»، إلى تأثره بالأسلوب اليونانى مع أن الحال باب من أبواب النحو العربى، ويكثر فى كلام العرب عموما، وليس هو شيئا يونانياً خاصاً بلغة الإغريق كما يريد طه حسين أن يقنعنا. ومع هذا لم يحاول طه حسين أن يبين لنا الطريقة التى يستعمل بها الإغريق الحال حتى نستطيع أن نتابع فكرته ونفهم ماذا يريد أن يقول، بل اكتفى بالكلام المرسل دون أن يسوق شاهدا واحدا عليه. ثم رأيناه ينتقل بغتة إلى أناتول فرانس، الفرنسى لا الإغريقى، وإكثاره من استخدام الحال فى كتاباته وتقديمه له أحيانا وتأخيره له أخرى من غير أن يضرب مثلا فردا يتيما يوضح به فكرته. وقد

تابعه د. أحمد الحوفى، فى كتابه: «أدب السياسة فى العصر الأموي»، فى موضوع الحال هذا دون أن يضيف إليه شيئا، وكأنه كلام مقرر ثابت لا يحتاج إلى برهان يعضده. وكلام د. طه هنا قد يوحى لمن لا يعرفه أنه لا يدرى شيئا عن باب الحال فى النحو العربى ولا تعقيدات صوره التى نلقاها فى النصوص المأثورة عن الشاعِرين والناثرين أو المفترضة التى يبرع بعض النحاة فى تصورها نظريا، رغم أن طه حسين قارئ متعمق فى النحو العربى، ودرس فى صباه وشبابه عددا من كتبه الشهيرة فى الأزهر. لكنها الفتنة بالغرب وبالإغريق.

إن الحال فى النحو العربى يستقل بباب كبير خاص به بعيدا عن ظرف الزمان وظرف المكان والتمييز والمفعول المطلق والمفعول معه والمفعول لأجله على عكس الوضع فى اللغات الأوربية التى نعرفها والتى لا تملك مقابل كل هذه الأبواب سوى الأدفرب: «adverb(e)». كما أن هناك مرونة شديدة عندنا فى اختيار موضع الحال جراء تمتع العربية بميزة الإعراب كما نعرف: فقد يتقدم على صاحبه كقول الشاعر:

لِمَيةَ مُوحِشًا طَلَلُ]]يلُوح كأنه خِلَلُ

وكقولنا: «جاء راكبًا زيدٌ»، وقد يتقدم على ناصبه إذا كان فعلا متصرفا أو صفة تشبه الفعل المتصرف كقولهم: «مخلصًا دعا زيدٌ ربَّه» و«مسرعًا إبراهيمُ راحلٌ»، وقد يسد مسد الخبر كقول العرب: «أكثرُ شُرْبِى السَّوِيقَ ملتوتًا» وقول الرسول: «أقربُ ما يكون العبد من ربه وهو ساجد»، وقد يجيء جامدا أو لازما كما فى المثالين التاليين: «باع فلانٌ منزلَه يدًا بيدٍ» و«خلق الله الزرافةَ يديها أطولَ من رجليها»، أو مصدرا كقولنا: «طلع زيدٌ بغتةً»، أو يأتى صاحبها نكرة (مخصصة بالإضافة) كما فى قوله تعالى: «فى أربعةِ أيامٍ سواءً للسائلين»، أو يكون صاحبها مضافا إليه مع كون المضاف جزءا منه كقوله تعالى: «ونزعنا ما فى صدورهم من غِلٍّ إخوانًا على سُرُرٍ متقابلين»، وقد تتعدد الحال وصاحبها مفرد أو متعدد كما فى هذين

المثالين: «جاء زيدٌ راكبًا ضاحكًا» و«قابلتُ هندا مُصَعِّدًا منحدرةً» و«لقى ابْنِى أخويه خائفًا مُنْجِدَيه» و«رأيت زيدا مصعِّدًا منحدرًا»... وهكذا.

ومع ذلك فإنى لم أجد شاهدا واحدا فى الأحوال التى قابلتها فى كتابات عبد الحميد تقدَّم عن موضعه أو تعدَّد على نحو يربك القارئ فلا يدرى إلى أى شيء أو شخص ينتمى، بل كلها استعمالات عادية واضحة لا يضطرب فى فهمها أحد ولا تحتاج إلى تأويل. كما أن الحال يكاد يختفى من بعض رسائله كما فى رسالته إلى الكتّاب رغم طولها الشديد. فكيف، بعد ذلك كله، يرى طه حسين أن كثرة استعمال عبد الحميد الكاتب للحال فى رسائله بوجه عام دليل على تأثره باليونانية رغم أن كلمة «يونان» أو «إغريق» لم ترد على لسان الرجل بتة، فضلا عن أن يقول هو أو يقول أحد ممن يعرفونه إنه كان يقرأ بلغة أولئك القوم أو حتى بالفارسية؟

نعم لم يؤْثَر عن عبد الحميد أى شيء يدل على أنه يدين للفرس أو الإغريق بشيء، اللهم إلا إشارته العارضة الخاطفة المدسوسة على نحو لا يلفت الانتباه بين عناصر الثقافة العربية والإسلامية إلى أنه ينبغى أن يستفيد الكتاب من أخبار العجم كما أومأنا من قبل. ومن الناحية الأخرى وجدتُ الكلمة التالية فى «البصائر والذخائر» لأبى حيان التوحيدى: «قال عبد الحميد الكاتب: تعلّمتُ البلاغة من مروان بن محمد: أمرنى أن أكتب فى حاجةٍ إلى أخٍ له، فكتبت على قدر الوسع، فقال لى: اكتب ما أقول لك: بسم الله الرحمن الرحيم، أما آن للحرمة أن تُرْعَى، وللدَّين أن يقْضَى، وللموافقة أن تُتَوَخَّى؟». ولنلاحظ ما فى هذه الرسالة القصيرة من الازدواج والسجع وقصر الفقرات، وهى من السمات التى يرى مؤرخو الأدب العربى أنها تميز رسائل عبد الحميد. وفى «ثمار القلوب فى المضاف والمنسوب» للثعالبى و«الوافى بالوَفَيات» لصلاح الدين الصفدى أنه سئل ذات مرة: ما الذى مَكَّنَك من البلاغة وخَرَّجك فيها؟ قال: كلام الأصلع. يعنى على بن أبى طالب رضى الله عنه. فها هو ذا يعزو براعته إلى أصل عربى مسلم لا فارسى. وفى مناسبة

ثالثة قال: «لم أسمع أعجب من قول عمر بن الخطاب رضى الله عنه: لـو أن الشـكر والصبر مطيتان لما باليت أيهما ركبت». وهنا كذلك نراه لا يذكر أنه أخـذ الكتابـة أو بعض شياتها عن فارسى، بل عن شخص عربى، وأى شـخص؟ إنـه عمـر، الـذى يبغضه الفرس بغضا ساما!

أما قول أبى هلال العسكرى إن «من عرف ترتيب المعانى واستعمال الألفـاظ على وجوهها بلغة من اللغات ثم انتقل إلى لغة أخرى تهيأ له فيها من صـنعة الكـلام مثلُ ما تهيأ له فى الأولى. ألا ترى أن عبد الحميد الكاتب استخرج أمثلة الكتابة التى رسمها لمن بعده مـن اللسـان الفارسـى، فحوَّلهـا إلى اللسـان العربـى؟ فـلا يكمـل لصناعة الكلام إلا من يكمـل لإصـابة المعنـى وتصـحيح اللفـظ والمعرفـة بوجـوه الاستعمال» أما قول العسكرى هذا فإنه كلام مرسـل عـام لم يحـاول أن يطبقـه عـلى كتابات الرجـل، ومـن ثـم لـيس بمسـتطاعنا أن نعـرف إلى أى مـدى تصـحّ هـذه الدعوى، بَلْهَ أن تصحّ أصلا. وبالمثل ينقص الدليلُ ما قاله د. أحمد الحوفى، فى «أدب السياسة فى العصر الأموي»، من أنه لا بد أن يكون قد تأثر بالبلاغة الإغريقيـة عـن طريق سالم زوج أخته، والبلاغة الفارسية عن طريق صداقته لابن المقفع، إذ لم يقـدم الأستاذ الدكتور برهانا من الواقع على ما يقول، بل هو مجرد كلام نظـرى. ذلـك أن أسلوب الرجل إنما هو أسلوب عربـى صـميم لـيس فيـه شيء يشـذ عـما نعرفـه فى الأساليب العربية كما رأينا ووضـحنا وشرحنـا، وعـلى هـذا لا نـدرى مـاذا يقصـد العسكرى بهذا الكلام.

ويبقى تطويل الرسائل، وقد سُبِق عبد الحميـد أيضـا إلى ذلـك. فهنـاك مـثلا رسالة من سليمان بن صُرَد إلى سعد بن حذيفة بن اليَمان، وهما من شيعة الحسين من التوابين الذين لذعتهم ضمائرهم جراء إغرائهم الحسـين رضى الله عنـه بالشـخوص إليه كى ينصروه ثم تخليهم عنه حتى قُتِل وجُزَّت رأسه، وهـى رسـالة طويلـة تزيـد على ثلاثين سطرا متوسط كلمات كل سطر منها ثلاث عشرة كلمة. وتسـبق رسـائلَ

عبد الحميد بزمن طويل، بل تسبق ميلادَ عبد الحميد نفسه. كما أنها تراعى الازدواج مراعاة تلفت النظر بقوة. إلا أن الحق يقتضينا أن نقول إن عبد الحميد يطوّل رسائله أحيانا إلى مدى أبعد كثيرا مما تعرفه تلك الشواهد، التى لا شك أنها قد مهدت له السبيل إلى التطويل وأغرته به، فاندفع فيه فى بعض الأحيان اندفاعة عارمة محبرا الصفحات تلو الصفحات، وكأننا بصدد تأليف كتاب وليس تحبير رسالة.

وهذه رسالةٌ أخرى من ذلك النوع الطويل سابقةٌ على رسائل عبدالحميد أيضا بزمن. جاء فى «تاريخ الطبري» أنه «لما قَتَل يزيدُ بنُ الوليدِ الوليدَ بنَ يزيد، ووجّه منصورَ بنَ جمهور إلى العراق كتب يزيدُ بنُ الوليد إلى أهل العراق كتابا يذكر فيه مساويء الوليد، فكان مما كتب به فيما حدّثنى أحمد بن زهير عن على بن محمد: إنّ الله اختار الإسلام دينا وارتضاه وطهّره، وافترض فيه حقوقا أمر بها، ونهى عن أمور حَرَّمَها ابتلاءً لعباده فى طاعتهم ومعصيتهم، فأكمل فيه كلّ منقبة خير وجسيم فضل، ثم تولّاه فكان له حافظا، ولأهله المقيمين حدودَه وَلِيا، يحوطهم ويعرّفهم بفضل الإسلام، فلم يكرم الله بالخلافة أحدا يأخذ بأمر الله وينتهى إليه فيناوئه أحد بميثاق أو يحاول صرف ما حباه الله به أو ينكث ناكث إلّا كان كيده الأوهن، ومكره الأبور حتى يتِمّ اللهُ ما أعطاه، ويدّخر له أجره ومثوبته، ويجعل عدوّه الأضلّ سبيلا، الأخسر عملًا. فتناسخت خلفاء الله ولاة دينه قاضين فيه بحكمه، متبعين فيه لكتابه، فكانت لهم بذلك من ولايته ونصرته ما تمّت به النعم عليهم، قد رَضِى اللهُ بهم لها حتى تُوُفِّى هشام.

ثم أفضى الأمر إلى عدوّ الله الوليد المنتهِك للمحارم التى لا يأتى مثلَها مسلم، ولا يقْدِم عليها كافر تكرُّمًا عن غشيان مثلها، فلما استفاض ذلك منه واستعلن واشتدّ فيه البلاء، وسُفِكَت فيه الدماء، وأُخِذَتِ الأموالُ بغير حقها مع أمور فاحشة لم يكن الله ليمْلِى للعاملين بها إلا قليلا سِرْتُ إليه مع انتظار مراجعته وإعذار إلى الله وإلى المسلمين منكرا لعمله وما اجترأ عليه من معاصى الله، متوخّيا من الله إتمام

الذى نويتُ من اعتدال عمود الدين والأخذ فى أهله بما هو رضًا حتى أتيت جنـدًا، وقد وغرت صدورهم على عدوّ الله لما رأوا من عمله. فإنّ عدوّ الله لم يكن يرى مـن شرائع الإسلام شيئا إلا أراد تبديله، والعمل فيه بغير ما أنزل الله. وكـان ذلـك منـه شائعًا شاملًا عريان لم يجعل الله فيه سترًا، ولا لأحد فيه شـكًّا، فـذكرت لهـم الـذى نقمت وخفت من فساد الدين والدنيا، وحضضتهم على تلافى دينهم والمحاماة عنه، وهم فى ذلك مستريبون قد خافوا أن يكونوا قد أبقوا لأنفسهم بما قاموا عليه، إلى أن دعوتهم إلى تغييره، فأسرعوا الإجابة. فابتعث الله منهم بعثًا يخـبرهم مـن أُولِى الـدين والرضا، وبعثت عليهم عبد العزيز بن الحجاج بن عبد الملك حتى لَقِى عـدوَّ الله إلى جانب قرية يقال لها: البخراء، فدَعَوْه إلى أن يكون الأمـر شـورى: ينظـر المسـلمون لأنفسهم من يقلدونه ممن اتفقوا عليه، فلم يجب عدوّ الله إلى ذلك، وأبى إلا تتايعًا فى ضلالته فبَدَرَهم الحملةَ جهالةً بالله، فوجد الله عزيزا حكـيما، وأَخْـذَه ألـيما شـديدا، فقتله الله على سوء عمله، وعُصْبَتُه ممن صاحبوه من بطانته الخبيثة لا يبلغون عشرـة. ودخل من كان معه سواهم فى الحقّ الذى دُعُوا إليه، فأطفأ الله جمرتـه وأراح العبـاد منه. فبُعْدًا له ولمن كان على طريقته!

أحببتُ أن أُعْلِمكم ذلك، وأعجّل به إليكم لتحمدوا الله وتشكروه، فإنكم قد أصبحتم اليوم على أمثل حالكم، إذ وُلَاتُكـم خِيـارُكم، والعـدل مبسـوط لكـم، لا يسَارُ فيكم بخلافه. فأَكْثِرُوا على ذلك حَمْدَ ربكم، وتابِعوا منصور بـن جمهـور، فقـد ارتضيته لكم على أنّ عليكم عهد الله وميثاقه وأعظم ما عهد وعقـد عـلى أحـد مـن خلقه لَتَسْمَعُنَّ وتطيعُنَّ لى ولمن استخلفتُه من بعدى ممن اتفقت عليـه الأمـة. ولكـم على مثل ذلك: لأعملنّ فيكم بأمر الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، وأتبـع سـبيل مَنْ سَلَفَ من خياركم. نسأل الله ربنا ولينا أحسن توفيقه وخير قضائه».

كما أن لعبد الحميد رسائل قصيرة جدا كـما هـو الحـال حـين سـأله رجـل أن يكتب له كتابا إلى بعض الأكابر يوصيه به، فكتب إليه: «حَـقُّ مُوَصِّـل كتـابى إليـك

كحقه على، إذ رآك موضعًا لأمله، ورآنى أهلًا لحاجته. وقد قضيتُ أنا حاجته، فصَدِّق أنت أَمَلَه». ومنها أيضا الرسالة التالية: «نظرتُ فى الأمر الذى أعاتبك عليه، وألتمسه عندك، إذا هو خفيف المحمل، يسير المؤونة: سواد أنفاس فى بياض قرطاس، تحية تهديها، وسلامة تخبر عنها. فما أولاك بالتعهد!»، وكذلك هذه الرسالة: «أما بعد فالحمد لله، الذى اصطفى الإسلام لنفسه، وارتضاه دينا لملائكته وأهل طاعته من عباده، وجعله رحمة وكرامة ونجاة وسعادة لمن هدى به من خلقه وأكرمهم وفضلهم، وجعلهم بما أنعم عليهم منه أولياءه المقربين وحزبه الغالبين وجنده المنصورين، وتوكل لهم بالظهور والفلج، وقضى لهم بالعلو والتمكين، وجعل مَنْ خالَفه وعَزَبَ عنه وابتغى سبيل غيره أعداءه الأقلين وأولياء الشيطان الأخسرين وأهل الضلالة الأسفلين مع ما عليهم فى دنياهم من الذل والصغار، فأعجل لهم فيها من الخذلان والانتقام إلى ما أعد لهم فى آخرتهم من الخزى والهوان المقيم والعذاب الأليم. إنه عزيز ذو انتقام».

على أن طول رسائله لم يكن مقبولا على الدوام. يقول ابن عبد ربه فى «العقد الفريد»: «ولم أجد أحدًا من الأَلْف يذُمّ الإيجازَ ويقْدَح فيهِ ويعيبه ويطْعن عليه. وتحبُّ العربُ التخفيفَ والحذفَ. ولِهَرَبِها من التثقيل والتطويل كان قَصْرُ الممدود أحبَّ إليها من مدّ المقصور، وتَسْكينُ المتحرّك أخفَّ عليها من تَحْريك الساكن، لأنّ الحركة عَمَلٌ، والسُّكون راحة. وفى كلام العرب الاختصار والإطناب، والاختصار عندهم أحمد فى الجملة، وإن كان للإطناب مَوْضع لا يصْلح إلا له. وقد تُومِيء إلى الشيء فتستغنى عن التفسير بالإيماءة، كما قالوا: لمحةٌ دالّةٌ. كتب عمرو بنُ مَسْعدة إلى ضَمْرة الحَرُورِى كتابًا، فنظر فيه جعفر بن يحيى فَوقَّع فى ظهره: إذا كان الإكثار أبلغَ كان الإيجاز مُقَصِّرًا، وإذا كان الإيجاز كافيا كان الإكثار عِيا. وبَعَث إلى مَرْوانَ بن محمد قائدٌ مِن قُوَّاده بغلام أَسْود، فأَمر عبدَ الحميد الكاتبَ أن يكتبَ إليه يلْحاه

وُيعنِّفه، فكَتب وأَكثر، فاستثقل ذلك مَرْوانُ، وأَخذ الكتاب فوقّع فى أسفله: أَمَا إنك لو عَلِمْت عددًا أقل من واحد ولوناً شرًّا من أسود لبعثتَ به».

وفى القصة التالية إشارة أخرى إلى أن هناك من كان يستثقل طول رسائل كاتبنا ويزرى به. كتب الصفدى فى «الوافى بالوَفَيات»: «تولى عبد الحميد الكتابة لمروان بن محمد بن مروان بن الحكم آخر خلفاء الأمويين. ولما قَوِى أمرُ بنى العباس قال مروان لعبد الحميد: إنا نجد فى الكتاب أن هذا الأمر زائل عنا لا محالة، وسيضْطَرّ إليك هؤلاء القوم، فصِرْ إليهم، فإنى أرجو أن تتمكن منهم فتنفعنى فى مخلفى وفى كثير من أمورى. فقال: وكيف لى بأن يعلم الناس جميعا أن هذا عن رأيك، وكلهم يقول إنى غدرت بك وإنى صرت إلى عدوك؟

أُسِرُّ وفاءً ثم أُظْهِرُ غَدْرَةً — فمَنْ لى بعُذْرٍ يوسِع الناسَ ظاهرُهْ؟

ثم أنشد أيضا:

فلؤمٌ ظاهرٌ لا شكَّ فيه — لِلَائِمِهِ، وعذرى بالمغيبِ

فلما سمع ذلك مروان علم أنه لا يفعل. ثم قال عبد الحميد: إن الذى أمرتَنى به أنفع الأمرين لك وأقبحهما لى. ولك على الصبر إلى أن يفتح الله عليك أو أُقْتَل فى جماعتك. ولكن دعنى أكتب إلى أبى مسلم كتابا إن قرأه على نفسه جَبَّنَه وفَزَّعَه، وإن قرأه على جيشه فَلَّلَه وفَرَّقَه. فكتب إليه طومارا حُمِل على بعير، فوصل الرسول إلى أبى مسلم وهو بالرى، فوضع الكتاب يبن يديه فى سرادقه، وجمع عساكره ووزراءه. فلما حضروا أمر بنار فأُضْرِمَتْ، ثم قال لكاتبه: اقطع من رأس هذا الطومار قدر الراحة. ثم قال: اكتب إلى مروان جوابه:

محا السيفُ أسطارَ البلاغة، وانتحتْ — عليك صدورُ الخيل من كل جانبِ

وسلم الجوابَ إلى الرسول، ثم أمر بالطومار، فوُضِع فى النار، ولم يقرأه ولا فَضَّه».

ولست أقصد من وراء ذلك إلى سلب عبد الحميد فضائله، بل إلى القول بأنه لم ينتهج طريقا مجهولا، بل أقام نظام رسائله على عناصر كانت متوافرة من قبله فى الأدب العربى، إلا أنه جمعها معا وأبرزها وتكثر منها وجعل من هذا وُكْدَه وواظب عليه فى رسائله بوجه عام. ومع هذا هناك من لا يرى عبد الحميد بنفس العين التى يراه بها محبوه ومكبرو شأنه. قال مصطفى الغلايينى فى كتابه: «رجال المعلقات العشر»: «أما الرسائل فكانت فى صدر الإسلام موجزة بليغة، بعيدة عن الصنعة وإعنات القريحة. ولكنها اختلفت كثيرا فى أواخر الدولة الأموية إذ أطالوها وتعمدوا التنميق، فظهرت فيها الصنعة والكلفة. والبادئ بذلك هو عبد الحميد الكاتب زعيم الطبقة الثانية من الكتاب».

كذلك عرف العصر الأموى أيضا فن القَصَص. ولدينا كتاب "أخبار عَبِيد بن شَرِية الجُرْهُمِى فى أخبار اليمن وأشعارها وأنسابها"، الذى سجل فيه عبيدٌ ما كان يقع بينه وبين معاوية بن أبى سفيان من حوارات تاريخية، وكان معاوية قد استقدمه ليستمع منه إلى أخبار ملوك اليمن. ويذكر ابن النديم أن عَبِيدًا وَفَد على معاوية، فسأله هذا عن الأخبار المتقدمة وملوك العرب والعجم وسبب تبلبل الألسنة وأَمْر افتراق الناس فى البلاد، وكان قد استحضره من صنعاء اليمن، فأجابه إلى ما سأل، فأمر معاوية أن يدوَّن ذلك وينْسَب إلى عبيد. وهو الكتاب الذى يؤكد المسعودى أن صاحبه هو الوحيد الذى صح وفوده على معاوية من رواة أخبار الجاهلية. قال: "ولم يصحّ عند كثير من الأخباريين من أخبار من وَفَد على معاوية من أهل الدراية بأخبار الماضين وسير الغابرين العرب وغيرهم من المتقدمين فيها إلا خبر عَبِيد بن شَرِية وإخباره إياه عما سلف من الأيام وما كان فيها من الكوائن والحوادث وتشعُّب الأنساب. وكتاب عَبِيد بن شرِية متداوَل فى أيدى الناس مشهور".

والقصص فيه عبارة عن حوار بين عبيد ومعاوية: يسأله معاوية عن الشيء فى القصة التى يرويها له فيجيبه عما يسأل موردا تفاصيل التفاصيل ذاكرا الأسماء

كاملة مستشهدا بما قاله أبطال القصة من أشعار. ومن هذه القصص قصة هود عليه السلام وقومه عاد. ولا تحظى الأشعار المنسوبة إلى عاد فى تلك القصة بثقة العلماء كابن سلام وغيره، الذى تقوم حجته على أن الله قد أهلك عادا وثمود عن آخرهما بنص القرآن الكريم، فكيف وصلنا شعرهم، ولم يكن هناك من يؤديه إلى الأجيال اللاحقة؟ وقد رددتُ فى الفصل الأول من كتابى: "الأدب العربى – نظرة عامة لبيير كاكيا: عرض ومناقشة"، وعنوانه "ابن سلام والشك فى العشر الجاهلى" على هذا الاعتراض بأن الله حين ذكر لنا أنه سبحانه قد أهلك عادا وثمود فالمقصود أنه أهلك المشركين منهم، إذ لا يعقل أن يهلك معهم نبيهم والمؤمنين به. وهذا منصوص عليه بوضوح تام فى سورة "هود". ومن ثم فليست هناك مشكلة فى وصول أشعار القوم إلى الأخلاف. وإلى جانب ذلك من الممكن جدا أن تقوم القبائل المجاورة لعاد وثمود برواية ذلك الشعر لمن يلى من الأجيال. بيد أن هذا شيء، والقول بأن تلك الأشعار صحيحة بالضرورة شيء آخر. إنما هدفى هو إثبات أن حجة ابن سلام ليست مقبولة فى ذاتها.

وتجرى قصة هود وقومه على النحو التالى. وقد أسقطتُ منها، بغية الاختصار، أشعارا كثيرة بعضها قصائد كاملة طويلة: "قال معاوية: فحَدِّثْنى يا عبيد عن هلاك عاد، وكيف كان هلاكهم؟ قال عبيد: يا معاوية، إنه كان عاد بن عوص بن سام بن نوح، وهو الذى أحدث له عشرة من الولد. وهم شداد، وهو أول من ملك منهم وطال ملكه، وهو الذى عمل إِرَمَ ذات العِمَاد، والخلود، وهم رهط النبى هود صلى الله عليه وسلم، وتيم بن عاد وبر وبهار والعنود والحقود والصور، وهم رهط أبى سعيد المؤمن، وصد، وهم رهط لقمان بن عاد صاحب النسور، ووفد وثمود ومتاب، وهم رهط صاحب السحابات، وأس وفد غار ورمل. وكانت عاد عشر قبائل وكانوا عربا، وكانت مساكنهم الأحقاف، وهى الرمال ما بين حضر موت وبحر عدن. وذلك قول الله تعالى: "واذكر أخا عاد إذ

أنذر قومَه بالأحقاف". وكانوا قد كثروا وانتشروا فى البلاد مـن أرض الـيمن كلهـا وما قاربها من البلاد وقَسَوْا فى البلاد. وكان الله قد أعطاهم بسطة فى الجسم وقوة فى الأبدان وسعة فى الأرزاق ومهلا فى الأعمار لم يعطه أحدا من الخلـق مـن بعـد قـوم نوح. وذلك قول الله عز وجل: "وزادكم فى الخلق بَسْطَة"، وقال سبحانه: "أَمَـدَّكم بأنعام وبنين * وجناتٍ وعيون"، فكفروا ربهم وطَغَوْا بها فضـلهم بـه عـلى غـيرهم فأفسدوا فى الأرض وعَتَوْا عُتُوًّا كبيرًا واغتروا بجهلهم وقالوا لنبيهم هود: "إنْ هذا إلا خُلُق الأولين". وقال الله عز وجل: "وأما عادٌ فاستكبروا فى الأرض بغير الحـق وقالوا: مَنْ أَشَدُّ منا قوة؟"... الآيـة. فلـما كثـر عتـوّهم وكفـرهم، وظهـرت فـيهم المعاصى بعث الله نبيه هُودًا صلى الله عليه حجة عليهم لينذرهم، وكان من أوسطهم بيتا وأكرمهم حسبا وأعزهم رهطا، ليمتنع من سفاهتهم حتـى يبلـغ رسـالات الله. وقد سمعتُ ابن عمك عبد الله بن عباس يقول: إن الله لم يبعث نبيا قط إلى قومـه إلا من أوسطهم بيتا وأعزهم ليمتنـع مـن سـفاهتهم حتـى يبلـغ رسـالات الله. قـال: صدقت يا أخا جرهم. فهل تعرف أحدا من شعراء العرب ذكر هودا فى شعره؟ وإن فى كتاب الله لشفاء من العمى وبيانا من الجهـل، ونحـب أن نـزداد. فـإنى سـمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: إن مـن الشـعر لحكمـة. قـال عبيـد: يـا معاوية، **قال فيه حسان بن ثابت الأنصارى حيث يقول:**

وإن أخـا الأحقـاف إذ يعذلونـه ... يجاهـد فـى ديـن النبـى ويعـذلُ

قال معاوية: صدقت يا ابن شَرِية. فحدثنى حديثك عن عاد. قال: يا معاوية، وكان لعاد أصنام يعبدونها دون الله تسمى: صداء وبغاء وصمود. قال معاوية: فهل قيل فيها شعر؟ قال عبيد: نعم. قال أبو سعيد المؤمن، وهو من بيـت سـعيد، حيـث قال:

لنـا صـنم يقـال لـه: صـمودٌ ... يقابلـه صـداء والبغـاءُ

قال معاوية: صدقت. فخذ فى حديثك عن عاد. قال: فبعث الله إليهم نبيه هودا صلى الله عليه برسالته وداعيا إلى عبادته، فبلغهم الرسالة ونصح لهم ما استطاع، فردوا نصيحته وطرحوا قوله وكرهوا ما جاءهم به. وكان من قولهم ما ذكر الله فى كتابه فى غير آية ولا آيتين: "قالوا: يا هودُ، ما جئتَنا ببينةٍ. وما نحن بتَارِكِى آلهتِنا عن قولك، وما نحن لك بمؤمنين * إنْ نقول إلا اعتراك بعضُ آلهتِنا بِسُوءٍ". قد سمعتُ ابن عمك يقول: أصابك بعض آلهتنا بجنون. قال هود: "إنى أُشْهِد اللهَ، واشهدوا أنى بريء مما تشركون * مِنْ دونه"... الآية. وسمعتُ ابن عمك يقول: إنى بريء من آلهتكم الذين تزعمون أنها أصابتنى بسوء. فأصيبونى بأعظم من ذلك إن أحببتم. وقوله تعالى: "أتبنون بكل رِيع آيةً تعبثون"، يعنى بكل نجد. والرِّيع هو النجد مما ينصبون من الحجارة فى النجاد، وهى للنائى. سمعت ذلك من ابن عمك أيضًا. قال: صدقتَ يا عبيد وجئتَ بالبرهان الواضح، فحدثنى عن هود. قال: نصح لهم هود بجهده وأتاهم بالحق من ربه، فلم يزدادوا إلا طغيانا وكفرا وتماديا فى معصيته. وأسلم مع هود منهم نفر يسير لا يبلغون أربعين رجلا، وأسلم رجل من أشرافهم وساداتهم وذوى أحسابهم يقال له: أبو سعيد بن سعد بن عفير، وكان يكتم إيمانه. وهو رأس الوفود وصاحب البر والتقوى وودها. وقد بلغنى يا معاوية أنه كان سائرا ذات يوم، إذ مر بجماعة منهم فى نادى قومهم فدعاهم إلى الله ووعظهم، فحمل عليه رجل من سفهائهم بحجر فأدمى كعبه، فدعا عليهم هود عليه السلام أن يبتليهم الله بالقحط ويحبس القطر عنهم ثلاث سنين. فاستجاب الله له فحبس عنهم المطر وابتلاهم بالقحط ثلاث سنين حتى جهدهم ذلك.

قال معاوية: لله أنت يا عبيد. فهل قيل فى ذلك شعر؟ قال عبيد: نعم. قال: فأسمعنى ذلك. قال: لما دخلت السنة الأولى عليهم علموا أنها سنة قحط وأزمة فسَمَّوْها: حجرة. **فقال فى ذلك رجل من المسلمين يقال له: "حماد" هذا الشعر:**

وفـى معاصـيه الـردى والحسـرهْ فقـد رَأَوْا منـك عظـيم القـدرهْ

فأجابه رجل من المشركين. قال: وما اسمه؟ قال: اسمه الخلجان بن الـوهم. فأنشأ يقول:

إن الســنين حلــوة ومُــرَّهْ فـــاخرة ولدنـــة مخضـــرَّهْ

فمــرةً جــدبٌ، وخصــبٌ مــرهْ ليســت بنُكْــر ســنة مغــبرَّهْ

معيــنهم ليســت تــدوم العــرهْ وعـــادٌ أُلُـــوهمـــةٍ وخـــبرهْ

محتالــة للكســب ذات قــدرهْ وكلـــهم ذووســـعة يمـــرهْ

لهـــم بعـــز شـــوكة مســـرَّهْ كـــأنهم عنـــد اللقـــاء جمـــرهْ

وهم معا فى الخافقين عِبْرَهْ

قال معاوية: لقد جئتَ بالبرهان فى حديثك يا عبيـد. فـماذا فعلـوا؟ قـال: يـا معاوية، لما تولت عليهن سنون بغمتها وحطمتها، فاشتد فيها قحطهم وهم فى ذلـك غير تائبين ولا مطيعين لنبيهم هود صلى الله عليه، ثم قام رجل من أشرافهـم وذوى أنسابهم يقال له: زميل بن عنز أخو القيل بن عنز، وكان القيل رأس عاد وسيدها فى زمانه وصاحب السحابات والريح التى أهلكت عادا بإذن الله عز وجل، فقام زميل فنادى قومه فقال: يا قوم، إنى فكرت لما نزل بكم من هذا القحط ورأيت رأيا وقلت فيه قولا، وأنا عارض ذلك عليكم إن رأيـتم ذلـك. فقالـت لـه الجماعـة: إن رأيـك لأصيل، وإن فعلك لجميل. فقل نسمع ما تقول. فقام زميل فيهم منشدا هذا الشعر حيث يقول: ...

قال: فلما سمعوا مقالتـه أجمعـوا عـلى المسـير إلى بيـت الله الحـرام يستسـقون الغيث. **قال معاوية**: لله أنت يا عبيد**!** وكيف كانوا يطمعـون أن الله يسـتجيب لهـم، وهم مقيمون على الشرك بالله وعبادة الأصنام؟ قال عبيد: يا معاوية، كان النـاس فى

ذلك الزمان: العرب وغيرهم من المشركين إذا نزل بهم فادحة أو نابهم نائبة أو جهدهم قحط أو غيره فزعوا إلى الله، فيأتون إلى البلد الحرام يطلبون من الله الفرج، فيضعون مسائلهم ويعرفون من الله الاستجابة عند بيته الحرام، فيجتمع بمكة بشر كثير مختلفة أديانهم يطلبون من الله حوائجهم، كلهم عارف بمكة وحرامها، فلا يبرحون حتى يعطى السائل سؤله مما سأل.

قال معاوية: فهل كان فى ذلك الوقت يعْرَف موضعه؟ قال عبيد: نعم يا معاوية. قد كان موضعًا منذ وضعه الله لآدم إلى أن بناه إبراهيم عليه السلام معروفًا مكانه، ولم يزل مبينا يومئذ. فلما أجمعت على المسير إلى مكة ليستسقوا جهزوا من عظمائهم وأشرافهم وذوى أحسابهم سبعين رجلاً، ثم وضعوا على السبعين أربعة منهم قيل بن عنز، وهو رأسهم وصاحب أمرهم، ولقمان بن عاد، وهو صاحب النسور، وأبو سعيد مرثد بن سعد، وهو خير النفر، وجلهمة بن الخيبرى، فساروا حتى أَتَوْا مكة، وسكانها يومئذ العماليق، وهم يومئذ ملوك الحجاز وأرضها، فنزلوا على رجل منهم يقال له: بكر بن معاوية بن بكر وجميع ولده. وكانت أخت لبكر بن معاوية، وهى هزيلة ابنة هزال بن معاوية، متزوجة فى عاد، وزوجها أبو سعيد المؤمن مرثد بن سعد، فولدت عمراً وعامراً وعميرا أبناء مرثد بن سعد. وهى وولدها التى نجت من العذاب يوم الريح. وبنو أبى سعيد هؤلاء هم عاد الآخرة.

فلما قدم وفد عاد إلى الحرم نزلوا على صهرهم بكر بن معاوية وابنه معاوية، وكان منزلهما بظهر مكة خارجا من الحرم، ففرحا بالوفد وأكرماهم وأحسنا منزلتهم عند ابن أختهم معاوية بن بكر. وكان معاوية قد كبر وضعف، وكانت الرئاسة لابنه بعده، فأنزل أخواله وحبسهم عنده شهرا يأكلون الخبز واللحم ويشربون الخمر، وتغنيهم قينتان يقال لهما: الجرادتان. ويقال إنه أول من اتخذ القينات فى الأرض للغناء. وكان أكثرَ العرب مالا فى زمانه. فأقبل وفد عاد فى اللهو والشراب وتركوا ما جاؤوا له. فلما رأى ذلك معاوية بن بكر غمه ذلك وقال: لإن تركتُ أخوالى

وأصهارى إنها لهلككم وهلك من خَلَّفوا من أهلهم وقومهم فى بلادهم، وهم أيضا ضيفى ووجوه قومى، وأنا أستحى أن آمرهم بالشخوص لما قدموا له. فلما طال مُقَامهم ولم ينظروا فى ما قَدِموا له قال شعرا، ثم حفَّظه لجاريتيه وأمرهما إذا انتشى القوم وأخذ فيهم الشراب أن تقوما على رأس كبيرهم وشريفهم قيل بن عنز وتغنياه. فأضاف لهم الطعام والشراب، فلما انْتَشَوْا قامت الجاريتان على رأس قيل بن عنز، وأنشأتا تقولان: ...

قال معاوية: فما فعل الوفد يا عبيد؟ قال: إن الوفد لما أرادوا المسير إلى الكعبة سألوا بكرا وابنه أن يحبسا أبا سعيد، ففعلا وكلماه فى ذلك، فقال: نعم. ووقف عنهم هو ولقمان بن عاد، ومضى سائر الوفد إلى البيت يتقدمهم قيل بن عنز. وصَفّ الوفد حوله ولاذ بالكعبة ودعا وتضرع، فسمع مناديا ينادى من السماء يقول: يا قيل بن عنز، ما جئت تطلب؟ فاسأل تُعْطَ، فقال: جئت أطلب القَطْر الذى ينبت الشجر ويكثر الثمر ويحيا به البشر ويصلح به قومى وبلادى. قال: فأنشأ الله ثلاث سحابات: بيضاء وحمراء وسوداء، ثم قيل له: اختر أيها شئت. قال: أما البيضاء فجهامٌ ليس فيها مطر ولا لغيثها روى. وأما الحمراء فجهام غير أَتِى الذى ينفى السراء ويأتى بالضراء، ولا حاجة لنا فيها. وأما السوداء فكثيرة الماء والروى، معقبة الرخاء، مبلغة المنى، غائظة الأعداء. وقد اخترتها لقومى وبلادى. فناداه المنادى: رمادا أرمد. لا يبقى من عاد بن عوص أحد، لا والدٌ ولا ولد، إلا القبيل الأبعد.

قال معاوية: لله أنت. من يعنى بقوله: إلا القبيل الأبعد؟ قال: من ولد عملوق بن لاوذ، وهى أخت بكر بن معاوية، يعنى هزيلة بنت هزيل العمليقة، وهى أخت بكر بن معاوية، وهى زوجة أبى سعيد المؤمن. وقد بلغنى يا معاوية أن هزيلة كانت امرأة فاضلة فى عقلها وأدبها، وكانت مُحِبَّةً لهود عليه السلام وأصحابه، وتَلْطُف بهم وتوسِّع عليهم فى مالها، وكانت كثيرة المال. وقد كان الإسلام وقع فى قلبها، وهى تكتم ذلك فى قومها، فنجاها الله من العذاب وولدها. وانصرف وفد

عاد إلى منزلهم عند بكر بن معاوية فرحين مسرورين أنهم قد أصابوا الغيث. ولما رجعوا انطلق أبو سعيد المؤمن ولقمان إلى البيت العتيق، فقدم أبو سعيد المؤمن إلى البيت فلاذ بالكعبة ودعا وتضرع **وقال**: رب، إنى جئتك فى حاجتى، فأعطنى سُؤْلِى. فسُمِع منادٍ من السماء يقول: يا أبا سعيد بن مرثد، ما جئت تطلب؟ سَلْ تُعْطَ. قال: جئت أطلب البر والتقوى. فنودى: ألا قد أُوتِيتَهما، ولك بهما الفضل الكبير.

قال معاوية: أَقِيل فى ذلك شعر؟ قال عبيد: نعم يا معاوية. قد قالت العرب فى ذلك أشعارا. فإن أحببتَ أنشدتُكها، وإن شئت فى آخر الحديث، فإنه أصلح لحديثك. قال معاوية: سَمِّعنيها فى آخر الحديث، فهو أحسن. قال: ثم تقدم لقمان بن عاد فلاذ بالكعبة ودعا وتضرع وقال: اللهم إنى لم آتك وافدا إلا لنفسى، فأعطنى سؤلى. فسمع مناديا من السماء يقول: يا لقمان بن عاد، ما جئت تطلب؟ وما تريد؟ فاسأل تعط. **قال**: جئت أطلب العمر. **قال**: فنُودِى: اختر عمر سبعة أنسر حين تنفلق عن الفرخ البيضة أَحَبُّ إليك إلى أن تبقى كثيرا، فإذا هلك نسر أعقب نسر آخر، أو تبقى سبع بقرات سمر، من سنوات عفر، فى جبل وعر، لا يمسها قطر؟ فقال لقمان: بل عمر سبعة أنسر. فنودى أن قد أوتيت سؤلك، ولا سبيل إلى الخلود. فانصرف لقمان وأبو سعيد إلى الوفد فى منزل بكر وابنه، وأقاموا معا حتى أتاهم هلاك عاد.

قال عبيد: وكان هلاك عاد يا معاوية أن السحابة السوداء التى اختارها قيل بن عنز لقومه جعلها الله سبحانه ريحا عقيما عقوبة من الله. وذلك قول الله عز وجل: "وفى عادٍ إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم". **قال**: سمعتُ ابن عباس يقول: إنما عَقُمَتْ من الرحمة ولقحتْ بالعذاب. قال الله سبحانه: "بريح صَرْصَرٍ عاتية". **سمعتُ ابن عباس يقول**: عَتَتْ يومئذ على خَزَنتها خَزَنَة الريح. خرج منها مثل منخر الثور، فبه أهلك الله عادا. قال: وسارت الريح يزْجِيها أمر الله وقدرته معها

جنود الله وملائكته، ملائكة العذاب يقودونها بأَزِمَّة حتى انتهت إلى بلاد عاد، فأتتهم مِنْ قِبَل واد يقال له: "مغيث" كان يأتيهم من قبله الغيث. فلما رأوه فرحوا واستبشروا وطمعوا أنها غيث من قبل الله، ولم يعلموا أنها نكال عليهم وعقوبة. قال الله تعالى: "فلما رَأَوْه عارضًا مستقبِلَ أوديتِهم قالوا: هذا عارِضٌ مُمْطِرُنا. بل هو ما استعجلتم به: ريحٌ فيها عذابٌ أليمٌ * تدمِّر كل شيءٍ بأمر ربها"، وقولهم لنبيهم هود عليه السلام: "فَأْتِنا بما تَعِدُنا إن كنتَ من الصادقين". سمعتُ ابن عباس يفسر ذلك. **قال**: **معاوية**: صدقت. فماذا قال؟ قال: كان أول ما تبين به أنها ريح عقوبة من الله لهم جارية يقال لها: مهد، فإنها لما رأتها صاحت ثم صرخت ثم غُشِى عليها، فاجتمع إليها قومها. فلما استفاقت قامت تنوح وهى تقول:

البليـــة البليـــه ... مـا جنـى الوفـد عليـه

إن وفـد الـريح كـانوا ... شـر وفـد فـى البريـة

أرسـلوا يبغـون غيثًـا ... تركـت عـادا خليـه

سُـخِّرَتْ سـبعا علـيهم ... فـأتوْهم بالبلبَّـه

سـخرت ريـح علـيهم ... تركـت عـادا خليـه

سـخرت سـبعًا علـيهم ... لم تـدع مـنهم بقيـه

ويقال يا معاوية: إنها أول نائحة ناحت فى الأرض. فقال لها قومها: ويحك! ماذا تَرَينَ؟ وماذا دهاك؟ قالت: الويل لعاد، التى طغت فى البلاد، فأكثروا فيها الفساد. أرى رياحًا كأمثال الجبال، لها لُجُمٌ بأيدى رجال، كأن فى وجوههم شهب النار. والرجال الذين ذكرتْ ملائكة الله عز وجل مع الريح. قال معاوية: هل قيل فيه شعر؟ قال عبيد: نعم يا معاوية. قد قال أمية بن أبى الصلت أو النابغة الذبيانى فى ذلك شعرا حيث يقول:

رأت مـا رأت مهـدٌ، فقيـل لهـا ماذا تَرَيْنَ؟ فقالت: أَنْظُر العجبا

أرى رياحًـا كأمثـال الجبـال لهـا لجـمٌ بأيـدى رجـال تشـبه اللـهبا

قال معاوية: خذ فى حديثك. **قال**: فلما تبين لهم أنها ريح عقوبة من الله علـيهم قاموا إلى صعيد واحد ووضعوا العيال والـذرارى. قـال: ثـم بَنَـوْا علـيهم بالأبنيـة والمتاع كالردم العظيم فوقهم ليقيهم بزعمهم مـن الـريح، فـاجتمع جميـع أُلِى القـوة والجَلَد والبأس وصَـفُّوا بيـنهم وبـين الـريح عـلى فـم وادٍ، وانتـدب مـنهم رجـال كالأطواد العظام، وهم عمرو بن خلى والحارث بن أسد والمقدم بن سفر والخلجـان بن الوهم وصيد بن سعيد وزميل بن عمرو وزمر بـن أسـود، فـبرزوا دون قـومهم وقالوا: نردّ هذه الريح عنكم.

قال معاوية: فما كان من أمر هود عليه السلام؟ قال عبيد: إن هودا كان فيهم، وكان يدعوهم إلى طاعة الله. فلما رأى أن العذاب قد نزل بهم وعلم أن الله مُهْلِكهـم اعتزل عنهم فى ثلاثين رجلا ممن أسلم معه، وانطلقوا حتى وقفوا على حظـيرة عـلى تل قريب من الوادى يسمعون كلامهم وينتظـرون مـا الله فاعـل بهـم. فلـما انتهـت الريح إلى عاد قام عمرو بن خلى أحـد الجبـابرة السـبعة، وهـو رأسـهم، فـبرز دون أصحابه يلقى الريح، وأنشأ يقول: ...

فسمع هود صلى الله عليه وسلم هو وأصحابه المسلمون قوله، فأجابـه رجـل منهم وأنشأ يقول: ...

قال: ثم عصف الريح بعمرو بن خلى، فقام مقامه الحارث بن أسد وأنشأ يقول:

يـا عـادُ، إن العـز فيكم قـد رسخْ وقـــد نشـــا فيكمـــو وقـــد شمـــخ

كسقرة عتقتها بعد الفتح

فصرعته الريح. قال: ثم قام مقامه المقدم بن السفر وأنشأ يقول:...

فصرعته الريح. فقام مقامه زمر بن أسود وأنشأ يقول: ...

ثم صرعته الريح مع أصحابه، فهلكت الجبابرة السبعة بإذن الجبار.

ولقد بلغنى يا معاوية أن أحدهم كان يلقى الجارى بيديه فلا يجرى. ثم عصفت الريح على جماعة آل عاد فأهلكتهم بقدرة الله تعالى، لم تدع منهم عينا تطرف لا صغيرا ولا كبيرا. ثم طفقت الريح تقلب أجسامهم بين السماء والأرض فى الجو مُصْعِدين ومنحدرين سبع ليال وثمانية أيام حسومًا حتى تركتهم كأنهم أعجاز نخل خاوية. وذلك قول الله عز وجل: "كأنهم أعجازُ نخلٍ خاوية"، وهدمت البيوت وتركتهم كأنهم جذوع النخل اليابسة، وخرَّبت القصور والحيطان والبساتين. اقتلعتها من أصولها حتى كأنها لم تكن على وجه الأرض ولم تترك منهم أحدا إلا هزيلة بنت هزال العمليقة وبنيها، وهى امرأة أبى سعيد، فإن الله نجاهم من العذاب بإيمان أصحابهم. وأمر الله سبحانه وتعالى الريح فحملتهم برفق وشفقة هى وولدها لم تؤذهم ولم تضرهم حتى أتت بهم مكة، فألقتهم فى منزل بكر بن معاوية الذى فيه وفد عاد وأصحابه.

قال: فبينما القوم فى لهوهم ولذتهم إذ أقبلت هزيلة ببنيها حتى هجمت على عمها الشيخ بكر بن معاوية فى منزله. فلما رآها فزع منها فزعا شديدا وقال: ويحك**!** ما دهاك؟ وما وراءك؟ ومن قدم معك من أصحابك؟ فاستعبرت هزيلة باكية وقالت: الخبر أفظع وأوجع وأجزع من أن أصفه لك. قال: ويحك**!** خبرينى ما ذاك، فقد أكثرتِ وَجْدِى؟ قالت: وأين وفد عاد؟ قال: هم أولاء فى منزل ابنى معاوية. قالت: ما فعلوا؟ قال: فزعوا إلى بيت ربهم، فأعطى السائل منهم سؤله. قالت: كلا ورب الكعبة. قد أُعْطُوا الخزى الطويل والذل الذليل. قال: ثكلتكِ أمك يا هزيلة**!** أخبرينى: ما ذاك؟ قالت: ما أنا مخبرتك بشيء حتى تحضر إلى جميع الوفد. فأرسل إليهم بكرا، فأخبرهم بمكان هزيلة، فأقبلوا يبتدرون فزعين مرعوبين. فلما توافَوْا عندها قالوا لها: ويحك**!** أخبرينا: ما الذى جاء بك؟ ومن جاء بصحبتك؟وما وراءك؟ وكيف تركت قومك؟ قالت: بل أخبرونى عن مسيركم وأمركم.

فأخبروها، قالوا: سرنا شهرا، وأقمنا شهرا عند عمك وابنه، ثم فزعنا إلى البيت العتيق، فأُعْطِى السائل منا سؤله، وقد توجهت السحابة نحوكم بالغيث. فما عندك من الخبر؟ فقالت هزيلة: إن الخبر أفظع وأشد وأوجع من أن أُسْمِعَكموه قِيلًا، ولكنى سأقول شعرا وأرويه الجرادة تُسْمِعُكموه. فقالت هزيلة هذا الشعر: ...

وقال أسد بن ناعض يذكر أمر الوفد والسحابات والتخيير على حديث مرثد بن سعد يقول فيه شعرا: ...

وقال المهيل بن ناعض المسلم رحمه الله تعالى رحمة واسعة: ...

وقالت هزيلة بعد مصيرها إلى عمها حين نظرها تبكى على عاد وهى تقول:

قال: فلما سمعوا قولها يا معاوية وعلموا ما أنزل الله بقومهم من العذاب والعقوبة ورأى أبو سعيد مرثد بن سعد ما صنع الله له إذ نجى أهله، وإذ هم إليه سالمون، ازداد إيمانا ويقينا بالله وأظهر إسلامه عند ذلك. وأنشأ يقول: ...

وكان لأبى سعيد أخ يقال له: جنحوى بن سعد، وكان كافرا غاشًّا متبعا لعاد، ولم يكن رأيه رأى أخيه. وكانت له امرأة من قومه يقال لها: جفينة، لها منه ابن يقال له: عفير، وابنة يقال لها: عنجهور ، فسأل أبو سعيد امرأته عن أخيه وأهله، فأخبرته بهلاكهم وكيف رأت الريح تفعل بهم، فرَقَّ لهم عند ذلك، وأنشأ يرثيهم وهو يقول: ...

قال معاوية: لله دَرُّك! فقد جئت بالبرهان. فما فعل أبو سعيد؟ وما كان من هود وأصحابه؟ قال عبيد: يا معاوية، تحمَّل أبو سعيد بأهله وولده حتى أتى هودا وأصحابه مؤمنا مسلما، ووجدهم على ساحل البحر مما يلى أرض عاد، فأقاموا جميعا يعبدون الله على أحسن حال. ووهب الله لأبى سعيد المال والولد حتى كان أكثر العرب مالا وولدا فى زمانه ذلك. وبلغنا يا معاوية أن عادا الآخرة من نسله. قال معاوية: وهل من عاد غير هذه؟ قال: نعم يا معاوية. فإن أحببت أخذتُ فى الحديث

حتى آتى بحديثهم. قال: بل خذ فى حديثك. قال عبيد: كان هود وأصحابه يعبدون الله حتى ماتوا وانقرضوا".

ومن قصاصى العصر الأموى أيضا وهب بن منبه اليمنى (ت حوالى 110هـ). وكان من أهل الكِتَاب وأسلم. ويحكى عنه قوله: قرأت من كتب الله اثنين وسبعين كتابا. ولا ندرى أية كتب هذه. وكنا نحب أن يسمى لنا أسماء تلك الكتب، إن صح أنه هو الذى قال هذا الكلام فعلا، ولم ينسبه أحد إليه على غير الحقيقة. ومما ينسب إليه من الأقاصيص الحكاية التالية: "سأل رجل وهب بن منبه عن رجل استُعْمِل على عمل ففُرِض له رزق، فلم يعْدُ الذى فرض له. قال وهب: إنى سأضرب لك مثلاً. أخبرنى عن رجل تلصص زمانا، حتى إذا كبر وجلس فى بيته أتاه شاب فقال: إنك قد جربت اللصوصية، فعَلِّمْنى، فما أصبتُ من شيء فبينى وبينك. **فقال له الشيخ**: إنى أخاف أن أعلّمك فتصيب فلا تقسم لى. فجعلا بينهما أمينا: ما أصاب من شيء فبين الشيخ واللص والأمين. أى هؤلاء شر؟ **قال**: كلهم سواء". ومن القصص المنسوبة إليه أيضا أنه "قرأ، فيما قرأ من الكتب، أن الله تعالى لما لعن إبليس وأخرجه من الجنة قال: يا رب، لعنتَنى وجعلتَنى شيطانا رجيما، وأنزلتَ الكتاب وبعثتَ الرسل، فما رسلى؟ قال: رسلك الكهنة. **قال**: فما كتابى؟ قال: الوشم. **قال**: فما حديثى؟ **قال**: حديثك الكذب. **قال**: فما قراءتى؟ **قال**: قراءتك الشعر. قال: فما مؤذِّنى؟ قال: مؤذنك المزامير. قال: فما مسجدى؟ **قال**: مسجدك السوق. قال: فما بيتى؟ قال: بيتك الحَمَّام. قال: فما طعامى؟ قال: طعامك كل ما لم يذْكَر اسمى عليه. قال: فما شرابى؟ قال: شرابك كل مُسْكِر. قال: فما مصائدى؟ **قال**: مصائدك النساء".

ومن قصصه كذلك أن "آدم عليه السلام لبث فى السخطة سبعة أيام، ثم إن الله تعالى أطلعه فى اليوم السابع وهو منكس محزون كظيم، فأوحى الله إليه: يا آدم، ما هذا الجهد الذى أراك فيه اليوم؟ وما هذه البلية التى قد أجحف بك بلاؤها وشقاؤه؟ قال آدم: عظمت مصيبتى يا إلهى، وأحاطت بى خطيئتى، وخرجتُ من ملكوت ربى

فأصبحتُ فى دار الهوان بعد الكرامة، وفى دار الشقاوة بعد السعادة، وفى دار العناء والنَّصَب بعد الخفض والدعة، وفى دار البلاء بعد العافية، وفى دار الظعن والزوال بعد القرار والطمأنينة، وفى دار الفناء بعد الخلد والبقاء، وفى دار الغرور بعد الأمن. إلهى، فكيف لا أبكى على خطيئتى؟ أم كيف لا تحزننى نفسى؟ أم كيف لى أن أجتبر هذه البلية والمصيبة يا إلهى؟ قال الله تعالى له: ألم أَصْطَفِك لنفسى، وأحللتُك دارى، واصطفيتُك على خلقى، وخَصَصْتُك بكرامتى، وألقيت عليك محبتى، وحذّرتك سخطى؟ ألم أباشرك بيدى، وأنفخ فيك من روحى، وأُسْجِد لك ملائكتى؟ ألم تك جارى فى بحبوحة جنتى تتبوأ حيث تشاء من كرامتى، فعَصَيتَ أمرى ونَسِيتَ عهدى وضيعت وصيتى؟ فكيف تستنكر نقمتى؟ فوعزتى وجلالى لو ملأتُ الأرض رجالا كلهم مثلك "يسبّحون الليل والنهار لا يفْتُرون" ثم عَصَوْنى لأنزلتهم منازل العاصين. وإنى قد رحمت ضعفك وأَقَلْتُك عَثْرَتك وقبلت توبتك وسمعت تضرعك وغفرت ذنبك، فقل: لا إله إلا أنت. سبحانك اللهم وبحمدك. ظلمتُ نفسى وعملتُ السوء، فتب على . إنك أنت التواب الرحيم. فقالها آدم، ثم قال له ربه: قل: لا إله إلا أنت. سبحانك اللهم وبحمدك. ظلمت نفسى وعملت السوء، فاغفر لى. إنك أنت الغفور الرحيم. فقالها آدم. ثم قال له ربه: قل: لا إله إلا أنت. سبحانك اللهم وبحمدك. ظلمت نفسى وعملت السوء، فارحمنى. إنك أرحم الراحمين. قال: وكان آدم قد اشتد بكاؤه وحزنه لِمَا كان من عِظَم المصيبة حتى أن كانت الملائكة لتحزن لحزنه وتبكى لبكائه، فبكى على الجنة مائتى سنة، فبعث الله إليه بخيمة من خيام الجنة فوضعها له فى موضع الكعبة قبل أن تكون الكعبة".

ومن أولئك القصاصين كذلك الحسن البصرى (ت110هـ)، ولم يكن يتخلل قصصه أية إسرائيليات. وكان يجلس فى آخر المسجد بالبصرة ويقص على الناس ويعظهم ويجيب على أسئلتهم. وقد عظمت هيبة الحسن البصرى فى القلوب، فكان يدخل على الولاة فيأمرهم وينهاهم لا يخاف فى الحق لومة لائم. ويوصف بأنه كان غاية

فى الفصاحة، تتدفق الحكمة من فيه. وتُحْكَى له مع الحجاج بن يوسف الثقفى مواقف، وقد سلم من أذاه. وتُرْوَى عنه القصة التالية: "دخلتُ على بعض المجوس وهو يجود بنفسه عند الموت، وكان منزلهُ بإزاء منزلى، وكان حسن الجوار، وكان حسن السيرة حسن الخلق، فرجوتُ الله تعالى أن يوفّقه عند الموت ويميته على الإسلام، فقلت له: ما تجد؟ وكيف حالك؟ فقال: لى قلبٌ عليلٌ ولا صحّةَ لى، وبدنٌ سقيمٌ ولا قوةَ لى، وقبرٌ مُوحِشٌ ولا أنيسَ لى، وسفرٌ بعيدٌ ولا زادَ لى، وصراطٌ دقيق ولا جوازَ لى، ونارٌ حاميةٌ ولا بدنَ لى، وجَنَّةٌ عاليةٌ ولا نصيبَ لى، وربٌّ عادلٌ ولا حُجَّةَ لى. قال الحسن: فرجوتُ الله أن يوفّقه. فأقبلت عليه وقلت له: لم لا تُسْلِم حتى تَسْلمَ؟ قال: يا شيخ، إنَّ المِفتاح بيدِ الفتّاح، والقُفْل هاهنا. وأشار إلى صدره، وغُشِى عليه. قال الحسن: فقلت: إلهى وسيدى ومولاى، إن كان سَبَقَ لهذا المجوسى عندك حسنةٌ فعجِّل بها إليه قبل فراق روحه من الدنيا وانقطاع الأمل. فأفاق من غشيته وفتح عينه، ثم أقبل وقال: يا شيخ، إن الفتَّاح أرسل المفتاح. اُمْدُد يمناك، فأنا أشهد ألا إله إلا الله، وأشهد أن محمدا رسول الله. ثم خرجتْ روحُه، وصار إلى رحمة الله".

وتروى عن الحسن البصرى كلمات سائرة منها قوله: إن قوما ألهتهم أمانى المغفرة رجاء الرحمة حتى خرجوا من الدنيا وليست لهم أعمال صالحة، يقول أحدهم: "إنى لَحَسَنُ الظن بالله، وأرجو رحمة الله"، وكذب. ولو أحسن الظن بالله لأحسن العمل لله، ولو رجا رحمة الله لطلبها بالأعمال الصالحة. يوشك من دخل المَفَازَة من غير زاد ولا ماء أن يهلك. وجاء شاب إلى الحسن فقال: إنى أعصى الله وأُذْنِب، وأرى الله يعطينى ويفتح على من الدنيا، ولا أجد أنى محروم من شيء. فقال له الحسن: هل تقوم الليل؟ فقال: لا. فقال: كفاك أنْ حَرَمك الله مناجاتَه. وقال له رجل: إن قوما يجالسونك ليجدوا بذلك إلى الوقيعة فيك سبيلا. فقال: هَوِّنْ عليك يا هذا، فإنى أطمعتُ نفسى فى الجِنَان فطمعتْ، وأطمعتُها فى النجاة من النار فطمعتْ، وأطمعتها فى

السلامة من النـاس فلـم أجـد إلى ذلـك سـبيلا. فـإن النـاس لم يرْضَـوْا عـن خـالقهم ورازقهم، فكيف يرْضَوْن عن مخلوق مثلهم؟".

ومن هذه الكلمات أيضا رده على عمر بن عبد العزيز عندما ولى الخلافـة وكتـب إليه: إنى قد ابْتُلِيتُ بهذا الأمر، فانظر لى أعوانًا يعينوننى عليه. فأجابه الحسن: أمـا أبنـاء الدنيا فلا تريدهم، وأما أبناء الآخرة فلا يريدونك، فاستعن بالله. ومنها أيضـا قولـه: إذا أراد الله خيرًا بعبد لم يشغله بأهل ولا ولد، وقوله: لا تشتر مَوَدَّة أَلْف رجل بعداوة رجل واحد. وحين سئل: هل بالبصرة منافق؟ قال: لو خـرج المنـافقون منهـا لاستوحشـتْ. وهذا الرد الأخير ردٌّ فَكِهٌ على ما فيه من مرارة. ولا شـك أن فى الكـلام مبالغـة كبـيرة، ومفهومة أيضا. فالمبالغة أسلوب من أساليب البلاغة يستعمل للتأكيـد والتشـديد. أمـا قوله إن الله إذا أراد بعبد خيرا لم يشغله بأهل ولا ولد فـلا نتفـق معـه لأن اتخـاذ زوجـة وإنجاب أولاد هو تعمير للدنيا وانصياع لأمـر الله ورسـوله، عـلاوة عـلى أن الإنسـان السوى لا يمكنه أن يعيش دون امرأة ولا يطيق ألا يكون له أولاد. ثم أية حياة تلك التى يعيشها الإنسان لنفسه وحده، إن استطاع ذلك، وهو غير مسـتطيع؟ كـذلك لا يمكـن الإنسان، مهما يكن حكيما صبورا مسالما محبا للآخـرين حريصـا عـلى البعـد عـن وجـع الدماغ، أن ينجو من معاداة هذا وذاك وذلك، وإلا لكـان الأنبيـاء والمرسـلون أول مـن يستطيعونه. ونحن نعرف أنه ما من نبى إلا كان له أعداء كثيرون أكثر من سواه. ويبقى رده على عمر بن عبد العزيز، وهو رد ظريف لكنه لا يفيد بشيء، إذ معناه أنك يا عمر لن تجد من يعينك أبدا. فالله سبحانه لن ينزل من عليائه ليعين عمـر معونـة مبـاشرة، وإنـما يعيننا الله من خلال الناس. فإذا عدم الناس فلا عون. ثم هل كان عمـر ليصـمت عـلى تلك النصيحة اللامجدية بل العبثية فلا يعقِّب عليها؟

نبذة عن المؤلف

إإبراهيم محمود عوض.

من مواليد قرية كتامة الغابة ــ غربية فى 6/ 1/ 1948م.

تخرج من آداب القاهرة عام 1970م.

حصل على الدكتورية من جامعة أكسفورد عام 1982م.

أستاذ النقد الأدبى بجامعة عين شمس.

البريد الضوئى: (ibrahim_awad9@yahoo.com).

المؤلفات:

معركة الشعر الجاهلى بين الرافعى وطه حسين.

المتنبى - دراسة جديدة لحياته وشخصيته.

لغة المتنبي- دراسة تحليلية.

المتنبى بإزاء القرن الإسماعيلى فى تاريخ الإسلام (مترجم عن الفرنسية مع تعليقات ودراسة).

المستشرقون والقرآن.

ماذا بعد إعلان سلمان رشدى توبته؟ دراسة فنية وموضوعية للآيات الشيطانية.

الترجمة من الإنجليزية - منهج جديد.

عنترة بن شداد - قضايا إنسانية وفنية.

النابغة الجعدى وشعره.

من ذخائر المكتبة العربية.

السجع فى القرآن (مترجم عن الإنجليزية مع تعليقات ودراسة).

جمال الدين الأفغانى - مراسلات ووثائق لم تنشر من قبل (مترجم عن الفرنسية).

فصول من النقد القصصي.

سورة طه - دراسة لغوية وأسلوبية مقارنة.

أصول الشعر العربى (مترجم عن الإنجليزية مع تعليقات ودراسة).

افتراءات الكاتبة البنجلاديشية تسليمة نسرين على الإسلام والمسلمين — دراسة نقدية لرواية «العار».

مصدر القرآن - دراسة لشبهات المستشرقين والمبشرين حول الوحى المحمدي.

نقد القصة فى مصر من بداياته حتى 1980م.

د.محمد حسين هيكل أديبا وناقدا ومفكرا إسلاميا.

ثورة الإسلام - أستاذ جامعى يزعم أن محمدا لم يكن إلا تاجرا (ترجمة وتفنيد).

مع الجاحظ فى رسالة «الرد على النصاري».

كاتب من جيل العمالقة: محمد لطفى جمعة — قراءة فى فكره الإسلامي.

إبطال القنبلة النووية الملقاة على السيرة النبوية - خطاب مفتوح إلى الدكتور محمود على مراد فى الدفاع عن سيرة ابن إسحاق.

سورة يوسف - دراسة أسلوبية فنية مقارنة.

سورة المائدة - دراسة أسلوبية فقهية مقارنة.

المرايا المشوِّهة - دراسة حول الشعر العربى فى ضوء الاتجاهات النقدية الجديدة.

القصاص محمود طاهر لاشين - حياته وفنه.

في الشعر الجاهلى – تحليل وتذوق.

فى الشعر الإسلامى والأموي- تحليل وتذوق.

فى الشعر العباسى ــ تحليل وتذوق.

فى الشعر العربى الحديث- تحليل وتذوق.

موقف القرآن الكريم والكتاب المقدس من العلم.

سورة النورين التى يزعم فريق من الشيعة أنها من القرآن الكريم- دراسة تحليلية.

منكرو المجاز فى القرآن والأسس الفكرية التى يستندون إليها.

أدباء سعوديون.

شعر عبد الله الفيصل- دراسة فنية تحليلية.

دراسات فى المسرح.

دراسات دينية مترجمة عن الإنجليزية.

د.محمد مندور بين أوهام الادعاء العريضة وحقائق الواقع الصلبة.

دائرة المعارف الإسلامية الاستشراقية – أضاليل وأباطيل.

شعراء عباسيون.

من الطبرى إلى سيد قطب – دراسات فى مناهج التفسير ومذاهبه

القرآن والحديث – مقارنة أسلوبية.

اليسار الإسلامى وتطاولاته المفضوحة على الله والرسول والصحابة.

محمد لطفى جمعة وجيمس جويس.

«وليمة لأعشاب البحر» بين قيم الإسلام وحرية الإبداع – قراءة نقدية.

لكن محمدا لا بواكى له - الرسول يهان فى مصر ونحن نائمون.

مناهج النقد العربى الحديث.

دفاع عن النحو والفصحى - الدعوة إلى العامية تطل برأسها من جديد.

عصمة القرآن الكريم وجهالات المبشرين.

الفرقان الحق - فضيحة العصر.

لتحيا اللغة العربية يعيش سيبويه.

التذوق الأدبي.

الروض البهيج فى دراسة «لامية الخليج».

المهزلة الأركونية فى المسألة القرآنية.

سهل بن هارون وقصة النمر والثعلب - فصول مترجمة ومؤلفة.

«تاريخ الأدب العربي» للدكتور خورشيد أحمد فارق: عرض وتحليل ومناقشة (مع النص الإنجليزى).

الأسلوب هو الرجل - شخصية زكى مبارك من خلال أسلوبه.

فنون الأدب فى لغة العرب.

الإسلام فى خمس موسوعات إنجليزية (نصوص ودراسات).

فى الأدب المقارن - مباحث واجتهادات.

مختارات إنجليزية استشراقية عن الإسلام.

نظرة على فن الكتابة عند العرب فى القرن الثالث الهجرى (مترجم عن الفرنسية).

فصول فى ثقافة العرب قبل الإسلام.

بعد الحادى عشر من سبتمبر 2001- ماذا يقولون عن الإسلام؟ (نصوص وردود).

دراسات فى النثر العربى الحديث.

«مدخل إلى الأدب العربي» لهاملتون جب - قراءة نقدية (مع النص الإنجليزى).

مسير التفسير ـــ الضوابط والمناهج والاتجاهات.

«الأدب العربى - نظرة عامة» لبيير كاكيا: عرض ومناقشة (مع النص الإنجليزى)

بشار بن بُرْد - الشخصية والفن.

الحضارة الإسلامية - نصوص من القرآن والحديث ولمحات من التاريخ

فى التصوف وأدب المتصوفة.

النساء فى الإسلام - نَسْخ التفسير البطرياركى للقرآن (النص الإنجليزى مع دراسة موازية).

الإسلام الديمقراطى المدنى - الشركاء والموارد والإستراتيجيات (ترجمة تقرير مؤسسة راند الأمريكية لعام 2003م عن الإسلام والمسلمين فى أرجاء العالم).

محاضرات فى الأدب المقارن.

من قضايا الدراسة الأدبية المقارنة.

ست روايات مصرية مثيرة للجدل.

هوامش على «تاريخ العرب» لفيليب حتي.

أفكار مارقة: قراءة فى كتابات بعض العلمانيين العرب.

موسم الهجوم على الإسلام والمسلمين - مع «قسمة الغرماء» ليوسف القعيد و«تيس عزازيل فى مكة» ليوتا.

«القرآن والمرأة» لأمينة ودود - النص الإنجليزى مع ست دراسات عن النسوية الإسلامية.

عبد الحليم محمود - صوفى من زماننا.

د. ثروت عكاشة - إطلالة على عالمه الفكري.

ثروت عكاشة بين العلم والفن.

إسلام د. جيفرى لانج: التداعيات والدلالات - قراءة فى كتابه: «النضال من أجل الاستسلام».

دراسات فى اللغة والأدب والدين.

«مدخل إلى الأدب العربي» لروجر ألن - عرض وتقويم.

على هامش كتاب جوزيف هل: «الحضارة العربية» .

ابن رشد- نظرة مغايرة.

تاريخ الأدب العربى من العصر الجاهلى إلى نهاية العصر الأموي.

علاوة على الدراسات والكتب المنشورة فى المواقع المشباكية المختلفة.